

عالم الفكر

- الهجرة وأسطورة العودة
- الهجرة وانتقال الأيدي العاملة
- الهجرة بين الماضي والمستقبل
- البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة

"مجلة عالم الفكر" قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية : -

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام - الكويت - ص. ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٦
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الهجرة والهجرة المعاكسة

- | | | |
|-----|-------------------------------|---|
| ٣ | بقلم : مستشار التحرير | التمهيد : الهجرة وه أسطورة العودة |
| ٢٣ | الدكتور باقر سلمان التاجر | الهجرة وانتقال الأيدي العاملة |
| ٤٣ | الدكتور عبد الرسول علي الموسى | الهجرة والهجرة المعاكسة |
| ٧٥ | الدكتور محمد صادق | نموذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي |
| ١٠٩ | الدكتورة أمل يوسف الصباح | الهجرة والهجرة المعاكسة في الكويت |
| | | البيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة الدولية |

...

شخصيات وآراء

- | | | |
|-----|---------------------|-----------------------------|
| ١٦٣ | الدكتور عمر الدقاني | اللغة المحكية في أدب الجناح |
|-----|---------------------|-----------------------------|

...

مطالعات

- | | | |
|-----|---------------------|--------------|
| ١٨٧ | الدكتور محمد أسويدي | حضرة المحترم |
|-----|---------------------|--------------|

...

من الشرق والغرب

- | | | |
|-----|--------------------------|-----------------------|
| ٢٢٣ | السيد محمود حلمي | بداية الكتابة العربية |
| ٢٦١ | الدكتور مصباح أحمد الصمد | مصر والولادة الثانية |

...

صدر حديثاً

- | | | |
|-----|---------------------------------------|---------------------------------------|
| ٢٩٩ | تأليف الأستاذ : عبد المنعم السيد عشري | تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم |
| | عرض وتحليل : الدكتور كارم السيد غنيم | |
| ٣١٩ | عرض وتحليل : السيد علوط محمد | نظام الخطاب وإرادة المعرفة |

مجلس الإدارة

- حمد يوسف الرومي (رئيساً)
- د. أحمد أبو زيد
- د. رشاد حمود الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشووط
- د. نورية الرومي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

تمهيد

كانت الهجرات البشرية - ولا تزال - تؤلف واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ، ولذا فإنها استرعت - ولا تزال تسترعي انتباه المتخصصين في مختلف مجالات الدراسات الانسانية وبوجه أخص الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، نظرا لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه والمجتمع الذي انتهت اليه على السواء . وعلى الرغم من قدم هذه الظاهرة فإن هذه التحركات البشرية تتم الآن على نطاق أوسع بكثير جدا مما كان يحدث في الماضي ، ربما باستثناء بعض حالات قليلة ، وأصبحت تتعدى كل الحدود الوطنية والإقليمية وتشمل فئات متفاوتة ومتباينة من الناس من كل الأعمار والجنسيات والأعراق والسلالات والمستويات الثقافية والاقتصادية والتخصصات المهنية . وساعد على ازدياد هذه التحركات ظهور مناطق جديدة للجذب السكاني تتيح فرصا طيبة للعمل والنجاح وتحقيق الذات والتخلص - ولو الى حين - من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الموطن الأصلي كما تتيح الحياة المستقرة - ولو بقدر - في الموطن الجديد رغم كل ما قد يحيط بهذه الحياة من صراع وكفاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة أو عجز عن التأقلم والتكيف ، بل ومن رغبة المجتمع الجديد نفسه في استيعاب الوافدين الجدد وامتصاصهم أو تقييد حركتهم ووضع العوائق والعراقيل والقواعد والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه ودون إتمام عملية التمثيل مما قد يدفعهم ، أو يدفع بعضهم ، إلى العودة الى مجتمع الأصل والبداية . وكل هذا يجعل

الرجعة وأطروحة العودة

« الهجرة احتجاج ضد اللامساواة »

(يول هاريسون)

« لا يزاحم الأطباء والحلاقون أحدا ، لأن المهاجرين أنفسهم يحتاجون إلى حلاقين وإلى مختلف الخدمات الطبية »

(الفرد سوفي)

من هذه الهجرات البشرية المتواصلة موضوعا متجددا يحتاج الى دراسات جديدة تناول « الموضوع / الظاهرة » في كل أبعاده الايكولوجية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات . فكأن تعقد هذه المشكلات وتنوعها واستمرارها وتجدها هي السبب وراء كل ذلك القدر الضخم من البحوث والدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة بوجه خاص حول الهجرة وآثارها وأسبابها ، وهي بغیر شك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفعنا الى تخصيص هذا العدد لمشكلة الهجرة والهجرة المعاكسة . وقد يكون في ذلك رد مقنع لمن قد يتساءل : لماذا هذا العدد من المجلة ؟ ولماذا هذا الموضوع أو المحور الذي كثر الكلام فيه ؟

ولقد كانت هذه التحركات السكانية التي نطلق عليها هنا اسم « الهجرة » والتي لازمت الإنسان منذ وجوده هي العامل الفعال المؤثر في انتشار الجنس البشري من موطنه الأصلي الأول - إن كان هناك موطن أصلي واحد فقط - أو من مواطن ظهوره الأولى ، وبالتالي ارتياده لمناطق جديدة وعمران الأرض وظهور المجتمعات والثقافات الإنسانية المختلفة . والأغلب أن هذه الهجرات « البدائية » القديمة كانت تنشأ بفعل عوامل « الدفع » أو « الطرد » التي تتمثل في قسوة قوى الطبيعة المناوئة وضراوة الجماعات المعادية ، وعجز الإنسان عن الصمود في وجه هذه القوى المادية والبشرية وعدم قدرته على التحكم فيها واخضاعها وتذليلها وتطويرها لصالحه ، أو على الأقل التعايش معها ، وبذلك لم يكن أمامه سوى الهروب منها والنزوح عن موطنه . ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن هذه الهجرات « البدائية » لم تكن هجرات أفراد كما هو الحال في معظم الهجرات الحديثة وإنما هي هجرات « جماعية » تقوم بها جماعات كبيرة أوة شعوب وقبائل بأكملها بصرف النظر عن مستواها الحضاري أو الفترة الزمنية التي عاشت فيها . وبذلك يمكننا أن نسلک ضمن هذه الهجرات « البدائية » تحركات جماعات الصيد والقنص في العصور المبكرة من تاريخ الجنس البشري ، ونزوح الجماعات التي تعيش على الزراعة المتنقلة والتي تضطر إلى تغيير مكان إقامتها كل بضعة سنين بعد أن يتم استنزاف خصوبة الأرض فتنتقل إلى مناطق جديدة وهكذا . بل إنه يمكن أن ندخل في هذا النمط من الهجرة انتقال بعض الجماعات البدائية في أفريقيا الآن حين يموت أحد أفراد القبيلة وتخشى من أذى شبح الميت فتنتقل الجماعة كلها إلى موطن جديد بعيد عن متناول الشبح وهكذا . بل وقد يمكن أيضا أن ندخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » هجرة القبائل الجرمانية بين القرنين الرابع والسادس من منطقة بحر البلطيق جنوبا بحثا عن الأراضي الزراعية ، وهجرات بعض القبائل العربية الشهيرة وبخاصة تلك التي اتجهت نحو شمال إفريقيا والتي سجلتها بعض الملاحم والسير الشعبية ، والتحركات القبلية التي قامت بها بعض القبائل الأفريقية الكبيرة مثل قبائل البانتويين القرنين السابع والثاني عشر من منطقة بحيرة فيكتوريا الى الغرب نحو الكونجوثم بعد ذلك ، وفيما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر نحو الجنوب حتى منطقة ناتال وجنوب غربي أفريقيا . فهذه كلها هجرات تاريخية شملت جماعات قبلية كبيرة العدد - على الأقل بمعايير تلك الأزمنة والعصور - وكان لها كلها آثار ونتائج هامة وملموسة في التاريخ . ولذا فقد يكون أفضل مصطلح يصدق على هذه الهجرات « البدائية » هو المصطلح الألماني Volkerwanderung التي تعني الهجرة القبلية أو هجرة الشعوب . بل إن هناك من يدخل في هذا النمط من الهجرة هجرة الايرلنديين والزراع الألمان الشهيرة بعد أزمة محصول البطاطس عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ ، وهي الهجرات التي حملت عدة ملايين من البشر الى أمريكا ، وكذلك التحركات السكانية (الاضطرابية) التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية في شبه القارة الهندية بعد قيام دولتي الهند والباكستان وتبادل ملايين السكان بين الدولتين (١) .

والأمثلة كثيرة ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لتوضيح ما يراد بالهجرة « البدائية » التي تضم أعدادا كبيرة جدا من البشر الذين يضطرون لتغيير موطنهم الأصلي نتيجة لعجزهم عن التصدي بنجاح لبعض العوامل والقوى القاهرة ، سواء أكانت هذه القوى طبيعية أو بشرية . ولكن لا تدخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » الحركات السكانية التي تُفرض بالقوة على الناس كما هو الحال مثلا في نفي الأعداد الكبيرة من الروس والذين يقدر عددهم بحوالي مليون نسمة الى سيبيريا في القرن التاسع عشر ، أو نقل ملايين العبيد من أفريقيا الى أمريكا والتي تذهب بعض التقديرات الى تقديرها بعشرين مليون نسمة ، وإن لم تكن كل هذه الأعداد وصلت بالفعل الى الشواطئ الأمريكية نتيجة لموت أعداد كبيرة جدا منهم أثناء الرحلات البحرية القاسية . كذلك يميل بعض العلماء الى التمييز بين هذه الهجرات « البدائية » الجماعية وبين نزوح مئات الآلاف من (اللاجئين) الذين تضطربهم الظروف والأوضاع السياسية ، أو الغزو العسكري ، الى ترك أوطانهم والفرار بحياتهم الى مواطن أخرى . والمثل الواضح أمامنا لذلك هو خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم في ظل الظروف التي أدت الى قيام اسرائيل .

ولكن يبقى بعد هذا كله الشرطان الأساسيان اللذان يميزان الهجرات « البدائية » وهما « جماعية » الحركة والانتقال ، والعجز عن التصدي لعوامل الطرد أو الدفع أو التكيف معها . ومن هذه الناحية تختلف الهجرات « البدائية » اختلافا جذريا عن النمط الغالب الآن على الهجرة . فرغم أن ملايين الناس يتحركون ويتركون أوطانهم وينزحون إلى مناطق وأوطان أخرى فإن هذه التحركات تتم في العادة على أساس فردي كما سبق أن ذكرنا . وحتى إذا اتخذت شكلا جماعيا فإنها لا تشمل شعبا بأكمله . وعلى الرغم من أن كثيرا من الهجرات الحديثة يتم تحت ظروف قاسية وعوامل طارئة يصعب تذليلها أو التكيف معها فإن المهاجرين الأفراد يجدون في الأغلب أهدافهم ويتخيرون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ ما استقر عليه رأيهم . والأغلب أيضا أنهم يعرفون مقدما الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون اليه وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه ويُعدّون لهذه الهجرة إعدادا كافيا ويذهبون على أمل الإقامة هناك لفترات طويلة أو حتى للعمر كله . وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية للعودة الى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية .



وقد يكون من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح ومقبول لمفهوم « الهجرة » . ولذا يكتفي الكثيرون بتعريفها بأنها النقلة « الدائمة » أو الانتقال « الدائم » الى مكان يبعد عن الوطن الأصلي « بعدا كافيا » . ولكن هذا التعريف - إن صح اعتباره تعريفا على الإطلاق - يفتقر إلى الدقة والوضوح فيما يتعلق بالبعد الزمني المتمثل في كلمة « دائم » والبعد المكاني المتمثل في عبارة « بعدا كافيا » . وصحيح أن هيئة الأمم حددت المقصود بالانتقال الدائم بأنه الانتقال الذي يستمر لمدة سنة واحدة على الأقل ، ولكن تبقى مع ذلك مشكلة تحديد المسافة التي تفصل بين الوطن الأصلي أو موطن النشأة والإرسال الذي بدأت منه الهجرة وموطن الإقامة الجديد أو موطن الاستقبال الذي انتهت الهجرة اليه . وكما يقول ويليام بيترسن William Petersen إن الشخص الذي يترك وطنه إلى وطن آخر ويقيم فيه بقية حياته يعتبر (مهاجرا) بينما الشخص الذي يذهب الى مدينة مجاورة أو قرية ويمضي فيها بضع ساعات يعتبر مجرد (زائر) . وبين هذين الطرفين

النقيضين يوجد صف طويل جدا من الحالات والأوضاع الوسيطة يصعب التمييز بينها تمييزا قاطعا . فهي إذن تميزات تتم على وجه التقريب وباستخدام محكات تعسفية . فالإقامة في بلد الاستقبال لمدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن عام تعتبر هجرة مؤقتة بينما الإقامة في ذلك البلد لأي فترة تزيد عن العام ولو ببضعة شهور تعتبر هجرة دائمة وتستوي في ذلك مع الإقامة لطول العمر^(٢) . لكن هذه المحكات لا تأخذ في الاعتبار نية الشخص المهاجر والظروف التي قد تظهر فجأة وتمنع من تحقيق هذه النية أو القصد . فقد يخرج الشخص من موطنه الأصلي وفي نيته أن تكون هجرته لفترة مؤقتة قد تكون بضع سنين يعود بعدها إلى وطنه . فهو ينظر من البداية إلى هجرته على أنها هجرة مؤقتة ولكنها تعتبر بحسب تلك المعايير والمحكات هجرة دائمة . ثم إن الكثيرين ممن يهاجرون هجرة دائمة تمتد لعدة سنين لا يقطعون علاقتهم تماما بالأهل والوطن بل يظلون مرتبطين بهم وبه عاطفيا ويتمنون لو أتيت لهم الفرصة للعودة . وكثيرا ما تظل هذه العودة مجرد أسطورة لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنهم يتمسكون بها مع ذلك أشد التمسك ويظلون بذلك موزعين بين ولائهم للموطن الأصلي أو الوطن الأم ولائهم للموطن الجديد أو المجتمع (المضيف) أو مجتمع الاستقبال . كذلك تغفل هذه المحكات والمقاييس نظرة المجتمع المضيف إلى هؤلاء الوافدين ومدى تقبله لهم ومدى السماح لهم بالتكيف مع المجتمع بحيث يتم تمثيلهم فيه . وإغفال هذه الأمور يمنع من الوصول إلى تعريف أكثر دقة وإحكاما من تلك التعريفات السريعة السطحية التي تقنع بالنظر إلى عملية الانتقال والإقامة من حيث المدة التي يمضيها الشخص في الموطن الجديد والمسافة التي تفصل بين الموطنين^(٣) .

ومع ذلك فإن هذه المحكات لها فائدتها في التمييز بين « الهجرة » باعتبارها تغييرا لموطن « الإقامة » وبين بعض

William Peterson; "Migration: Social Aspects"; I.E.S.S., Vol. 10, p. 286.

(٢)

(٣) الواقع أن مفهوم المصطلحات الأجنبية غير واضح في أذهان الكثيرين عن يكتبون عن الموضوع باللغة العربية . وليس أدل على ذلك من أن « قاموس علم الاجتماع » الذي قام بتأليفه ليف من أساتذة علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية يستخدم كلمة « هجرة خارجية » في مقابل الكلمات الانجليزية الثلاث : Immigration و Emigration و Migration ثم يقدم التعريفات التالية لهذه الكلمات :

- أ - Emigration « هجرة خارجية : انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يستوطنوا موطنًا آخر » (صفحة ١٥٦) .
 - ب - Immigration « هجرة خارجية : زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر تحمل منه مكانا جديدا للإقامة الدائمة ، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة إلى دولة أخرى » (صفحة ٢٣٧) .
 - ج - Migration « هجرة خارجية : حركة دائمة نسبيا يقوم بها شخص أو جماعة تتخطى الحدود السياسية نحو منطقة أو مجتمع جديد » (صفحة ٢٨٩) .
- (راجع : قاموس علم الاجتماع ، حرره وراجعته : الدكتور محمد عاطف غيث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩) .
- كذلك تظهر عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في « قاموس الأنثروبولوجيا » الذي قام بتأليفه الدكتور شاكر مصطفى سليم ونشر بالكويت عام ١٩٨١ حيث نجد التعريفات التالية :

- أ - هجرة خارجية Emigration : « هجرة الجماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وحدودها الاقليمية التقليدية بهدف الإقامة الدائمة في الموطن الجديد . وتحدث الهجرة الخارجية عادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو بهجر من قوة هازية ، أو طلبا لمستوى معيشي أفضل .
 - ب - هجرة داخلية Immigration : « تحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الاقليم تحدث عادة بين موطنين يكون (أحدهما) مزدهرا بالسكان وفيه عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية مفررة ، ويكون النائي أقل ازدهارا بالسكان وفيه عوامل جاذبة » (صفحة ٤٨١) .
 - ج - هجرة Migration : « حركة واسعة لمجموعة سكانية داخل موطنها أو إلى موطن آخر . وقد تكون الهجرة موسمية طلبا للماء والكلأ . كما قد تكون دائمية بسبب الكوارث الطبيعية أو التبدلات الاجتماعية أو الحروب أو لتتحقق مستوى معيشي أفضل » (صفحة ٦٣١) .
- ومثل هذا الخلط في فهم مدلول المصطلحات يوجد في كثير من الكتابات الأخرى التي تفتن بالمعنى المعجمي للكلمة ولا تنظر إلى اتجاه سير الهجرة migration عموما باعتبارها حركة سكانية (تخرج) من مجتمع معين emigration وتنتج إلى مجتمع آخر حيث (تدخل) له Immigration .

أشكال التنقل أو التحركات البشرية الأخرى مثل تحركات البدو الرحل أو تحركات الرعاة من أشباه الرحل بحثاً عن الماء والكلأ . فهذه تحركات موسمية تختلف كل الاختلاف في طبيعتها عن الهجرة بالمعنى الذي تحدده هيئة الأمم ، لأنها تفتقر إلى عنصر الإقامة والاستقرار لفترة معينة من الزمن . والشيء نفسه يصدق على تحركات وتنقلات « عمال الترحيل » الذين ينتقلون بين مراكز العمل المختلفة وتتوقف إقامتهم في أي مركز منها على توفر العمل دون أن يرتبطوا بأي مركز منها ارتباطاً (دائماً) حتى يمكن اعتباره موطن إقامة لهم . ففي كل هذه الأنماط من التحركات البشرية التي قد تستغرق فترات طويلة لا تقوم علاقة قوية بين الناس والمكان تكفي لنمو الشعور بالانتماء إلى ذلك المكان أو لتمثل المجتمع لهؤلاء الوافدين (الطارئین) .

وهذا كله معناه أنه إلى جانب عنصري الزمان والمكان أو البعد الزماني والبعد المكاني اللذين يصعب الاكتفاء بهما في تعريف الهجرة توجد عناصر أخرى قد يكون من الصعب قياسها ولكن يحسن أن تؤخذ في الاعتبار ، وهي عناصر ذاتية واجتماعية وثقافية ترتبط بإحساس الفرد نفسه ونظرته إلى عملية انتقاله والهدف منها وتكييفه لهذه العملية وشعوره بالانتماء إلى المجتمع الجديد وتكييفه معه وتقبله لقيم ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده ومثله العليا والانفعال بها ، أو على الأقل رغبته في أن يستوعب هذا كله حتى يتم اندماجه وتمثله في المجتمع . فالهجرة ليست مجرد نفلة (جسدية) من موطن لآخر ، وإنما هي أيضاً موقف عقلي واتجاه ذهني وتوجه نفسي من الشخص ذاته . ودراسة هذا الجانب الهام تتطلب من الباحث الاتصال المباشر والوثيق بالمهاجرين أنفسهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثروبولوجيا كلمة rapport والتي تعتبر مبدأ أساسياً لأي دراسة مركزة متعمقة .^(٤)

وبالمثل ليس هناك ما يبرر الاقتصاد في دراسة الهجرة على إبراز الدور الذي تلعبه الأوضاع الاقتصادية السائدة في الموطن الأصلي في نزوح العناصر المهاجرة وإغفال النظم والأنماط الاجتماعية الأخرى التي قد تتعاون فيها بينها بحيث تجعل من ذلك الموطن الأصلي منطقة دافعة أو طاردة لسكانها . وهذا لا يعني التهمين من شأن الأسباب الاقتصادية ، ولكن الدور الذي تلعبه هذه العوامل يبدو أكثر وضوحاً حين تدرس ضمن البناء الاجتماعي الكلي وفي علاقتها ببقية النظم والعلاقات المتشابكة التي تؤلف ذلك البناء . فالأوضاع الاقتصادية ليست وحدها المسؤولة دائماً وفي كل الأحوال عن الهجرة ، ويستوى في ذلك الهجرات الخارجية التي ينتقل فيها المهاجرون إلى مجتمعات أخرى غريبة تنتمي إلى دول أخرى بعيدة ، أو الهجرات الداخلية التي ينتقل فيها المهاجرون من مجتمع محلي معين إلى مجتمع محلي آخر ضمن حدود الدولة . ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً قليلاً ما تكون تحركات السكان أو هجراتهم من منطقة لأخرى أو من

(٤) ورغم ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام إن عدد المهاجرين إلى بلد ما يرتبط عكسياً مع طول المسافة التي تفصل بين هذا البلد والموطن الأصلي الذي خرجت منه هذه الهجرات ، بينما يرتبط طردياً مع فرص العمل المتاحة ، وإن كان ذلك يتوقف أيضاً على مدى توفر هذه الفرص في المراحل الوسيطة بين موطن (الإرسال) وموطن (الاستقبال) . وقد قامت عدة محاولات لصياغة هذه الحقائق في شكل قضايا أو حتى في شكل معادلات يمكن إخضاعها للاختبار بإجراء دراسات وبحوث في مجتمعات وثقافات مختلفة ، على أمل أن يؤدي ذلك في آخر الأمر إلى ما يمكن اعتباره (نماذج) أو (أنماط) للهجرة . ومع ذلك فقد يكون من الصعب أو حتى من الخطأ ، التعميم من دراسة حالات قليلة للهجرة لأن في ذلك تبسيطاً شديداً للأمور والمظاهر نفسها . وهذا لا يقلل بحال من شأن أو من أهمية الدراسات المركزة المتعمقة لحالة معينة للهجرة من بلد معين بالذات إلى بلد آخر ، لأن مثل هذه الدراسات المتعمقة للمظاهر ككل ومعالجتها من كل جوانبها ولي كل أبعادها سواء من حيث التوقيت أو الأهداف أو العوامل الدافعة إليها أو حجمها واتجاهاتها بالإضافة إلى كثير من المسائل المتعلقة ببناء المجتمع الأصلي أو المجتمع المضيف هي التي تؤلف الأساس الأول الذي تقوم عليه الدراسات المقارنة التي يمكن الوصول منها إلى بعض التعميمات أو إقامة النماذج والأنماط التي نسترشد بها في إجراء مزيد من الدراسات .

ولاية لأخرى متأثرة بعوامل اقتصادية بحث . بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن العوامل الاقتصادية تلعب في هذه التحركات دورا أقل بكثير مما يظن في العادة . وثمة بعض الدراسات المسحية التي يشير إليها بيترسن والتي أجراها مكتب الإحصاء للولايات المتحدة عام ١٩٤٧ وعام ١٩٦٦ ، وقد تبين منها أن حوالي ٦, ٢٢٪ من أفراد العينة هاجروا لأسباب اقتصادية بحثا عن العمل ، بينما تتوزع بقية الإجابات بين عدد كبير من الأسباب الاجتماعية المختلفة بل وبعض الأسباب الصحية أو حتى بطبيعة الطقس السائد في « موطن » الإرسال ، وإن كان بعض الأسباب (الاجتماعية) التي ذكرت لها جانب اقتصادي واضح مثل سوء وسائل المواصلات . وليس من الضروري أبدا أن يكون وراء كل هجرات الزنوج من جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها وغربها أسباب اقتصادية أو مجرد الرغبة في تغيير حياة الزراعة إلى حياة أفضل تستند إلى ممارسة أعمال أخرى في المدن يكون لها مردود اقتصادي أعلى من فلاحه الأرض . إنما هناك أن جانب ذلك كله الرغبة في الهروب من كل الأوضاع الاجتماعية السائدة في الجنوب بكل ما تمثله من ضغوط ومعاناة اجتماعية ونفسية يقاسي منها الأمريكيون السود من جراء التفرقة العنصرية .^(٥) فأسباب الهجرة هنا أوسع وأكثر تعقيدا من الوضع الاقتصادي ، بل إن هذا الوضع الاقتصادي نفسه الذي يجد الأمريكيون السود فيه أنفسهم هو مجرد مظهر واحد من مظاهر التمييز العنصري في الولايات الجنوبية من أمريكا . وقد يكون ذلك مثالا متطرفا ولكن له دلالة بغير شك .

هذه النظرة الشاملة التي تدرس الهجرة في كل أبعادها تؤلف المدخل البنائي الوظيفي الذي يتبعه غالبية علماء الأنثروبولوجيا وعدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة العلماء الذين يحرصون على دراسة الظاهرة في مجتمع معين بالذات ، سواء أكان هذا المجتمع هو الوطن الأصلي - أو مجتمع الإرسال الذي ينزح أعضاؤه متجهين إلى مواطن جديدة مختلفة ومتفرقة - أو كان هو الوطن الجديد أو المجتمع المضيف الذي يستقبل أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يفدون إليه من مجتمعات وثقافات مختلفة ومتباينة . ولكن أيا ما يكون المجتمع الذي يركز عليه الباحث فلا بد من أن يتطرق البحث إلى المجتمع الآخر بشكل من الأشكال . فالهجرة « عملية » ذات طرفين ، يؤلف مجتمع الإرسال أحد هذين الطرفين ويؤلف مجتمع الاستقبال الطرف الثاني ، بينما يقوم المهاجرون بدور « حلقة الوصل » بين الطرفين . فالمسألة تتعدى إذن مجرد الاهتمام بتبيين عوامل الطرد أو عوامل الجذب والآثار الناجمة عنها وتحديد أنماط الهجرة المختلفة الناشئة عن هذه العوامل وإذا ما كانت هي هجرة دائمة أو مؤقتة ، أو هجرة قسرية إجبارية أو إرادية اختيارية ، أو هجرة كاملة أو غير كاملة ، أو هجرة أولية أو ثانوية ، أو هجرة قصيرة الأمد أو طويلة الأمد وغير ذلك من التصنيفات التي يجب بعض علماء الاجتماع إبرازها وتوكيدها . بل إن المدخل البنائي الوظيفي الذي ينظر إلى الهجرة نظرة شاملة كلية لا يكاد يعطي كثيرا من الاهتمام لبعض الجوانب التي يعنى بها أصحاب المناهج الأخرى في دراسة الهجرة مثل حجم الهجرة وفئات المهاجرين بحسب الجنس أو السن أو المهنة أو الجنسية الأصلية ، وأسباب الهجرة وآثارها على كل من المجتمعين ، والعائد الاقتصادي من الهجرة سواء بالنسبة للمهاجرين أنفسهم أو المجتمعات التي خرجوا منها ، والخسارة التي تحيق بقوة العمل في بلد المنشأ وأثر ذلك في بعض مجالات الانتاج ، وظهور أنماط استهلاكية جديدة والاقبال الشديد - مثلاً - على اقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة ، ومجالات استثمار التحويلات التي يرسلها المهاجرون إلى مواطنهم الأصلية وما

الى ذلك . وعدم الاهتمام بهذه الأمور لا يعني بحال من الأحوال عدم أهميتها أو التهوين من شأنها ، ولكنها تعتبر في نظر الباحثين البنائين الوظيفيين معلومات أولية تؤلف الخلفية الأساسية التي يركز اليها التحليل البنائي الذي يهتم أكثر ما يهتم بالعلاقات الاجتماعية . فالإكتفاء بهذه المعلومات الرقمية أو الكمية يعني في آخر الأمر دراسة الظاهرة من (الخارج) فحسب . ومن هنا يهتم المدخل البنائي الوظيفي بدراسة التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يقوم داخل مجتمع الاستقبال أو الموطن الجديد الذي يستقبل هؤلاء المهاجرين ، بحيث يتناول بالتحليل مثلاً علاقات التعاون والصداقة أو الصراع والعداء بين المهاجرين من مختلف الجنسيات ونظرة بعضهم الى بعض في ضوء انتماءاتهم العرقية والسلالية والدينية ، بل ونظرتهم إلى أهل المجتمع وسكانه الأصليين ونظرة المجتمع اليهم ومدى تقبله أو رفضه لهم ، والجهود التي يبذلونها للانندماج في المجتمع أو رغبتهم على العكس من ذلك في التمسك بثقافتهم الأصلية والاحتفاظ بمقوماتهم التقليدية التي تنتمي إلى المجتمع الذي جاءوا منه ، بل ونظرة كل جماعة من هذه الجماعات العرقية الى نفسها وتقييمها للمكانة التي تحتلها في الموطن الجديد ومقارنة ذلك بالمكانة التي كانت تتمتع بها في موطنها الأصلي مع تعرف آرائهم في ذلك المجتمع القديم بكل نظمته وأنساقه وأنماطه السلوكية وقيمه الاجتماعية التي تركوها وراءهم .



وقد يحسن أن نشير هنا إلى إحدى الدراسات التي أجريت في الخارج وتناولت بالتحليل الدقيق المشاكل الناجمة عن نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين الذين ينتمون إلى ثقافة تختلف كل الاختلاف عن الثقافة السائدة في بلد المهجر أو بلد « الاستقبال » . والدراسة التي أعينها قامت بها الدكتورة باتريشيا جيفري Patricia Jeffery الزميلة الباحثة بقسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أدنبرة على العائلات المهاجرة من باكستان الى بريطانيا والتي أقامت بعد ذلك في بريستول . وقد ظهرت الدراسة تحت عنوان « مهاجرون ولاجنون : دراسة للعائلات الباكستانية المسلمة والمسيحية في بريستول » . والذي يهنا في هذه الدراسة الى جانب المشكلات التي تعرضت لها هو أنها بدلا من أن تدرس هجرة الباكستانيين إلى بريطانيا بشكل عام ركزت على العائلات المقيمة في مجتمع محلي محدد هو مدينة بريستول وبذلك جاءت الدراسة على درجة كبيرة من العمق والقدرة على التحليل ، كما أنها بدلا من أن تتبع الأسلوب السرسولوجي المعتاد في الدراسات المماثلة والذي يعتمد في المحل الأول على جمع المعلومات من عينة مختارة من المهاجرين اتبعت الأسلوب الأنثروبولوجي الذي يعتمد على الإقامة الطويلة في مجتمع البحث وعلى جمع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي ، كما عززت ملاحظاتها بعدد من « دراسات الحالة » المتعمقة فضلا عن ذهابها إلى باكستان لدراسة اللغة الأردية حتى تستطيع أن تستخدمها في الحديث مع النساء الباكستانيات اللاتي لا يعرفن الانجليزية ، وحتى تتعرف أيضا ملامح الثقافة التقليدية في باكستان ومكونات البناء الاجتماعي التقليدي . وهذه كلها أساليب وطرق للبحث تكفل التغلغل في أعماق الظاهرة أو النظام الاجتماعي موضوع الدراسة . وهذه مسألة سوف نعود إليها فيما بعد ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الكتاب لم يشتمل على جدول واحد من الأرقام فيه قليلة . وذلك على عكس الدراسات السوسولوجية حول الموضوع والتي يبدو أن لها ولعا كبيرا بالأرقام والجداول . وهذا لا يعني الاستهانة بلغة الأرقام ، وكل ما يعنيه هو أن هناك أساليب وطرائق مختلفة لدراسة الموضوع الواحد ، وأن اختيار

المشكلة هو الذي يحدد المنهج والأسلوب وطريقة التحليل الملائمة . ومعظم الدراسات التي أجريت على المهاجرين من الكومنولث إلى بريطانيا كانت تفترض أن هؤلاء الوافدين المقيمين قطعوا علاقاتهم مع وطنهم الأصلي ومع ثقافتهم التقليدية وأنه يمكن بالتالي دراسة وفهم هذه الجماعات فهما دقيقا من خلال ملاحظة وتحليل سلوكهم العادي في حياتهم اليومية في مجتمع الإقامة ، ودراسة الأعمال التي يقومون بها وظروف الحياة التي تحيط بهم مثل المسكن والدخل وغيرها . ولكن هذه الدراسة تعتبر ذلك نظرة ضيقة إلى الموضوع وأن الهجرة عملية معقدة فيها كثير من الأطراف المتشابكة التي يجب تتبعها بدقة وتفصيل ، وأن الفهم الحقيقي لهذه المشكلة لن يتحقق الا اذا رجع الباحث إلى الثقافة الأصلية التي ينتمي إليها هؤلاء المهاجرون الذين يتجازهم بذلك نوعان من الانتفاء : الانتفاء إلى الوطن الأصلي بكل قيمه وتراثه وتقاليده ، والانتفاء إلى المجتمع الجديد أو الوطن المضيف ، مع الرغبة الشديدة طيلة الوقت في العودة إلى أرض المنشأ . وهي رغبة قلما تتحقق ، بل وقلما يعمل المهاجرون بإخلاص لإخراجها إلى حيز التنفيذ .

وهجرة الباكستانيين إلى بريطانيا جزء من هجرات أكبر وأوسع وأشمل وتضم أعدادا كبيرة جدا من الملونين والزنوج الذين وفدوا على بريطانيا من شبه القارة الهندية ومن أفريقيا وعدد من المستعمرات البريطانية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد ظهر حول هذه الهجرات عدد كبير من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على هؤلاء الوافدين في مواطن إقامتهم الجديدة . وقد نجم عن هذه الهجرات كثير من المشكلات وأثير حولها كثير من التساؤلات كما ظهرت بعض الاتجاهات العدائية السافرة ضد هؤلاء الوافدين ، وهي اتجاهات تعبر عن الرفض الشديد والإحساس بخطورة هذه الهجرات على نمط الحياة والقيم والثقافة البريطانية التقليدية وعلى أسلوب الحياة « البريطاني » . ومعظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع والتي أدلى علماء الأنثروبولوجيا فيها بنصيب وافر تكشف عن مشكلة هامة بدأ المجتمع البريطاني يعاني منها نتيجة لهذه الهجرات ، وهي مشكلة الحاجز اللوني والتمايز السلافي والعنصري وما صاحب ذلك من الالتجاء إلى كثير من أساليب العنف التي لم تكن معروفة في بريطانيا من قبل^(٦) .

والواقع أن هجرة الملونين والسود إلى بريطانيا ليست الا مظهرا آخر للتاريخ الامبريالي البريطاني وامتدادا لهذا التاريخ حتى وإن كان هذا الامتداد قد اتخذ بعد انتهاء عصر الاستعمار اتجاها مخالفا لما كان عليه من قبل . فأسلوب الحكم البريطاني في المستعمرات ، والاستغلال الاقتصادي لمصادر الثروة الطبيعية وتسخير الأفارقة في المزارع الكبيرة الواسعة وفي المناجم ، وحركات التبشير أدت كلها إلى ظهور تصنيفات سلالية وعرقية تضع الرجل الأبيض على رأس

(٦) من الدراسات الهامة التي ظهرت حول هجرة الملونين إلى بريطانيا والعلاقات الاجتماعية والعرقية المعقدة والصراع العنصري التي نجمت كلها عن هذه الهجرات الدراسات والبحوث التالية التي سوف تعتمد عليها هنا بشكل مباشر أو غير مباشر :

William W. Daniel; Racial Discrimination in England, Penguin Books, 1968; Nicolas Deakin, Colour, Citizenship and British Society, Panther Books, London 1970; Roland Littlewood and Maurice Lipsedge; Aliens and Alienists, Penguin Books 1982; Ivor Moorish, The Background of Immigrant Children, Allen and Unwin 1971; Sheila Patterson, Dark Strangers, A Study of West Indians in London, Penguin Books 1965; Peter Ratchliffe. Racism and Reaction, R.K.P. 1981; ولكن الكتاب الذي سوف يعالج بمعظم اهتمامنا هنا هو البحث الأنثروبولوجي الممتاز الذي ظهر عام ١٩٧٦ بعنوان : Patricia Jeffery, Migrants and Refugees: Muslim and Christian Families in Bristol, Cambridge University Press 1976.

الجنس البشري . وقد ظهر ذلك واضحا في كل كتابات القرن التاسع عشر وعلى الأخص الكتابات الأنثروبولوجية التي اهتمت بتصنيف البشر وكل الكائنات الحيوانية وتصنيف الثقافات والمجتمعات والنظم والأنساق تبعا لفلسفة تطويرية تقوم على ترتيب الأشياء حسب درجة رقيها وتقدمها أو تخلفها وانحطاطها . والظاهر أن هذه النظرة لا تزال سائدة في بريطانيا إلى حد كبير ويعتقها كثير من الناس وإن كانت لا تطفو على السطح إلا حين تنهأ الظروف لذلك . وعلى أي حال فإن الذي يهنا هنا هو أن معظم الذين درسوا الحركات الهجرية إلى بريطانيا كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك التاريخ الاستعماري البريطاني الذي كان جزءا من التوسع الأوربي الذي امتد الى أطراف بعيدة من العالم من أجل السيطرة والتحكم في الأسواق ونقل ثروات تلك المستعمرات إلى أوروبا ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن احتكر بعض مناطق العالم لتصريف الصناعات والمنتجات الأوربية فيها . وهذه السياسة الاستعمارية هي التي أدت الى تقسيم العالم إلى دول ومجتمعات صناعية وأخرى زراعية فقيرة هي التي تؤلف « العالم الثالث » بكل ما يعانيه من فقر وسوء تغذية وجهل ومرض وبطالة . ومعظم المهاجرين الملونين السود الذين يعيشون الآن في بريطانيا جاءوا من دول ومجتمعات تعاني من بعض المشكلات التي لحقتها على أيدي بريطانيا ذاتها . وهذه حقيقة يعترف بها معظم الباحثين في كثير من التجرد والموضوعية^(٧) .

ولقد كانت شبه القارة الهندية قبل تقسيمها إلى دولتي الهند والباكستان واحدة من أهم المناطق التي خضعت للحكم البريطاني وكانت تعتبر أجمل وأعلى جوهرة في التاج البريطاني . وقد أفادت بريطانيا من هذه (العلاقة) إلى أبعد الحدود سواء من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية العسكرية حيث كان (الهنود) يجاربون لها حروبها ، بينما لم تكند شبه القارة الهندية تفيد شيئا يذكر من (المدنية) الغربية التي جلبها البريطانيون لهم في مقابل استنزاف خيرات بلادهم وثرواتها . وكما تقول باتريشيا جيفري (صفحة ٢) فإنه لا يمكن الفصل من الناحية التاريخية بين تطور بريطانيا وتقدمها كدولة صناعية وتخلف الهند وفقرها واعتمادها اقتصاديا على الزراعة ، وأن تحكم بريطانيا في أسواق الهند كان من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الصناعية في بريطانيا .

وربما كانت هذه الحقيقة ماثلة في أذهان الكثير من الهنود والباكستانيين الذي اضطرتهم ظروف بلادهم إلى الهجرة الى بريطانيا بحثا عن العمل ، فقد كانوا يرون أن هذه الهجرة أمر طبيعي وأن من حقهم أن يجدوا في بريطانيا العمل الذي يحتاجون اليه . ولم تكن بريطانيا على أي حال تجرد في أوائل الخمسينات ما يمنع من قبول تلك الأعداد الكبيرة الوافدة اليها ، إذ كانت تجد فيهم الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لتشغيل مصانعها بعد أن انصرف كثير من العمال البريطانيين عن العمل فيها نظرا لانخفاض الأجور . وهكذا نجد أنه بعد أن أفلحت بريطانيا في استنزاف الموارد الطبيعية من شبه القارة الهندية أيام الاستعمار أخذت تستنزف قواها البشرية بعد أن نالت استقلالها وانقسمت الى دولتين كبيرتين هما الهند والباكستان . ولقد كان النازحون من هاتين الدولتين يدخلون بريطانيا بغير عوائق أو صعوبات حتى عام ١٩٦٢ حين تغير الوضع وأصبحت بريطانيا تقبل أصحاب المهارات والكفاءات فقط ، أي أنها لم تكن تقبل سوى الفئات التي تحتاج إليهم بلادهم الأصلية ولا تستطيع الاستغناء عنهم بسهولة . وربما كان ذلك وراء ما قالته إحدى

(٧) انظر على سبيل المثال :

Patricia Jeffery, op. cit. pp. 7-43; R. Littlewood and M. Lipsedge, op. cit. Ch. 4; Ratcliffe, op. cit. pp. 1-18.

السيدات المهاجرات حين سئلت في شيء من العداء عما يدفعها هي وأمثالها إلى المجيء إلى بريطانيا فأجابت بأنها هي وأمثالها إنما يأتين إلى بريطانيا من شبه القارة الهندية لاسترداد ماسة كوهي نور Koh-i-noor الشهيرة . ولكن لا يمكن القول إن كل المهاجرين من شبه القارة الهندية إلى بريطانيا يعرفون ذلك التاريخ ويعرفون تلك الماسة الشهيرة أو يدركون الأبعاد التاريخية والبنائية لهجرتهم ، وإنما هم يرون أنفسهم مجرد أفراد كانوا يعيشون في بلد فقير لا يستطيع أن يوفر لهم ولعائلاتهم العيش الكريم وأنه لم يكن أمامهم إزاء ذلك إلا أن يحاولوا الاستفادة بقدر الامكان من الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وأن الهجرة إلى بريطانيا كانت إحدى هذه الفرص .^(٨)

ولقد كانت تلك الاعتبارات وراء اختيار باتريشيا جيفري للمنهج الذي اتبعته في دراسة المهاجرين الباكستانيين في بريستول ، وهو منهج يقوم ليس فقط على معايشة الناس ومشاركتهم كثيرا من أوجه النشاط اليومي والاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتطلب الإقامة الطويلة في المجتمع وعدم الالتجاء إلى صحائف الاستبيان وقوائم الأسئلة القصيرة المباشرة إلا في أضيق الحدود ، ولكنه أيضا منهج يقوم على التعاطف مع الناس ومحاولة فهم وجهة نظرهم والتعبير عنها بأمانة لدرجة قد تصل الباحث إلى أن ينكر ذاته تماما ويختفي من الصورة بقدر الامكان لكي يترك للناس أنفسهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وعرض دقائق حياتهم وشرح تجربتهم الخاصة وتقييم هذه التجربة في ضوء الظروف والأوضاع التي عاشوها ، وبدون تدخل أو توجيه من الباحث إلا في أضيق الحدود . وهذا هو بالضبط ما فعلته باتريشيا جيفري في هذه الدراسة التي نحن بصدددها . وربما كان هذا المدخل الذي يقوم على التعاطف والذي يحب بعض علماء الأنثروبولوجيا تسميته بالمدخل المعرفي هو أهم ما يميز هذه الدراسة . والواقع أن الستينات والسبعينات شهدت انفتاحا واضحا في البحوث الأنثروبولوجية في الخارج نحو اتباع هذا المدخل الذي لم يطبق عندنا على أي حال إلا في حالات قليلة معدودة وبالذات في بعض الرسائل الجامعية التي لم تنشر بعد

ومع التسليم بتعدد الأسباب وراء الهجرة فإن الهجرة من أجل العمل - أي لأسباب اقتصادية في المحل الأول - تشكل نسبة كبيرة من هجرات البشرية في العالم . وتبدأ هذه الهجرات في العادة على أنها مسألة مؤقتة لا يلبث المهاجر أن يعود بعدها إلى وطنه الأصلي . أو هذا على الأقل هو ما يعتقده الكثيرون في بداية الأمر ، خاصة وأن كثيرا من مجتمعات الاستقبال لا تحبذ إقامة الوافدين من أجل العمل بصفة دائمة فيها ، ولكن ذلك لم يمنع من تزايد حركات الهجرة في كثير من مناطق العالم . نتقارير مكتب العمل الدولي مثلا تشير إلى أنه في عام ١٩٦٩ كان المهاجرون من أجل العمل كله حوالي عشرة ملايين نسمة ولكن في عام ١٩٧٣ كان ٩٪ من القوة العاملة في ألمانيا الغربية ينتمون إلى جنسيات

(٨) كان لإنشاء دول الكومنولث الحق في الإقامة والعمل في بريطانيا . بل إن ذلك كان ميسورا لهم أكثر مما كان بالنسبة للوافدين من جنوب أوروبا مثلا الذين كانوا يعتبرون أجناب من الناحية القانونية . وبذلك لم يكن في استطاعتهم العمل هناك بغير الحصول على ترخيص . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية خرجت أعداد متزايدة من شبه القارة الهندية ومن بعض دول الكومنولث الجديد والمجتمعات للإقامة في بريطانيا مما أدى إلى ظهور جيل من (البريطانيين) الملونين الذين كانوا على أي حال يحتلون مكانة أدنى من الناحية الاقتصادية من البريطانيين البيض الذين يؤلفون السكان الأصليين . والواقع أنه حتى عام ١٩٦٦ لم تكن التفرقة العنصرية في بريطانيا غير مشروعة ، بل إنه حتى عام ١٩٦٨ حين صدرت القوانين المنظمة للعلاقات السلالية كان من المألوف أن يضع أصحاب منازل علامات تدل على أنهم لا يقبلون سكنا من الملونين . وحتى بعد صدور القوانين لم يتغير الموقف تغيرا جديرا إلا ببطء وبالتدريج . وقد عانى الباكستانيون بالذات من ذلك أكثر من غيرهم إذ كان يفصل بينهم وبين السكان البيض عامل الدين إلى جانب عامل اللون . وقد لاحظ هذه الظاهرة عدد من العلماء الذين درسوا الهجرة في بريطانيا ومنهم باتريشيا جيفري . انظر على سبيل المثال كتاب :

Littlewood and Ipsedge, op. cit. p. 128 and p. 136.

أجنبية ، كما أن فرنسا تعتمد على العمال المهاجرين من الجزائر والمغرب بحيث أنه في عام ١٩٧٤ كان حوالي ٥٪ من كل القوى العاملة الجزائرية تعمل في فرنسا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن بريطانيا كانت في سنوات الازدهار في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تستقبل أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين الذين كانوا يفدون إليها من الدول التي أدت السياسة البريطانية الاستعمارية ذاتها إلى تحطيم اقتصادها . ويشير تعداد عام ١٩٧١ إلى أن ١,١٦ مليون نسمة في بريطانيا كانوا من مواليد دول الكومنولث الجديد وبوجه أخص من الهند وباكستان وبنجلاديش . ولكن حين دخل الغرب في مرحلة الكساد في السبعينات بدأت النعرات العنصرية والتفرقة بين السلالات وما يرتبط بها من توتر وصراع عنصري تظهر بعنف وقوة على ما ذكرنا وبشكل لم يكن مألوفاً من قبل^(٩) . وقد دفع ذلك باتريشيا جيفري إلى القول بأن (دعوى) التسامح الذي يفخر به البريطانيون هي في الحقيقة (ادعاء) فيه كثير من الزيف والسطحية والخداع (صفحة ٣) . وهذا الحكم الذي تصدره باتريشيا جيفري يكشف عن نوع التعاطف الذي تبديه مع الباكستانيين الذين ركزت عليهم دراستها في بريستول ، وهو مستمد على أية حال من أقوالهم هم أنفسهم ويعبر بذلك عن وجهة نظرهم ورأيهم في المجتمع البريطاني بعامة ومجتمع بريستول الذي يعيشون فيه بخاصة ، وإن كانت ملاحظاتها هي الخاصة أثناء البحث تعزز من هذا الرأي .

بل إن اختيار باتريشيا جيفري للموضوع يكشف هو أيضاً عن الدور الذي يلعبه التعاطف في الدراسة . ففي البداية كان الموضوع الذي يشغل بالها وتريد التركيز عليه والذي جذب انتباهها بحكم إقامتها في بريستول كطالبة في الجامعة هناك كان هو حياة الفتيات الباكستانيات في ضوء خضوعهن لبعض التقاليد وقواعد العرف الباكستانية ، مثل رغبة الوالدين في أن تحتفظ الفتيات بالحجاب أو (البردة) رغم إقامتهن في مجتمع غربي حديث (بريطانيا) ، وكذلك نظام الزواج الذي يتولى الوالدان تربيته لأولادهم وبخاصة الفتيات منهم . وعكفت على دراسة التعارض الذي يبلغ أحياناً حد الصراع بين وجهتي نظر الوالدين والفتاة الصغيرة ، واسترعى نظرها في ذلك قدرة الباكستانيين على الاحتفاظ بالهوية أو الذاتية الباكستانية عن طريق التمسك بتلك العادات وقواعد السلوك والقيم والنظم التقليدية ، وبذلك تحول اهتمامها إلى دراسة الأساليب والوسائل التي تتم بها المحافظة على تلك العناصر الثقافية الهامة وأسلوب تربية وتنشئة الأطفال في البيت في جو باكستاني تقليدي . وهكذا انجذبت الدراسة نحو العمليات التي يتم عن طريقها (عدم التمثل) - وليس التمثل - والمحافظة على المقومات والأسس والملامح العرفية وليس اختفاء هذه الملامح واندثارها عن طريق الاحتكاك والتفاعل مع الثقافات الأخرى على ما تفعل كثير من الدراسات الأخرى حول الهجرة . فبينما يهتم معظم الباحثين بتعرف الوسائل والأساليب التي يتم بها تكيف المهاجرين مع المجتمع الجديد وتمثلهم الثقافة ، انجذبت باتريشيا جيفري على العكس من ذلك إلى البحث عن عوامل (عدم) التكيف و(عدم) التمثل والاحتفاظ بالشخصية الاجتماعية والهوية الثقافية الخاصة للمهاجرين الباكستانيين في مجتمع الدراسة .



الهجرة على نطاق واسع من باكستان إلى بريطانيا ظاهرة حديثة نسبياً . فلم يكن يوجد في بريطانيا عام ١٩٥٠

Paul Harrison; Inside the Third World: The Anatomy of Poverty, Harvester Press, London 1979, pp. 139-42.

سوى عدد قليل من الباكستانيين ، وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن العدد قد وصل إلى عشرين ألف مهاجر ، وحتى الآن لا يزال معظم الباكستانيين المهاجرين في بريطانيا وان كانت هناك نسبة معينة من النساء يلحقن كل عام بأزواجهن ، وهي على أي حال نسبة ضئيلة نظرا للقيود المفروضة على الهجرة والاقامة . والطريف هنا هو أن بعض المهاجرين الباكستانيين الى بريستول هم من المسيحيين - أي أن الهجرة الباكستانية ليست هجرة اسلامية خالصة . وعلى الرغم من أن المسيحيين في باكستان لم يكونوا حسب إحصاء عام ١٩٦١ يزيدون عن ١,٣٦ ٪ من مجموع السكان وان عددهم في بريستول قليل جدا فان باتريشيا جيفري وجدت أن من المستحسن أن تجري على بعضهم البحوث المركزة المتعمقة فيما يعرف باسم دراسة الحالة ، على أساس أن ثمة فوارق ثقافية هامة تميزهم عن الباكستانيين المسلمين وأن لهم نظرتهم وآراءهم ومواقفهم الخاصة المتميزة من الهجرة .

وكما هو الحال في أغلب حالات الهجرة فان الهجرة من الباكستان إلى بريطانيا تكمن وراءها في أغلب الحالات دوافع اقتصادية ، ولذا فان معظم الوافدين يتوجهون أولا الى المناطق التي تعاني نقصا في الأيدي العاملة حتى يضمنوا لهم عملا يستطيعون الاعتماد عليه ولو مؤقتا الى أن تتاح لهم الفرصة الكافية للتعرف على الموقف بشكل أفضل ويستطيع كل منهم أن يتخير أفضل مكان للعمل والاقامة فيستقر فيه . وعلى ذلك فان أغلب الباكستانيين المقيمين في بريستول لم يصلوا اليها الا بعد أن مروا بعدد من مراكز العمل الأخرى في بريطانيا ومارسوا عددا من الأعمال المختلفة . ومع ذلك فإن هناك الى جانب الدوافع الاقتصادية أسبابا أخرى اجتماعية وراء عدد كبير من حالات الهجرة وبالأخص هجرة المسيحيين . وقد ظهرت هذه الأسباب الاجتماعية نتيجة للدراسة المركزة التفصيلية لحياة بعض الأفراد لمعرفة العوامل الذاتية والشخصية التي تختفي وراء الدوافع الاقتصادية العامة مثل الشكوك التي يحملها المسيحيون ازاء وضعهم ومكانتهم الاجتماعية في الوطن الاصلي ، وهي شكوك تقول باتريشيا جيفري انه لم يتوفر لديها معلومات كافية تجعلها تطمئن الى صدق ما يقوله هؤلاء المهاجرون المسيحيون . ولكن ليس المهم هنا ان كان ما يزعمونه صحيحا أو غير صحيح ، وانما المهم هو أن الشعور بالتمييز والتفرقة بين المسيحيين والمسلمين في باكستان والاحساس بالظلم الواقع عليهم هو شعور واحساس موجودان عند المسيحيين بالفعل ولهما دخل كبير في تقييم المسيحيين لوضعهم في المجتمع وفي اتخاذهم القرار بالهجرة من باكستان . واذا كان المسلمون قد اختاروا الذهاب الى بريطانيا في المحل الأول نظرا لتوفر امكانيات العمل فيها فان اختيار المسيحيين لبريطانيا كان ناجما عن شعورهم بأنها أشبه شيء (بالأرض المقدسة) - حسب التعبير الذي استخدمه أحد المسيحيين الذين درست باتريشيا جيفري حالتهم دراسة تفصيلية (صفحة ٥٧) . ولكن الظاهر ان الدين لم يكن شفيعا كافيا للباكستانيين المسيحيين يساعد على قبول المجتمع البريطاني في بريستول لهم أو يشجعهم على البقاء طويلا في بريطانيا ، وان كان فتح أمامهم أبواب بعض العائلات البريطانية . فعدد من العائلات الباكستانية المسيحية تفكر الآن في الهجرة الى كندا ، وذلك في الوقت الذي تفكر فيه عدد من العائلات المسلمة في ترك بريطانيا أيضا ولكن عائدة الى باكستان . وهذا الاختلاف في الاختيار له دلالة . ولكن يمكن القول بوجه عام انه اذا كان الباكستانيون المسيحيون يشعرون بالتمييز ضدهم على أساس ديني في باكستان فان هذا الوضع تغير الى حد كبير في بريطانيا حيث يتقبل المجتمع المهاجرين المسيحيين بسهولة أكثر مما يتقبل المهاجرين المسلمين ، وهذا دليل آخر تسوقه باتريشيا جيفري على التمييز العنصري الديني في بريطانيا ازاء المهاجرين (صفحات ٦٦ - ٦٨) .

وليس معنى هذا أن الفصل العنصري هو سياسة مرسومة من الدولة بقدر ما هو شعور عام بين الناس ينعكس في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع المحلي الذي يضم جماعات عرقية مختلفة . كذلك ليس من الضروري أن يتخذ ذلك الشعور بالتنافر بين الجماعات العرقية شكل العنف كما حدث في بعض المدن في بريطانيا أو في بعض أحياء لندن ، وإنما قد يتخذ شكل التباعد ووضع الحدود على العلاقات الاجتماعية بحيث لا يتم التفاعل الاجتماعي الا في أضيق الحدود . وكذلك ليس من الضروري أن يقتصر ذلك التباعد الذي يعبر عن التمييز العنصري على البريطانيين البيض من ناحية والزنوج والملونين ككل من الناحية الأخرى ، وإنما يقوم ذلك التمييز بين مختلف الجماعات العرقية على السواء وبغير تفرقة كما تشير الى ذلك الأوضاع العامة السائدة في بريستول . فالاختلاط بين البريطانيين والباكستانيين الذين يشتركون في عمل واحد لا يتم الا في أضيق الحدود وأثناء أوقات العمل فقط . ويزيد من ذلك أن الكثيرين من العمال الباكستانيين يأخذون معهم طعامهم ويتناولونه بالتالي على حدة وانفراد وبذلك لا تناح لهم فرصة الاتصال بزملائهم من الجماعات السلافية والعرقية الأخرى - وليس فقط زملاءهم من البريطانيين - أثناء فترة تناول الغذاء . ولقد حرّمهم ذلك من فرصة الحديث باللغة الانجليزية وبالتالي اتقان اللغة التي هي أداة اتصال وتواصل في المجتمع البريطاني والتي بدونها يزيد شعورهم بالوحدة والعزلة والاغتراب . وليس من شك في أن طبيعة الطعام (البريطاني) لها دخل كبير في ذلك . فالباكستانيون المسلمون يحرصون على تناول اللحم (الحلال) وهو مالا يتوفر في الطعام البريطاني العادي ، وذلك فضلا عن الفكرة العامة الشائعة بينهم ولدى الكثيرين من الأغراب من مختلف الجنسيات والسلالات من أن الطعام البريطاني بوجه عام لا طعم له وغير مستساغ لغير البريطانيين (باتريشيا جيفري ، صفحات ٩٠ - ٩٣) بل إن الباكستانيين يحرصون وقت تناول الطعام في بيوتهم أن يسدلو الستائر حتى لا يراهم المارة في الشارع وهم يأكلون بينما لا يعطي البريطانيون لهذه المسألة أدنى اعتبار . وهذا التباعد نفسه يقوم حتى بين الجماعات العرقية التي يفترض أن بينها كثيرا من أوجه الشبه والتي تشترك معا في كثير من العناصر الثقافية كما هو الحال مثلا بين الباكستانيين والهنود ، وبخاصة الذين ينتمون في الأصل الى البنجاب حيث تتشابه الفثتان في اللغة والملابس وألوان الطعام (ربما باستثناء اللحم الحلال) . فالاختلافات الدينية والسياسية القائمة في باكستان تنعكس على العلاقات بين الفثتين في بريطانيا وتقف عقبة دون اختلاطهما بشكل أكبر فعالية في الحياة اليومية ، لدرجة أن باتريشيا جيفري التي عנית بتتبع هذه العلاقات تقول انه في بريستول لم تنشأ أي علاقة قوية سوى بين عائلتين اثنتين فقط احدهما باكستانية والأخرى هندية من مدينة أمرتسار ، وحين تتبعت الموضوع لمعرفة سر هذه العلاقة اكتشفت أن الرجل الباكستاني جاء في الأصل من أمرتسار نفسها (صفحة ٩٣) ، أي أن وحدة الموطن الأصلي كانت هي العامل الأساسي في التقريب بين هاتين العائلتين اللتين تمثلان بذلك حالة استثنائية وفريدة .

ويمتد هذا الانفصال بين الجماعات العرقية المختلفة إلى الاطفال الصغار في المدارس . فالاطفال الباكستانيون يلتحقون بطبيعة الحال بالمدارس البريطانية خاصة وأنه لا توجد مدارس باكستانية تعمل طوال الوقت ويمكنها أن تتولى وحدها مهمة تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وصحيح أن هناك بعض المؤسسات والمدارس الدينية الملحقة بالمساجد ولكنها لا تقدم للأطفال سوى التعليم الديني ولبعض الوقت فقط . وهذا لا يغني عن الالتحاق بالمدارس البريطانية من أجل التعليم الرسمي المنهجي المنتظم . ومع أنه لا يوجد فصل أو تمييز عنصري داخل المدارس فلا يكاد يوجد اختلاط

بين التلاميذ الباكستانيين والبريطانيين خارج المدارس . وتذكر لنا باتريشيا جيفري (صفحة ٩٣) أنها خلال كل الوقت الذي استغرقته الدراسة الميدانية لم تلتق بأطفال بريطانيين في زيارة بيوت (أصدقائهم) من الأطفال الباكستانيين سوى مرتين اثنتين فقط

ويزيد من حدة هذه الانفصال الذي يكاد يصل إلى حد الانغلاق أو التقوقع على الذات وجود برامج اذاعية وتلفزيونية باللغة الأردية إلى جانب صدور عدد من الصحف بتلك اللغة أيضا ، وهي صحف تهتم بأخبار « الوطن وأحداثه في المحل الأول ولا تكاد تولي الشئون البريطانية أو أحداث الغرب بوجه عام أدنى عناية أو اهتمام . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن نقول ان ما تعرضه وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة وبخاصة التلفزيون من ملامح الحياة في بريطانيا يساعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن المجتمع البريطاني ، أو أنه يسهم على الأقل في تصحيح كثير من الأفكار المسبقة التي جاء بها الباكستانيون (وغيرهم من الجنسيات الأخرى) حول العادات والأخلاقيات والسلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع البريطاني وبخاصة فيما يتعلق بسلوك المرأة والتحرر الأخلاقي والجنسي وتعتبر هذه الأفكار المسبقة من أهم عوامل تباعد الباكستانيين بالذات وانصرافهم عن إقامة علاقات مع البريطانيين . ولم تغلح وسائل الاعلام على أي حال رغم ذلك في إزالة كل الشكوك والريب . ولا تزال علاقات الباكستانيين مع البريطانيين علاقات سطحية إلى حد كبير وفي حدود ضيقة للغاية .

والطريف في الأمر هنا هو أن كل جماعة عرقية تُنصّب من نفسها حكما على سلوك وقيم الجماعات الأخرى وتخضعها لمحكاتها ومعاييرها ومقاييسها هي الخاصة ، وتنظر إلى هذه الأنماط السلوكية والثقافية من زاوية معينة تحمل في طياتها كثيرا من الشك والريبة وعدم التقدير بل وأحيانا عدم الاحترام . وقد تكون هناك أسس لهذه الريب والشكوك في بعض الأحيان ، كما هو الحال مثلا في تقييم الباكستانيين المسلمين لبعض جوانب الحياة العائلية في بريطانيا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية غير الشرعية والأطفال غير الشرعيين والعلاقات بين الآباء والأبناء وواجبات كل منهما نحو الآخر وما إلى ذلك . وتنعكس هذه الشكوك أحيانا في المقارنات التي يعقدها الباكستانيون بالذات (في بريستول) بين ما يحدث في بريطانيا وبين الأوضاع والعلاقات والروابط العائلية القوية التي عهدوها في بلادهم ، وكثيرا ما يبالغون في أحكامهم حول هذا الموضوع . فمن ذلك ما تذكره باتريشيا جيفري مثلا من أن أحد الاخباريين informant الذين كانت تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا لفهم طبيعة علاقتهم بمجتمعهم الأصلي وبالمجتمع الجديد كان يؤمن بشكل قاطع وحاسم بأن نسبة الطلاق في بريطانيا هي ٧٥٪ من حالات الزواج ، وأن الحياة الزوجية في المجتمع البريطاني هي حياة تعيسة وبعيدة كل البعد عن السعادة الحقيقية التي تعيش فيها العائلة الباكستانية حيث لا تزيد حالات الزواج غير الموفق عن حالة واحدة في كل مليون زيجة (صفحة ٩٥) . وبصرف النظر عن مدى مطابقة ذلك للحقيقة والواقع فالمهم هو أن مثل هذه الأحكام إنما تصدر عن موقف معين يحمل نظرة تقويمية معينة ويعبر عن اتجاه معين أيضا إزاء الجماعات العرقية الأخرى . وهي في آخر الأمر أحكام ناجمة عن عدم فهم الثقافات الأخرى نتيجة لقلة - أو حتى انعدام - الاتصال والاحتكاك بتلك الثقافات والاغراق أو الانحصار كلية في الثقافة الخاصة التي تسود في المواطن الأصلي ، كما تكشف عن مدى الارتباط القوي بتلك الثقافة الأصلية على الرغم من العيش في مجتمع آخر له ثقافته الخاصة ، وعدم القدرة على التحرر من تأثير هذه الثقافة الأصلية . فالعلاقة بين المهاجرين والوطن الأم بكل ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من

السهل فصمها أو التذكر لها . والأجيال التي نشأت في الهند أو الباكستان (أو غيرهما من المجتمعات التي تخرج منها هجرات كبيرة الى بريطانيا) إنما تأتي إلى المجتمع المضيف أو الوطن الجديد محملة بكل ذلك التراث الثقافي والاجتماعي السائد في الوطن الأصلي . وهذا التراث يؤثر بغير شك في سلوك هؤلاء المهاجرين في المجتمع الجديد ويحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات العرقية .

من هنا فإن أي دراسة للجماعات المهاجرة التي تعيش في بلد « الاستقبال » أو الوطن الجديد يجب أن تأخذ في الاعتبار تلك العلاقات والروابط التي تظل قائمة بين هؤلاء المهاجرين وبلد « المنشأ » أو بلد « الارسال » الذي خرجوا منه . وهذا في الواقع هو ما فعله كثير من الباحثين الذين اهتموا بدراسة وضع المهاجرين في أوطانهم الجديدة ، وهذا أيضا هو ما فعلته باتريشيا جيفري في دراستها للعائلات الباكستانية في بريستول ، وذلك على اعتبار أن الوطن الأصلي يعتبر - كما سبق أن ذكرنا - أحد طرفي عملية الهجرة . والواقع أن علماء الأنثروبولوجيا بوجه عام كانوا يرون دائما أن دراسة أي نظام اجتماعي أو أي ظاهرة اجتماعية يجب أن تتخطى حدود المجتمع المحلي الذي يدرسون فيه ذلك النظام أو تلك الظاهرة حتى يمكن تعرف المؤثرات الخارجية التي يخضع لها ذلك النظام أو تلك الظاهرة . وهذا يصدق بطبيعة الحال على دراسة الجماعات الانسانية التي كثيرا ما تمتد علاقاتهم إلى ما وراء حدود المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه . وهذا هو ما فعله - على سبيل المثال ايفانز بريتشارد في دراسته لقبائل النوير في جنوب السودان ، حيث لم يكنف بدراسة أي قبيلة من تلك القبائل على حدة وإنما درسها في علاقاتها بعضها ببعض ثم تخطى ذلك إلى دراسة علاقاتها بالقبائل الأخرى التي تحيط بها ، والتي ترتبط بها بروابط الصداقة أو العداء وكيف أن هذه الروابط تحدد نوع البناء الاجتماعي السائد عند قبائل النوير^(١٠) . وهذا مثال تقليدي قديم يسترشد به الباحثون في تتبعهم العلاقات بين المجتمع الذي يركزون على دراسته والمجتمعات الأخرى التي ترتبط به بعلاقات اجتماعية أو سياسية اقتصادية تتدخل في تشكيل بنائه وثقافته .

في ضوء هذه الاعتبارات لم تكتف باتريشيا جيفري بجمع المعلومات من الاخباريين في بريستول أو من الأشخاص الذين اعتبرتهم « حالات » تدرس حياتهم دراسة تفصيلية متعمقة ، وإنما حملتها الدراسة إلى باكستان نفسها حتى تستكمل دراسة الموضوع في كل أبعاده . وتقول في ذلك :

« لقد كانت هناك بعض مزايا واضحة ترجع إلى كوني امرأة . فقد كانت النساء والفتيات يشعرن بالسعادة للقاءني حتى وإن لم يكن في استطاعتهم الكلام بالانجليزية بينما كان الرجال يعاملونني على أنني (رجل شرف) . ولم يكن لمثل هذه الأمور أن تحدث بالنسبة للباحث الذكر . ولقد كانت اللغة هي المشكلة الكبرى إذ لم يكن يتكلمها إلا الرجال والنساء المسيحيات ، وكان من الواضح أن اتصالني بالمسلمات وبالفتيات اللاتي وصلن حديثا لن يكتب لها النجاح إلا إذا تعلمت أنا اللغة الأردية . . . وكانت أفضل وسيلة لحل مشكلة اللغة هي أن أقيم أنا نفسي في باكستان . وعلى ذلك فإنني عشت في لاهور في الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٠ إلى إبريل عام ١٩٧١ ، وهناك تلقيت دروسا منتظمة في اللغة الأردية وأقيمت علاقات

(١٠) الإشارة هنا الى كتاب :

E.E. Evans Pritchard; The Nuer, Oxford University Press, 1940.

واتصالات مع أكبر عدد ممكن من أقارب المهاجرين . وبطبيعة الحال فإن معرفتي باللغة الأردية معرفة قاصرة وحين عدت إلى بريستول عمدت إلى توطيد علاقتي من جديد مع الاخباريين . وقد أسعدهم - وبخاصة النساء - أن وجدوا أن بإمكانني الآن أن أتكلم الأردية معهم - وأنني أصبحت أهتم اهتماما كافيا ببلدهم لدرجة حملتي على الذهاب إليها . وقد ساعد ذلك عل أن يشعر النساء بالارتياح والاطمئنان ، فقد كن يرينة أنني أصبحت باكستانية وامرأة تعرف عاداتهم وتحمل لهم أخباراً من وطنهم . « (صفحة ٧٢) .

وهذا أسلوب متبع على أية حال في الدراسات الأنثروبولوجية . والأساتذة الرواد كانوا يشترطون إجادة لغة المجتمع موضوع الدراسة حتى يمكن إجراء البحث دون الاستعانة بالترجمين نظرا لما قد يضيع من معان أثناء الترجمة . ولكن المسألة تتعدى مجرد معرفة اللغة في هذه الحالة ، لأن كثيرا من أنماط السلوك التي يتبعها الباكستانيون في بريطانيا لم يكن يتيسر فهمها تماما إلا بالرجوع إلى الثقافة التقليدية التي نشأوا فيها ومعرفة العلاقات والروابط التي لا تزال تربطهم بتلك الثقافة وبالمجتمع القديم . يظهر هذا إذا نحن قارنا على سبيل المثال أوجه الصرف والانفاق بالنسبة للعامل البريطاني والعامل الباكستاني اللذين يمارسان نفس العمل . فبينما يعتبر دخل العامل البريطاني ملكا له ولأفراد أسرته ويمكن للباحث أن يتتبع بدقة كل تفاصيل أوجه الانفاق والأبواب التي يتم إنفاق الدخل فيها بالنسبة للأسرة ككل وبالنسبة لكل فرد من أفرادها فإن ذلك لا يصدق على العمال المهاجرين لأن جزءا من ذلك الدخل لا يمكن اعتباره بحال ملكا للعامل نفسه أو أسرته لأنه يرسل بالفعل خارج البلد إلى الأقارب في باكستان . ولن يمكن للباحث فهم ذلك إلا عن طريق - تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وما يرتبط بها من التزامات ومسئوليات لا نجد لها مثيلا في المجتمع البريطاني أو الثقافة الغربية بوجه عام . وتضرب لنا باتريشيا جيفري مثالا بأحد المهاجرين الذي كان ينفق على أسرته الموجودة معه في بريستول والتي تتألف من زوجة وثمانية أطفال ، ولكنه كان يعول في الوقت ذاته أبنا آخر له وأختا أرملة يعيشان في باكستان ، وذلك فضلا عما كان يرسله من نقود لشراء بيت يمكن أن يأوى إليه حين يعود إلى موطنه الأصلي . فمعظم المهاجرين الباكستانيين يضعون ذلك اليوم في اعتبارهم ويؤملون في العودة على الرغم من أن الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع يرون أن هذه أسطورة كما سبق أن ذكرنا^(١١) . بل أن أولويات الانفاق تختلف عند الباكستانيين عنها عند البريطانيين . فالباكستانيون يسارعون في الأغلب الى تسديد أقساط البيوت التي يشترونها في بريطانيا بأكثر مما يفعل البريطانيون بحيث يتم تسديد كل الثمن في فترة أقصر بكثير ، لأن ذلك يعني أنهم يصبحون بسرعة ملاكا فعليين للبيوت . وليس من شك في أن ذلك يعني أنهم يتحملون كثيرا من المشقة ويعانون كثيرا من الحرمان حتى يمكنهم سداد أقساط أكبر حجما ، ولكن هنا أيضا تتدخل الاعتبارات الثقافية في تحديد الأولويات لأن ملكية العقار بالذات عنصر مهم في تحديد المكانة الاجتماعية في باكستان (باتريشيا جيفري ، صفحات ٨٠ - ٨١) .



(١١) انظر على سبيل المثال :

وهذا الارتباط القوي بالموطن الأصلي ليس قاصراً في الحقيقة على الباكستانيين وإنما هو أمر لاحظته الكثيرون من العلماء من أمثال أنوار Anwar الذي صاغ عبارة « أسطورة العودة » في كتابه الذي أشرنا إليه ، ويتر راتكليف في دراسته للمهاجرين السود والملونين من عدد من المستعمرات السابقة الى بريطانيا كما درسهم في حي Handsworth في مدينة برمنجهام^(١٢). وهذا الارتباط القوي دليل واضح ومؤشر هام على أن المهاجرين لم يتم تمثيلهم تماماً في المجتمع الجديد ، كما أنهم لم يستوعبوا الثقافة الجديدة كل الاستيعاب ولم يتكيفوا بعد مع الأوضاع الجديدة . ولذا كانت عملية التمثل والاستيعاب والتكيف من أهم الموضوعات التي تنطرق إليها البحوث الأنثروبولوجية حول الهجرة والاقامة في مجتمعات محلية معينة ومحددة ، وبخاصة حين تكون هذه الهجرة هجرة تعددية تشمل أشخاصاً وعائلات ينتمون إلى جماعات عرقية وثقافية متفاوتة ومتباينة كما هو الحال في بريستول أو في برمنجهام . وهذا في الحقيقة يمكن أن يصدق على الهجرة في منطقة الخليج بالذات حيث تشمل أشخاصاً ينتمون إلى عدد كبير من الجنسيات والسلالات والثقافات ويعيشون معاً ، أو على الأصح يتعايشون جنباً إلى جنب ، في مجتمعات صغيرة الحجم وكانت إلى عهد قريب تتميز ببساطة البناء الاجتماعي وتعكس درجة عالية من التجانس الثقافي . وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع يميزون بين التمثل التام والتمثل غير التام أو غير المكتمل ، ويرون أن التمثل التام يتحقق حين يفلح المهاجرون بعد طول إقامة في الوطن الجديد في التحرر تماماً من ثقافتهم القديمة الأصلية ويتقبلون ثقافة المجتمع الجديد وينجحون تماماً في المجتمع وتشابك علاقاتهم وتنوع وتعدد مع أفراد ذلك المجتمع الأصليين ، فإن كثيراً من الشكوك تنتاب هؤلاء العلماء في مدى إمكان تحقق ذلك النوع من التمثل بالنسبة للمهاجرين وبخاصة من الجيل الأول^(١٣).

من ناحية أخرى يذهب بعض العلماء من أمثال جوردون M.M. Gordon في كتابه عن « التمثل في الحياة الأمريكية » Assimilation in American Life (وهو كتاب قديم نسبياً حيث نشر منذ أكثر من عشرين سنة - عام ١٩٦٤ - ولكنه لا يزال يحتفظ بأهميته في هذا المجال) - إلى التمييز بين بعدين أساسيين للتمثل هما البعد البنائي والبعد الثقافي . فالبعد الثقافي يترتب عليه تقبل واستيعاب القيم وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الجديد ، بينما يتضمن التمثل البنائي إنشاء ثم توطيد العلاقات الاجتماعية ، وبالذات العلاقات الاجتماعية الأولية ، مثل روابط القرابة والعلاقات الصداقة مع أعضاء ذلك المجتمع . ويضرب لنا جوردون مثلاً على ذلك من الولايات المتحدة حيث يبدو التمثل الثقافي واضحاً على نطاق واسع بعكس الحال بالنسبة للتمثل البنائي . وهذا هو السبب في أن المجتمع الأمريكي يتميز بالتعددية البنائية وليس بالتعددية الثقافية . فهناك فئات وجماعات كبيرة متميزة مثل البروتستانت والكاثوليك واليهود والزنج ، ويميل أفراد كل فئة أو جماعة من هذه الفئات أو الجماعات إلى الزواج فيما بينهم وبذلك يقيمون علاقات وروابط قرابية واجتماعية قوية ولكنها خاصة بهم ومتميزة عن غيرها من العلاقات المماثلة التي تقيمها الفئات والجماعات الأخرى . فهذه إذن فئات تتمايز بنائياً على الرغم من أنها كلها تشارك في ثقافة واحدة أو يسودها نوع موحد من الثقافة . وهناك من يوجه بعض الانتقادات إلى جوردون ويرون - مثلاً فعل جريلي A.M. Greely في

(١٢) London 1979, Peter Ratchliffe; Racism and Reaction: A Profile of Handsworth, op. cit.

(١٣)

(١٣) يمكن للقارئ أن يرجع في ذلك إلى الفصل الرابع عن « البناء الاجتماعي والثقافة » في كتابنا « البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع » الجزء الأول من المقومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة والاسكندرية .

كتاب نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان طريف هو « لماذا لا يمكن أن يكونوا مثلنا ؟ » Why Can't They Be Like Us? إلى أنه - أي جوردون - بالغ في إبراز عنصر التشابه الثقافي بين تلك الجماعات المتميزة بنائيا ، وأن ثمة في حقيقة الأمر اختلافات ثقافية كبيرة بينها وبخاصة فيما يتعلق بقواعد ومحكات القرابة ، وأن هذه الاختلافات والفوارق الثقافية توجد لدى الجماعات التي عاشت في أمريكا منذ عدة أجيال ولا يقتصر وجودها على الجماعات التي وفدت حديثا أو منذ عهد قريب .

فكأن التمثل الثقافي عملية صعبة للغاية ولا تتحقق إلا بعد عدة أجيال ، ولكنها مع ذلك أسرع في الحدوث من التمثل البنائي ، وأن العملية كلها على أي حال بالغة التعقيد . وهذا يصدق بغير شك على المهاجرين الباكستانيين إلى بريطانيا . وإذا كان بعض الكتاب يذهبون إلى أن المجتمع البريطاني مجتمع متجانس بنائيا وثقافيا على السواء فإن هناك من يرفض هذه الدعوى ويرى أن ثمة تعقيدات وتنوعات ثقافية هائلة ، كما أن هناك تقسيمات واضحة تتمثل في الاختلافات الإقليمية والتفاوت الطبقي والتمايز بحسب التعليم والاختلافات في الدين وما إلى ذلك ، وهي اختلافات تنعكس في كثير جدا من مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الحياة العائلية وأوجه النشاط المختلفة بما في ذلك النشاط الترفيهي وفي التطلعات المهنية والتوجهات السياسية وما إليها . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نتوقع أن يتم تمثيل المهاجرين الباكستانيين سريعا في النمط الثقافي والاجتماعي البريطاني أو يتم تمثيل هؤلاء المهاجرين في الوقت ذاته لهذا النمط مادام لا يوجد نمط واحد معين ومحدد وواضح المعالم ومادام المجتمع البريطاني التقليدي هو ذاته مجتمعا غير متجانس على عكس الشائع ، وأن فيه اختلافات وفوارق ثقافية وبنائية هائلة ؟ (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٣ ، ٨٤) .

فاذا كانت عملية التمثل الثقافي تعني اختفاء الملامح والعناصر الثقافية الأصلية تماما فإنه يكون إذن من الخطأ الكلام عن استيعاب مجتمع الاستقبال أو الموطنة الجديد للمهاجرين استيعابا كاملا ، أو اندماج المهاجرين في المجتمع اندماجا كلياً ، خاصة وأن التمثل بهذا المعنى يلقي مقاومة من الجانبين : جانب الأهالي الأصليين الذين يضعون حواجز اجتماعية عالية يعجز المهاجرون عن تخطيها أو القفز فوقها ، وجانب المهاجرين أنفسهم الذين يحتفظون بكثير من ملامح ثقافتهم الأصلية التقليدية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات وتعطيهم هويتهم الثقافية والاجتماعية التي يعتزون بها والتي يأملون أن تكون هي مفتاح عودتهم إلى وطنهم الأصلي في يوم من الأيام . وإذا كانت هناك صعوبات وعوائق تمنع - أو على الأقل تعرقل - تحقيق التمثل الثقافي التام بالنسبة للمهاجرين فإن القيود التي تفرضها الجماعة العرقية على قيام كثير من العلاقات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق بالزواج وعلاقات القرابة ، والتي تخضع في حالة الباكستانيين المسلمين بالذات لأحكام الدين الإسلامي ، تمنع من تحقيق التمثل البنائي . والمحصلة النهائية من كل ذلك هو أن يصبح المجتمع الذي يستقبل الهجرات البشرية مجتمعا تعدديا تتجاور فيه الثقافات والأبنية الاجتماعية المتمثلة في تكوين وتنظيم الجماعات العرقية المختلفة التي يكاد كل منها يؤلف مجتمعا مغلقا ومنعزلا ، أو ما يطلق عليه علماء الانثروبولوجيا تعبير social isolate . وقيام علاقات اجتماعية بين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة لن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء هذه الجماعات مهما بلغ من تشابك هذه العلاقات وتنوعها وتعقدها ، لأن هناك دائما قواعد تحكم العلاقات بين الجماعات العرقية والسلالات المختلفة ونضع فواصل في الوقت ذاته بين أشكال معينة من التصرفات بحيث يعتبر تجاوز

هذه الحدود تصرفا معينا يخضع للمساءلة والمؤاخذه^(١٤). فالتمسك بهذه الحدود هو طريقة لفرض قيود على العلاقات والاتصالات مع الجماعات الأخرى ، ونوع من الدفاع عن الذاتية الثقافية والاجتماعية . فالبريطانيون في بريستول يتمسكون بهذه الحدود وبذلك يمنعون الباكستانيين من أن يخترقوا حياتهم الخاصة أو يتغلغلوا فيها . فهناك على سبيل المثال اللامبالاة التي يبدو أنها إزاء جيرانهم من الباكستانيين ، وهناك التمييز من جانب سماسرة العقارات الذين قد يخفون على الباكستانيين البيوت المعروضة للبيع أو الايجار في مناطق معينة ، وغير ذلك من أساليب الابعاد التي تكاد تصل إلى حد النبذ ، وإن كان الباكستانيون الذين درستهم باتريشيا جيفري لا يتكلمون في العادة عن هذه الأمور ولا يكادون يشيرون إليها . ولقد سبق أن رأينا على أي حال كيف أن الباكستانيين من جانبهم يتمسكون هم أيضا بتلك الحدود ويأبون على الجماعات الأخرى سواء في ذلك البريطانيين أو الهنود أو الباكستانيين المسيحيين أو غيرهم أن يخترقوا تلك الحواجز ويتغلغلوا في حياتهم الخاصة . (باتريشيا جيفري صفحة ٨٩) . وليس المجتمع البريطاني كما يتمثل في بريستول فريدا في ذلك ، وإنما هي ظاهرة عامة وعنصر أساسي يميز سلوك أهل المجتمع الأصليين إزاء الغريب - خاصة إذا كان هذا الغريب وافدا من أجل العمل . ولكن المجتمعات تختلف في طريقة التعبير عن هذا الموقف وفي نوع القيود والحدود التي تفرضها على هؤلاء الوافدين والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حرمانهم من الإقامة الدائمة مهما طال مكوثهم في البلد المضيف . وهذه ظاهرة نجدها في كثير من البلاد العربية التي تستقبل أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة ، وفي بعض الدول الأوروبية على السواء . بل إن بعض الدول تحرم على الأيدي العاملة الوافدة اصطحاب عائلاتهم معهم على أساس أن ذلك سوف يدفع بهم إن عاجلا أو آجلا إلى العودة إلى أوطانهم^(١٥) . ولكن هذا الموقف يختلف تماما عن وضع المهاجرين الدائمين الذين يقصدون الوطن الجديد بقصد الإقامة الدائمة ويحاولون الحصول على حق المواطنة ، وإن كانت تداعبهم طيلة الوقت أحلام العودة إلى الوطن .



والذي نريد أن نقوله هنا هو أن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد ، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرون بها وبخاصة فيما يتصل بعلاقتهم بالمجتمع الأصلي الذي نزحوا منه ، ومدى ارتباطهم به ، ونوع هذه العلاقات والروابط لا تزال كلها بحاجة إلى مزيد من الدراسة المتعمقة عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الانثروبولوجي . ومثل هذه الدراسات خليقة بأن تكشف لنا عن جوانب إنسانية قلما يعطيها الباحثون ما تستحقه من عناية واهتمام . والدراسات العديدة التي أجريت في الخارج والتي أشرنا إلى بعض منها هنا كلها تكشف عن قوة الرابطة التي تربط بين هؤلاء المهاجرين وأوطانهم الأصلية وعن صدق الرغبة في العودة إلى الوطن ، وإن كانت هذه الرغبة لا تتحقق بالفعل في كل الحالات ، بل وقلما يبذل المهاجرون جهوداً حقيقية لخراجها إلى حيز التنفيذ . وكما يلاحظ اندريه جاك Andre Jacques في كتاب حديث يعرض فيه للمهاجرين واللاجئين في عدة مناطق من العالم

(١٤) Fredrick Barth, (ed); Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference, Allen and Unwin, London 1969

(١٥) Annie Phizacklea and Robert Miles; Labour and Racism, R.K.P. 1980 pp. 10-13.

اعتباراً من أمريكا الوسطى إلى أفغانستان إلى اليهود والفلسطينيين إلى نزيف الهجرة في جنوب شرق آسيا إلى منطقة الخليج إلى هجرة الأيدي العاملة في إفريقيا ، فإن كل هذه الجماعات التي « تقطعت جذورها » - حسب التعبير الذي يستخدمه في الكتاب - لا تزال مع ذلك تحمل هاجس العودة إلى الوطن الأصلي مهما طال بها الزمن في الموطن الجديد ، وأن أعداداً كبيرة منهم يفلحون في تحقيق ذلك بعد أن يكونوا قد حققوا أهدافهم من الهجرة أو نتيجة لتغير الظروف في المجتمع الأصلي وزوال الأسباب والعوامل التي دفعتهم في الأصل إلى الهجرة ، أو لعدم رغبة المجتمع المضيف في الاحتفاظ بهم نتيجة لبعض الازمات الاقتصادية التي يعاني منها ، أو بعد أن يكون قد استنفذ هو نفسه أغراضه منهم^(١٦) . وعلى أي حال فإن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى مناهج واساليب تختلف تماماً عن الاساليب السوسيولوجية والاحصائية المتبعة حالياً في معظم الدراسات التي بأيدينا وتتطلب الاتصال المباشر وتوطيد الثقة المتبادلة بين الباحث والاشخاص أو الجماعات الذين يُجرى عليهم دراسته ، كما أنها خليقة بأن تنطرق إلى موضوعات تبدو شائكة في ظاهرها ولكنها تدور دائماً في اذهان المهاجرين واللاجئين بل وايضا في اذهان واضعي السياسات واصحاب القرار في المجتمعات المضيفة ، مثل حق المهاجرين الذين اسهموا بقسط وافر في تنمية هذه المجتمعات في الإقامة الدائمة إذا رغبوا في ذلك ، ومثل ازالة الحواجز التي يقيمها المجتمع المضيف بينه وبين هؤلاء الوافدين بحيث يشعروهم طيلة الوقت بالغربة وبالتالي عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار والامساك عن العطاء كما يجب ان يكون العطاء .

دكتور احمد ابو زيد

Andre Jacques, Les Deracines: Refugies et migrants dans le monde, Editions La Decouverte, Paris 1985.

المقدمة :-

البحث في قضايا الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية يعتبر واحداً من القضايا ذات الارتباط المباشر بالكثير من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المنطقة العربية خلال الخمس عشرة سنة الماضية . ومن المهم القول أن هذه المعطيات أو « الآثار » أو « العواقب » - كما يذهب البعض في تسميتها - لم تكن مقتصرة على تلك الدول ذات العلاقة المباشرة بعملية انتقال العمالة - الدول المصدرة والمستوردة للعمل - وإنما امتدت لتشمل النظام الاقليمي العربي كما في بعض دول العالم الثالث « ذات العلاقة المباشرة مع دول المنظولة العربية .

وهي - أي عملية الهجرة لم تكن ظاهرة منعزلة عن مجمل التغيرات المجتمعية الأخرى التي ضربت نسيج المجتمع العربي - وعلاقاته بل هي في الواقع إحدى أهم إفرازات التشكيل الجديد للنظام الاجتماعي العربي وسبب له .

وتقاسمت المدرستان السائدتان في الفكر الاجتماعي الغربي معالجة هذه الظاهرة : المدرسة الكلاسيكية الجديدة وهي الأسبق من حيث المعالجة والأكثر رواجاً في معالجات قضايا الهجرة ومثلتها بشكل واضح الدراسات التي قادها فريق جامعة درهم ، بيركس وسنكلير وكتابات البنك الدولي وبعض الكتابات العربية^(١)

الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية عبر في منظومات نظرية أم إشتالية مجتمعة

بأقر سلمان بنجار

أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية البحرين الجامعية

(١) انظر في ذلك مثلاً :

J.S. Birks and C.A. Sinclair, Arab Manpower : The Crisis of Development, London, Croom Helm, 1980; J.S Birks and C.A. Sinclair, International Migration and Development in the Region, World employment Programme, Geneva, I.L.O. 1980, The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4. Autuma, 1984;

المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية - ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي الكويت ١٦ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ ، الكويت ، ١٩٧٩ ؛ أمل العنبر الصباح ، الهجرة الى الكويت من عام ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، دراسة في جغرافية السكان - الكويت - جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

ومدرسة الاقتصاد السياسي والتي مثلتها بشكل جلي دراسة فرد هوليداي وبعض الدراسات الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية وبعض الدراسات الحديثة (٢).

وتهدف هذه الدراسة لمعالجة طبيعة وخصائص الهجرة في المنطقة العربية والعوامل المؤثرة فيها واختيار مدى مصداقية الأدوات النظرية التي وظفت لمعالجة الظاهرة .

أولاً - الهجرة العمالية : مشكل النظر :-

في البدء لابد من تأكيد حقيقة شاركنا فيها الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية ، وهي ان معظم الدراسات الكلاسيكية ذات المنحى الديموجرافي والسوسولوجي والاقتصادي - المعالجة لقضايا الهجرة وانتقال العمالة في الغرب وباعتمادها على متغيرات فردية لم تساعد على تطوير فهمنا لمشكل الهجرة في المنطقة العربية . فليس أسهل من صياغة قوائم لمتغيرات - لانشك في صحتها طمعا - لأفراد غادروا لأسباب متعددة مثل تحسين الأوضاع المعيشية ، تعليم الأطفال ، الالتحاق بالعائلة ، . . . الخ كمتغيرات فاعلة في عملية الهجرة . وبدون شك فان الاعتماد على محدودية وسكونية بعض هذه المداخل المنهجية في معالجة قضايا الهجرة قد أدى الى صياغة مفهومية Conceptualization خاطئة لمشكل الهجرة .

فالتصورات النظرية الأولى مثلا ، تبنت ما يسمى بمعادلة التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافية المختلفة كما صاغها جون ميلز John S. Mills والذي يفترض أن الهجرة ما هي إلا شكل من أشكال إعادة التوازن السكاني بين الوحدات الكونية . أي بمعنى آخر أن الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني في مناطق العسر ، مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافية الآخذة في النمو Growing Units من الأيدي العاملة وبهذا فإن الهجرة تعتبر إحدى العمليات المساعدة على إعادة التوازن بين الحاجة للمصادر البشرية وتوفر رأس المال (٣) .

وبقدم الاقتصاديون التقليديون Conventional Economists تصورا لعملية الهجرة قائما على فكرة عملية التنظيم الذاتي Self-Regulating Process حيث تتكيف الحاجة للطلب على العمالة مع المعروض في الوحدات الجغرافية المختلفة ضمن إطار الاقليم الواحد . فارتفاع الرواتب في المدن وكذا ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الخدمات يساعد على ارتفاع معدلات الهجرة من الريف للمدن (٤) . من ناحية أخرى تذهب نظرية التجارة الدولية - Interna-tional Trade Theory فتقدم تصورا مشابها للهجرة إذ أن الدولتين غير المتساويتين في الإمكانيات والسعة

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذه الكتابات انظر :

Fred Halliday, Migration and the Labour Force in the oil Producing states of the Middle East, Development and change Vol. 8, No. 3, July 1977;

نادر فرجاني وآخرون ، العمالة الأجنبية في أنظار الخليج العربي ؛ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد العربي للتخطيط ، يناير ١٩٨٣ ، بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣ ؛ سعد الدين ابراهيم النظام الاجتماعي العربي الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٢ ، نادر فرجاني ، الهجرة الى النفط ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣ .

(٣)

John S. Mills, Principles of Political Economy, London, Langmans, 1909.

Alejandro Portes and John Walton, Labor, Class and the International System, London, Academic Press, 1981. p. 26. (٤)

الإنتاجية بإمكانها التمتع بنوع من التبادل الثنائي لأمكانياتها المتاحة : السلع الرأسمالية والعمالة . وقد يكون باستطاعة إحدى هاتين الدولتين توظيف رأسمال وقوة عمل الدولة الأخرى بانتاجية اكبر ، أو ان يكون لاحدهما ميزة انتاج بعض السلع على الأخرى . بمعنى آخر فان التجارة والهجرة سيساهمان في رفع دخول الدولتين أو الدول الداخلة فيهما .^(٥)

أما نظرية التحديث Modernization في علم الاجتماع فإنها تقدم شكلا آخر من نظرية التوازن -equilibrium حيث تفترض هذه النظرية أن الهجرة وانتقال العمال بشق أشكالها ما هي إلا نتاج لثنائية ما أسمته بالنسق القيمي Value System السائد في دول المنشأ Countries of origin^(٦) . فالتوازن لدى هذه النظرية يتحقق عن طريق هجرة افراد المجتمعات المتخلفة الأكثر تعلقا بالحضارة المتقدمة لدول المركز تاركين وراءهم السكان التقليديين . وتعتقد نظرية التحديث هذه أن التعرض لنمط القيم الغربية ، التغريب (الوسترن) ونمط السلوك الاستهلاكي يساهم في خلق الانقسام ضمن سكان الدول المتخلفة . فالأكثر تعلقا بنمط وحياة الماضي يسمون بالتقليديين Traditionals مقابل المحدثين Moderners ، أي الراغبين في التكيف أو المتكيفين مع نمط الحياة الجديدة في شكلها الغربي . وباستخدام كلمات دانييل ليرنر Daniel Lerner فان اكتساب ما أسماه « بالحساسية الدينية » أو التعاطف مع الآخرين empathy يعين أفراد المجتمع على التكيف والعمل بكفاءة في عالم متغير . ويعلق ليرنر على ذلك قائلا ان سكان المجتمعات المتطورة وبخلاف سكان « الدول النامية » يتميزون بخاصية القدرة العالية على تقبل الجديد والتعاطف مع الآخرين .^(٧)

وبشكل عام فإن معظم النظريات السابقة والتي انطلقت أساسا من خبرة الهجرة العمالية في المجتمعات الغربية تدعي أن الهجرة ذات مضمون إيجابي لكلا طرفي الهجرة : الدول المصدرة والمستوردة للعمالة . وبلخص لنا رأي رست هذا الرأي بالقول :

« إنه لوضع لا يوجد فيه أي خاسر ، فالمهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلقى بالاضافة للأجر العالي التدريب الفني والمهني الذي فيما بعد يساهم في عملية التنمية في دول المنشأ . أما دول الاستقبال فإنها باستقبالها لقوة العمل الوافدة فإنها في هذه الحالة تحصل على عمالة لم تتحمل في نشأتها أية تكاليف تذكر » .^(٨)

(٥) Philip L. Martin and Alan Richard, International Migration, Monthly Labour Review, october, 1980, p. 6.

(٦) Andrew Webster, Introduction to the Sociology of Development, London, Macmillan, 1984.

(٧) Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East, N.Y., Free Press, 1965, PP. 49/50.

(٨) Ray C. Rist, The European Economic Community (E.E.C.) and Manpower Migration Policies and Prospects, Journal of International Affairs, Vol. 33, No. 2, fall/Winter, 1979, P. 207.

فالمؤيدون لعملية الهجرة أو القائلون بعائدها الايجابي يرون فيها أحد العوامل الرئيسية المساهمة في تخفيف التضخم السكاني في المناطق المزدهرة بالسكان وقيم ذلك عن طريق اتحاد العائلات بأفرادها المهاجرين في دول المستقبل يساهم في انخفاض عدد سكان الدول الطاردة للعماله ، ارتفاع معدلات هجرة العزاب أو المتزوجين غير المصحوبين بعائلاتهم ساعد على ارتفاع سن الزواج وبالتالي تقليل الانجاب كما هو في الحالة الأولى أو تقليل الانجاب كما هو في الحالة الثانية ويؤكد هذا أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية .

وذلك من دراسة لبعض الاحصاءات الخاصة بالانجاب في أوساط أسر المهاجرين في الجزائر حيث وجد أن معدل الانجاب في الأسر ذات العائل المهاجر انخفض إلى نحو ٢٥٪ كما ان معدل انجاب الأطفال انخفض هو الآخر من ٤,٧ إلى ٣,٥^(٩) . الا أننا نضيف على ذلك فنقول ان الاستقرار النسبي والمؤقت لبعض الأسر المهاجرة في الدول الأوروبية ، من مناطق الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال عاملاً مهماً في انخفاض حجم التضخم السكاني في دول مثل الهند وباكستان وتركيا والجزائر ومصر .

بالإضافة لذلك فقد قيمت الهجرة على أنها ذات تأثير إيجابي على أسواق العمل في دول الارسل . لذا فقد اعتبرت البطالة وعلى الدوام من القوى الطاردة للعماله . من هنا جاء تشجيع الكثير من أصحاب القرار لهجرة الفائض من الأيدي العاملة كعامل مساهم في تخفيف حدة البطالة في دول المنشأ ، كما أنها من ناحية أخرى وكما قال كنز لي بيركر : « ستساعد على تنشيط عملية النمو بازاحتها للمعوقات في السوق . . »^(١٠)

وتذهب لوتس Lutz مذهباً آخر وذلك بافترضها أن الهجرة العمالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأي توسع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسله للعماله . فازاحة الفائض السكاني هنا سيساهم في رفع معدلات الدخل والتي بدورها ستساهم في زيادة الطلب على السلع المصنعة .^(١١)

وعلى العكس من ذلك فإن الشواهد المتاحة امامنا لم تدعم الادعاء السابق ، حيث ان بعض الدول الأوروبية وجدت نفسها مضطرة أمام تزايد هجرة قوة عملها لوقف هجرة السكان من بعض المناطق وذلك لضمان استمرارية تقديم بعض الخدمات المجتمعية التي اصبحت بالقصور نتيجة لهجرة قوة العمل المحلية .^(١٢) بالإضافة لذلك فإن هجرة

(٩)

Organization for Economic Co-operation and Development, Migration and Transfer of Technology Case Study : Algeria, Morocco, Tunisia and France, development Centre, Paris, 1975, P. 72.

(١٠)

C.P. Kindleberger, Europe's Post-War Growth : The Role of Labour Supply, Cambridge, Harvard University Press, 1967-P. 106.

(١١)

V. Lutz, Some Structural aspects of the Southern problem the Complementarity of emigration and industrialization, Banca Nazionale del Lavoro Quarterly Review No. 59, 1961, PP. 367-402, In B. S. AL-NAJJAR, Aspects of Labour Market Behaviour In An Oil Economy, A study of underdevelopment and Immigrant Labour in Kuwait, Ph. D Thesis, University of Durham, 1983, P. 39.

(١٢)

Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, London, Oxford University Press, 1973, P. 413.

القائض السكاني من المناطق الفقيرة لدول الشمال الأوروبي يعتبر انتقالا لبعض عناصر فائض القيمة لهذه الدول وذلك بافتراض حجم المدخلات المادية التي تم انفاقها على هؤلاء من سن الطفولة حتى دخولهم سوق العمل ، وكذا يمكن القول أن ما يسمى بالفائض السكاني في دول العالم الثالث لم يكن أبدا هكذا بل إنه نتاج لطبيعة الأنماط التنموية المتبناة وانعدام التكافؤ في توزيع ناتج فائض القيمة داخليا من ناحية ومحصلة لولوج هذه الدول منظومة عمل النظام الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى وهو ما سنشرحه فيما بعد .

وأخيرا تأتي التحويلات النقدية المرسلة من المهاجرين لذويهم في دول المنشأ على أنها إحدى أهم ميزات الهجرة لدول الغرب وقد علق أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية على هذه الظاهرة في حالة الجزائر بالقول :

« تعتبر مساهمة العمال المغتربين في ميزان المدفوعات الجزائري من أهم مصادر الدخل فالتحويلات النقدية هؤلاء العمال تعتبر إحدى مصادر تغطية العجز في الميزان التجاري وبالتحديد في الفترة السابقة لارتفاع اسعار النفط (قبل خريف عام ١٩٧٣) : أما في المغرب فإن التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة إحدى أهم مصادر ميزان المدفوعات وكذا في تمويل التنمية » . (١٣)

أما في حالة التحويلات النقدية للمهاجرين والعمال الأتراك فان نيرمن أبدان Nermin Abdan تنحو في معالجتها له منحى حذرا إذ تقول :

« قد يكون من الحق القول بأن التحويلات النقدية للمهاجرين من الأتراك ساهمت في رفع المستويات المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من المجتمع التركي ، وتخطت العجز في الميزان التجاري ، وأنعشت من قوة التوجهات الاستهلاكية لهذه الجماعات ، إلا أنها نادرا ما ساهمت في الاستثمارات الانتاجية » . (١٤)

وبشكل عام ، فلو قبلنا جزئيا فكرة أن التحويلات النقدية قد تساهم في تحسين الأوضاع المعيشية لبعض أسر المهاجرين في دول المنشأ وتغطية العجز في ميزان المدفوعات ، إلا أن كل هذه التغيرات التي اعتبرت على أنها إيجابية ليست ذات علاقة بإنتاجية الاقتصادات المعنية وإنما بالبقاء المؤقت للعمالة المهاجرة وبطبيعة تطور اقتصاديات دول الاستقبال . بالإضافة لذلك ، فإننا لم نجد من الشواهد العملية ما يؤيد ما ذهب إليه بعض الدراسات من أن

Organization For Economic Co-Operation and Development, Op. Cit, P. 66.

(١٣)

N. Abadan-Unat et al., Migration and Development, Ankara-Ajamstwrk Press, 1975, P. 380.

(١٤)

التحويلات النقدية للمهاجرين تم استثمارها إنتاجيا خصوصا إذا ما عرفنا أن الكثير من الأموال النقدية تم تحويلها عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية لا تمتلك الجهات الرسمية أية سلطات بخصوص طبيعة ومجالات توظيفها .

باختصار فإن وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة قد اعتمدت على محركات اقتصادية غير مدعومة بشواهد أمبريقية . أي بتعبير آخر إن هذه الاتجاهات رغم أهميتها في تفسير الظاهرة ، إلا أنها قد اعتمدت على متغيرات فردية منسلخة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه ، وهذا ما حاول تفاديه الاتجاه الآخر المسمى بالاتجاه النقدي أو اتجاه الاقتصاد السياسي .

أ - اتجاه الاقتصاد السياسي في تفسير الهجرة :

دفعت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خبرتها دول الارسال في العالم الثالث بعض مفكرها من المهتمين بالتنمية لمناقشة قضية الهجرة من منظور اجتماعي - اقتصادي أوسع يأخذ في اعتباره ظروف التشكل الاقتصادي والسياسي لدول الارسال وموقعها ضمن منظومة عمل السوق الاقتصادي العالمي .

وترجع بدايات بروز هذا الاتجاه إلى كونر ميردال Gunner Myrdal والذي بخلاف السابق يرى في هجرة عمال العالم الثالث لأوروبا نوعا من الافقار Impoverishment وإزاحة للمصادر البشرية من سكان العالم الثالث . فالهجرة العمالية لأوروبا في العقدين الخامس والسادس لم تساهم في تنمية دول الارسال كما تذهب الاتجاهات السابقة بل على العكس من ذلك كرسست من واقعها المتخلف وتبعيتها للغرب .^(١٥)

أما رواد مدرسة التبعية وبالتحديد بول بوران Baul Baran فيؤكد أن العلاقات التجارية بين الدول الفقيرة والدول الغنية وكذا حركة الاستثمارات الأخيرة لم تساهم في تضيق الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية في تكريس خضوع الدول الأضعف . وتقوم فكرة باران هذه على أن تقدم العالم المتطور جاء بعد مصادرة فائض القيمة في الدول النامية التي خضعت في البداية لشروط التجارة الغربية ومن ثمة للاستعمار الغربي . وقد طور أندرو فرانك Andre Frank هذه الافتراضات إلى نظرية في التخلف . ويمكن صياغة الافتراض الرئيسي لاتجاه مدرسة التبعية في التالي : « ان التخلف لم يكن حالة وجدت عليها اقتصاديات العالم الثالث قبل إخضاعه للنموذج الأوروبي ، بل نشأ وتطور في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم في المراكز الرأسمالية المتقدمة ، أي أن التخلف والتقدم هما وجهان لعملة تاريخية واحدة بدأت مع ولادة النظام العالمي للرأسمالية منذ القرن السادس عشر »^(١٦) .

أي أن مدرسة التبعية لا تعتبر التخلف نتيجة لصيقة بطبيعة الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث بقدر ما هو نتاج لتلك العلاقات التاريخية التي ربطته بمنظومة الدول الرأسمالية المتقدمة . لذلك فالنظام الرأسمالي العالمي - بالنسبة لأصحاب هذه النظرية - يتكون من منظومتين من الدول ، الأولى وتتكون من عدد صغير من الدول المسيطرة والمتطورة المستغلة - بكسر الغين - التي تشكل المركز Centre أو المتروبول Metropolis ، والثانية ويتكون من عدد كبير من دول العالم الثالث المستغلة - بفتح الغين - تشكل المحيط Prephiry أو التوابع

Gunner Myrdal, Rich Lands and poor, N. Y. Harper Row, 1957.

(١٥) انظر مثلاً :

(١٦) محمد السيد سعيد . نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٦٢ ، أبريل ١٩٨٤ ، ص ٣١ .

Satellite . واستنادا لهذه النظرية ، فالهجرة من دول المحيط إلى دول المركز تمثل استمرارية لواقع الاستغلال ونزوحا لفائض القيمة لصالح الدول المتقدمة^(١٧) وبهذا المعنى جاء اعتبار الهجرة شكلا من اشكال الاستعمار الجديد Neo-Colonialism على أساس أنها جزء من فائض القيمة المنقول لدول المركز والمساهم في تنمية العالم المتطور . وقد علقت دراسة حديثة ، حول هجرة الجزائريين لفرنسا على ذلك بالتالي : -

« تمثل هجرة العمال الجزائريين لفرنسا ودول الرأسمالية المتقدمة (في أوروبا) أحد العوامل الرئيسية في استمرارية تبعية الجزائر لهذه الدول . فحرية انتقال اليد العاملة تمثل أحد المتغيرات الهامة للعلاقة (غير المتكافئة) بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة » .^(١٨)

بشكل عام فإن مدرسة التبعية في تناولها لمشكل الهجرة لا توضح لنا بالقطع مدى إمكانية تغيير الشروط الحالية للعلاقة القائمة بين الشمال والجنوب كما أنها في الوقت ذاته الذي تفسر هجرة عمالة العالم الثالث لأوروبا على أنها نزوح لفائض القيمة واستمرارية لواقع الاستغلال والتخلف لا تقدم تفسيراً واضحاً لطبيعة الهجرة من وإلى العالم الثالث .

وحاولت الدراسات الحديثة وخصوصاً تلك التي عاجلت في بعضها قضايا الهجرة من وإلى العالم الثالث ، تجاوز هذا المعضل بتبني ما يسمى بمدخل المنظومة العالمية World-System Approach وذلك باعتبار أن الهجرة لا تحدث بين وحدات جغرافية منفصلة وإنما هي جزء من الديناميات الداخلية لنظام متجدد . فالنظام الرأسمالي العالمي نظام دائم التجدد لكن دون تغير أساسي في ديناميات تراكم رأس ماله . وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات القادمة ولكن من أين نبدأ ؟

ب - تدويل رأس المال :

يعتبر نمط الانتاج الرأسمالي أول نمط إنتاجي يخضع الكرة الأرضية Globe لشروطه كنظام يقوم النمط الرأسمالي في الإنتاج على خاصية تراكم رأس المال وهي بطبيعتها ذاتية التوسع Self-expansion . إلا أن هذه العملية - أي الطبيعية الأخطبوطية أو الامتدادية للنظام الرأسمالي ليست بالعملية السهلة فهي قد مرت بمراحل مختلفة اتسمت كل منها بخصائص وديناميات معينة . فالقوى المحركة الخاصة بكل مرحلة من المراحل في تناقضها ثم في اضمحلالها تدفع باتجاه التحول في النظام وبالتالي بروز لقوى محركة جديدة وإيدان بيده مرحلة أو حقبة جديدة منه . وكمحصلة لذلك فقد تم إخضاع معظم دول العالم - وكما أشرنا سابقاً - لشروط عمل النظام الرأسمالي ، لذا فتاريخ الدول النامية هو في الواقع تاريخ اختراق النمط الانتاجي الرأسمالي وتناقضه مع الأنماط الإنتاجية « التقليدية » القائمة والذي قاد ويقود بالتالي إلى تدويل رأس المال .^(١٩)

(١٧) عدنان الماري - ملاحظات نقدية حول نظرية التبعية ، مجلة الفكر ، العدد الأول ، ١٩٨٤ ، ص ١٣١

(١٨)

Kader Ammut, et, al., Les Contradictions d'un Développement National, Paris, Maspro, 1974, P. 102, in B.S. AL-NAJJAR Peter Nore and Tersia Turner, Oil and class Struggle, London, Zed Press, 1980, P. 44.

(١٩)

Op. Cit. P. 44.

من هنا جاء اعتبار البعض ، النظام الرأسمالي من خلال هيمنته على الكون العامل الأساسي المؤثر في شكل ومبيرة التنمية في العالم الثالث ، فأصحاب الاتجاه البرجوازي الليبرالي يعتقدون أن تحقيق التنمية في الدول النامية يتم عن طريق تضيق الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة والذي بناء عليه سيتاح لدول العالم الثالث التمتع بنفس ثمار التطور الرأسمالي مثل انخفاض معدل النمو السكاني ، زيادة في دخل الفرد ، تراكم في رأس المال المحلي ، وتطور في مستوى التطبيب والصحة والمشاركة . . الخ . أي بتعبير آخر ، فإن في اعتقاد أصحاب نظرية التحديث -Mod ernization Theory ان تخلف دول العالم الثالث هو نتاج لقلة مصادر الثروة ، وضعف المشاركة في التجارة الدولية كمنتج او مصدر للغلات والسلع او كليهما ، . . وان الدول النامية حتى تتخطى ما يسمى بهوة التخلف فان عليها تبني الأسلوب الغربي في التنمية . . بالإضافة لذلك فان اصحاب مدرسة التحديث يؤكدون دائما ان معوقات التنمية في العالم الثالث غير ذات صلة بطبيعة ومنطق النظام الرأسمالي العالي وانما هي ذات طبيعة علائقية بالانساق القيمية السائدة في هذه الدول وسيادة الشخصية السلطوية وهيمنة العائلة البطراركية .

وبالمقابل فإن الاتجاه الراديكالي يرى في النظام الرأسمالي نظاما مؤسسا لعدم التكافؤ على الصعيد العالمي . فمأزق العالم الثالث ، وحسب تفسير هذا الاتجاه ، نتاج لسيادة النظام الرأسمالي الذي أسرع من تطور دول المركز على حساب منظومة العالم الثالث ، كما أن ما يسمى « بمشايخ التحديث » المقامة في الأخيرة ، وبإغفال الكم الهائل من المديح الرسمي لها ، ساهمت في زيادة هيمنة الدول الرأسمالية مما عزز بالتالي من اتجاه عدم التكافؤ على الصعيد العالمي الذي من نتاجه تطور كبير في دول الشمال الرأسمالية ركود Stagnation أو اضمحلال في منظومة الدول النامية .

وفي تفسيره لظاهرة التخلف يفترض هذا الاتجاه أن بروز ظاهرة الاحتكار في إطارها الرأسمالي في بعض من مجتمعات العالم الثالث أخضع من أنماطها الانتاجية التقليدية لمنطق إعادة انتاجه - أي الرأسمالية العالمية - ويسجل تاريخ هذه الدول منذ ان برز فيها النمط الرأسمالي في الانتاج ، استمرارية لعمليات الاستعباد السياسي والاقتصادي لرأس المال العالمي ، أي بشكل مقتضب تدويل لرأس المال الغربي :

« فظاهرة التخلف ليست هي مؤشرا للجمود والتقليدية
فحسب وإنما تمثل هي ايضا إنتاجا لتطور معين مرتبطا
أساسا بنشأة النظام الاقتصادي العالمي ومحصلة مباشرة
له . لذا فان التحليل القادر على تفسير مشكلة النمو
والتخلف في الدول النامية هو ذلك الذي يأخذ في
اعتباره تطور الاقتصاد العالمي » . (٢٠)

أما مدرسة التبعية فتعتقد أن تشكل النظام الرأسمالي العالمي وخضوع المنظومات الأخرى له قد عاق من محاولات التصنيع أو نموها في العالم النامي فتبعية الأخيرة للشركات المتعددة الجنسية ، وحاجة هذه الدول للمعونات المالية والفنية الغربية بالإضافة للفوارق الطبيعية الصارخة كلها متغيرات لعبت دورا رئيسيا في إعاقة قيام تنمية صناعية حديثة في

الدول النامية* . لذا فإن الحل بالنسبة لهذا الاتجاه يتمثل في الانفصال التام عن النظام الرأسمالي أو بما سماه البعض بالتنمية المنغلقة أو المنكفئة على ذاتها Blocked Development (٢١).

إلا أننا مع ذلك نضيف ونقول أن حركة التصنيع التي حدثت في بعض بلدان العالم الثالث وبالتحديد جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية خلال العقدين الماضيين السادس والسابع ، وكذا في انتقال فائض القيمة ضمن المنظومة المحيطية ، قد أضعفت من مصداقية تحليلات مدرسة التبعية . فليس بإمكان اتجاه الانفصال عن السوق العالمي ولا تصور التنمية المنغلقة على الذات تقديم تحليلات مستمدة من فهم تغير ديناميات النظام الرأسمالي العالمي . فالاتجاه الأول يعتقد أن تنمية العالم الثالث مرتبطة أساسا برغبة البرجوازية المحيطية فهي أي حركة التصنيع والتنمية وفي ضوء تحليلات هذا الاتجاه تعتمد أساسا على رغبة البرجوازية المحلية وليست خاضعة لقوانين موضوعية تختص بطبيعة نمط الانتاج الرأسمالي العالمي وبخلال ذلك فإن الاتجاه الآخر القائل بالتنمية المنغلقة على ذات يعتقد أن تحقيق التصنيع والتنمية في العالم الثالث يعتمد أساسا على اتجاه الرأسمالية الغربية . . (٢٢)

ج - المنظومة العالمية : المدخل البديل ؟

كما ذكرنا سابقا فإن تشكل النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية - أقام نظاما جديدا للتجارة يرتكز على أسس جديدة ، فالعالم مقسم وفق أسس هذا النظام* إلى منظومتين دول : الأولى دول نامية والثانية دول صناعية متقدمة أما منظومة الدول النامية فتختص بإنتاج وتصدير المواد الخام وتعتبر سوقا أساسيا لبيع مصنعات العالم المتطور من البضائع والسلع الرأسمالية . كما قسم العالم النامي كذلك إلى مجموعتين من الدول ، الأولى وتقوم فيها بعض الصناعات ذات التمويل والارتباط الغربي مثل صناعة السيارات في البرازيل وصناعة المنسوجات في الشمال الإفريقي وجنوب شرق آسيا . . الخ ، أما المجموعة الثانية فتقوم بدور المصدر فقط للمواد الخام كمعظم الدول الإفريقية والكثير من دول آسيا وأمريكا اللاتينية(٢٣) ، وأما منظومة الدول الصناعية المتقدمة فقد أخضعت الأولى في البدء للسيطرة العسكرية والاقتصادية المباشرة ثم احتوتها مؤخرا ضمن آليات عمل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وهي دول مستوردة للمواد الخام ومصنعة ومصدرة له .

فهيمنة النظام الرأسمالي ساهمت في حرية انتقال رأس المال الغربي إلى الدول النامية لاقامة صناعات معتمدة أساسا على وفرة المواد الخام وعلى رخص الأيدي العاملة وكثافتها ثم إعادة مصنعاتها إلى أوروبا أو إلى الأسواق القريبة لبعض دول العالم الثالث ، كالحليج والشرق الأوسط . أما هجرة الأموال الغربية للعالم النامي في السبعينات فقد جاءت

* تمثل النقطة الأخيرة الاتجاه المحدث جدا من مدرسة التبعية والذي أعطى دورا متوازنا للعوامل الداخلية - كطبيعة دور تشكيل البرجوازية المحلية ما حجم القوارق الطبقة ، قوة الأسواق القيمة . . الخ - في تخلف العالم الثالث .

* هذا التقسيم يعرف في أدبيات الاقتصاد السياسي باسم التقسيم التقليدي أو القديم للعمل على الصعيد العالمي .

Peter Nore and Oersia Turner Ibid, P. 145. (٢١)

B. S. AL-NAJJAR, Op. cit. P. 48. (٢٢)

E.A. Brett, The World Economy Since The War : The Politics of Uneven Development, London, Macmillan, 1984, PP. (٢٣)

182-192.

متسقة مع عدة متغيرات عاكسة أزمة النظام الاقتصادي الرأسمالي ، (١) عملية الاستثمارات الاقتصادية لرأس المال الغربي في الدول النامية وفي ظل معطيات الاقتصاد الغربي ذات عائد ربحي كبير اذا ما قورن في بعض الحالات بعائد الاستثمارات في اوربا ذاتها ، (٢) إن توظيف هذه الأموال وفي دول معينة فمن العالم الثالث يلعب دورا مهما في المجال السياسي من حيث دوره المساعد على خلخلة التركيبات الطبقية التقليدية القائمة واضعاف المعارضة السياسية المحلية في هذه الدول ، كما انه من ناحية اخرى ساعد على تقوية مواقع البرجوازية المحلية وفي تدعيم عملية دمج الدول المحيطة بالنظام الاقتصادي العالمي ، مدخل كهذا لا يساعد فقط على فهم التشكيل الجديد ، الاقتصادي - الاجتماعي للدول النامية وانما يساعد كذلك على فهم طبيعة عمل النظام الاقتصادي العالمي ومأزقه المعاصر .

فالكثير من الكتاب وخصوصا في الغرب يؤكدون دائما ان المأزق الحالي للنظام الاقتصادي العالمي ما هو في الواقع ال انتاج مباشر لما اسماه حينذاك بأزمة النفط Oil Crisis عام ١٩٧٣ . إلا أننا مع ذلك نؤيد أندرو فرانك Andre Frank من ان مشكل اقتصاديات الدول الأوروبية يعود الى حقبة تاريخية ابعد من ذلك كما أن جذوره اعمق مما يبدو عليه وان ما اسميناها بالمشكلة البترولية ما هي الا احدى النتائج وليست سببا للمأزق العام «(٢٤، ٢٣)» هذه الأزمة التي يمكن تحديد ملامحها ، في ازدياد معدلات البطالة في المجتمعات الأوروبية والتي قدرت حتى مطلع الثمانينات بحوالي ٣١ مليون متعطّل عن العمل في دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي ، كما ان اغلاق الكثير من الوحدات الاقتصادية والصناعية الذي هو مؤشر آخر لم يعد عاملا آخر مساهما في زيادة معدلات البطالة وانما في فقدان هؤلاء - أي العمال المسرحين - الكثير من مهاراتهم الفنية والحرفية . وكمحصلة لذلك انخفض معدل الاستثمار في هذه الدول مما زاد بالتالي من أعبائها المالية . (٢٥) فارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا على سبيل المثال والتي قدرتها بعض الأوساط المطلعة بما يقارب الخمسة او الستة ملايين نتج عنه زيادة في الإنفاق وقلة في حجم الضرائب المحصلة ، وضع كهذا افرز مجموعة من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعاني منها المجتمع البريطاني او ساهم في خلق مشكلات جديدة مرتبطة أساسا بالمأزق الاقتصادي العام الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية . وبسط مثال على ذلك الاشكال الاجتماعي - الاقتصادي الذي تعيشه بريطانيا بسبب طبيعة السياسة التاتشيرية وكذا في تبعيتها المطلقة لأمريكا وفي وجهها المعادي - والذي برز مؤخرا - للنظام الديمقراطي الليبرالي . (٢٦)

إلا أننا مع ذلك يجب أن نؤكد على أن هذه المشكلات السابقة حصلت في الوقت الذي شهد فيه رأس المال العالمي أعلى معدلات دوران وفي الوقت الذي حققت فيه بعض الشركات وبالتحديد الشركات المتعددة الجنسية وذلك عن طريق إعادة مواقع الانتاج معدلات ربحية عالية على الصعيد العالمي . (٢٧)

لقد كان يقال دائما أن الكثير من أزمات المجتمعات الرأسمالية وخصوصا ابان المرحلة الاستعمارية Colonial Period قد تم حلها من خلال اخضاع مجتمعات جديدة Fresh ذات انماط انتاجية سابقة على النمط الرأسمالي لذا

Ande Frank, Crisis In The World Economy, London, Heinemann Educational Books Ltd., 1980, P. 68. (٢٤)

(٢٥)

Folker Frobel, et al. The New International Division of Labour, London, Cambridge University Press, 1980, PP. 3-4.

Philip Armstrong, et al, Capitalism Since World War II, London, Fontana, 1984. (٢٦) (لزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :)

Folker Frobel, et al, Ibid, P. 4. (٢٧)

فان ما يميز المأزق الحالي للنظام الرأسمالي انتفاء بقع جغرافية جديدة غير رأسمالية قابلة للاستعمار . لذا كان على النظام الرأسمالي تجاوز معضلاته باعادة تشكيل النظام الاقتصادي العالمي . بعض من هذه التغيرات يمكن ملاحظتها في (١) بتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي open door Policy في اكثر من قطر في العالم الثالث ، (٢) ارتفاع عدد المراكز التجارية والصناعية الحرة Free Industrial and Trade zone (٣) نزوح بعض من الصناعات الأوروبية - لمواقع انتاجية اكثر ربحية كما هو في حالة صناعة النسيج في الشمال الافريقي وجنوب شرق اسيا ، وصناعة الالكترونيات في جنوب شرق اسيا وبعض الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب . الخ) ذات التمويل المحلي والادارة الغربية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية المنتجة للنفط واخيرا ، (٤) ترشيد آليات الانتاج! في المراكز الصناعية التقليدية . (٢٨)

وبتعبير اكثر دقة فان ازمة الاقتصاد الغربي قد دفعت باتجاه تشكل شروط جديدة لتراكم رأس المال العالمي ، من الغرب يهاجر رأس المال العالمي للبحث عن مصادر جديدة للاستثمار في بعض من مواقع العالم الثالث ، او من العالم الثالث على وجه التحديد - المجتمعات النفطية في الشرق الاوسط تهاجر اموال العالم الثالث لاعادة دورة الحياة للنظام الاقتصادي العالمي . بمعنى اخر ان تغيرا في الشروط التاريخية لتراكم رأس المال في المجتمعات الغربية منذ مطلع السبعينات قد استدعى اساليب وطرقا جديدة ادخلت من خلالها منظومة الدول المتخلفة من جديد في عملية اعادة انتاج رأس المال الغربي . وكمحصلة لذلك فان تزايداً في الهوة قد طرأ ليس بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة وإنما بين دول الأطراف بعضها ببعض : -

« تقسيم العمل على الصعيد الدولي لم يكن تغيرا في استراتيجيات تنمية لبعض الدول الغربية ، او خيارات جديدة لما يسمى بالشركات متعددة الجنسية ، إنما هو في الحقيقة نظام « مؤسسي » مبتدع للنظام الرأسمالي أملت طبيعة الظروف المتغيرة ، فهو بهذا محصلة وليس سببا لهذه الشروط التي حتمت على هذه الشركات والدول ان تفيد صياغة تراكم رأس المال الغربي وفقا لهذه الشروط الجديدة » . (٢٩)



ثانيا - الهجرة العمالية ومأزق الاقتصاديات الغربية منذ السبعينات :

يمكن القول أن تبني الدول الغربية لسياسات متشددة على صعيد الهجرة والاستقدام منذ مطلع السبعينات حتى الآن ما هو الا نتاج للمأزق البنائي للاقتصاديات الغربية وكذا التطور الكبير - سياسيا - الذي لحق بالحركة العمالية الوافدة في المجتمعات الغربية : هذا على التحديد يمكن ملاحظته في التالي :-

B. S. AL-NAJJAR, Op. Cit, P. 50.

Folker Froble, et al, Ibid, P. 46.

(٢٨)

(٢٩)

١ - عملية التسييس التي خضعت لها قوة العمل الوافدة كنتاج لتردي ظروفها المعيشية وشروط الاستخدام وكذا تردّي الأوضاع الاقتصادية والكبت السياسي في بلدان المنشأ فالاضطرابات العمالية التي اجتاحت أوروبا وقادها عمال وافدون هي انعكاس واضح لتنامي الوعي السياسي في صفوفها . فمثلا اضراب عمال المغرب العربي في فرنسا في الأول من مايو عام ١٩٧٣ وكذا إضراب العمال المهاجرين في منطقة الدور Ruhr-area في ألمانيا الغربية ، بالإضافة الى الاضطرابات التي اجتاحت بريطانيا في الفترة الممتدة من ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ والتي كانت الجاليات الوافدة طرفا رئيسيا فيها وبالتحديد الجاليات الآسيوية وجماعات الوست انديز West Indies كلها أحداث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الحركة العمالية الوافدة في أوروبا^(٣٠) . من ناحية أخرى ، فانه لا بد من التأكيد على ان هذه الاضرابات السابقة الذكر كانت أحداثا خاصة بالعمالة الوافدة لأسباب غير تلك المتعلقة بظروف العمل والأجور ، انه تطور في الوعي السياسي الخاص بالفئات العمالية الوافدة وهو نتاج طبيعي لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المعيشية . وضع كهذا زاد من مخاوف حكومات المنشأ ودول الاستقبال الغربية والذي عبر عنه في أكثر من مناسبة وعلى مستويات مختلفة . احد المضطلعين بصناعة القرار في أوروبا عبر عن هذه المخاوف بالتالي : « أصبحت الانعكاسات السلبية السياسية والاجتماعية للعمالة الوافدة تفوق في ذلك عائداتها الاقتصادية »^(٣١) .

٢ - زيادة معدلات الانفاق الرسمي على قطاع الخدمات بزيادة اعداد الوافدين القادمين مما شكل بالتالي - وحسب تفسير الحكومات الغربية - عبئا على الدولة وضغطا على الخدمات المقدمة مما انعكس سلبا على الخدمات المقدمة كما ونوعا .

٣ - التغيرات الحاصلة في ظروف تراكم رأس المال الغربي وولوج المنظومة المحيطة ضمن اطار النظام الاقتصادي العالمي .

مرة أخرى ، ورغم كل ما قيل وما قد يقال ، فلا بد من تأكيد حقيقة ان حاجة المجتمعات الأوروبية للعمالة المهاجرة ليست هي حاجة مؤقتة أو بأنها ظرف فرضه التوسع الذي طرأ على الاقتصاديات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية . فالعمالة الوافدة هي قوة عمل ضرورية لاستمرارية اداء النظام الاقتصادي الرأسمالي رغم تزايد معدلات البطالة في اوساط الجماعات المحلية . فهم ، أي العمال الوافدون يشكلون بحق ما سمي في بعض الأدبيات الفكرية « بالجيش الاحتياطي » Reserve Army المدعم لاستمرارية وظيفة النظام الرأسمالي . بالإضافة لذلك فان العمالة الوافدة تقوم بتأدية وظيفة اجتماعية - سياسية مهمة للنظام الرأسمالي ، فهي بكثرتها العددية وتنوعها الاثني والثقافي تزيد من واقع الفروقات بين افراد الطبقة الواحدة ، بين الجماعات الوافدة والسكان المحليين لاعتبارات عرقية وظروف الاستخدام الافضل الذي تخضع له العمالة المواطنة^(٣٢) . من هنا جاء اعتبار الهجرة العالمية كاحدى السمات البنائية

(٣٠)

Mario Nikolinkos, The New Dimension in the Employment of Foreign Workers, Berlin, International Institute For Comparative Social Studies, April, 1975, P. 4.

(٣١)

Ibid. P. 4.

(٣٢)

S. Castle and Kosack Godula, The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism, in Theodor Nikos (ed) Capital and Labour, Glasgow, Fontana, 1980, P. 119.

لنمط الانتاج الرأسمالي باعتبار ان اعادة انتاج النمط الرأسمالي لعلاقات الانتاج يعتمد اساسا على استيراد قوة عمل من خارج اطار الحدود الاقليمية .



ثالثا - الهجرة العمالية في المنطقة العربية : سمات وخصائص الظاهرة :

تقدم الدراسات الرائدة لفريق جامعة درهم (١٩٨٠) وكذا دراسة البنك الدولي لعام ١٩٨٣ تقديرات الهجرة والاستخدام في المنطقة العربية حتى منتصف السبعينات حيث قدرتها باكثر من المليون ونصف المليون شكلت الجماعات العربية حوالي الثلثين ، وتشير الدراسات اللاحقة الى تزايد حركة تنقل العمل العربي والآسيوي الى الدول العربية المنتجة للنفط في الفترة الممتدة من منتصف السبعينات حتى مطلع الثمانينات ، ويقدر البنك الدولي ومنظمة العمل الدولية اجمالي العمالة الوافدة بـ ٢,٨ مليون عامل عام ١٩٨٠ ، اما ابراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل فيقدرانها بحوالي ٣,٤١ مليون عامل لنفس العام . اما محمد لبيب شقير فيقدم تقديرا اكثر معقولة (حوالي ٥,٧ مليون عامل) نظرا لتصحيحه ما ورد في التقديرات السابقة من تقليل لحجم العمالة المصرية واليمنية المهاجرة . واخيرا تشير أحدث التقديرات المتوفرة الى أن اجمالي حجم العمل المستورد الى الأقطار العربية المنتجة للنفط عام ١٩٨٣ قد بلغ ٥,٣ مليون عامل . (٣٣)

واذا ما صدقت هذه التقديرات فان هذا يعني انخفاضا في حجم العمل الوافد بما يقارب ٥٠٠ ألف عامل في الفترة ٨٠ - ١٩٨٣ . كما ان احتمالات انخفاض حجم الهجرة اقرب الى القبول بسبب الركود الاقتصادي الذي تعرضت له الدول النفطية وخصوصا مع مطلع عام ١٩٨٦ بسبب الانخفاض الشديد في اسعار النفط الذي وصل الى ما دون الخمسة عشر دولارا . وتعد أسعار النفط احدى المتغيرات الهامة في صياغة سياسة استخدام العمالة بالمنطقة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالعائدات النفطية في دول الاستقبال نظرا لطبيعة العلاقة بين عائدات النفط وحجم الاستثمارات المحتملة في تلك البلدان من جهة أخرى . (٣٤) وكمحصلة لذلك فان المؤشرات تشير الى استمرار في انخفاض حجم العمل المستورد او في تركيبه المهني والوظيفي خصوصا في القطاعات التي شهدت توسعا كبيرا في الفترة السابقة وذات الصفة الاقتصادية المؤقتة .

من ناحية أخرى ، فان التوقيت الذي تعاضمت فيه عمليات الهجرة في المنطقة العربية (٧٣ - ١٩٨٣) بالاضافة للظرف التي جرت الهجرة في اطارها وكذلك مصاحبتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلي (دول الاستقبال ودول الارسال) وعلى الصعيد الاقليمي القومي جعل منها ظاهرة فريدة في نوعها اذا ما قورنت بمثيلاتها من عمليات الهجرة الكلاسيكية في مناطق أخرى من العالم . وخصوصا في المنطقة الأوروبية وأمريكا . بعض هذه الاختلافات يمكن تحديدها في التالي :

أ - بخلاف عمليات الهجرة الأخرى في العصر الحديث والتي تمت بين تشكيلات اجتماعية - اقتصادية مختلفة جذريا حيث انتقال العمالة من دول العالم الثالث والدول الأقل تقدما في جنوب أوروبا ، اليونان ، يوغسلافيا . . . الخ

(٣٣) ليل أحمد الحواجة : سياسات استخدام وانتقال الأيدي العاملة العربية من بلدان الارسال : مراجعة نقدية ، ورقة مقدمة لاجتماع خبراء سياسات استخدام وانتقال العمالة العربية ، نوفمبر ١٩٨٥ ، المعهد العربي للتخطيط ، ص ١٥ - ١٦ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٧ .

الى الدول الصناعية الكبرى في اوربا وامريكا ، تتم الهجرة في المنطقة العربية بين بلدان وان تفاوتت الانماط الانتاجية في كل منها الا انها تنسم جميعا بكونها تشكيلات اقتصادية واجتماعية تابعة ومتخلفة وتحتل مواقع متشابهة في التقسيم العالمي للعمل . (٣٥)

ب - بعكس حركة انتقال الأيدي العاملة الكلاسيكية والتي شملت قوة عمل احتلت الأعمال الدنيا وبسيطة العائد المالي في قطاعات التشغيل ، فان حركة انتقال العمالة في الدول العربية المنتجة للنفط تشمل جميع فئات القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة ، ذات الخبرات والمهارات أو التي يفتقر إليها وتوزع على كل قطاعات التشغيل في اقتصاديات المنطقة (٣٦) . بمعنى آخر ، إن قوة العمل الوافدة في بلدان الاستقبال المنتجة للنفط في الشرق الأوسط تشكل العمود الفقري الذي تعتمد عليه استمرارية النشاط الاقتصادي في هذه الدول . أحد كبار المسؤولين في المنطقة علق على الاعتماد المطلق لبعض دول المنطقة على العمل المستورد وبالتحديد في النصف الثاني من السبعينات بالقول :

« إذا ما قدر للمصريين أن يذهبوا ،
لأغلقت الكثير من المرافق المدرسية
أبوابها ، وإذا ما أجبر الفلسطينيون على
مغادرة البلاد ، لكفت وسائل الاعلام عن
القيام بوظيفتها ، وإذا ما جرى تسريح
(رجال الأمن والدفاع من بعض
الجنسيات) انهارت شبكة الدفاع والأمن
الداخلي ، وإذا ما أرسل الإيرانيون
والبلوش والباتان ، الذين يشكلون عماد
القوة العاملة ، الى أوطانهم ، لتوقف سير
المشاريع الحيوية التي يتواصل العمل
فيها ، كبناء الطرق والموانئ وشبكات
الري ومشاريع الإسكان والمدارس
والعيادات الطبية (٣٧) » .

ورغم محاولات بعض دول المنطقة وبالتحديد بعد الانحدار الشديد في أسعار النفط ، إعادة التوازن لتركيبها السكانية وتقليص حجم الاعتماد على العمل المستورد الا أن طبيعة النشاطات الاقتصادية المقامة وكبر حجم الاعتماد على العمالة الوافدة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة بالإضافة إلى الطريقة التي تتم بها عملية الإحلال ، حيث يتم استقبال عمالة أجنبية بمستوى الفني والمهني نفسه ، ومن القطر نفسه - وربما من القرية أو الوحدة القرابية ذاتها يجعلها

(٣٥) مكرم صادر وجليل روجية ، الجددات الاقتصادية والاجتماعية لتتقل قوة العمل العربية بين البلدان العربية ، ورقة مقدمة لندوة السكان والتنمية في الوطن العربي ، الكويت ، المعهد العربي للتخطيط ، ص ٧٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٧٠٠ .

(٣٧) ابراهيم ابراهيم ، أثر المقيمين العرب على التنمية الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي ، في انطوان زحلان وآخرون ، هجرة الكفاءات العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤ .

رغم ما يقال عن وجودها المؤقت عمالة دائمة وأساسية لاستمرارية النشاط الاقتصادي والخدمي لدول المنطقة ، لا يمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور^(٣٨) .

ولا بد هنا من التأكيد على حقيقة أن طبيعة الأنساق القيمة ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي والمشكلة خلال الحقبة الأخيرة تعيق أي استراتيجية حقيقية لتصحيح المسار / المسارات الاقتصادية ولإدماج أكبر لقوة العمل المحلية في عمليات التنمية » .

ويلاحظ أن الهجرة الحديثة لمنطقة الخليج لم تكن وليدة الطفرة النفطية في السبعينات وإنما تذهب حتى مطلع هذا القرن . ومرت الهجرة المعاصرة للمنطقة حتى الآن بأربع مراحل ، المرحلة الأولى وتمتد منذ اكتشاف النفط في الثلاثينات وربما قبل ذلك بقليل في العشرينات مع بدء عملية التحديث الإداري والتشريعي حتى مطلع الخمسينات . وتتميز هذه المرحلة بمحدودية العمل المستورد من حيث الكم والدور ، وشكل القادمون من الساحل الإيراني وشبه القارة الهندية غالبية العمل المستورد والذي تركز على وجه التحديد في قطاع النفط . أما المرحلة الثانية فتبدأ من العقد الخامس حتى مطلع السبعينات وهي المرحلة التي شهدت بداية بناء الهياكل الأساسية لمجتمعات الخليج العربي - وتميزت هذه المرحلة بالتدفق الكبير نسبياً لقوة العمل العربية وبالتحديد الفلسطينية والمصرية وجزء من قوة العمل الشامية التي تم على عاتقها بناء واستمرارية عمل الكثير من الأجهزة الرسمية الحديثة كما شهدت هذه المرحلة انخفاضاً في نسب مشاركة قوة العمل الآسيوية ، الإيرانية والهندية رغم الارتفاع في أعدادها المطلقة . وتوصف المرحلة الثالثة بالحقبة الآسيوية للهجرة وهي الفترة التي تؤرخ منذ ارتفاع أسعار النفط في خريف عام ١٩٧٣ وتنتهي بمطلع عام ١٩٨٣ . وتميزت هذه المرحلة بضخامة حجم الانفاق الرسمي والذي كمنحصلة له ارتفعت معدلات تدفق العمل المستورد وبالتحديد الآسيوية . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت مع انخفاض أسعار النفط في مطلع عام ١٩٨٣ حتى الآن . وهي المرحلة التي شهدت عودة قطاع كبير من العمل المستورد تقدره بعض الأوساط بقراءة المليون والنصف والمليونين نتيجة لتقلص الكبير والمفاجيء في حجم الانفاق الرسمي بفعل انخفاض الإيرادات النفطية والتي تقلصت خلال الخمس سنوات الأخيرة بما يقارب ٦٠٪ إذ انخفضت إيرادات دول مجلس التعاون من ١٧٠ مليار عام ١٩٨١ إلى أقل من ٦٥ مليار حتى العام الحالي ١٩٨٦^(٣٩) .

ج - عوامل الجذب والطرء المؤثرة في عمليات الهجرة في المنطقة العربية :

تكاد أن تتفق معظم الدراسات الرائدة التي عاجلت قضايا الهجرة وانتقال العمالة بين البلدان العربية على أن الهجرة وخصوصاً في ذروتها في العقد الثاني من السبعينات - ما هي إلا إنتاج للعوامل والمتغيرات الاجتماعية والسياسية الفاعلة في خلق الظاهرة . بعض من هذه العوامل تم تحديدها في فروقات الأجور بين الدول المستقبلية والمصدرة للعمالة ، معدلات البطالة والتضخم الوظيفي في دول الفائض السكاني وأخيراً ندرة القوى العاملة المؤهلة والمدربة في الدول المستوردة للعمالة .

(١) العامل الاقتصادي : يتلخص الاعتقاد السائد لدى الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية وهو بأن الهجرة عبارة عن قرار فردي يقوم بتنفيذه الشخص المهاجر نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور في

(٣٨) باقر النجار ، آثار لعمالة وافدة أم عواقب لمازق تنموي ، المستقبل العربي ، العدد ٨٢ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ١١٧ .

(٣٩) جريدة أخبار الخليج البحرينية ١٧/٤/١٩٨٦ .

الدول المصدرة للعمالة عنها في الدول المستوردة لها . بمعنى آخر أن الهجرة وانتقال الأيدي العاملة بين الدول العربية . قد حددت في ضوء الاختلافات الاقتصادية بين دول العسر ودول اليسر من المنظومة العربية وفي ضوء طموحات الأفراد لتجسين أحوالهم المعيشية وقد أكد بيركس وسنكلير في دراسة لها ذلك بالقول :

« فحجم ونمط الهجرة الدولية في المنطقة العربية حددت أساساً بالتوزيع اللامتناهي لمصادر الدخل النفطي . كما أن الأوجه التي وظفت فيها العائدات النفطية في هذه الدول أدت إلى المزيد من التنمية » اللامتكافئة وإلى فروقات في الدخل بين الدول العربية . وفروقات الدخل هي العامل الأساسي في حركة التنقلات الدولية للعمل^(٤٠) .

من ناحية أخرى ، وجد من دراسة حديثة أجريت على عينة من أساتذة المدارس والجامعات المصرية العاملين في الدول النفطية أن فروقات الأجور والطموح الشخصي كانا وراء سفر هؤلاء للخارج . فمثلاً وجد أن الحد الأقصى لمرتب أستاذ جامعي هو ١٥٠ جنيهاً مصرياً في الشهر بمصر وأن ما يكسبه (من راتبه) على مدى ثلاثين عاماً من العمل المتواصل سيكون ٤٨٦٠٠ جنيهاً . أما الأستاذ المعار للعمل في إحدى الجامعات الخليجية فيقدر راتبه بـ ٩٠٠ ديناراً في الشهر أي وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي المصري المعار للتدريس في إحدى الجامعات الخليجية سيكسب خلال سنوات إعارته الأربع ، وهي المسموح له بها من قبل السلطات المصرية ، ما يقارب من ١٢٩,٦٠٠ جنيه مصري ، أي أكثر من ضعف ما سيتقاضاه الأستاذ المصري ثلاثين عاماً من العمل المتواصل في إحدى الجامعات المصرية مع ثبات المتغيرات الأخرى^(٤١) . لذا فأننا نجد أن بعض المعارين للعمل في هذه الدول يقون فترات أطول من مدة الإعاره وبعضهم الآخر ينهي خدماته في دول المنشأ رغبة منهم بالبقاء مدد أطول في دول الاستقبال .

وبالمثل يتكرر المثال المصري ولكن بصورة أخرى في دول الإرسال العربية منها وغير العربية ، دراسة حديثة قام بها البنك الدولي عزت هجرة البنغاليين لدول الشرق الأوسط النفطية إلى الاختناقات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع البنغالي ، كالبطالة ومحدودية السعة الاستيعابية للاقتصاد البنغالي على خلق فرص عمل جديدة بالإضافة لفشل الخطة الخمسية في تحقيق أهدافها وبالتحديد في خلق فرص عمل جديدة لمخرجات التعليم وتاركيه والمهاجرين من الريف للمدن . أي بمعنى آخر أن أوضاع الاستخدام المحلي لقوة العمل بالدول المصدرة للعمالة الفقيرة نسبياً قد ساهمت في الاستجابة السريعة بها لهذا الطلب الخارجي المتزايد .

(٤٠)

J. S. Birks and C. A. Sinclair, Economic and Social Implication of Current Development in the Arab Gulf, The Oriental Connection, in Tim Niblock (ed), Social and Economic Development in the Arab Gulf, London, Croom Helm, 1980.

(٤١) سعد الدين إبراهيم ، مصدر سابق ، ص ١١٥ ، هذا وقد طرأت بعض تغييرات هامة على دخل الأستاذ الجامعي في مصر منذ صدور هذه الدراسة .

وفي الدول المستوردة للعمالة فإن الأسباب الاقتصادية قد تغري إلى اتساع فرص العمل التي خلقها الاقتصاد النفطي وخصوصاً في طفرته السبعينية ، وصغر حجم قوة العمل المحلية كما وكيفاً بالإضافة إلى برامج بناء الهياكل الأساسية البالغة الطموح ، وتعزيز وتوسعة الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والإسكان . . الخ . وأخيراً رغبة هذه الدول في تنويع مصادر الدخل فيها وبناء قاعدة صناعية معتمدة في إدارتها فنياً وتكنولوجياً على الخارج^(٤٢) .

(٢) - العامل الاجتماعي والسياسي : قد تعزي كذلك عملية انتقال العمل من دول العسر والفائض السكاني لدول اليسر المالي والعسر البشري للقرب الجغرافي والتشابه الثقافي واللغة والدين المشترك وأحياناً تدخل علاقات القرابة والدم وكذا في طبيعة التوجه الاجتماعي والسياسي لدول الاستقبال حيال الكثير من القضايا القومية المعاصرة في المنطقة العربية ، فكثرة وجود العربي في كل من الكويت وليبيا والعراق وكذا تزايد حجم المهاجرين من العمال المسلمين من أفريقيا والباكستان والهند في المملكة العربية السعودية لا يخرج عن هذا الإطار* .

أما على صعيد الدول المصدرة للعمالة ، فالهجرة قد تكون أحد أهم العوامل المساعدة على استمرارية شكل معين من الاستقرار السياسي الداخلي وذلك (بتهجير) أو هجرة المعارضين لهم سياسياً لدول الاستقبال العربية . وبالنظر لمقدار الثروة التي قد يكون فيها بعض هؤلاء ، فإن الكثير منهم قد جذبتهم حياة رجال الأعمال والمال وقد عالج سعد الدين ابراهيم . هذا الجزء من المشكلة في مناقشته لأثر الهجرة على استقرار النظام السياسي في مصر قائلاً :

« إن وجود عناصر المعارضة المصرية في بلدان النفط المجاورة ، يمثل نعمة ونقمة بالنسبة للنظام السياسي فمن ناحية ، يمثل غيابهم عن الساحة المصرية إضعافاً لصفوف المعارضة الداخلية والنظام يرحب بذلك ، اعتقاداً أو أملاً منه أن هؤلاء المعارضين يركزون على « جمع الثروة » بدلاً من « إشعال الثورة » . وقد حدث بالفعل أن بعضهم تحول من مجال السياسة إلى ميدان التجارة والنشاطات المهنية خارج مصر ، إلا أن هناك قلة لا تزال ترفع صوتها بانتقاد (النظام) ، وقد وجدت منفذاً سهلاً لتمرير أفكارها من خلال وسائل الاعلام في البلدان المضيفة^(٤٣) » .

* يقدر حجم العمالة العربية في الكويت بحوالي ٦٠٪ من إجمالي قوة العمل وفي ليبيا ٢٥٪ ، أما في المملكة العربية السعودية فيقدر حجم العمالة الإسلامية العربية وغير العربية بحوالي ٩٠ إلى ٩٥٪ من قوة العمل الوافدة .

B. S. AL-NAJJAR Op. Cit. P. 24.

(٤٢)

(٤٣) سعد الدين ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

هذا يعني أن الهجرة لبلاد النفط والمال سواء تلك القادمة من الدول العربية كمصر ، العراق والشام واليمن الشمالي والسودان ، أو من الدول الآسيوية الفقيرة كإندونيسيا وباكستان وبنغلاديش والفلبين وتايلاند . . الخ قد أزاحت جزءاً من عناصر عدم الاستقرار بتصدير المشكل بعيداً عن الحدود الجغرافية لدول المنشأ .

على صعيد الفرد فإن الهجرة لدول النفط تبدو وكأنها المخرج الوحيد لحل الكثير من الصعاب والمشاكل الشخصية كالزواج مثلاً أو شراء مسكن وتأثيثه . . الخ وقد وجد من دراسة أخرى حديثة أجريت على أساتذة الجامعات السودانية أن أحد أسباب الهجرة بالإضافة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضيق دائرة التعبير السياسي هو محاولة البعض البحث عن المال في الدول العربية المنتجة للنفط لبناء أو لشراء منزل أو شقة وتأثيثها . ويكاد أن ينطبق هذا على معظم المهاجرين من الدول العربية الأخرى وبالتحديد مصر والأردن وسوريا . . الخ^(٤٤) .



رابعاً - الهجرة في المنطقة العربية : في البحث عن التفسير :

كما هو واضح من سياق النقاش السابق أن فكرة « سوق العمل » شكلت محور أدبيات الهجرة في المنطقة العربية . فرغم قناعتنا بأهمية هذا المنحى في تفسير المشكل إلا أنه لم يقو على تفسير ظواهر ذات علاقة جدلية بظاهرة الهجرة مثل لماذا وفي هذا الوقت بالذات يتم استثمار جزء من رأس المال الغربي في بعض من أجزاء العالم الثالث رغم الفائض من العمالة ومعدلات البطالة العالية في الغرب . . الخ ؟ كما أنه لم يفسر لنا مثلاً لماذا في الغرب لا يهاجر المال النفطي للاستثمار في دول الفائض البشري في آسيا وأفريقيا . . ؟ أو لماذا تقوم الشركات الغربية العاملة في مصر واليمن وغيرها من دول الفائض البشري العربية بتوظيف عمالة آسيوية رغم توفر عمالة مثلها من الناحية الفنية في هذه الدول . . ؟ فهذه التساؤلات وغيرها الكثير يفسر لنا عجز المداخل غير المستندة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاعلة داخلياً وخارجياً في صناعة المشكل . .

بالإضافة لذلك فإن مفهوم سوق العمل قد يكون أقرب لتفسير الظواهر المثيلة في المجتمعات المتقدمة - حيث تم اشتقاقه - نظراً لتوفر المقومات الضرورية لعمل آلياته إلا أن توظيفه لتفسير أوضاع التشغيل ومستواه في الدول العربية وربما في الكثير من دول العالم الثالث ، وفي الكثير من حالاتها غير موفق . فمفهوم الاستخدام يختلف جوهرياً في حالة مجموعتي ائدول المتقدمة في مقابل المتخلفة . فهو في الأولى ينصرف إلى العمل لدى الغير بأجر نقدي وفي ظل أنظمة مقننة ومعايير يفترض أنها تستند إلى أسس البيروقراطية الحديثة . أما في مجموعة الدول النامية فتبرز أنماط من العمل والمشاركة قد لا تقوم على أسس العمل المأجور أو أن يكون لها صفة الاستمرارية والانتظام وإنما يعتمد أداء العمل فيها على اندماج الفرد ضمن منظومة عمل الأطر القرابية المالكة لوسائل الانتاج كالعمل في كنف الأسرة مالكة ووسائل الانتاج في قطاع الزراعة أو الغوص أو الرعي أو الحرف الأسرية الأخرى كالنجارة والحداة . . الخ إذ يتم إنجاز العمل وتلبية احتياجاته من القوى العاملة ضمن أطر الوحدات القرابية دون أن يتم عرضها في سوق العمل^(٤٥) .

B. S. AL-NAJJAR, Ibid, P. 24.

(٤٤) .

(٤٥) ليل أحمد الحواجة ، مصدر سابق ، ص ٢-٣ .

وبالمثل يمكن القول بالنسبة لمفهوم العرض والطلب اللذين يقدمهما المدخل الكلاسيكي الجديد . فمفهوما العرض والطلب لا يتلاءمان مع واقع التشغيل وظروفه في الدول العربية ودول العالم الثالث ذلك أن مفهوم عرض العمل مبني على افتراض الحرية التامة لأفراد قوة العمل في المفاضلة بين العمل والتمتع بأوقات الفراغ في ظل معدل الأجر السائد . أما مفهوم الطلب فهو الآخر يقوم على افتراض حرية الوحدات الاقتصادية القائمة في اختيار الفن الانتاجي المستخدم بها وفقاً للأسعار النسبية لكل من عنصري العمل ورأس المال وبافتراض إمكانية إحلال لا نهاية بينها . وفي الواقع فإننا نجد أن عملية المفاضلة غير قائمة في ظل مجتمعات العسر واليسر على السواء في المنطقة العربية حيث أن الحصول على مطلب أساسي لاستمرارية البقاء . أما من حيث الاختيارات التكنولوجية فالدول العربية كما الدول النامية الأخرى هي مستوردة للفن الانتاجي وغير مبتدعة له . ففنون الانتاج السائدة تكونت وتشكلت في الدول الصناعية المتقدمة وفقاً لظروفها ومواردها المختلفة عن تلك التي في منظومة دول العالم الثالث^(٤٦) .

وبعيداً عن مقولات المدرسة الكلاسيكية الجديدة والتي لم تخرج في تفسيرها لعملية الهجرة في المنطقة العربية عن متغيرات الجذب والطرده المتبناه في تفسير ظاهرة الهجرة الكلاسيكية لأوروبا وأمريكا . فمتغيرات مثل الحاجة لبناء مسكن أو تأثيثه ، والرغبة في زيادة الدخل ، أو الالتحاق بالعائلة في دول المهجر ، وارتفاع معدلات البطالة والتضخم السكاني في الدول المرسله للعمالة وضعف المورد البشري في الدول المستقبلية . . . رغم أهميتها النسبية إلا أن مصداقيتها لا تستقيم إلا في إطار السياق التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي للدول ذات العلاقة بالمشكل وموقعها في السوق الاقتصادي العالمي .

فحركة الهجرة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة العربية خلال العقد السابق ٧٣ - ١٩٨٣ لا يستقيم فهمها إلا في ضوء المعطيات الجديدة التي أفروزها الارتفاع الكبير في أسعار النفط خلال الحقبة السابقة ، أي أن مؤشرات الزيادة المطردة في تنقلات العمل بين وإلى المنطقة العربية لم تعد محكومة بمتغيرات عرضية أو وقتية بل هي أساساً مرتبطة بالتغيرات الجوهرية في أجهزة الإنتاج والأهمية النسبية للبلدان المستوردة والمصدرة للعمالة وطبيعة ارتباطها بالسوق الاقتصادي العالمي^(٤٧) .

فالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشت المنطقة العربية غمارها وبالتحديد انقسام دول المنظومة العربية وبفعل عامل النفط إلى دول اليسر مقابل دول العسر وكذا ضهور القوى القومية وقوى الستينات في مقابل بروز القوى التقليدية والمحافظة قد تزامن وربما ارتبط بالنظام الجديد لتقسيم العمل على الصعيد العالمي ، بعض من شواهد هذا الارتباط المتسق Articulation يمكن تحديدها في طبيعة العلاقة غير العادية التي تطورت بين دول المجموعة الأوروبية وأمريكا والمنطقة العربية . فصادرات أوروبا الغربية للمنطقة العربية ازدادت بشكل كبير خلال العقد المنصرم مقارنة بالعقود السابقة ، حيث ارتفعت صادرات أوروبا الغربية أو المجموعة الاقتصادية الأوروبية للمنطقة العربية ، خصوصاً الدول العربية المنتجة للنفط من ٢١٩٥ مليون Ecus (وحدة التعامل النقدي لدول السوق) عام ١٩٥٨ إلى ٣٢, ١٣٧ مليون (Ecus) عام ١٩٨٠^(٤٨) . بالإضافة إلى ذلك فقد زاد اعتماد المنطقة العربية على الغرب في تلبية

(٤٦) نفس المصدر السابق .

(٤٧) باقر التجار ، ظروف عمل ومعيشة العمال الأجانب - في نادر لرجاني وآخرون - مصدر سابق . ص ٨٤ .

(٤٨)

الكثير من حاجاتها ، وتبرز خطورة هذا الاعتماد في الانكشاف الغذائي للمنطقة العربية للخارج ، إذ ارتفع العجز في الميزان الغذائي من ٨٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨١ . وتشير الأرقام المتوفرة حول هذا الجانب ، إلى أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في الوطن العربي في تدهور متواصل حيث انخفضت من ٦٩٪ خلال الفترة ٧٤ - ١٩٧٩ إلى ٥٠٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٢ . ويكاد يزداد ذلك في بعض السلع الهامة كالقمح ، حيث انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح من ٤٩٪ خلال الفترة الأولى إلى ٣٥٪ خلال الفترة الثانية . وكذا يمكن القول بالنسبة للاكتفاء الذاتي من اللحوم الذي انخفض من ٩٣٪ خلال الفترة الأولى إلى ٦٧٪ خلال الفترة الثانية ، ولو جمعنا حجم واردات الوطن العربي من السلاح ومن الغذاء وهما أخطر الميادين المؤثرة على الأمن الشامل لوجدنا أن نسبتها من إجمالي واردات المنطقة في عام ١٩٨٠ . تبلغ حوالي ٥٣٪ (٤٩) .

أما السمة الأخرى لهذا الارتباط ، فهي طبيعة وأسلوب تخصيص allocation العائلات النفطية في الدول العربية المنتجة للنفط في تشييد الهياكل الأساسية وفي خطط التنمية الطموحة . هذه المشاريع والتي بضخامتها استثمارات كماً هائلاً من العمل الوافد للعمل في قطاعات التشغيل « المستجدة » لاقتصاديات هذه الدول* .

هذه المتغيرات وأخرى اقتصادية واجتماعية تمت الإشارة إلى بعضها خلال العرض السابق هي في الواقع مؤشرات فاعلة للأغماط الجديدة لتراكم رأس المال . بشكل محدد ، إنها تتيح له الاستفادة من الفائض العمالي الرخيص في دول الفائض العمالي وكذا توظيف الفائض المالي للدول النفطية ضمن حدودها الجغرافية وبطرق « أكثر إنتاجية » . أي أنه في الوقت الذي تواجه رؤوس الأموال الغربية بعض الخطورة في سبل استثماراتها في بعض الدول الآسيوية (شبه القارة الهندية مثلاً) فإن في توظيف الفائض العمالي الآسيوي في مشاريع « التنمية » في الدول العربية النفطية فائدة عظيمة وربحاً مميّزاً . فالهجرة للمنطقة العربية تعتبر المعطى الذي تم في ضوءه ربط أو ارتباط المال النفطي بالتقسيم الجديد للعمل وكذلك بالأغماط الجديدة لتراكم رأس المال . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الهجرة العمالية هي الدعامة التي تم عليها تشكل النظام الجديد لتقسيم العمل وكذا الأغماط الجديدة في عملية تدويل رأس المال خلال النصف الثاني من السبعينات ومطلع الثمانينات (٥٠) .

وخلاصة القول ، فإن الهجرة إلى المنطقة العربية وبالتحديد في حقبتها الآسيوية ، وطبيعة البرامج التنموية المقامة بالإضافة للإخفاق الشديد الذي واجهته برامج التنمية في مصر والشام والشمال الأفريقي فضلاً عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ضربت نسيج المجتمع العربي والمتمثل في ضعف المركز التفاوضي العربي قبالة الغرب وضعف قوى التغيير العربية كلها أمور ساعدت على ولوج دول المنظومة العربية بل والكثير من دول العالم الثالث ذات الارتباط المباشر بفعل عامل الهجرة أو غير مباشرة بها بالتقسيم الجديد للعمل على الصعيد العالمي (٥١) .

* تمت مناقشة هذا الموضوع في أوراق سابقة عديدة أهمها معالجة الدكتور / نادر فرجاني لهذا الموضوع في كتابه - الهجرة إلى النفط

(٤٩) خالد محمد خالد ، التقسيم الدولي الجديد للعمل واحتمالات التنمية العربية ، ورقة مقدمة للحلقة النقاشية الثانية ، العرب والأزمة الاقتصادية العالمية ، المعهد العربي للتخطيط ، فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٧

(٥٠)

B. S. AL-NAJJAR, Ibid P. 3.

(٥١) باقر النجار - المستقبل العربي ، مصدر سابق ، ص ١١٥ .

مقدمة :

تعتبر الهجرة من القضايا المهمة في الدراسات السكانية والحضرية بالإضافة الى استجواها على حيز كبير من الادبيات المختلفة وتهتم الجغرافيا بشكل خاص في قضية الهجرة كأحد المحاور الرئيسية في الحيز السكاني ، فالهجرة تعني بمضمونها البسيط حركة سكانية سواء على المستوى الفردي أم الجماعي من مكان الى آخر وبهذا تحدث تغيرا في التوازن الاقليمي في طرفيها ، وفي الاساس فقد تسببت الهجرة في اكتشاف كثير من اجزاء كوكبنا وبالتالي الى اعمارها وتطويره ، ومثلما كانت الهجرة سببا في اعمار كثير من اجزاء الارض وتحفيف العبء عن الارض المهاجر منها^(١) فانها في وقتنا الحاضر ونتيجة للتزايد الهائل في السكان اضافة الى الفوارق الاقتصادية والفنية والاجتماعية بين بلدان العالم المختلفة ادت الى بروز مشاكل وتعقيدات نتج عنها صدور قوانين وانظمة تتعامل مع الهجرة كاحدى القضايا المهمة بجوانبها المختلفة .^(٢) لقد اصبحت الحركة السكانية عملية سهلة من ناحية ، نظرا للتقدم في وسائل المواصلات والطرق واصبحت معظم اجزاء العالم بين طرفي خطها في متناول الانسان ولم تعد الحواجز الطبيعية تشكل عائقا امام تحرك الانسان من جزء الى آخر . وقد استطاع التطور التقني ان يحل كثيرا من المشكلات الصعبة ويتغلب عليها كما ساعد من جهة اخرى على سهولة التحرك السكاني . فترتب على ذلك بروز مشكلات من نوع آخر وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية اعطت للهجرة ابعادا جديدة مختلفا عنها في المراحل السابقة ، ان هذه المشاكل وصلت الى درجة التشابك في

الهجرة والهجرة المعاكسة نموذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي

عبدالرسول على موسى

قسم الجغرافيا جامعة الكويت

Wrong, D. H., "Population and Society", Random House. New York, 1969, PP. 87-90.

(١)

(٢) انظر دراسة أنان هجرة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، إصدار منظمة العمل العربية التي قدمها حافظ شقير وجون باركارسون ١٩٨٠ ، كذلك دراسة return Migration to the Maghreb : People and Policies. التي قدمها ريشارد لوس ، والن ليدلاي والسيدة آن ليدلاي ، إصدار مركز الدراسات العربية

لندن ، ١٩٨٢

العلاقات الدولية واهتمامها بها واصبحت احدى عناصر العلاقات بين الدول . فقد فرضت طبيعة التعامل بين الدول النظر الى قضية الهجرة على انها موضوع رئيسي من منظور سياسي^(٣) ايضا .

ان من الامور المتعلقة في عملية الهجرة فقدان الدول لعدد من سكانها يمثلون مستويات عالية في العلم والخبرة وهو ما يطلق عليه بهجرة العقول وتعتبر الدول النامية - والتي هي في أمس الحاجة الى مثل هؤلاء - أكثر الدول التي تتعرض للخسارة في هذه الكفاءات البشرية . فالهجرة لم تعد مقصورة على الافراد الذين يريدون تحسين اوضاعهم المادية أو الحصول على عمل بل اصبحت تتعلق بقضايا الحرية والديمقراطية والحياة الاجتماعية التي تشغل بال الانسان المتعلم وتمعهم ولذلك نجد ان نسبة ملحوظة من الذين يواصلون تعليمهم في الدول المتقدمة يفضلون البقاء ومواصلة حياتهم هناك ، كما ان نسبة من المتعلمين اصبحت تسبب قلقا للدولتين المهاجر منها والمهاجر اليها . ان الامور بالنسبة للهجرة اصبحت أكثر تعقيدا لانها - كما قلنا - اصبحت قضية متعددة الوجة ولذلك فاننا نجد في الربع الاخير من القرن العشرين ان التكتلات الاقليمية سواء السياسة منها او الاقتصادية أخذت تؤثر في الهجرة كما حدث للمهاجرين من المغرب العربي في فرنسا بعدما انضمت اسبانيا والبرتغال الى منظمة السوق الاوروبية المشتركة وحاولت فرنسا استبدال المهاجرين المغاربة بالمهاجرين من الدول الاعضاء في هذه المنظمة . وكذلك الدول العربية ممثلة في الجامعة العربية ، بدأت تهتم بمنافسة المهاجرين العاملين من آسيا للعمالة العرب . وقد اصدرت قرارات بهذا الشأن .^(٤) واذا كان في عصرنا الحديث قد صدرت تنظيمات تتعلق بالهجرة على اساس عنصري مثل اللون « الهجرة البيضاء في استراليا » وعرقى مثل ما حدث في امريكا وذلك بتوزيع حصص الهجرة على الدول الاوروبية وفي جنوب افريقيا حفاظا على النسيج الاجتماعي فانه نظرا لتطور دور المنظمات العالمية وبخاصة منظمة حقوق الانسان ، وكذلك نظرا لتشابك العلاقات السياسية والاقتصادية من ناحية وتطور التخطيط من ناحية أخرى ، وهذا التخطيط يهتم بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان . والعلاقة بينها وبين الانتاجية والتطور الاقتصادي فان هذا كله ادى الى الاهتمام بعملية التنمية وبالتالي اصبح الاهتمام بخصائص المهاجرين لا حسب اللون والفرق وانما من حيث كفاءتهم وخبرتهم وقدرتهم على لعب دور ايجابي في عملية التنمية .

اذا فالبنية السكانية مهمة جدا في سلوكيات المجموعات السكانية تجاه كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية^(٥) ومنها بدأ اتجاه جديد من قبل الدول المستقبلية للهجرة للتعامل مع المهاجرين مراعية بذلك خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية ولذلك نجد فعلا في الكويت عندما بدأت الهجرة الآسيوية الصفراء تدخل ضمن قائمة المهاجرين ، بدأت معها التحذيرات من قبل كثير من المنظمات والباحثين نظرا للاختلاف البين بين هؤلاء المهاجرين والمجتمع الكويتي كمجتمع عربي مسلم وبدأت سلبيات هذه الهجرة تبرز مع قصرها الزمني فعملية التنمية في الكويت تحتاج الى تمكين الكويتيين من الاستفادة من خبرات المهاجرين في العمل وكذلك الى التقليل قدر الامكان من التصادم

(٣) زيارة رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي الى دولة الامارات للبحث في موضوع الاجراءات المتعلقة بالهجرة وكذلك مؤثر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد صدور القوانين في فرنسا المتعلقة بالمهاجرين وعودة بعض المهاجرين الجزائريين من فرنسا .

(٤) قرارات وزراء العمل العرب عام ١٩٦٥ ، وعام ١٩٦٨ .

(٥) Clark, D. "Urban Geography", Croom Helm, London, 1982 PP. 84-86.

الاجتماعي والفكري بين الكويتيين والمهاجرين نظرا للتعدد الهائل لجنسيات وثقافات المهاجرين . وعندما جاء الكوريون والفلبينيون فان عامل اللغة اصبح حاجزا يحول دون استفاد العمالة الكويتية من خبراتهم ، كذلك فان الاختلاف العميق في سلوكيات هؤلاء المهاجرين ادى الى عزلة عميقة ليس بين هؤلاء المهاجرين وبين الكويتيين فحسب وانما بينهم وبين بقية المهاجرين وتعاني بريطانيا كذلك من هجرة الآسيويين للسبب نفسه فمثلا وجد أن الحاجز اللغوي ادى الى التقليل من عطاء الاطباء الآسيويين وانخفاض مستوى الاداء عندهم . ولا يقتصر هذا السلوك على الدول المستقبلية للهجرة او مجتمعاتها بل انه ينسحب على المهاجرين انفسهم الذين يضعون نصب اعينهم كثيرا من القضايا التي تحدد جهة الهجرة ومحطاتها^(٦) فالمهاجر ايضا يحدد جهة هجرته في ضوء معلومات عن هذه الجهة واختيار المهاجر لبلد معين يعتمد على المعلومات التي يحصل عليها عن هذا البلد من خلال ما اذا كان هذا البلد يحقق طموحاته ورغباته ام لا .

ولكن تبرز مشكلة اجتماعية واحدة تقضي على هذا القرار كأن يكون المهاجر ابا لعدد من الاناث قد لا تتفق تربيتهم وعاداتهم وتقاليدهم مع ذلك البلد المنوي الهجرة اليه وبذلك يقف ذلك حجر عثرة امام تنفيذ قراره .

اذا فالهجرة قضية متشعبة تحيط بها كثير من العناصر التي تؤثر في طرقي خط الهجرة ومحطاتها ، وهي ليست قضية تهتم بالكم وانما الاهمية تأتي في الكيف واذا كان الكم يسبب في الكيف فان القضية نسبية فهي تتعلق بالمحطات وخطوطها والهجرة وصلت ابعادها الى خط الخطر عندما بدأت الاصوات ترتفع لتطالب باعادة توزيع سكان العالم وحق الانسان في التحرك والى المشاركة في ثروات المجتمعات واذا كانت بعض هذه الاصوات هي باطل اريد به حق فان مآثره من اتفاقات بين كثير من الدول فيما يتعلق بالهجرة تقرر حرية السكان فيما بينها وقوانين ونظم حقوق هؤلاء المهاجرين كل ذلك يقرر مدى اهمية الهجرة .

وقد تصل خطورة الهجرة ذروتها وتعقيداتهما عندما تنصف بالهجرة الظالمة التي هدفها احوال مجموعة من المهاجرين مكان شعب عريق كما حصل في فلسطين او تغير البنية السكانية سواء أكانت بنية عرقية أم ثقافية كما حصل في بعض المناطق اما الخط الثاني للهجرة وهو ما يسمى الهجرة المعاكسة فهذا موضوع يحيط به كثير من الغموض والصعوبات ولم يحظ بدراسات وبحوث كما حظيت دراسات الهجرة .

وحتى المسمى يختلف عليه كثير من الباحثين ، فاحيانا يطلق عليها الهجرة المعاكسة واحيانا هجرة العودة وهاتان التسميتان تلتقي عندها ما كتب باللغة العربية والانجليزية وهما Return Migration ويختلف هذان المسميان في المفهوم ايضا فقد تكون الهجرة المعاكسة حركة معاكسة لمحطة الوصول ، متجهة لها او خارجة منها الى اي جهة سواء الى الوطن ام الى جهة اخرى ، وقد تكون مسمى هجرة العودة هي فقط العودة الى الوطن الام .

ومثلما تختلف اهداف ومسيبات الهجرة تختلف ايضا اهداف ومسيبات الهجرة المعاكسة او العودة ، فقد تكون هذه الهجرة نتيجة لقرار ترحيل المهاجرين كما حدث في السنوات الاخيرة في اوغنده ونيجيريا والعراق نتيجة لقرارات اقتصادية او تنظيمية وكما حدث في فرنسا وفي الكويت او نتيجة لانخفاض فرص العمل وتفشي البطالة . والهجرة المعاكسة قد تثير قضايا اكثر من الهجرة في خطها الاول لانها قد تثير قضايا اقتصادية مثل عودة المهاجرين الى بلدانهم وما

(٦) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، آفاق هجرة عمالة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ٢٠ .

يترتب على ذلك من بطالة وانخفاض في مستوى المعيشة وانهك للاقتصاد الوطني كما حدث في تونس نتيجة لعودة مواطنيها من فرنسا وليبيا وقد تسببت الهجرة المعاكسة اي العودة الى الوطن الام في مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية نتيجة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الاصلي والعائدين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة وسلوكياتها وما اكتسبوا من انماط الاستهلاك والقيم الاجتماعية^(٧) فضلا على انها قد تؤثر على الاقتصاد الوطني في البلد المستقبل لها . فالمهاجرون قد يقبلون بأجور منخفضة ويقبلون على اعمال لا يقبل عليها المواطنون وكذلك يؤثرون في القوة الشرائية وقضايا أخرى مثل الاسكان والمرافق الأخرى . وتواجه قضية الهجرة المعاكسة من الناحية العلمية ومشكلة صعوبة قياسها وتتبعها في محطاتها المختلفة لظروفها المتعددة . فقد تفرض ظروف معينة على الانسان المهاجر من وطنه الى بلد آخر فتتمد الإقامة به مدة طويلة تصل الى عشرين او ثلاثين سنة وهذه المدة كفيلة بان ترسخ جذورا اجتماعية في هذه الارض الجديدة ، عندما يولد وترعرع ابنائه ويكتسبون عادات وتقاليدهم الجديدة ، وتختلف المقاييس النفسية والاجتماعية والسياسية عن بلدانهم الاصلي^(٨) . فيصعب التفكير في العودة الى البلد الام ولا يؤدي هذا بالضرورة الى نزوح جلدته الاصلي واكتساب جلد جديد وبخاصة اذا كان سكان هذا البلد يختلفون عنه عرقيا وتظل ملامحه تشكل حاجزا نفسيا بل وتؤدي الى تفرقة في التعامل ومع ذلك فان خط الهجرة المعاكسة يظل مفتوحا ، اذا كان ذلك بالاختيار ، للجيل الاول وكذلك للجيلات التالية عندما يبلغ المهاجر سنا لا تعد فيها العناصر التي ذكرناها قبل قليل فاعلة .

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى لقاء الضوء على الهجرة بخطيها كحركة سكانية مستمرة والتعرف على العوامل التي تلعب دورا فيها حتى يمكننا التعرف على الافرازات المختلفة للهجرة .

ولتحقيق هذه الاهداف ، فان الدراسة ناقشت هذا الموضوع في اطار شمولي للتعرف على الحركات السكانية الرئيسية والتي تركت بصمات واضحة في مناطق جغرافية مختلفة في تاريخنا المعاصر ولقد اختارت الدراسة منطقتين جغرافيتين تمثلان نوعي الهجرة المختارة للدراسة وهي دول الخليج العربية التي تمثل حالتها الهجرة ودول المغرب العربي والتي تمثل حالة الهجرة المعاكسة ثم اختارت الهجرة نموذجا محدودا لهجرة نوعية معينة من السكان وهي ما تسمى بهجرة العقول .

ولقد اختارت الدراسة الفترة الزمنية الحديثة في دراسة الحالات ، هذه الهجرة التي مازالت تتفاعل وتعتبر نموذجا لتأثير الحركة السكانية في تشكيل كثير من الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ففي حالة دول الخليج العربية سوف تكون مجال الدراسة هي الفترة التي حدثت معها هجرة اثرت كثيرا في ملامح مجتمعات هذه الدول وهي الهجرة التي اعقبت استقلال عوائد النفط في تحديث هذه الدول ، اما حالة المغرب العربي

(٧) : سعد الدين ابراهيم ، النظام الاجتماعي العرب الحديث ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ١٣٥ - ١٤٦ .
(٨) : Al-Moosa, A., "Stability of the foreign labour force in Kuwait." The Arab Gulf Journal, London Vol. 6, No. 1, April 1986, P. 55.

فالهجرة المعاكسة بتأثيرها الواضح لم تحدث الا في السنوات الاخيرة وبالذات في اعقاب استقلال دول المغرب العربي عن دول اوروبا المستوردة . للمهاجرين منها . والذي تزامن مع المشكلات الاقتصادية التي واجهتها اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

الهجرة منظور عالمي :

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحركات سكانية غير مقيدة وكانت معظم هذه التحركات باتجاه ارض جديدة مكتشفة بما كان يسمى بالعالم الجديد . وبالطبع نتيجة للعامل الجغرافي ، عامل المساحة الذي كان يلعب دورا حاسما في عملية التحرك نظرا لبساطة وسائل المواصلات وبداية الطرق ومن ناحية اخرى يرجع الى الحالة السياسية والاقتصادية للمناطق المختلفة في العالم . ففي ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حروبا متواصلة وصراعات بين المجموعات البشرية سواء على اراضيها داخل القارة الاوروبية ام على اراض غيرها عبر المحيطات ولما كان عامل المساحة مهما وكذلك مستوى وسائل النقل ، فقد اتجه الاوروبيون الى القارة الامريكية وحدثت تحركات سكانية وهجرات جماعية ، ولقد وصلت الهجرة الى ذروتها في بداية القرن التاسع عشر فقد توجه ما يقارب من « ٥٧ » مليون مهاجر الى هذه القارة منهم حوالي ٣٠ مليون توجهوا الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الامريكية . ولقد دخل الولايات المتحدة في فترة زمنية قياسية ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ حوالي تسعة ملايين مهاجر ولقد سبق ودخلتها ثاني أكبر هجرة في فترة قصيرة وهي ما بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ وكانت حوالي خمسة ملايين مهاجر وكان حوالي ٨٥٪ من هؤلاء قد قدموا من اوروبا^(٩) وتأتي هذه الهجرة الجماعية نتيجة للفرص الاقتصادية الهائلة في الاراضي الجديدة وتطلع الاوروبيين الى نقل الاقتصاد الصناعي الى تلك الاراضي فمن هنا يمكن القول ان هذه الهجرة كانت بفعل عامل الجذب اكثر منها بفعل عامل الطرد^(١٠) مع عدم التقليل من اهميتها ، ونجد ان هذه الهجرة قد اثمرت حيث ان امريكا الشمالية بدولتها الرئيسية الولايات المتحدة الامريكية وبعد الهجرة الاوروبية الكبرى اليها اصبحت تعتبران من الدول المتقدمة ومن قوى الدول اقتصاديا لما تتمتعان به من امكانات اقتصادية اثرت بشكل خاص في الولايات المتحدة كأحدى أكبر قوتين في العالم .

أما البيئة فلها تأثير كبير على تحرك السكان فقد دفع التغير البيئي السكان الى تغيير مكان استقرارهم بل وتغيير نشاطهم الاقتصادي مثلما حدث في ايرلندا في الاربعينات من القرن التاسع عشر وذلك بعد النكسة في محصول البطاطا والذي تسبب في ايجاد بطالة هائلة في ايرلندا مما دفع جزءا من سكانها الى الهجرة وكما حدث - أيضا - في الولايات المتحدة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عندما تعرضت التربة في المناطق العربية الوسطى فيها للجرف نتيجة لسوء استغلالها من قبل المزارعين وأدى ذلك الى تعريضها للنقل بواسطة الرياح وكما تسمى بوعاء الرمل SAND BAG تلك التي أثرت على مناطق مختلفة نتيجة لهبوب الرياح المحملة بالتربة ونتيجة لذلك فقد حدثت هجرة لكثير من تلك المناطق الى مناطق اخرى في الولايات المتحدة^(١١) . ولعب التغير البيئي دورا في هجرة عدد كبير من قرى أهل التوبة التي

Wrong, D. H., 1969, P. 37.

(٩)

Ibid, P. 89.

(١٠)

Johnes, E., and Eyles, J. "An introduction to Social Geography", Oxford University Press, Oxford, 1977, P. (١١)

187.

كانت تقع بالقرب من بحيرة ناصر نتيجة لتحويل مجرى نهر النيل وإقامة السد العالي في مصر ومع ان هذه الهجرة قد تقع تحت غطاء الهجرة القسرية في أوقات السلم^(١٢) وذلك نتيجة لاتفاق حدث بين السودان ومصر بتهجير هؤلاء السكان انما كان في الاساس نتيجة لتغير بيئي وحتى لو لم يحدث اتفاق التهجير فان السكان سوف يهاجرون من تلك المناطق لان تحويل مجرى النهر وانشاء بحيرة ناصر أديا الى غمر مناطق هؤلاء السكان بالمياه .

خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية حدث تحرك سكاني ضخم ، فقد انتقل تحت التهديد والقهر والارهاب حوالي ستة ملايين شخص في الحرب العالمية الاولى وكذلك نفس الرقم تقريبا في الحرب العالمية الثانية الى مناطق غير مناطقهم الاصلية وبذلك حدثت هجرة قسرية تغير على اثرها التركيب السكاني اجتماعيا وديمقراطيا في اقاليم مختلفة في اوروبا .^(١٣)

وقد تحدثت هجرة « سياسية » وقد تسمى بحركة الحدود ، وهي تعني تبادل السكان بين الدول في المناطق التي تحدث فيها تغيرات جغرافية سياسية ونتيجة لذلك بقيت اقلية سكانية لتواجه صعوبات سياسية واجتماعية كما حدث هذا في الهند وباكستان عندما تم نقل حوالي ستة ملايين هندوسي الى الهند ومثل عددهم من المسلمين الى باكستان . وكما حدث بين اليونان وتركيا عندما تبادلوا السكان بعد حرب ١٩٢١ بين الدولتين فقد انتقل ثلاثمائة الف تركي الى تركيا ومليون ومائتي الف يوناني الى اليونان . ولا يمكن ان نقول انه كان هناك خيار لهؤلاء السكان في البقاء او الانتقال نظرا لانهم قاموا بهذا التحرك نتيجة لاتفاق بين الدول المعنية^(١٤) ولسنوات قليلة مضت حدث تحرك سكاني قسري عندما امرت السلطات في اوغنده جميع الاسيويين الذين يحملون جوازات بريطانية بمغادرة اوغنده وكذلك من الذين لا يحملون الجنسية الاوغندية وكانت هجرة بالالاف وقد احدث ذلك ردود فعل عالمية .

اما الهجرة البشرية الحديثة التي تعتبر من أبشع انواع القسر هو ما حدث للفلسطينيين في بلدهم عندما قام الكيان الصهيوني على انقاض دولة فلسطين وحلت مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات لا يجمعها الا الدين ، محل شعب تجمعهم اصالة الوطن وحدث ذلك عام ١٩٤٨ فشرد حوالي مليون فلسطيني من بلدهم وانتشروا في مناطق مختلفة من العالم مع تركيز جزء كبير منهم في بعض الدول العربية .^(١٥)

وقد تحدثت هجرة خارجية ولكنها تكون نتيجة لعوامل خارجية ، وذلك عندما تتعرض مناطق او مدن حدودية او استراتيجية للاحتلال الاجنبي او اضمحلال الاوضاع الاقتصادية نتيجة للحرب وتأثيرها على المناطق الاقتصادية كما حدث في جمهورية مصر العربية بعد قيام حرب سنة ١٩٦٧ فاحتلت سيناء واغلقت قناة السويس وتعرضت مدنها وموانئها كبورسعيد والسويس لخطر تلك الحرب وادى ذلك الى حدوث هجرة ضخمة من هذه المناطق الى القاهرة والى مدن اخرى مصرية .

(١٢) اسحق القطب وعد الاله أبو عياش . الانجازات المعاصرة في الدراسات الجغرافية ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ ، الكويت ، ص ١٩٨ .

(١٣) Johnes, E., and Eyles, J. 1977, P. 187.

Ibid, P. 187.

(١٤)

(١٥) اسحق القطب وعد الاله ، أبو عياش ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٨

ونتيجة للعنف تحدث هجرة من المناطق التي تتعرض للقصف وقد تتأثر دول بالكامل بالهجرة عندما تتعرض هذه الدول للعنف مثلما حدث للبنان عندما تعرض لحرب أهلية يصعب حتى الآن اصفاء اية صفة على هذه الحرب لان عوامل كثيرة تشابكت في النهاية لتغطي صفحة واحدة عامة وهي عنف بلا هوية وقد ادى هذا العنف الى هجرة اللبنانيين من وطنهم ومن الصعب تحديد اتجاهات الهجرة لان اللبنانيين انتشروا في جهات متعددة .

وهناك هجرات تحدث نتيجة لازدهار اقتصادي وتوفر فرص عمل في مناطق مختلفة فتحدث انقلابا اقتصاديا واجتماعيا في هذه المناطق .

ولقد تعرضت منطقة الخليج لهجرة كبيرة في فترة متباعدة من الزمن مقارنة بين حجم الهجرة وعدد السكان الوطنيين وكان دافع هذه الهجرة توفر فرص عمل كبيرة نتيجة لاكتشاف النفط واستغلال عوائده في تحديث دول الخليج العربية ونتيجة للقصور الكمي والتنوعي الذي يعانيه السكان في مواجهة المستجدات في الحالات الاقتصادية والعمرائية . ولقد ادت هذه الهجرة الى قلب الميزان السكاني وتحول السكان الوطنيين في فترة زمنية وجيزة الى اقلية في بلدانهم ولم تقتصر مصادر هذه الهجرة على مصدر واحد او عدد قليل وانما جاءت من مصادر كبيرة العدد وصلت الى مائة جنسية . وبما ان العمل هو الدافع الرئيسي لهذه الهجرة ، فقد تفوقت العمالة الوافدة على الوطنية الى ان وصلت العمالة الوطنية في بعض دول الخليج العربية الى اقل من ١٠٪ ، ولقد وصلت في الكويت عام ١٩٨٥ الى حوالي ٢٢٪ ، وتغلغلت العمالة الوافدة في كل قطاع من قطاعات العمل وكثيرا ما ترتبط الهجرة بالمستوى الاقتصادي للدول المهاجر منها اي الهجرة من الدول الفقيرة الى الدول الغنية . وقد يكون هذا صحيحا بشكل عام ، ولكن عندما تعالج القضية بتفاصيل أدق نجد ان اهداف الهجرة قد تدخل في تحديد المناطق المهاجر منها بل والمهاجر اليها .

ولذلك فان الهجرة من الدول الاوروبية كانت تشكل تقريبا من العبء السكاني على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت هذه الهجرات تلعب دورا في السيطرة على اراض جديدة وانشاء مجتمعات اوروبية في تلك الاراضي في الوقت الذي كانت الهجرة من الدول والقارات الاخرى ، نتيجة لصاله نسبتها الى السكان في تلك الدول لا تشكل تخفيفا على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت تقوم بادوار ضئيلة في الدول المهاجر لها فالمهاجرون الاوروبيون كما قلنا قاموا بادوار كبيرة حيث انهم بالاضافة الى السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناطق المهاجر اليها وبخاصة امريكا واستراليا وافريقيا ، اقاموا انظمة اقتصادية امتدادا للاقتصاد الاوروبي . ولا يمكن كما اشرنا قبل قليل انكار الدور الذي لعبته الهجرة من اوروبا في حل المشكلة السكانية التي برزت عن طريق الزيادة السكانية السريعة وعجز الموارد الاقتصادية المحلية بالمقابل .

في الدول الاخرى كان العامل الايجابي على المدى القصير هو في التحويلات النقدية التي يرسلها المهاجرون الى بلدانهم والتي بلا شك لعبت دورا في اقتصادياتها^(١٦) وقد قدرت تحويلات الدول النامية لعام ١٩٨٢ بحوالي ٢٨ مليون دولار وهذا ما جعلها قادرة على زيادة الاستيراد مما وضعها ضمن اطار مشكلة الميزان التجاري لهذه الدول ، هذا على

Burki, S., J., "International Migration Implications for Labour Exporting Countries" The Middle East Journal, (١٦) Vol. 38, No. 4 1984, P. 671.

مستوى الدول اما على مستوى الافراد فان هذا يبدو واضحا في التمايز الجغرافي بين مدن هذه الدول حيث تتميز المدن او المناطق التي تصدر المهاجرين عن المدن او تلك المناطق التي ليس لها مهاجرون من الخارج^(١٧) .

هذه الهجرات بانواعها المختلفة وبمبساتها واجهت اجراءات وسياسات لتنظيمها او لتحجيمها او لوقفها ، فالمهجرة سواء أكانت داخلية ام خارجية فان لها آثارا لا يمكن اغفالها وتركها بلا ضوابط وان ما يعانيه العالم اليوم من عملية التحضر وبروز « الكيانات الحضرية » وما تسببه من تعقيد للحياة خلق للانسان مشكلات كلفته ثمنا غاليا وهو حياته النفسية اضافة الى حياته الجسمية فتكون المدن وتوسيعها وسيطرة الحياة الحضرية جاءت لاسباب في مقدمتها الهجرة من الريف الى المدن والتحول نحو الصناعة التي وجد فيها الانسان متسعا للخروج من مشاكله ثم انقلبت عليه وبالا كما ان التحرك المستمر للسكان من منطقة الى اخرى خلق مشكلات اجتماعية واقتصادية رهية عند تأثيرها على المجموعتين المحلية والمهاجرة وتكون النتيجة تغيرات في احدى المجموعتين او ازدواجية او حتى تعددية في المجتمع . فالهجرة ليست قضية ترتبط بالارقام كعدد السكان المهاجرين وعدد المجموعات المهاجرة من المناطق المختلفة ، وكذلك مثل عدد الذكور وعدد الاناث والمجموعة الفاعلة اقتصاديا والصغيرة او الكبيرة وليست ايضا عدد العائدين ولكن الهجرة تتكون من أكبر من هذه العناصر الرقمية انها تدخل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية وما يطلق عليه في الجغرافيا بالمشاكل الحضرية والتي تنتج عن تفاعلات اجتماعية واقتصادية في بقعة جغرافية معينة ، وهي المدينة ونلاحظ هنا في هذا الصدد ان الهجرة غالبا ما تحدث في المدن . سواء أكانت الهجرة داخلية يتحرك السكان من الريف الى المدن ام من المناطق الفقيرة الى تلك الغنية او الهجرة الخارجية والتي تصب دائما في المدن حيث المزيد من الحاجة الى الايدي العاملة والى المغريات التي تتميز بها المدينة وحيث القبول الاجتماعي للمهاجر والذي لا يجده بسهولة في المناطق الريفية . وبذلك أصبحت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأخذ اتجاها خطيرة في حياة الانسان . ان تطور الحياة الحضرية جعل السكان يتجهون للمدن ويتركزون بها ، ولتصور تجمع مجموعات مختلفة الاتجاهات اجتماعيا اقتصاديا وسياسيا في بقعة محدودة من الارض تتنافس هذه المجموعات على الارض والعمل والخدمات . ان توجه الانسان للحياة الحضرية يسير بسرعة هائلة وهذه السرعة المرتبطة بالحجم الكبير للمجموعات المتحركة لا يمكن ان تعطي فرصة للمنظمات الرسمية والاهلية لمواجهتها فتزداد المشكلات .

يعزى تزايد سكان المناطق الحضرية بالمعدلات العالمية الى الهجرة من الريف الى المدن اضافة الى تقدم وتطور العلوم الطبية وتزايد الاهتمام بالصحة بالانسان في هذه المناطق وينطبق هذا بشكل واضح على الدول النامية حيث الفروقات بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والتي تستهل بعوامل الطرد من المناطق الريفية وعوامل الجذب في المناطق الحضرية وتساهم الهجرة من الريف الى المدن بنسبة تتراوح ما بين ٥٠٪ - ٧٦٪ من النمو السكاني في المناطق الحضرية الكبيرة في معظم الدول النامية^(١٨) ويوضح الجدول رقم (١) ان الهجرة من الريف الى المدن ما زالت تلعب دورا مهما في النمو الحضري .

(١٧)

Ibid, PP. 671-675.

(١٨)

Mobogunje, A., "The Development Process" : Hutchison University Library for Africa, London, 1980, P. 177.

نسبة الهجرة من الريف الى الحضر في النمو الحضري ١٩٥٠ - ١٩٩٠

	١٩٩٠ - ١٩٨٠	١٩٧٥ - ١٩٧٠	١٩٦٠ - ١٩٥٠	
العالم	٣٣٠,٠	٣٢,٥	٤٨,٧	
الدول المتقدمة	٤٩,٧	٤٦,٢	٤٨,٨	
الدول النامية	٤٢,٢	٤٢,٠	٥٩,٣	

المصدر : MABOGUNJE, A., "THE DEVELOPMENT PROCESS"; HUTCHISON UNIVERSITY LIBRARY FOR AFRICA? LONDON, 1980 TABLE NO. 17

ان التزايد السكاني في المناطق الحضرية يعني اضافة الى النمو السكاني الطبيعي والهجرة تلعب دورا في تطور المراكز الحضرية ، والنمو الحضري يعني مزيدا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية . فالمؤسسة الأساسية في التركيبة الاجتماعية هي الأسرة تتعرض للتغير وإعادة تركيب بيئتها ، كما ان البيئة الاجتماعية للسكان تتعرض للتغير . كما ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان يعاد صياغتها في داخل الاطار الحضري . (١٩)

وتلعب التقنية والتطور في الأدوات المستخدمة في الانتاجية دورا في هذا المجال ، ففي الولايات المتحدة تطورت الهجرة من الريف الى المدن الى درجة كبيرة نتيجة للتطور في الأساليب التكنولوجية في الزراعة والتي أدت الى أن ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة ينتجون غذاء لبقية السكان (٩٠٪) بل ويصدرون الفائض الى الخارج . ولهذا نجد أن المناطق الحضرية اتسعت وتطورت وكان ٥٪ من الأمريكيين يعيشون في المدن عام ١٧٩٠ فقفزت هذه النسبة الى مستوى عال في عام ١٩٦٠ وقد أشارت الاحصاءات الى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعيشون في المناطق الحضرية (٢٠) .

ولذلك فالهجرة ليست قضية ديمغرافية أو حركة سكانية ترتبط بالمسافة أو المساحة المكانية ولكنها أيضا قضية لها مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فوجود مجموعات سكانية تحمل معها مختلف العادات والتقاليد سواء تجاه العمل أم تجاه السكن أو تجاه العلاقات الانسانية أو في سلوكياتها الاقتصادية والمعيشية سوف يؤدي الى تصادم اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وليس بالضرورة أن تكون النتيجة هي عملية الاستيعاب من قبل المجتمع المستقر للمجموعات المهاجرة أو العكس (٢١) فهذا يعتمد على طبيعة المؤسسات التي تحكم المجتمع المستقبل للهجرة فاذا كانت هذه المؤسسات تعني للمهاجر الاسلوب الذي يبحث عنه ، وتأتي في المقدمة مقارنة لما يتميز به مجتمعه الاصلي ، فتأتي كحل لمكان يراوده .

وقد تكون هناك قضايا فردية ولكنها في تراكمتها الزمنية تصبح اتجاهها عاما في سلوكيات المهاجر وتربيته للأفضلية أمور حياته ، فقد يهاجر الانسان الى مجتمع يختلف عن مجتمعه اجتماعيا وثقافيا ودينا ، فاذا كان مثلا في فترة سابقة لم يكون أسرة فقد تصطدم طريقة التربية وتحديد المستقبل مع عادات واتجاهات ذلك المجتمع ، ففي فترة لاحقة عندما

Clark, D., H., 1982, PP. 73-67.

(١٩)

Wrong, D., H., 1969, PP. 95-97.

(٢٠)

Johnes, E., and Eyles, J., 1977, P. 196.

(٢١)

تكون أسرة فإن هذا الانسان يجد أن استمراره يصطدم بتلك القيم والعادات والاتجاهات فيبحث عن محطة أخرى تتناسب مع المكونات الاجتماعية والثقافية وغيرها .

ولذلك فإن خطوط الهجرة قد تتقاطع بمحطات ترتبط بعوامل متغيرة ومتجددة هذه العوامل لا ترتبط بطرف معين بل انها تأتي من أكثر من طرف في قضية الهجرة . فكما قلنا قد تكون هذه العوامل نتيجة لتغيرات في تركيب الأسرة من حيث العدد أو من حيث التركيب النوعي ، فمثلا وجود الاناث في الاسرة يلعب دورا يختلف عن وجود الذكور وهذا قد يرتبط بالقيم والعادات من مجتمع الى مجتمع . وقد تكون التغيرات في بلد المهاجر اذا استحدثت عوامل مثل سن تشريعات وأنظمة تتعلق بالمهاجرين تؤثر في بقاء أو تحرك هؤلاء المهاجرين . ولقد شهد التاريخ تغيرات في التعامل مع الهجرة . هذه التغيرات تنطلق من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي بعض الدول التي تعرضت لهجرات واسعة تعاملت في مرحلة معينة مع المهاجرين على أساس فخصصت لكل جنسية نسبة معينة من المهاجرين تستقبلهم سنويا وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا النظام عام ١٩٢٢ . ولكن في مرحلة أخرى تالية دعت أسباب الى تغيير هذه السياسة الى نظام آخر وهو انتقاء الشخص أي حاجة البلاد الى كفاءات ومهارات وخبرات معينة بغض النظر عن جنسية هذا المهاجر وان لم يكن هذا بشكل مطلق ، وكانت الأسباب وراء ذلك دراسات وبحوث قادت الى الانتباه الى القضايا الاجتماعية المهمة مثل القضايا العنصرية والتغيرات في البيئة الانية للمجتمع حتى لا تغطي مجموعة معينة على بقية المجموعات . وكان الصراع العقائدي بين بعض الدول وظهور الايدولوجية الشيوعية وبروز النظام الالمانى في عهد هتلر وما أدى اليه من التعصب لعرقية معينة ، كل ذلك انعكس على سياسة الهجرة الى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستقبلية للهجرة بأحجام كبيرة ، أما في المرحلة الحالية فإن الهجرة بشكل عام تتحكم فيها فرص العمل وارتفاع الأجور من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الدول المستقبلية للهجرة تفتتح المجال للمهاجرين بقصد سد النقص في عمالتها الوطنية وتطوير اقتصادها واعمار أراضيها ورفع مستوى تقنيها .

ولذلك فإن سياسة الهجرة مبنية على نظام يربط بين هجرة وبين حاجة هذه الدول لقوى عاملة معينة .

ومن هنا فقد أصبح موضوع الهجرة يدخل في خطط التنمية للبلدان التي تتعامل معها سواء أكانت باعثة أم مستقبلية . وهذه الخطط لا تقتصر على حجم العمالة وتوزيعها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، بل انها تدخل في الأبواب الاقتصادية للخطة من حيث الأخذ بعين الاعتبار العوائد النقدية التي يوردها المهاجرون الى دولهم . ففي جمهورية مصر العربية قدرت عوائد المهاجرين سنة ١٩٧٨ بما يعادل دخل قناة السويس اضافة الى عوائد القطن .

وفي لبنان قبل الحرب الاهلية ، كانت هجرة المغتربين تعتبر من المصادر الرئيسية للاقتصاد اللبناني وفي الفلبين تعتبر عوائد العمالة الفلبينية في الخارج مصدرا رئيسيا للدخل القومي للدولة ولهذا فإن نظاما جديدا طرأ على الهجرة من حيث التنظيم وذلك عن طريق الاتفاقيات الرسمية بين الدول « لتصدير » العمالة وما تتضمنه هذه الاتفاقيات من نظم لأجور القوى العاملة وتنظيم تحويل جزء من دخولهم الى بلدانهم فالهجرة اذا أصبحت تأخذ أبعادا قانونية واجتماعية وسياسية واقتصادية وم تعد قضية تحرك سكاني ومشاكل ديمغرافية وخصائص تتعلق ببيئتهم الاجتماعية فقط .

الهجرة الى دول الخليج العربية :

الهجرة الى دول الخليج العربية تعتبر نموذجاً للهجرات في عالمنا المعاصر وتعتبر مجالاً خصباً للدراسة والبحث . فدول الخليج العربية مع انها جزء من أقدم مناطق الاستقرار في العالم الا أنها تعتبر من حيث التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي حديثة فالكويت والتي تعتبر من أوائل دول الخليج في تعرضها للهجرة الحديثة ، بدأ كيانها السياسي يدخل التاريخ السياسي العالمي في ١٩٦٥ . (٢٢)

ولقد أصبحت دول الخليج العربية محط الأنظار من قبل المهاجرين بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في بناء الدولة الحديثة ، ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية فحسب وانما في بناء دولة حديثة وتأسيس الهيكل التنموي وارساء دعائم الخدمات الأساسية الاجتماعية وكانت المشكلة التي واجهتها هذه الدول هي أن عملية الهجرة كانت فوق طاقتها السكانية سواء من حيث الكم أو الكيف بشكل ظاهر وكانت الرغبة في القيام بهذه العملية بفترة قصيرة من الوقت سببا في فتح حدود هذه الدول للهجرة بدون أية قيود ولم تستخدم الطريق والأنظمة والتشريعات التي استخدمتها مختلف الدول على طول مراحل زمنية متعددة .

وكان الافتقار الى المؤسسات الادارية والتشريعية والفنية في بداية الأمر سببا في تعرض البلاد لتدفق المهاجرين بأعداد كبيرة في فترات زمنية قصيرة . (٢٣)

ولقد تزامنت الهجرة مع تغيرات اجتماعية واقتصادية للسكان الوطنيين: بمما أضاف فرصا للحاجة الى المهاجرين كالتحول الاجتماعي الخطير الذي تعرض له السكان المحليون من تغيير في البنية الاجتماعية وبخاصة في الأسرة والتركيب السكانية بشكل عام .

كذلك تعرض السكان لما نستطيع أن نطلق عليه عملية التحضر السريعة والمعقدة لمجتمع بسيط قليل العدد كل ذلك أضاف بعدا مهما للهجرة . (٢٤)

وتمثل الكويت ودول الخليج العربية الأخرى كلها للمهاجرين في بداية الهجرة مثل ما كانت تمثل المناطق المكتشفة في غرب الولايات المتحدة عند اكتشاف الثروات المعدنية . والفارق طبعا أن دول الخليج العربية ذات كيانات اجتماعية وسياسية . فقد توفرت فرص للعمل بشكل غير محدود للمهاجرين في كل درجات السلم المهني . بل أكثر من ذلك سيطر المهاجرون على النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها المواطنون بأسلوب بسيط تقليدي وطورها لتتناسب مع كل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية لمجموع السكان من محليين ومهاجرين في الوقت الذي وقف فيه المواطنون عاجزين عن أخذ زمام المبادرة نظرا لعدم وجود الخبرة في التعامل مع المتغيرات الجديدة وفي مقدمتها التعامل مع جنسيات متعددة وثقافات هائلة .

ولقد لعبت الجغرافيا دورا جذريا في هذه القضية فدول الخليج العربية بشكل عام تتميز ببيئة طبيعية بسيطة جدا ، اذ أنها تفتقر للتمايز الجغرافي فارض دول الخليج والتي تؤدي الى ايجاد بنيات اجتماعية واقتصادية متباينة داخل الكيان

(٢٢) أحمد ابو حاكمه تاريخ الكويت الحديث . ذات البلاسل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

(٢٣) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢٤) عبد الرسول الموسى ، « أثر التغيرات الجغرافية على التركيب الاجتماعي للسكان في الكويت ، بحث غير منشور .

السياسي وصغر مساحة الدول والتركز السكاني والاقتصادي والسياسي في بقعة واحدة صغيرة أدى الى قيام ما يسمى بدول المدينة فكل دول الخليج العربية تتكون من مدينة واحدة . وهذه العوامل كلها أدت الى أن الهجرة عمت كل مناطق الدول ، وكان التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مجموع السكان في هذه الدول . فكل المواطنين يتعاملون مع الهجرة بكل سلباتها وإيجابياتها ولا يمكن لأي مجموعة سكانية محلية تفادي التعامل مع الهجرة .

هذا التكوين الفريد للعلاقات بين المواطنين والمهاجرين ، أدى الى سن تشريعات وأنظمة تبدو للمراقب البعيد عن حقائق الوضع تمييزا كبيرا بين المواطنين والمهاجرين . ومثال على ذلك العزلة في مناطق السكن وإنشاء مناطق سكنية للمواطنين وأخرى للمهاجرين وسن قوانين تمنع سكن المهاجرين في المناطق السكنية النموذجية وذلك بمنع التملك وقيد الايجار كما وحددت كثافة البناء وصممت الوحدات السكنية حسما لمشاكل تماثل الكثافة السكانية وأصبحت هناك تفرقة في الأجور .

ان منطلق التعامل مع الهجرة في دول الخليج العربية هو أن المهاجرين يشكلون الأغلبية في هذه الدول وفي بعضها مثل قطر والامارات المتحدة وصلت هذه الأغلبية الى نسبة عالية جدا (٨٠٪) وهذا المنطلق يدعو الى معالجة دقيقة وحذرة للهجرة . لقد تشابكت قضية الهجرة في هذه الدول مع القضية الأساسية لهذه الدول وهي الارتباط المعقد بين النفط وبين البنية الاقتصادية . (جدول رقم ٢) .

لقد واجهت الهجرة موقفا يتصف بالخصوصية . فقد كان المفترض أن الهجرة تبدأ في التضائل ثم تحدث الهجرة المعاكسة مع انتهاء المشاريع الأساسية الكبرى وبخاصة الهياكل الأساسية الرئيسية وبذلك تقل فرص العمل ومن ثم تتحرك الهجرة في خط معاكس أو خط العودة . ولكن ما حدث هو في غير صالح الهجرة وفي غير صالح هذه البلدان في نفس الوقت .

وتأثر الدول المرسله للمهاجرين بالهجرة المعاكسة اذا كانت في خط العودة . وهذا التأثير يصيب كثيرا من المجالات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية ، ولذلك فهذه الدول ، تحاول جاهدة أن تأخذ في الحسبان عودة مواطنيها ، سواء في مجال الاسكان ، أو في توفير فرص العمل ، ولكن الذي حدث في حالة دول الخليج العربية هو أن الذي حدث على المستوى الاقتصادي كان بعيدا عن التوقعات فدول الخليج العربية تعتمد في دخولها على عوائد النفط بنسبة كبيرة جدا . وكان القلق على المستوى الرسمي والشعبي هو نضوب النفط أو اكتشاف مصدر بديل للطاقة . ولكن ما تعرضت له هذه الدول في مجالين الأول هو التوقيت ، فقد كان في فترة مبكرة جدا بعيدا عن التوقعات . والثاني في الانخفاض الحاد في سعر النفط والذي انخفض من ٣٦ دولار الى ما يقارب ١٠ دولارات . وما حدث أثر على طرفي خط الهجرة للدول الخليجية المستقبلية للمهاجرين والدول المصدرة لها . فالدول المصدرة للعمالة تعتمد في جزء من دخولها على التحويلات النقدية لمواطنيها في دول المهجر .

وقد تأثرت دخول هذه الدول بشكل بارز فأدى الى تخفيض ميزانياتها وهذا التخفيض أثر على باب الأجور في الميزانية وبالتالي بدأت هذه الدول في تخفيض العاملين في الأجهزة الحكومية وغير الحكومية اضافة الى الركود الاقتصادي الذي أثر على العمالة بشكل عام . وحدث مثل هذا الوضع وسط أزمة اقتصادية عالمية أدى الى أن يعيش المهاجرون في قلق حاد وخط العودة أو التحرك المعاكس يواجه مشاكل لأن عامل الطرد يواجهونه في بلدان الخليج العربي نتيجة

للظروف التي شرحناها لا يقابله عوامل جذب لا في البلد الأم ولا في بلدان هجرة أخرى . وهذه قضية الهجرة في دول الخليج العربية والتي تحتاج الى دراسات وبحوث تعطى للهجرة الى هذه الدول خصوصية في الابعاد والمضمون .

ان الهجرة المعاكسة التي بدأت ملاحظتها تتشكل جاءت نتيجة عامل اقتصادي مفاجيء وهو الانخفاض الحاد في أسعار البترول في السوق العالمية وقلة الطلب عليه وتخفيض انتاج البترول كل هذه العوامل جاءت بدون تخطيط مسبق لمواجهة هذه النتيجة لم تكن مفاجئة في حد ذاتها وانما توقيتها جاء مفاجئة وبدون أن تكون هناك أية ترتيبات تخطيطية ففي الكويت وهي من الدول الخليجية القليلة التي تنتهج أسلوب التخطيط تعد أول من تبني مبدأ الخطط الخمسية والخطط الهيكلية القومية مع كل ما توجه اليها من انتقادات لهذه الخطط . فالكويت بهذا الوضع المتقدم نسبيا بين دول الخليج العربية صممت قبل شهور قليلة من الانهيار المفاجيء لأسعار النفط والتقييد الحاد في سوق الخطة الخمسية الثالثة . كانت الخطة تحمل أحد أهدافها الرئيسية وهو هدف الوصول الى التوازن السكاني بين المواطنين والوافدين . وقد واجهت الخطة انتقادات كثيرة أهمها ما ينصب على صعوبة تنفيذ الهدف مع وجود العضلة الكبرى التي تتمثل بوجود أقلية حادة في العمالة الكويتية وهي نسبة تصل الى ٢٠٪ من جملة العمالة في البلاد عام ١٩٨٥ .

فكانت المفاجأة بعد شهور قليلة أن اضطرت الدولة دون الالتفات الى محددات هذه الخطة الى تخفيض الميزانية بحدود ١٥٪ وكان معظم التخفيض يتركز على اخراج نسبة من العمالة من القطاع الحكومي وقد سبقتها مؤسسات القطاع الخاص بعمليات واسعة في الاستغناء عن عمالها غير الكويتية .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن قضية المردود المادي أصبحت مسألة عامة في المنطقة (الدول العربية اضافة الى ايران والهند وباكستان وبنغلاديش) ففي حالة القطاع الخاص عندما أعطى العاملون خيارا بين البقاء مع تخفيض أجورهم أو ترك العمل وهذا يعني وحسب قانون الإقامة مغادرة البلاد فقد اختارت الغالبية منهم الخيار الأول* .

وقد صاحب هذه الأزمة الاقتصادية انخفاضاً في تدفق العمالة المهاجرة ففي الكويت كان انخفاض في اصدار رخص العمل في الفترة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤ بحوالي ٢٩,٨٪ وكان الانخفاض هذا قد بدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ ، وبلغ هذا التغير السلبي في اصدار رخص العمل أوجه في عام ١٩٨٤ ، فكان تغييرا حادا وصل الى ٥٤,٢٪ في اصدار الرخص الجديدة . ولم يقتصر الأمر على انخفاض عدد القادمين الجدد وانما في ترك العمالة المهاجرة للعمل في الكويت ، فقد ازداد عدد الرخص الملغية من ٣,٣٤٨ رخصة عام ١٩٧٧ الى ٥٤,٥٦٧ رخصة ملغية عام ١٩٨٤ (٢٥) .

ان الوضع المفاجيء يدل على أن حدوث هجرة معاكسة يحدث خلالا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . ويأخذ هذا بعدا أعمق عندما يحدث هذا في بلدان تعتمد فيه المشاريع على السكان المهاجرين وتشكل القوة الشرائية وزنا ملحوظا في القوة الشرائية العامة .

* استطلاع قام به الباحث عن طريق زيارة بعض الشركات والمؤسسات .

Secombe, J. I., "Economic Recession and International Labour Migration", The Arab Gulf Journal, Vol. 6, No. 1 (٢٥) April 1986. P. 47.

في منطقة الخليج العربية تشكل الهجرة هما من هموم الدول فالمهاجرون يشكلون الأغلبية وأصبحوا محركا رئيسيا في تدوير العجلة الاقتصادية ان الجدول التالي يوضح لنا ذلك ، فالعمالة المهاجرة تشكل أغلبية الدول الخليجية . وهذا يجعل لهم دورا في ادارة العجلة الاقتصادية ومحركاتها . وتصل هذه النسبة أعلاها في دولة الامارات العربية المتحدة فتصل نسبة المهاجرين الى أكثر من ٧٥٪ وأدناها في سلطنة عمان وكانت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٢)

السكان في دول الخليج العربية وطيون ومهاجرون

الدولة	السنة	اجمالي السكان	العدد	المهاجرون (نسبة المهاجرين الى اجمالي السكان
الكويت *	١٩٨٥	١,٦٩٥,١٢٨	١٠١٥,٥٢٧	٦٠
البحرين	١٩٨١	٣٥٨,٨٥٧	١١٦,٢٦١	٣٢,٤
قطر	١٩٨٠	٢٦٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	٦٧,٣
الامارات العربية المتحدة	١٩٨٠	١,٠٤٣,٢٢٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٥,٠
سلطنة عمان	١٩٨٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	٣٠,٠
الاجمالي		٤,٢٥٧,٢١٠	٢,٣٥٦,٧٨٨	٥٤,٥

المصدر : حسن حياط ، الرصيد السكاني لدول الخليج العربية ، مركز الوثائق والدراسات الانسانية ، جامعة قطر ١٩٨٢ ، جدول رقم ٢٣ .

ان المهاجرين يمثلون تركيبة سكانية تعكس تماما اهداف الهجرة الى هذه المنطقة ولذلك فان نسبة المجموعة النشطة اقتصاديا عالية جدا بينهم كما ان هذه المجموعة تشكل الأغلبية بين القوى العاملة في الدول الخليجية والجدول رقم (٣) يوضح ذلك ويعطي صورة صادقة للبنية السكانية التي تعتبر شكلا لمضمون الهجرة .

ان دور العمالة المهاجرة لا يقتصر على الكم الاجمالي كما انها لا تقتصر ايضا على الكم الخاص في القطاعات الاقتصادية المختلفة وانما على مدى مساهمة هذه العمالة في النشاط الاقتصادي وايضا على دورها في القطاعات المهنية المختلفة التي تشكل دعائم وطيدة لواقع يقوم بعدم سهولة قيام المواطنين بدور رئيسي في هذه المحاولات في مستقبل قريب . كما يؤكد على الاوضاع الصعبة التي ستعيشها هذه الدول في حالة حدوث هجرة معاكسة على نطاق واسع . فالعمالة المهاجرة تساهم بدور رئيسي في كل قسم من اقسام النشاط الاقتصادي ويشكل اغلبية في قطاعات رئيسية ويشكل اغلبية - ايضا - في المهن العالية المستوى . ويوضح لنا الجدول رقم (٤) هذا الدور كما ان الجدول رقم (٥) يوضح لنا اهمية دور العمالة المهاجرة في تقديم اداء عال المستوى في المهن العالية والتي تحتاج لها هذه الدول لمدة طويلة على اساس الواقع الحالي .

ان دول الخليج العربية كانت تنتظر بتفاؤل غريب ، رغم القلق الذي يسود عامة الناس فيها من جراء الاوضاع الاقتصادية ودور الهجرة ، هذه الدول كانت تنظر بتفاؤل على اساس التطور المستقبلي لدور النفط وبخاصة الاحتياطي منه دون التعمق في التعامل مع اللعبة السياسية والاقتصادية العالمية ، فكانت زيادة اسعار البترول القياسية في بداية السبعينات البساط السحري الذي خلق في هذه الدول فوق واقع الحقيقة المرة التي واجهتها في بداية الثمانينات . ان هذا قد ارتبط بالهجرة وباستمراريتها وتزايدها ولذلك نجد مثلاً ان عدد المهاجرين مثلاً (٢٦) في الكويت ازداد ما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٥ بحوالي ١٣١٤٨٣ نسمة اي بمعدل ثمن سنوي يعادل ٥,٩٪ وبين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، ازداد عدد السكان المهاجرين في الكويت بحوالي ١٩١,١٣ نسمة اي بمعدل ثمن سنوي يعادل ٨,٧٪ فبعد الزيادة الكبيرة في اسعار النفط في السبعينات ضخمت اموال هائلة في السوق لتمويل المشاريع الكبرى مثل الطرق السريعة والجسور والمجمعات الكبيرة مما ادى الى الحاجة الهائلة للقوى العاملة الجديدة لقد دخلت عمالة مهاجرة في السوق الكويتية ما بين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ تقدر بحوالي ١٦٣٨٧٦ عاملاً وكذلك دخل في السوق الكويتية حوالي ١٠٥٣٢٠ عاملاً ما بين ١٩٨٠ - ١٩٨٥ وهذا يؤكد زيادة في اسعار البترول وازدياد عوائد البترول الكويتية .

في الكويت يعتمد المستثمر الكويتي على ما يضخه المهاجرون في السوق الكويتية والتي تقدر بحوالي ٤٨٥,٧٦٠,٠٠٠ * .

ان هذا التعامل بين المهاجرين والاقتصاد الكويتي يجعل للمهاجرين دوراً كبيراً كما يوضح لنا هذا دور الهجرة في البناء السكاني والاجتماعي .

جدول رقم (٣)

دور السكان النشيطين اقتصادياً في البناء السكاني في دول الخليج العربية (السنة) ١٩٨٠

الدولة	المواطنون (بالآلف)			الوافدون (بالآلف)			اجمالي السكان والعمالة (بالآلف)		
	السكان	العمالة	%	السكان	العمالة	%	السكان	العمالة	%
الكويت	٥٦٢	١٠٩,٢	١٩,٤	٧٩٣,٨	٣٧٨,٧	٤٧,٧	١,٣٥٥,٨	٤٨٧,٩	٣٦,٠
البحرين	٢٤٢,٦	٤٦,٨	١٩,٤	١١٦,٠	٧٠,٢	٦٠,٥	٣٥٨,٦	١١٧,٠	٣٢,٧
قطر	٨٥,٠	٢٠,٢	٢٢,٤	١٧٥,٠	٩٨,٨	٥٥,٣	٢٦٠,٠	١١٩,٠	٤٥,٠
الامارات									
العربية المتحدة	٢٢٩,٠	٧٧,١	٢٦,٤	٨١١,٠	٤٦٧,٢	٥٨,٢	١,٠٤٠,٠	٥٤٤,٣	٥٢,٩
سلطنة عمان	٦٣٠,٠	١٢٦,٠	٢٠,١	٢٧٠,٠	١٤٧,١	٥٤,٤	٩٠٠,٠	٢٧٣,١	٣٢,٨
الإجمالي	١,٧٤٨,٦	٣٧٩,٣	٢٠,٩	٢,١٦٥,٨	١,١٦٢,٠	٥٤,٣	٣,٩١٤,٤	١,٥٤١,٣	٤٠,١

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٣٥ .

(٢٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ - الكويت .

* يعتمد هذا الاستنتاج على نتائج تحت ميزانية الاسرة الذي قامت به وزارة التخطيط ١٩٧٩ والذي اعتمد على عينة بحجم ١٤١٣ اسرة غير كويتية ، حيث توصل الي البحث الى ان متوسط انفاق الاسرة غير الكويتية الشهري يصل الى حوالي ٣٦٨ دينار كويتي وقد كان عدد الاسر غير الكويتية حوالي ١١٠,٠٠٠ اسرة .

جدول رقم (٤)

مساهمة العمالة الوافدة في القطاعات الاقتصادية المختلفة في بعض دول الخليج العربية

القطاع	* الكويت ١٩٨٠	البحرين ١٩٧٦	الامارات ١٩٧٥	قطر ١٩٧٩
الزراعة والصيد	٥٧	٣٠,٢	٥٢,٩	٥٢,٩
التعدين	٦٤	—	٨٦,٤	٨٨,٧
الصناعة	٩٢,٣	٢٩,١	٩٠,٠	—
كهرباء ماء غاز	٧٤,٧	١٢,٥	٩٧,٥	—
البناء والتشييد	٩٨,٧	٤٨,٧	٩٠	٩٧,٥
التجارة	٩٢,٢	٣٨,١	٨٢,٢	٩٠,٠
نقل بحري ومواصلات	٧٤, -	٣٦	٨٦,٥	٨٣,٠
خدمات	٦٦,٤	٣٦,٨	٧٢,٥	٧٥,١
الاجمالي	٧٨,٦	٣٧,٦	٨٦,٩	٨٣,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٤٤ .

* المجموعة الاحصائية السنوية ، ١٩٨٣ ، جدول ١٠٤

جدول رقم (٥)
العمالة المحلية والمهاجرة في الكويت والبحرين
موزعة حسب المستوى المهني

المجموع	الكويت*				المستوى المهني
	البحرين**	مهاجر	بحريني	كويتي	
%١٠٠	٨١,٩	٤,٣	١٨,١	١,٢	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في ميادين العلوم
%١٠٠	٥٣,٨	٢,١	٤٦,٢	٥,٩	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في التجارة والاداب
%١٠٠	٣٥,٥	١٢,١	٦٤,٥	١١,٨	وظائف فنية تتطلب الدراسة الثانوية او التدريب الفني
%١٠٠	١٩,٨	١٨,١	٨٠,٢	٢٤,٥	عاملون مهرة وانصاف مهرة في الوظائف الادارية
%١٠٠	٤١,٠	٢٩,٤	٦٠,٠	١٢,-	عاملون غير مهرة وانصاف مهرة في الوظائف اليدوية
%١٠٠	٤٣,٠	٣٤,-	٥٧,-	٤٤,٦	وظائف غير فنية
		١٠٠,٠		١٠٠,٠	المجموع

* نسبة كل مستوى الى الاجمالي .

** نسبة مساهمة العمالة المهاجرة والوطنية الى كل مستوى .

المصادر : اسحق القطب ، خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٥ جدول رقم ١٣

فالهجرة في الكويت كما هي الحال في دول الخليج العربية الأخرى هي حصيلة الحاجة الملحة للقوى العاملة لتقوم بدور اوجدته لهم مشاريع طموحة تعادل طموح شعوب هذه الدول في أن يستفيدوا من عوائد النفط في استثمار خدمي تشابكت فيه مصالحهم مع مصالح المهاجرين ، فأصبحت الهجرة قضية عضوية في بنية هذه الدول اجتماعيا واقتصاديا ، سيكون فض هذا التشابك ليس بالامر الهين . وبخاصة وان قضية النفط في هذه الدول امتدت لتتعانق مع قضايا اقتصادية واجتماعية في الدول الام هؤلاء المهاجرين حيث يستخلص الدكتور سعد الدين ابراهيم ان للبترول دورا سلبيا اكثر مما هو ايجابي على مستوى النسيج الاجتماعي والاقتصادي لمصر حيث يوجد لها اكثر من اربعة ملايين مهاجر اذا اخذنا بعين الاعتبار المهاجرين المصريين في العراق . (٢٧) ومع كل هذا التشابك فالهجرة الى دول الخليج

(٢٧) سعد الدين ابراهيم ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٥ - ١٤٥ .

العربية تتصف بانها هجرة محطات وليست مناطق استقرار او كما تسمى احيانا بلدان المهجر ولكنها تطول لبعض المجموعات وتقتصر لآخرى . وبذلك فالمهاجرون في الكويت يطلق عليهم بالوافدين على اساس انهم وفدوا الى هذه الدول لفترة معينة يعودون بعدها الى اوطانهم او الى جهات اخرى ولذلك فإن معظم هؤلاء المهاجرين لم يقطعوا علاقاتهم باوطانهم وتتمثل هذه العلاقة بالتحويلات النقدية والعينية التي يقوم بها المهاجرون ، كما ان مدخراتهم في بلدانهم واستثماراتهم تعد مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهناك مؤشرات على سلوكيات المهاجر لا الوافد مثل المطالبة المستمرة بازالة القوانين والانظمة التي تميز المواطنين عنهم . مثل الفوارق في الاجور ونظام التملك للعقار وحق الانخراط في المدارس والمعاهد والجامعات بشكل مفتوح والشكوى الدائمة من قانون الإقامة وقانون العمل .

فنظام التملك يضع قيودا صارمة على تملك المهاجر للعقار في هذه الدول كما ان قانون الإقامة يحتم وجود كفيل او ضامن من المواطنين للمهاجر وتحدد الإقامة بمدة اقصاها خمس سنوات تجدد بموافقة الكفيل وهذا يجعل العلاقة معقدة بين المهاجر وبين المواطن الى درجة ان الإقامة أصبحت مدفوعة بمبلغ يجدد هذا الدفع مع كل تجديد للإقامة مع عدم شرعية هذا التعامل .

كما ان قانون العمل لا يتيح للمهاجر العمل الا في ظل شراكة مع المواطن او في ظل ترخيص تجاري باسم المواطن اما اذا كان المهاجر يعمل بادرة حكومية فان عمله هو الضمان لحصوله على إقامة . يواجه المهاجر مشاكل عديدة في حالة رغبته التخلي عن عمله او في حالة استغناء الادارة عنه .

اما التعليم فان نسبة قليلة جدا من ابناء المهاجرين يستطيعون الانخراط في المدارس الحكومية كما ان هناك قانونا حدد تاريخا معيناً لقدم المهاجرين الى البلاد لا يحق له الحاق ابنائه في المدارس الحكومية . (٢٨) اذا قدم الى البلاد بعد هذا التاريخ .

اما الفوارق في الاجور فانها محل تضر من قبل المهاجرين حيث انهم يختلفون عن المواطنين في عناصر معينة مثل علاوة طبيعة العمل وعلاوة الابداء .

ومع ان هذه المؤشرات تعد من العوامل التي تؤثر في استقرار المهاجرين بشكل عام والعمالة بشكل خاص (٢٩) الا ان هذه الظروف المحيطة بالمهاجرين الى دول الخليج العربية لم تؤثر في استمرارية الهجرة الى دول الخليج العربية وفي نموها المضطرد ، وهذا يفسر لنا انه مع كل هذه الظروف ان دول الخليج العربية ما زالت تمثل منطقة جذب مقارنة بعوامل الطرد التي تتمثل في بلدانهم الام .

ان الجدول رقم (٦) يبين ان نمو المهاجرين تتطور باستمرار كذلك فان الزيادة الطبيعية للمهاجرين في دول الخليج العربية مؤشر عسلستطول فترة الإقامة .

Al-Moosa, A., and Melachlan, K. S., "Immigrant Labour in Kuwait, Croom Helm London, 1985.

(٢٨)

Al-Moosa, A., 1986, Vol. 6.

(٢٩)

جدول رقم (٦)

الدولة	١٩٧٥ - ١٩٧٠ معدل النمو السنوي	١٩٨٠ - ١٩٧٥ معدل النمو السنوي
الكويت	٥,٨	٨,٥
البحرين	٩,٠	١٢,٧
قطر	٩,٩	٨,١
الامارات العربية المتحدة	٢٢,٨	١٠,٢
سلطنة عمان	٢٠,٩	٥,٩
المعدل الاجمالي	١٣,٠	٨,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٢٤

وعلى كل فان مدة الاقامة نظرا للتركيبية المتباينة للمهاجرين وعلى اساس الجنسية او المهنة او طبيعة العمل (كالخبراء مثلا) فان مدة الاقامة تختلف تبعا لهذه المجموعات ، فقد تبين من الدراسات والاحصاءات^(٣٠) ان اقامة العمال المصريين غير المهرة والعمال من البلاد العربية الاخرى ليست طويلة وتراوح بين سنة وثلاث سنوات فمتوسط مدة اقامة المهاجر العربي اذا هي خمس سنوات كما ان متوسط اقامة المهاجر الاسيوي في قطاع البناء والتشييد قصيرة وترتبط بالمشروع حسب نظام عقود المقاولات الجديدة . وهذه الخصائص تحد كثيرا من قياس ومفهوم الهجرة المعاكسة الى دول الخليج العربية . فهذا الاختلاف في مدة الاقامة مع تطور نمو المهاجرين يعني ان هناك عملية احلال للمهاجرين وبخاصة في قطاع العمال غير المهرة وقطاع عمال البناء والتشييد وكذلك بالنسبة لقطاع المدرسين واساتذة الجامعة والمعاهد والذين يرتبط عملهم بعقود محددة بمدة معينة . ولذلك فالهجرة الى دول الخليج العربية تسير في طريق ذات عدة اتجاهات ويجب ان توضح شيئا مهما في قضية الهجرة الى الدول الخليجية وهي التعامل مع مجموعة من المهاجرين بشكل منفرد وهي المجموعة الفلسطينية ، فالفلسطينيون في هذه الدول كما في دول اخرى لهم اوضاع خاصة بهم نظرا لقضيتهم السياسية وحالتهم الاستثنائية التي تميزهم عن غيرهم من المهاجرين بجميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية .

فالفلسطينيون يختلفون عن المهاجرين بمدة الاقامة ، وكذلك في خصائصهم الاجتماعية مثل متوسط حجم الاسرة والخصوبة والاعالة والزيادة الطبيعية . وتلعب الخصائص الاقتصادية مثل الانفاق والادخار والتحويلات النقدية دورا في الاختلاف بين المهاجرين ، ولذلك فان المهاجرين الى دول الخليج العربية يتميزون باتجاهات مختلفة بحسب المجموعات الجنسية وهذا من خصائص الهجرة بشكل عام . فكما هو معروف ان اسباب وعوامل الهجرة متعددة وكذلك سمات الهجرة تعدد وملاحظتها تتمايز من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي ولكن الشيء الذي يميز الهجرة الى دول

(٣٠) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

الخليج العربية هو التعدد الهائل لجنسيات المهاجرين والذين يصلون مثلاً في الكويت الى اكثر من مائة جنسية تتعدد مصادرها الجغرافية من المناطق الحدودية مثل العراق وايران والسعودية الى اقصى مناطق الارض مثل الفلبين واليابان والولايات المتحدة الامريكية ويتبع هذه التعددية في الجنسية تعددية في اللغات والثقافات والعادات والقيم ومستوى الانتاجية واتجاهات تطويرها .

اضافة الى التفوق العددي الاجمالي للمهاجرين على عدد السكان المحليين . وهذا يحد ذاته يشكل عاملاً مهماً في عملية التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مما يفرض على السكان المحليين ان يتعاملوا مع هذه التعددية الهائلة في كل العناصر التي ذكرناها . فالانسان عندما يسير في الشارع في هذه الدول ، يلاحظ بشكل واضح الاقلية في الزي الوطني واللهجة التي يسمعا . ويلفت نظره المحلات التي تعرض احدث المبتكرات وانواع البضاعة الجديدة قبل ان تصل الى بلدان اقرب لها جغرافياً كما يلاحظ المرء تغييراً سريعاً في دول الخليج العربية ، من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة الى الازياء التي تعرض في ارقى عواصم العالم .

اما من ناحية المواد الغذائية فان المحلات في دول الخليج العربية تقدم كل المواد الغذائية التي تخطر على بال الانسان .

كل هذا يجده المرء مرتبطاً بالهجرة والنفط . فدول الخليج العربية لم تفتح ابوابها واسعة على العالم الخارجي الا منذ ما يقارب ثلاثين سنة بمقارنة بما قبله من حياة بسيطة تسيطر عليها تقاليد المجتمع المغلق على نفسه والذي يعيش على بقعة صغيرة من الارض تعاقب مياه خليج صغير لا يشترك به مع دول اجنبية غير واحدة وهي ايران .

كذلك ادت هذه التعددية الهائلة في كل العناصر المذكورة الى بروز قضايا اجتماعية واقتصادية ، فهناك العزلة الاجتماعية بين السكان المحليين والمهاجرين^(٣١) وعزلة اجتماعية بين المجموعات المختلفة للمهاجرين وقد ادت هذه التعددية في العناصر ايضا الى ممارسات سلبية في العمل يتميز بالتعامل المتأثر بالجنسية^(٣٢) ففي مؤتمر صحفي لوزير الصحة الكويتي اشار الى ان الاطباء يعاملون المهاجرين من جنسياتهم معاملة خاصة وبذلك فقد برزت ظاهرة سلبية من ظواهر الهجرة وهي التمييز الجنسي في التعامل واذا كانت هذه القضية قد طرحت عن طريق مسئول كبير في احدى دول الخليج العربية فلا يمكن ان نعتبرها قضية فردية او انها تقتصر على التعامل التمييزي بين الاطباء فقط ، ان القضية التي يطرحها المهاجرون بشكل عام في دول الخليج العربية هي التعامل المميز للمواطنين والذي زاد من هوة العزلة الاجتماعية وحتى في ابسط قضايا التعامل مثل اخلاء مبنى استملكته الدولة ، فالجهات الرسمية تعطي المواطن مهلة ثلاثة شهور لاختلاء المبنى بينما المهاجر يحصل على مهلة شهر واحد فقط . وكذلك بالنسبة للحصول على اجازة قيادة سيارة فان هناك قيوداً كثيرة على حصول المهاجر على هذه الاجازة بينما ليست كذلك بالنسبة للمواطن .

لذا فعملية الاستيعاب الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين في هذه الدول غير ممكنة نظراً للأسباب التي ذكرناها قبل قليل كما ان هناك عوامل اخرى تجعل من عملية الاستيعاب غير ممكنة ايضا نظراً لنفس الاسباب فمع ان الغالبية الكبرى من المهاجرين هم من العرب الا ان التأثير المباشر للمهاجرين الاجانب هو اكثر وضوحاً فعندما نعرف ان

(٣١) فيصل السالم واحمد الظاهر ، العمالة في دول الخليج العربية ، ذات السلاسل الكويت ، بدون تاريخ ، ص ١٣٨ .

(٣٢) في مقابلة صحفية لوزير الصحة الكويتي ، نشرت في الصحف المحلية .

متوسط عدد الخدم في الاسرة الكويتية هي ٢,٥ خادماً (٣٣) وإذا ما عرفنا ان الاغلبية المطلقة بين هؤلاء الخدم هم من غير العرب فلنا ان نعرف مدى التأثير الاجتماعي الذي يحدث للمجتمع المحلي وبخاصة على الاطفال ، فقد لاحظت دراسة عن المربيين في الكويت على الاطفال ان دور المربية دور سلبي في تأثيره على طريقة التعامل واللغة والعادات ، ويكفي ان نعرف ان المربية التي لا تتقن اللغة العربية وتحمل عادات وقيماً وتقاليد تختلف تماماً عن تلك التي تنتمي للمجتمع المحلي . يكفي ان نعرف انها تطعم الطفل وتنام معه وتحتضنه طوال الوقت لتعرف عمق المشكلة . اذا فخصائص الهجرة الى هذه الدول لا تسمح الا لتدوين الملامح المختلفة للمجتمع المحلي وايجاد خليط من الملامح من الصعب اعطاء مجموعة من المهاجرين دوراً رئيساً فيها واذا جاز لنا ان نقول هذا فانه في ضوء جغرافية الكويت الطبيعية فانها لا تسمح بتشكيل منفرد لشخصية مجتمع (اقليمي) ولنا ان يترك للمستقبل ان يقرر على ضوء المعطيات التي سوف يترسخ في رسم الشخصية المستقبلية لهذا المجتمع . وهذا يعتمد على مدى استمرارية الهجرة وقوة الدفع فيها وخصائصها التي ذكرناها . واذا كانت للقوانين المختلفة ، مثل قانون الجنسية وقانون التملك وقانون الانتخابات النيابية وقانون الانتخابات للمؤسسات الاخرى ، ان القدرة على حفظ الهوية القومية للمجتمع المحلي ، فان احتكاك مجموعات متعددة من المهاجرين مع المجموعة المحلية في مجالات متعددة اضافة الى التعامل اليومي المستمر لا يمكن الا ان يحدث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في كل المجموعات المختلطة . وفي النهاية لنا ان نذكر عاملاً آخر في موضوع الهجرة الى دول الخليج العربية وهو ان ما يشار في الادبيات التي تتعلق بالتنمية وهو موضوع الساعة في الربع الاخير من القرن العشرين . وهو التركيز على قضية التنمية الذاتية ، اي التنمية التي تعتمد على القدرات الذاتية للمجتمع والدولة . ولقد اثار المعهد العربي للتخطيط في الكويت هذا الموضوع في موسمه الثاني ١٩٨٦/٨٥ عندما خصصه لندوة عن التنمية العربية المعتمدة على الذات والتي اكد فيها الباحثون في هذه الندوة على هدف واحد وهو ان التنمية المعتمدة على الذات هي الطريق المأمون للوصول الى تنمية قادرة على الاستمرار بعيدة عن الهزات والتي تأتي في مقدمتها استقرار العمالة وتفاعلها في عملية التنمية .

ودول الخليج العربية تواجه هذا المأزق الذي يتمثل في ان المتوسط (٦٠٪) من قواها العاملة والتي تتحمل عبء عملية التنمية هي من غير المواطنين . وان الاهمية في عملية التنمية تكمن في استمرارية عناصر التنمية وتطويرها المستمر ورفع اداء العاملين فيها والتطوير المستمر للانتاجية ، وهذا مما لا يتوفر في هذه الدول ففي خضم عملية التقشف التي تمر بها دول الخليج العربية نتيجة للانخفاض الحاد في اسعار النفط والذي تبعه انخفاض حاد في عوائده وبالتالي ايضا في مداخيل هذه الدول وقد انتهت اعمال مجموعة من العاملين في اجهزة الدول من المهاجرين الذين امضوا مدة طويلة ، وبالتالي فان قضية الاستمرارية والاستفادة من تطوير الاداء لهذه العمالة غير ممكن في ضوء الهزات التي يتعرض لها سوق العمل في دول الخليج العربية .

والخلاصة في هذا القول ان الهجرة الى دول الخليج العربية تتميز عن غيرها من الهجرات بانها وفي ظل الظروف التي ذكرناها تشكل عموداً رئيسياً في عملية البناء الاقتصادي ، وفي استمرارية هذا البناء في مستوى يحفظ لهذه الدول مستوى مستقراً واضعاف قوى الارتباط بينه وبين النفط وعوائده المترام للمهاجرين .

كما ان الهجرة الى هذه الدول بزخمها وحجمها اشتركت مع المجتمع المحلي في عملية النسيج الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول ولذلك فان قضية الهجرة الى هذه الدول اضافة الى اهميته وجاذبيته للباحث فانه معقد وخطير لهذا المجتمع الصغير .

دول المغرب العربي :

دول المغرب العربي تمثل حالة نقيضة لحالة الدول العربية الخليجية فقد اوضحت الدراسة ان دول الخليج العربية تمثل دولا مستقبلية للهجرة دولا فتحت ابوابها لهجرة معقدة دولا تمثل محطة استقبال للمهاجرين ، سنرى في هذه الدراسة ان دول المغرب العربي تمثل محطة ارسال للمهاجرين فهاتان المنطقتان العربيتان تلعبان في الهجرة دورا كدورها في الجغرافيا فدول الخليج العربية تقع في اقصى جنوب غرب الوطن العربي تطل على خليج ضيق يتصف بقسوة البيئة الطبيعية ، قست عليها البيئة الطبيعية في المناخ والسطح والجولوجيا ، فكانت فقيرة في السكان ، فقيرة في الموارد الطبيعية في باطن الارض عدا النفط الذي اعلن عن مولده متأخرا - اي في نهاية الثلاثينات - فقيرة ايضا في عطائها النباتي واخيرا فقيرة في مواردها المائية الساقطة والجارية والمخزنة .

اما دول المغرب العربي فهي تقع في اقليم مناخي معتدل وهو مناخ البحر المتوسط تطل على بحر يجمع حضارات وثقافات واقتصاديات غنية مختلفة تتمتع نسبة الى دول الخليج العربية بغطاء نباتي غني وتستقبل امطارا غزيرة تحفظ اخضرار الارض وتحتضن عددا من السكان قاموا بدور اقتصادي نشط على اراضيها او عبر حدودها وتحفظ هذه الارض في باطنها بمصادر اقتصادية تعضد اقتصاديات هذه الدول كالفسفات في المملكة المغربية والفحم والحديد والنفط في الجزائر .

الا ان كل ما قلناه عن المغرب العربي يدخل في العموميات فليس المجال متاحا للدخول بشكل مفصل في جغرافية هذه المنطقة . ويمكن القول ان فترة الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها هذه الدول تسببت بشكل رئيسي في تنمية هذه الدول وتطوير مواردها وتأهيل قواها الاقتصادية والبشرية . فتوجيه اقتصاديات هذه الدول لخدمة الدول المستعمرة ادى الى سيطرة قطاع الزراعة على بقية القطاعات وتطورت العلاقة الاستعمارية لتصبح على محطتي الخط في كلتا الحالتين لمصلحة الدول المستعمرة فالدول المستعمرة وفي مقدمتها فرنسا التي احتلت الجزائر مائة وثلاثين سنة ، استغلت الموارد البشرية لدول المغرب العربي على ارضها ومن هنا اصبحت هناك قضية بين دول المغرب العربي والدول الاوروبية الاستعمارية مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا حتى بعد الاستقلال وهي قضية الهجرة ، فقضية الهجرة في دول المغرب العربي ارتبطت بعامل جغرافي هو عامل تاريخي ، وهنا تبرز لنا المقولة التي تثير دائما الجدل بين الجغرافيين وطلاب التاريخ حيث للجغرافيين دائما مقولة مفادها ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فعلاقة المغرب العربي بدول جنوب اوربا علاقة جغرافية وهي التي ادت الى احتلال واستعمار بعض الدول الاوروبية لدول المغرب العربي الى درجة ان فرنسا كانت تعتبر الجزائر جزءا منها ولم تتخلص من ذلك الا بثورة مسلحة شعبية استمرت سبع سنوات .

وهجرة سكان المغرب العربي الى اوربا هي هجرة وراء فرص العمل بعد ان دفعتهم سيطرة الاوروبيين على الاراضي الخصبة الى الهجرة الى المناطق الفقيرة او الصحراوية وبالتالي بدأوا يبحثون عن الرزق خارج حدود ارضهم ونظرا لطبيعة العلاقة السياسية والاقتصادية مع اوربا كدول مستعمرة تمكن هؤلاء المهاجرون من الاختلاط بهم واتقان

اللغات الأوروبية . وقد دخلت عوامل متعددة في عمل المغارب في أوروبا قبل قيام الحرب العالمية الأولى والثانية . واهم هذه العوامل حاجة هذه الدول للعمل في سد احتياجات الحرب^(٣٤) في عام ١٩٨٠ كان عدد العمال من المغرب العربي (تونس - الجزائر - المملكة المغربية) يقدر بحوالي مليون عامل بينهم ٩١٠,٠٠٠ في فرنسا ، ويقدر عدد المهاجرين من المغرب العربي في فرنسا مليون وخمسمائة الف نسمة (جدول رقم ٧) .

جدول رقم (٧)

المهاجرون من المغرب العربي في أوروبا عام ١٩٨٠

جملة المهاجرين في فرنسا	مجموع العمال في فرنسا	مجموع العمال في أوروبا	
١,٠١٥,٠٠٠	٦٨٠,٠٠٠	٦٩٠,٠٠٠	الجزائريون
٣٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٢٣٠,٠٠٠	التونسيون
٢٠٥,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	المملكة المغربية
١,٥٢٠,٠٠٠	٩١٠,٠٠٠	١,٠١٠,٠٠٠	جملة

المصدر : Lawless, R. , 1982, table no. 1

ويشكل مهاجرو المغرب العربي ٩٨٪ من جملة المهاجرين العرب في فرنسا وخارج فرنسا كما يوجد حوالي ٨٠,٠٠٠ مغربي في بلجيكا و ٥٠,٠٠٠ مغربي أيضا في اسبانيا .

ان الذي يهمننا في دراستنا هذه عن المغرب هو الهجرة المعاكسة اي عودة ابناء المغرب الى الدول الثلاث التي ذكرناها الى وطنهم وتشكل هذه الهجرة المعاكسة هما من هموم دول المغرب العربي على اساس ان هؤلاء المهاجرين كانوا يساهمون في نمو بلادهم في الدخل القومي ، واهم من هذا هو الحد من البطالة التي تعانيها هذه الدول والتي تحاول جاهدة خلق فرص عمل وسط صعوبات اقتصادية وان اكثر الدول معاناة من هذه القضية هي تونس حتى ان قضية الهجرة فيها تدخل ضمن اهتمامات الخطط الخمسية فمثلا في الخطة الخمسية الانمائية الرابعة ، تضمنت الخطة تشجيع الهجرة الى الخارج ، ويقدر عدد المهاجرين في هذا المشروع بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر ، وقد انشئت وكالة تونسية لتنظيم هجرة هؤلاء العمال وإيجاد فرص عمل لهم قبل مغادرتهم^(٣٥) . وقد قدر عدد الذين عادوا والمقدر عودتهم حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة . لقد تزامنت عدة عوامل للعمل معا على خلق مشكلة الهجرة المعاكسة ، فهناك الازمة الاقتصادية التي تواجه العالم ومنها أوروبا والتي اضطرتها الى تقليص عدد العمال وبخاصة في القطاعات المتقدمة في السلم المهني والتي يتركز فيها العمال المغاربة كما ان دخول اسبانيا والبرتغال السوق الأوروبية المشتركة احدث توجها عند الأوروبيين بتشغيل عمالتها الأوروبية قبل كل شيء . كما ان قبول العمال المغاربة بأجور متدنية عن تلك التي تقبل بها الأوروبيون ادى الى قلاقل ومشاكل بين العمال المغاربة والأوروبيين .

Lawless, R. and others "Return Migration to the Maghrib : People and Policies", Arab Research Centre, London, (٣٤) Paper No. 10, 1982, P. O.

Ibid, 1982, P. 13.

وقد يعزى وقف الهجرة المغربية الى اوروبا « وخاصة فرنسا » بل والمطالبة بعودة المهاجرين الى زيادة اسعار البترول في منتصف السبعينات ، هذه الزيادة اثرت على الاقتصاد الاوروبي وعلى فرص العمل وادت الى خروج عدد من المؤسسات الاقتصادية من السوق وزادت البطالة في اوروبا^(٣٦) . وقد اتخذت فرنسا قرارا بوقف الهجرة عام ١٩٧٤ م . ولذلك تأثرت الهجرة المغربية وبدأت تظهر مجموعة من المشاكل .

ولقد تعرضت العمالة المهاجرة المغربية للبطالة ، فقد تعرض ١٤٪ من العمالة المهاجرة للبطالة في حين كانت النسبة التي تعرضت للبطالة بين الفرنسيين ٨,٤٪ وكانت العمالة الجزائرية من بين العمالة الاجنبية التي تعرضت بشدة للبطالة حيث تعرض ٢١,٩٪ من عمالتها للبطالة^(٣٧) .

كل هذا ادى الى اثاره مشكلة المهاجرين المغاربة وبرزت مشكلة الهجرة المعاكسة والتي كانت اول خطوة قامت بها الجزائر هي وقف الهجرة من الجزائر الى اوروبا . وقررت الجزائر منذ ذلك الحين البدء في خطة لاستيعاب المهاجرين الجزائريين في المجتمع الام . واشراكهم في ادارة العجلة الاقتصادية في الجزائر ، ومع كل المحاولات في معالجة هذا الامر عن طريق عقد اتفاقيات بين الجزائر وفرنسا لتنظيم عملية الهجرة الا ان عملية الهجرة المعاكسة اصبحت مستمرة بعد ان صدرت قوانين وانظمة في فرنسا تحد كثيرا من مميزات كان يستفيد منها المهاجر الجزائري . لقد كانت الحملة الموجهة ضد المهاجرين الجزائريين او المغاربة بشكل عام ذات شقين ، الشق الاول هو تضييق الخناق على المهاجرين المغاربة والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة والتي كان يرفضها الاوروبيون . ان كل المؤشرات تؤكد على تصميم الدول الاوروبية على وقف الهجرة اليها ونعرض هنا بعض قوانين الاقامة في فرنسا^(٣٨) ففي هذه القوانين شروط تقضي بالطرد الفوري للاجنبي في الحالات التالية :-

١ - عندما يهدد وجوده الامن العام والمالية العمومية .

٢ - عندما يحمل بطاقة اقامة مزورة او مزيفة او مشوهة او موضوعة باسم آخر غير اسمه ، او يملك داخل البلاد بعد رفض السلطات المسئولة تحديد اقامته ، ويشمل مشاريع القوانين هذه تحديد بطاقات العمل للمقيمين بصفة عادية وذلك بعد اجراء اختبار شخصي على ضوء حالته الفردية والتوزيع الجغرافي للمهاجرين والذي يتحدد سنويا تبعا لوضع الاستخدام واخيرا هناك حالتان تستوجبان سحب رخصة العمل من العامل المهاجر ، وهما :

١ - عندما يكون الاجنبي عاطلا عن العمل لفترة تزيد عن ستة اشهر .

٢ - عندما يلغي عقد عمله بسبب رجوعه متأخرا من اجازته

Ibid, 1982, P. 17.

Sergeldin, I., and others, "some issues related to Labour Migration in thr Middle East and North Africa", The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, P. 615

Mered, weekly Magazine, London, February 1986, P. 10.

(٣٦)

(٣٧)

(٣٨)

بل اكثر من ذلك فقد قامت فرنسا بتقديم مشاريع لمساعدة المهاجرين على العودة لاطنائهم وعرضتهم للبطالة حتى يتاح لها فرص تطبيق القوانين الجديدة .

ان هذه الاجراءات وهذا الدافع لهجرة معاكسة عرض دول المغرب العربي لمشكلات اقتصادية في الوقت الذي تعاني من ازدياد البطالة وانخفاض فرص العمل . ان معظم المهاجرين من دول المغرب العربي الى اوروبا والذين غادروا اوروبا او يخططون لذلك يتجهون الى بلدهم الام وليس الى جهة اخرى . وهذا ما يزيد المشكلة تعقيدا بالنسبة لدول المغرب العربية .

تتصف العمالة المغربية في فرنسا بانها تتكون غالبا من العمالة المتدنية (اي العمالة العادية) فهي تشكل طبقتي العمالة المهاجرة وغير المهاجرة . بالنسبة للجزائريين فهي تشكل ٧٣٪ وبين المغاربة حوالي ٧٠٪ وبين التونسيين تشكل ٦٨٪ والعمالة المغربية تعمل في الغالب في قطاع البناء والتشييد والصناعات الثقيلة . اما في قطاع الزراعة فهم يشكلون نسبة قليلة جدا بين العمالة المغربية ككل ، وقد كانت نسبة التونسيين العاملين بالزراعة ٣٠٪ والمغاربة ١٣٪ وهي اعلاها اما نسبة الجزائريين فتشكل اقل نسبة وهي ١٪ (٣٩) .

ويشكل مهاجرو المملكة المغربية العمالة الاقل مهارة يعقبها مهاجرو دول المغرب العربي وهؤلاء يمارسون مهنا تعتبر من ادنى السلم المهني . ويعتبرون اقل عددا من مهاجري تونس والجزائر وبذلك فهم لا يشكلون مشكلة بارزة كما في حالة الدولتين المغربيتين الاخرين . اذا فالهجرة لدول المغرب العربي المعاكسة من اوروبا حدثت وكانها هجرة قسرية او على الاقل تحكمت فيها عوامل الطرد . وليس لعوامل الجذب اي دور فالصراع بين العمالة الاوروبية والمغربية وصل الى حد استخدام العنف ضد المغاربة واصبح المهاجرون المغاربة غير مرغوب فيهم وتزامن هذا العامل مع تشريع قوانين تحد من الهجرة المغربية بل انها تعمل على التخلص منها .

ان عدد التونسيين في فرنسا - هو كما قلنا في البداية - اقل من المهاجرين الجزائريين ، فقد قدر عدد التونسيين المهاجرين الى فرنسا بحوالي ٥٢,٠٠٠ الف عام ١٩٦٥ وقد ارتفع عددهم الى ٩٧,٠٠٠ الف عام ١٩٧٠ واستمروا في التزايد الى ان وصل عددهم الى ١٧٤,٠٠٠ ألف مهاجر عام ١٩٧٥ ثم بلغ عددهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٩ . هذا التزايد لا يعزى الى تزايد حركة الهجرة من تونس الى فرنسا فقط وانما يعزى ايضا الى زيادة طبيعية وانضمام الاسر الى عائلها من جهة اخرى ويختلف المهاجرون التونسيون عن باقي مهاجري دول المغرب العربي بان بقاءهم في بلد المهجر لا تستمر مدته طويلا وقد قدر متوسط البقاء ما بين ٣ - ٤ سنوات . وفي دراسة عن المهاجرين التونسيين ابدى ٧٧٪ منهم عدم عزمهم على البقاء بشكل دائم في فرنسا (٤٠)

وقد تبين ان السبب في ذلك يعود الى بساطة الاهداف التي يريد ان يحققها المهاجر التونسي مثل بناء بيت او تأسيس عمل خاص في بلده . ومع ذلك فان الحكومة التونسية تتخذ اجراءات من شأنها تخير مواطنيها في البقاء مدة اطول في بلد المهجر ويتمثل هذا في القانون الذي صدر عام ١٩٨٠ والذي يسمح للمهاجر التونسي باستيراد بضائع معينة مثل السيارات والثلاجات وغيرها بشرط ان يمضي اكثر من ستين في بلد المهجر كما ان الدولة تساعده في الحصول على مسكن في نفس الشروط . ولقد قدر حجم الهجرة المعاكسة بحوالي ١٪ سنويا من مجموع المهاجرين في فترة معينة وتمثل هذه النسبة بحوالي ٣,٠٠٠ الى ٤,٠٠٠ آلاف عائد سنوي . الا ان الهجرة التونسية على تواضع حجمها واجهت مشكلات لم تواجهها بقية الهجرات في دول المغرب العربي ، فبالاضافة الى مواجهته بشكل مشترك مع المهاجرين الجزائريين لمضايقات واجراءات رسمية من قبل السلطات الفرنسية دفعهم للعودة الى بلدهم . نقول ان الهجرة التونسية واجهت مشكلة العودة القوية من ليبيا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٦ . وقد عانت تونس من العودة الجماعية او ربما يسمى بالهجرة المعاكسة ، اجتماعيا واقتصاديا فقد واجهت مشكلة إيجاد فرص عمل هؤلاء العائدين وكذلك مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى .

اما في الجزائر فقد بدأت الهجرة المعاكسة عشية استقلال الجزائر ، وقد عاجلت معاهدة الاستقلال والتي سميت باتفاقية ايفيان مشكلة الهجرة الجزائرية في فرنسا ولذلك فقد كانت من ضمن اولويات السياسة الداخلية للجزائر المستقلة مواجهة عودة الجزائريين . ان الجزائر وهي التي كانت تجمع شتات نفسها بعد معركة الاستقلال وبعد ان ترك الفرنسيون الاراضي الزراعية والمصانع بدون خطوات تمهيدية مع الوطنية الجزائرية اي انهم تركوا الاقتصاد الجزائري في موقف حرج ففي هذا الوقت واجهت الجزائر مشكلات معقدة نتيجة للهجرة المعاكسة ومن هذه المشكلات ان الصناعة الوطنية كانت في مراحلها الاولى ولذلك فان عودة عمالة جزائرية مدربة تدريبا عاليا في مجالات صناعية رفيعة المستوى بالنسبة للصناعة الوليدة بل اصبحت مشكلة بحد ذاتها اضافة الى مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى والبطالة . ولكن القضية بالنسبة للجزائريين كانت ذات بعدين ، البعد الاول وطني على اساس اهمية استعادة الجزائر كفاءة ابنائها في الخارج وكذلك حفاظا على كرامة مواطنيها الذين يتعرضون لمعاملة سيئة والبعد الثاني يتمثل في اتجاه فرنسا وبقية اوربا للتخلص من المهاجرين الجزائريين . فبالاضافة الى الاجراءات القسرية كانت هناك اتفاقات مع فرنسا تحتم عودة الجزائريين وذلك عن طريق تقديم من فرنسا المساعدات المادية للعائدين وهذا وقد حددت مدة تلك الاتفاقات بثلاث سنوات انتهت عام ١٩٨٣^(٤١) وكان هدف الاتفاقية هو عودة ٣٥,٠٠٠ ألف مهاجر جزائري سنويا ولكن ما تحقق بالعمل هو اقل من ذلك فقد انخفض العدد الى حوالي ٢٠,٠٠٠ ألف بمن فيهم من عاد خارج اطار الاتفاقية .

ان معاناة المهاجرين الجزائريين ربما تكون اقصى من تلك المتعلقة بالمهاجرين من بقية دول المغرب العربي ، فالمهاجرون الجزائريون امضوا فترة طويلة في فرنسا وتكونت اسر بالكامل عن طريق الزيادة الطبيعية وترعرع الجزائريون هناك منذ ولادتهم وقد ادى هذا الى مشاكل اجتماعية تتمثل بصعوبة التكيف مع الحياة الاجتماعية في الجزائر وطول مدة

Lawless, R., and others, 1982, P. 22.

(٤١)

عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي اضافة الى المشاكل الاقتصادية الاخرى مثل العمل والاتفاق والادخار . ومع ذلك فان اجراءات معينة اتخذت في الجزائر حيال المهاجرين تتراوح بين التحفيز مثل تسهيل الاستيراد لبعض البضائع وتوفير المسكن وفرص العمل للمهاجر العائد الذي امضى ثلاث سنوات في فرنسا وبين فرض ضريبة على الدخل في اوروبا ولتوفيرها في المصارف الجزائرية .

اما في حالة المملكة المغربية فان الهجرة لها مميزات تختلف بعض الشيء عن هجرة التونسيين والجزائريين واول ما تتميز به الهجرة المغربية هي انها في الغالب هجرة في اتجاه واحد لفترة طويلة فمعظم المهاجرين من المغرب يعودون بعد ان يصلوا سن التقاعد^(٤٢) وما يميزها ايضا انه لا توجد خطط او برامج حكومية تتعلق بعودة مهاجريها من اوروبا ولذلك فليست هناك اجراءات لتحفيز المهاجرين للعودة واقامة مشاريع لاستيعابهم في مجتمع الام والامر الثالث الذي يميز الهجرة المغربية انها تمارس هجرة موسمية في اوروبا للعمل في النشاط الزراعي ويقضي هؤلاء المهاجرون كل سنة فترة تقل قليلا عن ثلاثة اشهر وهي الفترة التي يسمح بها للسائح في اوروبا ويتراوح عدد المهاجرين الموسمين بين ٥,٠٠٠ آلاف و ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ وعلى العموم فيقدر عدد المهاجرين من المغرب الى اوروبا بحوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألف في فرنسا وحدها وقد ارتفع عدد المهاجرين من المغرب من ١٤٢,٠٠٠ ألف الى ١٥٢,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٧ وعن الهجرة المعاكسة من المهاجرين من المغرب قلنا منذ البداية انها ضعيفة ويعود ذلك الى تدني دخول المغاربة في الهجرة بسبب ممارستهم لمهن متدنية وهذا لا يساعدهم على تحقيق اهدافهم التي هاجروا من اجلها ومع ان المهاجرين من المغرب لا يفكرون في البقاء بشكل دائم بالمهجر الا ان اقامتهم تطول هناك^(٤٣) لعدة سنوات وليس هنا احصاءات عن عدد العائدين من المهجر الى وطنهم Lawles^(٤٤) ان هناك تعميم على هذه المعلومات الا انه يقول في مكان آخر انه ربما يكون عدد العائدين سنويا حوالي ١٠,٠٠٠ آلاف مهاجر . ويعتمد المغرب على عوائد المهاجرين ومدخراتهم في اقتصاده الوطني وقد قدرت قيمة التحويلات بحوالي ٤٢٨ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٩ الا ان هذه التحويلات لا تستخدم في تمويل الاستثمارات في الانشطة الانتاجية مع عدم اغفال اهمية التحويلات على المستوى القومي والفردى كذلك وعلى العموم فان المغرب لا يستفيد من خبرة مهاجريه وما اكتسبوه من تدريب لان معظم العائدين كما قلنا يعودون وهم في سن التقاعد .

ان المهاجرين المغاربة في اوروبا يمثلون بلا شك مجموعة سكانية تختلف عرقيا وثقافيا عن المجموعة الأوروبية وهذه الخصائص تلعب دورا في مدى تقبل المجتمع المستقبل لهجرة المهاجرين ففي اوروبا مثلا نجد ان الالماني والبلجيكي يواجه مواقف في فرنسا تختلف كثيرا عما يواجهه المهاجر العربي او الافريقي سواء في التعامل اليومي او على مستوى التعامل الرسمي فالمهاجر المغربي يشعر بان لونه هو جنسيته في فرنسا وكما قال احد المغاربة في فرنسا « بوجهي ، ماذا يعني الفرق اذا ما كنت احمل الجنسية الفرنسية ام لا ، فانا اعامل هنا دائما كعربي »^(٤٥)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٢)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٣)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٤)

Meed, 1986, P. 10.

(٤٥)

ولهذا فإن قضية هجرة العودة أو الهجرة المعاكسة هي الشيء الحتمي بالنسبة للهجرة المغربية ففي دراسة عن الشباب من شمال أفريقيا (المغرب) أوضحت ٧٠٪ من العينة المتتقة انهم يرغبون في البقاء في فرنسا ولكن هناك ٢٥٪ فقط يرغبون بحمل الجنسية الفرنسية^(٤٦) . والحقيقة أن أسباب الهجرة تبقى هي العامل الذي يحدد مدة بقاء المهاجر أو عودته فالظروف الاقتصادية الصعبة وانتشار البطالة في المغرب العربي من الأسباب التي تدفع بالمغاربة للهجرة الى فرنسا أما على الجانب الآخر فإن الظروف التي يعيشها المهاجر المغربي تؤثر أيضاً في بقاءه أو عودته فهناك دراسة^(٤٧) عن أحوال المهاجرين المغاربة بينت أن هناك تفرقة بالأجور والحقوق الأخرى مثل السكن وتقلد المناصب كذلك هناك مواجهة اجتماعية بين الفرنسيين والمهاجرين المغاربة وصلت الى درجة العنف ، وقد أوضحت الدراسة ذاتها أن الأسباب الاقتصادية في المغرب العربي كانت وراء استمرارية بقاء حوالي ٨٠٪ في فرنسا لمدة أكثر من عشر سنوات .

بعد أن بينت الدراسة مفهوم الهجرة والهجرة المعاكسة استخدمت منطقة الخليج العربي كنموذج للمنطقة المستقبلية للهجرة واستخدمت دول المغرب العربي كنموذج للمنطقة المصدرة للهجرة في نفس الوقت التي تتمثل منطقة مستقبلية للهجرة المعاكسة وقد أوضحت الدراسة كذلك عوامل الجذب والطرْد لنوعي الهجرة والمشكلات المحيطة بها .

تنتقل الآن الدراسة لنموذج آخر وهو الهجرة النوعية والتي تتميز بخصائص معينة ونطلق عليها عام هجرة العقول أو الكفاءات العربية الى الدول المتقدمة ونأخذ بريطانيا كنموذج لهذه الهجرة .

الهجرة العربية الى المملكة المتحدة* :

ترجع الهجرة العربية الى المملكة المتحدة الى أكثر من قرن ولكنها اتخذت أبعاداً مختلفة وتبلورت في السنوات الأخيرة . فقد بدأت الهجرة الى المملكة المتحدة على مستوى الأفراد أو مجموعات صغيرة جداً ارتبطت بأنشطة محدودة مثل النشاط البحري في القرن التاسع عشر ويمثل اليمنيون والصوماليون الرواد الأوائل للمهاجرين العرب وقد كان نشاط هؤلاء المهاجرين يقوم على العمل على السفن البريطانية التي كانت تقوم بنشاط بحري بين بريطانيا والمنطقة العربية والمحيط الهندي . أما المجموعة الثانية والتي تلت المجموعة الأولى فقد كانت تضم رجال أعمال قاموا بأنشطة تجارية إبان ازدهار صناعة الغزل والنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وكان الرواد الأوائل من هؤلاء هم من السوريين واللبنانيين وتلتهم مجموعة ثالثة من اليمن وقد عمل المهاجرون من اليمن في الزراعة وفي المؤسسات الصغيرة في السهل الأوسط البريطاني - كانت هذه الهجرات صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ٦٠ ألف مهاجر ينخفض هذا العدد ويرتفع

Ibid, P. 10.

The Middle East Magazin, London October, 1984, PP. 15-19.

* يعتمد هذا الجزء من الدراسة على دراسة عن الأيدي العاملة العربية في المملكة المتحدة زودت للباحث بواسطة جامعة لندن ، بدون تاريخ ، ومؤلف ، للاطلاع راجع الباحث

بحسب الحالة الاقتصادية في بريطانيا ولقد استقر العدد في نهاية ١٩٤٥ عند ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر عربي معظمهم من اليمن والصومال وسوريا .

لقد بدأت ملامح هذه الهجرة تبلور ملاحظتها وخصائصها في بداية السبعينات وأصبحت الهجرة العربية في بريطانيا تشتمل على نوعين رئيسيين من المهاجرين ، يتكون النوع الأول من رجال مال واقتصاد حولوا نشاطهم الاقتصادي الى بريطانيا نتيجة للأوضاع غير المستقرة في المنطقة العربية والمشكلات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ ولدمار الذي لحق بلبنان نتيجة للحرب الأهلية . أما النوع الثاني فيتكون من الكفاءات العربية من مهندسين وأطباء وأساتذة الجامعات وفي الحقيقة تعتبر هذه النوعية من المهاجرين خسارة كبيرة للقوى العربية في المنطقة البشرية إضافة الى استنزاف الطاقة المادية فقد قدرت ما أنفقته الدول النامية ومنها معظم الدول العربية على ما يزيد على ٤٠ بليون دولار خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مقابل تدريب هذه العناصر فقط وهذه العناصر ما زالت تفضل البقاء خارج الوطن كما قدرت الخسارة في الكفاءات العربية وحدها وحتى عام ١٩٧٧ بما يقارب ٢٤,٠٠٠ ألف طبيب بما يماثل ثلث جملة الأطباء العرب و ١٧,٠٠٠ ألف مهندس فيما يعادل حوالي ٩٪ من جملة المهندسين العرب و ٧,٥٠٠ من العاملين في المجالات العلمية ويعادل هذا الرقم ١٢٪ من مجلتهم في العالم العربي أما من الناحية المادية فقد قدرت خسارة العالم العربي السنوية نتيجة لهجرة هذه الكفاءات بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار .

يقدر عدد المهاجرين العرب في بريطانيا في الوقت الحاضر بحوالي ربع مليون مهاجر جاءوا من إحدى عشرة دولة عربية هي مصر ، لبنان ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية ، الأردن وفلسطين . اذا أردنا أن نعرف مدى الخسارة في الكفاءات العربية نأخذ السودان كمثال عندما نعرف أن السودان خسر ما بين ١٩٤٤ - ١٩٧٩ حوالي ٦٠٪ من الأطباء و ٥٠٪ من المهندسين و ٢٥٪ من أساتذة الجامعات إن هذه الخسارة في الكفاءات العربية تبين لنا مدى الآثار السلبية للهجرة . تشكل بريطانيا منطقة جذب المهاجرين العرب لعدة عوامل : وجود الجامعات العديدة التي اكتسبت شهرة لاهتمامها بالدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ونتيجة أيضاً للعلاقات التاريخية بين بريطانيا والعالم العربي وتعزو الكفاءات العربية سبب هجرتها الى بريطانيا الى الحرية السياسية والاقتصادية وحرية البحث العلمي والى ما تتمتع به لندن كأحد المراكز الرئيسية التجارية في العالم وبخاصة في مجال البنوك ومؤسسات الاستثمار وعلى كل لا يتطلع معظم المهاجرين العرب في بريطانيا الى الاستقرار النهائي وانهاء علاقتهم بوطنهم الأم ، ولكن هناك نسبة منهم تقيم إقامة دائمة في بريطانيا وهي مقارنة بالعدد الكلي للمهاجرين تشكل نسبة ضئيلة . يوضح لنا جدول رقم (٨) أنه بين عام ١٩٧٦ و ١٩٧٨ حصل ٣,٣٤٤٠ ألف على إقامة دائمة في بريطانيا ويشكل المصريون نسبة كبيرة من هؤلاء (١٥٣٢) ومن المغرب ٧٤٢ ومن العراق ٧٤٩ إما في عام ١٩٧٩ يشير جدول رقم (٩) الى أن ١٧٧٥ مهاجراً حصلوا على إقامة في بريطانيا منهم ١٦٦٣ حصلوا على إقامة دائمة واذا أخذنا مثلاً هجرة الكفاءات العربية في بريطانيا نجد أن ٦٣٥٦ طبيباً عربياً يعمل في بريطانيا ويشكل المصريون أغلبية بين هؤلاء يليهم العراقيون . وخلاصة القول في هذا الجزء من الدراسة أن الهجرة العربية الى خارج الوطن العربي تشكل استنزافاً للطاقة البشرية العربية وللمال العربي وإضعافاً لعملية التنمية التي تواجه مشكلة نقص العنصر البشري سواء في تخطيطها وإدارتها أم تنفيذها .

جدول رقم (٨)
عدد رعايا بعض الدول العربية الذين منحوا إقامة دائمة
في المملكة المتحدة ١٩٧٨/٧٦
السنة

الدولة	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع
الجزائر	٧٧	٣٧	٨١	١٩٥
مصر	٥٠٢	٤٨٢	٥٤٩	١٥٣٣
العراق	٢٧٦	٢٣٢	٢٤١	٧٤٩
المغرب	٢٤١	١٨١	٣٣٠	٧٥٢
تونس	٥٣	٤٢	١٢٠	٢١٥
المجموع	١١٤٩	٩٧٤	١٣٢١	٣٤٤٤

Source : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmnd 7875, April 1980.

جدول رقم (٩)
عدد المواطنين العرب الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة
عام ١٩٧٩

الدولة	مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة لدى قدومهم مباشرة				مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة بعد انتهاء الإقامة المحدودة (٤ سنوات)				المجموع الكلي			
	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع
الجزائر	٤	٥	٤	١٣	٧٩	١٤	١	٩٤	٨٣	١٩	٥	١٠٧
مصر	٦	١٦	٢	٢٤	٣٥٤	١٢٤	٤٦	٥٢٤	٣٦٠	١٤٠	٤٨	٥٤٨
العراق	٤	٥	-	٩	١٤١	٦٦	٢٨	٢٣٥	١٤٥	٧١	٢٨	٢٤٤
الأردن	٤	٧	٣	١٤	٧٦	٢٤	١	١٠١	٨٠	٣١	٤	١١٥
لبنان	٧	٧	١	١٥	٨٤	٣٥	١٧	١٣٦	٩١	٤٢	١٨	١٥١
ليبيا	-	-	١	١	٥٠	١٣	٤	٦٧	٥٠	١٣	٥	٦٨
المغرب	٥	٩	-	١٤	١٣٥	٧٦	٣٢	٢٤٣	١٤٠	٨٥	٣٢	٢٥٧
السعودية	-	-	-	١٢	٥	١	١٨	١٢	٥	١	١٨	٣٠
الصومال	-	٢	٥	٧	٧	٥	١	١٣	٧	٧	٦	٢٠
السودان	٢	-	-	٢	٥٣	١٩	٧	٧٩	٥٥	١٩	٧	٨١
سوريا	-	٤	-	٤	٥٠	١٥	٧	٧٢	٥٠	١٩	٧	٧٦
تونس	٣	٦	-	٩	٦٣	١٣	٥	٨١	٦٦	١٩	٥	٩٠
الاجمالي	٣٥	٦١	١٦	١١٢	١١٠٤	٤٠٩	١٥٠	١٦٦٣	١١٣٩	٤٧٠	١٦٦	١٧٧٥

SOURCE : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmnd 7875 April 1980.

الخلاصة :

الهجرة ، كحركة سكانية ، ستبقى عنصراً من عناصر الحياة على وجه هذه الأرض . فطبيعة الأشياء في هذه الحياة لا تبقى منطقة جغرافية واحدة تعيش نمطا بمستوى واحد لا يتغير ، والانسان هو المحرك لعناصر الحياة على وجه هذه الأرض ولذلك فان تطور أي منطقة جغرافية بمواردها المختلفة يعتمد على الانسان وقد تكون منطقة معينة مكتفية ذاتياً من ناحية البشرية في فترة زمنية معينة ولكنها قد تعاني سلباً أو إيجاباً في فترة أخرى . فاذا أخذنا الكويت كأقرب مثال لنا ، نجد أنها بمواردها المتواضعة قبل اكتشاف النفط كانت تضم عدداً من السكان لا يزيد عن ١٥٠,٠٠٠ الف نسمة ومع ذلك فان سكانها كانوا يبحثون عن الرزق في أعماق البحر وفي مناطق أخرى ، وبعد اكتشاف النفط بقي سكانها على أرضها واحتاجوا أيضاً الى أكثر من ضعفهم حتى يقوموا بمهمة البناء الاقتصادي والاداري والعمراني . فالهجرة في الكويت ارتبطت كما بينت الدراسة بالقضية الاقتصادية ويدل على ذلك ما تواجهه الهجرة (في منتصف الثمانينات) من قيود لمحاولة تقليل عدد المهاجرين فالحركة السكانية على وجه هذه الأرض تمثل معادلة هائلة كما هو الحال في علم الفيزياء فينتج السكان الى حيث إعادة التوازن في بقعات من الأرض .

وقد تحدث الهجرة لإعادة التوازن ليس للأرض فقط وانما للانسان نفسه فالانسان بطبيعته يحيا بعناصر متعددة اقتصادية وسياسية واجتماعية والاهتمام بالحرية في حقول مختلفة فاذا ما حدث اختلال في التوازن في هذه العناصر تحرك الانسان جغرافياً حيث يعيد التوازن لحياته . فالهجرة هي حركة الانسان والأرض هي مسرح هذه الحركة ينتجها الانسان حيث يجد ما يفقده أو يكاد يفقده . إن الهجرة قضية قديمة قدم الانسان على هذه الأرض ، ولنا في دراسة الاجناس البشرية برهان على ذلك يصل الى وقتنا الحاضر وما أعطى الهجرة في وقتنا الحاضر إهتماماً كبيراً هو ما حدث من انتشار للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين المجتمعات متمثلة بالمناطق الجغرافية الطبيعية والتي حددت شكل وحضارة الانسان وبذلك صار الارتباط بين الأرض وبين عرق وحضارة معينة . ومن ناحية أخرى هو رسم الخطوط على الخرائط وارتبطت المناطق التي تقع بين هذه الخطوط بجنسية معينة أعطى قضية الهجرة مضموناً معيناً هو التزايد السكاني الرهيب داخل هذه المناطق وأدى التزايد الى عجز الموارد المحلية عن الوفاء باحتياجات السكان ونتيجة لذلك انجذبت بعض المجموعات السكانية الى مناطق أخرى تواجه نقصاً في الموارد البشرية أدى الى عجز السكان عن استغلال مواردها . إن حركة السكان هذه ليست مجردة من عناصر أخرى فهي ليست أرقاماً فقط مع أن كثيراً من المشكلات ترتبط بهذه الأرقام إن هذه المشاكل التي يواجهها المهاجر والمجتمع المستقبل له هي مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية فهناك مشاكل الاسكان ومشاكل العمل ومشاكل التعليم والصحة والاستثمار وغيرها . ان تطور الادارة بشكل عام والتي كان من ضمن هذه التطور بروز التخطيط كمنهج ووسيلة ويصبح علماً من العلوم يدرس في المعاهد والجامعات كل هذا أعطى للهجرة اهتماماً كبيراً . إن القضية أصبحت مرتبطة بقضايا متعددة وأصبحت الحلول لا ترتبط بالظروف الآنية ولكنها توجه للمستقبل المنظور أن الهجرة أصبحت تشكل همماً من هموم سياسة الدول ومن هنا لم يعد الانسان حراً في تحركه الجغرافي بسبب التشريعات والقوانين والنظم التي تحدد مساري وحجم الهجرة لقد أصبحت قضية الهجرة من الأهمية الى درجة أصبحت في بعض الدول أحد المواضيع في البرامج الانتخابية وخطط التنمية ففي السويد مثلاً يحق للمهاجر الذي

أمضى مدة ثلاث سنوات فأكثر وحتى اذا لم يحصل على الجنسية السويدية يحق له أن يرشح نفسه ويبتخب في المجالس البلدية وما لهذا من أهمية حيث يستطيع هذا المهاجر أن يشارك في تطوير الكثير من أوجه حياة الانسان في هذه الدول في الولايات المتحدة تتخذ قضايا الهجرة أهمية كبيرة ولذلك فطريق التجنس للمهاجر يمر بمراحل متعددة حيث يستطيع في النهاية وبعد أن يحصل على الجنسية أن يتقلد أعلى المناصب في هذه الدولة . وفي بريطانيا يحق لكل من يوجد على أرضها أن يحصل على الجنسية البريطانية عندما يبلغ السن القانوني . إن قضية الهجرة ترتبط بالنهاية بعملية التنمية والقضايا الاقتصادية بشكل خاص ولذلك تهتم الدول بقضية الهجرة لأنها تعني إضافة سكانية على أرضها وما يتبع ذلك من توفير لكثير من متطلبات الحياة فبالكويت نجد أن نصف الخطة القومية والهيكلية موجهة للسكان غير الكويتيين مثل الاسكان والطرق والخدمات الأخرى فمن حيث الاسكان نجد أن الوحدات السكنية للمهاجرين تفوق عدد الوحدات السكنية للكويتيين .

أما الجانب الاجتماعي في موضوع الهجرة فهو أعمق بكثير لأنه يهتم بالانسان بشكل مباشر ولذلك تحاول الدول الا يطفى عدد المهاجرين على عدد السكان الأصليين لأن ذلك يؤثر في كثير من العناصر مثل الثقافة واللغة والحضارة والعادات والتقاليد فقضية العزلة الاجتماعية التي تواجهها المجموعات المهاجرة في بلدان المهجر تثير القلق وان محاولات الاستيعاب الاجتماعي تواجه كثيراً من العراقيل لقد عولجت هذه القضايا في هذه الدراسة واتضح لنا ما يتعرض له المجتمعات من مشكلات كثيرة عندما تتعرض للهجرة ومن جانب آخر أوضحت ما يتعرض له المهاجرون في دول المهجر . فالدراسة أوضحت أن الهجرة ليست طريقاً باتجاه واحد وإنما طريقان باتجاهين متضادين هما طريق الهجرة الى بلد المهجر وطريق العودة وطريق آخر ليس أسهل من الطريق الأول وليس مجرداً من المشاكل فعودة المهاجرين الى وطنهم أصبحت تشكل قضية من القضايا التي تحظى باهتمام متزايد فعودة المهاجرين تعني توفير فرص عمل هؤلاء وحل لمشكلة البطالة وتوفير المساكن والخدمات الأخرى وان هذه العناصر تؤثر بعناصر أخرى مثل سعر الأرض ومواد البناء وتوفير المبالغ المطلوبة إما الجانب الآخر فهو بالطبع اجتماعي فعودة المهاجرين من مجتمعات لها خصائص اجتماعية وسياسية مختلفة لها بالتأكيد تأثيرات على المجتمع الأم ولا تقتصر هذه القضية على سلوكيات اجتماعية يكتسبها المهاجر بل تتعداها الى سلوكيات اقتصادية مثل اكتساب عادات الاستهلاك والادخار والانفاق فالمهاجر الذي يعود من بلد تتوفر فيه معظم مستلزمات الحياة الضرورية والكمالية ويتعود على التعامل معها فانه سينقلها معه الى بلده الأم وقد لا يكون هذا سهلاً عندما لا تتوفر مثل هذه المستلزمات .

الهجرة عملية مستمرة استمرار حياة الانسان والنمو السكاني والاختلافات بين المناطق الجغرافية المختلفة وإذا كانت الهجرة في وقتنا الراهن تواجه بالنظم والقوانين فان عدم التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق الجغرافية المختلفة سوف يجد من فعالية هذه الأنظمة والقوانين لتستمر حركة الهجرة .

مقدمة :

بينما وفرت عائدات النفط موارد مالية يمكن استخدامها لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عجز العرض المحلي من العملة ، بسبب صغر حجم السكان من جهة ونُدرة المهارات من جهة أخرى ، عن تلبية الطلب على العملة منذ بداية مسيرة التنمية في الكويت في أوائل الخمسينات^(١) .

ومنذ البداية تم سد العجز بين العرض المحلي من العملة والطلب عليها بعمالة وافدة . وأدى نمو عائدات النفط وتزايد وتنوع عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تزايد وتنوع الطلب على العملة ، خاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات ، إلى ازدياد عجز العرض المحلي من العملة وازدياد الاعتماد على العملة الوافدة لمواجهة احتياجات مختلف القطاعات من مختلف أنواع ومستويات المهارات .

وأدى الانكماش الاقتصادي العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى بالتالي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتباطؤ نمو الطلب على العملة^(٢) .

وبسبب تراجع أسعار النفط في عام ١٩٨٣ ازداد اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى تدهور الأسعار منذ أواخر ١٩٨٥ إلى تدهور الإيرادات النفطية . وبما أن الإيرادات النفطية كانت ، ولا زالت ، العمود الفقري لإيرادات الحكومة ، اضطرت الحكومة إلى تخفيض ميزانية ١٩٨٥/١٩٨٦ بعد اعتمادها لمواجهة الانخفاض في إيراداتها .

الهجرة والهجرة العاكسة في الكويت دروس الماضي وآفاق المستقبل

محمد صادق

(١) تم تصدير أول شحنة من النفط الخام عام ١٩٤٦ وبدأت الحكومة في بناء الهياكل الأساسية وتوسيع الخدمات الاجتماعية خاصة في التعليم والصحة في الفترة التي تلت البدء في إنتاج وتصدير النفط الخام وحصولها على العائدات النفطية . لذا يمكن اعتبار بداية الخمسينات بداية مسيرة التنمية بشكل واضح .
(٢) تزامن تراجع العائدات النفطية مع الحرب بين العراق وإيران منذ أواخر ١٩٨٠ وأزمة سوق النفط في أواخر ١٩٨٢ . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تباطؤ النمو الاقتصادي .

وأدت هذه التطورات الاقتصادية إلى تنامي اهتمام الحكومة باعتماد سياسات واتخاذ إجراءات نحو توازن سكاني ، وحظى تعديل التركيبة السكانية باهتمام خاص في الخطة الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ وشكل المحور الرئيسي لتوجهاتها .

واجه القطاع الخاص ، ولا زال يواجه ، تراجع الطلب على العمالة بإجراءات تراوحت بين الاستغناء عن العمالة الوافدة الزائدة وتخفيض الأجور والمرتبات وإلغاء بعض المزايا^(٣) . وقررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين من العاملين في مختلف الوزارات والمؤسسات والهيئات العامة في مطلع صيف هذا العام .

وما لم تتم عملية الاستغناء عن العمالة الوافدة على أساس خطة مدروسة فإنه يصعب تجنب الآثار السلبية التي قد تنجم عنها . لذا تحاول هذه الدراسة المساهمة في إنارة الطريق نحو الخيارات الممكنة لاجتياز المرحلة الراهنة والتقدم بثبات نحو المرحلة المقبلة .

تبدأ الدراسة باستعراض مدى الاعتماد على العمالة الوافدة حسب القطاعات الاقتصادية والمهن . يلي ذلك عرض لنمو السكان والتطورات التي طرأت على مختلف جوانب الهيكل السكاني .

وأخيراً تحاول الدراسة استشراف آفاق المستقبل المنظور بالنسبة لمدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة من جهة وإلقاء الضوء على بعض الأمور التي يستحسن أخذها بعين الاعتبار عند النظر في الخيارات الممكنة لمواجهة المرحلة الانتقالية الحالية والتقدم بثبات نحو المستقبل .

تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة

يبين الجدول (١) حجم ومعدلات النمو السنوية لقوة العمل حسب النوع والجنسية بين سنوات التعدادات . ومن أبرز السمات التي يواجهها هذا الجدول ما يلي :

١ - ارتفاع وتباين معدلات النمو :

بلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل الكويتية ٦,٦٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٢٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ٨,٧٪ خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل غير الكويتية ٨,٨٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٨٪ خلال ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٢,٥٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لمجموع قوة العمل ٨,٢٪ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ وتراوح بين ٤,٧٪ خلال ١٩٧٠ - ١٩٧٥ و ١٠,٩٪ خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٥ . وتعتبر معدلات النمو السنوية لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية ومجموع قوة العمل ، على السواء ، مرتفعة ، قياساً على معدلات النمو السنوية السائدة في العالم . فكيف يمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ؟

(٣) لا تتوفر بيانات عن مدى تخفيض العمالة وتخفيض المرتبات والأجور وإلغاء المزايا . ولكن من الثابت أن العمالة انخفضت في قطاع التشييد والبناء وأن العديد من الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص قامت بتخفيض الرواتب بنسب مختلفة وصلت في بعض الحالات إلى ٢٥٪ .

إن حجم السكان ، من جهة ، والهيكلي العمري والهيكلي النوعي ، من جهة أخرى ، تحدد في المقام الأول ، حجم العرض من قوة العمل .

ويمكن تفسير معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، في المقام الأول ، بارتفاع معدلات نمو السكان الكويتيين . ولكن ما الذي أدى إلى ارتفاع معدل نمو السكان الكويتيين ؟ سنحاول إلقاء الضوء على بعض العوامل التي يمكن أن تكشف عن أسبابه عند استعراض نمو السكان . أما معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية فلا يمكن تفسيرها بارتفاع معدلات نمو السكان غير الكويتيين ، إذ أن نمو السكان غير الكويتيين كان نتيجة وليس سبباً لنمو قوة العمل غير الكويتية .

وكما سنبين فيما بعد حدد حجم العمالة الوافدة من جهة ومعدل المرافقة^(٤) لها من جهة أخرى حجم السكان غير الكويتيين ، بمعنى آخر بينما كانت معدلات النمو المرتفعة للسكان الكويتيين السبب الرئيسي في معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، كانت معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية السبب الرئيسي في المعدلات المرتفعة لنمو السكان غير الكويتيين .

٢ - زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور :

كما يستدل من الجدول (١) ، فقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور بالنسبة لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء بين عام ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

فقد بلغ معدل النمو السنوي للاناث ١٧,٠٪ و ١٥,٨٪ و ١٦,٠٪ بينما بلغ معدل النمو السنوي للذكور ٦,١٪ و ٨,٣٪ و ٧,٧٪ في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل ، على التوالي ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وفي جملة قوة العمل في جميع الفترات ، وباستثناء ١٩٨٥ - ١٩٨٠ ، حيث فاق معدل الذكور معدل نمو الاناث ، ١٢,٦٪ مقابل ١٢,١٪ في قوة العمل غير الكويتية .

أدت زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور إلى ارتفاع نسبة الاناث في قوة العمل ، وبالتالي إلى زيادة تأنيث قوة العمل الكويتية وغير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء . فكما يتضح من الجدول (٢) فقد انجذبت نسبة الاناث إلى الارتفاع بينما انجذبت نسبة الذكور إلى الانخفاض باستمرار . فقد تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية باستمرار وارتفعت من ١,٦ عام ١٩٥٧ إلى ١٣,٢٪^(٥) ، كما تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية بين عام ١٩٥٧ و ١٩٧٥ حيث ارتفعت من ١٣,٠٪ بين نفس العامين ، ولكنها انخفضت قليلاً ، إلى ١٢,٨٪ عام ١٩٨٠ . أما نسبة الاناث في جملة قوة العمل فقد تزايدت باستمرار وارتفعت من ٢,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ١٢,٩٪ عام ١٩٨٠ .

(٤) يقدر من التبسيط معدل المرافقة يساوي ١٠٠ - معدل المشاركة . بما أن معدل المشاركة يساوي قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان يكون معدل المرافقة السكان خارج قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان .

(٥) تشمل قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) :

- المشتغلون

- المتطلون الجدد

- المتطلون الذين سبق لهم العمل .

ويشمل ذوي النشاط المشتغلين والمتطلين الذين سبق لهم العمل .

جدول رقم (١)

تطور قوة العمل حسب الجنسية والنوع

بين التعميمات

	معدلات النمو السنوي					العدد			
	١٩٨٠ - ١٩٥٧	١٩٧٥ - ١٩٧٠	١٩٧٠ - ١٩٦٥	١٩٦٥ - ١٩٦٠	١٩٦٥ - ١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٥٧
٨٠٢	٢٠٦	٢٠٦	٨٠٦	٧٠١	٨٤٣٦٧	١٨٥٠٠٩	١٦٣٢٨٦	١٣٣٦٠٣	٥٣٩٩٣
١٧٠٠	١٢٠٦	٢٣٩٠	١٣٠٥	١٤٠٠	٧٤٧٧	٣٧٧٣٩	١٤٥٤١	٧١٧٦	١٦٩٣
٦٠٦	٢٠٦	٧٠٠	٨٠٦	٧٠٢	٩١٨٤٤	٢١٣٧٢٨	١٧٨٢٧	١٤١٣٧٩	٥٥٦٨٦
٨٠٢	٢٠٦	٢٠٦	٨٠٦	٧٠١	٨٤٣٦٧	١٨٥٠٠٩	١٦٣٢٨٦	١٣٣٦٠٣	٥٣٩٩٣
١٧٠٠	١٢٠٦	٢٣٩٠	١٣٠٥	١٤٠٠	٧٤٧٧	٣٧٧٣٩	١٤٥٤١	٧١٧٦	١٦٩٣
٦٠٦	٢٠٦	٧٠٠	٨٠٦	٧٠٢	٩١٨٤٤	٢١٣٧٢٨	١٧٨٢٧	١٤١٣٧٩	٥٥٦٨٦
٨٠٢	٢٠٦	٢٠٦	٨٠٦	٧٠١	٨٤٣٦٧	١٨٥٠٠٩	١٦٣٢٨٦	١٣٣٦٠٣	٥٣٩٩٣
١٧٠٠	١٢٠٦	٢٣٩٠	١٣٠٥	١٤٠٠	٧٤٧٧	٣٧٧٣٩	١٤٥٤١	٧١٧٦	١٦٩٣
٦٠٦	٢٠٦	٧٠٠	٨٠٦	٧٠٢	٩١٨٤٤	٢١٣٧٢٨	١٧٨٢٧	١٤١٣٧٩	٥٥٦٨٦
٨٠٢	٢٠٦	٢٠٦	٨٠٦	٧٠١	٨٤٣٦٧	١٨٥٠٠٩	١٦٣٢٨٦	١٣٣٦٠٣	٥٣٩٩٣
١٧٠٠	١٢٠٦	٢٣٩٠	١٣٠٥	١٤٠٠	٧٤٧٧	٣٧٧٣٩	١٤٥٤١	٧١٧٦	١٦٩٣
٦٠٦	٢٠٦	٧٠٠	٨٠٦	٧٠٢	٩١٨٤٤	٢١٣٧٢٨	١٧٨٢٧	١٤١٣٧٩	٥٥٦٨٦

المصدر : العدد لعام ١٩٥٧ من :
 The Economist Intelligence Unit Ltd.,
 Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Vol. XVIII, Study Area 2,
 Report Submitted to the Government, May 1974, table 23, p. 41.

العدد للاعوام ١٩٦٥ و ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٩٨٠ من الجريدة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ جدول ١٨ ص ١٠٩ .
 والنسب المئوية تم احتسابها .

جدول رقم (٢)
قوة العمل حسب النوع والجنسية
(نسب مئوية)

المجموع		غير كويتي		كويتي		
اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	
٢ر٦	٩٧ر٤	٢ر٠	٩٧ر٠	١ر٦	٩٨ر٤	١٩٥٧
٤ر٨	٩٥ر٢	٥ر٤	٩٤ر٦	٢ر٥	٩٧ر٥	١٩٦٥
٦ر٩	٩٢ر١	٨ر٢	٩١ر٨	٣ر١	٩٦ر٩	١٩٧٠
١١ر٦	٨٨ر٤	١٢ر٠	٨٧ر٠	٨ر١	٩١ر٩	١٩٧٥
١٢ر٩	٨٧ر١	١٢ر٨	٨٧ر٢	١٣ر٢	٨٦ر٨	١٩٨٠

المصدر : تم احتساب النسب على أساس الجدول (١) .

إن تزايد نسبة الاناث في قوة العمل له مدلولات هامة . فهو مؤشر على زيادة عدد الاناث القادرات على والراغبات في العمل من جهة ، وعلى حصول تغير بالنسبة لنظرة المجتمع إلى عمل الاناث ، من جهة أخرى . وكلما ازدادت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل ، كلما ارتفع معدل المشاركة وانخفض بالتالي معدل الاعالة .

٣ - تناقص نسبة الكويتين في جملة قوة العمل :

أدى التباين بين معدلات نمو قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية بين التعدادات إلى تباين بين نسبة كل منهما في جملة قوة العمل كما يتضح من الجدول (٣) .

فبما أن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية زاد عن معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٣٪ مقابل ٧,٢٪ ، بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، فإن نسبة قوة العمل الكويتية انخفضت من ٣٠,٦٪ إلى ٢٣,٣٪ بين العامين . وأدى ارتفاع معدل نمو قوة العمل الكويتية عن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، ٨,٧٪ مقابل ٤,٦٪ ، وخلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، ٧,٠٪ مقابل ٣,٨٪ ، إلى ارتفاع نسبة قوة العمل الكويتية إلى ٢٧,٠٪ و ٣٠,٢٪ ، على التوالي . ولكن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية فاق كثيرا معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٥٪ مقابل ٣,٢٪ ، خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، وانخفضت بذلك نسبة قوة العمل الكويتية وبدرجة كبيرة ، من ٣٠,٢٪ إلى ٢١,٩٪ .

جدول رقم (٣)
قوة العمل حسب الجنسية
(نسب مئوية)

سنة التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٣٠,٦	٦٩,٤	١٠٠
١٩٦٥	٢٣,٣	٧٦,٧	١٠٠
١٩٧٠	٢٧,٠	٧٣,٠	١٠٠
١٩٧٥	٣٠,٢	٦٩,٨	١٠٠
١٩٨٠	٢١,٩	٧٨,١	١٠٠

المصدر : تم احتساب الجدول على أساس الجدول رقم (١) .

٤ - تزايد اعتماد مختلف القطاعات على غير الكويتيين :

يتضح من الجدول (٤) أن نسب ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين في مختلف قطاعات النشاط الاقتصادي قد تباينت ، وبدرجات متفاوتة ، بين سنوات التعدادات .

باستثناء عام ١٩٥٧ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ وفي التجارة والمطاعم والفنادق ، ٥٠,٥٪ مقابل ٤٩,٥٪ وعام ١٩٧٥ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٣,٠٪ مقابل ٤٧,٠٪ ، كانت نسبة غير الكويتيين أعلى من نسبة الكويتيين في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي وفي جميع سنوات التعدادات . وهذا يعني أن جميع القطاعات اعتمدت وباستمرار ، في المقام الأول ، على العمالة الوافدة .

ويذكر أن نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل انخفضت بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . باستثناء قطاع المناجم والمحاجر حيث ارتفعت فيه نسبة الكويتيين من ٢٢,٤٪ إلى ٣٦,٠٪ بينما انخفضت نسبة الكويتيين في جميع القطاعات ، وبدرجات متفاوتة بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . وهذا يعني تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة في جميع القطاعات .

٥ - تركز الكويتيين وغير الكويتيين قطاعياً :

يتضح من الجدول (٥) أن قطاع الخدمات استأثر بأعلى نسبة من جملة ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين ، على السواء ، في جميع سنوات التعدادات . بينما ارتفعت نسبة الكويتيين في هذا القطاع من ٥١,٧٪ عام ١٩٥٧ إلى ٧٥,٦٪ عام ١٩٨٠ كما انخفضت نسبة غير الكويتيين فيه من ٤٨,٠٪ إلى ٤٠,٧٪ بين نفس العامين . واحتلت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع التجارة المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٤,٦٪ عام ١٩٥٧ و ١٢,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٤,٧٪ عام ١٩٧٠ و ٧,٣٪ عام ١٩٧٥ وانحدرت إلى ٤,٤٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والمواصلات ، ٧,٦٪ مكانها عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (١)

ذوي النشاط حسب القطاع والجنسية

(نسب مئوية)

النسبة النشاط الاقتصادي		١٩٥٧		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك
الزراعة والصيد	٥٧٥	٤٢٥	٢٨٩	٧١١	١٩٨	٨٠٢	٥٣٠	٤٧٠	٤٣٠	٥٧٠	٤٣٠
المناجم والمحاجر	٢٢٤	٧٧٦	١٢٩	٧٦١	٢٣٤	٧٦٦	٢٦٦	٦٣٤	٢٦٠	٦٤٠	٦٤٠
الصناعات التحويلية	١٥٦	٨٤٤	١٠٢	٨٩٨	١٩٠	٨١٠	٩٢	٩٠٨	٧٧	٩٢٣	٩٢٣
التشييد والبناء	٢٧	٩٦٣	٤٤	٩٥٦	٦٥	٩٣٥	٥٤	٩٤٦	١٢	٩٨٨	٩٨٨
المياه والغاز والكهرباء	(١)	(١)	٢٣٥	٧٦٥	٢٩٤	٧٠٦	٢٨٠	٧٢٠	٢٥٣	٧٤٧	٧٤٧
تجارة الجملة والتجزئة	٥٠٥	٤٩٥	٢٢٢	٧٧٧	٢٢٠	٧٨٠	١٦٠	٨٤٠	٧٨	٩٢٢	٩٢٢
المطاعم والفنادق											
النقل والتخزين والمواصلات	٤٢٤	٥٧٦	٢٦١	٧٣٩	١٩٥	٨٠٥	٢٩١	٧٠٩	٢٥٩	٧٤١	٧٤١
التأمين والتأمين والعقارات											
خدمات الاعمال											
خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)
نشاط غير واضح	٥٧٢	١٢٨	٢٦٩	٧٣١	٢٩٤	٧٠٦	-	-	-	-	-
جملة ذوي النشاط	٢٢٢	٦٦٨	٢٢٤	٧٧٦	٢٥٤	٧٤٦	٢٩١	٧٠٩	٢١٤	٧٨٦	٧٨٦

(١) ضمن الصناعات التحويلية .

(٢) تشمل جميع الخدمات

المصدر : تم احتساب النسب على اساس المجموعه الاحصائية السنويه ١٩٨٥ ، جدول (١١)

ص ١٢٠ ، و جدول ١١٢ ، ص ١٢٢ .

وقد احتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في قطاع التشييد والبناء المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٧,٢٪ عام ١٩٥٧ و ١٩,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٨,٠٪ عام ١٩٧٠ ، وانحدرت ١٤,٤٪ ، واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع التجارة ، ١٥,٧٪ مكانها عام ١٩٧٥ ، ولكنها ارتفعت الى ٢٥,٢٪ وعادت واحتلت المرتبة الثانية عام ١٩٨٠ .

وبينما كانت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع النقل والتخزين والمواصلات في المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٦,٥٪ في ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، على التوالي ، انحدرت هذه النسبة إلى ٤,٠٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في الصناعات التحويلية ، ١٠,٢٪ ، مكانها ، المرتبة الثالثة ، عام ١٩٧٠ ، ولكن عادت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والتخزين والمواصلات إلى المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٧,٦٪ في ١٩٧٥ و ١٩٨٠ على التوالي .

واحتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في الصناعات التحويلية المرتبة الثالثة في السنوات ١٩٥٧ ، ٩,٨٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٩٪ والمرتبة الرابعة في السنوات ١٩٦٥ ، ١١,٦٪ و ١٩٧٥ ، ١٠,٥٪ و ١٩٨٠ ، ١٠,٠٪ ، بينما احتلت نسبتهم في التجارة المرتبة الرابعة في السنوات ١٩٥٧ ، ٧,١٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٧٪ والمرتبة الثالثة في السنوات ١٩٦٥ ، ١٢,٩٪ و ١٩٧٥ ، ١٥,٧٪ و ١٩٨٠ ، ١٤,١٪ .

ويتضح مما سبق أن ذوي النشاط الكويتيين تركزوا في قطاعات الخدمات في المقام الأول وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٧١,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ٨٧,٦٪ عام ١٩٨٠ . وأما ذوي النشاط غير الكويتيين فقد تركزوا في قطاع الخدمات في المقام الأول وفي قطاعات التشييد والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٨٢,١٪ عام ١٩٥٧ إلى ٩٠,٠٪ عام ١٩٨٠ .

٦ - تركيز الكويتيين وغير الكويتيين مهنياً :

وكما كان الكويتيون أقل من غير الكويتيين في مختلف القطاعات كانوا كذلك في مختلف المهن .

فكما يتضح من الجدول (٦) ، باستثناء عام ١٩٧٥ ، حيث كانت نسبة الكويتيين أكبر من نسبة غير الكويتيين ، ٥٠,٦٪ مقابل ٤٩,٤٪ في المهن المتعلقة بالزراعة وتربية الحيوان والصيد ، كانت نسبة غير الكويتيين أكبر من نسبة الكويتيين في جميع أنواع المهن في جميع سنوات التعدادات . وكما تزايد الاعتماد على غير الكويتيين قطاعياً ، تزايد الاعتماد عليهم أيضاً مهنياً ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . فباستثناء المهن العلمية والفنية والتي تزايدت نسبة الكويتيين فيها من ٩,٨٪ إلى ٢٠,٦٪ والأعمال الكتابية التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣٧,٤٪ إلى ٤٠,٩٪ وأعمال الخدمات التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣١,٠٪ إلى ٣٢,٩٪ ، انخفضت نسبة الكويتيين في بقية المهن بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

وكما تركز الكويتيون قطاعياً في الخدمات في المقام الأول ، وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني ، فقد تركز غير الكويتيين في الخدمات في المقام الأول ، وفي التشييد والبناء والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني ، وكما يتضح من الجدول (٧) تركز الكويتيون في أعمال الخدمات في المقام الأول ، ٣٢,٨٪ وفي مجال الانتاج والعمال العاديين في المقام الثاني ، ٢٦,٣٪ وفي المهن الكتابية في المقام الثالث ، ١٥,٤٪ عام ١٩٦٥ .

[illegible]

(١) فنون الطبخ والتجهيز
(٢) التجارة وسط

بينما ارتفعت نسبتهم في أعمال الخدمات إلى ٣٦,٣٪ واستمرت بذلك في المقام الأول ، وانخفضت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين إلى ١٣,٥٪ وانحدرت إلى المقام الثالث ، ثم ارتفعت نسبتهم في المهن الكتابية إلى ٢٣,٨٪ واحتلت المقام الثاني عام ١٩٨٠ .

وأما بالنسبة لغير الكويتيين ، فكانت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين في المقام الأول ، ٤٩,٥٪ ، وفي اعمال الخدمات في المقام الثاني ٢١,٩٪ وفي المهن العلمية والفنية في المقام الثالث ٨,٣٪ عام ١٩٦٥ .

وبينما انخفضت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات إلى ٤٤,٨٪ و ٢٠,١٪ على التوالي ، نرى أنها ارتفعت في المهن العلمية والفنية إلى ١٦,٣٪ ، عام ١٩٨٠ .

ولكن بالرغم من الانخفاض الذي طرأ على نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وارتفاع نسبتهم في المهن العلمية والفنية ، إلا ان نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وفي المهن العلمية والفنية ، بقيت في المقام الأول والثاني والثالث على التوالي عام ١٩٨٠ .

إن غمط التوزيع القطاعي والمهني للكويتيين وغير الكويتيين ودرجة التركيز القطاعي والمهني لكل منهما ، لها مدلولات مهمة بالنسبة المستوى درجة المرونة في إحلال الكويتيين محل غير الكويتيين ، من جهة وبالنسبة لتأهيل وتوجيه الكويتيين نحو مختلف القطاعات والمهن من جهة أخرى .

فكما يتضح من الجدول (٨) ، توجهت معظم الزيادة في قوة العمل الكويتية ، . ٨٣٪ إلى قطاع الخدمات بينما توجه فقط ١٧٪ من الزيادة إلى بقية القطاعات بين ١٩٦٥ و ١٩٨٠ .

ويعود سبب الزيادة في قطاع الخدمات ، في المقام الأول ، إلى توجه الكويتيين إلى العمل بالجهاز الحكومي بسبب سياسات التوظيف التي تكفل لهم الوظائف بالجهاز الحكومي من جهة وبسبب زيادة إقبالهم على العمل بالجهاز الحكومي عن إقبالهم على العمل في القطاع الخاص من جهة أخرى .

أما بالنسبة لغير الكويتيين فقد توجه ٤٠,٤٪ من الزيادة إلى قطاع الخدمات و ٢٨,٢٪ إلى قطاع التشييد والبناء و ١٤,٨٪ إلى قطاع التجارة و ٩,١٪ إلى قطاع الصناعات التحويلية . وهذا يعني أن الزيادة في غير الكويتيين انتشرت بشكل أكثر توزاناً من انتشار الزيادة في الكويتيين .

وبما أن ذوي المهن المتعلقة بأعمال الخدمات والأعمال الكتابية والمهن العلمية والفنية يشكلون عادة نسبة كبيرة من جملة ذوي المهن في قطاع الخدمات (في حدود ٨٠٪) من جهة ، فإن معظم الزيادة في الكويتيين توجهت إلى قطاع الخدمات . من جهة أخرى ، تركزت معظم الزيادة في الكويتيين بنسبة (٨٨,٩٪) في المهن المتعلقة بالخدمات بنسبة (٣٧,١٪) وفي الأعمال الكتابية (٢٨,٤٪) وفي المهن العلمية والفنية كانت نسبتهم ٢٣,٤٪ .

ونظراً لأن انتشار الزيادة في غير الكويتيين كان أوسع من انتشار الكويتيين قطاعياً ، كان انتشارهم أيضاً أوسع مهنياً . فقد اتجه ٤١,٣٪ و ٢١,٠٪ و ١٨,٩٪ و ١٠,٢٪ من جملة زيادتهم إلى المهن المتعلقة بعمال الانتاج والعمال العاديين والمهن العلمية والفنية وأعمال الخدمات والمهن الكتابية على التوالي .

جدول رقم (٦)

ذوي النشاط حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
المهنة		ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك
١ - المهن العلمية والفنية		٩٨	٩٠٢	١٤٦	٨٥٤	٢٣٣	٧٦٧	٢٠٦	٧٩٤
٢ - المديرون والاداريون ومديرو الاعمال		٣٧٩	٦٢٩	٣٤٣	٦٥٧	٣٦٦	٦٣٤	٦٤٠	٦٦٠
٣ - الاعمال الكتابية		٣٧٤	٦٢٦	٤٠٧	٥٩٢	٤٧٠	٥٣٠	٤٠٩	٥٩١
٤ - اعمال البيع		٣٠٤	٦٩٦	٣١٠	٦٩٠	٢٥٧	٧٤٣	١٦٧	٨٢٣
٥ - اعمال الخدمات		٣١٠	٦٩٠	٤٠٢	٥٩٨	٤٢٠	٥٨٠	٣٢٩	٦٧١
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد		٢٠٧	٧٩٣	٢٢٦	٧٧٤	٥٠٦	٤٩٤	٣٩٤	٦٠٦
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديون		١٣٩	٨٦١	١٣٩	٨٦١	١٤٥	٨٥٥	٧٦	٩٢٤
٨ - غير مبين المهنة		٦٣٢	٣٦٨	٧٥٦	٢٤٤	١٠٠	-	-	-
الجملة		٢٣٣	٧٦٧	٢٥٩	٧٤١	٢٩١	٧٠٩	٢١٤	٧٨٦

المصدر : تم احتساب الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية - ١٩٨٥

الجدول ١٠٩ ص ١١٧ و ١١٨ ص ١١٨ .

جدول رقم (٧)
ذوي النشاط الاقتصادي حسب المهنة والجنسية
(نسب مئوية)

١٩٨٠				١٩٧٥				١٩٧٠				١٩٦٥				المهنة / الجنسية
ج	غ ك	ك	ج	غ ك	ك	ج	غ ك	ك	ج	غ ك	ك	ج	غ ك	ك	ج	
١٦٦	١٦٣	١٥٦	١٤٠	١٥٢	١١٣	١٠٨	١٢٤	١٦	٧٠	٨٣	٢٩	٢٣	٨٣	٢٩	٢٤	١ - المهن العلمية والفنية
١٣	١١	٢٠	١٠	٠٩	١٢	٠٧	٠٧	١٠	٢٢	١٨	٢٤	٢٢	١٨	٢٤	٢٤	٢ - المديرون الاداريون ومديرو الاعمال
١٢٤	٩٣	٢٢٨	١٢٧	٩٠	٢٠٥	١١٩	٩٠	١٨٦	٩٦	٧٨	١٤	٩٦	٧٨	١٤	١٤	٣ - المهن الكتابية
١٤	١٨	٥٠	٨١	٨٠	٧١	٨٩	٨٣	١٠٦	٨٣	٧٠	١٠٨	٨٣	٧٠	١٠٨	١٠٨	٤ - اعمال البيع
٢٢٦	٢٠١	٢٦٣	٢٦٢	٢١٥	٣٧٨	٢٤٣	١٩٦	٢٧٦	٢٤٤	٢١٩	٣٢٨	٢٤٤	٢١٩	٣٢٨	٣٢٨	٥ - اعمال الخدمات
٢٠	١٦	٢٧	٢٦	١٨	٤٥	١٧	١٧	١٤	٢٠	٢٠	١٨	٢٠	٢٠	١٨	١٨	٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد
٢٨١	٤٤٨	١٢٥	٣٥٤	٤٢٧	١٧٦	٤٠٨	٤٧٥	٢١٧	٤٤١	٩٤	٢٦٣	٤٤١	٩٤	٢٦٣	٢٦٣	٧ - تصال الانتاج والعمال العاديون
٠٠	٠٠	٠٠	٠٠٠	٠٠	٠٠	٠٩	٠٣	٢٠	٢٥	١٢	٦٦	٢٥	١٢	٦٦	٦٦	٨ - غير مبين المهنة
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	جملة ذوي المهن

المصدر : نفس مصدر الجدول (٦)

جدول رقم (٨)
الزيادة في جملة ذوي النشاط ، حسب اقسام
النشاط الاقتصادي والجنسية بين
١٩٦٥ و ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - الزراعة والصيد	٢٢٦٥	٥ر٢	٢٨٠٢	١ر٦	٧١٦٢	٢ر٢
٢ - المناجم والمحاجر	١٠٤٨	١ر٦	١٣٨١	٠ر٦	٢٢٢٩	٠ر١
٣ - الصناعات التحويلية	١٢٥٤	٢ر١	٢١٩٦٤	٩ر١	٢٣٢١٨	٧ر٦
٤ - التشييد والبناء	٥٨	٠ر١	٦٨٢٠٩	٢٨ر٢	٦٨٢٥١	٢٢ر٢
٥ - المياه والغاز والكهرباء	٤٢٣	٠ر٧	٧٥٣	٠ر٣	١١٧٦	٠ر٤
٦ - تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	٥٥٢	٠ر٩	٢٥٩٢٤	١٤ر٨	٢٥٢٧٢	١١ر٦
٧ - النقل والتخزين والمواصلات	٥٢١٩	٨ر٢	١٤٩٠٩	٦ر٢	٢٠١٢٨	٦ر٦
٨ - التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الاعمال والخدمات الاجتماعية الشخصية	٥٢٧٥٨	٨٢ر٠	٩٧٨٤٧	٤٠ر٤	١٥٠٦٠٥	٤٩ر٢
جملة ذوي النشاط	٦٢٥٥٢	١٠٠	٢٢١٢٧	١٠٠	٢٠٥٦٨٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية
السوية ١٩٨٥ ، الجدول ١١١ ص ١٢٠ والجدول ١١٢ ص ١٢٢

جدول رقم (٩)

الزيادة في جملة ذوي النشاط حسب الجنسية
والمهنة بين ١٩٦٥ - ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - المهن العلمية والفنية	١٤٨٣٥	٢٣ر٤	٥٠٤٩١	٢١ر٠	٦٥٣٢٦	٢١ر٥
٢ - الاداريون ومديرو الاعمال	٦٤٣	١ر٠	١٦٠٨	٠ر٧	٢٢٥١	٠ر٧
٣ - الموظفون التنفيذيون والكتابيون	١٨٠٠٦	٢٨ر٤	٢٤٤٦٢	١٠ر٢	٤٢٤٦٨	١٤ر٠
٤ - اعمال البيع	٥٧٠	٠ر٩	١٥٢٤٦	٦ر٣	١٥٨١٦	٥ر٢
٥ - اعمال الخدمات	٢٣٤٧٤	٣٧ر١	٤٥٦٣١	١٨ر٩	٦٩٠٩٥	٢٢ر٧
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٣١١٦	٤ر٩	٣٠٦٩	١ر٣	٦١٨٥	٢ر٠
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديون	٢٦٦٤	٤ر٢	١٠٠٤٤٣	٤١ر٧	١٠٣١٠٧	٣٣ر٩
جملة زيادة ذوي المهن	٦٣٣٠٨	١٠٠	٢٤٠٩٤٠	١٠٠	٣٠٤٢٤٨	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية
١٩٨٥ الجدول ١٠٩ ص ١١٧ والجدول ١١٠ ص ١١٨ .

تزايد السكان غير الكويتيين

والاختلالات الهيكلية السكانية

ان تزايد عدد السكان بمعدلات خارقة للعادة ، من جهة ، وما رافق ذلك من تغيرات بارزة في مختلف جوانب الهيكل السكاني ، من جهة أخرى ، يعدُّ من أبرز التطورات غير المقصودة ، التي شهدتها مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الكويت منذ الخمسينات .

١ - سرعة واتجاهات النمو :

ارتفع عدد سكان الكويت من ٢٠٦٤٧٣ عام ١٩٥٧ الى ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ ، أي بمعدل نمو ٧,٨٪ سنوياً .

وكما يتضح من الجدول (٩) تباين معدلات النمو بين سنوات التعدادات بالنسبة لجملة السكان والسكان غير الكويتيين والسكان الكويتين .

أ - جملة السكان :

شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ، ١١,٧٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو الى ٩,٨٪ و ٩,٦٪ و ٦,١٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ و ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع الى ٦,٤٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض الى أدنى مستوى له ، ٤,٥٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ فقد كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث بينما كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ب - السكان غير الكويتيين :

بالرغم من التباين بين معدلات نمو غير الكويتيين وجملة السكان بين سنوات التعدادات ، إلا أن الاتجاه العام لنمو السكان غير الكويتيين اتسق مع الاتجاه العام لنمو جملة السكان .

فكما في حالة جملة السكان ، شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ١٤,٥٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو الى ١١,٥٪ و ٩,٦٪ و ٦,٠٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ثم ارتفع الى ٨,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض الى أدنى مستوى له ، ٥,١٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ .

وكما في حالة جملة السكان ، باستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، حيث كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ج - السكان الكويتيون :

بلغ معدل نمو السكان الكويتيين ٩,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ ، وكان بذلك أقل من معدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان . وخلافاً لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، لم يكن معدل النمو خلال هذه الفترة أعلى من معدلات النمو خلال الفترات التالية .

وكان اتجاه نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، انخفض معدل نمو السكان الكويتيين الى ٨,٠٪ خلال الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٥ ولكنه ارتفع الى ٩,٦٪ خلال الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ثم انخفض الى ٦,٣٪ خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ١٩٨٠ - ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ حيث كان معدل نمو الذكور أعلى قليلاً من معدل نمو الاناث ، كان معدل نمو الاناث إما أعلى أو مساوياً لمعدل نمو الذكور خلال بقية الفترات .

د - سرعة نمو السكان الكويتيين والسكان غير الكويتيين :

باستثناء الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ حيث كان معدل نمو جملة السكان الكويتيين ٩,٦٪ سنوياً ، مساوياً لمعدل نمو جملة السكان غير الكويتيين ، والفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، حيث زاد معدل نمو السكان الكويتيين قليلاً عن معدل نمو السكان غير الكويتيين ، ٦,٣٪ مقابل ٦,٠٪ ، كان معدل جملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدل نمو السكان الكويتيين في بقية الفترات .

وكانت معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان الكويتيين ، ٨,٠٪ مقابل ٦,٤٪ و ١١,٢٪ مقابل ٦,٨٪ و ٨,٩٪ مقابل ٦,٦٪ ، على التوالي ، خلال كامل الفترة ١٩٥٧ - ١٩٨٥ .

٢ - أسباب النمو :

يتأثر نمو السكان بمعدل المواليد ومعدل الوفيات وصافي الهجرة ، وعادة يتغير معدل المواليد ومعدل الوفيات ببطء ، أما صافي الهجرة فأكثر عرضة للتغير بسرعة .

أ - السكان الكويتيون :

تراوح معدل نمو السكان الكويتيين بين ٩,٦٪ سنوياً و ٦,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٥ . بينما يمكن اعتبار معدل نموهم خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، طبيعياً لا يمكن اعتبار معدلات نموهم خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ طبيعية . إذ بافتراض معدلات وفيات منخفضة جداً ، فمن غير المعقول أن تكون معدلات المواليد كانت مرتفعة لدرجة أتاحت تحقيق معدلات نمو خارقة للعادة خلال هذه الفترة .

فكيف يمكن تفسير معدلات النمو غير الاعتيادية ؟ لا تتوفر لنا بيانات ومعلومات تتيح لنا اجابة قاطعة عن ذلك . ولكن من الممكن اقتراح بعض الأسباب بصفة أولية . فمن الممكن تفسير معدلات النمو المرتفعة جزئياً بتحسين ودقة التعدادات السكانية وجزئياً بالتجنيس .

ب - السكان غير الكويتيين :

وأما بالنسبة لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين فكانت في المقام الأول بسبب الهجرة الصافية . فكما ذكرنا سابقاً أدت عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادات مستمرة في الطلب على العمالة أكبر بكثير من العرض منها محلياً وكان لا بد من مواجهة العجز المتزايد بعمالة وافدة ، عربية وغير عربية . وأدى تدفق العمالة الوافدة وما رافقها من أفراد أسرها إلى تزايد عدد السكان غير الكويتيين من جهة وإلى زيادة الطلب على العمالة الوافدة لمواجهة ازدياد الطلب على الخدمات من جهة أخرى .

٣ - التغيرات الهيكلية :

أدت الزيادات غير الطبيعية للسكان غير الكويتيين بسبب الهجرة الصافية ، في المقام الأول ، إلى أحداث تغيرات هامة في مختلف جوانب الهيكل السكاني .

أ - تناقص نسبة السكان الكويتيين :

أدت زيادة سرعة نمو عدد السكان غير الكويتيين عن سرعة نمو السكان الكويتيين إلى اتجاه نسبة السكان الكويتيين إلى الانخفاض واتجاه نسبة غير الكويتيين إلى الارتفاع .

فكما يتضح من الجدول (١٠) أن نسبة السكان الكويتيين قد انخفضت من ٥٥٪ عام ١٩٥٧ إلى ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ نجد أن نسبة السكان غير الكويتيين قد ارتفعت من ٤٥,٠٪ إلى ٥٩,٩٪ بين نفس العامين . وبينما كانت نسبة السكان الكويتيين أكبر من نسبة السكان غير الكويتيين ، « ٥٥,٠٪ مقابل ٤٥,٠٪ عام ١٩٥٧ » ، أصبحت نسبة السكان غير الكويتيين أكبر من نسبة السكان الكويتيين ، « ٥٩,٩٪ مقابل ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ » .

جدول رقم (١٠)

السكان حسب الجنسية في سنواتالتعداد - (نسب مئوية)

سنوات التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٥٥ر٠	٤٥ر٠	١٠٠
١٩٦١	٥٠ر٣	٤٩ر٧	١٠٠
١٩٦٥	٤٧ر١	٥٢ر٩	١٠٠
١٩٧٠	٤٧ر٠	٥٣ر٠	١٠٠
١٩٧٥	٤٧ر٥	٥٢ر٥	١٠٠
١٩٨٠	٤١ر٧	٥٨ر٣	١٠٠
١٩٨٥	٤٠ر١	٥٩ر٩	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على أساس نفس مصدر الجدول (٩) .

ب - الهيكل النوعي :

يتضح من الجدول (١١) أن نسبة الذكور اتجهت إلى انخفاض بينما اتجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين على السواء .

كانت نسبة الذكور ٥٢,١ ٪ ، وكانت نسبة الاناث ٤٧,٩ ٪ من السكان الكويتيين بينما كانت نسبة الذكور ٨٧,٥ ٪ ونسبة الاناث ١٢,٥ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٥٧ وأصبحت نسبة الذكور ٤٩,٦ ٪ ونسبة الاناث ٥٠,٤ ٪ في السكان الكويتيين ونسبة الذكور ٦١,٨ ٪ ونسبة الاناث ٣٨,٣ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٨٥

وإن كان الاتجاه واحداً بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين ، إلا أن نسب الذكور والاناث بالنسبة للسكان الكويتيين ، وإن تباينت بين سنوات التعداد ، إلا أنها تعتبر طبيعة وتتسق مع الهيكل النوعي الطبيعي للسكان .

أما بالنسبة للسكان غير الكويتيين فقد كان الهيكل مختلفاً كثيراً عام ١٩٥٧ . وبالرغم من التحسن الذي طرأ على نسبة الاناث حيث ارتفعت من ١٢,٥ ٪ عام ١٩٥٧ إلى ٣٨,٢ ٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن الهيكل النوعي بقي مختلفاً كثيراً . وهذا يعني أن نسبة النوع الطبيعية بالنسبة للسكان الكويتيين بينما هي غير طبيعية بالنسبة للسكان غير الكويتيين . فمجتمع غير الكويتيين مجتمع ذكور . ونظراً لأن سرعة تزايد السكان غير الكويتيين كان أعلى من سرعة تزايد السكان الكويتيين ، أصبح هيكل جملة السكان مختلفاً بالنسبة للنوع والجنسية .

ويعود الاختلال في الهيكل النوعي للسكان غير الكويتيين إلى أثر الهجرة الصافية . ففي أول الأمر لم تتخذ هجرة العمالة ، وهي من الذكور ، الطابع الأسري على اعتبار أن الهجرة ستكون مؤقتة . وعندما امتدت فترات إقامة العمالة وابتدأ اتجاه الطابع الأسري لهجرة العمالة وضعت الحكومة ضوابط لاصطحاب أو إحضار أفراد أسر العمالة الوافدة . وبذلك بقيت نسبة الذكور في السكان غير الكويتيين مرتفعة .

ج - تنوع جنسيات السكان غير الكويتيين :

كما يتضح من الجدول (١٢) تشمل قوة العمل غير الكويتية رعايا من مختلف مجموعات دول العالم . وتأتي نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول ونسبة قوة العمل الآسيوية في المقام الثاني في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ . وبالرغم من استمرار نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول إلا أنها انخفضت بشكل بارز بينما ارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية بشكل ملحوظ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وبما أن قوة العمل غير الكويتية تنتمي إلى مختلف مجموعات دول العالم ، فإن السكان غير الكويتيين - وكما يتضح من الجدول (١٣) - ينتمون إلى مختلف مجموعات دول العالم . وكما أن نسبة قوة العمل العربية تأتي في المقام الأول ويليهما نسبة قوة العمل الآسيوية ، تأتي نسبة السكان العرب في المقام الأول ويليهما السكان الآسيويون . وكما انخفضت نسبة قوة العمل العربية وارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية ، فقد انخفضت - أيضاً - نسبة السكان العرب بينما ارتفعت نسبة السكان الآسيويين بين « ١٩٧٥ و ١٩٨٠ » .

جدول رقم (١٢)
قوة العمل غير الكويتية حسب مجموعات الدول
التوزيع النسبي

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٦٨,٩٧	٥٩,٥٥
آسيوية	٢٩,٤٢	٢٧,٩٧
افريقية	٠,٠٥	٠,٢١
امريكية واوروبية	٠,٩٥	١,٤٤
معطاون جدد	٠,٦١	٠,٨٣
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١٠٠ ص ١١٠ .

جدول رقم (١٣)
السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول
(نسب مئوية)

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٨٠,١٩	٧٢,٥١
آسيوية	١٨,٧١	٢٥,٧٦
افريقية	٠,٠٨	٠,٢٠
اوروبية	٠,٨٢	١,٢٦
امريكية	٠,١٦	٠,٢٥
اخرى	٠,٠٤	٠,٠٢
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ -
جدول ٢٩ ، ص ٥٥ .

د . الهيكل العمري للسكان ومعدل المشاركة :

يستدل من الجدول (١٤) أن نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في السكان الكويتيين قد تذبذبت قليلا حيث انخفضت قليلا عام ١٩٧٠ ثم ارتفعت قليلا عام ١٩٧٥ ثم انخفضت قليلا عام ١٩٨٠ ، بينما اتجهت نسبة صغار السن في السكان غير الكويتيين إلى الارتفاع تدريجياً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، ثم انخفضت عام ١٩٨٠ . ويعود انخفاض هذه النسبة بين عام ١٩٧٥ - ١٩٨٠ إلى القيود التي فرضت على اصطحاب أفراد أسر العمالة الوافدة . وبسبب اتجاه نسبة صغار السن إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ اتجهت نسبة من هم في سن ١٥ - ٥٩ سنة إلى الانخفاض خلال نفس الفترة ، إذ انخفضت النسبة من ٦٨,٨٪ عام ١٩٦٥ إلى ٦٠,٥٪ و ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ، وعلى عكس ما حصل بالنسبة لصغار السن ، ارتفعت هذه النسبة من ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ٦٥,١٪ عام ١٩٨٥ ، حيث أصبح اصطحاب أفراد الأسر أو إحصائهم أقل سهولة من الفترات السابقة .

وأما بالنسبة للسكان الكويتيين فقد كانت تقلبات نسبة صغار السن أقل منها في السكان غير الكويتيين ، فبينما كانت ٤٨,٩٪ عام ١٩٦٥ نجد أنها ارتفعت قليلا ووصلت إلى ٤٩,٢٪ عام ١٩٨٠ .

وبما أن حجم السكان غير الكويتيين أكبر من حجم السكان الكويتيين فقد تأثر الهيكل العمري لجملة السكان بالهيكل العمري للسكان غير الكويتيين أكثر من تأثره بالهيكل العمري للسكان الكويتيين . لذلك اتجهت نسبة صغار السن في جملة السكان إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، حيث ارتفعت من ٣٨,٠٪ عام ١٩٦٥ إلى ٤٣,١٪ و ٤٣,٤٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي - ثم انخفضت إلى ٤٠,٣٪ عام ١٩٨٠ .

ويؤثر الهيكل العمري والهيكل النوعي على معدل المشاركة (قوة العمل كنسبة مئوية من السكان) ، بافتراض الهيكل النوعي . فكلما ازدادت نسبة صغار السن كلما انخفض معدل المشاركة . وكما يتضح من الجدول (١٥) ، فقد اتجه معدل المشاركة بالنسبة لغير الكويتيين إلى الانخفاض وذلك بين (١٩٦٥ - ١٩٧٥) نظراً لأن نسبة صغار السن فيهم اتجهت إلى الارتفاع خلال نفس الفترة . وبما أن نسبة صغار السن انخفضت عام ١٩٨٠ ، فقد ارتفع معدل المشاركة .

أما بالنسبة للسكان الكويتيين ، فلا يبدو أثر التغير في نسبة صغار السن على معدل المشاركة واضحاً . إذ أن اتجاههما كان واحداً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، وبالرغم من أن نسبة صغار السن ارتفعت عام ١٩٧٥ عما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، إلا أن معدل المشاركة ارتفع بدلا من أن ينخفض ، كما أن اتجاه نسبة صغار السن ومعدل المشاركة كان واحداً بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

دروس الخبرة وآفاق المستقبل

يمكن استخلاص المعالم الأساسية لنموذج تفاعل العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة من مختلف دول العالم إلى الكويت والتي أعطت ثماراً يانعة ، من جهة ، وبعض الثمار غير المرغوبة ، من جهة أخرى .

جدول رقم (١٥)

قوة العمل كنسبة مئوية من السكان

١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٥٧	
١٩١	١٩٥	١٨٨	١٩٥	٢١٧	كويتي
٤٨٤	٤٠٧	٤٥٢	٥٧١	٦٠٠	غير كويتي
٢٦٢	٢٠٦	٢٢٨	٢٩٤	٢٨٩	المجموع

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩ ص ٢٥ - والجدول ١ من هذه الدراسة .

١ - النموذج :

يبين الشكل - ١ تصوراً مبسطاً لنسيج الترابط بين العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة الوافدة إلى الكويت والآثار التي ترتبت عليها .

بدأت مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بعد أن بدأت عائدات النفط بالتدفق في أوائل الخمسينات . وتأثر مسار وتوجهات التنمية وسرعتها منذ البداية بسرعة نمو عائدات النفط من جهة ، وبمفهوم وأهداف التنمية من جهة أخرى . وفي إطار مفهوم التنمية التي تطلعت الحكومة إلى تحقيقها ، حظي الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل وتنوع مصادر الدخل باهتمام خاص .

يعتمد تحقيق أهداف التنمية على الموارد المتاحة من جهة ، وعلى كفاءة تخصيصها واستخدامها من جهة أخرى . وتوفرت ، بفضل العائدات النفطية ، الموارد المالية اللازمة لتمويل مشروعات متزايدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ونظراً لصغر حجم السكان من جهة ، وندرة المهارات من جهة أخرى ، عجز العرض المحلي من العمالة عن تلبية متطلبات عمليات التنمية منذ مستهل المسيرة . وتم سد العجز باستيراد العمالة اللازمة من دول عربية وغير عربية . ولم تقتصر الهجرة على العمالة ، بل وشملت أيضاً أفراد أسر العمال المهاجرين . أي أن حجم السكان غير الكويتيين تأثر بعاملين : حجم العمالة الوافدة ومعدل المرافقة لها . وتأثر معدل المرافقة بسياسات وإجراءات الهجرة التي تبنتها ونفذتها الحكومة ، من جهة ، وبجنسيات العمالة الوافدة من جهة أخرى .

وبما أن حجم ونوع السكان ومستوى دخلهم يحدد حجم ونوع طلبهم على السلع والخدمات ، تأثر إجمالي ونوع الطلب على السلع والخدمات بحجم السكان غير الكويتيين وجنسياتهم ومستوى دخلهم . وأصبح السكان غير الكويتيين عاملاً مهماً في الطلب على السلع والخدمات وتلبية الطلب على السواء . بمعنى آخر ، أصبحوا عاملاً مهماً في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات على السواء .

وبسبب الزيادة المستمرة في العائدات النفطية ، وخاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات عندما بدأ الكساد العالمي ، أخذ الطلب على العمالة الوافدة بالارتفاع باستمرار . وأدى تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة إلى تناقص نسبة العمالة الكويتية في جملة العمالة من جهة ، وتزايد نسبة السكان الوافدين في جملة السكان من جهة أخرى . وأصبح الكويتيون يشكلون ١, ٤٠٪ من جملة السكان حسب تعداد ١٩٨٥ فقط ٢, ٢٣٪ من جملة المشتغلين حسب تقدير ١٩٨٣ .

٢ - الانكماش الاقتصادي وانخفاض الطلب على العمالة :

تأثر إنتاج وتصدير النفط بالكساد العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات . وبما أن الاقتصاد الكويتي اعتمد ، ولا زال يعتمد ، في المقام الأول ، على قطاع النفط ، بدأ أيضاً في الانكماش في مطلع الثمانينات .

فقد انخفض إجمالي الناتج المحلي من قيمته ١٧٤٦,٧ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ١٥٧٧,٤ مليون دينار كويتي و ١٤٩٤,٠ مليون دينار كويتي و ١٤٧٣,٧ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(٦) .

ولكن بالرغم من تراجع إجمالي الناتج المحلي بسبب تراجع الناتج المحلي النفطي ، استمر الناتج المحلي غير النفطي بالارتفاع - فقد ارتفع من ٨, ١٠٥٠ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ٢, ١١٤ مليون دينار كويتي و ٧, ١١٧٨ مليون دينار كويتي و ٣, ١٢٤٢ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(٧) .

ويعود استمرار ارتفاع الناتج المحلي غير النفطي بالرغم من استمرار تراجع الناتج المحلي النفطي وبالتالي استمرار تراجع إجمالي الناتج المحلي ، في المقام الأول ، بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢ ، إلى استمرار نمو الانفاق العام ^(٨) . فمستوى النشاط الاقتصادي خارج قطاع النفط اعتمد ، ولا زال يعتمد ، على مستوى الانفاق العام . ولكن بسبب اتجاه أسعار النفط إلى الانخفاض منذ مارس ١٩٨٣ وتدهورها منذ أواخر ١٩٨٥ ، وبالتالي تدهور الإيرادات النفطية ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تلجأ إلى تخفيض الانفاق العام ، مما اضطرها إلى تقليص ميزانية عام ١٩٨٦/١٩٨٥ ، بعد اعتمادها .

(٦) المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٣ من ٢٤٢ .

(٧) نفس المصدر السابق .

(٨) ارتفعت جملة المصروفات الحكومية من حوالي ٢٧٠٣ مليون دينار عام ١٩٨٠/١٩٨١ إلى ٣٢٤٨ مليون دينار عام ١٩٨٢/١٩٨٣ ، ولكنها انخفضت إلى ٣٠٢٤

مليون دينار عام ١٩٨٣/١٩٨٤ . انظر المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٧ من ٢٤٦ .

وكما يتوقع أدى تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى تراجع الطلب على العمالة وتزامن اتجاه انخفاض الطلب على العمالة مع أمرين مهمين فيما له علاقة بالعمالة الوافدة . الأمر الأول ، أنه قد تم إقامة معظم ، إن لم يكن جميع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبما أن مشروعات الهياكل الأساسية أسهمت إسهاماً كبيراً في ازدهار قطاع التشييد والبناء خلال الفترة الماضية من جهة ، ونظراً لأن هذا القطاع اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً ، على العمالة الوافدة واستخدام نسبة كبيرة منها ، من جهة أخرى ، أخذ الطلب على العمالة اللازمة لهذا القطاع بالانخفاض . وأما الأمر الآخر فيتعلق بقوة العمل من الكويتيين .

يتوقف حجم قوة العمل على حجم السكان ومعدل المشاركة وتتوقف نوعية قوة العمل على نوعية ومستوى مهاراتها ، أي نوع ومستوى تعليمها . وكما تبين لنا سابقاً فقد تزايد السكان الكويتيون بسرعة عالية خلال الفترة الماضية ، وتزايد عدد الاناث في قوة العمل من جهة وتراجعت نسبة الأمية وطراً تحسن ملموس على الحالة التعليمية لقوة العمل وزادت خبرتها من جهة أخرى^(٩) . أي أن العرض المحلي من قوة العمل قد تحسن كثيراً ، كما ونوعاً .

فإذا كان النمو الاقتصادي ، الذي ارتبط بنمو عائدات النفط من جهة ، وتزايد عجز العرض المحلي من قوة العمل عن تلبية تزايد الطلب على العمالة من جهة أخرى قد أديا إلى ظاهرة الهجرة الواسعة وما ترتب عليها من آثار مقصودة وآثار غير مقصودة في الماضي ، هل يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي بسبب تراجع عائدات النفط وانخفاض الطلب على العمالة من جهة ، وتحسن العرض المحلي من قوة العمل ، كما ونوعاً ، من جهة أخرى ، إلى هجرة معاكسة ؟ .

لقد أدت الهجرة التي تمت على نطاق واسع لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى خلق ترابط وثيق بين تواجد الوافدين وتوقعات استمرار وتزايد تواجدهم والعديد من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فما لم تتم الهجرة المعاكسة ، إن كان لا بد من أن تتم ، في إطار رؤى واضحة وخطة مدروسة تنطلق من إدراك واع وتام لأرض الواقع وحكم سليم على احتمالات المستقبل ، فقد يترتب عليها آثار سلبية غير محسوبة يصعب احتواؤها .

٣ - هل ستستمر الحاجة إلى العمالة الوافدة في المدى المنظور :

يبين الجدولان ١٦ و ١٧ المشتغلين عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . ويتضح من الجدولين أن مجموع عدد المشتغلين ازداد بمعدل ٦٣ ، ٠٪ سنوياً بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . بينما ازداد عدد المشتغلين الكويتيين بمعدل ٣ ، ٦٦٪ سنوياً وارتفعت نسبتهم من مجموع المشتغلين من ٢١ ، ٢٪ إلى ٢٣ ، ٢٪ وقد تناقص عدد المشتغلين غير الكويتيين بمعدل ٢١ ، ٠٪ وانخفضت نسبتهم من ٧٨ ، ٨٪ إلى ٧٦ ، ٨٪ خلال هذه الفترة . فما هي احتمالات المستقبل ؟

يتضح من الجدولين أن ثلاث قطاعات ، خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية والتشييد والبناء والصناعات التحويلية ، استخدمت ٧٤ ، ٣٪ من مجموع المشتغلين عام ١٩٨٠ وقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٧٥ ، ٨٪ عام ١٩٨٣ .

(٩) كان ٥١ ، ٦٪ و ٣٩ ، ٠٪ من جلة العمل الكويتية أمي ويطراً ويكتب على التوالي ، بينما فقط ١ ، ٤٪ من الثانوية و ١ ، ٢٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٦٥ ، وأصبح ٢٥ ، ٣٪ أمي و ١٧ ، ٢٪ يقرأ ويكتب و ١٧ ، ٣٪ من الثانوية و ٧ ، ٦٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٠ . انظر المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ . الجدول ١٠٧ والجدول ١٠٨ ص ١١٦ .

وبناء على ذلك فإن مدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة ، مرهون ، في المقام الأول ، بما يمكن أن يطرأ على الطلب والعرض بالنسبة للقطاعات الثلاثة .

أ - قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية :

إن نمو المشتغلين في القطاع بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ لا يعني أنه سيستمر بنفس الاتجاه أو نفس السرعة في المستقبل المنظور .

وعلى الرغم من أن نمو جملة المشتغلين في مختلف القطاعات كان بطيئاً جداً ، « ٠,٦٣ ٪ سنوياً » ، بلغ معدل النمو السنوي لجملة المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية ٤,٥ ٪ خلال ١٩٨٠ - ١٩٨٣ . ويعود سبب نمو المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع ، في المقام الأول ، إلى نمو السكان . حيث بلغ معدل النمو السنوي لجملة السكان ٤,٥ ٪ خلال نفس الفترة .

وبما أن الحكومة اعتمدت سياسات وستتخذ إجراءات لتعديل التركيبة السكانية فمن المتوقع أن تنخفض سرعة نمو جملة السكان إلى ٢,٢ ٪ ما بين عام بين ١٩٨٥ وعام ٢٠٠٠ (١٠) . وبافتراض استمرار نفس مستوى الخدمات من جهة ونفس مستوى إنتاجية العمالة فيه ، من جهة أخرى ، سيكون نمو جملة العمالة في القطاع في حدود ٢ ٪ سنوياً .

ومن الممكن مواجهة نمو طلب القطاع من النمو المتوقع في عرض العمالة الكويتية . ولكن ليس ذلك بالأمر السهل . فحسب بعض التقديرات يمثل المشتغلون في الخدمات الشخصية والمنزلية حوالي ٢٠ ٪ من جملة المشتغلين في القطاع ، وما لا يقل عن ٩٥ ٪ منهم من غير الكويتيين (١١) . وقد ازداد الطلب على هذه العمالة بسبب نمو الرخاء من جهة وظهور قيم اجتماعية من جهة أخرى . فعدد المشتغلين في الخدمات المنزلية للعائلة يعتبر مؤشراً لمكانتها في المجتمع . ومن غير المتوقع أن يتجه الطلب على هذه الفئة إلى الانخفاض .

ويتضح مما سبق أن حاجة القطاع إلى العمالة الوافدة ستستمر ، ولكن بدرجة أقل ، في المدى المنظور .

ب - قطاع التشييد والبناء :

كما يتضح من الجدولين « ١٦ و ١٧ » تراجع عدد المشتغلين في القطاع من « ٩٧٠٩٩ إلى ٨١٣٦٢ » وتراجعت نسبة المشتغلين في القطاع من جملة المشتغلين من « ٢٠,١ ٪ » إلى « ١٦,٥ ٪ » بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ .

لقد تأثر ازدهار القطاع في الفترة الماضية ، في المقام الأول ، بازدهار مشروعات الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية ومشروعات الاسكان التي نفذتها الحكومة ، كما تأثر ايضا ببناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

وفيما يتعلق بالهياكل الأساسية فقد تم إقامة معظمها ، إن لم يكن جميعها ، ولذلك فإن أي توسع فيها سيكون في حدود بسيطة نسبياً . وكذلك الأمر بالنسبة لبناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

(١٠) بالفرض معدل نمو سنوي مقداره ٣,٧٤ ٪ سيكون عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . وبالفرض تحقيق التوازن السكاني سيكون جملة السكان

٢٣٥٧٦٤٢ عام ٢٠٠٠ . وبما أن جملة عدد السكان ١٩٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ يكون معدل النمو السنوي لجملة السكان ٢,٢٢ ٪

(١١) نعيم الشريفي « العمال الأجانب في البلدان العربي المنتجة للنفط » ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ / رقم ٤ ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ - ٣٧ .

جدول رقم - ١٦
المتشغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٠

الجموع				غير كويتي				كويتي			
النسبة المئوية من		العدد		النسبة المئوية من		العدد		النسبة المئوية من		العدد	
جملة	المتشغلون في القطاع	جملة	المتشغلون في القطاع	جملة	المتشغلون في القطاع	جملة	المتشغلون في القطاع	جملة	المتشغلون في القطاع	جملة	المتشغلون في القطاع
٤٥٧	١٠٠	٢٢٠٤٥٣	٦٥٨	٢٨١	١٤٤٩٩٣	٧٣٦	٣١٢	٧٥٤٦١			
٢٠١	١٠٠	٩٧٠٩٩	٩٨٨	٢٥٣	٩٥٨٩٣	١٢	١٢	١٢٠٦			
٨٥	١٠٠	٤١٣٦٠	٩٢٣	١٠٠	٣٨٠٨١	٣١	٧٧	٣١٧٩			
٢٥٧	١٠٠	١٢٣٨٣٩	٨١٧	٢٦٦	١٠١٢٠٥	٢٢١	١٨٣	٢٢٦٢٤			
١٠٠		٤٨٣٦٤١	٧٨٨	١٠٠	٣٨٠١٧١	١٠٠	٢١٢	١٠٣٤٧٠			
الجملة											

المستغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٣
جدول رقم - ١٧

المجموع				غير كويتي				كويتي			
النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد
جملة	المشتغلون في القطاع		جملة	المشتغلون في القطاع		جملة	المشتغلون في القطاع		جملة	المشتغلون في القطاع	
٢٤ر٢	١٠٠	١١٨٩٥٥	٢٥ر٥	٨١ر٣	٩٦٦٨١	١٩ر٥	١٨ر٧	٣٣٢٧٤	٢٣ر٣	١١٤١٥	
٨ر١	١٠٠	٣٩٦٦٤	٩ر٧	٩٢ر٠	٣٦٤٨٣	٢ر٨	٨ر٠	٣١٨٢			
١٦ر١	١٠٠	٨١٣٦٣	٢١ر٣	٩٨ر٧	٨٠٣٩٠	٠ر٩	١ر٣	١٠٧٣			
٥ر٥	١٠٠	٢٥١٨٩٦٦	٤٣ر٥	٦٥ر٢	١٦٤٢٨٠	٧٦ر٨	٣٤ر٨	٨٧٦١٦			
١٠٠	١٠٠	٤٩١٨٧٨	١٠٠	٧٦ر٨	٣٧٧٣٣	١٠٠	٢٣ر٣	١١٤١٥			الجملة

المصدر : تم إحصاء الجدول على أساس المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ١٣١ من ١٣٥ .

ومن المتوقع أن ينشأ طلب على العمالة للقطاع لتشغيل وصيانة مشروعات الاستثمار التي بلغت ذروتها في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات . وسيكون مزيج الطلب على المهارات مختلفا عن مزيج الطلب في الفترة السابقة . ولكن بالرغم من تراجع طلب القطاع على العمالة ووجود أسباب قوية لتراجعها أكثر إلا أن حاجة القطاع للعمالة الوافدة ستستمر في المدى المنظور . فنسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع كانت فقط ١,٢٪ و ١,٣٪ عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ على التوالي . إن ارتفاع النسبة من ١,٢٪ إلى ١,٣٪ لا تعني زيادة في عدد الكويتيين في القطاع . إذ أن عددهم قد انخفض من ١٢٠٦ إلى ١٠٧٣ . ويعود السبب في ارتفاع نسبتهم من ١,٢٪ إلى ١,٣٪ إلى انخفاض عدد غير الكويتيين . ونظرا لأن نسبة كبيرة من المشتغلين في القطاع من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٨٠ - ٨٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال في القطاع ضعيفة جدا .

ج . قطاع الصناعات التحويلية :

تراجع عدد من المشتغلين في هذا القطاع من ٤١٢٦٠ إلى ٣٩٦٦٤ بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ ، إلا أن عدد المشتغلين الكويتيين ارتفع من ٣١٧٩ إلى ٣١٨٢ .

وبما أن الصناعات التحويلية تشمل المنتجات البترولية والمنتجات غير البترولية يعود تراجع عدد المشتغلين في القطاع إلى تراجع النشاط في قطاع النفط . ومن المعلوم أن تنوع مصادر الدخل من خلال إقامة وتطوير صناعات تحويلية حظي ، ولازال يحظى ، باهتمام متزايد . وقد اعتمد هذا القطاع ، ولازال يعتمد ، على العمالة الوافدة بشكل كبير . ففي عام ١٩٨٣ ، كانت نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع فقط ٨٪ .

وبما أن نسبة كبيرة من المشتغلين في هذا القطاع هم من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٧٠ - ٧٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال فيه ضعيفة . ولذلك فمن المتوقع أن تستمر حاجة القطاع إلى معظم العمالة الوافدة التي تعمل في القطاع حاليا ، كما من المتوقع أن تنشأ العمالة الوافدة لمواجهة أي نمو في الطلب على العمالة خاصة بالنسبة لعمال الانتاج والعمال العاديين وبعض المهارات النادرة في المستقبل المنظور .

٤ - مواجهة المرحلة الانتقالية :

بينما كان العجز بين إجمالي الطلب على العمالة وعرض العمالة الكويتية يزداد باستمرار ويتزايد الاعتماد على العمالة الوافدة باستمرار تسارع النمو الاقتصادي خلال الفترة الماضية وخاصة بعد ١٩٧٣ وإلى أوائل الثمانينات ، أصبحت الزيادة في عرض العمالة الكويتية أكبر من الزيادة في إجمالي الطلب على العمالة بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ منذ ١٩٨٠ .

فبينما ازداد عدد المشتغلين « ٩٢٣٧ » شخص « ازداد عدد المشتغلين الكويتيين « ١١٦٧٥ » شخص » وانخفض عدد المشتغلين الوافدين « ٢٤٣٨ » شخص « بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . وهذا يعني أن زيادة عدد المشتغلين الكويتيين تمت بزيادة عدد جملة المشتغلين (١ , ٧٪) وبتخفيض عدد المشتغلين الوافدين (٩ , ٢٠٪) وإحلال كويتيين محلهم .

ومنذ عام ١٩٨٤ قام العديد من مؤسسات وشركات القطاع الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية بصفة عامة وفي قطاع التشييد والبناء بصفة خاصة ، باتخاذ إجراءات لمواجهة انخفاض مستوى نشاطها وتراجع الطلب على العمالة وقد تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين لديها أو تخفيض مرتباتهم وأجورهم وإلغاء بعض المزايا التي كانت تقدمها لهم في السابق .

وقد قررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين العاملين في الوزارات والمؤسسات العامة والهيئات العامة اعتباراً من مطلع صيف هذا العام . وهذا مؤشر على اعتماد الحكومة سياسة تخفيض حجم العمالة الحكومية . وربما كان هذا الاتجاه نابعاً من شعور الحكومة بأن حجم العمالة الحكومية قد ازداد أكثر بكثير من الاحتياجات الفعلية خلال الفترة السابقة حيث أدت سهولة تمويل الانفاق العام ، بسبب تزايد العائدات النفطية ، إلى سهولة خلق وظائف جديدة باستمرار . وفي ظل تدهور العائدات النفطية واهتمام الحكومة بترشيد الانفاق العام ، فمن الطبيعي أن يكون تخفيض العمالة الحكومية بين الخيارات المتاحة لها .

وبما أن التوقعات تشير إلى استمرار تباطؤ نمو إجمالي الطلب على العمالة من جهة ، ونظراً لاتجاه زيادة العرض من العمالة الكويتية من جهة أخرى ، خلال الثمانينات على أقل تقدير ، يثور السؤال حول أفضل الخيارات الممكنة لمواجهة هذه المسألة بشكل يكفل الحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على ذلك بالنسبة لجميع الأطراف المعنية . ويتفرع عن هذا السؤال المركزي سؤالان آخران :

الأول : ما هي المعايير التي يتم بموجبها الاستغناء عن العمالة الوافدة ؟ والآخر ما هي السياسات التي ستعتمد بالنسبة لمن سيتم الاستغناء عنهم ؟ .

أ - معايير الاستغناء عن العمالة الوافدة :

يتطلب النظر في معايير الاستغناء التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة في القطاع الخاص وفي الحكومة . إذ أن الاستغناء عن العمالة في القطاع الخاص أقل إثارة للنقاش وأقل تعرضاً لتعدد وجهات النظر . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة في الحكومة فأكثر مجالاً لاثارة النقاش ولتعدد وجهات النظر حوله .

١ - في القطاع الخاص :

ذكرنا أن القطاع الخاص واجه انخفاض حاجته إلى العمالة باعتماد إجراءات تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين أو تخفيض المرتبات والأجور وإلغاء بعض المزايا . وهذا يعني أن المعيار ينطلق من التكلفة والمنافع . وبصفة عامة يمكن القول أن القطاع الخاص يطبق هذا المعيار على العمالة الكويتية والعمالة الوافدة على السواء في إطار تحقيق مصلحته الخاصة . ومن الطبيعي أنه في حالة تساوي التكلفة والمنافع بين الاستغناء عن عامل وافد آخر كويتي ، ان يحتفظ بالعامل الكويتي ويستغنى عن العامل الوافد . فالتوظيف أصلاً في القطاع الخاص يقوم ، في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة وبصفة عامة لا يوظف القطاع الخاص أي شخص ، كويتي أو غير كويتي ، إلا في حدود حاجته . كما أن تحديد المرتب والمزايا ، يتم في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة ، أي على أساس مدى الحاجة من جهة والانتاجية من جهة أخرى .

٢ - في الحكومة :

يذكر ان مسار وتوجهات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تأثرت بمفهوم وأهداف التنمية من جهة وبالعائدات النفطية من جهة أخرى . وتأثرت سياسات التوظيف في الحكومة بسياسات الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل . فكفالة الحكومة ووظائف عامة للمواطنين أدت ، في كثير من الاحيان ، إلى خلق وظائف للمواطنين دون حاجة فعلية لها . وكادت أن تصبح الوظيفة بالجهاز الحكومي ، في كثير من الاحيان ، وسيلة من وسائل تعميم الفائدة من

عائدات النفط . فراتب الموظف في هذه الحالة بمثابة نصيبه من عائدات النفط ، وربما يتولد شعور لدى البعض أن نصيبه ليس كالياً مقارنة بغيره .

ونظراً لسهولة التوسع في الانفاق العام بسبب الارتفاع الكبير في عائدات النفط في السبعينات تم خلق وظائف كثيرة دون حاجة فعلية لها وتم إشغالها بمواطنين (ووافدين ايضاً) وأدت هذه الظاهرة إلى سلسلة من الآثار المترابطة لعل من أهمها :

(١) إضعاف العلاقة بين الكسب والعمل المثمر وبالتالي إضعاف قيم الانتاج والانتاجية والحافز الى العمل .
(٢) تضخم بيروقراطي وبالتالي انخفاض مستوى كفاءة الجهاز الحكومي وانخفاض مستوى إنتاجية المجتمع ككل تبعاً لذلك .

(٣) زيادة تدهور التوازن بين العرض من العمالة الكويتية وإجمالي الطلب على العمالة لمختلف القطاعات الاقتصادية وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة .

ويتضح مما سبق أن مسألة اختيار أفضل المعايير الممكنة للتكثيف مع الواقع الجديد أقل سهولة منها في القطاع الخاص . فإذا كان لا بد من تخفيض حجم العمالة الحكومية ينبغي أن تتم هذه العملية في إطار خطة واضحة توضع على أساس دراسات دقيقة وكافية تعالج المسألة من مختلف جوانبها بقدر كاف من التوازن .

وقبل محاولة إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذه المسألة للتوصل إلى أفضل الخيارات الممكنة لا بد من التأكيد على أن احلال الكويتيين محل الوافدين وتوظيف كويتيين مؤهلين لشغل وظائف جديدة يتم اعتمادها بناء على حاجة فعلية لها هو توجه سليم لتمكين العمالة الكويتية من لعب دور أكبر في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي هذا الاطار ينبغي التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف تزيد عن الحاجات الفعلية وبين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف لازالت الحاجة اليها قائمة . إن الغاء وظائف لا تدعو الحاجة الفعلية إلى وجودها والاستغناء عن شاغليها مفهوم ومقبول وإجراء مألوف في جميع دول العالم لمواجهة الانكماش الاقتصادي . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة بالرغم من أن الحاجة الى وظائفهم قائمة فأمر آخر .

فإذا وجد داخل الجهاز كويتي يشغل وظيفة لا لزوم لها وبنفس الوقت مؤهل للاضطلاع بمسؤوليات ومهام وظيفية لازمة ويشغلها وافد ، يمكن الغاء وظيفته وإحلاله محل الوافد .

وينبع التأكيد على هذا الامر لأن وجود عمالة زائدة عن الحاجة لا تقتصر على الوافدين ، بل وتوجد بين الكويتيين بدرجة أكبر . وبنفس الوقت من الممكن أن يوجد وافدون يشغلون وظائف في بعض الوزارات والمؤسسات لا حاجة فعلية لها وهم مؤهلون لاشغال وظائف الحاجة اليها قائمة في نفس الوزارات والمؤسسات أو في وزارات ومؤسسات أخرى ولا يوجد كويتيون مؤهلون لاشغالها .

ويتضح من كل ذلك أن الجانب الفني في المسألة متعدد الجوانب ، وما لم تتم العملية في اطار معايير واضحة يتم اختيارها وتحديدتها في ضوء مصلحة العمل قد تكون النتيجة الاستغناء عن من تقتضي المصلحة العامة بقاءهم والاحتفاظ بمن تتطلب المصلحة العامة الاستغناء عنهم .

ولكي تأتي هذه العملية بالثمار المرجوة لا بد من أن تتكامل مع إعادة النظر في سياسات توظيف الكويتيين التي تم اعتمادها وتنفيذها في إطار التركيز المفرط على الرفاه الاجتماعي وظله توزيع الدخل من جهة ومراجعة سياسات ومناهج

وبرامج التعليم والتدريب من جهة أخرى ، نحو بناء قوة عمل كويتية بالجهاز الحكومي قادرة على قيادة مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المرحلة القادمة .

وأما الجانب الانساني في مسألة تخفيض العمالة الحكومية لمواجهة تدهور الإيرادات النفطية واضطرار الحكومة إلى تخفيض مستوى الانفاق العام ، فأمر آخر وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في اختيار الفصل بديل ممكن . فالوافدون العاملون بالجهاز الحكومي وفي المؤسسات والهيئات العامة ساهموا في مسيرة التنمية ، ومضى على عمل البعض منهم فترات طويلة . وبالرغم من صحة المقولة بأن الوافدين قدموا املا وهم يعرفون أنهم مؤقتون وأن عملهم سينتهي بانتهاء الحاجة اليهم ، الا أن الصحيح ايضا أنهم شغلوا وظائف دائمة وأصبح وضعهم « مؤقت دائم » .

ومن جهة أخرى ، ينبغي اعتبار الجانب الانساني لاعتبار آخر ، إذ من غير الممكن أن يتم تخفيض حجم العمالة الوافدة بدرجة كبيرة من خلال الزيادات المتوقعة في عرض العمالة الكويتية في المدى المنظور . وهذا يعني ان اعتماد الجهاز الحكومي ، وبدرجة كبيرة على العمالة الوافدة سيستمر في المدى المنظور . ومن الطبيعي أن النهج الذي سيتم بموجبه تخفيض حجم العمالة سيؤثر على المناخ الذي سيتولد لدى الوافدين الذين سيستمررون في الجهاز الحكومي . وبقدر ما يكون النهج على أساس معايير متزنة فنيا و انسانية ، بقدر ما يفهم الوافدون الذين لم يأت دورهم للاستغناء عنهم مبررات الاستغناء عن الآخرين وقبولها ، وإلا فإذا كانت المعايير عرضة للطعن يتولد لديهم شعور بضعف الرضى والارتياح ، وقد يؤدي ذلك الى انخفاض معنوياتهم وبالتالي مستوى انتاجيتهم .

ب - الخيارات المتاحة لمن يتم الاستغناء عن خدماتهم :

ترتبط إقامة العامل الوافد بالعمل كما ترتبط إقامة مرافقيه من أفراد أسرته بإقامته . وهذا يعني أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان الإقامة . وما لم يتمكن من يفقد عمله في جهة معينة من إيجاد عمل في جهة أخرى ، في حدود القوانين والضوابط والشروط المعمول بها من جهة وفي خلال الفترة المسموح له البقاء خلالها بعد انتهاء عمله وإلغاء إقامته من جهة أخرى ، وبالتالي نقل إقامته ، لا خيار له العودة إلى بلده .

نظرا للنمو الاقتصادي وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة خلال الفترة الماضية كان من السهل على من تنتهي خدماته في أي جهة أن يجد عملا آخر في جهة أخرى بسهولة . أما في ظل الانكماش الاقتصادي وتراجع الطلب على العمالة فالأمر مختلف تماما . لذا قد يكون من مصلحة جميع المعنيين بالأمر النظر في إمكانية اعتماد سياسة بخصوص العمال المهاجرين تأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

١ - لا يواجه من يتم الاستغناء عن خدماتهم سواء في القطاع الخاص أو الحكومة نفس الظروف .

فالبعض منهم مضى على إقامتهم في الكويت فترات طويلة نسبيا وتعودوا على نمط الحياة فيها ، وربما أصبحت جذورهم فيها أقوى منها في بلدانهم الأصلية . أليس من الممكن إتاحة قدر من الاختيار بين العودة إلى بلده أو البقاء في الكويت لمن قضى فترات طويلة قد تزيد عن ربع قرن ؟

٢ - تختلف الظروف الاقتصادية السائدة في بلدانهم . فالعامل الاقتصادي كان ، في المقام الاول ، سبب هجرة العمالة الوافدة إلى الكويت . لذلك ستتأثر رغبتهم في العودة إلى بلدانهم أو البقاء في الكويت بالظروف الاقتصادية لبلدانهم .

- ٣ - كما أدت الهجرة إلى ازدهار الطلب على السلع الاستهلاكية والاسكان بصفة خاصة ستؤدي الهجرة المعاكسة ، إذا ما تمت بسرعة ، إلى تراجع الطلب وبالتالي إلى زيادة حدة الانكماش الاقتصادي .
- ولكن قد يقال أن الهجرة المعاكسة تتسق مع الرغبة في تخفيف عبء النفقات العامة على الخدمات . هذا صحيح ولكن علينا أن نتذكر أن تخفيض عدد المستفيدين من الخدمات لا يؤدي بالضرورة إلى تخفيض كلفة تقديم الخدمات للفرد بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين . إذ أن هناك تكاليف بغض النظر عن حجم المستفيدين . وفي ظل الإدارة الماهرة للخدمات تنخفض كلفة تقديمها للفرد الواحد بزيادة عدد المستفيدين .
- ٤ - تراوحت السياسات التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية بخصوص العمال المهاجرين بين العمل على استيعاب من يرغب منهم البقاء على نحو دائم وتقديم حوافز مالية لمن يختار منهم العودة إلى وطنه^(١٢) .

التوجه نحو المستقبل :

ذكرنا سابقاً أن تحقيق التوازن السكاني هو المحور الأساسي لمسار وتوجهات خطة التنمية الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ . بافتراض استمرار نمو السكان الكويتيين بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠ بنفس معدل نموهم بين ١٩٨٠ . ١٩٨٥ ، ٣,٧٤٪ سنوياً ، سيبلغ عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . ويتطلب تحقيق التوازن السكاني أن لا يزيد عدد السكان غير الكويتيين عن عدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ . فإذا افترضنا أن عدد السكان غير الكويتيين سيكون مساوياً لعدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ من المفروض أن لا يتجاوز معدل نمو السكان غير الكويتيين ١٪ خلال الفترة ١٩٨٥ - ٢٠٠٠ .

أن التحكم في نمو السكان غير الكويتيين في حدود معدل ١٪ سنوياً يعني هجرة معاكسة يتوقف حجمها على معدل نموهم الطبيعي . بافتراض ٢ - ٣٪ معدل نمو طبيعي لهم سيتراوح مجموع حجم الهجرة المعاكسة بين ٣٥١٢٣٨ و ٥٦٦٦٣٠ .

ويمكن التحكم في نموهم في حدود ١٪ لتحقيق التوازن السكاني من خلال تلبية الطلب على العمالة من الداخل ووقف استيرادها من الخارج وقصرها على الحالات التي يتعذر تلبيةها من الداخل من جهة واعتماد سياسات وقوانين وضوابط من شأنها أن ترفع معدل المشاركة وبالتالي تخفض معدل المرافقة من جهة أخرى .

إن التوجه نحو تلبية نمو الطلب على العمالة من العرض المحلي منها من العمالة الكويتية أولاً ومن العمالة الوافدة الموجودة في الكويت ثانياً وقصر استيراد عمالة وافدة جديدة على الحالات الخاصة التي يعجز العرض المحلي عن تلبيةها توجه في الطريق السليم .

أما التحكم في معدل المرافقة للعمالة الوافدة فمسألة أخرى . يختلف معدل المرافقة باختلاف جنسيات العمالة الوافدة . وبصفة عامة ، معدل المرافقة للعمالة العربية أعلى بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية .

كان معدل المرافقة للعمالة العربية ٦٣,٨٪ وللعمالة الآسيوية ٣٥,٣٪ عام ١٩٧٥ . ونتيجة لتعديل الضوابط والشروط لاصطحاب أو إحضار أفراد الأسر انخفض معدل المرافقة للعمالة العربية إلى ٥٩,٧٪ وللعمالة الآسيوية إلى

(١٢) مكتب العمل الدولي ، أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والتسعون ، مارس ١٩٨٦ ص ٩ .

٢٨,٣٪ عام ١٩٨٠ . ولكن بالرغم من الانخفاض بقي معدل المرافقة للعمالة العربية أكبر بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية^(١٣).

وجدير بالذكر أن نسبة العمالة العربية انخفضت من ٦٩,٠٪ إلى ٥٩,٦٪ بينما ارتفعت نسبة العمالة الآسيوية من ٢٩,٤٪ إلى ٣٨,٠٪ بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠ . وأدى ذلك إلى انخفاض نسبة السكان العرب من جملة السكان غير الكويتيين من ٨٠,٢٪ إلى ٧٢,٥٪ وارتفاع نسبة السكان الآسيويين من ١٨,٧٪ إلى ٢٥,٨٪ بين نفس العامين . يتضح مما سبق أن استخدام العمالة الآسيوية يتسق أكثر مع هدف تعديل التركيبة السكانية . ولكن يستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الآثار التي يمكن أن تترتب على تفضيل العمالة ذات معدلات المرافقة المنخفضة ، العمالة الآسيوية في هذه الحالة .

يؤدي انخفاض معدل المرافقة للعمالة إلى ارتفاع معدل المشاركة لها ، ويتبع ذلك ارتفاع نسبة الذكور وبالتالي انخفاض مستوى النضج السكاني الذي تترتب عليه آثار اجتماعية .

ومن جهة أخرى فإن نمط حياة العامل الذي يعيش في الكويت بمفرده يختلف عن نمط حياة من يعيش وأفراد أسرته . فحجم ونوع طلب من يعيش بمفرده على السلع الاستهلاكية وعلى السكن بوجه خاص يختلف عن حجم ونوع طلب من يعيش وأفراد أسرته . ويتبع ذلك أن نسبة انفاق من يعيش بمفرده من دخله ستكون منخفضة جداً بينما ترتفع نسبة تحويله من دخله للخارج . وهذا يعني أن مساهمة من يعيش بمفرده في تنشيط الدورة الاقتصادية أقل بكثير من مساهمة من يعيش وأفراد أسرته .

ولعل الاهتمام بمسألة معدل المرافقة الوافدة تنبع من الاهتمام المشروع بتخفيض عبء كلفة الخدمات . إن تقديم بعض الخدمات مجاناً أو لقاء رسوم مدروسة ظاهرة عالية ولا تقتصر على الكويت .

إن عبء توفير الخدمات لا ينخفض عادة بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين بل من المفروض أن تنخفض كلفة توفير الخدمات للفرد بازدياد عدد المستفيدين منها في ظل إدارة ماهرة لها .

وطالما أن الحاجة إلى العمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور يكمن التحدي الكبير في خلق مناخ يسهم في تحسين أوضاعهم وزيادة الاستفادة منهم على السواء .

لقد أدى ما قيل وما نشر عن الاستغناء عن خدمات بعضهم مؤخراً إلى خلق مناخ ساهى القلق وضعف الشعور بالاستقرار . إن الميل نحو الاستقرار وزيادة الشعور بالارتياح من شأنه أن يرفع من مستوى استقرارهم النفسي ويرفع بالتالي الرغبة في العمل ورفع الانتاجية ، ولعل النظر في إمكانية منح الإقامة شبه الدائمة أو الدائمة خاصة لمن أمضوا فترات طويلة ومن يتضح استمرار الحاجة لهم في المدى المنظور ، من جهة ، ومساواتهم بالمواطنين في المعاملة والمرتبات والأجور من جهة أخرى ، من أهم العوامل التي تسهم في خلق وضع أفضل لهم وللكويت على السواء .

(١٣) المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٣٩ (السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول والنوع وسبب الإقامة) ص ٥٥ .

المراجع

- ١ - أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والتسعون ، مارس ١٩٨٦ .
- ٢ - دولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ .
- ٣ - دولة الكويت ، مجلس التخطيط ، إدارة الإحصاء المركزية ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٦٤ .
- ٤ - د. سليمان شعبان القدسي و د. موريث عوض الله جرجس ، « بعض السمات والآثار الاقتصادية للعمالة الوافدة إلى الخليج العربي : حالة الكويت » ، المال والصناعة ، العدد السادس ١٩٨٥ ، ص ٧ - ٣٩ .
- ٥ - نعيم الشريبي : « العمال الأجانب في البلدان العربية المنتجة للنفط : هل ستستمر اندفاعه التدفق ؟ » ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ / رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ - ٣٧ .
- ٦ - مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العربي للتخطيط ، العمالة الأجنبية في أنظار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات ندوة « العمالة الأجنبية في أنظار الخليج العربي » ، الكويت ١٥ - ١٨ يناير ١٩٨٣ .
- ٧ - المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي ، الكويت ١٦ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ .
- ٨ - The Economic Intelligence Unit Ltd., Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Volume XVIII, Study - Area 2, Report submitted to the Government, May 1974.

مقدمة

تعد الهجرة الدولية للسكان قديمة قدم الجنس البشري ، إلى جانب أن السجل التاريخي لظاهرة الهجرة كشف عن أن الهجرات الدولية قد نمت وتزايدت ليس في حجمها فقط ، بل في المسافات التي تغطيها من مكان إلى آخر ، وفي مستهل دراستنا لهذه الظاهرة ينبغي أن نعلم أن الهجرات - قديما وحديثا - كانت عاملا مهما في تاريخ تطور وتقدم الجنس البشري .

ولقد كانت هناك حركات سكانية كبرى تمت في وقت مبكر - أي منذ العصر الجليدي - وقد اتجهت تلك الحركات من أحد الأقاليم السكانية الكبرى في العالم والمأهولة بأعداد كبيرة بالسكان ، إلى مناطق أخرى سواء بالقرب من شمال غرب الهند أم الهند الصينية ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك حركات سكانية كبرى حدثت بعد ذلك الوقت ، إلا أنها قديمة أيضا وشملت قلب العالم القديم وفي كلتا الحالتين كان السبب الرئيسي لحدوث تلك الحركات السكانية يتمثل في التغيرات المناخية التي كان من نتائجها تكرار فترات الجفاف النسبية . (انظر شكل رقم ١) .

أما الهجرات الحديثة فتتقسم تاريخيا إلى مرحلتين ، وفي المرحلة الأولى منها والتي امتدت منذ الكشف الجغرافية والاستعمار حتى القرن الثامن عشر ، وفي هذا المدى الزمني الذي يمتد لأكثر من ثلاثة قرون لم تزد جملة المهاجرين طوال هذه الفترة عن بضعة مئات من الألوف ، وهذا يرتبط بكثير من التغيرات مثل وسيلة الانتقال عبر المحيطات والقارات أو المرحلة التكنولوجية بصفة عامة ، ويعد تعمير الأوربيين لقارات العالم الأخرى غير قاراتهم من أعظم الهجرات البشرية في التاريخ والتي تمت في تلك الفترة الزمنية حيث بدأت منذ القرن السادس عشر (انظر شكل رقم ٢) .

البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة الدولية

أمل يوسف إصباح

أستاذة مساعدة بقسم الجغرافيا
كلية الآداب
جامعة الكويت

وبذلك نجد أن الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن عشر لم تشهد إلا القليل من الهجرات السكانية الدولية التي كان يسيطر عليها ويكبلها طغيان عامل المسافة ، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، حيث أنه منذ القرن الثامن عشر وما بعده وهذه الفترة تمثل المرحلة الثانية وفيها بدا يظهر بوضوح الخط الفاصل بين مجتمع ساكن مستقر وبين مجتمع كثير الحركة أي منذ الثورة الصناعية التي عمت أوروبا في تلك الفترة ، والتغيرات التكنولوجية التي أفرزتها هذه الثورة والتي ساعدت وبشكل فعال على اتساع حيز المسافة التي تم بها أو فيها بينها الهجرات البشرية ، بحيث أن تلك الظاهرة لم تشمل الدول الأوروبية التي تحقق بها التقدم الصناعي فقط بل وتعدتها إلى الدول البعيدة عن أوروبا ، وقد حدثت هذه التغيرات ولكن في وقت مبكر في كل من بريطانيا ودول غرب أوروبا ، ثم فيما بعد ذلك عمت تلك الظاهرة وبشكل أكثر وضوحا لتشمل بالفعل العالم كله خاصة وبخاصة في القرن العشرين ، (انظر شكل ٣ ، ٤) .

وقد أشار الباحث هاجيت (Haggett)^(١) وبأسلوب مختصر لكيفية وقابلية السكان على الحركة في القرن العشرين من مكان إلى آخر فذكر « أن التزايد السريع للحركات السكانية يعد إحدى الصفات البارزة التي بدت في هذا القرن ، أي القرن العشرين ، بحيث أن المعلومات المتعلقة في كل من المجالات الرئيسية لحركة السكان والبضائع أيضا - قد نمت وتزايدت بثبات أكبر ، نظرا لأثر التقنيات الحديثة التي ساعدت على التقليل من القيمة النسبية للمسافة » ، وهذا يعني أن الحركات السكانية أصبحت في الوقت الحاضر بمثابة حركات عامة وشائعة بالنسبة لغالبية الناس ، بعد أن كانت في السابق مجرد حركات قليلة ، ولا تتم إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن بين كل منها والأخرى التي تليها^(٢)

وتكمن أهمية ظاهرة الهجرة الدولية للسكان سواء أكان منها على المستوى العالمي أم على المستوى المحلي ، في أنها تعد العنصر الأساسي الثالث المؤثر في حجم السكان في أي دولة بالعالم ، حيث نجد أن تأثيرها على الحجم السكاني بدولة الكويت أي على المستوى المحلي يعد واضحا ، وبخاصة أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠ ٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ ، أما العنصران الأول والثاني فيمثلها كل من المواليد والوفيات ، ولذلك فإن أهمية الهجرة الدولية تكمن في الأثر المباشر على نمو أو تناقص السكان في أي دولة ومن ثم فإن تأثيرها ينسحب أيضا على تلك التغيرات التي تطرأ على الخصائص الديموجرافية المختلفة للسكان في تلك الدولة ، إن كان في البلدان أو المناطق الأصلية للمهاجرين (Ares of origin) أو في البلدان أو المناطق المقصودة أو المستقبلية لهم (Destination of Areas) .

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن أهمية الهجرة تكمن - أيضا - في تأثيرها على كل من النمو السكاني والقوى العاملة في أي منطقة من المناطق المستقبلية لهذه الهجرة ، أو المرسلة لها .

ويركز العلماء والمتخصصون عند دراسة موضوع الهجرة الدولية على أحد الجوانب المتعلقة بتلك الظاهرة كل منهم بحسب اختصاصه ، فنجد أن علماء الاجتماع يركزون عند دراسة هذه الظاهرة على التأثيرات الاجتماعية والنفسية لتلك الظاهرة على كل من المهاجرين من جهة ، وعلى سكان المناطق المرسلة أو المستقبلية لهذه الهجرة من جهة أخرى ،

Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward arnold, London, 1965, P. 42.

(١)

Zelinsky, W. The Hypothesis of The Mobility Transition" Geographical Review, 61, 1971, P. 219 - 49.

(٢)

وكذلك يتناولون بالدراسة والتحليل مدى امتصاص التبادل الثقافي للسكان المهاجرين ، أما الاقتصاديون فيركزون عند تناولهم موضوع الهجرة بالدراسة والتحليل على العلاقة المتبادلة بين الهجرة ودورة العمل ، بالإضافة إلى مدى تأثير الهجرة على سد احتياجات الدولة المستقبلية للعمال المهاجرين المهرة وغير المهرة ، وأيضا مدى تأثير الهجرة على النمو الصناعي ، وأخيرا يركزون على دراسة الوضع المهني والوظيفي للمهاجر .

أما المشرعون والسياسيون فعندما يتناولون ظاهرة الهجرة بالدراسة والتحليل فنجدهم يركزون على صياغة القوانين ووضع السياسات ذات العلاقة المباشرة بالهجرة ، ويركزون أيضا ولكن بدرجة أقل شأنًا على القوانين التي تسن وتتيح تجاه الهجرة القادمة وبخاصة فيما يتعلق منها بمنح لمهاجرين حق الاقتراع (٣) .

ويقدم هذا البحث دراسة تحليلية لمراحل تطور الأساليب المختلفة التي تتبع عادة عند جمع البيانات الإحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة الدولية للسكان على المستويين الدولي والمحلي ، وبخاصة أن تلك الظاهرة أصبحت شائعة عالميا في وقتنا الحاضر ، بل وتعم جميع أفراد الجنس البشري ، مهما اختلفت مستوياتهم الاقتصادية أو الاجتماعية ، وأصبحت هذه الظاهرة - أيضا - تحدث في كل لحظة وفي كل مكان وبين أعداد كبيرة من السكان في المجتمع الواحد ، وبناء على ذلك وما لهذه الظاهرة من أهمية وبخاصة في مجالات البحث المعاصر نظرا لما لها من علاقة وطيدة بحياة المجتمعات الحديثة ، فإن الهدف الأساسي إذا من هذا البحث يتلخص في متابعة التطورات التي حدثت على أساليب جمع المادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق منها بالبيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة على المستويين الدولي والمحلي ، أي داخل دولة الكويت ، من أجل الوصول إلى معرفة الوضع الراهن لهذه البيانات ومدى توفرها ، وكيفية الحصول عليها ، وبخاصة أن لهذه الظاهرة أثرا كبيرا على كل من السكان في الدولة المرسلة للمهاجرين من جهة والدولة المستقبلة لهم من جهة أخرى ، وتتمثل هذه الأهمية في الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة سواء أكان منها الآثار الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، التي تعم كافة المجتمع داخل الدولة على المستويين الدولي ، أو المحلي أي بدولة الكويت التي يعد أبرز أثر لهذه الظاهرة على إجمالي السكان أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ م ، كما ذكرنا قبل قليل .

أما بالنسبة لهيكل البحث فهو ينقسم إلى خمسة أقسام يتناول الأول منها تعريفا للهجرة الدولية ، ثم يليه القسم الثاني الذي يقدم من خلاله شرحا مفصلا لأسباب حدوث ظاهرة الهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، يتبعها القسم الثالث الذي يعرض وبشكل مفصل للأساليب التي تتبع عند جمع البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، يليه القسم الرابع الذي يخصص لعرض وتقييم سجلات الهجرة الدولية ، ثم القسم الخامس والأخير الذي يتناول - أيضا - بالدراسة والتحليل لسجلات الهجرة وتطورها على المستوى المحلي .

وقد رأينا استكمالا لهذه الدراسة إضافة ملحق يحتوي على الجداول الإحصائية الخاصة ببيانات الهجرة على المستوى المحلي ، بالإضافة إلى ملحق آخر يحتوي على الأشكال البيانية والخرائط الخاصة بالهجرة على المستويين العالمي

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, The Methods and Materials of Demography, Condensed Edition By Edward G. Stockwell, Bowling Green University, Bowling Green, Ohio, New York, 1976, P. 349. (٣)

والمحلي ، لتساعد كافة تلك البيانات في إيضاح الرؤية حول كيفية تطور تيارات الهجرة السكانية في الفترات الزمنية المتتالية على المستويين العالمي والمحلي ، وبخاصة من حيث حجمها واتجاهاتها والاسلوب المتبع في جمع بياناتها .

وفي خاتمة هذه المقدمة لابد من ذكر أنه لا يخفى على الباحثين والمتخصصين أمر صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي عالجت ظاهرة الهجرة ، وربما يكون هذا البحث بمثابة الدراسة الأولى من نوعها التي عالجت بالدراسة والتحليل وبشكل مفصل أسلوب جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة ، ان لم يكن بالطبع على المستوى العالمي ، فهو بالتأكيد على المستوى المحلي ، والله الموفق .

١ - تعريف الهجرة :

الهجرة حسب تعريف قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة هي ظاهرة جغرافية يعني بها انتقال السكان من منطقة جغرافية إلى أخرى ، وبالتالي يجب عن ذلك تغير مكان الاستقرار الاعتيادي للفرد ، أي تغير هذا المكان عبر الوحدات الجغرافية ذات الحدود الدولية واضحة ، وهذا النوع من الهجرة أي الهجرة الدولية هي مركز اهتمامنا في هذه الدراسة ، وقد أوردنا عددًا لا يحصى من تعريفات الهجرة ، ولكن لا يمكن هنا أن نذكرها جميعاً ، بل نكتفي بالظاهرة التي هي مركز البحث ، ومثالاً على ذلك أن هناك بعض التغيرات التي تطرأ على مكان إقامة الفرد ولكنها في غالب الأحوال لا تدخل ضمن نطاق التعريف السابق للهجرة ، وبخاصة إذا كان التغير مؤقتاً وليس له أي تأثير على مكان الإقامة المعتاد (Usual Residence) ، بالرغم من أن أفراد تلك الظاهرة عبروا حدوداً دولية ، إلا أنهم في الوقت ذاته من الممكن أن يضموا إلى أولئك الأفراد الذين يقومون برحلات قصيرة الأمد يكون الغرض منها الزيارة أو قضاء الاجازة أو انجاز بعض الأعمال ، بالإضافة إلى ذلك فإن هناك نوعاً آخر من التغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة وتتميز هذه التغيرات بأنها دائمة ، وبالرغم من ذلك فإنها تعد مجرد حركات تمت عبر مسافات قصيرة ، بحيث أن مجال تأثيرها يكون عادة على الهجرات الداخلية فقط ، وبالتالي ليس لها أي أثر على الهجرة الدولية ، وبشكل عام فإن استعمال مصطلح مدة الإقامة يقتصر على التغيرات المستمرة في مكان الإقامة وبخاصة تلك التي تتم بين المناطق ذات التصنيف السياسي المحدد بوضوح أو تلك التي تتم بين المناطق الاحصائية .

وما هو جدير بالذكر أن الدراسات الديموجرافية عادة تتناول بالدراسة والتحليل وبشكل خاص ومركز لنوعين رئيسيين من الهجرة ، هما الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، حيث يعزى السبب المهم والرئيسي في حدوث هذين النوعين من الهجرة إلى حركة السكان عبر الحدود الدولية ، في النوع الأول ، بينما نجد أن النوع الثاني من الهجرة لا تخضع لذلك لان حركة السكان تتم عبر الحدود الادارية الداخلية ، اللهم إلا في دول المعسكر الشيوعي الذي تخضع الهجرة الداخلية فيه للسلطات الحكومية . ويتم بعد ذلك تصنيف الهجرة الدولية كهجرة من وجهة نظر كل من الدولة المرسله أو المصدرة للمهاجرين ، وكمهجرين من وجهة نظر الدولة المستقبلة أي التي يصل إليها هؤلاء المهاجرون ، إلا انه عند احتساب مدة الإقامة في حالة الهجرة الداخلية فإنه ينطبق عليها نفس الشروط التي تستعمل في حالة الهجرة التي تتم عبر الحدود الدولية ، ووجه التشابه والاختلاف بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية غير واضح المعايير في بعض الأحوال نتيجة لعدم توفر الحكم الذاتي لبعض الاقاليم ، الآن بعضها الآخر يعد مستقلاً ، والأمثلة على ذلك

كثيرة واعتمادا على ما تعرضه البيانات الإحصائية الصادرة عن قسم السكان ببيئة الأمم المتحدة والخاصة بالحركات السكانية بين المناطق المحتلة في الفترة الزمنية التالية للحرب الألمانية والتي تمت بين بورتوريكو والولايات المتحدة الأمريكية ، أو بين فرنسا والجزائر فإن هذه الحركات من الممكن أن تصنف على أساس أنها : إما هجرات دولية أو هجرات داخلية ، حيث أن التطور التاريخي لأي دولة في العالم ربما يشتمل على منطقة غير مستقلة لبعض الوقت ، إلا أن هذه المنطقة تتحول إلى منطقة مستقلة مع مرور الزمن ، وخلال فترة التحول هذه ربما لا يكون هناك أي احتمال لإعادة جدولة الأرقام وتحويلها من هجرة داخلية إلى هجرة دولية ، والمثال الأخير على ذلك أن البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة في المملكة المتحدة كانت تضم إليها الأرقام الخاصة بجمهورية أيرلندا في الفترة الزمنية السابقة لليوم الأول من شهر إبريل عام ١٩٢٣ .

بالإضافة إلى ما سبق فإنه حتى في حالة تعريف الهجرة الدولية نجدها تشترك في الكثير من التحديدات والأحكام الخاصة بها مع تلك الأحكام الخاصة بالهجرة الداخلية بل وتنطبق معها كلية ، وبخاصة في حالة الحوافز الاقتصادية (٤) .

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره فمازال هناك اختلاف واضح بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق منها بمصادر البيانات الإحصائية ونوعيتها وقيمتها ودرجة كفاءتها والأسلوب المتبع عند الدراسة التحليلية لهذه البيانات في كل منها (٥) .

٢ - أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها :

ذكرنا قبل قليل أن موضوع الهجرة الدولية يعد من المواضيع المهمة جدا ، ولذلك اهتمت به كافة العلوم الاجتماعية ، نظرا لأثر الهجرة الكبير على حجم السكان في أي بقعة بالعالم الناتج عن التدفقات السكانية بنوعها أي تلك الهجرة المتجهة نحو الداخل (In Flow) أو تلك الهجرة إلى الخارج (Out Flow) في كل من الدول أو الأقاليم وبخاصة الآثار الاقتصادية منها ، كذلك يمتد أثر الهجرة على الخصائص السكانية والأنماط الاجتماعية للبنية السكانية ، وبناء على ما سبق فإن الجغرافيين مدركون تماما لأهمية المشكلات الناجمة عن الهجرات السكانية ، ولذلك يتناولونها بالدراسة والتحليل بوسائل متنوعة ومتغيرة (٦) .

وقبل أن نتناول بالدراسة والتحليل أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها لابد من أن نوضح ونميز بين نوعين من الهجرة لكل منها أسبابه وعوامله المؤثرة في حجم واتجاه هذه الهجرة ، النوع الأول من الهجرة الدولية يتمثل في الهجرة الاختيارية (Valuntary) التي تتم بالمبادرة الفردية من الأشخاص بأن يتحركوا من مكان لآخر بغرض الهجرة سعيا وراء ظروف أفضل ، وهذا النوع هو الذي يعيننا بهذه الدراسة ، أما النوع الثاني فتمثله الهجرة الإجبارية (Compulsory) التي تتم بوساطة قوة خارجية على غير إرادة الأفراد مثل عمليات التهجير التي تحدث في بعض

John T. Clarke, Population Geography, 2 end Edition, England, 1972, P. 140.

(١)

Henry S. Sryock, Jacob S. Siegel and Association, Op. Cit. P. 349.

(٢)

G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982, P. 99.

(٣)

الدول تنفيذ السياسات معينة ، وهو ما حدث في الاتحاد السوفيتي مثلا ، أو حين قام النازيون بتهجير جماعات مختلفة من بعض الدول الأوروبية إلى دول أخرى ، وقد يفد الناس من دولة ليعيشوا في أخرى هروبا بحياتهم أو عقيدتهم ، ومن أقدم الأمثلة الهجرة الإسلامية الأولى إلى الحبشة ، وفي العصر الحديث نجد صورا كثيرة من هذا النوع مثل اللاجئين الذين فروا من البطش النازي في أوروبا أو من فلسطين بتأثير الارهاب الصهيوني ، وكثيرا ما تحدث ظاهرة اللاجئين في أثناء الحروب ، مثل ما حدث في ألمانيا بعد التقسيم ، أو حين انشئت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، أو حين انفصلت بنجلادش عن باكستان في عام ١٩٧٢ (٧) .

وعنصر الهجرة الدولية الاختيارية لا يعد بمثابة عنصر فسيولوجي كما هو الحال في عنصري الولادة والوفاة « كما ذكرنا في السابق » ، بل هو عبارة عن استجابة البشر لتسلسل التطور الاقتصادي ، كذلك تتم الهجرة نتيجة للحوافز الاجتماعية والسياسية والثقافية المتوفرة داخل البيئة أو المحيط الاجتماعي ، وهذه الحوافز جميعها سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم الثقافية تعطي بدورها أهمية للموقع الجديد والذي تحول بناء على توفر تلك الحوافز أو بعض منها إلى مركز جذب للسكان المهاجرين ، ونتيجة لتلك التغيرات الداخلية للبيئة التي طرأت على هذا الموقع فقد أثر ذلك بدوره على مدى التغير الذي بدا على مبدأ التقييم الشخصي لهذا المكان ، حيث تتولد الرغبة الشخصية في الهجرة ، وبخاصة إذا كان هذا الشخص يشعر بعدم الرضا عن المكان الذي يستقر فيه ، ولا بد من أن نذكر أن مدى أثر الرغبة الشخصية على الهجرة سواء أتمت أم لم تتم تكون عادة متفاوتة من شخص إلى آخر وفقا للاحتياجات الشخصية ، وبالمقابل أيضا فإن عملية كبح جماح الرغبة الشخصية تجاه الهجرة يعتمد على مدى قوة استياء هذا الشخص أو عدم رضاه عن المكان الذي يستقر فيه (٨) . وكمثال على ذلك ، ووفقا لما ذكره الباحث لورد إيفرسلي (Lord Eversley) (٩) من أن أسباب الهجرة الجماعية الضخمة للعمال . والتي تمت بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية أي تلك الهجرة التي خرجت من الريف واتجهت إلى المدن في إنجلترا وويلز خلال القرن التاسع عشر ، لا تعزى فقط إلى ازدهار اقتصادي كبير الذي ميز تلك الفترة ، أو نتيجة للارتفاع الشامل في الرواتب بالمناطق الصناعية أو مناطق التعدين ، وإنما ترجع أيضا إلى تنامي الاستياء الذي عم بين العاملين بالمناطق الريفية تجاه العمل بالزراعة ، نتيجة لقلّة فرص العمل بالريف بالإضافة إلى ما سبق فإن هؤلاء العمال كان لديهم الرغبة في الحصول على قدر أكبر من الحركة والاستقلالية التي تكون متوفرة عادة في حياة المدن .

ويدخل ضمن العوامل المسببة للهجرة عاملان غير معروفين أو ظاهرين ، إلا أن هذين العاملين أثبتنا وجودهما ، وقد تمثل العامل الأول في أن حلفز الهجرة يبرز عادة لدى الفرد نتيجة للتغيرات الداخلية التي تحدث في بيئة أو محيط هذا الفرد ، أما العامل الثاني فقد تمثل في أن حافز الهجرة يظهر نتيجة للتغيرات التي تطرأ على الباعث الفردي للهجرة .

(٧) احمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٨٥

(٨) Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975, P. 10.

(٩) Eversley Lord, "The decline in The number of agricultural Laboures in Great Britain, Journal of The Royal Statistical Society, 10, England, 1907, P. 280 - 3.

كما سبق ذكره نجد أن هناك تأكيداً على أن عملية تحليل أسباب الهجرة تمثل عنصراً جديراً بالاهتمام والاهتمام ، حيث أن قرار الهجرة هو قرار شخصي ، يعتمد في الأساس على أن الشخص ذاته هو الذي يقرر - أين سيتقل ، ويغلف قراره هذا بمعايير ، بحيث أن غالبية الأبحاث التي تناولت بالدراسة والتحليل موضوع أسباب الهجرة تؤكد على أن العامل الثاني والذي تمثل في الحافز الفردي يعد السبب الرئيسي لهذه الهجرة (١٠) ، ومع ذلك نجد أنه في الفترة الأخيرة تحول المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتخذ بها قراره على الهجرة ، إلى بؤرة الاهتمام كسبب رئيسي للهجرة ، بالإضافة إلى ما سبق نجد أنه على الرغم من أن هناك الكثير من الدراسات العديدة والمتنوعة التي تناولت العوامل المسببة للهجرة بالمناقشة والتحليل ، إلا أن الباحث لي (Lee) (١١) تناول بالتحليل والتقييم تلك الدراسات وظهر بنتيجة مفادها أنه يجب على المهتمين والمتخصصين بظاهرة الهجرة توخي الحذر عند مناقشة هذه الدراسات وتفسيرها لكل من أسباب الهجرة ونتائجها ، وحتى وقتنا الحاضر لم نستطع أن نتوصل إلى وضع تصنيف ذي صياغة أكثر تحديداً وتركيزاً لأسباب الهجرة ، حيث أنه من الممكن اعتبار تلك الأسباب كعوامل مفوضة إلا أنه وبشكل عام نستطيع التركيز أكثر على عدد قليل من العوامل المسببة للهجرة ، وبخاصة تلك التي تأخذ مكانة متميزة لأهميتها (١٢) ولكي تكون دراستنا لأسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها أكثر شمولية ودقة ، إلى جانب الأسباب والعوامل السابقة ، سنتعرض بالدراسة التحليلية لعوامل الجذب والدفع المسببة للهجرة ونوردها فيما يلي :

١٣ - عوامل الجذب والدفع :

منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ فسر الباحث هيربرل (Herberle) العوامل المسببة للهجرة وذكر بأنها تكمن أساساً في أن هناك قوى جادة تتفاعل لدى الفرد وتشجعها على مغادرة المكان (الدفع Push) وتغريه على الانتقال إلى مكان آخر (الجذب Pull) ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت الاحتياجات الفردية غير متوفرة أو غير مشبعة في المكان الذي يستقر به الفرد - أي في مكان استقراره الأصلي - فحينئذ يساور هذا الفرد التفكير المستمر في الانتقال إلى مكان آخر ، حتى لو كان هذا الفرد على قناعة تامة من موقعه الحالي أي مكان استقراره الأصلي ، إلا أن المعلومات التي تتوفر لدى الفرد ذاته حول امكانية الحصول على فرص أفضل في مكان آخر مما يساعده على الانتقال الشخصي بأخذ قرار الانتقال ، وعلى أية حال فمن المتعارف عليه أن لكل هجرة عوامل -ذب ودفع متعددة قد تتفاعل تأثيراتها ، وبناء على ذلك فقرار الانتقال من مكان إلى آخر لا يتخذ نتيجة لعامل أو سبب معين من أسباب الهجرة ، بحيث يمكن تمييزه أو فصله عن غيره من العوامل الأخرى ، وبالرغم من ذلك فمن الدراسة والبحث في العوامل المسببة للتدفقات الضخمة للهجرة ، تبين أن الحوافز المشتركة لعامل الانتقال عند الأفراد أصبحت ثابتاً ، وقد استطاع جارجنير ييجو (J. Bogue) (١٤) ببراعة تلخيص عوامل الدفع والجذب التي نوردها فيما يلي :

-
- Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass. 1980. (١٠)
 Lee, E. S. A Theory of Migration, Demography, 3. 1966, P. 47 - 57. (١١)
 G.J. Lewis, Op. Cit. P. 101. (١٢)
 Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration, A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938, P. 932 - 50. (١٣)
 Bogue, D.J. Techniques and hypotheses for The Study of differential Migration: Some notes From an experiment with United States data, Proceedings of the International Conference, 2, Session 4, No. 114. 1961. (١٤)

أ - عوامل الدفع (Push Factors)

- تراجع أو هبوط الثروة القومية أو الاسعار المدفوعة لها ، ونقص الطلب على الانتاج الفردي أو الخدمات في الصناعات الفردية ، كاستهلاك المناجم والغابات والزراعة .
- فقدان الوظيفة الناتج عن العجز والاعفاءات ، الذي يتولد عن تراجع الطلب على الأنشطة الفردية أو لاستخدام المكننة أو الآلات الأوتوماتيكية لانجاز الأعمال التي كان يؤديها الأفراد .
- المعاملة التي تتصف بالقمع والظلم الناتجة عن أسباب سياسية أو دينية أو لأصول عرقية أو عضوية .
- عزل الفرد أو إبعاده عن المجموعة نتيجة الى أن هذا الفرد يكون مؤيدا لعقيدة سائدة ، وبخاصة ان كان هذا التأييد مؤثرا على أسلوب تصرفاته داخل عائلته أو مجتمعه .
- الانسحاب من المجموعة لعدم التعاون فيما بينها ، أو نتيجة لعدم توفر الفرص التي تساعد على تنمية الوظائف الفردية أو الجماعية .
- الانسحاب من المجموعة نتيجة لحدوث الكوارث كالفيضانات أو الجفاف أو الحرائق أو الزلازل وأخيرا الأوبئة .

ب - عوامل الجذب : (Pull Factors)

- توفر الفرص الأفضل بالنسبة لبعض المهن أو الوظائف أو العمل في مجال يرغب فيه الفرد .
- توفر فرص الكسب كالحصول على دخل أحسن .
- توفر الفرص التي تساعد على تحقيق رغبة الفرد الشخصية في مجال علمي معين أو توفر التدريب فقط في الكليات العلمية .
- الرغبة في المعيشة بأوضاع بيئية أفضل من حيث المناخ والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى .
- الانتقال من أجل اللحاق بعائل (أي المرافقة) ومثال على ذلك هجرة الشخص الذي يرتبط بعلاقة عائلية مع شخص آخر ، أو هجرة الاناث من أجل اللحاق بالزوج .
- توفر الأنشطة المتنوعة في المدن الكبيرة ومثال على ذلك تلك الأنشطة التي تجذب قاطني المدن الصغيرة أو القرى ، سواء أكان منها الثقافي أم الفكري أم الترفيهي^(١٥) .
- وبالرغم من أن نظريات عوامل الجذب والدفع تناقش آراء وأفكار جيدة ، وبخاصة تلك النظريات أثناء مناقشتها لهذه الآراء والفكر تتجرد من العوامل المحددة لنشوء الهجرة ، الا أن هناك عددا من الأبحاث التي انتقدت هذه النظريات نتيجة إلى أنها أظهرت عملية الهجرة وبشكل مبالغ فيه كعملية معقدة جدا ، ومن هذه الأبحاث ما قدمه بيرنلي توماس (Perinley Thomas) (١٦) في بحثه أثناء مناقشته وتحليله لموضوع الهجرة بطريقة مقنعة جدا ، حين ذكر في هذا

Bogue, D.J. Principle of Deography, Wiley, New York, 1969. P. 753 - 4.

(١٥)

Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 26.

(١٦)

البحث أن كافة أنواع العوامل المسببة والحائنة على الهجرة ربما تكمن وراء القرار الفردي أو العائلي الذي يحدد على ضوئه مغادرة بلد ما والعيش في بلد آخر ، وليس الهدف من دراسة هذه العوامل وضع قائمة للعوامل المسببة للهجرة فقط ، ولكن الأمل معقود على محاولة قهرهم ظاهرة أو واقعة الهجرة (Phenomenon of Migration) ، وبشكل أكثر تركيزاً من أجل إمكانية التوصل الى وصف البواعث أو الخوافز العديدة التي تمثل عامل دفع للناس لشراء ما يحتاجونه من سلع يرغبون بها ، حيث أنه ليس هناك أسهل من عملية وضع صياغة لقائمة هذه العوامل أي عوامل الجذب والدفع من أجل أن تظهر بشكل مميز وواضح ، ثم بعد ذلك تذكر هذه العوامل بشكل وصفي أكثر اسهاباً من أجل أن تبدو هذه العوامل بشكل أكثر تركيزاً وبصورة محددة .

ورداً على الانتقادات والملاحظات السابقة الذكر والموجهة لنظريات عوامل الجذب والدفع ، أبدى الباحث لي (Lee) (١٧) اقتراحاً أوضح فيه أن مسببات الهجرة تحتاج لرؤية أو دراسة للعوامل التي تربط بين المنطقة الأصلية أو المصدر من جهة ، والمنطقة المقصودة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى أنه أكد على أن هناك حاجة لدراسة وتحليل العوائق التي تعترض عملية انتمام هذه الهجرة ، حتى وإن كان مصدرها المهاجرين أنفسهم ، ولذلك فقد اقترح الباحث المذكور - أيضاً ، دعوة جميع الباحثين والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الهجرة الى العمل على اكتشاف وإظهار كل من العوامل السلبية والإيجابية الكامنة في كل من المكان الأصلي والمكان المقصود ، وبالتالي إيجاد الاختلافات فيما بينهما ، وما إذا كان القرار الشخصي على الانتقال سوف يعتمد عند تنفيذه على النتائج التي تظهر على تلك الدراسة ، أو بناء على تقييم لكل العوامل الكامنة داخل محيط المجموعة السكانية المتنوعة ، أو داخل نماذج اجتماعية دون تميز ، وما هو جدير بالذكر أن هناك الكثير من العوائق التي تظهر وتكون ذات فاعلية في اعتراض وتقييد هذه القرارات المتخذة تجاه الهجرة كالقيود القانونية ، أو الحواجز العائلية ، أو القلق النفسي ، وأخيراً عائق تكاليف الانتقال ، إلا أنه من المستطاع تخطي أو اغفال الكثير من هذه العقبات التي ذكرت قبل قليل ، وبالرغم من ذلك فإن بعضها الآخر لا يمكن تخطيه أو اغفاله .

بالإضافة الى ما سبق فإن هناك عدداً من العوامل المسببة للهجرة منها الخوافز الاقتصادية والعوامل الديموجرافية والعوامل السياسية كما ذكرنا في السابق ، وبالنسبة للخوافز الاقتصادية فقد توصلت الدراسات التي تم اجراؤها على التقلبات السنوية لحجم الهجرة الدولية التي حدثت في القرن التاسع عشر - وبخاصة تلك التي تمت بين قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية - الى أن هناك علاقة متبادلة وواضحة بين ما جنته الدول المرسلة للمهاجرين من فائدة عمت دورة العمل من جهة ، وتطور التنمية الاقتصادية في الدول المستقبلة للمهاجرين من جهة أخرى ، علاوة على ذلك فإن البيانات الخاصة بالخوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال ما تكون تلك الخوافز هي الأمر القاطع والسبب للهجرة ، حيث أن التباين في المستويات المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب والدول المستقبلة للهجرة من جانب آخر ، تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة - كما ذكرنا عند دراستنا لعامل الجذب والدفع قبل قليل ، وكذلك فإن عامل التباين في مساحة الأرض التي تشغلها كل من الدول المرسلة والدول المستقبلة للهجرة يعد ذا أثر مشجع على الهجرة ، إلا أنه في الوقت الحاضر أصبح هذا العامل غير أساسي كمسبب للهجرة^(١٨) .

Lee, Op. Cit.

(١٧)

John I. Clarke, Op. Cit P. 140.

(١٨)

أما العوامل الثانية فهي العوامل الديموجرافية التي تعد ذات أثر في تعميم التحديدات والحوافز الخاصة بالهجرة ، وفي مقدمتها عامل الضغط السكاني في مناطق معينة في العالم والذي شكل العامل الأساسي المسبب للتوزيعات الرئيسية للهجرات الكبرى في العالم ، وكمثال على ذلك فقد كان للحوافز الديموجرافية المذكورة أثر على الهجرة التي تمت من إيرلندا في القرن التاسع عشر (خلال حادث المجاعة) وكذلك الهجرة التي تمت من إيطاليا وجنوب شرق أوروبا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان للعامل الديموجرافي المذكور أثر كبير حيث أنه شكل حافزا رئيسا للهجرة التي خرجت من الجزر والدول الصغيرة مثل مالطا وكورسيكا ورواندا وبورندي وبورتوريكو وترنناد ، وهناك دول صغيرة في العالم تخصصت وبشكل ملاحظ بالهجرة المغادرة ومثالا على ذلك لبنان التي أصبحت حالة مشهورة بين الدول المرسلة للمهاجرين ، وتشغل لبنان مساحة من الأرض قدرها (٤١٥) ميل مربع فقط ، يقطنها عدد من السكان مقداره (٢,٦) مليون نسمة ، وقد هاجر منها إلى الخارج ما يقدر بـ (١,٥) مليون لبناني موزعين الآن في جميع أنحاء العالم (منهم ٤٠٠ ألف نسمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، و ٣٥٠ ألف نسمة إلى البرازيل ، و ٢٠٠ ألف نسمة إلى الأرجنتين ، وأخيرا هناك عدد كبير من اللبنانيين الذين غادروا إلى غرب أفريقيا) ، وقد تخلى غالبية هؤلاء المهاجرين عن جنسيتهم اللبنانية ، إلا أنهم ما زالوا يحتفظون بحلقات وصل بينهم وبين وطنهم الأصلي ، نذكر منها على سبيل المثال أنهم ما زالوا مستمرين في إرسال جزء من مكاسبهم الوفيرة - التي حصلوا عليها من أعمالهم بالتجارة والبنوك في بلد المهجر - إلى أقربائهم الذين ما زالوا مستقرين في وطنهم الأصلي .

ومن الواضح أن تأثير العوامل الديموجرافية لا ينحصر في أنها تعدو كعوامل مسببة للهجرة فقط بل يتعداه إلى تأثيرها - أيضا - على السياسات المتبعة تجاه هذه الهجرة ، ويعتبر مدى تأثير هذه العوامل على السياسات المتبعة تجاه الهجرة الخارجية أكبر من تأثيرها على الهجرة الداخلية ، وهناك سياسات متنوعة تتبعها الدول تجاه الهجرة ، فمثلا نجد أن هناك عددا قليلا من الدول الرئيسية المستقبلية للهجرة تتبع فعلا سياسة يكون الغرض منها هو تشجيع الهجرة ، وهذا الأمر مناقض لما هو متبع من سياسة تجاه الهجرة المتجهة إلى بريطانيا وإيطاليا واليابان ، حيث أن هذه الدول الثلاث تعمل على الحد من وفود المهاجرين إليها فتسن الكثير من القوانين التي يكون الغرض منها فرض القيود على هؤلاء المهاجرين ، ومثالا على ذلك تلك الهجرة التي تمت ما بين ألمانيا وإيطاليا ، وكذلك ما بين روسيا ودول شرق أوروبا ، في الفترة الزمنية السابقة للحرب ، وتعد السياسات المتبعة تجاه الهجرة القادمة أكثر أهمية من تلك السياسات المتبعة تجاه الهجرة المغادرة ، وما هو جدير بالذكر أن هناك تساهلا أكبر تجاه دخول المهاجرين إلى أي دولة خلال القرن التاسع عشر عما هي عليه اليوم ، ففي الوقت الحالي أصبحت هذه السياسات أكثر تشددا ، ومثالا على ذلك أن هناك دولا مستقبلية للمهاجرين مثل استراليا التي تضع العقبات أمام الهجرة القادمة ، ومن هذه العقبات أنها منعت المساعدة المالية التي كانت تمنح هؤلاء المهاجرين القادمين إليها مع أنهم يعدون من ضمن الهجرة المنتقاه ، إلى جانب ذلك نجد أنه في هذا القرن أي القرن العشرين تعد غالبية الهجرة القادمة مقيدة أثناء عبورها الحدود الدولية ، وهذا الأمر حدث ويحدث في أكبر الدول المستقبلية لهذه الهجرة ، وكذلك فإن هذه الهجرة مقيدة أيضا من حيث الحجم المحدد لها والذي يخضع عادة للخطط التي تحدد السياسة التي تتبناها كل دولة على حدة وتنتهجها عند معاملتها لتلك الهجرة ، وبناء على تلك الخطط يصبح من الممكن لأي دولة مستقبلية للهجرة المقدرة على تحديد حجم المهاجرين المصرح لهم بدخول أراضيها ، وتتبع في استراليا السياسة ذاتها التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه دخول المهاجرين إلى أراضيها ، حيث نصت تلك السياسة

على اتباع نظام الحصة النسبية (Quora) ، ويتميز هذا النظام بأنه فعال ومؤثر في إمكانية التحيز تجاه المهاجرين الوافدين إليها من شمال غرب أوروبا ، حيث تظهر تلك السياسة مدى أفضليتهم لدى السلطات في استراليا على المهاجرين القادمين إليها من جنوب أو شرق أوروبا ، والمثال الآخر على تلك النوعية من السياسة المتحيزة المتبعة تجاه الهجرة التي توضح أن دول جنوب شرق آسيا تخص حصة قليلة للمهاجرين القادمين إليها من الصين ، والمثال الثالث يتمثل في أن هناك قيودا مفروضة على وفود المهاجرين الملونين إلى بريطانيا ، بالإضافة الى كل الأمثلة السابقة هناك أيضا العديد من الأمثلة الأخرى التي تظهر بجلاء أن هناك تخطيطا مسبقا تضعه الدولة المستقبلية للهجرة وتعامل به مع الهجرة الوافدة إلى أراضيها ، ويعتمد هذا التخطيط وبشكل رئيسي على تطبيق سياسة الاختيار ، ففي نيوزيلندا على سبيل المثال تعبر وجهة نظر الاتحادات المهنية عن تخوفها من أن الهجرة الوافدة ، وتدعى بأنها تهدد مستوى الأجور التي يتقاضونها ، ولهذا الاتحادات سلطة ونفوذ على السياسة المتبعة تجاه الهجرة الوافدة ، بالإضافة الى ذلك ففي دول أمريكا اللاتينية نجد أن الوضع على خلاف ما سبق من الأمثلة ، حيث يتضح أن القيود المفروضة على وفود المهاجرين لأراضيها تعد أقل تشددا مما هي عليه في الدول التي تناولتها الأمثلة السابقة .

أما العوامل الثلاثة والأخيرة فتمثلها العوامل السياسية حيث أنه من الملاحظ أن الهجرة الدولية آخذة بالتأثر أكثر فأكثر - مع مرور الزمن - بتلك العوامل ، مما أثر بالتالي على تراجع أهمية عامل الاختيار الفردي ، كمسبب للهجرة ، ويتمثل العامل السياسي في أن هناك عمليات تبادل سكاني واسعة النطاق تمت بين دول عديدة ، ومن أمثلة ذلك العمليات التي تمت بين اليونان وتركيا خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٣ ، كذلك تلك العمليات التي تمت بين رومانيا وبلغاريا في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٤٠ ، بالإضافة الى ما سبق فالعوامل السياسية تتمثل في أن ظاهراً الهجرة السكانية بدأت تأخذ مكانها لمواجهة عمليات الغزو المسلح ، كذلك الهجرة التي تمت بين روسيا والصين ، حيث تم هجرة ملايين الأشخاص وقد تم نقلهم على شكل هجرة عمالية قسرية ، كان الغرض منها هو إحلال هؤلاء العمال محل الأشخاص المسجونين ، ونتيجة لما سبق فقد تم انشاء الكثير من الهيئات والمنظمات الدولية التي عملت وما زالت تعمل من أجل المساعدة عند حدوث مثل هذه الحركات السكانية ، وبخاصة تلك الحركات التي تتم بين السكان اللاجئين في كثير من أجزاء العالم ، ومن هذه الهيئات والمنظمات على سبيل المثال كل من منظمة العمل الدولية (INTERNATIONAL Laboure Organization) ومنظمة العفو الدولية (U.N. Relief and Rehabilitation Administration) ومما هو جدير بالذكر أن عدد اللاجئين السياسيين في أوروبا بلغ عشرات الملايين في الوقت الحاضر ، وكذلك الحال بالنسبة لشبه القارة الهندية ، حيث أن هناك ملايين السكان الذين ينوون الانتقال الى الجماعات السكانية الأخرى ، تلك التي يشتركون معها بخاصية الدين ، إلا أن ذلك لن يتم الا برفع الحواجز السياسية ، حيث أن عامل الدين ما زال يعد ذا أثر فعال على بعض الهجرات^(١٩) .

٣ - أساليب جمع بيانات الهجرة عالمياً^(٢٠) :

عند جمع البيانات الخاصة بالهجرة عالمياً فإنه من الممكن أن تشتق تلك البيانات الاحصائية من مجموعة متنوعة من

John I. Clarke, Op. Cit. P. 141 - 142

(١٩)

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 350.

(٢٠)

المصادر ، الا أن هناك مصادر رئيسية لجمع مثل تلك البيانات بحيث أنه من الممكن أيضا تبويبها الى ستة أنواع ، وعادة ما تكون تلك المصادر متشابهة ونوجزها فيما يلي :

- جمع البيانات الاحصائية الناتجة عن حركة السكان عبر الحدود الدولية ، وتعد هذه البيانات في معظم الأحوال حصيلة ثانوية للعمل التنفيذي الحكومي الذي يؤديه رجال مراقبة الحدود .

- البيانات الاحصائية الخاصة بالمسافرين والتي يمكن الحصول عليها من قوائم المسافرين بحرا أو جوا .

- البيانات الاحصائية التي يكون مصدرها ادارة الجوازات والتي تقوم بجمعها من خلال الطلبات المقدمة اليها للحصول على الجوازات وشهادات عدم الممانعة ، وأذونات السفر .

- البيانات الاحصائية التي يمكن جمعها من السجلات السكانية .

- البيانات الاحصائية التي توفرها عادة التعدادات العامة للسكان أو من المسوحات الدورية ، وهذه البيانات تشتمل على الاجابة عن السؤال الذي يتعلق بالمقر السابق للشخص ، ومكان الولادة أو المواطنة .

- البيانات الاحصائية التي تجمع بشكل خاص أو استثنائي ، وهذه البيانات تشتق من التحقيق والاستقصاء الدوري عن بيانات الهجرة ، كذلك البيانات الخاصة بمحل الإقامة السابق ومحل الإقامة الحالي ، أو المواطنة ، أو تسجيل الأجنبي ، أو عدد المواطنين في الخارج .

بالإضافة الى الانواع الستة التي تعد كمصادر رئيسية تشتق منها البيانات الاحصائية عن الهجرة الدولية السابقة الذكر ، فان الأمر يتطلب - أيضا - اجراء التقديرات لمعرفة الحجم الكلي للهجرة الخام أو الهجرة الصافية الاجمالية ، أو تقدير حجم مجموعات جنسية فقط وبشكل استثنائي .

أما بالنسبة لمصادر الهجرة المبكرة فبياناتها عادة تجمع من المعلومات المتحصلة من الاكتشافات والتنقيبات الأثرية لحركات السكان ومواطنهم عبر التاريخ ، وكذلك بيانات استثمار الأراضي واشغالها وهجرها كمؤشرات على تلك الحركات .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة نظر قسم السكان بالأمم المتحدة تفصح عن أن المصادر الاحصائية الأربعة الأولى الخاصة بالهجرة والتي ذكرنا أنها تجمع عادة من نقاط مراقبة الحدود تعد من أكثر البيانات أهمية بمقارنتها مع غيرها من المصادر ، ويرجع ذلك الى أن تلك المصادر الأربعة لو توفرت يصبح من المستطاع اجراء قياس مباشر لحجم الهجرة ، ولذلك تأخذ الأمم المتحدة بعين الاعتبار كل ما ينشر من بيانات صادرة عن مراقبة الحدود ، وبخاصة في حالة توفر هذه البيانات تصبح بيانات التسجيل السكاني أكثر فاعلية عند الاستعانة بها للقياس على ضوئها حجم الهجرة الدولية ، وبناء على ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة الحكومات القومية بأن تقوم بجمع وجدولة كافة الأفراد القادمين (Immigrants) والافراد المغادرين (Emigrate) ، ثم يتم بعد ذلك تقسيم هذه البيانات لتشمل مجموعات سكانية أقل لتبدو أكثر وضوحا مثل تقسيمها الى فئة القادمين وفئة المغادرين ، والغرض الأساسي من توفير البيانات الخاصة بهاتين الفئتين يتمثل في المساعدة على ترجمة وتفسير احصاءات الهجرة التي تصدر سنويا عن أي دولة ، وعلى ضوء ذلك يتم اجراء

المقارنات الصحيحة بين بلد وآخر ، أي أنه يصبح بالامكان استعمال تلك البيانات دوليا بحيث تضاف الى البيانات الديموجرافية الدولية الأخرى^(٢١) .

٤ - سجلات الهجرة عالميا : (٢٢)

ان طبيعة ونوعية البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة تكون عادة أكثر ضلالة من تلك البيانات الخاصة بالتركيبة أو النمو السكاني ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، نذكر منها أن البيانات المشتقة من الهجرة تتميز بأنها ذات صيغة مركبة أي أنها تتكون من أجزاء وعناصر عديدة ، ولذلك فانه ليس من السهل تحديدها وبالتالي يصعب اظهارها بشكل واضح ، الى جانب أنه من الصعب تصنيفها أو تبويبها ، والتصنيفات الخاصة بظاهرة الهجرة تعتمد أساسا على أمور عديدة منها مدى دوام هذه الهجرة ، وعلى طول المسافة التي غطتها أو قطعتها هذه الهجرة ، وعلى نوعية الهجرة هل هي هجرة منظمة أي هل هي هجرة اختيارية أو أنها هجرة قسرية ، وبالإضافة الى كل ما سبق فان الهجرة تواجه صعوبات أخرى عند تقصي أية حقائق خاصة بها منها على سبيل المثال أنه في حالة عد المهاجرين ، فان هذه العملية بحد ذاتها تواجه صعوبات جمة ، وبخاصة عندما لا تتم هجرتهم عبر حدود دولية واضحة .

أما بالنسبة للهجرة فقد كانت المعلومات الخاصة بها تشتت في الفترة السابقة عن مصدرين هما التعرف على الاختلاف فيما بين الزيادة الناتجة عن الزيادة الطبيعية وهذه تعد الخطوة الأولى ، ثم اجراء الدراسات المقارنة ما بين تلك المعلومات من جهة وبين بيانات التعدادات السكانية المتعاقبة (Successive Census) من جهة أخرى وهذه تعد الخطوة الثانية .

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة أن هناك بعض التعدادات السكانية التي تتضمن بيانات احصائية هامة ومرغوب فيها عند دراسة موضوع الهجرة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالتغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة ، أو مكان الولادة ، وبالرغم من أن البيان الثاني لا يعطي الا دلالة عن الحركة السكانية ، الا أنه في حالة توفر هذه البيانات تتحول الدراسة التحليلية التي يتم اجراؤها عن الهجرة السكانية من الأمور السهلة .

وقد توفرت البيانات الخاصة بمكان الإقامة المعتاد ومكان العمل بحيث أصبح بالامكان اجراء دراسة تحليلية مقارنة لتلك البيانات في كل من انجلترا وويلز منذ تعداد عام ١٩٢١ ، وكذلك في تعدادي عامي ١٩٥١ ، ١٩٦١ ، الا أن بيانات تعداد عام ١٩٦١ تناولت فقط عينة سكانية تشكل (١٠٪) من اجمالي السكان - ويستفاد من تلك البيانات الاحصائية عند دراسة موضوع رحلة العمل اليومية ، وما هو جدير بالذكر أن تعداد عام ١٩٦١ لكل من انجلترا وويلز قد أضيف لبياناته سؤال جديد كان الغرض منه يكمن في الحصول على المزيد من المعلومات عن مدى تكرار وحجم واتجاه وخصائص الهجرة الداخلية ، الا أنه يمكن القول وبشكل عام أن البيانات الخاصة بالهجرة الداخلية عادة ما تكون أقل البيانات الاحصائية دقة بين البيانات الاحصائية الديموجرافية .

op. cit, p. 351.

(٢١)

John I. Clarke, Op. Cit, P. 10 - 11.

(٢٢)

وقد لوحظ وبصفة عامة أن البيانات الاحصائية المتوفرة عن الهجرة الداخلية والتي ذكرناها قبل قليل عادة ما تقتصر فقط على عدد قليل من الدول ، علاوة على ذلك ، فإن هذه البيانات عادة ما تتصف برداءتها وبالتالي تصبح غير جديرة بالثقة ، حيث أنه وحتى في حالة قابليتها للمقارنة تصبح ضئيلة ، وبخاصة أن كل دولة من هذه الدول التي تقوم بنشر بيانات عن الهجرة وهي دول قليلة العدد - كما ذكرنا قبل قليل - يكون هدفها الأساسي هو توفير وتجميع البيانات التي تكون بحاجة إليها من أجل أغراض إدارية أو تنفيذية فقط .

أما الهجرة الدولية فتصنف الى نوعين رئيسيين من الهجرة يمثل أحدهما الهجرة طويلة الأمد أو الدائمة (Permanent) ، ويمثل النوع الآخر الهجرة قصيرة الأمد أو المؤقتة (Temporary) .

. والبيانات الاحصائية الأكثر تفصيلاً عن الهجرة (Detailed Statistics) تعد قليلة الى جانب أنها مبعثرة أو موزعة أثناء نشرها في مجموعة منشورات قومية عديدة ، أو في مجموعة منشورات تصدرها الوكالات المختلفة ، ولذلك تعمل هيئة الأمم على تسهيل عملية استخدام هذه البيانات بأن تقوم بجمعها ونشرها على هيئة بيلوجرافيا عن كل من المسافرين الدوليين (Internationals Travelers) والمهاجرين وتضم هذه البيانات احصاءات تفصيلية عن أربع وعشرين دولة مختارة (٢٣) ، ومن المستحسن أن تعمل كل دولة على اصدار بيانات احصائية عن الهجرة بشكل مستقل كما أوصت بذلك الأمم المتحدة ، لتكون البيانات ذات قيمة أكبر ، بالإضافة الى أن كيفية الحصول عليها تكون أكثر سهولة .

وتعتبر التصنيفات الدولية الخاصة ببيانات الهجرة متاحة وبخاصة فيما يتعلق منها بالتعريفات من أجل أن تكون هناك قاعدة موحدة عالمياً عند استعمال هذه التعريفات ، وقد تم ذلك منذ الفترة الزمنية التالية للحرب العالمية الثانية ، حيث بدى بنشرها ضمن اصدارات عديدة في الأمم المتحدة ، ومثال على هذه الاصدارات الكتاب الديموجرافي السنوي (Demographic Yearbook) الذي ما زال صدوره مستمرا كل سنتين وبشكل دوري ، باستثناء بعض السنوات التي تقع في الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من ذلك فإن البيانات الاحصائية للفترة الزمنية المذكورة قد تم نشرها في اصدارات أخرى للأمم المتحدة (٢٤) ، بالإضافة الى ذلك نشرت الأمم المتحدة بيانات احصائية خاصة بالخصائص الاقتصادية للوافدين من تعد هجرتهم طويلة الأمد ، ولدول مختارة ضمن اصدار نشر في عام ١٩٥٨ (٢٥) .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية خير مثال لتلك الدول التي وفرت البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، بالإضافة الى أنها من أقدم هذه الدول من حيث المبادرة في عملية جمع وجدولة ونشر تلك البيانات ، حيث أصبحت

(٢٣) United Nations, Analytical Bibliography of Statistics on International Migration statistics, 1925 - 1950, Population Studies, Series A, No. 24, 1955.

(٢٤) United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947, Population Studies, Series A, No. 11, 1953.

(٢٥) United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, Statistics for Selected Countries, 1918 - 1954, Population Studies, Series A, No. 12, 1968.

البيانات الاحصائية الخاصة بالمهاجرين القادمين الى الولايات المتحدة الامريكية متاحة وتم نشرها في مصادر عديدة ، وتعتبر ادارة العدل (U. S. Department of Justice) هي الجهة المسؤولة عن جمع وتبويب هذا النوع من البيانات ، بالإضافة الى ادارة خدمات الهجرة ومنح الجنسية ، وكل من هاتين الادارتين تعمل على ترتيب وجدولة هذه البيانات ، وما هو جدير بالذكر أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية والتي تقوم بجمعها ادارة العدل تشق عادة من حصيلة العمليات التنفيذية التي يؤديها رجال مراقبة الحدود ، وتتصف البيانات الاحصائية الخاصة بالأجانب في الولايات المتحدة الامريكية بأنها تجمع على أساس منظم وموثوق به ، بحيث أنه يمكن الاطمئنان إليها ، وكذلك تتميز تلك البيانات بالشمولية وبخاصة أن بياناتها مستقاة من جميع الوثائق الخاصة بالحركات السكانية ، مثل شهادات عدم الممانعة أو الوثائق الرسمية الأخرى ، أما ادارة الهجرة ومنح الجنسية فتعمل أيضا على توفير البيانات الخاصة بالمسافرين جوا وبحرا والتي تجمع بوساطة رجال الحدود التي يعبرها هؤلاء المسافرون ، أو بمساعدة كل من ملاحي السفن أو الطائرات .

بالإضافة الى الادارتين السابقتين ، فإن مكتب التعدادات يعمل على نشر بيانات وتقارير خاصة بظاهرة التدفقات السكانية الى الولايات المتحدة الامريكية ضمن اصداراته ، مثل التعدادات السكانية التي يتم اجزاؤها كل عشر سنوات ، أو في التقارير والمسوحات السكانية ، الى جانب ذلك يعمل مكتب التعدادات على جمع كل المعلومات المحددة والمباشرة التي تتناول موضوع الهجرة في مجلد واحد ، ليكون بمثابة المصدر الأساسي في حالة القيام بعمل تقديرات للهجرة الصافية ، في الفترات الزمنية التي تتخلل السنوات التي تم بها اجراء التعدادات ، بالإضافة الى الادارات السابقة الذكر والمهتمة بجمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة الامريكية ، هناك أيضا جهات أخرى في الولايات المتحدة مهتمة بجمع تلك البيانات منها على سبيل المثال الوكالات الفيدرالية العديدة التي تعالج هذه البيانات عند قياس حجم الحركات السكانية الدولية ، وأخيرا فان هناك البيانات الاحصائية المقارنة أو التكميلية للمهاجرين في الولايات المتحدة الامريكية ، الا أنها محدودة ، وتنتشر عادة في التقارير الخاصة بالهجرة أو في تعدادات دول أجنبية عديدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة الامريكية بتدوين السجلات الرسمية للهجرة الوافدة إليها منذ عام ١٨٢٠ بوساطة الوكالة الفدرالية ، أما سجلات الهجرة المغادرة فقد بدأت بتدوينها منذ عام ١٩٠٨ فقط ، بوساطة قسم العمل بالولايات ، ثم تحولت تلك العمليات وأصبحت من اختصاص ادارة العدل منذ عام ١٩٤٤^(٢٦) .

كما سبق عرضه تبين لنا أن هناك عددا محدودا من الدول في العالم عملت على جمع وتبويب ونشر البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة سواء أكان منها الهجرة القادمة أم الهجرة المغادرة ، ولذلك قام قسم السكان ببيئة الأمم المتحدة بحصر كافة الهجرات الدولية وبالتالي تم نشرها ضمن اصداراته ، الا أن ذلك الحصر لم يشمل كافة الهجرات الدولية بمعناها المفهوم والدقيق ، نتيجة الى أن هناك بعض الهجرات الدولية التي تمت بين دول يفصل بينها حدود دولية طويلة من جهة ، وغير محكمة المراقبة من جهة أخرى^(٢٧) .

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 351.

(٢٦)

John I. Clarke, Op. Cit. P. 10 - 11.

(٢٧)

٥ - سجلات الهجرة محليا :

منذ منتصف هذا القرن وبالتحديد منذ عام ١٩٤٦ عندما بدأت الكويت بتصدير أول شحنة من النفط ، بدأت الكويت في نهضتها الحديثة ، وحرصت الدولة على استغلال مواردها من النفط في بناء هيكل اقتصادي واجتماعي في البلاد ، وقد أدى ذلك الوضع الى نتائج عديدة من أهمها اتساع سوق العمل في الكويت وتزايد معدلات الطلب على القوى العاملة ، وبذلك لعبت الهجرة الدولية دورا حاسما في التطور الاقتصادي وبالتالي في نمو الحجم السكاني للدولة الكويت ، وفي الجداول رقم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) والأشكال رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) والتي تشتمل على بيانات خاصة بالتطور العددي والنسبي للسكان الكويتيين من جهة والسكان غير الكويتيين من جهة أخرى ، نستنتج أن نسبة السكان الكويتيين آخذة بالتناقص من تعداد لآخر من اجمالي السكان بدولة الكويت ، حيث تراجعت تلك النسبة من (٥٥,٠ ٪) في عام ١٩٥٧ ، الى (٤٧,١ ٪) في عام ١٩٦٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ولأول مرة نسبة تقل عن نصف السكان داخل الدولة ، واستمرت تلك النسبة في تراجعها حتى وصلت الى أدنى نسبة لها في تعداد عام ١٩٨٥ حيث بلغت (٤٠,١ ٪) من اجمالي السكان بالدولة ، وهذا يعني أن أثر الهجرة الى دولة الكويت واضح في تراجع نسبة السكان الكويتيين من تعداد الى آخر حتى أصبحت نسبتهم تشكل خمس اجمالي السكان بالدولة وذلك بحلول عام ١٩٨٥ ، وبالمقابل فقد تزايدت نسبة السكان المهاجرين من (٤٥ ٪) في عام ١٩٥٧ من اجمالي السكان بالدولة ، الى أن أصبحت نسبتهم تمثل (٥٩,٩ ٪) في عام ١٩٨٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ما يقرب من ثلاثة أخماس اجمالي سكان الدولة .

وقد وفد السكان المهاجرون الى دولة الكويت من مصادر عديدة ، حيث بلغ عدد الجنسيات المتواجدة بالدولة حوالي ستين جنسية أو أكثر ، تشكل الجنسيات العربية غير الكويتية غالبية النسبة الخاصة بالسكان المهاجرين ، حيث بلغت تلك النسبة حتى عام ١٩٧٥ ما يقدر بـ (٨٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين ، الا أنه بحلول عام ١٩٨٠ طرأ تغير ملحوظ على مصادر المهاجرين ، ونتيجة لذلك فقد تناقصت نسبة الجنسيات العربية من النسبة الاجمالية للسكان الوافدين الى (٧٢,٥ ٪) في عام ١٩٨٠ ثم الى (٦٣,٣ ٪) في عام ١٩٨٥ ، وبالتالي فقد زادت نسبة الجنسيات الآسيوية غير العربية من (٢٢,٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين في عام ١٩٦٥ ، الى (٣٥,٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ثلث النسبة الاجمالية للسكان الوافدين بدولة الكويت .

وقد ساعد على نمو السكان الوافدين في دولة الكويت بالشكل الذي بيناه قبل قليل كل من عنصري صافي الهجرة والزيادة الطبيعية التي كانت تتم بين السكان الوافدين داخل الدولة وفي الجداول رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) حيث تشير بيانات الجداول المذكورة الى أن مكونا النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت أسهما بدور متفاوت في عملية نمو السكان الوافدين من فترة تعدادية لأخرى ، حيث نلاحظ أنه خلال الفترات التعدادية التي تخللت التعدادات السكانية السبع من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ ، كان دور صافي الهجرة أكبر في نمو السكان الوافدين في الفترات التعدادية الثلاث الأولى ، بحيث أن دور صافي الهجرة أسهم بضعف الدور الذي أسهم به عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين في المرحلة التعدادية الأولى ، أي خلال المرحلة المتقدمة من بداية وفود السكان الى دولة الكويت ، ويعد هذا الأمر طبيعيا ، وبخاصة أن

الهجرة الى دولة الكويت كانت في بدايتها ، وكانت عملية التنمية في جميع المجالات تعاني من القصور في الايدي العاملة المحلية ، ولذلك فقد كان دور عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين المتواجدين داخل دولة الكويت يأتي في المرتبة الثانية ، واستمر هذا الوضع خلال الفترتين التعداديتين الثانية والثالثة ، الا أن دور الهجرة الصافية كعامل رئيسي في عملية النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت خلال هاتين الفترتين بدأ يتقلص ويتجه نحو الانخفاض ، ومع ذلك فان نسبة إسهامه تعد أكبر مما هي عليه دور عامل الزيادة الطبيعية .

وفي الفترة التعدادية الرابعة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، تفوق فيها ولأول مرة نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية في النمو السكاني للوافدين ، بل ان نسبة اسهامه بلغت ضعف ما يقابله من نسبة اسهام عامل الهجرة الصافية في النمو السكاني للوافدين ، حيث بلغت نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية (٦٣,٩ %) .

وبحلول الفترة التعدادية الخامسة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، نجد أن الوضع تغير كلية بمقارنته بنظيره في الفترة التعدادية السابقة ، وكذلك بالفترات التعدادية الثلاث الأولى ، اذ أصبح دور صافي الهجرة أكبر مما كان عليه في تلك الفترات التعدادية في عملية النمو السكاني للوافدين - باستثناء الفترة التعدادية الأولى - حيث بلغت نسبة اسهامه ما يقدر بـ (٦٣,٩ %) من اجمالي نمو السكان الوافدين .

وأخيراً نجد في الفترة التعدادية السادسة والأخيرة والتي تخللت تعدادي ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، أن الوضع في تلك الفترة التعدادية مشابه لما كان عليه الوضع في الفترة التعدادية الثالثة ، فقد تساوى تقريباً كل من دور صافي الهجرة ودور الزيادة الطبيعية في عملية النمو السكاني للوافدين ، نتيجة لتراجع دور الهجرة الصافية تراجعاً واضحاً في هذه الفترة بمقارنتها بما كانت عليه في الفترة التعدادية السابقة ، مسجلة نسبة مقدارها (٤٨,٧ %) في حين أن النسبة المقابلة للزيادة الطبيعية بلغت (٥١,٣ %) .

مما سبق ذكره تبين لنا أن كلاً من عاملي صافي الهجرة والزيادة الطبيعية بين السكان الوافدين والمتواجدين في دولة الكويت قد أسهما بدور كبير ولكن بتفاوت في عملية نمو السكان المهاجرين خلال الفترات التعدادية المذكورة مما أدى الى نمو الحجم الاجمالي للسكان بالدولة من (٢٠٦٤٧٣) نسمة في عام ١٩٥٧ ، الى (١٦٩٧٣٠١) نسمة في عام ١٩٨٥ ، وقد بلغت نسبة السكان المهاجرين (٦٠ %) من إجمالي السكان بالدولة في العام المذكور ، كما ذكر قبل قليل .

وهناك الى جانب ما سبق أثر آخر ومهم للهجرة الى دولة الكويت على الخصائص الديموجرافية لاجمالي السكان بالدولة وقد تمثل ذلك الأثر بتطور حجم القوى العاملة بالدولة ، ومن بيانات الجدولين رقمي (٩ و ١٠) واللذين يوضحان التطور العددي والنسبي لقوى العمل الاجالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد ، ومنها نستنتج ما يلي :

- سجل الحجم الكلي للقوى العاملة بدولة الكويت زيادة ملحوظة خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٦٥ الى ١٩٨٥ ، حيث بلغ العدد المطلق حوالي (١٨٤٣٠٤) في عام ١٩٦٥ ، وارتفع هذا العدد الى (٦٦٢٥٨٨) في عام ١٩٨٥ ، أي بزيادة مقدارها (٤٧٨٢٨٤) وبنسبة مقدارها (٢٥٩,٩٥ %) خلال الفترة الزمنية المذكورة .

- بلغت نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية ما يقدر بـ (٢٣,٣ %) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، وبالرغم من ذلك فقد تناقصت تلك النسبة من سنة لأخرى حتى بلغت (١٨,٧ %) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وبذلك نجد أن نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية من إجمالي القوى العاملة بالدولة بلغت ما يقل قليلاً عن خمس إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وهذا الوضع يعطي صورة واضحة عن مدى ضآلة نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية في الفترة الزمنية المذكورة من إجمالي القوى العاملة بالدولة من جهة ، وعن مدى أثر الهجرة بما تمثله من حجم له وزنه على الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة من جهة أخرى .

- مثلت نسبة إسهام القوى العاملة غير الكويتية (٦٧,٧ %) من إجمالي القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تعادل ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أرباع الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، ثم تزايدت قليلاً تلك النسبة من سنة لأخرى حتى وصلت الى نسبة مقدارها (٨١,٣ %) من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، مشكلة بذلك حوالي أربعة أخماس القوى العاملة الاجمالية بالدولة في العام المذكور .

- وتعد نسبة اسهام السكان المهاجرين بالقوى العاملة متفاوتة من مجموعة جنسية لأخرى ، الى جانب أن هذا التفاوت كان متغيراً من تعداد لآخر ، حيث أن نسبة إسهام مجموعة الجنسيات العربية من إجمالي القوى العاملة الوافدة قد سجل أكبر نسبة بين المجموعات الجنسية الأخرى العاملة بدولة الكويت ، الا ان تلك النسبة سجلت تناقصاً من تعداد لآخر حيث بلغت (٦٨,٢ %) من عام ١٩٦٥ ، ثم اتجهت نحو الارتفاع البطيء حتى عام ١٩٧٥ حين بلغت (٦٩,٠ %) ، ولكن منذ عام ١٩٨٠ اتجهت هذه النسبة نحو التناقص الواضح حيث بلغت (٥٩,٦ %) ، ثم تراجعت الى (٤٦,٢ %) في عام ١٩٨٥ ، وفي التعداد المذكور سجلت مجموعة الجنسيات العربية وللمرة الأولى نسبة تقل عما يقابلها لدى مجموعات الجنسيات الآسيوية غير العربية ، حيث بلغت النسبة الخاصة بتلك الجنسيات (٥٢,٣ %) من إجمالي القوى العاملة الوافدة في العام المذكور ، مشكلة بذلك ما يزيد قليلاً عن نصف إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، يلي المجموعتين الجنسيتين المذكورتين بالمرتبة بقية المجموعات الجنسية غير العربية المتواجدة بدولة الكويت ولكن بنسب قليلة جداً لا تتعدى (١ %) أو ما يقل عن ذلك من إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، وتلك الحقيقة تنطبق على كافة التعدادات السكانية المذكورة .

كما سبق ذكره تبين لنا أن للهجرة دوراً بارزاً في نمو وتطور حجم القوى العاملة الاجمالية بالدولة ، حيث أن عددها المطلق قد زاد من (١٤١٢٧٩ نسمة في عام ١٩٦٥ الى (٥٣٩٠٢٨ نسمة في عام ١٩٨٥ ، أي ما يزيد قليلاً عن نصف مليون نسمة .

خلاصة ما سبق ذكره نجد أن ظاهرة الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي أسفرت عن تغيرات هائلة سواء أكان بالنسبة للحجم الكلي للسكان وتطور نموه داخل الدولة ، أم بالنسبة لحجم القوى العاملة الاجمالية التي تزايدت بشكل سريع ، والتي كان عامل الهجرة الى دولة الكويت الأثر الكبير في هذا التزايد ، وبخاصة أنهم يمثلون غالبية النسبة الخاصة بالقوى العاملة ، الى جانب ذلك فقد ترتب على ظاهرة الهجرة الى دولة الكويت آثار جمة ، سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الديموجرافية وحتى السياسية على السكان الكويتيين ، وهذا الأمر المهم يدعونا الى دراسة سجلات الهجرة محلياً للتعرف على الأساليب المختلفة المتبعة في جمع البيانات الاحصائية الخاصة بتلك الظاهرة .

وبخلاف التعدادات العامة للسكان فإنه لا يوجد حتى الوقت الحالي نظام دقيق لجمع بيانات متكاملة عن إحصاءات الهجرة الدولية الوافدة لدولة الكويت بخصائصها الديموجرافية الأساسية وبأسلوبها المعتاد والتي تتم عن طريق إجراء المسوح بالعينة للأسر القاطنة ، أو بأسلوب الإحصاء الجاري للأفراد القادمين والمغادرين بوساطة الاستبيانات التي تصمم لهذا الغرض ، والبيانات المتوفرة حالياً عن الهجرة ما هي الا جداول محدودة مسجل بها حركة القادمين والمغادرين موزعين حسب الجنسية والتنوع وطريق السفر ، وتشرف على اتمام تلك العملية وزارة الداخلية بالتعاون مع إدارة الطيران المدني ، وتزود الادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط بهذه الجداول بصورة شبه دورية ، وتنشر هذه الجداول بعد ذلك في المجموعة الإحصائية السنوية ، والبيانات الواردة بتلك الجداول لا تفي بالغرض الأساسي المطلوب من إحصاءات الهجرة والتي تكون كمؤشرات ديموجرافية أساسية ، مثل المهنة والحالة التعليمية والعمر وأسباب القدوم أو المغادرة لكل من القادمين والمغادرين ، وعادة ما تستخدم تلك الجداول كمؤشرات إجمالية لإحصاءات النقل « المواصلات » ، بالإضافة الى أنه يستعان بها عند دراسة وتحليل بيانات تلك الإحصاءات للوقوف على مدى علاقتها بالتغيرات السكانية الأخرى ذات العلاقة بالهجرة الدولية الوافدة الى الكويت أو المغادرة منها ، وبخاصة تلك البيانات التي تتيحها المسوح والإحصاءات السكانية^(٣٢) .

ولم يؤخذ بنظام تسجيل الجداول الخاصة بحركة السفر للسكان الوافدين مصنفة بحسب الجنسية الا منذ عام ١٩٦٤ ، ومع ذلك فما زالت الحاجة تدعو الى ضرورة قيام تنسيق وتعاون إيجابي أكثر بين وزارة الداخلية وإدارة الطيران المدني من جهة ، والادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط من جهة أخرى ، من أجل أن تتوفر الأرقام الدقيقة عن حجم وخصائص السكان الوافدين الى دولة الكويت بصورة دورية مفصلة . ليتمكن كل من الخبراء والمتخصصين من إجراء تقديرات أقرب الى الواقع لتطور النمو السكاني للوافدين ، للتعرف على التغيرات التي من المحتمل أن تطرأ على خصائصهم في المستقبل القريب والبعيد ، اذ أنه في حالة عدم توفر تلك البيانات يكاد يكون من المستحيل وضع الخطط التنموية والاقتصادية والاجتماعية المستقبلية التي يمكن تنفيذها بنجاح ، وبخاصة أن السكان الوافدين أصبحوا يشكلون حوالي (٦٠ ٪) من إجمالي السكان بحسب نتائج عام ١٩٨٥ ، كما ذكرنا في السابق .

وبالرغم من أنه لا يوجد بدولة الكويت نظام للتسجيل المستمر للسكان ، ذلك النظام الذي يوفر إحصاءات مرضية عن المهاجرين لداخل البلاد والمهاجرين منها ، الا أن هناك عدداً غير قليل من الباحثين والمتخصصين قاموا بإعداد بحوث ودراسات تتعلق بالسكان المهاجرين لدولة الكويت ، وقد تمكنوا من تقدير عدد المهاجرين الوافدين الى دولة الكويت في فترة زمنية تقع ما بين تعدادين متتاليين باستخدام اعداد السكان الاجمالية للوافدين في كل من هذين التعدادين ، بالإضافة الى بيانات أخرى توفرها عادة التعدادات أو غيرها من المصادر^(٣٣) .

(٣٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء . دليل نظام الإحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت ، يونيو ١٩٨٤ ، ص ٤

(٣٣) من الدراسات والبحوث الحديثة التي اتبع بها الطريقة المذكورة عند تقدير اعداد السكان المهاجرين الى دولة الكويت في الفترات التعدادية المختلفة مايلي .

- مساعد حس العميم ، الوصف السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ ، ص ٧٧ - ٧٩ .

- وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ١

- مساعد حسين العميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة ، (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في أغسطس ١٩٨٥

وقد تم حساب صافي الهجرة الى دولة الكويت بتلك البحوث والدراسات وبخاصة في السنوات الأخيرة بالطرق التالية :

أ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود : ومن المعروف أن مصدر هذه البيانات وزارة الداخلية ، وقد تم حساب صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود لكل سنة بطرح عدد المغادرين خلال السنة من عدد القادمين خلال نفس السنة ، حيث أنه اذا كانت مثل هذه البيانات على درجة معقولة من الدقة فيمكن استخدامها كأحد مؤشرات صافي الهجرة الى دولة الكويت .

ب - تقديرات صافي الهجرة ما بين التعدادات . وقد أعدت هذه التقديرات بطريقة الاحصاءات الحيوية ، حيث حُسِب مقدار التغير السكاني ما بين التعداد والتعداد التالي له ، ثم حُسِب مقدار الزيادة الطبيعية للسكان خلال الفترة ما بين التعدادين وبطرح مقدار الزيادة الطبيعية من الزيادة الاجمالية التي تمت في اعداد السكان نحصل على تقدير صافي الهجرة .

وبالرغم من عدم جواز الاعتماد على صافي الحركة للسكان غير الكويتيين عبر الحدود كمقياس لقيمة صافي الهجرة ، إلا أنه يمكن استخدام قيمة صافي الحركة وكونها سالبة أو موجبة للدلالة على اتجاهات التغير في صافي الهجرة نحو الزيادة أو النقصان ، وبخاصة عند دراسة صافي الهجرة لمجموعة معينة من الجنسيات ، مثل الجنسيات العربية أو الآسيوية أو عند دراسة صافي الهجرة لجنسية معينة ، وتتبع هذه الطريقة في الحالات التي لا يتاح لها بيانات تمكن من تقدير صافي الهجرة بطريقة الاحصاءات الحيوية^(٣٤) .

وبذلك نجد أنه في حالة استخدام الطرق غير المباشرة لتقدير صافي الهجرة الى دولة الكويت فمن الأفضل استخدام الطريقة الثانية التي تعتمد فيها على البيانات التي توفرها التعدادات العامة للسكان وكذلك الاحصاءات الحيوية عن السكان المهاجرين ، أما الطريقة الأولى والتي نستخدم فيها على بيانات حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود ، وكما يوضحها كل من (الجدولين رقم ١١ ، ١٢) ، فلا يمكن الاعتماد على نتائجها وبخاصة أنه عند استعمالها أسفرت بياناتها عن أن حجم صافي الهجرة كان مقداره سالباً في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٦٩ ، وبالتحديد في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ ، بالإضافة الى عام ١٩٧٩ ، وأخيراً في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤^(٣٥) ، وربما تصدق تلك الحقيقة في السنوات الثلاث الأخيرة المذكورة ، إلا أنه لا يمكن حدوثها بالنسبة لفترة السبعينات وبخاصة أن تلك الفترة الزمنية شهدت حدوث هجرة ذات حجم كبير ، ومن مصادر عديدة ، لم يرد ذكرها في السابق ، منها على سبيل المثال دول جنوب وشرق آسيا ، وبالتحديد تلك الهجرة القادمة الى الكويت لأول مرة من كل من كوريا الجنوبية والفلبين وقد تميزت تلك الهجرة بالإضافة الى ما سبق أن غالبية أفرادها يتركزون في الأعمال الانشائية ، أي في قطاع التشييد والبناء ، الى جانب ما سبق فإن تلك الهجرة تميزت عما شهدته

(٣٤) مساعد العميم ، المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

(٣٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية للاعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٨ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

الكويت من هجرات في أن مدة الإقامة للوافدين تعد مؤقتة ، حيث أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من تنفيذ المشروع الإسكاني الذي قدموا للكويت من أجله .

بالإضافة الى ما ذكرنا في السابق فإن هناك عدة عوامل تجعل من البيانات الاحصائية الخاصة بحركة القدوم والمغادرة مضللة ولا يمكن الوثوق بها وبالتالي لا يعتمد عليها عند احتساب صافي الهجرة ، وفي مقدمة هذه العوامل ، ذلك العامل الذي يتمثل في أن هذه البيانات الاحصائية تغفل تسجيل البدو والتسليين الذين يخترقون الحدود دون علم سلطات الدولة ، وبخاصة أن الداخلين الى دولة الكويت بطريقة غير مشروعة عادة ما يتهربون من اختراق الحدود بطريقة رسمية ، ولهذا يغفل تسجيلهم مع القادمين في حين يتم تسجيلهم كمغادرين فقط أثناء خروجهم من البلاد مما يعطي في النهاية أرقاماً مضللة لصافي الهجرة ، خاصة بالنسبة للجنسيات الايرانية والعراقية والسورية التي عادة ما يكثر بين سكانها دخول البلاد بتلك الطريقة .

بالإضافة الى ما سبق فإن الطريقة الثانية أيضاً لتقدير حجم صافي الهجرة ما بين التعدادات والتي يعتمد عند استعمالها على كل من بيانات التعدادات العامة للسكان وبيانات الاحصاءات الحيوية يشوبها - أيضاً - نوع من الشك ، نتيجة الى أن حجم صافي الهجرة يتأثر بالأخطاء التي تحدث في كل من عملية عد السكان وعملية التسجيل الحيوي ، الا أنه يبدو أن عمليات عد السكان في تعدادات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، وكذلك التسجيل الحيوي خلال الفترة ذاتها مكتملة تقريباً ، وهكذا فإن أرقام صافي الهجرة للداخل والمعدة باستخدام طريقة الاحصاءات الحيوية لن تكون عرضة لاختلاف خطيرة ، وبخاصة أنه أثناء عملية عد السكان في التعدادات الثلاث المذكورة كان هناك زيادة في التركيز على طلب الاثبات المستندي للجنسية الكويتية ، مما قلل من حالات الادعاء بالجنسية الكويتية^(٣٦)

خلاصة ما سبق ذكره يتضح أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الى الكويت تشتق من مصدرين أساسيين هما الادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط وإدارة الجوازات والجنسية والإقامة بوزارة الداخلية ، بما توفره الادارة الأولى من بيانات تتضمنها كل من التعدادات العامة للسكان ، والمجموعة الاحصائية السنوية ، والمجموعة السنوية للإحصاءات الحيوية ، وأخيراً التقارير والمسوحات السكانية ، وبما توفره الإدارة الثانية من بيانات خاصة بالقادمين والمغادرين موزعين بحسب مجموعات الدولة التي ينتمون إليها ، وكذلك حركة الركاب في الموانئ البرية والبحرية والجوية ، بالإضافة الى كل من البيانات التي تتعلق بحالات منح الجنسية الكويتية وحالات منح تصاريح الإقامة للوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها ، وما هو جدير بالذكر أن كافة تلك البيانات تقوم بجمعها وتبويبها الادارات المختصة بوزارة الداخلية وبخاصة نقاط الحدود البرية والبحرية والادارة العامة للطيران المدني وأخيراً الادارة العامة للجوازات والجنسية والإقامة ، وقد كان هذا النوع من البيانات يصدر عن وزارة الداخلية حتى عام ١٩٦٥ ، إلا أنه بعد ذلك التاريخ أصبح مجلس التخطيط - وزارة التخطيط الحالية - هو الذي يتولى نشر واصدار مثل تلك البيانات معتمداً في ذلك على سجلات وزارة الداخلية

(٣٦) وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٥

بالإضافة إلى هذين المصدرين هناك مصدر ثالث للبيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية الى الكويت وتمثل هذا المصدر في مراقبة الاستخدام بإدارة تنظيم القوى العاملة بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وفي مطلع عام ١٩٨٠ أصبح يطلق على تلك الإدارة إدارة عمل محافظة العاصمة ، بعد صدور القرار رقم (١٩٩) لسنة ١٩٧٩ ، وقد تولت الإدارة إصدار تصاريح العمل على مستوى الدولة (٣٧) ، ويصدر عن الادارة المذكورة تقريراً سنوياً يختص بنشر بيانات تحليلية وإحصائية عن تصاريح العمل في القطاع الأهلي وقطاع الأعمال النفطية ، ويتمثل الهدف الأساسي من نشر تلك البيانات في توضيح كل ما يتعلق بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ، وتعد تلك البيانات كمؤشر لمعرفة مدى الطلب على هذه القوى ، وما يحدث بها من متغيرات ، وبخاصة عندما تنشط قطاعات معينة كما حدث في قطاع التشييد والبناء في منتصف السبعينات ، حيث كان الطلب مركزاً على العمالة الوافدة من أجل العمل في القطاع المذكور ، وكذلك تعد تلك البيانات كمؤشر للتعرف على المهن والتخصصات التي تزود بها سوق العمل في الكويت من الدول المختلفة المصدرة للعمالة ، وما اذا كان هناك ثمة علاقة بين مصدر معين ومهن بذاتها ، أي التوقف على مدى العلاقة ما بين الجنسية والمهنة ، كما حدث في عامي ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ حيث شهدت هاتان السنتان تغيراً جذرياً في خريطة الدول المصدرة للقوى العاملة والوافدة الى دولة الكويت ، حين أصبحت القوى العاملة غير العربية في موقف المتحدي أمام القوى العاملة العربية الوافدة ، وقد بلغت تلك الظاهرة مداها في الثمانينات . (كما أوضحنا فيما سبق) .

خلاصة لكل ما سبق ذكره فان الهدف الأساسي من عمل الادارة المذكورة يتلخص في تنظيم عملية استخدام القوى العاملة الى الكويت من أجل الاستفادة بأفضل الطاقات البشرية المتاحة في أسواق العمل الخارجية ، وكذلك إجراء التقديرات المستقبلية الصحيحة للاحتياجات الفعلية من قوة العمل الوافدة على أسس اقتصادية ، معتمدة في ذلك على حصيلة وفيرة من الحقائق المحيطة بسوق العمل المحلي ، وقد اعتبرت تلك الحقائق بمثابة المؤشرات الأساسية لاتجاهات سوق العمل بالكويت وتطوراتها ومتغيراته لوضع خطة نحو المعنى في اصدار تصاريح جديدة للعمل في اتجاهات اقتصادية معينة .

وتتضمن التقارير السنوية المذكورة بيانات إحصائية ودراسات وتحليلية خاصة بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة - كما ذكرنا في السابق - ، بالإضافة الى عمل تقديرات للاحتياجات المستقبلية لتلك العمالة ، والبيانات المنشورة في تلك التقارير عن تصاريح العمل توضح أن هناك عدة أنواع من هذه التصاريح هي كما يلي : التصاريح بالدخول للعمل ، التصاريح بالعمل لأول مرة ، تجديد تصاريح العمل ، الغاء تصاريح العمل أو تحويلها ، وأخيراً الالغاء النهائي لتصاريح العمل ، وجميع تلك الأنواع من تصاريح العمل مجدولة ومصنفة بحسب النشاط الاقتصادي والجنسية والمجموعات المهنية والنوع والعمر والحالة الاجتماعية وأخيراً الأجور .

(٣٧) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقدير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ ، المقدمة .

وقد اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بتطوير البيانات التي تتناولها هذه التقارير بالدراسة والتحليل نتيجة الى أن القوى العاملة المستجدة سنوياً والوافدة الى الكويت تتزايد من سنة لأخرى ، بحيث أن نتائج تعداد السكان لعام ١٩٨٠ تظهر أن السبب الرئيسي لاقامة السكان الوافدين بدولة الكويت هو المرافقة (مرافقة الأقارب العاملين بالدولة) وبنسبة قدرها (٥١,٤ ٪) ، بينما تبلغ نسبة المقيمين للعمل (٤٧,٩ ٪)^(٣٨) . ولذلك فقد ركزت الوزارة المذكورة على تطوير قانون العمل في القطاع الأهلي وتنظيمه ، بحيث صدر قانون في عام ١٩٨٤ أضيف بمقتضاه عمل إجراءات جديدة عند إصدار تصاريح العمل للقوى العاملة الوافدة للعمل في القطاع الأهلي ، منها أن المادة الأولى منه تنص على قصر إصدار تصاريح العمل على قطاعات إقتصادية معينة^(٣٩) .

وفي حالة دراسة الهجرة الى دولة الكويت هناك بيانات صادرة عن وزارة الداخلية خاصة بحالات منح الاقامة للسكان الوافدين الى دولة الكويت ، وقد لا تفيد البيانات المذكورة الباحثين والمتخصصين بالدراسات السكانية عند قياس حجم صافي الهجرة ، الا أن هذه البيانات تكون بمثابة مؤشر مهم عند دراسة مظاهر استقرار القوى العاملة الوافدة ، وبخاصة أن دراستنا التحليلية للقوى العاملة بدولة الكويت والتي تناولناها قبل قليل اسفرت عن أن القوى العاملة غير الكويتية تشكل ما يزيد قليلاً عن أربعة أخماس القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تمثل غالبية القوى العاملة بالدولة حتى عام ١٩٨٥ ، لذلك أخذت الدولة على عاتقها مسئولية إصدار التشريعات الخاصة بالاقامة وما يتعلق بها منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٧٥ ، وتعد جميع القرارات الصادرة بهذا الشأن خاصة ببيان شروط جواز دخول الأجانب لأراضي دولة الكويت والاقامة فيها ومدتها وأسبابها .

وفي بيان الجدول رقم (١٣) نستنتج أن نصيب مجموعة الجنسيات العربية غير الكويتية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الصادرة والممنوحة للسكان الوافدين في الفترة الزمنية الممتدة في عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ ، قد اتجه نحو التناقص وبشكل واضح فبعد أن كانت تلك النسبة تشكل (٦١,٢ ٪) من إجمالي تصاريح الاقامة الممنوحة للوافدين في عام ١٩٧٣ ، أصبحت هذه النسبة تشكل (٣٥,٦ ٪) أي الثلث فقط في عام ١٩٨٢ ، ممثلة بذلك المرتبة الثانية ، وقد احتلت تلك المجموعة لهذه المرتبة منذ عام ١٩٧٩ ، بعد أن كانت ممثلة للمرتبة الأولى في السنوات السابقة للعام المذكور . في حين أن مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية كانت ممثلة للمرتبة الثانية في عام ١٩٧٣ وبنسبة تقدر بـ (٣٦,١ ٪) ، الا أن هذه النسبة اتجهت نحو الزيادة من سنة لأخرى حيث أنها فاقت ما يقابلها لدى مجموعة الجنسيات العربية منذ عام ١٩٧٩ ، ممثلة - بذلك - للمرتبة الأولى واستمرت تلك المجموعة ممثلة لهذه المرتبة حتى عام ١٩٨٢ وبنسبة تقدر بـ (٥٣,٥ ٪) أي أن نصيب مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الممنوحة زاد عن النصف بقليل في العام المذكور .

أما نصيب بقية المجموعات الجنسية غير العربية كالأفريقية والأمريكية والأوربية وغيرها فقد كان محدوداً جداً ويقل في معظم الأحوال عن نسبته (١ ٪) في جميع السنوات المذكورة .

(٣٨) مساعد حسن الميم . الوضع السكاني لدولة الكويت . المرح السابق . ص ٨٤

(٣٩) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل عاقلة العاصمة . مراقبة الاستخدام . التقدير السنوي لنشاط الاستقدام والسمات الاساسية للمعامل الوافدة عام

١٩٨٤ ، الكويت في فبراير ١٩٨٥ . ص ٣ - ٤

خلاصة لما سبق ذكره يتضح أن دولة الكويت تعد حديثة العهد بالنسبة لوفود المهاجرين إليها ، حيث بدأت ظاهرة الهجرة الدولية الى دولة الكويت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، الا أنها ساهمت بشكل فعال في غوجم السكان وبالتالي أثرت وبشكل واضح على كافة الخصائص الديموجرافية السكانية ، ولم تبدأ الكويت بتدوين أو تسجيل بيانات تلك الظاهرة الا منذ عام ١٩٥٧ ، حين أجرى التعداد الأول للسكان بالدولة ، ثم تبعه بعد ذلك استمرار هذه العملية كل خمس سنوات وكان آخرها تعداد عام ١٩٨٥ ، وبخاصة أنه كما علمنا في السابق من أن بيانات التعداد العام للسكان تعد المصدر الرئيسي لاحصاءات الهجرة الى دولة الكويت أو منها ، أما المصدر الثاني فقد مثلته البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية ، وبخاصة تلك البيانات الوثيقة الصلة بحركة السكان والتي تجمع بواسطة الرجال القائمين على مراقبة نقاط الحدود والمطارات ، بالإضافة الى تلك البيانات الخاصة بحالات منح الاقامة للوافدين والتي في حالة تحليلها تعد بمثابة مؤشر هام لمدى استقرار القوى العاملة ، وأخيراً فان المصدر الثالث يتمثل في احصاءات الهجرة التي توفرها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والخاصة بتصاريج العمل الممنوحة للقوى العاملة الوافدة في القطاع الأهلي .

خلاصة لما سبق ذكره يتبين لنا أن هناك جهات رسمية عديدة تعمل على جمع وجدولة ونشر البيانات الخاصة بالهجرة الدولية القادمة الى دولة الكويت أو المغادرة منها ، وقد تمثلت هذه الجهات بثلاث وزارات هي وزارة التخطيط ، ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وبناء على ذلك نوصي بأن يكون هناك جهة رسمية واحدة فقط تتولى تلك العملية ، ومن الأفضل أن تكون تلك الجهة ممثلة بوزارة التخطيط ، وبخاصة بالنسبة لجمع هذه البيانات والتأكد من صحتها وبالتالي تبويبها ونشرها ، لتكون أكثر فائدة بالنسبة لكافة المهتمين بظاهرة الهجرة الدولية سواء أكان منها القادمة أم المغادرة من دولة الكويت وفي مقدمتهم المسؤولون عن التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بمن فيهم العاملون في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص ، أو الباحثون والدارسون لتلك الظاهرة ، بالإضافة الى ما سبق نوصي - أيضاً - أن يكون هناك قسم خاص يعنى بشؤون الهجرة ويكون تابعاً للإدارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط يعمل على جمع كافة البيانات الاحصائية المتعلقة بالهجرة ، وينشرها ضمن إصدار خاص يكون على هيئة مجلد يحتوي على جميع البيانات الاحصائية للهجرة ، حتى يكون أكثر فائدة وقيمة عند دراسة تلك الظاهرة من قبل جميع المهتمين بهذه الظاهرة ، وحتى يتمكنوا من خلال دراستهم ومناقشتهم لتلك الظاهرة من حيث تحليل مسبباتها والتغيرات التي تطرأ على حجمها من فترة زمنية الى أخرى ، والعوامل المؤثرة على حجم الهجرة الدولية الى الكويت سواء أكان ، منها ، الداخلية أم الخارجية ، حتى يستطيع المهتمون بتلك الظاهرة بجمع فئاتهم الوصول الى فهم أكثر للعوامل المحددة لمختلف نوعيات الهجرة الوافدة الى دولة الكويت بشكل أكثر سهولة عند استخدام هذه البيانات .

أما التوصية الثالثة التي نختتم بها هذا البحث فتتلخص في أنه على الجهات الرسمية الثلاث المعنية بظاهرة الهجرة في الوقت الحالي والمتمثلة في وزارات التخطيط والداخلية والشؤون الاجتماعية والعمل أن تعطي مزيداً من الاهتمام نحو تسجيل البيانات الاحصائية المتعلقة بتلك الظاهرة ، لتكتسب مزيداً من الدقة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بشمولية هذه البيانات ، بحيث أنه في حالة تسجيل تلك البيانات لا تغفل أي مجموعة سكانية وافدة الى البلاد أو مغادرة منها ، نتيجة لما يمثلته حجم السكان المهاجرين من إجمالي السكان داخل الدولة ، وكما ذكرنا فيما سبق من أن هؤلاء السكان أصبحوا

يمثلون نسبة تقدر بـ (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة كما أظهرتها نتائج التعداد الأخير - تعداد عام ١٩٨٥ ، وهذه النسبة ليست كبيرة من حيث حجمها فقط ، بل تتعدى ذلك بكثير لما لها من آثار بالغة وواضحة على الخصائص السكانية داخل الدولة ، سواء أكان منها الاجتماعية أم الاقتصادية بل وحتى السياسية ، وما يتطلبه كل ذلك من زيادة سريعة في الخدمات المختلفة التي تقدمها وتوفرها الجهات المعنية وفي مقدمتها وزارات الدولة المختلفة وبجميع أجهزتها والمؤسسات التابعة لها .

ملحق الجداول

فهرست الجداول

رقم الصفحة	عنوان الجدول	رقم الجدول
	١ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين) في سنوات التعداد .	
	٢ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٣ - التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٤ - صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من (١٩٤٨ - ١٩٨٥) .	
	٥ - الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين) للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤ .	
	٦ - مكونا النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٧ - تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٨ - تطور معدلات النمو السنوي للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمسة .	
	٩ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد .	
	١٠ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات التعداد .	
	١١ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات .	
	١٢ - صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات (١٩٧٢ - ١٩٨٤) .	
	١٣ - نسب حالات منح تصاريح الإقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات (١٩٧٣ - ١٩٨٢) .	

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)
 في سنوات التعداد من (١٩٦٥ - ١٩٨٥) (٣٩)

جدول رقم (١)

سنة التعداد والعدد والنسبة		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
كان	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	
كويتيون غير الكويتيين	٢٢٠٠٥٩	٤٧.١	٣٤٧٣٩٦	٤٧.٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧.٥	٥٦٥٦١٣	٤١.٧	٦٨١٢٨٨	٤٠.٩	
	٢٤٧٢٨٠	٥٢.٩	٣٩١٢٦٦	٥٣.٠	٥٢٢٧٤٩	٥٢.٥	٧٩٢٣٢٩	٥٨.٣	١٠١٦٠١٣	٥٩.١	
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠.٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠.٠	٩٩٤٨٣٤	١٠٠.٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠.٠	١٦٩٧٣٠١	١٠٠.٠	

(٤٠) التعدادات العامة للسكان في السنوات المذكورة .

* النسب حيث .

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول
التي ينتمون إليها في تعدادات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٤٠)

جدول رقم (٢)

سنة التعداد العدد	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
كويتية	٢٢٠٥٩	٤٧ ١	٣٤٧٣٩٦	٤٧ ٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧ ٥	٥٦٥٦١٣	٤١ ٧	٦٨١٢٨٨	٤٠ ١
عربية	١٨٧٩٢٣	٤٠ ٢	٣١٢٨٤٩	٤٢ ٤	٤١٩١٨٧	٤٣ ١	٥٧٤٤٩٥	٤٢ ٣	٦٤٢٨١٤	٣٧ ٩
آسيوية	٥٤٥٠٤	١١ ٧	٧١٩١٧	٩ ٧	٩٧٨١٣	٩ ٨	٢٠٤١٠٤	١٥ ٠	٣٥٥٩٤٧	٢١ ٠
أوربية	٣٨٣٩	٠ ٨	٤٨١٦	٠ ٧	٤٢٨٠	٠ ٤	٩٩٨٤	٠ ٧	١١٩٠٨	٠ ٧
أخرى	١٠١٧	٠ ٢	١٦٠٨	٠ ٢	١٣٠١	٠ ١	٣٧٥٦	٠ ٣	٥٣٤٤	٠ ٣
غير مبن	—	—	٧٦	—	١٦٨	—	—	—	—	—
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠ ٠	٧٢٨٦٦٢	١٠٠ ٠	٩٩٤٨٢٧	١٠٠ ٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠ ٠	١٦٩٧٣٠١	١٠٠ ٠

(٤١) المصدر السابق .

* أخرى وتشمل الجنسيات الآفريقية غير العربية والأمريكية والآشورية والنورثينية .

التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها
جدول رقم (٣)
في تعدادات ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤١)

١٩٨٥		١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		نسبة التعداد مجموعات الدول النسبة العدد
النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	
٦٣	٧٣	٥٧٤٤٩٥	٨٠	٤١٩١٨٧	٨٠	٣١٢٨٤٩	٧٦	١٨٧٩٢٣	عربية	
٣٥	٢٥	٢٠٤١٠٤	١٨	٩٧٨١٣	١٨	٧١٩١٧	٢٢	٥٤٥٠٤	اسيوية	
١	٠	٩٩٨٤	٠	٤٢٨٠	١	٤٨١٦	١٥	٣٨٣٩	اوربية	
٠	٠	٣٧٥٦	٠	١٣٠١	٠	١٦٠٨	٠	١٠١٧	أخرى	
-	-	-	-	١٦٨	-	٧٦	-	-	غير مبين	
١٠٠	١٠٠	٧٩٢٣٣٩	١٠٠	٥٢٢٧٤٩	١٠٠	٣٩١٢٦٦	١٠٠	٢٤٧٢٨٠	الجملة العمومية	

(٤٢) المصدر السابق .

* أخرى تشمل السكان والوافدين من مجموعات الدول الأفريقية غير العربية والأمريكية وأستراليا ونيوزيلندا .

* النسب حسب .

صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من
١٩٤٨ - ١٩٨٥

الجملة	غير مسن		الدول الأمريكية ودول أخرى		الدول الأوروبية		الدول الآسيوية		الدول العربية		صافي الخصم المحتمل على الخصمة
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
٦٤٥٠٩	—	٠	٩٧	٠.١	٢٢٢٣	٣.٥	٢٠٣٠١	٣١.٥	٤١٨٨٨	٦٤.٩	١٩٥٧ - ٤٨
٢٠٧٩٨٦	١٤	٠.٢	٤٩٣	٠.٢	٣٠٧٧	٥.١	٤٥٤٨٨	٢١.٦	١٥٨٩١٤	٧٦.٤	١٩٦٥ - ٥٧
٣٣١٤٢١	—	٠	٩٢٦	٠.٤	٤٤٤٢	١.٩	٤٤٨٠٢	١٩.٤	١٨١٢٥١	٧٨.٣	٢٩٧٠ - ٦٥
٢٢٠٦٨٥	٢٥	٠.٥	١٠٥٣	٠.٥	٣٤٢٨	١.٦	٥٠٦١٢	٢٢.٩	١٦٥٥٦٧	٧٥.٠	١٩٧٥ - ٧٠
٢٦٩٥٩٠	—	٠	٢٢٨٧	٠.٩	٥٧٠٤	٢.٤	١٠٦٢٩١	٣٩.٤	١٥٥٣٠٧	٥٧.٦	١٩٨٠ - ٧٥
٢٢٣٦٧٤	—	٠	١٥٨٨	٠.٧	١٩٢٤	٠.٩	١٥١٨٤٣	٦٧.٩	٧٦٢١٩	٣٠.٥	١٩٨١ - ٨٠

٤٣٣) أحمد حسن إبراهيم، سكان الكويت، دراسة جغرافية، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) الكويت ١٩٨٥، يوليو رقم (٧) ص ٤٥.

(٤٤) وزارة التخطيط، المجموعة الإحصائية السنوية لعام ١٩٨٥ والتعداد العام للسكان ١٩٨٥

جدول رقم (٥)

الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)

للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤

الواقعات الحيوية والجنسية والعدد والنوع والسنة	المواليد اخصاء		الوفيات		الزيادة الطبيعية	
	كويتيون		غير كويتيين		كويتيون	
	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل
السنة	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل
١٩٦٥	١١٧٩٣	٥٣.٧	١٠١٥٧	٤٠.٤	١٠١٩٠	٤٥.٦
١٩٦٦	١٢٤٨٣	٥٠.٩	١١٢٤٩	٤٠.٩	١٠٧١٧	٤٣.٧
١٩٦٧	١٤٦٢٤	٥٤.٥	١٣٧١٠	٤٥.٥	١٢٨٠٢	٤٧.٧
١٩٦٨	١٥٧٦٢	٥٣.٦	١٢٦٦٤	٥٢.٣	١٣٨٣٣	٤٧.٠
١٩٦٩	١٧٩٦٥	٥٥.٨	١٧١٧٠	٤٧.٤	١٦٠٨٧	٤٩.٩
١٩٧٠	١٦٦٢٠	٤٦.٣	١٧٦٢٢	٤٤.٥	١٤٢٠٥	٤٠.٥
١٩٧١	١٧٦٦٧	٥٩.٥	١٧٨٩١	٤٢.٣	١٥٤٤٣	٤٢.٢
١٩٧٢	١٩٢٢٢	٥٠.٢	١٨٤٥٦	٤٠.٩	١٦٦٧٥	٤٣.٦
١٩٧٣	٢١٣٤٠	٥٠.٥	١٨٨٢٥	٤٠.٠	١٨٥٠٠	٤٣.٨
١٩٧٤	٢٢٧١٣	٥٠.٥	١٨٣٤٧	٣٦.٨	١٩٧٣٥	٤٣.٩
١٩٧٥	٢٤٣٤١	٥١.٢	١٩١٢٠	٣٦.٠	٢١٤١٤	٤٥.١
١٩٧٦	٢٤٩٣٥	٥٠.٦	٢١١٠٤	٣٦.٦	٢٢١٧٨	٤٥.٠
١٩٧٧	٢٤٧٩٠	٤٨.٥	٢٢٠٧٤	٣٥.٢	٢١٦٤٠	٤٣.٣
١٩٧٨	٢٥١٢٨	٤٧.٤	٢٢٨٨٢	٣٣.٦	٢٢٢٦٠	٤٦.٠
١٩٧٩	٢٥٤٩٩	٤٦.٤	٢٢٧٧٤	٣٠.٧	٢٢٥٥٦	٤١.٠
١٩٨٠	٢٦٩٦٨	٤٧.٣	٢٤١٢٢	٣٠.٠	٢٤٠٥٥	٤٢.٢
١٩٨١	٢٧٩٩٨	٤٧.٤	٢٤٠٤٣	٢٧.٥	٢٥٣٠٩	٤٢.٨
١٩٨٢	٢٩٠٠٤	٤٧.٤	٢٥٢٥٣	٢٦.٨	٢٦١٧٦	٤٢.٨
١٩٨٣ (٤٤)	٣٠٠٣٢	٤٧.٣	٢٥٥٨٥	٢٤.٧	٢٧٣٦٩	٤٣.١
١٩٨٤ (٤٥)	٣٠٤٤٨	٤٦.٢	٢٥٨٠٦	٢٦.٥	٢٧٩٢٤	٤٢.٤

(٤٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة السنوية للاحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ ، الجدول رقم (٢) و (٢٧) ، ص ٣ - ٦٤ .

(٤٦) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة الاحصائية الشهرية للاحصاءات الحيوية ، مارس ١٩٨٦ ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ ، جدول رقم (٧) و (٨) ، ص ٨ - ٩ .

* حسب المدلات

جدول رقم (٦)

[illegible]

(٤٧) الأرقام المطبقة من التعدادات العامة للسكان .

المجلات والنسب محسوبة .

جدول رقم (٧)

تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (٥٧ - ١٩٨٥) (٤٧)

السكان سنة التعداد	عدد السكان الوافدين	الوافدون الى حملة السكان	مقدار الزيادة بين التعدادين السنويين	معدل الزيادة الطبيعية بين التعدادين	معدل الزيادة نحر الطبيعية بين التعدادين
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥٠	٦٦٨٦١	١٣ر٦	١٠ر٩
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩ر٦	٨٧٥٥٨	١١ر٨	٨ر٦
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢ر٩	١٤٣٩٨٦	٩ر٦	٥ر٥
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٣ر٠	١٣١٤٨٣	٥ر٩	٢ر٣
١٩٧٥	٥٣٢٧٤٩	٥٢ر٥	٢٦٩٥٩٠	٨ر٧	٥ر١
١٩٨٠	٧٩٢٣٣٩	٥٨ر٣	٢٢٣٦٧٤	١ر٥	٢ر٧
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩ر٩			

(٤٨) المرجع السابق

* المدلات حيث

تطور معدلات النمو السنوية للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمس
جدول رقم (٨)

معدلات النمو السنوية	معدلات النمو السنوية										معدلات النمو السنوية والعموميات
	الكويتيون	عربية	آسيوية	الغربية	أوراسية	أمريكية الشمالية	أمريكية اللاتينية	آسيوية شرقية	أفريقية	أخرى	
١٣٠٠	١٨ ر ٧	١٤ ر ٧	٩ ر ٢	٢٢ ر ٢	٣ ر ٢	١٢ ر ٧	١٢ ر ٧	١٢ ر ٧	١٢ ر ٧	١٢ ر ٧	٦٥ - ٥٧
٩٦	١١ ر ٦	١٠ ر ٧	٥ ر ٧	١٠ ر ٤	٤ ر ٧	١٢ ر ٥	١٢ ر ٥	١٢ ر ٥	١٢ ر ٥	١٢ ر ٥	٧٠ - ٦٥
٥٠٩	٧ ر ٢	٦ ر ٠	٦ ر ٢	٩ ر ٠	٢ ر ٢	٢ ر ٢	٢ ر ٢	٢ ر ٢	٢ ر ٢	٢ ر ٢	٧٥ - ٧٠
٨٠٧	٤ ر ٠	٦ ر ٥	١٥ ر ٨	٢٩ ص	١٨ ر ٥	١٩ ر ٩	١٩ ر ٩	١٩ ر ٩	١٩ ر ٩	١٩ ر ٩	٨٠ - ٧٥ (٤٨)
٥٠٦	٤ ر ١	٢ ر ٤	١٤ ر ٩	٥ ر ٥	٣ ر ٩	١١ ر ٨	١١ ر ٨	١١ ر ٨	١١ ر ٨	١١ ر ٨	٨٥ - ٨٠ (٤٩)

(٤٩) وزارة التخطيط . الإدارة المركزية للإحصاء . المجموعة الاحصائية السنية ١٩٨٥ . المدة الظني والخزون . الكويت في الكثير ١٩٨٥ . جدول رقم (٩) ص ٢٥

(٥٠) وزارة التخطيط . الإدارة المركزية للإحصاء . التعداد العام للسكان ١٩٨٥ . الجزء الأول . الكويت في ابريل ١٩٨٦ . جدول رقم ٢٤

التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي يتشتمل عليها في
سنوات التعداد

جدول رقم (٩)

سنوات التعداد والنسبة	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥١)		١٩٨٥ (٥٢)	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الكويتية	٤٣٠٢٥	٢٢.٣	٦١٦٨٢	٢٥.٩	٨٦٩٧١	٢٩.٠	١٠٣٤٧٤	٢١.٢	١٢٣٥٦٠	١٨.٧
العربية غير الكويتية	٩٦٢٧٢	٥٢.٣	١٢٠٧٨٤	٥٠.٨	١٤٦٧١٨	٤٩.٠	٢٢٨٥٢٥	٤٦.٩	٢٤٩٠٢١	٣٧.٦
الاسيوية غير العربية	٤٠٧٩٢	٢١.٩	٥٠٨٧٣	٢١.٤	٦٢٥٨٦	٢٠.٩	١٤٥٧١٦	٢٩.٩	٢٨١٨٠٦	٤١.٥
الافريقية غير العربية	٢٧٠	٠.٢	٣٠٥	٠.١	١٠٧	—	٨١٠	٠.٢	١٠٢٨	٠.٢
الامريكية والاوربية	١٩٠٧	١.٠	٢٤٨٣	١.٠	٣٠٢٢	٠.٧	٥٥١٩	١.١	٧١٦٣	١.١
غير مبين	١٢	—	٤٧	—	—	—	—	—	—	—
منعطلون	٢٣٢٦	١.٣	٢٣٢٢	١.٠	١٢٩٤	٠.٤	٣١٧٩	٠.٧	—	—
جملة غير الكويتيين	١٤١٢٧١	٧٦.٧	١٧٦٨٢٧	٧٤.١	٢١٢٣٣٨	٧١.٠	٢٨٣٧٤٩	٧٨.٨	٥٣٩٠٢٨	٨١.٣
الجملة العمومية	١٨٤٣٠٤	١٠٠.٠	٢٣٨٥٠٩	١٠٠.٠	٢٩٩٧٠٩	١٠٠.٠	٤٨٧٢٢٣	١٠٠.٠	٦٦٢٥٨٨	١٠٠.٠

(٥١) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جداول ١٠٩ ، ١١٠ ، ص ١١٧-١١٨ .

(٥٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، العدد الثرون - الكويت في نوفمبر ١٩٨٣ ، جداول ٩٢ ، ٩٣ ، ص ١٠٦ .

(٥٣) وزارة التخطيط ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جدول رقم (٢) .

- قوة العمل (١٢) سنة فاكتر في عالمي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

- قوة العمل (١٥) سنة فاكتر في اعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

* حيث النسب .

التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات
جدول رقم (١٠)

١٩٨٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٦٥

سنوات التعداد والنسبة	١٩٨٥		١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الدول العربية	٢٤٩٠٣١	٥٩,٦	٢٢٨٥٢٥	٦٩,٠	١٤٦٧١٨	٦٨,٣	١٢٠٧٨٧	٦٨,٢	٩١٣٧٢	٦٨,٢
الدول الآسيوية	٢٨١٨٠٦	٦٨,٠	١٤٥٧١٦	٦٩,٤	٦٢٥٨٦	٢٨,٨	٥٠٨٧٣	٢٨,٦	٤٠٣٩٢	٢٨,٦
الدول الأمريكية	١٠٢٢٨	٠,٢	٨١٠	٠,٢	١٠٧	٠,٢	٣٥٥	٠,٢	٢٧٠	٠,٢
الدول الأمريكية والأوروبية	٧٦٦٣	١,٤	٥٥١٩	١,٠	٢٠٣٣	١,٤	٢٤٨٢	١,٤	١٩٠٧	١,٤
غير مسمين	—	—	—	—	—	—	٤٧	٠,٠	١٢	٠,٠
منعطلون	—	—	٣١٧٩	٠,٦	١٢٩٤	١,٣	٢٣٣٢	١,٧	٢٣٦٦	١,٧
الجملة العمومية	٥٣٩٠٢٨	١٠٠,٠	٢٨٣٧٤٩	١٠٠,٠	٢١٦٣٣٨	١٠٠,٠	١٧٦٨٢٧	١٠٠,٠	١٤١٢٧٩	١٠٠,٠

(٥٤) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدولاً رقم ٩٢ ، ص ٩٣ ، ١٠٦ .

(٥٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق .

* قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) في عامي ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .

* قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) في أعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

* حسب النسب .

جدول رقم (١١)
حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي
الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات (١٩٦١ - ١٩٨٤)

الفترة ما بين التعدادات	حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود			حركة السكان غير الكويتيين وصافي الهجرة السنة
	صافي الحركة	مغادرون	قادمون	
٨٢٩٩ -	٨٦٧١ -	٢٢٦٦٤٢	٢١٩-٧١	١٩٦١
	٢٠٢٠٢ +	١٦٠٧٥٢	١٨١٩٥٠	١٩٦٢
	٢٧٨٢٤ -	٢٨٨٦١٢	٢٦٠٧٨٨	١٩٦٤
	٦٣١ +	٥٧٥٣٤١	٥٧٥٩٧٢	١٩٦٥ (٥٥)
٢٩٤٦٥٢ +	٢٠٧٩٠ +	٦١٥٦٤١	٦٤٦٤٣١	١٩٦٦
	١٣٦٦٨٤ +	٤٦٥٥٣٤	٦٠٢٢١٨	١٩٦٧
	١١٩٦٩٥ +	٦٤٣٠٣٨	٧٦٢٧٢٣	١٩٦٨
	٦٨٥٢ +	٦١٣٣١٧	٦٢٠١٦٩	١٩٦٩
٢١١٩٨٢ -	٤١٠١٧ -	٦٥٨٨٧٩	٦١٧٨٦٢	١٩٧٠
	١٧١٠٠ -	٦٧٤٤٩٥	٦٥٧٣٩٥	١٩٧١
	١٠١٨٩٦ -	٧٩٠٢٢٩	٦٨٨٤٣٣	١٩٧٢
	٢٨٢٨٨ -	٧٠٨٠١٠	٦٦٩٧٢٢	١٩٧٣
٣٢٠٩٢٧ +	١٣٦٨١ -	٧٧١٢٢٦	٧٥٧٥٤٥	١٩٧٤
	٥٤٢٣٠ +	٨٦٣٩٣٠	٩١٨١٦٠	١٩٧٥
	٧٥٥٦٧ +	٩٧١٧٧٧	١٠٤٧٣٤٤	١٩٧٦
	١٤٤٩٣٩ +	١١٦٢٢٥٢	١٣٠٧١٩٢	١٩٧٧
٦٩٥٨٢ -	٧١٩٧٣ +	١٢٧٧٣٠٦	١٣٤٩٢٧٩	١٩٧٨
	٢٥٧٨٢ -	١٣٨٧٠٠٣	١٣٦١٢٢١	١٩٧٩
	٣٦١ +	١٢٦٥٣٧٠	١٢٦٥٧٣١	١٩٨٠
	٩١٨٤٣ +	١٠٩٥٣٢٦	١١٨٧١٦٩	١٩٨١
٢٢٥٧١٥ +	٥٩٠٤٨ -	٩٦٠٤٦	٩٠١٥٩٨	١٩٨٢
	٧٢٢٠٧ -	٨٢٣٣٦٣	٧٩١٠٥٦	١٩٨٣
	٢٠٤٣٢ -	٩٣٠٢٣٠	٨٩٩٧٩٨	١٩٨٤ (٥٦)
٢٢٥٧١٥ +	الاحتمالي			

(٥٦) من عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٥ الأرقام المطلقة للقادمين والمغادرين مستقاة من المجموعة الإحصائية السنوية لعام ١٩٦٦ ، جدول ١٨ ، ص ٣٩ .

(٥٧) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء . المجموعة الإحصائية للأعوام ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

* الأرقام المطلقة لصافي الحركة وصافي الهجرة حسب .

صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات
جدول رقم (١٢)
(١٩٧٢ - ١٩٨٤)

السنوات	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
الدول العربية	٨٩٦٦٢ -	٦٥٠٥١ +	٤٣٧ +	٧٧٠٠٠ +	٤٣٠٢٧ +	١٣٦٦٢٥ +	٧١٤٥٥ +	٢٧٨٤ -	٧٢٨٤ +	٧٥٥٧ +	١١٨١٧ +	٢٥٨٢ -	١٤٠٨٢ -	٢٦٦٧ +
الدول الآسيوية	١١٥٩٠ -	٥٢٥٥ -	١٣٦٦٢ -	١٢٥٣١٠ -	٣٣٢٠٧ +	١٧٨٠٧ +	١٨٦١١ -	١٧٩٣١ -	١٧٩٣١ -	٧٣٥٤٨ -	١٣٦٠٧ -	٣٤٨٣٣ -	١٠٥٧٠١ -	٣٠٣٢٩ -
الدول الأفريقية	١٠ +	٦٩ -	١١٥ +	١٧١ +	١٣٩ -	١٦١ +	١٨ +	٤٢ +	٩٦ +	٩٦ +	٩٦١ +	١٧١ -	١٦٥ -	١٠ -
الدول الأوروبية	١٣٦١ -	١٥٠٤ +	٦٦٦١ -	٩٠٧٢٠ -	١٠٧٢٠ -	٣٩٩٦١ +	١٧٤٧٥ +	٦٥٥ +	٣٥٦٨ +	٣٥٦٨ +	٣٣٨٦١ +	٢٦٣٢١ +	١٧٩٥٥ -	٦٦١٥ -
الدول الأمريكية	٣٢٨٦ +	٢٢٦ +	٧٠٠٠ -	١٥٧١٠ -	١٥٦١٠ +	٢٤٣٢٠ +	٧٨٠ -	١٣٣١١ -	١٠٠٠٠ +	١٠٠٠٠ +	١٠٠٠٠ +	١٠٠٠٠ -	١٠٠٠٠ -	١٠٠٠٠ -
دول أخرى	٧٦٨ -	٣٧٢ +	٣٥ -	٢٢٤ +	٩٤ +	١١١١ -	٤٥ -	٢٠ +	٢٠ +	٢٨٤ +	١٧٨٧ +	٧٥٦١ -	٧٨٦١ -	٥٠٠ +
حاصل غير الكريسي	١٠٠١٨٩٦ -	٦١٧١٢ +	١٣٦٨١ -	٥٤٢٢٠ +	٨١٥٨٦ +	١٤٦٤٣٣١ +	١٨٩١٨٠ +	١٧٨٥٢٠ -	٢٥٨٢٠ +	١٦١١ +	١٣٣٧١٩ +	٧٢٠٩٥٠ -	١٢٢٢٠٧ -	١٢٢٠٠٠ -

(٥٩) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ، ١٩٨٢ ، العدد التاسع عشر ، الكويت في ديسمبر ١٩٨٢ ، جدول رقم ١٨٧ ، ١٨٨ ، ص ٢٢٢ .

(٥٩) وزارة التخطيط ، المجموعة الاقتصادية السنوية ١٩٨٣ ، المجلد الثاني ، جدول رقم ١٨٥ - ١٨٦ ، ص ٢١٨ .

ص ٢٢٢ .

٢٣٦ (*) وزارة التخطيط، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥، المربع السابق، جدول رقم ١٨٥، ص ٢١٨.

٢٣٧ (*) وزارة التخطيط، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٣، المربع السابق، جدول رقم ١٨٦، ص ٢١٨.

نسب حالات منح تصاريح الإقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات ١٩٧٣ - ١٩٨٢
جدول رقم (١٣)

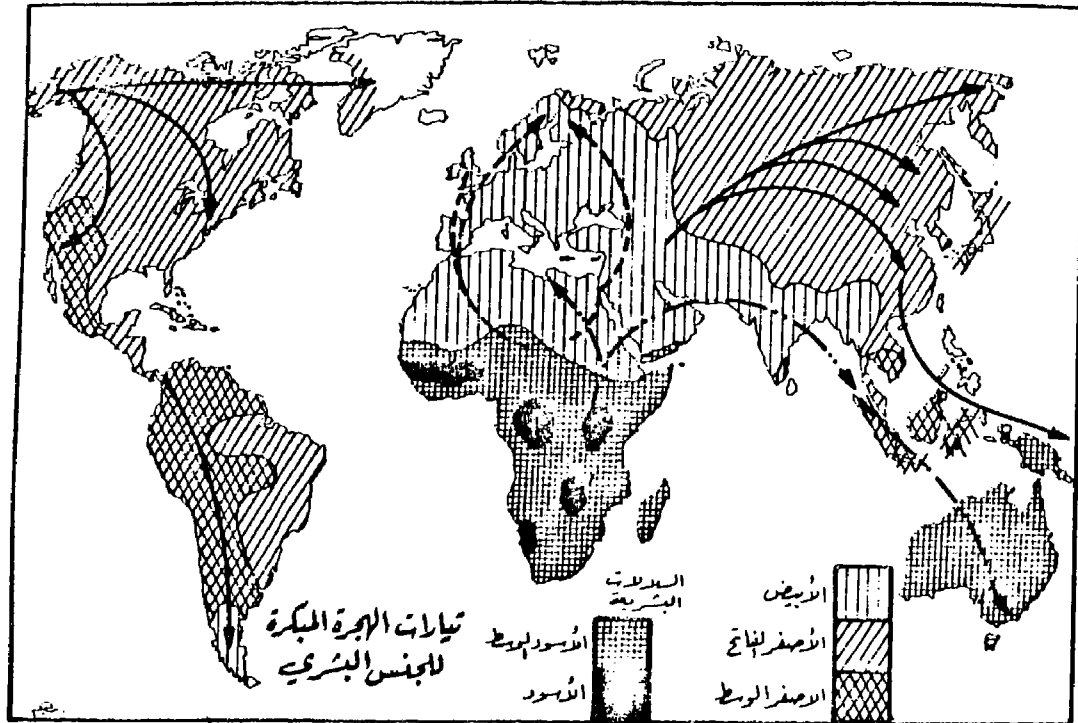
مجموع تصاريح الإقامة (عمد)	التوزيع النسبي لتصاريح الإقامة %							السنة
	المجموع	أخرى	أمريكية	أوربية	أفريقية	آسيوية	عربية	
٣٤٧٨٢	١٠٠	-	٠.٢	٢.٢	٠.٢	٣٦.١	٦١.٢	١٩٧٣
٤٦٤٣٥	١٠٠	٠.٦	٠.٦	٢.٠	٠.٥	٢٨.٨	٦٧.٥	١٩٧٤
٧٢٤٣٥	١٠٠	٠.٦	٠.٦	٣.٢	٠.٤	٢٤.٨	٦٠.٩	١٩٧٥
٨٠٢٤٠	١٠٠	٠.١	٠.٧	٢.٨	٠.٢	٢٩.٣	٥٥.٧	١٩٧٦
١٢٨٧١٩	١٠٠	٠.٥	٠.٩	٢.٣	٠.٦	٢٨.٤	٥٦.٨	١٩٧٧
١٤٠٦٩١	١٠٠	٠.٢	٠.٦	٣.٠	٠.٣	٤٤.٨	٥١.١	١٩٧٨
١٠٢١٠٩	١٠٠	٥.٣	٠.٧	٢.٠	-	٤٩.٦	٤٣.٤	١٩٧٩
٩٩١٦٢	١٠٠	٥.٤	٠.٦	١.٨	-	٤٦.٩	٤٥.٣	١٩٨٠
٩٤٧٦٧	١٠٠	٧.١	٠.٦	١.٣	-	٤٩.١	٤١.٨	١٩٨١
١٤٥٨٤١	١٠٠	٨.٨	٠.٥	١.١	-	٥٢.٥	٣٥.٦	١٩٨٢

(٦١) حسب النسب الواردة في الجدول بالرجوع إلى المصدر التالي :-
وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المربع السابق ، جدول رقم (٣٣) ، ص (٤٧) .

ملحق الخرائط والاشكال البيانية

فهرست الخرائط والاشكال البيانية

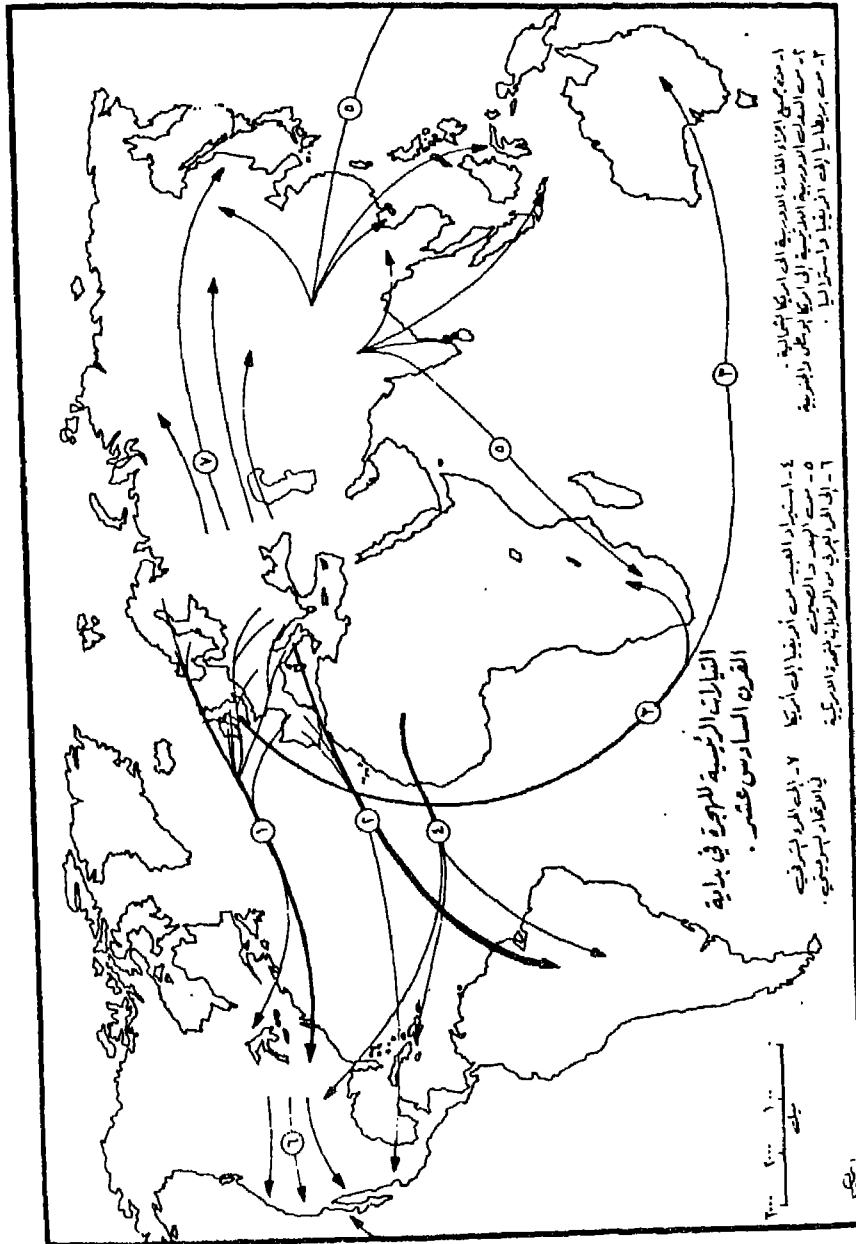
الرقم	العنوان	رقم الصفحة
١ -	تيارات الهجرة المبكرة للجنس البشري .	
٢ -	التيارات الرئيسية للهجرة في بداية القرن السادس عشر .	
٣ -	تيارات الهجرة الدولية في القرن العشرين .	
٤ -	التدفقات الدولية لهجرة القوى العاملة في بداية الثمانينات من هذا القرن .	
٥ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٥٧ .	
٦ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت (٧٠ - ١٩٧٥) .	
٧ -	نسبة صافي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة الزمنية (١٩٧٥ - ١٩٨٠) .	
٨ -	نسبة صافي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) .	



شكل (١)

المصدر -

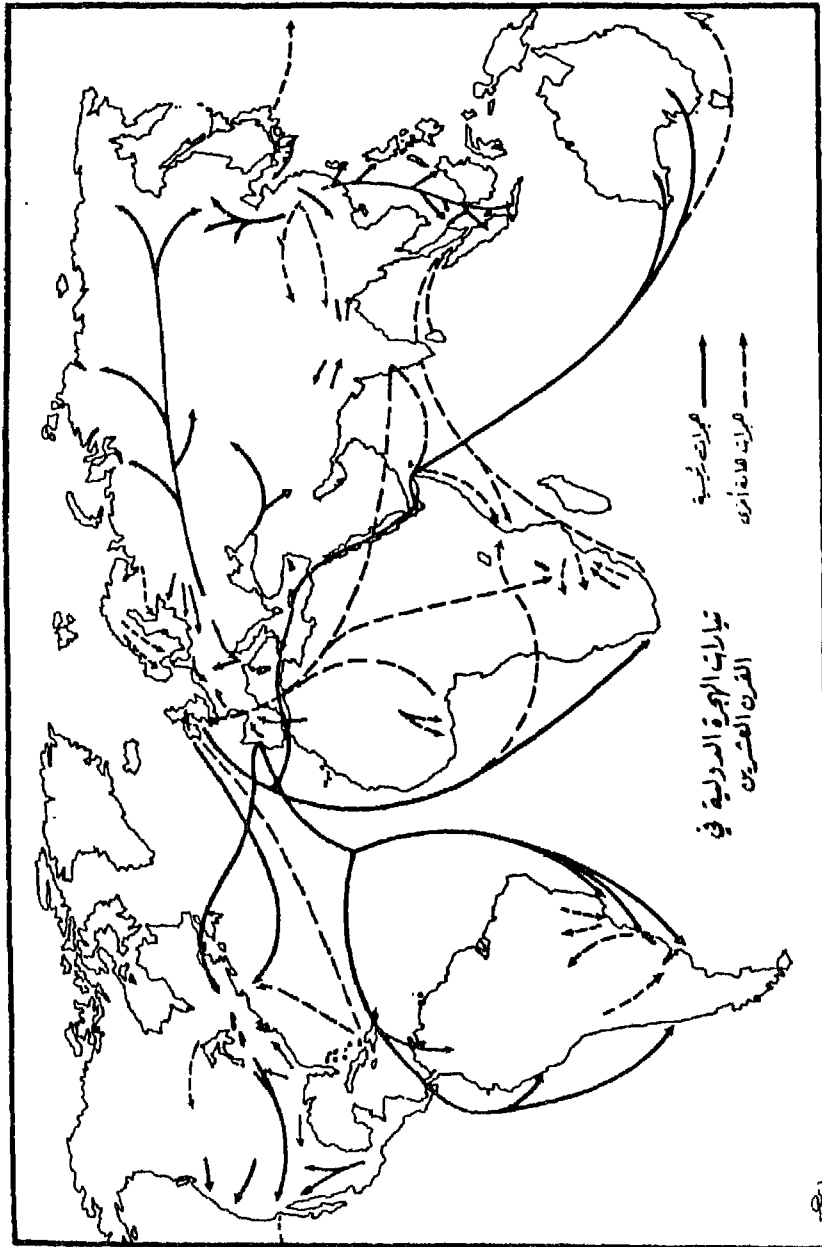
— Samuel N. Dicken, Forrest R. Pitts, Introduction To Cultural Geography, u.s. of America, 1970, Figure 3.2, p. 37.



المصدر :

(۲) شکل

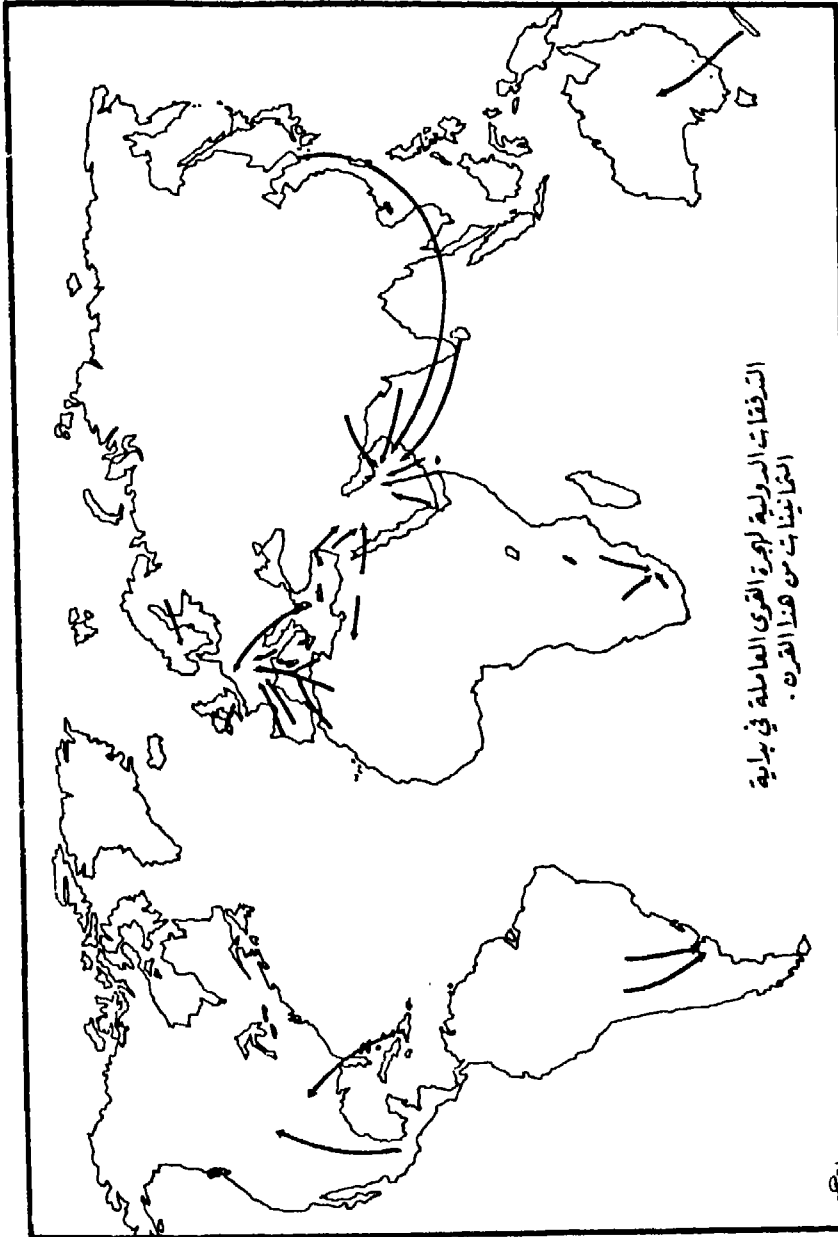
—Op. Cit. Figure 4.1.p.45.



شكل (٣)

المصدر :

— Charles Whyne Hammond. Elements Of Human Geography, Second Edition, London, 1985, Figure 6.3, p.61.



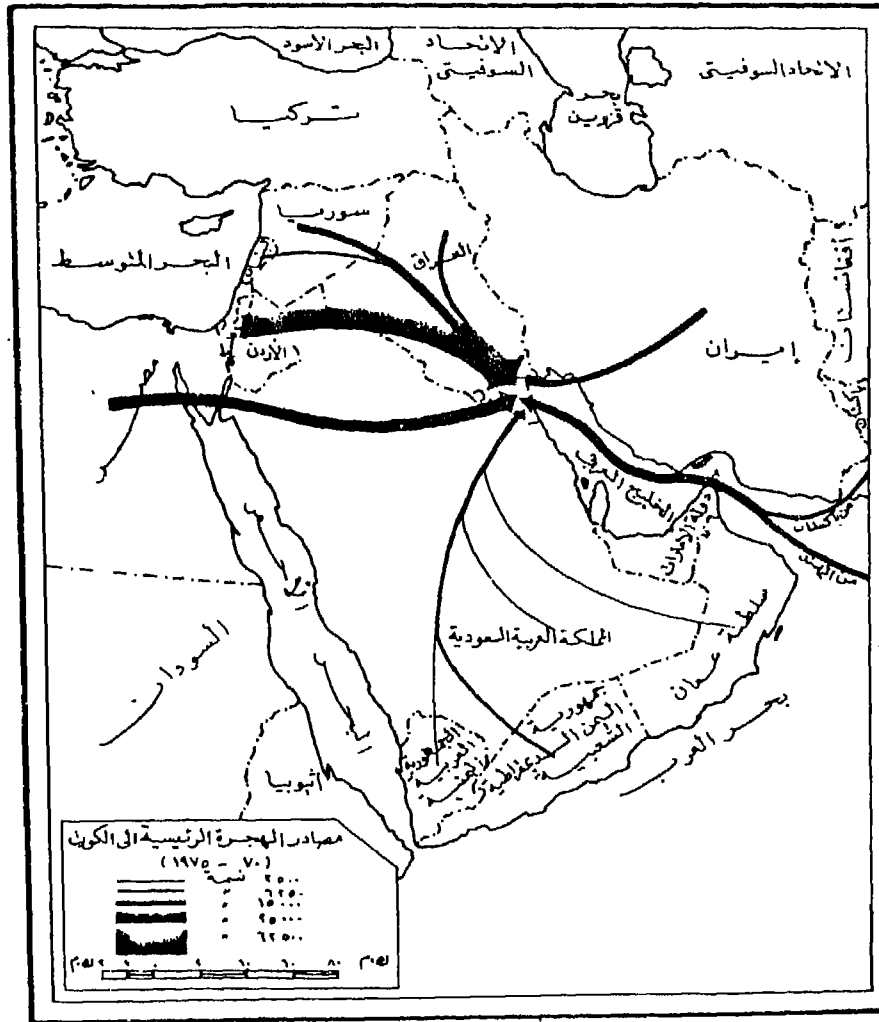
شكل (٤)

المصدر :

— James L. Newman, Gordon E. matzke, Population, Patterns, Dynamics, and Prospects, U.S. Of America, 1984, Figure 7.13, p.185.



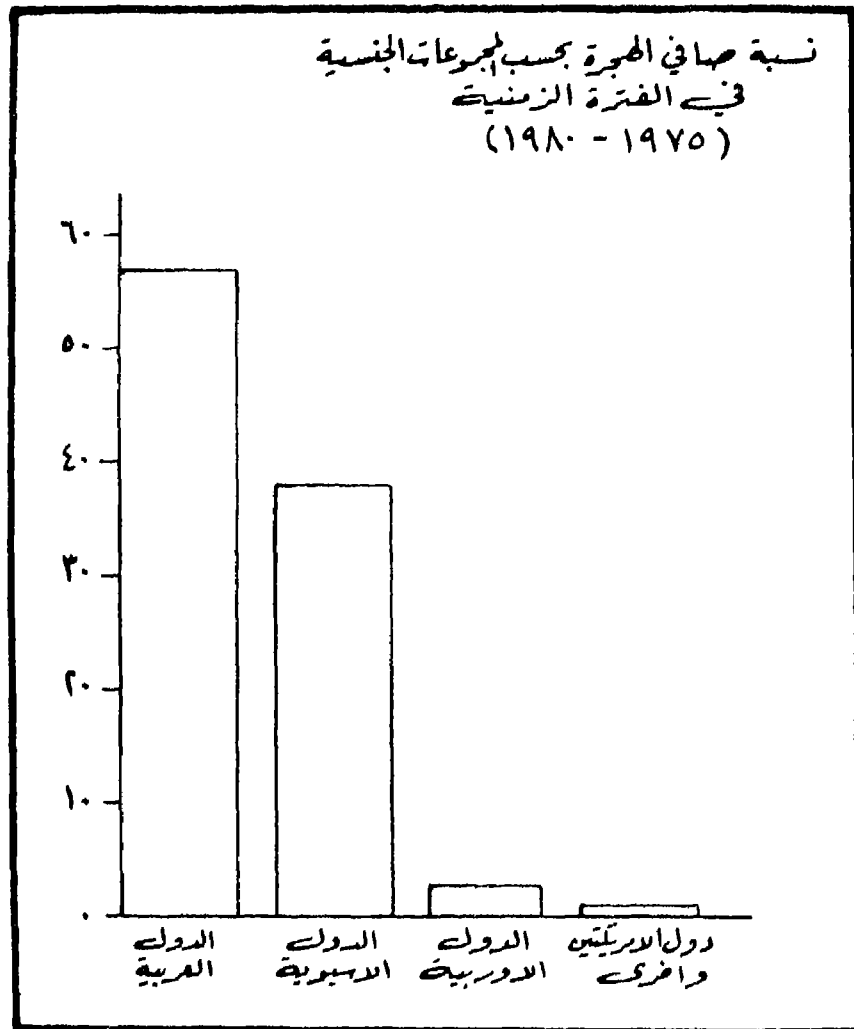
١٠ - أحمد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ ، شكل رقم (٦) ، ص ٤٧ .



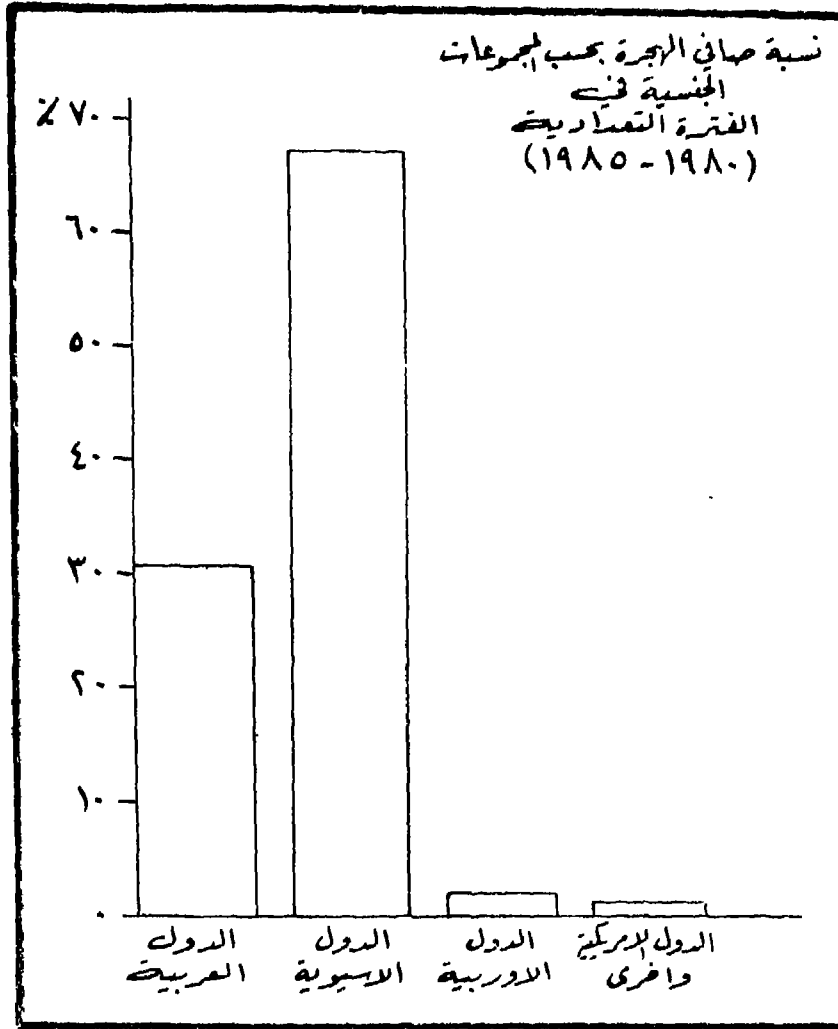
شكل (٦)

مصدر هذه الخريطة -

- احمد حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، شكل رقم ٧ ، ص ٤٩ .



شكل (٧)



شبكة (٨)

المصادر

أولاً : المصادر العربية :

- ١ - احمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ .
- ٢ - احمد علي اسماعيل ، اسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٣ - حسن الهداوي ، الجنسية ومركز الاجانب واحكامهما في القانون الكويتي ، الكويت ١٩٧٣ .
- ٤ - محمد غانم الرميحي ، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ٥ - مساعد حسن المعيم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف أنواع الهجرة (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في اغسطس ١٩٨٥ .
- ٦ - مساعد حسن المعيم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ .
- ٧ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٠ ، تحليل البيانات ، الدراسة الرابعة ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، الكويت في يولية ١٩٨٣ .
- ٨ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، تعدادات السكان بدولة الكويت للاعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .
- ٩ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، المجموعات الإحصائية السنوية للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .
- ١٠ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، دليل نظام الإحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت في يونيو ١٩٨٤ .
- ١١ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ .
- ١٢ - وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، النشرة الإحصائية الشهرية للإحصاءات الحيوية ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ .
- ١٣ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ .
- ١٤ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة للاعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ .

ثانياً : المصادر الاجنبية :

- 1 - Bogue, D.J. Principle of Demography, Wiley, New York, 1969.
- 2 - Bogue, D.J. Techniques and Hypotheses for the study of Differential Migration: Some Notes from an Experiment with United States data, proceedings of the international conference, 2, session 4, No. 114. 1961.
- 3 - Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass, 1980.
- 4 - Charles Zhyne Hammond, Elements of Human Geography, second Edition, London, 1985.
- 5 - Eversley Lord, "The Decline in the Number Agricultural Laboures in Great Britan" Journal of the Reyal Statistical Society, 10, England, 1907.
- 6 - G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982.
- 7 - Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965.
- 8 - Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, the Methods and Materials of Demography, condensed Edition by Edward G. Stockwell, Academic Press, Ohio, New York, 1976.
- 9 - Herberle, R. The Causes of the rural — Urbon Migration: A Survey of German Theories, American Journal of Sociolo-gy, 43, 1938.

- 10 - James L. Newman, Gordon E. Matzke, Population Pattern, Dynamics, and Prospects, U.S. of America, 1984.
- 11 - John I. Clarke, Population Geography, 2nd Edition, England, 1972.
- 12 - Lee, E.S. A Theory of Migration, Demography, 3. 1966.
- 13 - Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975.
- 14 - Samuel N. Dicken, Forest R. Pitts, Introduction to Cultural Geography, U.S. of America, 1970.
- 15 - Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University press, Cambridge, 1959.
- 16 - United Nations: Analytical Bibliography of Statistics on International Migration Statistics, 1925 - 1950, population studies, series A. No. 24, 1955.
- 17 - United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, statistics for selected countries, 1918 - 1954, population studies, series A. No. 12, 1958.
- 18 - United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947, population studies, series A. No. 11, 1953.
- 19 - Zelinsky, W. "The hypothesis of the mobility transition," Geographical Review, 61, 1971.

شخصيات وآراء

قد يكون سائدا في بعض الأذهان أن العرب القدامى . ولا سيما في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، كانوا على الاطلاق أرباب فصاحة وبلاغة ، ينظمون الشعر ويرتجلون الخطب ، ويتحدثون في حياتهم دون خطأ ولا لحن . هذا الاعتقاد ، إن صح في جملة ، فإنه غير صحيح على إطلاقه ، وهو ينطوي من بعض وجوهه على نظر .

وفي اعتقادنا أن الرواة الأوائل في مستهل حركة التدوين النشطة عند العرب ، كانوا على قدر من الحيرة تجاه عدد وافر من النصوص التي كانت تنطوي على عبارات تفتقر إلى الاطراد والاتساق من الوجهة اللغوية النحوية . ثم ما لبثت هذه التركة الحافلة أن آلت إلى اللغويين والنحاة وجعلتهم في غمار ركام هائل من كلام العرب ، منظومه ومنثوره . وما كان أشق عليهم أن يلموا جنبات هذا الخليط من كلام القبائل وبقايا لهجاتها ، ويشرعوا في تلك المهمة التاريخية العسيرة ، مهمة الجمع ثم التقعيد .

ومعلوم في تاريخ التراث العربي أن أبا عمرو الشيباني وحده ، جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري أيضا جمع شعر خمس وعشرين قبيلة ، عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .

ومع ذلك ، ومن خلال تلك الجهود العلمية الدائبة ، بدا جليا أن أولئك النحاة واللغويين ، برغم إنجازاتهم الباهرة على ذلك الصعيد ، قد لقوا عنتا في تلك المسيرة العلمية الوعرة . لقد استوعبوا أساليب التعبير عند العرب وأفلحوا في استقراءها ، حتى تم لهم نظمها في قواعد مطردة جمّة ، بفضل جنوحهم إلى منهج علمي سديد تجلّى باعتمادهم مبدأ القياس . على حين استعصت عليهم في الوقت نفسه أساليب قليلة أخرى ، فظلت خارج إطار التقعيد ، وكأنها الأطيّار التي انشقت

اللغة المحكية في أدب الجاهل

عمر الدقار

بلغاتهم . ولهذا كانت قبيلة هذيل التي سكنت في ربوع مكة والطائف - وهي تمت إلى قريش بأقوى نسب - في رأس القبائل التي يوثق بشعرائها ويحتج بأقوالهم في مجال اللغة والنحو والتصريف ، شأنها في ذلك كشأن قريش وقيس وأسد وتميم ، وبعض كنانة وطىء . . . على حين امتنع هؤلاء العلماء عن الأخذ بأشعار إيراد وتغلب ، كما أحجموا عن الاستشهاد بشعراء لحم وغسان لمجاورة المناذرة والغساسنة بلاد الأعاجم من فرس وروم .

كل ذلك يعني أن نظرة النحويين واللغويين إلى أسلافهم العرب لم تكن - برغم إجلالهم الشديد لهم - نظرة واحدة مطلقة ، وإنما كانت نظرة مفاضلة وتقويم ، أساسها التعليل والتحليل .

ومن الطبيعي في كل مجتمع أن ينطوي أفرادها على تباين في المدارك العقلية ، وفي الطباع النفسية ، والأحوال المعيشية ، وأن يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني . وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والنحوي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الاسلام وإلى عهد الفتح الذي شهد احتكاكا كبيرا بين العرب وسائر الأمم . . . حتى أن من الأعراب من كان يتلو بعض آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطيء ينم عن جهل بمضمونها . وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المسلمين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن ، فغضب الخليفة لذلك وأزاحه عن الامامة .

وفي كتب السالفين أخبار جمة في موضوع اللحن واللاحين ولا سيما ما كان يصدر عن بعض الكبراء في تلك العصور المتقدمة . من ذلك أن زياد بن أبيه - والي العراق - أوفد ابنه عبيدالله إلى الخليفة معاوية ، فكتب إليه معاوية : « إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من

عن سربها ، وانحرفت عن مسارها لتحلق في أجواء مغايرة . وقد ارتضت جبهة نحاة الكوفة هذا الواقع اللغوي الموروث ، ولم تجد فيه شذوذا ولا انحرافا ، بل جعلته في منزلة تقارب منزلة المطرد . وما من ريب في أن منطلق كثير من قدامى اللغويين في هذا الصدد ، إنما كان حسن الظن المطلق بالعرب السالفين إلى مدى يقارب العصمة ، وأن كلامهم يتسم إطلاقا بالصحة والسلامة والكمال ، لأنهم أهل فطرة وذوق سليقة . على حين كان ثمة علماء آخرون ، ولا سيما من أصحاب المذهب البصري أقرب إلى الحقيقة ، إذ عدوا بعض ما كان من هذا القبيل شاذا لا يعتد كثيرا به . وأغلب الظن أن جبهة النحاة ، تحت تأثير مشاعر الاجلال تجاه الأجداد الأقحاح ، لم يشاؤوا الذهاب إلى أبعد من هذا المدى ، حين كبر عليهم أن ينسبوا إلى بعض العرب الخطأ ويصموهم باللحن ، مع أن مثل ذلك قد يعرض لأي ناطق ، ولا شيء يمنع وقوعه في العقل ولا في الواقع . والمرء - مهما تبلغ منزلته من الدراية - غير معصوم من الزلل ، وما كل القدامى على مستوى عال من سلامة القول ، كما أنهم ليسوا جميعا على قدر رفيع من بلاغة التعبير .

ومن جهة أخرى فإن فقهاء اللغة العرب أنفسهم لم يسووا ، في مجال الاحتجاج ، بين قبائل العرب ويجعلوهم على صعيد واحد . لقد عمدوا إلى تصنيف هذه القبائل في سلم الفصاحة ، فأحلوا بعضها في منزلة عالية ، كما أباحوا الاستشهاد بأشعارها على نحو مطلق ، على حين وقفوا تجاه قبائل أخرى موقف الريب ، وتخرجوا من الأخذ بكلامها والاستشهاد بأشعارها . وكان منطلقهم في ذلك كله ركيئا ، قوامه دراسة موطن القبيلة على الصعيد الجغرافي ، وملاحظة مدى صفاء لغتها تبعا لبعدها أو قربها من تخوم الأعاجم ، واحتمال احتكاكها بهم ، وتأثر لغتها

طريقة برغم فشو العامية بينهم ، وقلة تمرسهم بأصول اللغة وقواعد النحو .

ويبدو أن سمة الفصاحة غدت في عهد مبكر من العصور العربية مطلباً بعيد المنال حتى لقد عز وجود من كانوا بارئين من اللحن بين الفصحاء ، ولا سيما من أهل المدن ، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال^(٦) : « لم أر قرويين أفصح من الحسن البصري والخباج ، وكان أبو عمرو - على ما زعموا - لا يبرئهما من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قروياً قط لا يلحن في حديثه » .

وما اللغة العربية في هذا المجال - شأنها في ذلك كشأن سائر اللغات - سوى ظاهرة اجتماعية ، ولهذا نمت وازدهرت ونضجت ، كما اعترأها في الوقت نفسه بعض الفساد وشابها شيء من الخلل . كذلك بوسعنا أن نرجح - تبعاً لذلك - أنه كانت هناك في بواكير الوجود العربي لغتان أو لهجتان ، أو بكلمة أدق ، كان هنالك على هذا الصعيد اللغوي مستويان ، إذ لم يكن يخلو كلام بعض السالفين من الغرابة اللفظية . وهذا كله لا يسمح بالاعتقاد أن لغة العرب القدامى كانت على درجة واحدة من الاطراد والاستواء ولا من السلامة والنقاء .

كان شعر الفرزدق في عصر بني أمية يمثل الطابع الرصين بجزالة ألفاظه ، فنعتة النقاد بأنه كمن ينحت من صخر ، على حين كان شعر جرير في الطرف الأسلوب الآخر . لسهولة لفظه ورقة عبارته ، فنعتة النقاد بأنه يغرف من بحر . وكان طبعياً في هذا الصدد أن تروق أشعار الفرزدق صفوة الرواة وخاصة العلماء ،

لسانه^(١) ، وكانت فيه لكثرة إذ نشأ مع أمه بين أعاجم البصرة . وقد قال عبيد الله مرة لأعوانه : « افتحوا سيوفكم » ويريد : « سلوا . . . »^(٢) .

كذلك سأل معاوية جماعة من أهل العراق عن حال ولده عبيد الله وكان واليه ، فقالوا : « ظريف ، على أنه يلحن »^(٣) .

وروي أن بشر بن مروان والي الكوفة وشقيق عبد الملك ، قال مرة لغلّامه ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً : « ادع لي صالحاً » فصاح الغلام : « يا صالحاً » ، فقال له بشر مصححاً : « ألق منها ألف » عندئذ تدخل عمر بن عبد العزيز لدى سماعه الخطأ ، فقال مصححاً : « وأنت فزد في ألفك ألفاً » . وبشر أموي قرشي .

وقيل يوماً لأبي حنيفة : « ما تقول في رجل أخذ صخرة ، فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده ؟ » قال : « لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » أي بجمل في مكة اسمه أبو قبيس^(٤) . وقد عقد الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » فصلاً أورد خلاله الكثير من أخبار اللاحنين في تلك العهود القديمة .

وقد لاحظ الجاحظ أنه^(٥) : « لأهل المدينة ألسن ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبرة جيدة . واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . فالجاحظ يميز بين الفصاحة - وهي تكاد تقتصر على أهل البادية لثقافتهم - وبين البلاغة ، وهي سمة أو موهبة قد يتحلى بها أهل المدن ، فيبدعون عبارات جميلة وصورة

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢ : ٢١١ ت : عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١١ .

(٣) كتاب الامالي ، ابو علي القالي ١ : ٥ دار الكتب المصرية ١٩٥٣ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٢ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ١٨٩ .

يعكس في كلامه آراء كثيرين ممن لم يجدوا أنفسهم في شعر أبي تمام .

وثمة أمثلة متناثرة في كتب المتقدمين تشير إلى هذه الثنائية في الأدب ، ثنائية العسر واليسر ، من مثل قول أحد الأعراب حين استمع إلى أبيات عويصة المعاني لأحد المحدثين فعرس عليه فهمها وتذوقها ، فقال بامتعاض : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » .

وكانت فئة الرجاز في العصر العباسي تمثل أشد الأوساط الأدبية محافظة وأكثرهم تشبهاً بجزالة اللغة وغرابة الفاظها ، وكأنهم البداية الذين استعصوا على التحضر ، وهكذا كانوا يعيشون في الظل ، ويحيون على هامش الحياة الأدبية المواره ، لقلة احتفال جمهرة الجيل بمنظومهم وإشاحة وجهه عنهم . فكانت أراجيزهم أبعد عن أن تكون فنا شعبيا يستهوي جماهير الناس .

أما تيار الشعر المحدث فقد غدا بسماحة عبارته دافقا ، إذ تجلّى لدى غالبية شعراء ذلك العصر ، مثل بشار وأبي العتاهية ثم البحتري وابن الرومي ، وسائر الشعراء المحدثين الذين سارت أشعارهم على ألسنة جيل المتأدبين . وقد ذهب بعض هؤلاء الشعراء إلى مدى أبعد حين جنحوا إلى نظم المقطعات ، وزهدوا في نظم المطولات ، وحين آثروا البحور القصيرة المجزوءة دون أن يقتصروا على البحور الطويلة التامة ، وأكثر أولئك المحدثين ولا سيما الذين عاشوا في قلب المدينة وفي صميم الحضارة راقهم نظم مقطعات من خفائف الشعر ، مواكبة منهم لتيار الحداثة ، وكان قوامها إثارة السهولة في اللفظ والتبسط في التعبير . ومن هذا القبيل قول بشار بن برد في امرأة اسمها « حبي » (٧) .

لما تنطوي عليه من قوة سبك وما تحتويه من جزالة لفظ ، على حين كانت جمهرة الجيل عهدئذ تأنس بشعر جرير لما ينطوي عليه من سلاسة وعذوبة ، ورقة وسهولة ، وهكذا سارت أبياته بين الناس ، وأخذ كل فرد يترنم بها لأنها ألصق بالشاعر ، وأقرب إلى الطبع ، وأجرى على اللسان . وهذا يعني أن لغة الشعر ازدادت قريبا من أذهان العامة ومداركهم ، واشتد اختلاطهما بنفوسهم وأذواقهم . . .

ثم بلغت هذه الظاهرة أشدها في العصر العباسي ، حين جنح الشعر المحدث إلى مزيد من الرقة واليسر ، كما مالت أوزانه وقوافيه إلى الاقتضاب والخفة .

وإن ما لقيه شعر جرير من سعة الذبوع والانتشار في العصر الأموي لقيه بعد ذلك أيضا شعر البحتري في العصر العباسي ، وذلك بفضل سهولة شعره وملاءمته لغالبية الأذواق . أما شعر معاصره - أبي تمام - الذي قد يشبه من بعض الوجوه شعر الفرزدق ، فكان ينطوي على قدر من غرابة الألفاظ وجزالتها فضلا عن عمق المعاني وبعد الصور ، وهذا ما حد من سيرورة شعره بين جمهرة الناس وكاد يقصره على الصفوة من المثقفين والخاصة من العلماء . وربما كان من مؤشرات ذلك بالنسبة إلى شعر أبي تمام موقف أبي العمثيل تجاهه ، حين تصدى له خلال إلقاء بعض شعره وقال على ملأ من المجلس : « يا أبا تمام لم لا تقول ما يفهم . . . ؟ » . وهذه في حقيقة الأمر كلمة حق برغم أنه ربما أريد بها باطل . كما ينبغي هنا ألا يجرفنا عن هذه الحقيقة ما تنطوي عليه عبارة الشاعر أبي تمام من استهواء ، من خلال جوابه الذكي ورده المسكت حين قال على البداهة : « ولكن ، لم لا تفهم ما يقال . . . ؟ » . فأبو العمثيل برغم ما قد ينطوي عليه من تحامل إنما كان

شوطا واسعا ، ولا سيما حين كان يقتضيه الحال رواية الكلام منسوباً إلى أهله من أوساط الناس أو من عامتهم أو من سوقتهم . ولعل أكثر ما يرد على قلمه من هذا القبيل ما كان يدور على ألسنة الناس في لغتهم المحكية عبر حياتهم اليومية . ومما جاء في بخلاء الجاحظ على لسان موسى بن عمران^(١٠) فيما نعهده من لغة الحديث : « طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة » ، ثم يقول : « لولا أنك تريد أكثر » ، ويقول : « معك رغيف ومعني رغيف » . ويقول : « ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه » .

وأهمية العبارة لدى الجاحظ أنها تشف عن طبيعة نفوس أصحابها وتنم على وضعهم الاجتماعي ، فالثوري مثلا يقول لعياله^(١١) : « كلوا الباقل بقشوره ، فإن الباقل يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله » وكأن في هذا الكلام نمطا من الحكمة البسيطة المستمدة من تجربة العيش يسوقها الثوري في إطار تسويغه لظاهرة الحرص أو البخل لديه محاولا من خلال ذلك إقناع عياله بأن المرء يكون آكلًا حقا ومتفعًا تمام الانتفاع بطعامه إذا أكل الباقل مع قشورها ، ولكنه حين يكتفي بأكل اللب ويرمي القشر فقد مني بخسران ، وكأنه أصبح مأكولاً لأنه بذلك خسر من حر ماله .

ويدأب الجاحظ على إسماعنا كلام أصناف من الناس الذين يسعون إلى رزقهم ويمشون في حاراتهم ويتحدثون في بيوتهم ، كأن يقول واحد منهم : « هات شيئا من قلية »^(١٢) ، أو يقول سواه : « تعشيت البارحة

قل لحبي قريبني أنت نفسي وحياتي وهمومي حين أغدو وحديثي في صلاتي وقول أبي العتاهية في أرجوزته « ذوات الأمثال »^(٨) :
إن الشباب والفراغ والجددة

مفسدة للمرء أي مفسدة
أو قوله في موضوع الزهد :
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح ؟ ..
فهذه أشعار منظومة ولكنها شديدة القرب من لغة الحديث . ولعل أبا العتاهية كان يمثل قمة هذه الظاهرة ، أو ذروة هذا التيار ، حين حاول أن يتخذ في شعره من السهولة والركة والوضوح مذهبا ، وحرص على أن يسوق معظم مقطعاته وقصائده في هذا المنحى . والذي يزيد في أهمية ذلك أن هذا الشاعر كان يعي طبيعة النزعة الفنية المحدثه في أدب هذا العصر ولا يفتأ يقول^(٩) : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت » .

مشكلة لغة الحديث في الأدب

وفي مضممار النثر العربي حدث ما يقارب ذلك في العصر العباسي أيضا ، حين تبدلت حاله ، فتواری التجهم والتفقر ، وساد اليسر والترسل ، كما انزوت الخطابة بقوة نبراتها ، وتألفت الكتابة برقة جنباها . ويعد الجاحظ أبرز من يمثلون هذه الظاهرة في النثر العربي ، حتى باتت بفضل كتاباته ولا سيما في نوادره عن البخلاء أشبهه باتجاه سائد وتيار غالب . وقد خطا الجاحظ في مضممار السهولة واليسر ومجال العفوية والطبع

(٨) قيل إن هذه الأرجوزة بلغت ثلاثة آلاف بيت ، غير أن ما بين أيدينا منها بضع عشرات من الأبيات موجودة في آخر الديوان ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٤ .

(٩) البيان والنبير ١ : ١١٥ .

(١٠) كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ١٨ - ١٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(١١) البخلاء ١٠٣ .

(١٢) البخلاء ٩٧ .

في البيت»^(١٣)، أو يطلب غيره حاجة من الآخر : «أعزني مقلاكم»^(١٤). وقد يحاور رجل جاريته بأبسط الكلام وتجيبه بمثل ذلك ، كشأن يوسف بن كلخير بعد أن تغذى فأنه ضيف فرحب به وقال : «يا جارية هاتي لأبي الحسن غداء» ، قالت : «لم يبق عندنا شيء»^(١٥).

وعلى هذا الغرار من لغة الحوار الوجيه الذي يدور عادة بين اثنين يقبل خراساني عابر على ابراهيم بن السندي وهو يتغذى في ركن منعزل داخل بستان ، فيسأله ابن السندي بدهشة^(١٦) : - « تريد ماذا ؟ » فيقول :- « أريد أن أتغذى » . إنها عبارات مقتضبة تتوالى سريعا بين المتحاورين على هذا النحو من السرعة والبداية . ومن هذا القبيل من اللغة المحكية ببساطتها وعفويتها قول كاتب لكاتب دولة : « اكتب لي خطين ورخي منه » .

وكثيرا ما نبتين في كلام المتحاورين الذين ينطقهم الجاحظ ملامح لغة خاصة لفئة من المجتمع لها صفاتها وأساليب عيشها وأنماط سلوكها . فقد ينشأ شجار بين رجلين لتباين في المنازعة وتعارض في المواقف ، من مثل ما حدث لاثنتين كانا وحدهما في زورق فشرع البخيل واسمه رمضان يأكل ويلتهم زاده ، ورفيقه ينظر بشره لا يستطيع له دفعا ، ثم قال رمضان وقد أحس بنظراته : « أنا رجل حسن الأكل لا آكل إلا طيب الطعام » . وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة وأنك ستصيبني بعين ،

فاصرف عني وجهك ... »^(١٧). فعبارة « عينك مالحة » أو « ستصيبني بعين » وما إليها ، ليست من صور التعبير عند الشعراء ولا الكتاب ، ولكنها من صور اللغة المحكية لدى جمهور الناس . ومن هذا القبيل قول الثوري لمن معه^(١٨) : « الشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه » أو قول آخر جلس إلى خوان فأعجبه ما رأى فوقه من خبز شهبي : « كل رغيف في بياض الفضة » ... وما إلى ذلك من صور التعبير المعهود في لغة الحياة اليومية .

والجاحظ مراعاة منه لواقع حال شخصه ، وأكثرهم من عامة الناس ، يدير على ألسنتهم ألفاظا قد تبدو للوهلة الأولى عامية وما هي بذلك ، إنه يؤثرها لما تنطوي عليه ، فضلا عن دلالتها ، من إيماء ينم على طبيعة المتحدث ، كما أثر كلمة « نشال » على كلمة لص في إيراد لقول أحدهم^(١٩) : « الفتى لا يكون نشالا ... » أو استخدامه كلمة « قدام » في قول الآخر^(٢٠) : « ... رغيف كل منا قدام صاحبه ... » وأيضا استعماله عبارة « تحلحل لي سن »^(٢١) . فلكل من هذه الألفاظ ظلال لا تتوفر في سواها من المترادفات الأخرى .

ويعضي الجاحظ في اصطناع اللغة المحكية مشاكلة لحال شخصياته المواراة في نوادرهم ومواقفهم ، فيبلغ في ذلك مدى بعيدا حين ينطق بعضهم بألفاظ دارجة على

(١٣) البخلاء ٤١ .

(١٤) البخلاء ٤٣ .

(١٥) البيان والتبيين ١ : ١٦٢ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) البخلاء ٢٥ .

(١٧) البخلاء ٩٣ .

(١٨) البخلاء ١٠٣ .

(١٩) البخلاء ٦٧ .

(٢٠) البخلاء ١٠٣ .

(٢١) في القاموس المحيط : « حلحلهم أزالهم عن مواضعهم وحركهم لتحلحلوا » والعبارة في البخلاء ١١٦ .

أرغفته بأنها أرغفة صغار أي تنم على بخله ، على حين أنها في زعمه كبار وأن رغيها واحدا كفيل بأن يملأ الجوف فلا يحتاج معه إلى المزيد ، فقال بانفعال^(٢٥) : « يزعمون أن خبزي صغار ؟ أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيين ؟ » .

والجاحظ ، وقد أوتي ملكة التعبير العذب والبيان المشرق ، غدت اللغة طيبة بين يديه ، فراحت الألفاظ تنثال عليه بغزارة ، والعبارات تندفق عليه بيسر . وكثيرا ما يكون لديه اللفظ بمفرده موحيا وينطوي على هالة أو ظل مما يرفعه وحده إلى مقام الصورة . ولعل هذا أبين ما يكون في صدد إيراده خلال عباراته الجملة من الأفعال أو المصادر فيها أيضا معنى الحدث . وقد أورد الجاحظ خبر وليمة دعي إليها مع شيخة أبي إسحق النظام وقطرب النحوي وأبي الفتح مؤدب منصور بن زياد ، ولما كان الداعي بخيلا لم يجدوا أمامهم فوق الخوان سوى الخبز . وحين طال عليهم الانتظار عمدوا إلى ما أمامهم من الأرغفة « فأكل كل إنسان رغيه إلا كسرة ، ولم يشبعوا فرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء ، فبتموا أكلهم ، والأيدي معلقة ، وإنما هم في تنفير وتنتيف »^(٢٦) . ولنا أن نتصور القوم وهم بين الجوع والشبع يعمدون إلى تلك الكسر من الخبز يفتنونها بأناملهم أو ينتفون جزئياتها كما يفعل العصفور بمنقاره أو القط بأظفاره .

وعلى هذا الصعيد يقص لنا الجاحظ خبرا مشابها يتصل أيضا بتجربة أخرى له مع أحد البخلاء حين خرج مع شيخه أبي إسحق النظام إلى ناحية من المدينة ، وتجاوزوا الخندق ، حتى إذا مروا بمنزل الوليد القرشي ،

لسان العامة كقول أحدهم^(٢٧) : « باجنون . . . إن كثرة المضغ تقوي الأسنان » .

وقد يستلهم الجاحظ بعض الصور التعبيرية الحلوة المستمدة من حياة الناس في المكان الملائم من سياق الكلام . ففي محاولة بعضهم لاقتناع صاحب لهم بخيل وهم يمازحونه بأن يدعوهم مرة إلى طعامه ، أرادوا أن يهونوا عليه الأمر بأنها ستكون دعوة وحيدة في العمر ، ولن يتكلف سواها بعد ذلك ، فقالوا له^(٢٨) : « اجعلها دعوة ليس لها أخت » . وهذا تعبير طريف في اللغة اليومية الدارجة .

وحكى الجاحظ خبر رجل لم يأمن العودة ليلاً إلى منزله ، وخاف أن يتبعه أحد فيضربه^(٢٩) ، ففكر في أن يثق الباب على صاحبه - أبي مازن - يبيت في أدنى بيته أو في دهليزه ، وحين بصر به أبو مازن ، وقف واجها لا يحير بكلمة ، كأنما أتاها ملك الموت . فأخذ الرجل يبين ماهو فيه ، وأنه إذا انصدع عمود الصبح خرج من عنده مع أوائل المدبلجين . غير أن أبا مازن أراد أن يتظاهر بالخل وأن وجومه إنما هو بسبب السكر ، وأنه لا يعي ما حوله ، وحين عاد الطارق إلى الكلام لم يجد من صاحبه سوى عبارة واحدة يرددها على مسمعه : « سكران والله ، أنا والله سكران » . ثم أغلق الباب ودخل . والعبارة الأخيرة أوردتها الجاحظ على نحو ما ينطق بها المخمورون .

وقد يجري الجاحظ على السنة شخوصه شيئا من عبارات السوق التي تنطوي أحيانا على قدر من الألفاظ الصريحة . فقد تحدث يوما يحيى بن عبدالله بن أسيد مع صحبه ، وأبدى سخطة على الذين شهروا به وعابوا

(٢٢) البخلاء ١١٦ - ١١٧ .

(٢٣) البخلاء ٤٢ .

(٢٤) ينظر في كتاب البخلاء ٣٩ .

(٢٥) البخلاء ٥٤ .

(٢٦) البخلاء ٥٤ .

عقب فيما بدر من سورة الغضب المفاجيء ، ونتر اليد المباغت . . وما كان من نكوص القرشي ومفارقته الصبح .

استملاح العجمة اللفظية

وعلى صعيد آخر ، وفيما يتصل أيضا بوجه من وجوه اللغة العربية ، بوسعنا أن ننتين ظاهرة أخرى لم يكن بوسعها - تبعا لطبيعتها - أن تبلغ قوة التيار ، ولكنها ذات دلالة خاصة في مجال طرافة التعبير وجماليته .

فحين تكاثر الأعاجم وتمازجت ثقافتهم مع ثقافة العرب ، نجم عن ذلك التعايش تأثيرات لغوية وتعبيرية متبادلة ، ولا سيما بين العرب والفرس شطري ، المجتمع الاسلامي الجديد . وأصبح من المستحب لدى ذلك الجيل ترصيع الكلام بين الحين والحين بكلمة أو عبارة من لسان الفرس ، باعتبار ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة الوافدة التي تجلت أيضا في اصطناع شباب ذلك الجيل لبعض ملابس العجم ومآكلهم ومشاربهم ، ومجاراتهم لهم في كثير من تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم . . .

وقد لا يبدو مستغربا بعد ذلك مثلا أن نجد الجاحظ - وهو من هو في نزعة العربية - قد أدخل قدرا غير يسير من الألفاظ والعبارات الفارسية في كتبه ورسائله . وهذا الترخص في التعبير ، الصادر عن رجل هو في قمة الفصاحة وذروة البيان له دلالاته الاجتماعية ، وله أيضا دلالاته الفنية التي تنطوي عليها طبيعة الأداء وخصوصيته . وقد حفلت كتابات الجاحظ عن البخلاء بعدد وافر من الكلمات الاعجمية مثل : البرنكان والسكرجة والجردقة والفالودج والجوسق والبربند والقلنسوة والشطرنج والقيراط والنرد والقنديل (٢٨) . . .

مضى معهم . ثم تشعبت بين المتحادثين أطراف الكلام حول مسائل جمة ، ولم يشعروا إلا وقد انتصف النهار واشتد القيظ ، فلاذوا قليلا بظل جدار ، ثم وجدوا أنهم في « ساعة تذيب كل شيء » ، فاقترح الجاحظ أن يقلبوا عند صاحبهم القرشي ، يأكلون ما حضر ، ومن ثم يعودون بعد أن يستريحوا ويبتعدوا . غير أن الاقتراح لم يرق القرشي . فصاح لتوه : « هذا لا يكون أبدا » . ثم وصف الجاحظ حال القرشي البخيل ومعه صحبه ، حين مضوا يحدثونه في الأمر ، فقال يصوره (٢٧) :

« فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا » .

ولسنا الآن بصدد ما قد يذهب إليه الظن للوهلة الأولى تجاه كلمة « نتر » من أنها عامية أو غير فصيحة لكثرة دورانها على ألسنة الناس وندرة ورودها على أقلام النثرين ، أو في كلام الشعراء ، ولكن ما يعنينا هو أن الجاحظ نفسه قد عمد إلى تصوير مسلك هذا القرشي البخيل ، من خلال لحظة غضب وانفعال ، بما يوازي تلك الحركة السريعة التي قام بها صاحبها ، وذلك أيضا بكلمة واحدة هي : « ونتر يده » أذ النتر في معاجم اللغة هو انتزاع الشيء بقوة أو جذبه بشدة . وفحوى ما نود تبينه أن كلمة نتر التي تكاد تتركز في معناها مرحلة النهاية في هذه الأقصوصة ، أو يتجلى فيها حل عقدة الحدث ، تبدو لقارئها بمنزلة الصورة الواضحة لما تنطوي عليه من دلالة ومن إيجاء .

ولعل دلالتها وإيجاءها يكتسبان لدينا مزيدا من الثراء والمضاء حين نطلق لمخيلتنا العنان ، فنتصور كيف كان حال القرشي مع صحبه في وضع من الهدوء والانسجام والانبساط وما كانوا فيه من تلاصق الكتف بالكتف وتشابك اليد باليد ، ثم انقلاب ذلك الوضع رأسا على

(٢٧) البخلاء ٣٨

(٢٨) يمكن رؤية هذه الألفاظ وغيرها في كتاب البخلاء تباعا في الصفحات ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٧٨ ، ١٠٨ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ٢١ . تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٥٨

نحو ابن السندي مبادرا إلى تلبية دعوته ، ولما وجد ابن السندي أن الرجل جاد في مشاركته زاده انبرى له بقوله : « مكانك ، فان العجلة من الشيطان » . وانتصب ابن السندي واقفا ، واندفع نحو الرجل محاولا أن يثنيه عن عزمه ، ثم راح يعطيه درسا في آداب السلوك وقال له : « الآيين فيما نحن فيه إذا كنت أنا الجالس وأنت المار أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجبا لك : وعليكم السلام ؟ فإن كنت لا آكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت على حالي . وإن كنت آكل فهأنا آيين آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول هلم . وتحجب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف . . . » (٣٠) .

ولعل الجاحظ أثر هذه الكلمة الفارسية الحضارية « الآيين » فيما يبدو لنا ، لأنه وجدها معبرة عن واقع حال صاحبها ، ولم يشأ أن يورد على لسان صاحبه البخيل كلمة عربية في نحو معناها مثل : اللباقة ، أو حسن التصرف ، أو أصول التعامل ، أو آداب السلوك . . . (٣١) لأن لتلك الكلمة الدخيلة هالة وظلالا لا تتوفر فيها عداها من الكلمات . إنها كلمة عصرية تنم على التقدم الاجتماعي والتطور الحضاري . وسواء أكان صاحبها عربيا يصطنع مظاهر عصره المتمدن أو فارسيا في أصله يحتفظ بخصائص لغته ، كما يشير إلى ذلك اسمه ، فإن الدلالة الموجية باقية في هذا النمط المستحدث من التعبير .

وهذا التسامح لدى الجاحظ في تقبل بعض الكلمات من لغة الفرس واعتماده إياها في كتاباته قد يعد بدعا في لسان الضاد ، أو تفريطا بمقام العربية من وجهة نظر

وإذا جنحنا للوقوف عند بعض نصوص البخلاء على سبيل التخصيص وجدنا الجاحظ يورد بصدد حكاية العراقي والتاجر المروزي قوله حين تجاهل معرفته بصاحبه العراقي الذي كان يستضيفه ويكرم مثواه : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » . وقد أثر الجاحظ أن يشفع هذه العبارة لأهميتها ، ولأن حل عقدة أقصوصته يتركز فيها بالعبارة الفارسية الأصلية التي فاه بها المروزي بلسانه على هذا النحو : « أكراز بوست بارون بيائي شناستم » .

على أن للألفاظ الدخيلة في أدب الجاحظ ، ولا سيما في كتاب البخلاء حيزا واسعا ، ونحن واجدون في حكاية ابراهيم بن السندي (٢٩) ، عددا من الألفاظ الأعجمية ومعظمها في مجال الأطعمة والأشربة التي لم يكن للعرب عهد بكثير منها ، ثم دخلت حياتهم في إبان النضج الاجتماعي والتقدم الحضاري . فابن السندي هذا - كما حدثنا الجاحظ - « كان في غداة كل جمعة ، يحمل معه منديلا فيه جردقتان وقطع لحم سكباغ مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أشنان . . . » فالجردقتان رغيفان من الخبز الغليظ ، والسكباغ مرق يعمل من اللحم والخل ، والأشنان نوع من الأحماض تنظف به الأيدي . . وكلها ألفاظ أعجمية شاعت على ألسنة ذلك الجيل . على أن ما يهمنا في هذا الصدد هو ما ذكره الجاحظ أيضا خلال هذه القصة . فقد بسط ابن السندي زاده الذي أعده بعناية في زاوية من البستان بعيدا عن الأنظار . وكان أن عبر بقربه مار ألقى السلام عليه وهو ماض في طريقه ، فوجد ابن السندي أنه من اللباقة واللفظ أن يقول له : « هلم عافاك الله » . فما كان من الرجل العابر إلا أن انعطف

(٢٩) البخلاء ، تحقيق الحاجري ، ص ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣٠) البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ص ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣١) لعل كلمة (الاتيكيت) في بعض لغات الغرب الحديثة تقارب في دلالتها كلمة (الآيين) .

المنطق . فعلى حين كان العرب يعدونها من الأمور التي تنتقص من الفصاحة وحسن الأداء . وتعاب على الخطباء والمتكلمين . . . (٣٣) فإنهم كانوا في الوقت نفسه يهشون لها لدى القيان والغلمان ، ويرون فيها زينة تطرف الكلام . وفي شعر أبي نواس أبيات من هذا القبيل يقول في بعضها واصفاً أحد سقاة الخمرة من الغلمان في جانة ، وكان ألثغ (٣٤) .

بأي ألثغ لا ججته
فقال في غنج وإخناث
لما رأى مني خلافي له
كم لقي الناث من الناث

فقد أثبت الشاعر عبارة « كم لقي الناس من الناس » كما نطق بها الساقى تطرفاً واستملاحاً كذلك تنطوي كتب الأدب على طرائف جمة وأخبار كثيرة تتصل بهذا الموضوع ، من مثل ما جاء في كتاب « الأمالي » من شعر عذب في وصف مالك بن أسماء بن خارجة كلام إحدى الغواني (٣٥) :

وحديث أله ، هو مما
تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
نا ، وخير الحديث ما كان لحنا

ومما علق به « القالي » في معنى اللحن قوله عن ابن الأعرابي : « قد لحن الرجل يلحن لحنا فهو لا حن إذا أخطأ . . » . وكان العرب يتقبلون اللحن من الحسنات الأعجميات ويغفرون منهن الخطأ ، بل

مترممة . غير أن ألفاظاً جمة ، فارسية وإغريقية وهندية وحشية قد توغلت في حياة العرب ، ودارت على ألسنتهم ، وذلك وفق عوامل التأثير والتأثير التي تنتظمها سنن اللغات الجارية وقوانينها السائدة . ونحن نقع على هذه الألفاظ في عهود مبكرة من حياة العرب ، ومن خلال الشعر الجاهلي نفسه . بل إن القرآن الكريم قد انطوى أيضاً في بعض آياته على ألفاظ أعجمية مختلفة الأصول ، مثل : « استبرق وقرطاس وسلسبيل وسرايل وجهنم وفردوس . . . » ونحوها كانت قد دخلت العربية في أوقات سالفة ، وقد عني بدراستها وحصرها العديد من فقهاء العربية (٣٦) .

الترخص تجاه اللحن في اللغة

ثم شهد المجتمع الاسلامي في العصر العباسي تسرباً ذا شأن لكثير من الألفاظ الأعجمية نتيجة لما تم من تلاحم اجتماعي وتمازج ثقافي بين العرب والفرس ، فبالإضافة إلى ذبوع كثير من المسميات الحضارية التي دخلت حياة العرب مع أسمائها على صعيد المأكّل والمشرب والملابس وغيرها . . . كانت ألفاظ أخرى تدور أيضاً على ألسنة الناس ، وربما انعكست في كتاباتهم ، وذلك أيضاً على سبيل النظر .

والنظر في الكلام قد يبدو باللفظ الخاطيء أو الملحون . كما يبدو أحياناً في اللفظ الأعجمي أو الدخيل . والعرب أنفسهم ، على تشدهم المعهود في اللغة وفي الأداء ، كانوا يستطيعون من المرأة الحسنة والفقي المليح ما كان من هذا القبيل ، كاللثغة في

(٣٢) يمكن الرجوع في ذلك الى كتاب « المغرب » لأبي منصور الجواليقي تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ هـ .

(٣٣) يمكن الرجوع في هذا الموضوع الى ما كتبه الجاحظ بأسهاب في كتابه : « البيان والتبيين » ٧٠ - ٧٤ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(٣٤) ديوان أبي نواس ، ٢٥ تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٥) كتاب الأمالي ، لأبي علي القالي ١ : ٥ طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ وأيضاً : البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٤٧ .

يجد لتلك الظاهرة اللغوية الأسلوبية مسوغاً نظرياً يضيف به عليها صبغة مذهبية . فالجاحظ ، بجنوحه المجهود إلى التقصي ، ودأبه على بلوغ الاستنتاج العقلي والنظرة المجردة يمضي في هذا المجال ، معتمداً على أخبار مروية بعينها ، ثم يخلص منها إلى اعتماد الفكرة المنشودة .

قص الجاحظ - في كتابه « الحيوان » - مرافقته مرة لاستأذه أبي إسحق النظام ، أحد أعلام الفكر الاسلامي . وكانا يسيران معا في طريق بظاهر البصرة ، فتسلط عليهما كلب ، ولزمهما مسافة . . . ثم تخلصا منه بعد لأي ، ومضى النظام في حديثه وقد انعطف به نحو الكلب وكأنه يداعبه (٣٨) :

« . . . إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، وإن كنت بهيمة ، فاسكت عنا سكوت البهائم . . »

والذي يعيننا في هذا الصدد ان الجاحظ لم يعمد الى رواية هذا الخبر لمجرد الاطراف فحسب ، بل اتخذ منه منطلقاً لمعالجة قضية فنية ، ومحاولة لاستخلاص نظرية نقدية . فقد بسط رأيه من خلال تعليقه التالي :

« . . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : « إن كنت سبع » ، ولم أقل : (إن كنت سباع) . وأنا أقول إن الاعراب يفسد نواحر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب . لأن سامع الكلام إنما أعجبه تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فاذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، وحولته إلى صورة ألفاظ الاعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته . »

يستملحونه . ومن هذا القبيل أيضاً قول شاعر كان يستملح كلام جاريته ، وكانت فيما يبدو أعجمية (٣٦) :

أول ما أسمع منها في السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ويوضح الجاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية المحدثنة فيقول : (٣٧) « واللحن من الجواري الطراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر » ، ثم يقول : « وكانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثه السن ، مقدودة مجدولة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح »

ويبدولنا من جهة أخرى أن نطاق الترخص في اللغة قد اتسع خلال الحقبة العباسية المذكورة ، ولا سيما في مجال النثر بعد أن تفشت العجمة وضعفت السليقة ، فلم يعد الخطأ أو اللحن في الكلام من الأمور الخطيرة التي تشين المرء كما كان عليه الحال في العصر السالف ، حين كان مثلاً الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لا يفتأ يتهيب الارتجال والخطابة على ملأ من الناس ، وهو من هو في الفصاحة واللسن ، ويقول : « شيبني صعود المنابر » .

على أن أبا عثمان الجاحظ ، بما اتسم به من سعة أفق ورحابة فكر ، ينتقل بمفهوم الترخص من نطاق الخبر العارض ودلالته المحدودة إلى مجال أشمل ، ومدى أوسع ، وذلك من جهتين : الأولى أنه ارتقى بمبدول التطرف ليغدو من بعد باعثاً فنياً ، يبتغيه القارئ أو السامع في التعبير نفسه بهدف جماليته المتفردة . وقد تم ذلك لأبي عثمان بفضل ما فطر عليه من ميل إلى الدعابة والمرح . ثم حرص الجاحظ - من جهة أخرى - على أن

(٣٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٦٥ تحقيق هارون ، مصر ، ١٩٦٨

(٣٧) البيان والتبيين ١ : ١٤٦

(٣٨) كتاب الحيوان ١ : ١٣٦

وأهمية هذا الرأي تثوى في أن الجاحظ ، وهو عمدة الفصاحة ، وقمة البلاغة في لغة العرب ، يكاد يكون متفردا في مجال النقد الأدبي من خلال هذا المنحى الخاص ، تفرده على صعيد الفكر والأدب واللغة والبيان . إنه لم يشايح اللغويين والنحاة في قصر نظرتهم على اللفظ من الوجهة اللغوية ومن حيث صحته وخطئه ، فلم يأنف من الخطأ الأساسي في اللغة ، ولم ينكر الخروج على أصول النحو ، لأن للخطأ أحيانا في اعتقاده وجها يحسن تقبله ، بل إنه على العكس من ذلك ، استملح هذا اللحن ، كما استملحه النظام شيخه الكبير قبله ، فلم يشأ أن يتقعر أو يتفاسح في كلام يتوجه به إلى حيوان أعجم ، وفي معرض التفكه والتطرف ، حين جنح للمباشرة والممازحة مع ذلك الكلب الشارد . . .

ومنطلق الجاحظ في رأيه جمالي فني وليس بنحوي لغوي ، إذ البلاغة لديه هي أن تناسب العبارة مقتضى الحال . وأنه لكل مقام مقال .

كان على الجاحظ أن يختار واحدا من أمرين : فإما صحة اللفظ وفصاحته ، فيستهجن تبعا لذلك مقالة شيخه النظام لأنها وردت على ذلك الشكل الخاطيء ، وإما بلاغة التعبير وجماله ، فيستحسن كلام النظام ، على ما فيه من خلل . . . ولكن الجاحظ ضحى بسلامة اللفظ في سبيل حسن الأداء ، واثر جمال الأسلوب على صحة اللغة . وفحوى ما ذهب إليه في هذا الصدد ، أن الفصاحة في ذاتها ليست غاية في فن القول وإنما الغاية في البلاغة ، أي في طرافة العبارة ومدى تأثيرها في النفس ومبلغ قدرتها على الإيحاء . وهذا قوام العمل الأدبي .

ولكن هل كان هذا مجرد رأي عارض للجاحظ ساقه بصدد خبر مروى طارىء . . ؟

لقد تناول أبو عثمان هذه القضية أيضا في كتاب آخر له ، وهو البخلاء ، وعمد منذ أن استهل كتابه إلى تنبيه جبهة قرائه بقوله (٣٩) :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنًا ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك ، لأن الأعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده . . » .

فالجاحظ يرمي من ذلك إلى ضرورة المحافظة على النص المحكي والكلام المروي برغم خطئه أو انحرافه عن القاعدة ، لأنه بذلك يكون أدل على صاحبه ، وعلى طبيعته وشخصيته وفكره وثقافته ويثبته . . . ولا سيما أن أكثر ما يرد أو يروى في هذا المجال صادر عن فئة عامة الناس عرفت بالبخل ، وكان لها في صدد ذلك طرائف ومواقف وأيضاً طرائق تعبير .

أما حين يكون البخل من فئة مغايرة ، مثل فئة العلماء أو الكتاب أو الشعراء أو نحوهم . . . فالأمر يختلف في نظر الجاحظ ، لأن هؤلاء يمثلون وسطاً ثقافياً خاصاً ، ولغتهم تكون تبعا لذلك مختلفة أيضاً ، وقد انتهى الجاحظ إلى هذا الفارق ، فلم يجعل رأيه مطلقاً ، بل قال مستدركا :

« . . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعالي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه . . » .

ولعل هذا الكلام يكتسب أهمية خاصة حين نلاحظ أن الجاحظ تناول هذا الموضوع ، موضوع الصحة والخطأ في معرض التعبير الأدبي ، في كتاب : البخلاء ، وعلى هذا النحو من التجريد والشمول ، وعمد إلى تنبيه قرائه إلى ذلك في خطبة كتابه . فقد رأى الجاحظ أن نظرتهم هذه أجدر ما تكون بالتطبيق في هذا الموضوع

تغيير يلحق بها من لحن أو تسكين أو ما شاكل ذلك من كلام المولدين يفسدها ويزيل رونقها .

أما الشطر الآخر من قول الجاحظ في هذه المسألة فهو منصب على كلام من سماهم : (البلدين والعوام والحشوة والطعام) ، ولا بد لنوادهم وملحهم في رأيه أيضا أن تروى على صورتها ، وكما حكاهما أصحابها ، ولو كانت خاطئة أو ملحونة ، إذ أن أي تعديل في مبناها أو تقويم لاعوجاجها ، من قبيل إعراب كلماتها أو اصلاح ما كان من لحن في لغتها كفيل أيضا بأن يفسد إمتاعها ويذهب بروائها .

وفحوى رأي الجاحظ في الحاليين أن جمال التعبير غير مقتصر على فصاحته ، ولا مرتبط بصحة ألفاظه ، إنه قد يوجد في الكلام الصحيح وجوده في الكلام الملحون . وهو يؤكد ما ذهب إليه في موضع آخر إذ يقول أيضا^(٤١) :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ . ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء . فالسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصح في موضع الافصح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال »

ثم يمضي الجاحظ في تعميق فكرته وتوسيع رأيه بقوله : « وإن كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس ، ويكرها ويأخذ بأكظامها .. »

الذي يتصل بظاهرة البخل ، وبكلام البخلاء وطرائقهم ونوادهم وملحهم . ويتعبير آخر ، أدرك الجاحظ بثاقب فكره ومرهف حسه ، أنه في كتابه البخلاء يتناول موضوعاً خاصاً ينطوي على كثير من الطرافة ، وأن مادة كتابه مستمدة في غالب الأحيان من جماعة شعبية تتحدث غالباً بلغتها غير المعربة ، وألفاظها الملحونة ، فضلاً عن خصوصية تعبيرها وأدائها .

وعلى صعيد آخر من كتاباته الجاحظ نجد هذه القضية ، قضية اللغة المحكية المبسطة والملحونة ، مطروحة أيضاً في كتاب البيان والتبيين ، ألصق كتب أبي عثمان بشؤون الفصاحة والبلاغة ، والخطأ واللحن ، وكل ما يتصل بقضايا المبنى والمعنى والأساليب وطرق الأداء . . . إنه يقول في هذا الصدد^(٤٢) :

« ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من نوادر الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها . فإنك ، إن غيرتها ، بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلدين . . . خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فإياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير فيها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً . فإن ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطاباتهم أياها واستملاهم لها . »

هذا النص ينطوي على شطرين ، أولهما يتعلق بنوادر الاعراب ، وهذه النوادر لا بد لها في رأي الجاحظ أن تبقى معربة فصيحة كما كانت عليه في الأصل ، لأن كل

(٤٠) كتاب البيان والتبيين ١ : ١٤٥ - ١٤٦ ، وانظر هذا الرأي أيضاً في كتاب الحيوان ١ : ٢٨٢

(٤١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

اللغة - ولا سيما المحكية - لا بد لها أن تحمل سمات متكلمها وخصائصه الذاتية .

وواقع الأمر ، وعلى حسب معطيات علم الاجتماع وقوانين علم اللغة ، أن هنالك في كل جيل مستويات من اللغة تبعاً لوجود مستويات في مقابل ذلك لقطاعات الناس التي تتكلمها . أو لا بد هنالك ، على الأقل وبصورة مجملية ، من وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير داخل مجتمع ، وهذا ما ساد في الأفهام من وجود لغة للخاصة ولغة للعامة . . .

ويفضي بنا ذلك إلى أن من مقتضيات الفن التعبيري ، كما ينشده الجاحظ ، أن يحرص الكاتب على إنطاق المتكلم بلغته هو ، بحيث يتكلم المتحدث بلهجته الخاصة ، وطريقة أدائه المتفردة ، وعباراته المتميزة . وإلا كان هنالك نوع من القسر الذي ينطوي أيضاً على التزييف والافتعال ، وعلى التكلف والتصنع . وحين يطالب الجاحظ بأن تتم رواية الملح والطرائف والنوادر وما إليها كما صدرت عن أصحابها ، أو كما حكاهما أهلها ؛ فإنما يرمي إلى احترام تلك الخصوصية التعبيرية في اللغة المحكية ، حتى ولو كانت ملحونة أو عامية ، بحيث يمكن الحفاظ على سماتها الأسلوبية المتفردة ، وملاحظتها المتميزة في الأداء .

وإذا كان مذهب الجاحظ صحيحاً ، وهو صحيح يؤيده واقع تطور المجتمعات ، وتدعمه معطيات علم اللغة وعلم السكان ، فمعنى ذلك أنه يسرى أيضاً على لغة المسرح والتمثيل في عصرنا ، إذ لا بد لهذه اللغة أيضاً - على حسب مفهوم الجاحظ - أن يخرج الكلام فيها « مخرج كلام المولدين والبلديين . . » . فهنالك فئات كثيرة من الناس يشكلون شطراً كبيراً من المجتمع

كذلك عاد الجاحظ إلى إثارة هذه المسألة النقدية حين قال (٤٢) :

« وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعبدته وأمته ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الاعراب . . . ولكل صناعة شكل . »

مقومات اللغة المحكية

ولعله بوسعنا الآن ، وبعد استقراء كلام الجاحظ وإيراد نصوصه الجلية بصدد هذه القضية المحادثة أو اللغة المحكية ، أن نخلص إلى جملة من الحقائق الأساسية التي تتمحور حول شخصية المتحدث ، وطبيعة المتلقي ، وطابع اللغة المحكية ، وظاهرة التندر ، ثم الواقعية اللغوية .

أ - شخصية المتحدثين أو المتحاورين :

من المعهود أن شخصية الأديب التي ينطوي عليها العمل الأدبي ، قصصياً كان أو تمثيلاً أو نحو ذلك من فنون القول ، لا تتكشف سماتها وتتجلى أبعادها إلا من خلال كلماتها وعباراتها . والجاحظ ، من خلال آرائه في هذا الصدد ، يعتقد أيضاً أن حوار المتحدثين هو الذي ينم على طبيعتهم ، وينبئ عن شخصيتهم ، ويشي بحال نفوسهم ، أي أن لغة المرء صورة لذاته ، من خلالها تنعكس طباعة ، وتتجلى أفكاره ، كما أنها تكشف عن ملامح بيئته ، وتشف عن شريحته الاجتماعية .

وفي هذا الصدد أيضاً يعتقد الجاحظ ، تبعاً لذلك ، أن لكل طبقة من الناس ، أو لكل فئة أو جماعة متميزة منهم ، لغتها وعباراتها وأساليبها وطرق أدائها ، وأن

لها « وذلك حين يحال بينهم وبين تلقي ذلك الأداء بصورته المحكية .

ج - لغة التحدث والعبارة المحكية :

والحقيقة الأخرى التي يمكن استخلاصها أيضا من كلام الجاحظ تتصل بالنص نفسه ، أي بطبيعة اللغة المحكية ، وهي تنطوي على مفهوم بالغ الأهمية على صعيد النقد . فالجاحظ ، بفكره الثاقب ، خرج على المفاهيم السائدة في عصره ، ولا سيما في عرف اللغويين والبلاغيين والنحاة . . . الذين افترضوا التلازم المطلق بين مفهومي الفصاحة والبلاغة ، أي بين صحة اللفظ وجمال التعبير . فكانوا يطردون من محراب الأدب كل تعبير ينطوي على اللحن أو الخطأ ، دون النظر إلى ما عدا ذلك من عناصر جمالية أخرى ذات شأن في العمل الأدبي . وقد غلبت هذه النظرة أول الأمر على كثير من النقاد العرب بسبب كون غالبيتهم من النحويين ومن فقهاء اللغة وعلمائها ، فضيقوا الأمر على الأدب ونقده . وربما كان امتداداً لأرائهم تلك ، ازراؤهم بالأدب الشعبي ، بل تنكروا له طوال عصور مديدة ، بدعوى هبوط لغته عن الفصحى .

ويبدو أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، أي بعد عصر الجاحظ بأكثر من قرن ، كان ، على جلال قدره ، ضحية هذا الفهم السائد ، حين وصم كتاب « ألف ليلة وليلة » بأنه (٤٣) : « كتاب غث بارد الحديث » .

لقد رفع الجاحظ مفهوم خصوصية التعبير إلى ذروة عناصر العمل الأدبي ، وجعلها عمدة في فن القول ، لأن هذه الخصوصية ناجمة من خصوصية طبيعة المرء نفسه . فكما أن لكل امرئ ملامح وجهه ، وبصمات يده ، ونبرات صوته ، فإن له أيضا منحى تفكيره

كالذين دعاهم ابو عثمان « بالبلديين والعوام والحشوة والطغام . . » . وهؤلاء ينبغي خلال رواية شؤونهم والحكاية عنهم ، والمحافظة التامة على خصوصية لغتهم . إذ أن المحادثة أو المحاوراة في مجال القص هي العنصر الأساسي في تحريك الحدث وتطويره ، بالإضافة الى أنه وثيق الصلة بالشخصية نفسها ، شديد الالتحام بها ، انطلاقاً من أن هذه الشخصية لا تتجلى ملامحها وسماتها إلا حين تنطق ، أي من خلال اللغة المحكية نفسها .

ب - الجمهور المتلقي وطبيعة المخاطبين :

وهذه الحقيقة الثانية التي نستمدّها من مذهب الجاحظ في اللغة المحكية تتصل في الوقت نفسه ، ومن جهة أخرى ، بطبيعة المرء المتلقي ، قارئاً أو سامعاً أو مشاهداً . والجاحظ حين ينطلق من كون اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين المتحدثين والسماعين ، يعتقد أنه من مقومات الأداء الفني قدرة هذا الأداء على أن يبلغ الأسماع والقلوب ، محتفظاً بنكهته ومذاقه وحرارته . وحينئذ يكون للفن تأثيره المنشود في النفوس ، بفضل ذاتيته وتفرد . وهذا هو الهدف البارز الذي حرص الجاحظ على توفره في العبارة المؤداة ، وهو ما سماه « الامتاع » كما سلف من كلامه . فإمتاع الجمهور هو الغاية لدى الجاحظ ، كما أنه هو الغاية أصلاً من إنشاء العمل الأدبي ، بل الابداع الفني جملة وفق أسس النقد وأصوله . ولذلك حذر الجاحظ من مغبة تغيير صورة التعبير ، سواء في الملحة والنادرة أو في معرض الجدل من الكلام ، لأن هذا التغيير هو الذي « يفسد الامتاع بها » ، أي أن جمهور المتلقين هم الذين سيصيبهم الغبن في النهاية ، فتفتوهم المتعة المنشودة . أو أن ذلك وفق تعبير الجاحظ « يذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم

(٤٣) كتاب الفهرست ، الفن الاول من المقالة الثامنة ، ص ٣٠٤ طبعة فلوجل ، بيروت ١٩٦٤

وأسلوب تعبيره ، وطريقة أدائه . ولعل هذا معنى وجود لغة مكتوبة شاملة هي اللغة الرصينة التي تحكمها الأصول ، وتنظمها القواعد ، إنها اللغة المعتمدة على صعيد الأدب والفكر والتراث . وإلى جانبها ثمة لغة أخرى محكية توازيها ، وتنطوي على شيء من حرية الحركة والتغير والامتداد ، وهي ما يسمى باللهجة ، وهذه تبقى متصلة بأصل اللغة ، كما تلتحم الأغصان بجذع الدوحة الوارفة . وواقع الأمر ، وعلى حسب ما ينجح إليه علم اللسانيات ، أن وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير ، هو ظاهرة طبيعية في اللغات كافة . وقد عرف العرب لهجات كثيرة متباعدة ومتقاربة في عهود ما قبل الاسلام ، ثم عرفوا بعده لهجات أخرى متميزة بين العامة في الأمصار ، فكانت هناك عامية الشام ، وعامية العراق ، وعامية مصر ، وعامية المغرب والأندلس . وليس الالتفات إلى وضع علم النحو ، والعرب في عنفوان فصاحتهم وتآلق بلاغتهم ، سوى مؤشر ينذر ببروز أخرى مغايرة ، كانت تدب في حياة الناس ، وتوزاي في الوقت نفسه اللغة الأصيلة .

ومن ذلك خلص الجاحظ إلى أن اللغة ، سواء أكانت فصيحة أم ملحونة ، صادرة عن خاصة الناس أم عامتهم ، ما هي إلا ظاهرة اجتماعية ، تنبثق من الحياة نفسها وتواكبها في مسيرتها ، ولذلك تغدو جديدة بالاعتبار ، ولا سيما من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني .

تحديث التعبير

لعلنا نستطيع الآن أن نخلص في هذا المجال إلى أن أفكار الجاحظ النقدية كانت تدور في مجملها حول محور واحد ، هو جانب التندر أو التطرف أكثر من سواء في

الأدب . وظاهرة التطرف نشأت من جذور اجتماعية واسعة المدى في عصر الجاحظ ، وغدت من أبرز الظواهر التي خالطت حياة الناس داخل المجتمع الاسلامي خلال الحقبة العباسية ، تبعا لشيوع اللهو وتفشي المجون . وأنه في طليعة أسباب سيادة هذه الظاهرة ، ما نعمت به البلاد من استقرار سياسي في ذلك العهد ، وما استتبع ذلك من ثراء العلاقات الاجتماعية في إطار اتساع المدن وتوطد المجتمع الحضاري . ويغلب على الظن أن الناس ، في ظل هذه الحياة الجديدة المتفتحة ، قد تجاوزوا ، خلال مجالسهم وأسماهم ، نواذر الأعراب والبداءة ، مما كان معهودا قبل ذلك الحين ، أو ما كان يتداوله الرواة ، ويعني به المؤلفون قبل هذا العصر .

لقد دخلت هذه الملح والنواذر في طور جديد ضمن الاطار الحضاري السائد ، فاغتنى مفهوم « التندر » الذي كان مقتصرًا على فئة الأعراب أو البداءة ، وبات يفيد عبر الحياة الاجتماعية الرجحية معنى « التطرف » ، كما غدا من مقومات هذا التطرف اتسامه بقدر من التمدن ورقة الحاشية .

وهذا ما رمى إليه الجاحظ حين قصر كلامه أو كاد على نواذر المولدين وملحهم وأشعارهم ، في مقابل الاهتمام المعهود بالأعراب ، إذ المولدون هم الشطر الآخر الرحيب من المجتمع العربي - الاسلامي الذي أوجدته تلك الحياة الحضارية الجديدة خلال العهود العباسية ، نتيجة لعوامل التمازج الثقافي ، والاندماج البشري بين عناصر السكان الذين اختلفت أصولهم ، وتباينت مصادره . إنهم الجيل المستحدث الذي أخذ يتنامى باطراد في مقابل الشطر الآخر المتضائل من ذلك المجتمع الضيق وهو مجتمع البادية .

ومرد خطورة هذا الرأي إلى أن ابن قتيبة بمنطقه السليم نزع عن الشعر القديم هالة القداسة وجعله مع الشعر المحدث في كفتي الميزان ، إذ لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالجودة ، وحصيلته هذا المنحى إثمة كانت في حقيقة الأمر لصالح الشعر المحدث ورفع شأنه .

ومضى الجاحظ مع ابن قتيبة في تيار الحداثة إلى شوط أبعد ، ولا سيما على صعيد التطبيق ، من حيث ابتعد ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » نفسه عن كثير مما سبق أن نادى به في مقدمته النقدية الهامة لهذا الكتاب .

فالجاحظ في صدر كتابه البيان والتبيين الذي كاد يقصره على موضوع الفصاحة والبلاغة عند العرب ، جنح لرواية نماذج من الشعر ما كان لغيره أن يتقبلها من أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن كانوا من طيسته . إنه شعر محدث حفل بألفاظ فارسية ، وما كان ذلك هينا على المشتغلين بلغة العرب وأشعارها ، وهم يرون تلك الألفاظ الدخيلة تقتحم محراب أعرق فنون القول عند العرب في منحنى هازل عابث . فانطلاقا من مقولة الجاحظ بأنه لكل مقام مقول ، وأنه للجد موضوع وللهلزل موضوع قال^(٤٦) : « وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني مدح الرشيد : »

من يلقه من بطل (مسرند)

في زعفة محكمة بالسرد

هؤلاء المولدون ، لم يعودوا ، بطبيعة الحال ، عربا فحسب ، بعد أن فقدوا الكثير مما كانوا يتسمون به ، من صفاء العنصر السالف . إنهم الخليطة الاجتماعية الجديدة التي وجد الجاحظ نفسه مدعوا إلى أن يهتم بها ويخصها بالقول . وما هذا الاهتمام في واقع الأمر ، إلا وجه آخر من الاهتمام الشامل بالظواهر الجديدة المحدثّة منذ مطلع العصر العباسي . وهو يذكر بما كان سائدا قبل حين لدى علماء العربية ورواة أخبارها وأشعارها ، من أجلال لكل قديم وإزراء بكل جديد ، ولا سيما في طور الرواية والتدوين والتقييد وإرساء الأسس الموروثة . غير أن هذه الحال من التعامي والتجاهل ما كان بوسعها أن تدوم أكثر مما دامت ، بعد أن حفلت رحاب الفكر بكل جديد مبتكر وبديع مستطرف . وهكذا بات العلماء يجدون أنفسهم في موقف غير صحيح ، ويتبينون أن سليلتهم لم تعد تجدى . فبدؤوا يتزحزحون عن مواقفهم المتزمتة إزاء طغيان الابداع المحدث وتآلقه . وكان من نتيجة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو شيخ رواة العربية ورائدهم^(٤٤) ، أخذ يتخلى عن موقفه المعهود ، وراح يقول بلهجة من اقتنع أخيرا : « لقد كثّر هذا الشعر المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته »^(٤٥) . ولكن هذه الرغبة لم ترجع إلى حقيقة علمية مطلقة ألا بعد حين ، وفي عصر نال ، وفي جيل الجاحظ وابن قتيبة وجه التحديد . فقد نظر هذا الناقد الرائد ابن قتيبة « بعين العدل على الفريقين » ورأى أن « الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم »^(٤٦) .

(٤٤) أبو عمرو ، هو زيان بن العلاء . أحد القراء السبعة ومن الأئمة الرواد في البصرة . راية كبير لاخبار العرب وإياهم وأشعارهم . كان استاذا للخليل والاصمعي وأبي عبيدة . وقد تنسك آخر أيامه فأحرق كتبه ، عاش بين ٦٥ - ١٥٤ هـ ، ٦٨٤ - ٧٧٠ م

(٤٥) كتاب الشعر والشعراء ١ . ٦٣ لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، ١٩٦٦

(٤٦) كتاب الشعر والشعراء ، المقدمة ، ابن قتيبة ١ : ٦٣

(٤٧) البيان والتبيين ١ : ١٤١ - ١٤٢

الأسمار أو يتغنى بها في المحافل . وتعرف بالنمط
الفرنجي - العربي (فرانكو - آراب) ، وذلك على سبيل
الأطراف أو الأضحاك أو بقصد التفكه والتظرف .

تجول بين رأسه و (الكرد)
لما هوى بين غياض الأسد
وصار في كف الهزبر الورد
آلي يذوق الدهر (آب سرد) (٤٨)

لقد اعتنق الجاحظ مفهوم الحداثة في فنون القول
وأغنى تيار التحديث في كتبه ورسائله متجاوبا مع منازع
عصره .

كذلك أورد الجاحظ أبياتا غيرها من هذا القبيل
لشاعر آخر قال فيها (٤٩) :

لزم الغرام ثوبي
بككرة في يوم سبت (٥٠)
فتمايلت عليهم
ميل زنكي (بمستي) (٥١) - (٥٢)
قد حسا (الداذي) صرفا
أو عقارا (بايخست) (٥٣)
إن جلدي دبغته
أهل صنعاء (بجفت) (٥٤)

وفي هذا المجال من منحي الحداثة أو التحديث لدى
الجاحظ مضى في كتبه ورسائله موليا اهتمامه أدب
المولدين وأخبارهم ، كما خص أيضا بالقول لغتهم
المحكية التي طرأ عليها تبدل مواز لتبدل تلك الخليطة
الاجتماعية نفسها ، والتي كان من أبرز لغتها اهمالها
لاعراب الكلمات ولتحريك أواخر الألفاظ ، بالإضافة
إلى دوران اللحن والخطأ ، وأيضا العامي والدخيل على
ألستها . كما أضحي لأحاديثها ومحاوراتها أو لطرائفها
ونوادرها منحي خاص أو مذاق طريف غدا جديراً
بالرواية . وذلك كله هو الذي دعا الجاحظ إلى إطلاق
مقولته النقدية : « إن الاعراب يفسد نوادر المولدين » .

ويبدو أن أمثال هذه الظاهرة الفنية معهودة في أطوار
التمازج الثقافي والازدهار الحضاري حين تبلغ عوامل
التأثر والتأثير بين الشعوب مدى بعيدا . ومن هذا القبيل
ما نَجده في عصرنا الحاضر من جنوح بعض اليافعين إلى
إدخال كلمات أو عبارات أجنبية خلال أحاديثهم
المشتركة ، وذلك على سبيل التعامل أو التفرنج . أو مانقع
عليه أيضا في أحيان أخرى من خفائف الأشعار التي
تنطوى على جمل أو قواف أجنبية ، تركية أو أرمنية أو
انجليزية أو فرنسية ، مقحمة في سياق النظم لتلقي في

(٤٨) المسرند في الفارسية : البطل الذي يغلب ويعلو . والزعفة : الدرع الواسعة المحكمة . السرد . سمر الزرد في الدروع . وأما الكرد فأصلها في الفارسية الكردن أي
العنق ، وما تزال الكلمة شائعة عند العرب المعاصرين في بلاد الشام في قولهم (الكردان وهي تعني نوعا من الحلي الثمين على شكل قلادة مدلاة على الصدر تحمل قطعة من الفضة
المرصعة باللؤلؤ والماس . وأما الكلمة الفارسية الأخيرة (آب سرد) في الأبيات فتعني الماء البارد .

(٤٩) البيان والتبيين ١ : ١٤١ ، والأبيات لشاعر اسمه أسود بن أبي كريمة .

(٥٠) الغرام جمع غريم وهو المطالب بالدين ، وهذا جمع لم يذكره الاوائل .

(٥١) الزنكي : الزنجي بالفارسية .

(٥٢) الداذي : نبات عبق الرائحة مسكر . وبايخست : الشرب على الريق ، والكلمة أيضا فارسية .

(٥٣) مستي : بالفارسية تعني كثرة السكر وادمان الشراب .

(٥٤) جفت : فارسية أيضا وتعني ثمر البلوط . .

التوشيح ، وهي خاتمة الأسطر فيه ، أو قفله الأخير بمثابة عمدة الموشح وبيت القصيد فيه . وقد أوضح ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » هذا الطابع المتميز للمخرجة من حيث صفته وأهميته بقوله^(٥٥) :

« والشرط فيها أن تكون حجاجية^(٥٦) من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن^(٥٧) ، حارة محرقة ، حادة منضجة . . وهي ابراز الموشح ، وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره . . »

فالخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ويستملح ، بل يشترط فيه أن يكون عامياً أو أعجمي اللغة^(٥٨) ، وبذلك يستحق العمل الأدبي أن يدخل في فن التوشيح ، « فلن كانت الخرجة معربة الألفاظ على منوال ما تقدمها ، خرج الموشح - في رأي ابن سناء الملك - من أن يكون موشحاً^(٥٩) . وهذا الرأي مماثل لما قاله الجاحظ وهو: « أن الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده » وأنه « إن كان موضوع الحديث على أنه مضحك ومله ، ودخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب القلب عن جهته . . » . وما يراه الجاحظ من منطلق في أنه^(٦٠) قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم من الألفاظ »

فابن سناء الملك حين تقبل ورود الخرجة فصيحة معربة فهو إنما فعل ذلك لأنها مسوقة في مقام الجد ولا

ومزاحهم وفي مجالسهم وأسمارهم وفي ملحهم ونوادرهم . وقد استتبع هذا الأمر من الجاحظ أن يبين أهمية ارتباط الكلام غير المعرب بموضوع النوادر ، وأن يحكم أيضاً التلازم بين الشكل أو اللفظ الملحون وبين المضمون أو المعنى الهازل .

وحين أثر الجاحظ هذا المنحى في صدد اصطناع اللغة المحكية باعتبارها أداة تعبير ملائمة في مجال الموضوعات الهازلة ، فإنه في الواقع قد فتح الباب أمام لون جديد من الطرائف والقصص ، أو نمط مستحدث من أنماط الأدب العابت طالما دأب المؤلفون والنقاد من قبل على عدم الاعتراف به ، وعلى طرده من محراب الأدب ، لما قد تنطوي عليه لغته أحياناً من الخلل ، وما قد يعتريها من شوائب . وهذه النظرة القاصرة أو الفكرة المترتبة قد هيمنت على الأدب العربي في واقع الأمر على أوسع نطاق ، فلم يكن ثمة في رحابه أي حيز ذي شأن لأنماط تعبيرية أخرى مثل القصص الشعبي والزلجل . والموشح الأندلسي نفسه ، برغم طرافته ، ظل عدداً من الأجيال يشق طريقة العاثر بصعوبة ، دون أن يعترف به أنصار القريض فناً من فنون القول . حتى أن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد ، حين أخرجوا الموشح الفصيح من دائرة فنههم ، واعتبروه بمثابة امتداد للقريض ، وأنه لا شخصية له . بل إنهم أمعنوا في التحدى بعد أن تمكنوا من فنههم الجديد ، وثبتوا فيه أقدامهم ، إذ اشترطوا أن تكون (الخرجة) مسوقة باللغة المحكية ، أي باللهجة العامية . والخرجة في فن

(٥٥) دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، ص ٣٠ - ٣٣ ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ، دمشق ١٩٤٩ .

(٥٦) حجاجية ، أي نسبة إلى الشاعر ابن حجاج الذي عرف بمجونه ، وقد عاش في بغداد خلال القرن الرابع الهجري .

(٥٧) قزمانية ، أي منسوبة إلى ابن قزمان أشهر زجلي الاندلس .

(٥٨) المراد بالكلام الأعجمي عند ابن سناء الملك هو الاجنبي أو غير العربي .

(٥٩) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٢

(٦٠) البيان والتبيين ١ : ١٤٥

سيا في معرض المديح ، هذا الغرض الرئيسي في الشعر العربي . فهو على غرار الجاحظ أيضا يراعي في الكلام أن يكون مناسباً لمقتضى الحال ، وأن : « الخفيف للخفيف والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح^(٦١) . . » ، « ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل . . » . ولما كانت الحمرة والطبيعة والمرح والطرب والغناء والموسيقى . . . هي الجواء المواتية لمضمون الموشحات ، غدا من الطبيعي أن تعلب على الخرجة هذه السمة المرحية وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبذل ما يضيف عليها الدعابة والطرافة ، وبذلك تكون مسك الختام ؟ فتترك أثرها في النفوس وتثير الضحك . وقد تستدعي ارتشاف الكؤوس على نغمات العازفين وإيقاع الراقصين . « إنما - كما قال ابن سناء الملك - العاقبة ، وينبغي أن تكون حميدة » . ولهذا حسن فيها أيضا أن تكون « غزلة جدا ! هزاة ، سحارة ، خلافة ، بينها وبين الصبابة قرابة . . »^(٦٢)

وعلى هذا الصعيد المشترك من تلازم اللحن الموسيقي والخرجة الأعجمية في لغة الموشح قد نجد - كما أسلفنا - شبيها لهذه الظاهرة الموسيقية اللغوية أيضا في بعض أغنيات المرح أو العبث في عصرنا الحاضر .

وما الموشح في حقيقة أمره إلا ظاهرة لغوية أدبية وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأندلسي الحديثة ، ولغته الجديدة ، ثم انبثق عن هذا المجتمع فن الزجل الشعبي ، المرأة الأخرى لحقيقة الحياة الاجتماعية واللغوية والفنية في الأندلس .

(٦١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

(٦٢) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٣ ، ابن سناء الملك

والملاحظ أن كلام ابن سناء الملك الذي أورده بعد أكثر من ثلاثمئة عام من كلام الجاحظ حرص فيه أيضا على طابع التلازم مضمون الخرجة المنطوي على الهزل والخفة والمرح أو المجون والسخف ، وبين الشكل اللغوي الذي يتجلى في عبارة الخرجة ، من حيث كونها عامية هزاة للنفس باعثة على الضحك - حتى أن نعت اللفظ في هذا المجال بالسخف قد ورد بنصه أيضا لدى كلا المؤلفين ، الجاحظ وابن سناء الملك . وفحوى ذلك أن الخرجة في الموشح ، من جهة ، والنادرة التي عناها الجاحظ من جهة أخرى هما معا مغترفتان من صميم الحياة اليومية ومنحوتتان من واقع لهجتها العامية المتبدلة .

كذلك يمكن القول أن النادرة والخرجة - من حيث كونها صورتين تعبيريتين - هما أيضا من طبيعة واحدة قوامها النظر . وبعبارة أخرى ، إن الصبغة الكوميديّة هي القاسم المشترك لهما . وما التطرف في حالي النادرة والخرجة سوى التعبير الخفيف الهازل الذي هو أقرب إلى جنس الكوميديا ، هذا الجنس الذي يرتكز إلى حد كبير على الحوار السمج الدافق الذي يشاكل لغة الحديث في حياة الناس .

حين استملح الجاحظ ، بفكره المتفتح وذوقه الرفيع عبارة « إن كنت سبع » برغم خطئها اللغوي البارز ، آخذاً بالجانب الجمالي ومضحياً بعنصر السلامة اللغوي ، فمعنى ذلك أنه جعل الفن في المقام الأول ، وأنه للضرورة الجمالية أيضا أحكام . لقد قر في نفس الجاحظ أن التعبير المحكي والبسيط في حياة الناس

في سبيل لغة ثالثة : ملامح نظرية نقدية

وبعد : فإنه إلى أى مدى ، في ضوء ما تقدم ، وعبر المنحى النقدي للجاحظ يستطيع الباحث أن يتلمس ملامح نظرية أو مذهب أدبي على صعيد الفكر الجاحظي ؟

· لعلنا نستطيع استجلاء ملامح هذا المذهب النقدي الجاحظي ومقوماته من خلال الوقوف عند النقاط التالية :

أ - إن الجاحظ ، في فكره النقدي ، قد تفهم بعمق جدلية الشكل والمضمون ، من حيث تلازمهما وتفاعلهما على صعيد التأثير المتبادل والمشارك ، ومن حيث عدم قيام أحدهما إلا بوجود الآخر ، فهما بمنزلة شفرتي المقص لا يتم القطع بأحدهما بل بكليتهما . وكل محاولة لرواية النادرة على غير صورتها ، كإعراب لغتها المولدة أو تعديل عبارتها المحكية ، إن هي إلا تشوية لواقع الحال ، وإفساد لخصوصية المقال .

ب - استطاع الجاحظ بحدسه الصادق ونظره الثاقب أن يرى في اللغة كائناً حياً ، إنها في نظره - وبنتيجة الملاحظة والمعاينة والاستقراء - أداة تعبير غير ثابتة ولا جامدة ، بل متغيرة متبدلة ، وهي قابلة للتكيف تبعاً لتغير أحوال العصر ومعطيات العيش وطبيعة المجتمع . .

ومن هذا المنطلق الركين الذي صدر عنه الجاحظ ، وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنبثقت لديه هذه الرؤية النقدية الهامة التي ترى أيضاً أنه إذا كان فن القول مرتبطاً

اليومية على خطئه أو ابتذاله . . . إنما هو المعول عليه في هذا الصدد . أما التفاسيح أو التشدد في تطبيق قواعد لغة الكتابة والخطابة والشعر ، وجعلها تسري بقسريتها أيضاً على الأحداث المروية أو النادرة المحكية ، فهذا في رأي الجاحظ بمثابة وضع الأمور في غير مواضعها ، إذ يجعل الكلام معدولاً عن جهته ، واللفظ خارجاً من حده .

ويكاد يكون محور كلام الجاحظ بصدد موضوع التطرف والنوادر المحكية هو أن للموضوعات الجادة والمضامين الرصينة لغتها الفصحى ، وألفاظها الجزلة ، وأنه أيضاً للحالات الهازلة والمواقف العابثة كلماتها الملحونة وعباراتها اللينة . ومعنى ذلك أنه في مجال الكوميديا ومواطن السخر والاضحاك ينبغي محاكاة واقع حياة الناس الهازلة ، واعتماد لغتهم المحكية على علاقتها ، لأنها على أية حال لغة الواقع وصورة الحياة .

هذا الفهم المحدد والدقيق لدى الجاحظ لطبيعة اللغة المحكية في إطار المضامين الهازلة يقارب إلى حد كبير المفهوم السائد في النقد الحديث حول واقعية اللغة ، باعتبارها وجهاً بارزاً من واقعية الأدب . إذ أن اعتماد لغة الحديث أو الحوار الجارية في معرض مسرح الكوميديا ، وأيضاً اصطناع اللغة الدارجة على الألسن خلال الحياة اليومية ، برغم ما قد تنطوي عليه من خطأ أو ابتذال أو سخف . . . كل ذلك منضو داخل مفهوم مشاكلة اللغة للواقع ، ولا سيما في الأدب التمثيلي الهازل أو الكوميدي ، وذلك على خلاف ما ينبغي أن تكون عليه هذه اللغة في الوجه الآخر المقابل ، من فصاحة ورسانة وجزالة ، على صعيد الأدب التمثيلي الجاد أو التراجيدي .

بالمجتمع وموازيا له ، وأن المجتمع متعدد الطبقات ، فإنه من الطبيعي تبعا لذلك أن تتجلى طبيعة التعبير في أشكال متعددة ، ما دام المجتمع نفسه طبقات متعددة . وهذا ما جنح إليه الجاحظ في قوله بأصرح عبارة وأوضحها^(٦٣) :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي »

أما عبارة أبي عثمان الأخيرة التي تفيد أن جميع هذا الكلام برغم تباين مستوياته عربي ، فإن لها بعدا نقديا آخر قوامه أن صحة الكلام وحدها ، أو حتى فصاحته نفسها ليست العنصر الوحيد في تقويم العمل الأدبي ولو كان هذا الكلام في المقياس العام كلاماً عربياً . وهذا مفهوم دأب الجاحظ على تأكيده من خلال آراء عديدة له سلفت على نحو جانبي أو أساسي . وهذا ما يقضي بنا إلى بسط الأمر في النقطة التالية .

ج - ومجمل ما خلص إليه الجاحظ أيضا أن فنية العبارة قضية منفصلة عن صحة اللغة ، وليس بينهما تلازم ولا ترابط . وهذا رأي خطير في مجال النقد الأدبي ، مؤداه أن اللغة الملحونة والعبارات العامية ، شأنها كشأن اللغة الصحيحة والعبارات الفصيحة من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني . وهذه السماح في نظرة الجاحظ إلى اللغة ، مؤداه أنه لم يكن مترمنا في التعامل مع الألفاظ ، يعتبرها مجرد أوعية لحمل المعاني ونقل الأفكار ، بل رأى فيها رموزا ترمي إلى دلالات ،

وتنطوي على هالات . وهذا الفهم الرحيب لأبعاد الكلمة وظلال العبارة هو الذي جعله - برغم حرصه البالغ على صحة الكلام وسلامة التعبير - يتقبل الخطأ واللحن ، بل يجذبه ويستملحه ، إذا دعا إليه داع من دواعي الفن .

كل ذلك يعني في مفهوم النقد الحديث ، حرص الجاحظ على سمة الواقعية اللغوية التي ينبغي لها في رأيه أن تبسط ظلها على المتكلم والمتلقى معا . وما هذه الواقعية اللغوية في حقيقة الأمر سوى وجه آخر متألق من ذلك المنحى الواقعي الذي حمل الجاحظ لواءه في الأدب .

د - أطلق الجاحظ مقولة نقدية هامة ، حين ذهب إلى أنه « لكل صناعة شكل^(٦٤) » . وفحواها أنه ينبغي أن يكون لكل جنس أدبي شكله الفني الذي يلائمه . إذ الصناعة في مصطلح الأقدمين تعني في مفهوم النقد الحديث الفن بعينه ، أو الجنس الأدبي ، على أساس أن الصناعتين الأثيرتين عند العرب تتجليان في الشعر والنثر ، وهذان أيضا أبرز فنون القول ، ويمقتضى ذلك ، فإن ما عناه الجاحظ هو أنه لكل جنس أدبي خصوص خصوصيته الأسلوبية . وهذا المفهوم إنما ينبثق من المنطلق النقدي الشامل الذي أعتمدته الجاحظ أصلا وهو أنه لكل مقام مقال .

هـ - لقد تناول هذا الناقد العربي قضية اللغة المحكية في مجال التندر والتطرف ، على أنها قضية نقدية تتصل بلون أدبي متميز يغاير سائر الأنماط التعبيرية . ثم عمد إلى تحليل طبيعة هذه اللغة وإظهار سميتها الخاصة بها

(٦٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤

(٦٤) كتاب الحيوان ٢ : ١١٤

أديب قبل أن يكون لغويا ، وفنان قبل أن يكون عالما .
 وآية ذلك موقفه السلبي الجريء تجاه النحاة والرواة ومن
 إليهم . إذ قال^(٦٥) : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر
 فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه
 الشاهد والمثل » . وهذا الموقف الجلي ينم على أن
 الجاحظ على كونه من أعلام اللغة والرواية لا يعد نفسه
 في زمرة اللغويين والرواة ، بل إنه يقف في الصف المغاير
 لهم ، وينتقدهم ويأخذ عليهم قصور ذوقهم من الوجهة
 الفنية تجاه مقومات الجمال التي قد تنطوي عليها حلوة
 الأشعار ، وطرافة الأخبار ، حتى لكأن غايتهم لا تتعدى
 اقتناص الشاهد ، والتماس البرهان . وفي هذا وحده
 إدانة شديدة لهم .

ومجمل القول أنه ما كان لهذه المواقف النقدية التي
 انطوى عليها فكر الجاحظ أن تصدر عن رجل يعيش في
 وسط علمي محافظ ، لم يكن أصحابه المتشددون يتقبلون
 فيه أي تفريط بالعربية ، لغة الجدود الأوائل ، ولسان
 الكتاب المين ، ولولا أن أبا عثمان نفسه كان ينطوي
 على جملة من الصفات . منها :

١ - المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الجاحظ على
 صعيد الفكر العربي - الاسلامي ، وأيضا في مجال اللغة
 والأدب .

٢ - انفتاح عقل الجاحظ وتحرره الفكري ، وامتازه
 إلى تيار الاعتزال الذي كان أبو عثمان نفسه أحد كبار
 أعلامه . وقد عرف المعتزلة في الاسلام برحابة آفاقهم ،
 واتسام عقولهم بقدر واف من حرية الفكر .

٣ - كون الجاحظ عربي المنزع ، وهذا ما عصمه من
 أية شبهة ، ومكنه من أن يقول ما لم يجزؤ على مثله سائر

التي تميزها من حيث النطلق والأداء عن الأساليب
 المعتمدة في اللغة الكلاسيكية .

وقد اعتمد الجاحظ في إطلاق آرائه على نماذج تعبيرية
 محددة ، ونصوص أدبية معينة ، يتصل أكثرها بالمضمون
 الساخر أو الموقف الضاحك ، من مثل قصص البخلاء
 ونوادر المولدين ، ثم جنح لشفعها بما تقتضيه من حكم
 أو تعليق على هذا الصعيد النقدي . . .

على أن هذه المسألة الأدبية أو القضية النقدية التي
 تعالج طبيعة الصورة التعبيرية في معرض الملحة أو
 النادرة ، لم تكن - فيما يبدو لنا - طارئة في كتابات
 الجاحظ ، ولا عارضة على فكرة ، بدليل أنه تناول هذا
 الموضوع عددا من المرات خلال أبرز ثلاثة من كتبه ،
 وهي : كتاب والحويان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب
 البيان والتبيين . وهذا الأمر يعني بجلاء أن الجاحظ كان
 يولي هذه المسألة اهتمامه ، وأن مسألة اللغة المحكية في
 معرض السخرية والهزل كان لها - من منحها الأسلوب
 وأداؤها الفني - حيز واضح في فكر الجاحظ النقدي .

ولعله بوسعنا الآن القول أن هذه الالتفاتات التي
 ومضت في ذهن الجاحظ تشكل أساسا صالحا لمذهب
 نقدي ، قوامه الترخص اللغوي لغاية فنية . وهذا في
 واقع الأمر منحى خطير انتهجه الجاحظ بصدد ظاهرة
 لغوية اجتماعية انبثقت في عصره ، ودارت على لسان
 جيله . وخطورة هذا المنحى تثوى في أن الجاحظ قد
 جنح ، من غير تحفظ ، إلى التسامح بصدد اللغة
 الدارجة على الأفواه ، كما استحسن ، دون حدود ، ما
 كانت تنطوي عليه تلك الصيغ التعبيرية المولدة من
 ألفاظ دخيلة أو عامية أو خاطئة . وما ذلك أصلا إلا لأنه

معاصريه أو سالفيه . لقد كان في منجى من أن تصمه
تهمة الشعوبية المستفحلة ، وهو في طليعة خصومها
ومناوئي دعائها .

وهكذا أحل الجاحظ الفن في منزلة أعلى من منزلة
اللغة ، واكتفى بجعل اللفظ ، أي لفظ - على الصعيد
الأدبي - مجرد وسيلة تعبيرية لغاية أسمى وأجل . وفي

الوقت نفسه وضع الجاحظ اللغة في إطارها الحيوي
الصحيح ، حين رأى فيها ظاهرة اجتماعية متطورة ،
تتمخض عن اللغة المحكية أو المنطوية التي تنبض فيها
حياة الناس ، وتتجلى على ألسنتهم من خلال ما تدور به
أحاديثهم ومحاوراتهم واسماهم . وهذه اللغة المحكية -
كما يراها الجاحظ كذلك - إنما تتسم أيضا بما تتسم به
اللغة المكتوبة الفصيحة من ألق وطرافة وإبداع .

مشروع منهج نقدي :

يعرض الخطاب الروائي « حضرة المحترم » لتجيب محفوظ سيكولوجيا ، وفلسفة ، ورؤية شخصيات الى العالم ، مزيجا الستار عن وعيها ولا وعيها المتجسد في سلوكها العملي الدال . والرواية بادخالنا ، كقراء ، الى وعن هذه الشخصيات ولاوعياها في علاقتها ، وعلاقاتها بالفضاء والزمان ، فهي تكشف في ذات الآن عن سيكولوجيا السارد ، وفلسفته ، ورؤيته للعالم متجلية في أحكامه التقويمية ، ووجهات نظره حول جميع الشخصيات سواء الدائمة الحضور أو الكثرة الغياب ، وحل وجهات نظرها المتغيرة حسب الأحوال والظروف اذ من خلال مقول الظروف اذ من خلال مقول السارد يبدو اللامقول .

والاشكالية المطروحة هي كيف يتعامل الناقد مع ثنائية الشخصية والسارد لتحقيق الحداثة في النقد العربي الطامح الى تحديث أدواته الاجرائية ؟ غالبا ما كان النقد القديم يتتبع الشخصية ويهمل السارد ويسير النقد البنوي الجنيبي في نفس الاتجاه مضيئا الاهتمام بعلاقة الشخصيات ولايعير أي اهتمام للسارد الى أن برز الاتجاه البنوي بعد الشكلائي فاهتم بالبنية السردية ، وزاوية الرؤية ، والمنظور السرد ، ووجهة النظر ، والمكونات الروائية من فضاء وزمان وشخصيات أو ما أسماه الحكاية والمحكي الا أنه يؤجل الحديث عن السارد والمسرود له . واننا لنقترح لتحديث نقدنا العربي رصد علاقة أخرى بنيوية وجدلية هي علاقة السارد بالشخصية . بما أن السارد يصاحب الشخصيات في حركيتها عبر طول الرواية ، وبما أنه يشكل الظل بالنسبة الى الشخصية فينبغي أن يكون الاهتمام شاملا لكل من السارد والشخصية في علاقتها . كيف ؟ أبصرح بأفكار الشخصية وسكت عن أفكار الراوي . أيكشف الناقد عن وجهة نظرها ويلتزم الصمت عن وجهة نظر السارد ؟ اذا فعل فهو أحادي البعد ان اختيار احدهما دون الأخرى امر مستحيل لأنه مهما حاول فانه سيعجز لاحالة لأنها مترابطان ، ومتلازمان ، وكثيرا ماتنصهر هذه في تلك لانها وجهان لعملة واحدة : الخطاب

حضرة المحترم أنسنة السردى الايديولوجي

وقال يخاطب ربه :

- اغفر لي أفكارى يارب ، انما قاسية

مثل الحياة ، وهي جزء منها ليس الا . . . »

نجيب محفوظ

محمد اسويدي

الروائي . ان العلاقة بينهما جدلية تتنافي وكل أحادية وثنائية .

وهذا المشروع النقدي غير ثنائي مادام ينسف صرح كل ثنائية في طموحه أن يكون جدليا يتعامل مع كل ثنائية كوحدة كبنية جدلية ديناميكية اننا سندرس ، كدوريت كون ، علاقة السارد بأي شخصية على مستوى الحكاية المحكي . انه منهج جدلي يعرض وجهات نظر السارد من خلال وجهة نظر الشخصية ابتداء من المحكي الابتدائي حتى نهاية الرواية . انه منهج علمي بنيوي جدلي ممكن . اننا نقترحه في نقد الاعمال الروائية لأنه لا يتواءم والأحادية (تناول الشخصية وحدها) ولا يتزامن والثنائية (تناول الشخصية وحدها ثم تناول السارد وحده) بل هو يزامن بين الشخصية والسارد ابتداء من الشروع في الممارسة النقدية . ان الناقد في واقع الأمر ، لن يخوض في الحديث عن احدى وجهتي النظر حتى يجد نفسه يتحدث عن الأخرى . والفصل بين الشخصية والسارد لا يتأتى الا في التنظير النقدي ، أما في الممارسة النقدية ، فكل فصل بين مكونين هو تشويه لهما معا .

ان سارد « حضرة المحترم » يجعل وجهات نظر الشخصية هي الأطروحة ، ووجهة نظر شخصية أخرى أو وجهة نظره هي النقيض في معظم الرواية . ولن يفوتنا ونحن نستجليها أن تبرز المقاطع السردية القليلة التي تتطابق فيها وجهات نظر الشخصيات بوجهة نظر السارد . ولا يسعنا والحالة هذه الا تشكيل التركيب الأطروحة الجديدة - بينها بجلاء لأن النقيض يتواجد في الخفاء . ان السرد يحمل ضمنا اللامسرود . ومهمة الناقد هي انتاج خطاب نقدي يبرز اللامسرود من خلال المسرود الى أن يقبض له نقد النقد الذي هو النقيض الضروري للتركيب / الأطروحة الجديدة / وتتمظهر الشخصية في الرواية باللغة التي تشكل بصيغها المختلفة سيميائية إيديولوجيتها الرسمية وإيديولوجيا السارد

المستقلة كفعل السرد ، والحكي ، والقص ، والرواية ، والمحكي والحكاية ، ووجهات النظر ، وأحكام القيمة والحذف ، والغياب ، والصمت ، وزاوية الرؤية أو المنظور السردية ، والرواية بضمير الغائب التي تشير الى وجود راو ، وشخصية وقارئ ممكنين ومحتملين والعلم والمعاصر الذي يساعد على استجلاء تمظهرات الايديولوجيا هو السيميائية ، والجهاز المفاهيمي ، ومصطلحاته الاجرائية الذي اختزله فليب هامون في مصطلحه النقدي الذي أسماه شعرية المعياري .^(١)

تمظهرات الايديولوجيا :

تتمظهر الايديولوجيا في الخطاب الروائي في عدة صيغ ، وتتجلى أثارها في اشارات متعددة : في العقيدة الدينية وميتافزيقاها ، في الاخلاق ، في السلوكات الخاضعة لعا بعد تشكيلها للنفس ، والذهن ، والوعي واللاوعي ، وفي تحريف رغبات الذات الطبيعية وللافكار الناتجة عن الرغبات ، وفي العقلانية ، والمثالية ، والرومانسية ، والفردانية ، والسلفية ، والماضوية ، و ارادة الفرد للقوة والسلطة ، وفي الخرافة ، والأسطورة ، وفي تقديس الذات الفرد والحكومة ، وخطابها فتوحدها مع الاله المقدسات فتمتزج هذه بتلك ، وتغيم الحدود ، وتتلأشى التخوم ، ويحل خيال المؤدلج هذه في تلك فينعدم التمييز ، وفي تقسيم الناس الى مستويات ، وأصناف ومراتب وفق معيار التراتبية ، فيقدس تبعا لذلك المال ، والرأسمال ، والعمل والملكية والأشياء ، والبشر ويتشأ الانسان ، ويزهد في الراحة والحياة ، والحب والجنس ، والعلم والتحرير والحرية ، والمعرفة والسياسة والفلسفة ، والادب ، والفنون والحقوق في اطار الخضوع لمعايير العقل العقل ومقاييس العقلانية القامعة ، والتخلي عن الطوباوية الممكنة المؤسسة سعيا وراء طوباوية مستحيلة لا أساس لها ، ونسيان الجسد ، وشروط بقائه ، والقلب وعواطفه ،

١ - فليب هامون « نص وإيديولوجيا » ط : P.U.F. باريس 1984 وقد كان هذا المرجع القيم أساسيا بالنسبة اليانا في انتاج هذا المقال ، ولهذا لن نشير اليه فيما سيأتي نجيبا للتكرار .

وفقة وكأنها طفل يلعب بمسدس معبأ وكشخص مفتون لا يرى سوى موضوع فنتته . هل بإمكاننا الحديث هنا عن السحر ؟ .

قال الرسول متعجبا يوما : « ان من البيان لسحرا ! » نعم ، لاساحر في التاريخ لا يستخدم اللغة في سحره أو أثناء عملية السحر واليوم نتساءل : أين يكمن سر السحر ؟ أفي الخطاب أم في المواد الكيميائية ؟ لقد أدرك الرسول أنه كامن في البيان . ان للغة قوة تشبه قوة السحر أو هي ذاتها السحر . وأي لغة هي تلك الساحرة ؟ انها اللغة التي تبعث المتعة ، وتحقق اللذة ، والنشوة في السامع / القارئ ، فيغدو وقد أسكرته اللغة بجمالها ، وبيانها وحقيقتها ، وموسيقاها التي تستحوذ على النفس ، فتؤثر في الاحساس وتثيره فيسمى السامع / القارئ كالمدمن الذي يهتز ، وترنح ، ويغني ويردد ماقرأه أو بعض مقاطعه ، ويتمايل راقصا متشبا ، ، وتحمله اللغة في تغريبها الى عالم من الخيالات ، والاحلام ، والرؤى . انه فعل تخدير اللغة الذي يفوق تخدير الحمرة - والأفيون ، والحشيش ، والهريون ، والكوكايين ، والمورفين . . يمكن أن يكون تخدير هذه المواد أنيا ثم ينقضي ، ولكن تخدير اللغة يدوم ويستمر مدى الحياة . وكلاهما قاتل فالأدمان يقتل في أقصر لحظات العمر . وتناول كمية محدودة تناولا طيبا قد يساعد على الحياة كذلك النص البياني . فهو كالمخدر يصعب علينا تحديد زمن قتله رغم معرفتنا أن نتيجته الحتمية هي الموت . فالمدة التي سيموت فيها الشخص تحت تأثير سحره وتخديره تتغير من شخص الى آخر ليس كل نص بياني قاتلا . فالقاتل هو الخطاب الأيديولوجي الساحر . انه سر سحره كامن في أنه يعمق الخطاب الماضي الموجود في الأذهان . انه ينفذ الى ذهنية الشخصية فيستقر فيها فيغدو مكتوبا ، محفورا منقوشا على رخام الذاكرة فتتأدلج الشخصية ، وتتخدر ، فيسرى فيها التخدير سريان السحر في ذات المسحور فتعمل بحسبه فتتشخص الأيديولوجيا السائدة وتصبح حية تسعى وتلتهم شخصيات أخرى لا يحكي بدون شخصية .

والجنون وثورته ، والشغب ارادته في التغيير وتحطيم الانساق ، ورغبته في التحول ، والتموقف بالقول بالقول والفعل المسئول . وتتجلى الأيديولوجيا أيضا في التقويم انطلاقا من قواعد ومحكات ، وفي شكل لغة ، وأقوال ، وآراء ، ووجهات نظر ، وأفكار ، ونظرات الشخصية أو السارد ونظريات ، ومعرفة تقنية ، وجمالية ، وصناعة وفنية وثقافية ، ومهنية وكتابية ، وانشائية تخضع للقوانين المسطرة ، وللأعراف ، والأوضاع والمواضعات الاجتماعية ، والأذواق ، والرؤى الى العالم والفلسفات . .

شخصية الشخصية الرئيسية :

في الصفحات الأولى من رواية « حضرة المحترم » يقدم السارد الخطاب الأيديولوجي السائد كأنه اشارة Signc مكتوبة على لافتة تلعب هذه الاشارة في الخطاب الروائي وظيفة اشارية مكثفة كما تلعب اللافتة في الحياة الواقعية الوظيفة ذاتها ، فهي تقرأ وتحفظ ، ولا تحلل ويسير القارئ العابر وفقها دون مناقشتها . انما تبدو كممثل كحكمة كقانون ، كوثيقة إدارية ، كمذكرة رسمية ، وتتخذ شكل جميع الصيغ التعبيرية القصيرة النثرية والشعرية ، وإن هذه الاشارة لتشكل في الرواية أفق إنتظار بالنسبة الى القارئ . ونظرا للعلاقة الجدلية بين فن التخيل والواقع ، فإن الايديولوجيا الرسمية تلقي بهذه الاشارة كما يلقي الفلاح بالبذرة آملا في أن تنضج وتؤتي أكلها في أرض وعي الناس حتى تنمو وتترعرع وتتفتح وتثمر في لا وعيهم لتجني هي بعد ذلك ، وبسهولة ، ثمارها ولا يهتمها حينئذ مصير السائرين والعاملين وفقه / والسارد الواعي بهذه الاشارة وبخطورتها هو الذي يتكفل تحت ظل الايديولوجيا المستقلة التي يساهم الانتهاء اليها الى جانب الثقافة الواسعة والتراكم المعرفي في تجذيرها وتفجيرها في وعيه الذي يصارع لاوعي المؤدلجين المشبثين بالأيديولوجيا الصنم - - بمهمة كشف وفضح أثر - ايديولوجيا سائدة الخطر على حياة ومصير الانسان المؤدلج الذي يؤنسسه السارد باعطائه صورة شخصية روائية يشكل الخطاب الأيديولوجي القاتل بنيتها المحكية والحكاكية ، فتتحرك

والموت في أن واحد أو ينغص اللذة بالموت الذي ينتظر الفتاة الجاهلة انه كالفراش المنمنم ذي المنظر الخلاب ولكنه يخفي تحته هوة سحيقة في قعرها أفاع سامة تلذغ الساقط فيها ، أو حراب استنتها الى فوق تودي بحياة كل من حاول الجلوس عليه . انه كالفقر المملوم المهدي .

ان الإشارة التي ذكرناها آنفا تومي من الآن فصاعدا الى ما ستمخض عنه الرواية في خطها الانحداري من وجهة نظر السارد ، والتصاعدي من وجهة نظر الشخصية ذلك الخط الذي يرسم المراحل التي ستقطعها الشخصية المؤجلة والدائمة الحضور في الخطاب الروائي الذي له أيضا سحره الخاص الا أن هذا السحر يبعث النشاط والحياة في القارئ الممكن كالغذاء والدواء والارتواء الجنسي والفكري ، وهذا القارئ سيهتز سكران متشيا بكأس الحياة انه النص المضاد لاجا قاله ولكن بمالم يقله والذي نستشفه من خلال ما قيل . انه النص / الحياة رغم عرضه للايديولوجيا السائدة / الموت ان الشخصية في رحلتها التراجية التي تلمح الى السقوط والانهار ثم الموت لاتعي تأجلها . ان الرحلة الى الحياة تحمل معها الموت العاجل . وكما قال لوكاش ابتدأت الطريق وانتهت الرحلة . انها رواية او سيرة الشخصية الاشكالية الذاتية . ان موت بيومي في آخر الرواية ناتج عن الحرمان من مباحج الحياة ان هذه الشخصية قدمتها الايديولوجيا الرسمية قربانا لمعبد الدولة ولقصتها اللامرئية هروبا من المفصلة المراثية الخاصة بالسياسيين وذوي الرأي التحرري ، المناضلين والفلاسفة والعلماء المناهضين لها .

والاشارة الساحرة المخدرة والقائلة قول السارد راويا عن عثمان بيومي الذي يرددها بهذه الصيغة هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام هذا هو المثل الاعلى المتاح لانباء الشعب ولاطمح لهم وراء ذلك تلك هي سדרه المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة . . سابعة سادسة . . خامسة . . رابعة . . ثالثة . . ثانية . . أولى . . مديرو عام . معجزتها

ان السارد يستقصي عبر النص الروائي جميع التظاهرات الممكنة للايديولوجيا السائدة ويتخذ لها شخصية كمرآة ذات أوجه متعددة مكسورة تعكس صورا متعددة لها . انه يسردن الخطاب الايديولوجي أو يؤنس السردى الايديولوجي من خلال شخصية الشخصية ليفضح الايديولوجيا المخدرة وأثرها القاتل والمبيد للأفراد والجماعات وتفرقتهم بعد تكتلهم متوسلا بالشخصية / النموذج دون أن يغفل ، كبنوي علاقاتها بالشخصيات الأخرى ، وبالزمان ، والمحيط والظروف والأحوال لتكتمل صورتها وتلتحم بنيتها . ونجيب محفوظ ، ككاتب روائي يخلق شخصية أخرى تكفل بالسرد وهو السارد وعلى الناقد في ممارسته النقدية للعمل الروائي أن يرصد علاقة الشخصية بالسارد كشخصية فكل من ايديولوجيته أو قد يلتقيان ، بوعي أو غير وعي ، في ايديولوجيا واحدة كما افترقا . وان نجيب محفوظ لسيمائي كبير اذ تتبع تجليات الايديولوجيا السائدة والمستقلة ويسجل راصدا سيميائياتها التي تشكل عالما كبيرا يغمر المؤجلين ، ويجرفهم تياره ، فيتخبطون في أمواجه المتلاطمة كغرقى يصارعونها كل حسب طريقته حبا في النجاة بحياته ، صراعا ينم عن مغامرة فردانية مؤجلة . والدليل على نهجه المنهج السيميائي ذا الرؤية الثاقبة قول السارد في « حضرة المحترم » : « وتراءت دنيا من المعاني والمؤثرات » (ص : ٥) . وليست غاية هذا الفضح هو السخرية فحسب ، بل الغاية هي ادراكه أو وعي حدة مقصلة الخطاب الايديولوجي ومضائه ، وشدة وقعه الذي يشبه وقع الرصاص في الرؤوس والصدور ، سواء جاء على شكل كلمة ، أو جملة أو عبارة ، أو نص ، وفي جميع مرافق الحياة : في الشارع في العمل ، في المقهى ، في وسائل النشر السمعية والبصرية ، ووسائل الاعلام . وخطورته تكمن في اختزاله حياة المؤجلين الذين يغدون حماة الايديولوجيا السائدة ، والمبشرين بها ، والمدافعين الأوائل عنها رغم سلبها حقوقهم ، وتجهيلهم ، وحرمانهم من ملذات الحياة . انها تحمل في طيها موتهم العاجل . فخطابها ساحر ولكنه كشهريار يمنح اللذة

المتباعدة كالمقاربة والمتجاورة تشكل ثنائيات وتراتبية .
ومن أجل الفتات ، والبقايا ، والفضلات ، والنفائات
تستغرق هذه الدرجات حياة الانسان القصيرة
بكاملها ، ويحكم عليها باعدام عاجل قبل الاعدام
المؤجل الذي حكمت به عليه الطبيعة معجزتها تتحقق
في اثنين وثلاثين عاما . وربما تحققت في أكثر من ذلك
ولا يفوت السارد أن يدلي بوجهة نظره المضادة
الاتواصلية ، والكاشفة للحقيقة العارية ، على هذه
الدرجات بصيغة تواصلية : « أما الساقطون في وسط
الطريق فلا حصر لهم » (ص : ١٠) . الموت المعجل
الذي يعدم الناس قبل الموت المؤجل - حسب رؤية
السارد الواعية وعيا ممكنا - يتخذ أشكالا متعددة وألقابا
متنوعة ، موهة (بالكسر) ، خادعة ، اغرائية تراتبية :
صاحب السعادة - المدير العام . ويكني عن الاعدام
السابق وانه بلغة الفرقان بكنائيات سحرية مخدرة لها
مفاهيم في تصور ذهنية المؤدلج ميتافيزيقية : الرحمة
الالهية - سدرية المنتهى - حيث تنتهي حياة الموظف في
الواقع وهو جالس على شوكة الوظيفة وخياله فيما لم يعرفه
ولن يعرفه وانما يتصوره ويرسم له في خياله صورة غائمة
وعائمة وهلامية - والمثل الأعلى - والمعجزة التي ترتبط في
ذاكرة الشعوب بالأنبياء الذين يجعلهم الخطاب المؤدلج
فوق البشر . ومفهوم المعجزة في المحكي مفهوم السني
لا سيما اذا نظرنا الى العلاقة التنضيفية التي وضعت
كلمة « المعجزة » بعد لفظ « مدير عام » . ومعناها أن
هذه المكانة مكانة الهية ، وخاصة باله أونبي أما الانسان
فهو عاجز عن بلوغها في زمن الايديولوجيات السائدة
التي تخث على الاهتمام بها وتشغيل الفكر بحلم الوصول
اليها في زمن الوصولية . أما المفهوم الدلالي المعروف فهو
يعني الفعل الخارق الذي يفوق القدرة البشرية وهو
مفهوم ميتافيزيقي خرافي أسطوري . ولايجني من هذه
الألقاب الماكرة ، والمضللة ، والأحكام القيمية المطلقة
التي لاتحدها النسبية الواقعية سوى الفقر والعوز والحاجة
الدائمة الملحة والموت المعجل لأن أجرة العامل .

تتحققت في اثنين وثلاثين عاما وربما تحققت في أكثر من
ذلك . (ص : ١٠) . ان هذا الخطاب مؤدلج يميز
بين رؤيتين الى العمل / الوظيفة :

١ - رؤية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا السائدة
التي قسمت العمل تقسيما تفتيتيا الى درجات تخفي
وراءها الاستغلال ، والاستلاب وسراب الحياة .

٢ - رؤية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا
العقائدية .

وتبرز الرؤيتان من خلال التقييم الظاهر في النص /
الشعار المؤدلج الذي يرسخ ايديولوجيا الطبقة المالكة
لوسائل الانتاج عن طريق الاعتماد على العقيدة
وتشويهها كما يبدو ذلك من سجل الفرقان ولغته التي
تتخذها كقناة يعبر منها الخطاب المؤدلج الى الأذهان دون
مقاومة لأنه حتى العقيدة تأدجت وانصهرت
الايدولوجيتان فشكلتا ايديولوجيا واحدة سائدة .
ويتجلى التقويم وأحكامه من خلال النعوت ، والصفات
والأحوال ، والكنائيات والألقاب وفق قواعد الثنائيات
والمراحل الموجودة بين طرفي الثنائية كالسعادة والشقاء
والتألق والانطفاء ، والمثل الأسفل والأعلى والجنة
والنار ، والكبرياء (الكبر + الرياء) والدناءة ، والعادي
والخارق ، والتحقيق وعدمه ، والقناعة والطموح :
طريق سعيدة - تنتهي متألفة - المثل الأعلى - سدرية
المنتهى - الكبرياء البشري - معجزتها تتحقق (٢)
والخطاب المؤدلج يؤكد بسحره الغامض والخيالي
والميتافيزيقي والأسطوري ، التحقيق وينفي الطموح
المختلف بصورة اطلاقية : « ولامطمح لهم وراء ذلك
المؤدلجون ، هم الذين يبتكرون هذا الخطاب كبنية
فوقية لما يسيطرونه من قوانين صارمة على الشعب والحامية
لمصالحهم الاقتصادية ومن تشريعات استغلالية اجرامية
وقاتلة بتلذير العمل وجعل القيم المضادة مجرد أوهام :
« ثامنة .. سابعة .. سادسة .. خامسة .. رابعة ..
ثالثة .. ثانية .. أولى .. مدير عام » . والأرقام

الموظف زهيدة ويعوض عنها بالخطاب الوهمي المؤدلج ، والروح المجرد ، المثال ، الرحمة والجنة ، والسعادة المرجأة كتعويض عن المادي والمحسوس والسعادة المرجوة الواقعية والضرورية وما الفتات المتذلل سوى البديل الختمي لهذه الترقية السيزيفية الملهوفة واللاهثة من أجل لاشيء والمحترقة شوقا الى العدم لا حترق الأجور بنار الأسعار واحترق المأجور :

« اني أشتغل ياربي . . »

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام . وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نور باهر ، فاحتواها بقلبه وشد عليها بجنون ، كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة » (ص : ١) . ان السارد يجعل من بيومي - Bio O Vie من بيومي ولكن = Mais أو Moitie O mi وهكذا يغدو اسم بيومي من حيث التحليل التجنيسي التصحيقي « حياة ، ولكن . . »

أو « نصف حياة » أو « حياة ناقصة » - الفراشة التي احترقت لما حاولت المستحيل وهو اقتباس من الشمعة نارها . إنه يحكم عليه بأنه مخلق في الأحلام أي رومانسي طوباوي وأنه منبهق بمحرق سحر الايدولوجيا المحرقة بعدما حلت فيه فحل فيها . إنه الحلول الايدولوجي . وقد شبه السارد هذا السحر وهذه الفتنة بالنار المقدسة . وبيومي المنبهق بالنور يقدر النار كالبداية والمؤدلج ولكن نورها أعشاه فأرداه أعمى لا يدرك النار البروميشية التي تحمل معنى الحياة الحقيقية وإدراكه خاطيء لأنه يرى معنى الحياة في الموت . والانبهار والتقدس يستلزمان التصحية الشيء الذي أفضى به ، في مسيرته الطموحة إلى المجد الزائف ، إلى التفتر ، والادخار ، والحرمان القاتل ، والبخل المتشدد خوفا مما قد تسفر عنه الأيام المؤدلجة المضطربة - وهي دائما تسفر عن شيء غير متوقع - وهي التي تغرس

الأوهام ، وتزرع الاستيهامات فتنمو ، وتنضج ، وتثمر ، فتحصد ، وتستحوذ على الانتاج كله فتجمع الشخصية المؤدلجة ، كلاكطة ، الهشيم لأن الايدولوجيا المؤسرة أسطرت الذات فأسقطت الذات نفسها على الأسطورة فأعدمت الحاضر والواقع . ولن تزول الأسطورة إلا بزوال الايدولوجيا المؤسرة .

يقول السارد عن عثمان بيومي وعن سيرته الذاتية الدالة على الوضعية الاقتصادية الخاصة والعامة في الزمن المؤدلج .

لن تفهم أي سيرة إلا اذا ربطناها بالظروف الاقتصادية لأن السيرة داخل العمل الأدبي ومن ثم ربط هذه البنية السيرية الدالة بالبنية الاقتصادية العامة للمجتمع الذي يعيش فيه - :

« إنه ينفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن أن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائره دينه ، وأمان ضد الخوف في عالم مخيف » (ص : ٢٩) .

إن النص يوضح أن الشخصية تخضع لايدولوجيا التوفير كإضافة أخرى على إيدولوجيا تفتيت العمل والأجرة ، ومضاعفة الحرمان ، وعدم الاستقرار النفسي والتردد ، والخيرة ، والانتقاء المستمر ، والاختيار الدائم ، والعجز عن الانفاق والثبات في مكان واحد كماء المستنقع ، والتمسك والاقتناع بطعام واحد كالبهيمة إلى حد لا يغني الغذاء عن الدواء والدواء عن الغذاء لعدم القدرة في اقتنائها معا . والخطاب المؤدلج يصدق / ينطق بالتوفير بنسبة الربح الغامضة والمغرية والضميلة لتضخيم الرأسمال .

هناك ثلاثة دلائل على مخالفة السارد للشخصية المؤدلجة :

ألحان وغير ألحان إلى أن ماتت حواسه فأضحى جثة لا يغنيها في شيء ما تبقى لديها من حركة وعي مؤدلج زائف .

إن الايدولوجيا السائدة حرباء معكوسة . إنها تلون بلونها كل ما تمر به من ثقافات كالتاريخ ، والحضارة ، والأخلاق ، والعلوم بشئ أصنافها ، والفلسفة ، والأدب . إن هذه الثقافات المؤسسية تتأدلج الى حد يتعذر التعرف عليها كما يتعذر التعرف على الحرباء في الأشياء . لا يدركها من ثم عدا من خبرها ، وخبر حربائتها المقلوبة . فالتاريخ مثلا يتشكل بتشكيلها ، وتنصهر الأخلاق في بوتقتها إلى حد أنها تجعل الوظيفة فوق كل المهن الأخرى كالتجارة ، والصناعة ، والسياسة ، والجندية ، والبحرية . . . ، وتضرب هالة من التقديس حولها فتبعدها من الأرض في عليائها بعد أن موقعتها في السماء بحيث يستحيل الآن عليها معرفتها ولجلهها مزجتها بالاله فلا يكاد المرء يميز أحدهما عن الآخر إلا إذا قيص لها كاتب ساخر يضحك ويضحك من المقدسات بعد إنزالها من سماء الوهم إلى أرض الحقيقة والواقع . يقول سارد « حضرة المحترم » : « الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسية مقدسة كالعبء » (ص : ١١٣) . وهكذا يعدل التاريخ الحقيقي ، تاريخ الشعوب ، والحضارة التي شيدوها ، شقفا أو إغتيالاً

إن الايدولوجيا السيدة تستمد قوتها ونورها المضلل ، وبريقها الخادع من العمل المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف والذي يجهل الراحة ، ولا يفكر فيها ، كما لا يقارن زمنها بزمن العمل الذي يندى فيه جسده عرقاً ، ويرهق فيه ذهنه تفكيراً ، ولا يدرك هذا العمل على العامل / الموظف سوى التفت ، ولا « يرد عليه » أصحاب وسائل الانتاج المنتجين للخطاب المؤدلج « رزقه » .

الراحة حق من حقوق كل أنسان .

١ - أن طبيعة الحكاية هنا مزدوجة . إن المرء عندما يحكى بضمير الغائب عن شخص آخر أو شخصية تخيلية ، ويعرض وجهات نظره ، وسلوكاته ، وأفعاله ، فإنه يقوم بفعل الحكى كي يستخلص القارئ نقيضها . والرواية بضمير ال « هو » الدالة على الشخصية تتضمن في ذات الوقت ضمير « أنا » السارد ، وضمير « أنت » القارئ ، وكأن الراوي يقول للقارئ دون أن يصرح بذلك : « إني لست مع وجهات نظره وسلوكاته وأعماله ، وإني لأخالفه في كل ذلك فما رأيك أنت ؟ » .

٢ - سمة الاسناد ، والايغاز ، والاضافة ، والنسبة بضمير الغائب لتبرئة ساحة أنا السارد وأنت القارئ . تقييم السارد للعالم بنعته بصفة « مخيف » انطلاقاً من معيار الخوف والاطمئنان ، وهي صفة تختمل ضمن ما تختمل من دلالات حافة دلالتين تحددان رؤيتين الى العالم ؛

أ - رؤية الشخصية الحرفية القاموسية الضيقة لوعيتها الزائف المؤدلج والسلفي : « العزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه : - هكذا عاش الخلفاء الراشدون » (ص : ٧٢) .

ب - رؤية السارد الواسعة لوعيه المحتمل بحيث أن ما يخيفه هو عالم الايدولوجيا المفرقة والمستتة للناس وبحيث يغدو المخيف هو غياب التضامن التاريخي .

إن بيومي يحرم نفسه بل هو مدفوع الى الحرمان لتأدلجه ، من كل متعة ، ولذة ، وجمال في الأشياء ، والأجسام ، والأجساد ، والأصوات ، والروائح ، والأطياب ، والأطعمة والألحان ، والمشاهد الخلابة ، والأسفار ، والرحلات ، والاكتشافات ، والاختراعات ، والمناظر الجذابة والمتغيرة حسب الفصول ، والأزمنة والأقطار ، ومن دفء الشمس وبرد الشتاء وبرودة المياه وثلجها صيفا ، وأنواع الشراب في

لن يناظر المؤدلج عن شيء أعمته الايدولوجيا التعتمية عن رؤيته . فقوتها مستعارة من قوته ، ونورها يقتبس من نوره فأصبحت قوته من « قوتها » ونوره من « نورها » . ولأجل هذا ولتنوير الظلامية الكامن في نورها الخادع يدعو السارد القارىء لدراسة الموظف / العامل دراسة اقتصاد - اجتماع - نفسية كي يتعرف هذا الاخير على واقعة وليغيره ويعمل على تغييره ، وتغيير وضعية العمال التي ستغير وضعيته . لا يزال الموظف لغزا محيرا ، ومستعصيا على الدراسة التي تقتضي تضافر الجهود لينفرد كل دارس بزايوة وحسب اختصاصه . « وحضرة المحترم » تدرس وفق اختصاصها الابداعي الروائي وعي الموظف نفسه وهو بنية فوقية صغيرة شكلتها الايدولوجيا السيدة البنية الفوقية الكبيرة التي تشكلها مع البنية التحتية المختارة .

لا يمكن للبنية الفوقية المؤدجلة أن تنتقد ذاتها إلا إذا وعت ذاتها ووعت الايدولوجيا السيدة والبنية التحتية المتوخاة في كل أبعادها ، وقارنتها بالبنيات التحتية المناقضة لها .

لا نريد هنا إعادة القول في العلاقة الجدلية بين المادة والفكر .

لن نغير الفكر الواقع إلا إذا كان واعيا به ، وبالفكر الناتج عن الواقع أي ان يعي الفكر ذاته وأن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه الذآن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه .

يقول السارد بأسلوب المحكي الذاتي المجلوب في خطاب تتعاقب فيه الايدولوجيا الحرة والايدولوجيا السيدة : « وقال لنفسه إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . والموظف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربا أو سياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو في مصر الموظف . وإن أول تعاليم

أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ . وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الآلهة في الساء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية ، ووادي وادي فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رؤوسهم ترتفع لدى انتظامها في سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون إلى فوق إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة في الساء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحي وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء » (ص ١١٣) إذا كانت الشخصية والفلاحون يقدسون الوظيفة إلى حد عبادة الموظفين « الكبار » ، فإن السارد يحل الفلاحين ويمجد الأرض ويعظمها ويكن لها كل تقدير . ولكل من السارد والشخصية أحكامه التقييمية . فالسارد يحكم على الفلاحين والأرض بالصفة التي يحددها النعت التخصيصي الذي يفضل قيمة من بين القيم الأخرى : الطيبين - الطيبة . أما الشخصية فهي تحكم على الوظيفة بالأحكام التقييمية الأخلاقية ، والتقنية ، والمعرفية ، والنفسية ، والعقائدية : خدمة للناس - حق للكفاءة - واجب للضمير الحي - كبرياء للذات البشرية - عبادة الله - وفق معايير الخدمة وعدمها ، للناس أو للحيوان والأشياء ، الحق أو غيره ، الكفاءة أو العجز ، الواجب أو غيره ، الضمير وعدم الضمير ، الحي أو الميت ، الكبرياء أو الدناءة ، العبادة أو الكفر ، الله أو الشيطان . ويبدو أيضا أثر - الأيدولوجيا في تاريخ الموظف الذي يحكم عليه حكما قيميا وفق معيار الجدة والقدم ، والواقع والمثال ، وجود التعاليم وانعدامها ، أخلاقية وغير أخلاقية ، والتعيين أو الانتظار ، الالهي أو الشيطاني ، الالهي أو الانساني ، الطقوس أو غياها الدينية أو غير الدينية ، إدارية أو لا

إدارة ، مالية أو غير مالية ، منظمة أو فوضوية : أقدم موظف في تاريخ الحضارة - المثل الأعلى - التعاليم الأخلاقية الأولى وصايا موظف - فرعون موظف - معين من قبل الآلهة - طقوس دينية - تعاليم إدارية مالية - تنظيمية . وأن الفلاحين / الموظفين يتطلعون إلى فوق مما يدل على أن هناك (تحت) و (فوق) بل توجد كل الثنائيات التي ينبغي تدمير قلاعها وحصونها . والسارد يدعو إلى أن تقام البحوث حول الموظف لمعرفة واقع الوظيفة ، ولادراك أنها مقدسة دون سائر الوظائف ، وأنها تتبع النظام الوراثي منذ الفراعنة . ولو استحضرننا علائق الغياب في ذاكرتنا عن فرعون ، وعن تجبره ، وطغيانه وتآله ، واستبداده الذي سكت عنه الخطاب المؤدلج واكتفى بالاشارة الى نظمه كالنظام الاقتصادي المتدهور الذي يتخذ الدين والأخلاق أيديولوجيا سائدة للاستغلال ، لاكتملت لدينا دلالات علائق الحضور في الجملة الخاصة بفرعون ، ولأدركنا أن التاريخ يعيد نفسه بصورة أبشع . وتتمظهر أيديولوجيا السارد المستقلة في الحذف ، والبياض الذي تركه مفضلا الصمت والسكوت . يتجلى الحذف في قوله : « إن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا » حيث حذف « لنا » بين حفظها والتاريخ لأنه يرغب في أن تحفظ لنا . ويتجلى صمته وسكوته عما يشبه هذا القول : « كما يحدث في مصر الآن » الذي كان بإمكانه أن يأتي بعد الجملة التي تحدثت عن فرعون في حذف هذا القول . وبقي الصمت مستمرا إلى أن جاء يوسف القعيد فمزق الكمامة ليجهر في حرية واستقلال بهذا القول عنوانا لرائعته « يحدث في مصر الآن » . أما السارد « حصرة المحترم » فهو يقفز على الثغرة التي أحدثها في المقطع السردى إلى وصف الفلاحين الذين ينحنون لتمتطي الحكومة ظهورهم ، ويركعون لها لتأليهم إياها بدل الانحناء لإجلالا وإكبارا للأرض الجديرة به .

إن الأرض إلهة كل الآلهة تحت الشمس .
ما أحوج الوظيفة إلى عبادة الأرض وتقديسها !
والفلاحون في استيهاماتهم المقدسة (بالكسر)
للوظيفة ولتأديجهم يتوقون إلى المستحيل ، والأسطوري
في إثيوبيا تنسيهم الممكن / الأرض / الواقع / الإنسان
/ الجميع ، وتشخص أبصارهم إلى « المناصب العليا »
كما تشخص إلى الهة الخلود . لو كانوا غير مؤدلجين
لعلموا أن أصحاب « المناصب العليا » أقزام لا حول ولا
قوة لهم إلا قوة الفلاحين ، والعمال ، والموظفين ،
والحرفيين ، والصناع ، والعاملين - بإختصار - كل
عمل باليد والفكر ، وقوة الأرض ، وثروتها هو الذي
يحدد المناصب ، ورواتبها ، ولزهدوا في هذه المناصب ،
ولسخرخوا من الموظفين « الكبار » الذين يعيشون حالة
على الفلاحين وغيرهم .
إن قوة الشعب هي قوة الحكومة .
إنها حكومة لم تع ذاتها .
إن الشعب هو الدولة في الحقيقة والواقع .
إذا بخلت الأرض فلتقم على المنصب والوظيفة
والمآتم .
إذا انتزعت الأرض عنوة أو مراوغة عن طريق
الضرائب ، والغلاء ، والزيادة في الأسعار وفي ساعات
العمل ، فالنضال حتمي لاسترجاعها فوراً .
إن الصعود في ذلك المقطع السردى مجازي يعني
صعود الأرواح / النفوس إلى السماء قبل أوانها وقبل
موت الجسد حسب ثنائية الروح والجسد . وهو أمر
مستحيل إذا تحطمت هذه الثنائية ، إنه صعود مبكر وغير
طبيعي ناتج عما عاناه صاحبه من عذاب ولرارة وشقاء
الجري وراء السراب . إنه بلغة مجازية موت مستعجل
رغم حركة الأجساد بغية تحقيق الآمال الخادعة ،
والأماني الضائعة . وجهة نظر الشخصية المؤدلجة
(المؤدلجة خبر لوجهة النظر) تنم عن رؤيتها الاحادية

مفيدة زواجاً موفقاً من شأنه تمهيد الطريق للتقدم» (ص ١٥) .

يعبر هذا النص عن أن « حضرة المحترم » تقدم بنية ملتزمة ، فعلى مستوى الحكاية ، فإن سلوكه الشخصية يخضع بحرفية بلهاء للخطاب الايديولوجي الرسمي الذي جاء في صيغة الاشارة التي سبق ذكرها . فهي تسير وفقه في تفكيرها ، وتصورها ، ومعرفتها ، ورؤيتها للتاريخ ، والاقتصاد ، والدولة ، والدين ، والعمل / الوظيفة . . . وعلى مستوى المحكي ، فهذا الشعار في العمل والحياة « وكما يتجلى ذلك من بنوده الثمانية التي تطابق عدد الدرجات الثماني المسطرة في الاشارة المؤدجلة والباعثة على التأدلج ، تفريع عن الاشارة المؤدجلة منسجم معها كباقي التفرعات التي ستليها في شكل مقاطع سردية ، وحوارات ، ومحكيات وأوصاف ، ووجهات نظر السارد والشخصيات التي يوزعها نجيب أيضاً بتقنية هندسية معمارية ورياضية وفق عدد ٨ : فالشخصيات / النساء ثمان :

- ١ - أم حسني .
- ٢ - سيدة .
- ٣ - قدرية .
- ٤ - ست سنية .
- ٥ - أصيلة الناظرة .
- ٦ - أنسية رمضان .
- ٧ - إحسان إبراهيم .
- ٨ - راضية عبد الخالق ، والشخصيات / الرجال كذلك ثمان :

- ١ - سعفان بسيوني .
- ٢ - حمزة السويقي .
- ٣ - بهجت نور .
- ٤ - حسين جميل .
- ٥ - إسماعيل فائقة .

إلى الوظيفة . إنها تعتبر العمل منفصلاً عن الراحة بكل ما تحمل كلمة « راحة » من شحنات دلالية ، وتعد الراحة منفصلة عن العمل مما يجعل الرؤية موسومة بالثنائية حتى . تتجلى هذه الثنائية في ورقة العمل التي اتخذتها الشخصية دستوراً وشعاراً لها ومشروعاً لسلوكها المستقبلي . إنه نص يفتح بالعلائق الاستبدالية اللغوية الدالة على البراكسيات إذ يسود فيها جذر العمل وغياب الراحة . لا وجود ولو لاشارة بسيطة إلى الراحة ، والتسلية ، والعبث الجاد أو الجد العاثر ، والاقبال على الحياة والحب . إنه نص تنبثق منه العقلانية المعاشية لتعبيره ، والكاشفة عن حضورها المكثف والمستقر في وعي الشخصية كما تنبجس منه البراجماتية والايديولوجيا القتالة والبخيلة التي لا « نفع » فيها ولا « منفعة » ترجى منها لأنها تشغل الفرد الذي يفني عمره في دراسة لنيل شهادة التخرج إلى الشارع أو القبر قسراً لا اختياراً تمليه التضحية والتموقف من أجل الجميع أو في سبيل الانسان :

- ١ - القيام بالواجب بدقة .
- ٢ - دراسة اللائحة المالية التي يشار إليها وكأنها كتاب مقدس .
- ٣ - الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .
- ٤ - دراسة خاصة للغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى العربية .
- ٥ - التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .
- ٦ - الاعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادي في عملي .
- ٧ - العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .
- ٨ - الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذي شأن ، صداقة

ومعيار الربح والخسارة : الحصول - المفيدة -
كسب - الاستفادة - الفرص المفيدة - صداقة مفيدة ،
والطابو TABOU الخاضع لمعيار المعرفة السفلية
والعليا : الشهادة العليا . والغاية منها هي الترقية .
والظل الذي ينوب عن الترقية وفتات الترقية هي
الشهادة التي يفوق مجهودها مقابلها الذري ، إلى حد
الزهد في الجانب الأساسي وهو الحياة والانسياق وراء
التفكير في الذات الفردية المؤدجلة وطموحاتها الزائفة ما
دامت بعيدة عن قضايا الناس جميعاً :

« - هل ما زال ينقصك تعليم ؟

- الشهادة العليا .

- لماذا ؟

- مساعدة لأبأس بها للترقي « (ص : ١٨ - ١٩) .
ويختزل معنى حياة الشخصية في الوظيفة ، في العمل
« المقدس » . فالعمل في نظرها كوني ، إنه يعني الإله ،
والحكومة وذاتها الواحدة والوحيدة المجسدة لروح
الإله .

إن الأيديولوجية الرسمية هي التي تتحدث عبر ذات
الشخصية سواء بصيغة المناجاة أو بصيغة المحكي الذاتي
المجلوب والتلقائي ، أو في حوارها مع باقي
الشخصيات وعرض وجهات نظرها . إن الشخصية
مبشرة بها وتستند ، دون وعي منها ، إليها في كل اتصال
تقيمه مع غيرها . وهي نموذج للمؤدجلين الذين يتم
التواصل بينهم لتوحدتهم ووحدهم واتحادهم اللاواعي
تحت ظل وحدة الخطاب المؤدج (بالفتح وبالكسر)
بنفاذه إلى ذهنياتهم كما فرق بينهم لدعوته الرومانسية
والفردانية والمثالية فأمسوا ذواتاً متشظية كل واحدة تسير
في طريقها الخاص كالكواكب المتباعدة محاولة تأكيد
الذات التي ألغتها الأيديولوجيا الرسمية بتأكيد ذاتها
هي . وكل تأكيد للذات ما هو إلا تقليد جديد لذاتها في
صورة تقليد للفرد / الإله كما حدث ذلك لجولييان

٦ - عبد الله وجدي .

٧ - مهندس .

٨ - طبيب .

وسيلتقي عثمان بيومي ، ويتحاور ، ويدلي بوجهات
نظره وفق وجهات نظر هذه الشخصيات بالتبادل
لتداخل الشخصيات / النساء بالشخصيات الرجال بناء
عليها تتغير فصول الرواية .

إن التأدلج معاش لهذه الورقة ونستشف ذلك من
العقلانية الأخلاقية التي تقسر الفرد على تقديم الواجب
وتوبخه على إهماله فغداً ذلك معياراً يقوم من خلاله :
القيام بالواجب ، ومن خلال معيار معرفة أو جهل
التقنية : بدقة ، ومعيار الأمانة والخيانة : بأمانة ،
ومقياس التقديس والتدنيس : تقديس الوثيقة المالية ،
وقاعدة الوقاحة والليونة ، وسيلة مهذبة ، وقانون
الأخلاقيات : تديني - خلقي - الكرامة ، والمعرفة
حسب قاعدة العلمي والأدبي : مساعدة أدبية ، وضابط
النجاح والفشل : زواج موفق ، وسنة التقدم
والتخلف : طريق التقدم ، ومعك الثقة وعدم الثقة :
ثقة ، والحب والكراهية : محبتهم .

أما قاعدة العمل فهي التي تهيمن على المشروع .

إن إحدى مقولات سارتر هي أن الإنسان مشروع .
ولكنه يمكن أن يكون مشروعاً لمشروع لم يختره بكامل
الحرية والوعي . وسيمارس حريته ووعيه عندما سينظر
في مشروعه نظرة نافذة تجعله يميز بين مشروعه كإنسان
حر ومشروع غيره الذي يستعبده .

وبيومي ليس بمشروعه كإنسان مستقل بل هو مشروع
غيره . إنه مستعبد من طرف المشروع الأيديولوجي
المسيطر الذي يخضع الناس للعمل فقط : ورقة عمل -
القيام ب - دراسة (ثلاث مرات) - التزود - يعملون
من منازلهم - اجتهادي في عملي - العمل على - مساعدة -
تقدم . . .

سوريل في رواية استندال « الأحمر والأسود » : « قال إن حياة الانسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينبض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأديه الجهود والاخلاص والابداع . إنها مقدسة ودينية ، بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الانسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا » (ص ٢٢) . وهذا مقطع سردي مؤدلج يذعن لمعيار الحياة والموت ، الحياة الخاصة أو العامة ، الخفقان أو الهمود ، الجهد أو الخمول ، الاخلاص أو الغش ، الابتكار أو التقليد ، التقديس أو التدنيس ، التدين أو الكفر ، تحقق الذات الجماعية أو الفردية ، الجهاز المقدس أو المدنس ، الدولة أو الشعب ، جلال أو انحطاط ، الكلمة العليا أو الدنيا .

وتأكيدا لذات الفردية في الفكر المثالي والوعي الرومانسي المؤدلج يفضي بصاحبه الى جهل العلائق البنيوية الاجتماعية التي تحقق تأكيد الذات تأكيداً اجتماعياً وإنسانياً ، ويؤدي به الى الكدح كالعبد في القطاعية والرأسمالية رخم الاختلاف الجندري الموجود بينه وبين العبد الذي كان جسده يلهب بالسياط ، ويكره على العمل ، ويجبر على إنجازه مهما كانت قساوته ، والآلام التي يسببها له ، فينفذه مرغماً . أما المؤدلج فانه ينفذه « إختيارياً » أي يرغمه الخطاب المؤدلج الذي استقر في ذهنه فغدا سجين هذا الخطاب ، وأسير نسقه والنسق الذي صدر منه الخطاب . إنه يشقى دون ضرب أو جلد وإنما برضى تام بوضعه المزري وهو لا يدرك مصدر الشقاء ، والتعب ، والحرمان ، والقلق الوجودي الذي يستشعره بين الفينة والفينة . به يفكر ، وبه يشعر ، وحسب قوانينه يسير في عزله أو مع الآخرين . إنه لا يرى سوى العمل الشاق الذي لا ولن يستريح ما دام يعمل حتى في أماكن الراحة .

قال بعض الفلاسفة إننا لا نرى الأشياء إلا حسب تجاربنا . وهذا يعني أن العين زجاجة حسية وحاسة عضوية تربطنا بالعالم الخارجي . وإذا كانت التجارب هي التي تشكل بنيتنا الذهنية ، فهذا يعني أننا لا ندرك الأشياء كما هي ، وإنما نخلع عليها من تجاربنا ، من ذهننا ، من ذواتنا . إذن فالذهن هو الذي يرى الأشياء من خلال التجارب التي انطبعت على صفحته . والنسيان الذي يصاحب جدلياً عملية التذكر والتفكير هو الذي ينتخب مرجعاً أو موضوعاً من بين المراجع أو الموضوعات ليفكر بها . وإذا كان الخطاب الأيديولوجي السائد هو الذي يشكل بنيتنا الذهنية في جميع مراحل حياتنا التي لا تتجاوز ربع أو نصف قرن ، فأننا لن نتعامل مع العالم الخارجي إلا عبر هذه الذهنية ، وعن طريقها التي تقلب عملية الإدراك . كان الخطاب المؤدلج ينفذ الى ذهن في السنين الأولى ، سنين التعلم التقليدي والمؤسسي ، عبر زجاجة العين فشكل إطاراً « ثقافياً » وتراكماً « معرفياً » فأصبح ذهن في مرحلة « النضج » يرسل الخطاب المؤدلج على العالم الخارجي كما ترسل الكاميرا الأشعة التي تتحول الى صور على الشاشة ، من خلال زجاجة العين ولكن الصور تعود اليك عبر العين فيعيدها الى العالم مؤدجلة وغير عضو التعبير أيضاً / اللسان في شكل خطاب شفوي أو كتابي مؤدلج يتولد عن الخطاب الأول حاملاً سماته كالوليد الذي يحمل سمات الأب أو الأم أو هما معاً .

تتجلى سمات هذا الخطاب في خطاب بيومي الذي يعرض السارد وجهة نظره : « إنه يحتقر المواعظ التي تحت على الكسل ويعدها تجديفاً بذئ الجلال » (ص ٣٧) فليس بيومي هو الذي يحتقر المواعظ التي تحت على الكسل / الراحة وإنما الأيديولوجيا السائدة التي شوّهت الخطاب العقائدي عندما أذابته فيها ووجهته في اتجاهها . إننا لنصادفها معاً في كل مقطع سردي يصدر

عمله . ويؤدى عن المتأخرين أعمالهم . فالكلام عن نجدته لا يقل عن الكلام عن قدرته » (ص ٣٧) . وهنا يشير السارد وفق أحكام قيمة تعتمد معايير القدرة والعجز ، والمعرفة والجهل ، والتقنية والتلفيقية ، وقواعد السلوك الأخلاقية كاللقدّم والتأخر ، والرسوخ والتذبذب ، والمواظبة والتقاعد ، والكفاءة والعجز ، والحضور والغياب ، والعمل والراحة ، والاستقامة والشغب ، والانجاز والاهمال ، العبادة وتركها : وتقدم في كل شيء - ورسخت قدمه في عمله - الكفاءة - الاستقامة - أول الحاضرين آخر الذاهبين - في أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة - يؤدى عمله - يؤدى عن المتأخرين أعمالهم - نجدته - قدرته .

ويدمج في تصوره العمل بالعبادة كالأدلوجة (عبد الله العروى) ، ولو لم يترك له فرصة للعبادة الحق ، بل لا داعي لها إذا كان العمل عبادة حسب الدلالة المعاشية لهذا القول : « - لا يخلو عمل الانسان من عبادة » (ص ٣٨) .

وعثمان بيومى لا يعد ولو موظفاً بل يعد خادماً للرؤساء بل عبداً لهم . والطرق المؤدية إلى المناصب « العليا » تنفتت حسب معايير الطول والقصر ، والأهمية والتفاهة ، والشرف والدناءة ، والفائدة والخسارة ، والتقدير والتحقير ، والخدمة والتمرد ، والاذعان والتموقف . والسارد يرفض هذه المعايير وهذا الخنوع المفرط الذي يسلب الشخصية كينونتها . ويشير خطاب بيومى الى ذلك .

لكل كلمة نقيض حتى كلمة نقيض ذاتها .
اختر كلمتك ولا تدع الكلمة تخترك أو تختار من خلالها .

يحكى السارد عن بيومى قائلاً : « إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا ، إن عمله في الإدارة - على ضخامته وتقدير الجميع له - لن يكفي وحده ، فلا أقل من تقديم

عن بيومى المؤدلج وإن اختلفت الصيغ مما يمنح الخطاب الروائى تماسكه واتساقه . و (ذى الجلال) كناية تشير إلى الإله الذى يتجسد في الفرد / الإله . ونجبرنا الراوى عن بيومى بصيغة المحكى الذاتى المجلوب المؤدلج الذى يطغى في « حصرة المحترم » على المحكى الذاتى التلقائى المؤدلج : « قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصير » (ص ٢٧) . طبعاً فوجهة النظر هذه تنسجم مع الخطاب المؤدلج بل هي تفرغ آخر له وهي لا ترغب سوى في العمل المستمر الذى يشبه اللاعمل / البطالة لأن راحته لن تتحقق لا على المدى البعيد ولا على المدى القريب فتبقى الراحة هي اليوتوبيا والأسطورة المعاصرة التي تحتاج الى الطريق الذى يقسم وفق معيار ايديولوجى والذي يستند إلى قاعدة الطول والقصر ، والذي لا نهاية له لأنه ينسب إلى الإرادة الالهية ، ولأنه يناسب حلم الدولة التي ترغب في أن تطول مدة حكمها ، وتستمر وراثته الحكم إلى ما لا نهاية بابعاد الفكر والتفكير الذي سيتساءل : من يحكم ؟ في الماورائيات والأساطير ، وهكذا تقسو الشخصية المؤدلجة على نفسها لأنها مغتربة عن ذاتها ، ومكونات وعيها ، وحاجاتها ، ولا تدرك العامل الاقتصادى المحدد للخطاب المؤدلج والكامن وراء قلقها ، وحيرتها . إنها تعمل / تموت في حين يحيا منتجو الخطاب المؤدلج لتبرير كسلهم ، وعدم إنتاجهم ، وراحتهم ، وترفعهم ، ولذة عيشهم ، وفراغهم ، ومتعتهم ، وإقبالهم على الحياة اعتماداً على قوته المتجسدة في قوة عمله وقوة إنتاجه : « وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يخف ، ورسخت قدمه في عمله حتى شهد له سعفران بسيوني - رغم إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة وكان يقول عنه :

- انه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفي أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . وهو يؤدى

الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة ، ولعل ذلك يقلل من جزعه لقله ما ناله بالقياس الى ما يطمح اليه . ولكنه عزاء يتزود به في طريقة الطويل » (ص ٥٩) - لن نتحدث من الآن فصاعداً عن التفرعات لأن كل خطاب هو تفرع لخطاب سابق حتى نهاية الرواية - لا تقف وجهة نظر بيومي عند هذا الحد ، بل تتعداه الى مستوى اعتبار العمل مرادفاً للبطولة . ما البطولة ؟ .

إنها معيار تتجلى فيه التراتبية بين البطل واللا بطل في عصر الأيديولوجيا اللا بطلة . إن البطولة التي يقيّمها بقيمة تعود إلى معيار الحق والباطل ، هي التسابق ، والتنافس ، والتناحر على المناصب العمل كي لا تقف عجلة الآلة المنتجة واليد التي تسيروها ، ووسائل الانتاج المنتجة بشكل من الأشكال عن العمل بالاضراب عنه والذي يأتي كاجابة منطقية عن السؤال : لمن نعمل ؟

والذي يؤدي الى توقف الانتاج ، والمقضي الى انهيار هرم الربح ، وتقلص القيص ، وانحطاط الجاه ، وإضعاف القوة ، وإزالة السلطة ، وأنسنة الآلهة ، وإطفاء الاستنارة ، وابتداء تفكير الطبقة العاملة في الحركة في اتجاه الوعي الممكن ، وانتاج خطاب أيديولوجي بطل معايش للواقع المعيشي . إن الأيديولوجيا اللا بطلة تدفع بالفرد المؤدلج الى الزهد في الحياة ، والنظر اليها من خلال الموت العاجل الذي لا يعيه ، ومن خلال الوعود بأن التعويض سيكون في العالم الآخر . والحصيلة هي الخيال الملهي عن المادي والواقعي الذي يحتاجه الفرد في هذا العالم .

حتى وعود العالم الآخر في الحقيقة والواقع هي وعود من أجل هذا العالم هناك علاقة جدلية بين العالمين . يكفي استبدال الإله بالجميع لأنه بحث في « خطابه » على الاهتمام بالجميع .

وخير تعريف صادق يحدد هوية مثل هذه الشخصية المؤدلجة هو ما قالت عن نفسها كاذبة :
- إن الأيديولوجيا السائدة لا تكون صادقة إلا حينما تكشف عن كذبتها الذي تعتبره صادقاً -
« ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور في ساقية . . » (ص ٣١ - ٣٢) .
« - لا خير في هذه هي الحقيقة . . » (ص ١٠٠) .

« - لا يغرك منظري فمرضي ليس في القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماماً عن الزواج » (ص ١٠٥) .
وداعية الأيديولوجيا السيدة هذا يرفض الى حد الحق واليأس ، بناء على قاعدة الإيمان والكفر الحقيقيين أو الزائفين ، الراحة حتى حينما يحيق به المرض أو يشرف على الهلاك كما يتضح ذلك من حوار مع الطبيب البطل الذي يتحدث نيابة عن السارد البطل معارضاً آراء بيومي المؤدلجة :

« - ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعباً . إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئاً آخر ، يلزمك راحة تامة ، شهر على الأقل .
هتف :
- شهر !

- وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غدا . .
وجمع أدواته في حقيبتة الصغيرة ومضى وهو يقول :
- احفظ كلامي عن ظهر قلب . .
وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة » (ص ١٤٩) (. . .)

« ولكن الطبيب قال له :

- ما يهمني هو صحتك لا وظيفتك !
(. . .)

العجز (. . .) لا يززع الثقة به - ولا المرض - ولا الموت نفسه - الاصرار على المضي نحوه - وجود النبل والمعنى في الحياة .

وما فعلته الأيديولوجيا السائدة في حربائيتها المقلوبة بالتاريخ تفعله بالأدب . إنها تجرده من وظيفته المعرفية ، والتعبيرية ، والتحريرية ، والفلسفية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والانسانية ، ومن مخالفته لها واختلافه عنها ، ومفارقته ، ومناقضته لها وافتراقه عنها . قال « كاتب » في ظل الأيديولوجيا المسيطرة من المكتبة ، من المنشئين ، ووسيلة من وسائل إنتاجها دون أن يعي ذلك أو يشعر به ، ويصبح نتاجاً في علائق الانتاج ، ويضحي ما كتبه أداة لترويج خطاياها ، وسلعة كاسدة في سوقها الذي يحاول احتضان باقي الفنون غير المؤدجة . ويعرض الراوي هنا مستوى الشخصية المعرفي ، وقدرتها الجمالية في الكتابة والتي يبين التأدلج رؤيتها على هيكل الماضوية ، والسلفية : « واهتم بالشعر خاصة ، وحفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، إنه لخسران فادح أن يفشل في نظمه ، ولكنه على أي حال خير طريق لاتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المشود ، والأسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يحدثه بذلك ، واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع تلك المعارف مفيدة ، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية » فلبس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف » (ص ٢٣) . إن « معرفة » بيومي لا تنحصر في الشعر فحسب كمعرفة ذاكرية كالرواية الذي يرافق الشاعر ، يحفظ عنه ما يقوله ويردده أو كالنظام الذي ينعدم عنده حس الابداع ، والقدرة في الابتكار ، والخلق الشعري لغيب العواطف ، والاحساسات ، والانفعال النفسي المرهف الذي يحرك خوالج النفس

- المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها . .

- لم أسمع بذلك من قبل . . » (ص ١٥٧) .

إن الأيديولوجيا السائدة ضد العلم الذي يدرس الظاهرة وما يحقق استمرارها ويصارع ما يسعى في انهيارها ، وهي تنظر الى الظاهرة من زاوية عقائدية غير علمية . أما أيديولوجيا السارد المستقلة فهي تقرن العمل بالراحة ولو الراحة التي تواكب الزمن الموضوعي ، والزمن الكوني ، والطبيعي ، وأن يقترن بالراتب الموفر والمحقق لراحة العمل ، وراحة الجسد ، وراحة حاجيات المرض ومقتضياته ، وراحة حاجيات العافية ، كما تريد من العمل أن يتوقف ، على الأقل ، وكمرحلة أولى ، حسب توقف النهار والليل ، والبرودة والحرارة تبعاً لظروف المناخ التي تسمح بالعمل إن وجد . تعبر هذه الأيديولوجيا المستقلة عن نفسها من خلال وجهة نظر السارد : « إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم » (ص ١٠) .

وبيومي لا يتناقض مع ذاته عبر طول الرواية . فطموحه كما حددته له الأيديولوجية السائدة لا يتغير وإن تغير التعبير عنه ولا يتغير الطريق الذي رسمته له . فهو بصر على المضي فيه : « وظل على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالي . وقال إن العجز أحياناً عن بلوغه لا يززع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة » (ص ١٥٨) . ويعكس هذا الخطاب المعايير الأخلاقية المنحدرة عن تأدلج بيومي المثالي الذي يجهل في طموحاته الفردية طبيعة الجسد وواقعيته في حاجياته عبر مراحل العمر : إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة - الحياة الشاقة المقدسة - الجهاد والعذاب - الأمل البعيد المتعالي -

إنساني ، ولا ينفصل في مضمونه عن الحياة ، والحرية
المسؤولة . وهو كلام مقدس كالإنسان وهو الصق به ،
بل هو الذي يميزه عن سائر الكائنات . فهو منه وإليه .
لا يرمي به عند قدم أي صنم أو إله .
لا تفضيل بين الأجناس الأدبية .

كلها تتيح للإنسان فرصة التعبير الحر عن قضايا ،
وحرية إبداع أشكال جديدة .

يتناول السارد عمل بيومي ، ومعرفته وتقنيته
الشكلية ، وركامه المعرفي الضيق . وينظر بيومي إلى كل
ذلك نظرتة إلى الأشياء المطلوبة وفق قواعد نفعية في
غياب المنفعة التي يشير إليها مجال الحجرة الضيق كمجاز
عن ضيق الشخصية النفسية والمعيشي والحياتي : « كان
يعمل بجنون في الوزارة ، وتبحر في المعرفة في حجرته
الصغيرة » (ص ٤٦) . إنه موظف محروم من الفضاء
الكافي سواء في الوزارة أو في منزله حيث يسبقه العمل
إليه ويسخر منه : « ولذلك راح يترجم للصحف
والمجلات ليزيد من دخله وليزيد بالتالي من مدخراته .
ونجح في ذلك نجاحاً لا بأس به » (ص ٤٧) ، وعمل
الترجمة يخضع لمعيار بيومي في الزيادة والنقصان ،
والانفاق والادخار ، والنجاح والفشل والذي يقوم
بالجيد أو باللابأس به ، وتعدد أو قلة القدرات وفق
معيار الاستطاعة والعجز .

« أهنتك على نجاحك الذي يقطع بتعدد قدراتك »
(ص ٥٠) لا تطابق بين المجهود المبذول والمقابل المادي
المخدول . إن الأيديولوجيا المتحكمة هي العزاء الخيالي
الذي يتمظهر في اللغة . لا يستهلك بيومي كتعويض
عن القدرة الجمالية والأدبية الشكلية سوى الخطاب
المؤدلج منذ بداية حياته إلى نهايتها ، ذلك الخطاب
الذي يتغير أسلوبه ولغته وفق النظام المنسقي الدال على
أحكام القيمة المؤدلجة (بالفتح والكسر) التالية :

لأتصال الشاعر بالعالم وتناقضاته ، وإمساكه بقضايا
الناس ، ويستند ذلك عند بيومي إلى معايير المعرفة
والجهل ، والاهتمام والاهمال ، والحفظ وعدم الحفظ ،
والقلة والكثرة ، والشعر والنظم ، والنجاح والفشل :
أهتم بالشعر - حفظ منه الكثير - حاول نظمته ولكنه
فشل - ، ورؤيته إلى الشعر رؤية تقليدية تحدم
الأيديولوجيا السائدة تأسيساً على معايير الوسيلة أو عدم
الوسيلة ، التقرب أو الابتعاد ، الكبراء أو الصغراء ،
التألق أو عدم التألق ، الاحتفال أو عدمه ، الرسمي أو
العادي : إن الشعر كان وما يزال وسيلة للتقرب من
الكبراء - التألق في الحفلات الرسمية ، بل تمتد حتى إلى
النثر . وهو يستفيد من الشعر ليبصر في النثر /
الخطابة . ومعرفته التقنية في الكتابة / الانشاء معرفة
تأسس على معايير محافظة كالمثانة والليونة كما يتضح ذلك
من المصطلح النقدي التقليدي : الأسلوب الجزل ،
ومعيار معرفة اللغة العربية والأجنبية ، والنفعية
والوصولية : إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب
من الكبراء - جميع وتلك المعارف مفيدة - ترتفع قيمتها
في بورصة المضاربات الديوانية . إن عثمان بيومي
امتداد للشاعر القديم البوق ، والداعية والمبشر ،
والمقلد ، والوصولي الذي فقد شخصيته ، وسلبت منه
كينونته وذابت في كينونة الممدوح ، ولم يبق منه سوى
المظهر . ذهب الإنسان وبقي اللا إنسان الذي يتحرك
كآلة التي تخضع للتوجيه المسافي . إن الركام المعرفي
الماضوي لدى الشخصية المؤدلجة ينبع من / يصب كله
في الأيديولوجيا المتحكمة في النفسانيات ، فشلت الفكر
كما تشل العنكبوت كل حشرة تدخل في مجال نسيجها ،
فتبتلعها . إنها تؤجل بهذا الصنيع الوعي الممكن /
الحياة ، وتستعجل الوعي المستحيل / الموت .

والأدب في مفهوم السارد في التراكم المعرفي الواسع
فن كجميع الفنون ويحتضن عدة أجناس أدبية ، وهو

المراجعة يحدث له في إعداد مشروع الميزانية : « أما هو فكرس كل قواه لإعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملاً بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ، ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارة الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . . وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فترجع على قمة النصر المين » (ص ٨٠) . إن هذا المقطع السردى يعرض قدرة بيومي التقنية الإدارية ، والتنظيمية ، والمعرفية ، والبيانية ، والكتاتبية ، في إصدار الفتاوى ، وتفوقه ، وانتصاره لتجربته ، وخبرته المشفوعة بالعلم والمعرفة في الشؤون الإدارية الحكومية وفق معايير النظام والقوضى ، والدقة والملاحظة العابرة ، والكمال والنقص ، والخطأ والصواب ، والعلم والجهل ، والمثالية الواقعية ، والاعجاب والنفور ، والقمة والحضيض ، والانتصار والانحزام ، والخفاء والتجلي . ومع ذلك يحق به القلق الذي ينخر ما تبقى من قواه لأن الترقية بطيئة تعاكسها سرعة الموت التي يحمل جسده المنهوك بذرتها القائلة أكثر من أجساد غير المؤجلين . لاعتبار بيومي وكأنه لا وجود له . إنه مشياً . قوة عمله هي التي تحظى بالاعتبار . شيئاً ثم يهمل كشيء لا نفع فيه في مكان غير لائق به : « كل هذا يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفاني الجليل ؟ ألم يعلموا بأنه إنسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة في الإدارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشؤون الحكومية ؟ خبرة نيرة منزوية في وظيفة وكيل ثان للإدارة كأنها مصباح كهربائي قوة خمسمائة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية (ص ١١٣) . والأحكام التقويمية هنا تستند إلى قاعدة الخارق والمألوف ، والتافه

١ - أبدي إعجابه : أبدي سعادة المدير إعجابه بأسلوبك في الترجمة (ص ٥٨) .

٢ - ممتاز : « دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟ » (ص ٥٨ - ٥٩) .

٣ - جيد : « أسلوبك جيد » (ص ٦٤) .

٤ - مما تغبط عليه « أما أسلوبك فما تغبط عليه » (ص ٦٦) .

٥ - فذ حقاً « يهمني أن تراجع الأسلوب : أسلوبك فذ حقاً . . » (ص ٨١) .

٦ - مجرد ابتسامة يحظى بها : « وحظي - عند كل لقاء - بابتسامة لا يحظى بها المقربون » (ص ٨١) .

ولاغترار بيومي بالابتسامة كحظوة ، فإنه سيرضخ خانعاً ، ذليلاً ، قانعاً ، مقموماً ، لاستغلال أكثر بشاعة وأكثر تأدجلاً وأدجلة .

أ - سيعمل على مراجعة أسلوب لا مضمون أو محتوى كتاب ضخم سيستغرق فيه مدة شهر كامل .

ب - سيعزز بل سيعمل على تجذير الأيدولوجيا السائدة من وجهة نظر تاريخية ماضوية :

« هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديوي اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام ! نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

يهمني أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقاً .

تلقى التكليف بسعادة شاملة . وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة ، وفي شهر واحد أعاده إلى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة ، بذلك قدم الخدمة التي تلهف طويلاً على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائناً (ص ٨١) . وهكذا يغترب عنه عمله الذي قرره في ورقة عمل مشروع حياته المؤدلج ، بعد أن مارسه وأنجزه ، واغترب هو أيضاً عن عمله فضاعت مجهوداته كلها هباء . وما حدث له في

والجليل ، والعلم والجهل ، والعمل والبطالة أو الكسل ، والعادي والرسمي ، والعامة والخاصة ، والريادة والتقليد ، والتبر والمظلم كما يبدو ذلك من الصفات التي حشرها السارد في هذا المقطع .

ان الصورة الأدبية أكثر الأشكال الأدبية أدبية وتعبيرا عن أيديولوجيا السارد المستقلة .

والصورة الأدبية في هذا المقطع السردية تجسم ، في تعددية وغنى وثراء دلالاتها الخفية التي نحاول مقاربة بعضها ، ما يلي :

١ - التناقضات التي تسم مجتمعا الأيديولوجيا السائدة .

٢ - الضوء الذي يمكن أن ينير ساحة فسيحة الأرجاء يوضع في مكان قد تنبره شمعة واحدة ، هذا على مستوى المشبه به . أما على مستوى المشبه :

٣ - أن منتجي الأيديولوجيا السائدة يستفيدون في صمت من معرفة غيرهم استفادة ناقصة لأن الطاقة المستفاد منها ليست في محلها المناسب لها كي تكون الاستفادة أكثر .

٤ - لا أحد يتلقى مكافأة مادية تناسب مجهوده .

٥ - الضياع مصير كل مؤدج .

وسئل بيومي يوما فأجاب مجليا معرفته وتحومها الدالة على معرفة تختص بسير الشخصيات الجاهزة في فردانيته التي تنسجم مع فردانيته ، وباللغات كلغات الهدف منها هو الترجمة .

« ماذا تقرأ ؟ »

- الأدب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية .

- هل لك قدرة على الترجمة ؟

- إنني أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس .

(ص ٤٥) .

حتى الفلسفة تلونها الأيديولوجيا الحبرائية المعكوسة بلونها فتشجع فكرا وتهمل آخر ، وتعني بفلسفة وتهمل أخرى مسخرة في ذلك كل قواها المادية والبشرية حتى ولو كان هذا الفكر خاصا بمفكر واحد ، وهذه الفلسفة خاصة بفيلسوف واحد . حتى الكتب السماوية تلحقها انتقائيتها . إنها تشوه في قلبها الفلسفة التنشوية التي تمجد القوى الحقيقية لا القوى الضعيفة المستفيدة من القوى الحقيقية كي تجعل من ضعفها قوة ، وتستبدل عجزها بإرادة وقوة موحدة ، ومتكثلة ، ومتضافرة ، ومتراصة ، وجماعية ، ونضالية . إن نيتشه لا يعتبر قوة لفرد قوة بل ضعفا إلى أن تنضم وتتضامن مع قوى الجماعة . يقول السارد عن فردانية بيومي حامل لواء الأيديولوجيا السيدة « انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال » . (ص ٦٥ - ٦٦) . ان بيومي المؤدج يؤمن إيمانا مزدوجا .

أ - إيمانا غيبيا .

ب - إيمانا أسطوريا .

فالإيمان الأسطوري يتجلى في طموحه إلى القوة والمجد الزائفين لأنها فرديان ومستحيلان نظرا لهذه الفردية . فيومي ليس في يده شيء كي يحافظ عليه سوى الخطاب الأيديولوجي الذي ينظر إلى الحياة والمجد ، والمحافظة والاستمرار من معيار القوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والفردوس والجحيم ، والنضال والانخزال الفردي أو الجماعي .

والإيمان الغيبي ينسب إلى الله الخلق من أجل القوة والمجد . وما الحياة سوى جسر إلى الفردوس . وهذه وجهة نظر مؤدجة أيضا ما دامت تدافع عما تدافع عنه الأيديولوجيا السيدة من غيبيات وأساطير ، وما تشجعه من ذاتية وأنانية في الفرد المؤدج الذي تغدو القوة في

الجنون هو الحرمان من الجنون .
يدل على ذلك المأساة التي تستشعرها الشخصية
الاشكالية والتي تنبثق من التساؤلات التي جاءت في
صيغة محكي ذاتي تطرح قضية تحديدها بمصطلحات
نقدية أكثر دقة . إذا اعتمدنا الجهاز المفاهيمي لدوريت
كون قلنا انها صيغة محكي ذاتي مجلوب لأن الناقدة
حددت تظهرها في صيغة « قال لنفسه » أو ما في معناها
ولم تول الاهتمام هنا الا الى الشخصية التي ينقل عنها
السارد خطابها الى القارئ . إنها قدمت الشخصية عن
السارد دون أن تغفله . إنها تجاوزت البنيوية الجنينية
برصد علاقة السارد بالشخصية ورصد مواقفها ولم
تقتصر مثلها على علائق الشخصيات وحدها . وقد
سجلت أيضا التنافر والتناغم بين السارد والشخصية .
وفي المقطع السردى الذي سنسوقه فلن نخدعنا صيغة
« قال لنفسه » التي يعرف بها المحكي الذاتي المجلوب
لأن السارد لا يجلب عن الشخصية خطابها بقدر
ما يسوق خطابه الذي يعبر عن وجهة نظره هو . إنها
صيغة المحكي الذاتي المتنافر أو المونولوج التلقائي للسارد
في مقابل المونولوج التلقائي للشخصية ، وهو الذي لم
تطلق عليه دوريت هذا المصطلح . « وقال لنفسه إنه
لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع
للإيمان والكفر ، للمجد والخزي ، للحب والخداخ ،
للصدق والكذب ، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة
الغريبة ؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة
رأسه في الوحل ؟ (ص ١٥٦) . وهذا الجنون ، في
نفسه للثنائيات ، يشكل مع العقل وحدة والعقلانية
المؤدجلة أو الايديولوجيا المعقلنة هي التي تراه بلا عقل في
جنونها اللاعقلاني مع أنه جنون عقلاني . وكهيجلي
متأخر ، يعتبر بيومي الوظيفة أساسا ودعامة في تشييد
صرح الدولة المقدس وهي لا تتميز عن الآلة ،
والعمل ، والحياة ، والموت في تصويره المؤدج : « ان

واقع الأمر في تصويره أمرا سهلا مع أنه ضعيف في وحدته
وعزله ، وتفرد ، وأنه يخضع لقوة الخطاب
الايديولوجي المهيمن وسلطته . ان بيومي تيولوجي
يمجد العالم الآخر . انه العالم الدائم في نظره . وأن هذا
العالم خلق من أجل ذاك . أما في فلسفة نيتشه الجدلي
فالعالم الآخر خلق من أجل هذا العالم . لا بديل لهذه
الحياة . فإن كانت هنا حياة كانت هناك حياة . وإن
وجد هنا جحيم وجد هناك جحيم .

الموت من أجل هذه الحياة حياة في هذه وفي تلك .
تتحقق الحياة بارادة القوة الجماعية .
ان الضعيف المندمج في قوة الجماعة قوي .
والضعيف في عزله مهما طلب القوة ضعيفا .
ان القوي اذا تخلت عنه الجماعة ضعيف .
حول ضعفك الى قوة تتحول القوى الى ضعف . في
الجماعة يتحول ضعفك الى قوة .

ان السارد يدرك ، كميثال فوكو ، خطورة سلطة
الخطاب الايديولوجي العقلاني على حرية الانسان
الشعورية الطبيعية ، والبيولوجية والسلوك الناتج عنها .
إنها تجعل شخصيته معقدة ، ومضطربة ، وضعيفة الى
حد التفسخ والاستلاب والانسانية . انها تخسر
انسانيتها الطبيعية واللاواعية والواقعية ، وتتعدق نفسيته
وتنشرخ ، وتمزق ، وتفقد التوازن والانسجام .
وتجردها هذه السلطة القمعية من بعد الحياة في
تعددتها ، وعذوبتها ، وجنونها ، وشغبها . وأي حياة
يحيها السائر في ظلامية التأدلج ؟ هل يجديه البكاء
والحسرة ؟ يرحب السارد أيضا ، من زاوية فوكوية ،
بالجنون كمرادف للحياة بكل ملذاتها دون أن تتجاوز
ملذات الآخر . فالجنون هو الذي يهب الحياة غرابتها
وحقيقتها ، وجوهرها ، وجمالها ، التي يعجز العقل - في
غياب اللاعقل - عن تحقيقها . والجنون هو الذي يدمر
صروح ، الأحاديث والثنائيات وقلاعها .

الدولة هي معبد الله . ويقدر اجتهدنا فيها تتقرر مكانتنا في الدنيا والآخرة » (ص ١٦٩) . إنها الدولة التي تجسد الفكرة المطلقة الله الموجود - في نظره - في السماء اللامرئية . إنها الفكرة المجردة من التناقض ، إنها تامة وكاملة ولا تنتظر النقيض . إنها نهاية الجدلية ونهاية الحياة . إنها الموت ما دامت الدولة تمثل روح الله على الأرض ولا يمثلها الشعب المناضل .

ومن منظور لوكاشي - هيجلي أيضا فإن بعض أفراد الشعب هم الذين يجسدون روح الله وليست الدولة . فلنقرأ بإمعان دقيق وتأمل عميق هذا الحوار الذي يمكن اعتباره بنية دالة لأنه يعبر عن الصراع النموذجي الذي تدور رحاه بين أيديولوجيتين يمكن اعتبار الأولى ، حسب المنهج الجدلي ، أطروحة والثانية نقيضها القريب جدا والمرحلي لأن الثانية تبدو كامتداد للأولى ويشكلان معا التركيب الذي ينتظر أو يسعى إلى التحول إلى النقيض الجديد . فاعتبار الدولة من روح الله لا يختلف اختلافا جذريا عن اعتبار بعض أفراد الشعب من روح الله . والنقيض الجديد هو أن يكون عدد أفراد الشعب الذين يشخصون « روح الله » كبيرا وفي مستوى تحقيق التغيير والتحويل وتدمير ثنائية الروح والجسد المثالية . إن الاختلاف اللوكاشي الهيجلي اختلاف ضروري ومرحلي ولو أن الهيجلية قائمة في كلا الاعتبارين ويدعمان معا الأيديولوجيا المثالية السائدة . إنها يعيدان خطابها السلطوي المؤسّس في رومانسية حاملة تقلب الحقائق إلى أن يقيض لها ماركس فيقيمها على حقيقتها فيتحوّل ، نتيجة لذلك ، منظور لوكاش إلى منظور لوكاشي - ماركسي كنقيض جذري للهيجلية والهيجليين .

« الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الأرض !

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدري مدى إيمانه ولا مضمونه .

قالت : إنه لمعنى جديد بالقياس إلى ، ولكنني سمعت كثيرا أن روح الشعب من روح الله » (ص ١٤٧) .

والموقف اللوكاشي - الماركسي هو موقف السارد الذي يؤمن إيماناً راسخاً في أن وعي الشعب الممكن والواقعي بطروفيه المادية والفكرية الواقعية هو الذي سيقوده ، من منظور مادي جذلي ، إلى تغييرها بالتموقف منها .

الشخصية في علاقتها بالشخصيات - الرجال :

إن السياسة لا تعدّها من هموم بيومي المؤدلج . إنه لا يعتبرها علماً بل لغواً وسفسطة وأوهاما ضائعة . إنه يتصور نفسه محايداً . والتأدلج أساس هذا التصور . إن الحياد مظهر والانتفاء كينونة .

إن الأدلجة تعميم للوعي وتحجير للفكر . إن التأدلج قد قلب بيومي . إن فكره فكر جليدي ، لا هوتي ، مثالي ، غير مادي وغير جذلي . في حديثه عن السياسيين يعيد الخطاب المؤدلج . لا رأي للشخصية المؤدلجة . فوجهة نظرها في مجال السياسة هي وجهة نظر ذلك الخطاب أنه تصور الخطاب للسياسيين وتصور بيومي فرع من تصور الخطاب . والسارد في سرده للخطاب المؤدلج المتفرع عن الأيديولوجيا السائدة يتمهاى تماها متناغماً بالشخصية أو يتنافر وإياها كما يتضح ذلك من صيغ الخطاب الثلاث الآتية :

١ - بضمير الغائب .

٢ - بالمونولوج التلقائي .

٣ - بالمحكي الذاتي المجلوب .

وهي صيغ متباعدة تجعل تماهي السارد بالشخصية في مستويين مختلفين :

وفعله هذا في أنسة الايديولوجيا السيدة فعل من يأخذ بلورة فيتتبع جميع تألقاتها اللانهائية فيسجل منها ما يراه كافيا لتوضيحها وإلقاء الاضواء على حقيقتها . انه يتتبع الشخصية الايديولوجيا السائدة في جميع مراحل حياتها الواقعية أو التي توهم بالواقع . « قال لنفسه ان الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه ، وهو يصر على عدم الاكتراث بها ، ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا ومصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الانسان الوحيد هو الخلق بالشعور بربه ، وبما يتطلبه في هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق في تخبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومته الموت حتى اللحظة الاخيرة . » (ص ٤٩) . إن بيومي يتهم ، في تأدبجه ، ذوي العقول المستقلة والأوعاء الحرة بالجنون كما اتهم بذلك الجماعات المشاغبة التي تخرج عن المعايير ، وتخرق الضوابط ، وتزيغ عن المقاييس وتسف الثنائيات كلها . إن هذه الاحادية والثنائية في الرؤية الى العالم والذات في فردانية مؤدجلة هي التي اختزلت ركامة المعرفي وحصرته في نطاقها وفي دائرة الأنا فانطوت الذات على نفسها المؤدجلة . وهذه وجهة نظر السارد في الشخصية : « أجل انه منغمس دواما في الداخل ، في أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا » (ص ١٤٦) وتتمظهر ايديولوجيا السارد المستقلة نسبيا في أحكامه التقويمية على الشخصية . وترتكز هذه الأحكام على معايير الانغماس والانبثاق ، والداخل والخارج ، والأفكار المحدودة والتي لا تخوم لها ، والخيالات الغريزية والمجردة التأملية ، في الله والشیطان ، والمجد والخزي ، الدنيوي والأخروي ، والمقدس والمدنس ، والخير والشر في صراعهما وتصالحهما ، والفساد والصلاح ، والرؤية والعمى .

أ - في الحكى بضمير الغائب وبالمنولوج الداخلي المدجولوب يتم التناغم بين الشخصية والسارد .

ب - في الحكى بالمنولوج التلقائي الذي يتميز بالتساؤلات تستقل الشخصية بحديثها دون تدخل السارد رغم عدم وضع كلامها بين مزدوجتين . إنه الأسلوب الحر المباشر : « وفي أوقات الفراغ قربة اليه ، وأفضى اليه بخواتمه حتى السياسة صارحة فيها برأيه وأهوائه . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الأعراض عن اهتمامه أو معالته بحياده البارد ازاءها (. . .) عجب استغراق الرجل في هذه الشؤون ، وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم اليها ؟ أليست لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ولكن قال لنفسه بازدرأ غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محدد ، وإيمانهم الديني إيمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من أجله . وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم في لهو وسفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغلهم الأوهام ، ويضي الزمان وهم لا يعملون » (ص ٢٥) . إذا كانت الشخصية المؤدجلة ذات الموقف الجليدي تعيد ببيغاوية ساخرة الخطاب المؤدجل السارد من السياسة والسياسيين تأسيسا على معايير الكفر والإيمان ، والمعرفة والجهل ، والعمق والسطح في الإيمان ، والتفكير وعدم التفكير ، والجد والعبث ، والقول والسفسطة ، والعمل والكسل ، والحقيقة والوهم ، فإن السارد ، على النقيض من ذلك ، يتموقف هادما أحكام القيمة ، وكل ثنائية . فما الحزب ، والاضراب ، والتموقف من الاحداث والايديولوجيا السائدة سوى مفاهيم وعي ممكن وواقعي .

الرواية فعل .

الرواية تموقف .

يمسك نجيب محفوظ في « حضرة المحترم » على واقع الوظيفة العمل في ظل الايديولوجيا القائمة ، وعلى واقع الفئة الاجتماعية المالككة لوسائل الانتاج والمنتجة للخطاب الايديولوجي القائم . والفئة المستغلة (بالفتح) تعتقد أنها منعزلة لا تؤثر ولا تتأثر .

كل وجود مؤثر ومتأثر بوجود وعدم .

كل محايد يميني مؤدلج .

لا وجود للاستقلال .

العزلة ، التفرد ، الحياء ، أوهام .

ان الفرد يمسه النظام الاقتصادي المتوخي كما تمسه الايديولوجيا المبررة لهذا النظام أو ذاك ولو كان في مغارة أو تحت مياه البحر .

ان الهروب من السياسة سياسة .

إذا لم تكن سياسة مضادة فلقد كانت وما تزال سياسة قائمة .

إن السياسة ايديولوجيا والايديولوجيا سياسة .

« عرف الثورات ، ولكنه لم يعيشها ولم يستجب لها . وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان (. . .) واليوم يعرف لنفسه هدفا دنوبيا وهيا في آن واحد لا علاقة له في تصوره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة » (ص ٢١ - ٢٢) . هذه وجهة نظر السارد في بيومي

الواهم والذي « يعرف » بل يجهل أن غايته لها علاقة بالسياسة والايديولوجيا السائدة هي التي جعلته ينظر اليها من خلالها . وايديولوجيا السارد المستقلة والمختفية وراء هي المشاركة في النضال ، والوعي بالانتفاء ، واختباره ، دون أن يفرض عليه ، بحرية ، والتموقف من الأحداث لانسانيته التي تهمها حقوق الجميع وحرية في ممارسة امكانياته ، ويذوب الانا في النحن . والنحن ليس المالك لوسائل الانتاج والمشتت للنحن العريض الذي نقصده الى أنوات متفرقة كأننا بيومي المنعزل في

فردانيته التي تقتات من ذاته كقدريّة : « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة الجميع . الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع » (ص ٧٨) . تتردد في هذا الخطاب المؤدلج الأقوال المتبدلة السائرة clichés: الاعتماد على النفس - شق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع - ووجهة نظر بيومي هذه تطفح بالثنائية بين الفرد والمجتمع واللاهوتية ، والفردانية : الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد الشيء الذي يبعده مسافات ومسافات عن وجهة نظر السارد الجدلية . الشخصية تقول « نعم » للأيديولوجيا السائدة والسارد يقول لها « لا » . ومفهوم السياسة عند الشخصية المؤدلجة هو ما يحقق رغبتها الفردية العاجلة ، الجزئية ، والآنية ، والاصلاحية السطحية التي تشمل كل الميادين . وبيومي يريد أن يدرك بلا سياسة ما يدركه غيره لها كالمناصب العليا : « حفلة الاذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال (. . .) وما يدري الا وهم يتكلمون في السياسة ! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة برموزها الرنانة : الحرية . . الديمقراطية . . الشعب . . الجماهير الكادحة . . المذاهب الثورية . . التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد . .

وقال لنفسه ان الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟ ! ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! حسن . . أي ثورة تضمن له الشفاء وانجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة ؟ ! » (ص ١٥٤) .

أيمكن لسياسة مؤدلجة أن تبحث عن سياسة ؟ ان بيومي يحكم على الصراعات السياسية وفقا لمعيار الاضطرام والخمود ، والرنة والهمس . ان الخطاب المؤدلج يشوه في حربائيته المقلوبة كل خطاب . انه

الترقية أو خيالية « المدير العام » وهو منصب سياسي أو مسيس : « لم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوزيعه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجنود ، ولذلك كرهه ضميره وورعه الديني . ومضى في طريقه لا يرى شيئا . ورغبا عنه ترك ترك تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام . » (ص ٦٢) . ان هذا الوصف الدقيق لنفسية بيومي واحساساته وشعوره . وآماله ، ونواياه ، وسلوكه يكشف هواجس بيومي المؤجلة والمؤسسة على معايير أخلاقية . وسلوكية ، وعقلانية ، وذاتية فلمسها من خلال اللغة الموظفة في المقطع السردى ، نية وعدم نية الزيارة ، دافع حقيقي أو زائف ، والعاطفة والعقل ، الخوف أو الشجاعة ، الجنود أو الاعتراف حضور أو غياب الضمير والورع الديني .

ما الضمير ؟

بلغة يونج هو الأنا الجمعي . بلغتنا هو الأنا المؤدلج الذي يمارس الرقابة الشديدة على اللاوعي ، وهذه البنية النفسية والذهنية التي يظهريها هذا السلوك حددتها الإيديولوجيا السائدة والوضعية الاقتصادية كما حددت رغبته الملطخة بالدم : « ورغبا عنه ترك ترك تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام » . إذا كان بيومي يلهث وراء الدرجات فإن الغلاء يسبقه درجات . إذا كان يتمنى التقاعد والاحالة على المعاش لسعفان الذي يدل لقبه « بنسيوني » Pensionne على ذلك ، فإنه يتمنى لحمزة الذي ينبغي أن يتبعه كما يدل على ذلك لقبه « السوفي » Suivie أو Suivant من فعل suivre ، الموت . والسارد يلمح بدل أن يصرح وتلك إحدى وظائف الأدب الكبرى : « أما في الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل إن ضغط الدم نذير خطر ولا علاج ، وقيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحي على الأقل عن مهامه

يستخدم أيضا لغة الخطاب الإيديولوجي النقيض الصادر عن الأحزاب السياسية والمعارضة ليحبر بسهولة إلى أذهان المثقفين ليتأدلجوا وليقبلوا ، ولتحملا ثلاث كوارث دفعة واحدة فوق كارثة التأدلج : الزيادة في الاسعار ، الزيادة في ساعات العمل ، تجميد الأجور . انه يراهن عليهم لا على المؤدلجين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة والذين ، اعتمادا عليهم ، لا تستجيب الدولة لمطالب النقابات المعارضة . ويبدو أيضا تأدلج بيومي من تقييمه للصراعات السياسية تبعا لمعايير الأهمية والتفاهة ، والسعادة والشقاء ، والانسان والحيوان ، والأمل واليأس ، والحقيقة والحلم ، والقوة والضعف ، والجهل والمعرفة ، والوحدة والاختلاط . . « قطع تافه في مراعي التعاسة يعلقون الأمل على الاحلام لضعف نفوسهم وجهلهم بأن الوحدة عبادة . » (ص ١٥٤) .

أنانية ! ما الأنانية ؟

كثيرا ما تمر بنا هذه البديهية ومع ذلك لا ندرک دلالاتها الخفية مثل الوحشية ، وإرادة القوة الفردية ، والتسابق ، والتنافس ، والاجرام ، وإرادة القتل نية أو فعلا .

النية تساوي الفعل . وحكم النية هو حكم الفعل . إذا نويت القتل فقد قتلت .

تعبير نية القتل عن ذاتها في الرواية في شكل مناجاة تلقائية بين النفس وذاتها لتأدلجها ، ولا يطلع عليها سوى السارد بحكم « الرؤية مع » التي تخول له التساوي ، والتطابق ، والتناغم مع الشخصية فضلا على تجربته الواسعة التي تسهل عليه التخيل ، والتصور ، والنفاذ إلى نفسية الشخصية والتسلل إلى وعيها لاستجلاء خفاياه . إن بيومي لأدلجته يتمنى - كي يحقق مطامحه المستحيلة - الموت لأخيه الموظف ليحل محله ، وكي يعتلي كرسيه لمصلحة شخصية تافهة هي

الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامحه « (ص ٦٩ - ٧٠) . وبعد فترة أصبح حمزة السويفي معافى ولكن عاودته أزمة ضغط دم جديدة فعادت الوسواس ذاتها لتنش كالجوارح كبدا عثمان بيومي فتمنى للمدير أكثر مما تمناه للوكيل الأول : « وتؤكد لديه أن الوكيل والمدير أصغر منه سناً ، وأن الدرجات لن تخلو إلا بمعجزة مجهولة أو بوفاء عاجلة ، أو بعادث يقع في الطريق » (ص : ١١٠) . ويأمل أن يصاب عبدالله وجدي بمرض الموت : « وجعل يقول لنفسه : عبدالله وجدي في حكم الشباب حقاً ولكن عصر المعجزات قد عاد » .

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بدانة عبدالله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفي ، ويردد فيما بينه وبين نفسه :
- ما أكثر الأمراض التي يتعرض لها أمثاله ! (ص : ١٢٩) .

ثم يقتل نية موظفاً مثله وهو حمزة السويفي : « وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للدائرة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حمزة السويفي ، بأن يرقى أو يحال على المعاش أو ... يموت !! » (ص / ٦٥) . والعبارة التي أكدناها « ثلاث فقط استثنائية » تسمى إلى أخلاقيات بيومي و « يموت » دالة على طموحه الاناني المجرم .

بطل أو لا بطل ؟

إن البطل في الرواية ليس دائماً هو الشخصية الرئيسية ، فالبطل في بعض الروايات شخصية ثانوية كرواية « حمزة المحترم » لنجيب محفوظ . والبطولة درجات ، وأشكال تتغير بتغير الظروف والمواقف كمظاهر وتبقى البطولة هي هي وككينونة . في الوقت

الذي يجعل فيه السارد بيومي في ظرف حرج كي يختار ، ويتخذ موقفاً بطولياً ، ويتزوج ، ويحقق نصف حياته أو بعضها منها ، يحدث اللامتوقع إذ يفقد ، لتأجله ، الإرادة ، والحزم ، والاقدام ، واتخاذ القرار ، والشجاعة ، فيضمحل الفعل البطولي ، ويتلاشى موضوع الرغبة ، وتكبت الرغبة . لو اعتمدنا منهج جرياس البيوي الوظيفي العامل لتبين لنا أن في « حمزة المحترم » ذاتا تحمل الايديولوجيا السائدة فيها فتلعب دور المعاكس داخل الذات التي تغدو مزدوجة ، ويصبح الموضوع هو الجنس / الزواج / حب / علاقة / امرأة ، وهذا الموضوع ثنائي أيضاً لأنه يلعب دور الموضوع والمساعد في نفس الآن . أو تغدو الايديولوجيا السائدة هي الذات والموضوع في نفس الوقت ، ذاتا ترغب في ذاتها . وهنا ينعدم بيومي . في عجز بيومي يستحوذ على موضوع الرغبة بطل يغيب عنا أن نعتبره في عداد الأبطال أو أن نعترف له بالبطولة . هذا هو ما وقع فعلاً لبيومي المؤدج مع الجيل الجديد غير المؤدج نسبياً مادام يحقق رغبته ، وإرادته بشجاعة متحديا الظروف ، ومرهصاً بايديولوجيا حرة جادة ، جاءه يوماً حسين أفندي جميل وقد علم بعلاقته بأنسية رمضان :

« - الحق أنه لولاًك لتقدمت لخطبتها .

(.....)

- أنت شاب سيء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ماذا شاهدت يامسكين ؟ ولكن هكذا هم المحبون ، طالما عاملتها كابنة من صليبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد ! فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

- إني أعرف متى وكيف أكتنم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبهم ! فقال وهو يتنهد :
أحسننت .. أحسننت ..

وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتح من بادى الأمر إلى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات ، ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » (ص : ٢٥) . إن اللغة هنا تعبير عن طقوس أخلاقية يتغير فيها الخطاب حسب تغير المتحاورين الذين يخضعون لمعايير تعود إلى الرئيس والمرؤوس ، والنشاط والحمول ، والرسمي والمؤقت ، والاعجاب ، والانكار ، والاستقرار والحذر ، والصبر والتمرد ، والحسن والقبح من التصرف والخلق ، والبكالوريا والابتدائية ، والتساوي والتميز ، والمزيد والاكتفاء بالتعلم ، والارتفاع والانخفاض ، والدرجات القديمة أو الجديدة ، واليتم والاسرة .

وهذه رسالة إبلاغية أو طلب يبعث إلى من « فوق » بيومي حسب تراتبية السلم الإداري المجدد لتقسيم العمل / الاقتصاد / الأجرة وينم عن قواعد إدارية صارمة مؤجلة (بالكسر) تتحكم في رقاب الناس ، وتفرض عليهم الأذعان لها صاغرين على مستوى الكتابة : « حضرة صاحب السعادة المدير العام . أتشرف بإبلاغ سعادتك (.) مستلها المهمة من عبقرية سعادتك ، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه (.)

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام

عثمان بيومي

« كاتب الوارد بالمحفوظات » (ص : ٤١)

وبيومي كما يدل عليه لقبه الإداري المؤدلج كاتب الوارد في المحفوظات « يخضع لمعايير الاحترام الأخلاقية كما تبدو في لغة الرسالة المؤجلة : حضرة - صاحب السعادة - المدير العام - أتشرف - « كم » - عبقرية ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه - « واو الجماعة » - فائق الاحترام . وتصدر عن معايير الحضرة

ثم موجة من الأسى تجتاحه :

سلكت سلوكا خليقا بالرجال . .

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان ، قال :

مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب . (ص : ١٠٣) .

ويبدو التأدلج في اللغة الأخلاقية : أسأت الى سمعتها ، أو في التمييز بين المرأة والرجل : سلكت سلوكا خليقا بالرجال . فشخصية حسين جميل غير مزدوجة ولا معاكس يعترض سبيله . لا يعتبر بيومي معاكسا مادامت رغبته في التخلص من الفتاة .

التراتبية :

تعني التراتبية أن الموظفين / العمال ، وأرباب الوظائف والمعامل وأن العمل مفتت ويستتبع تفتت العمال ، الموظفين وغيرهم الى مستويات ، ودرجات ، وسلام ، ومراتب ، ومناصب ، ومكاتب ، وكراسي ، وألقاب تحدد لكل فرد مستواه في عمله / وظيفته أو مهنته أو حرفته لخلق التنافس والتناحر لجلب اليد العاملة وإغرائها . وهذا التقسيم التراتبي تواكبه اللغة المؤجلة التي تركز على الثنائيات . وتخضع التصنيفية للتراتبية في جميع مرافق الحياة . فمنذ عنوان « حضرة المحترم » ندرك أن اللقب الذي يحمله عنوان الرواية دال على أن الناس مصنّفون وفق تراتبية إلى محترمين وغير محترمين حسب معيار « كبار » و « صغار » : « ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم » (ص : ٢١) وتشير هذه العبارة الى غياب النساء في الدولة . إنها دولة رجال لا دولة نساء ورجال . وتتجلى التراتبية أيضا في أن هناك رؤساء واتباعا ولا سيما في اللغة / الألقاب ، والشهادات ، والمستويات المعرفية التي يمكن أن تزول بزوال الدولة : « كان سعفان بيسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي بإعجاب وحذر . أعجب بجلده

ابنها كبيرا من الأكابر . أليس الله بقادر على كل شيء ؟! » (ص : ١٤) .
 والمجتمع المؤدلج مقسم وفق التراتبية الى ذوي شأن ومنحط الشأن : « مساعدة أدبية تقدم لذي شأن » (ص : ١٥) ، إنه مجتمع يميز بين التلميذ والموظف بالشارب :

« - تلميذ ؟! . . ولماذا ترى شاربك ؟

- موظف وتلميذ في مدرسة ليلية » (ص : ٣٩) .
 ويتموضع بيومي بين الاغنياء والفقراء ، بين الممتازين والمنحطين ، بين الكبار والصغار ، بين الأحزاب الموالية والمعارضة ، بين الجاد والهازل ، بين المتمتع والقواد ، بين الدولة والشعب ، بين السعادة والتعاسة ، بين السماء والأرض ، بين المسلح والأعزل ، بين المترقب والغافل ، بين الحكمة والجهل ، بين الراغب والزاهد في الشيء ، بين العامل والخامل ، بين المؤمن والملحد ، بين السقوط والارتفاع ، بين الأسرة الكبيرة والصغيرة ، بين المساندة والمعاكسة ، بين غنوة والضعف الحزبي :

« إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الأسرة الكبيرة ، ولا قوة حزبية تسنده . وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد ، أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذي عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى الى السماء » . (ص : ٤٢) ، بين الذين يعتمدون على أنفسهم وبين أصحاب الوساطات « لأهل الوساطات » (ص : ٤٣) . وهذه تراتبية الحكومة والسياسة التي تمر منها الميزانية كعمل خطير في مقابل عمل تافه : « والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة ، ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة » ،

والغنية ، وأصحاب السعادة أو الشقاء ، المدير العام والخاص ، حصول الشرف وعدم حصوله ، كم وكم ، العبقريّة والبلادة ، الظل والنور ، السيد والعبد ، الملك والفقير ، التعظيم والتحقير الحفظ والضياع ، دوام الملك أو انقضائه ، ضمير الفرد أو الجماعة ، الاحترام ، والاحتقار ، الفائق أو السافل ، يقول السارد في خطاب آخر يؤكد التراتبية : « وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفران بسيوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويفي (.) وبعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام (.) ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لأجراء اللازم (ص : ٤١) ، ٤٢) إذا كانت الابتدائية تقابل البكالوريا ، فلن البكالوريا تقابل أيضا التجارة المتوسطة - جميعهم من حملة البكالوريا !

فأجاب حمزة السويفي :

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

- العالم يتقدم ، كل شيء يتغير . ها هي البكالوريا تحل محل الابتدائية . (ص : ٦) .

حتى الاطفال يصنفون حسب تراتبية تتناول قدراتهم العقلية التي لم يختاروها وإنما صنفوا وفقها كما صنفت المدارس :

« - الولد ذكي وربما رأته يوما من رجال الحكومة .

- عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان »

(ص : ١٣) .

والأمهات المؤدلجات يقبلن هذا التصنيف وينسبته للاله ويغذون طموحهن مرتبا :

« وضاعفت الأم من نشاطها مؤملة أن يجعل الله من

القانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات » (ص : ١١٠) . إنه ينظر إليهم من زاوية الثقة وعدمها ، الأولى والأخيرة ، والحجة وعدمها ، معرفة أو جهل القانون والاقتصاد ، والثقافة العامة والخاصة ، والتفوق (أو عدمه) الراسخ أو المتذبذب في اللغات . إن التراتبية كمعياراً ، تراعى الشهادة والكفاءة فحسب للوصول إلى الوظيفة الحساسة بل أيضاً المكانة الاجتماعية حسب الايدولوجيا الاخلاقية : « - لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عن الاختيار لها ولكن يضاف إليها المكانة الاجتماعية » (ص : ١٦٨) .

هذا أو أكثر هو ما يحدث في مجتمع مؤدلج حيث تسود المحسوبة والوصولية والميز بين الناس الذين يتفوقون في المساهمة في الاقتصاد بالعمل ، ويتساوون في الحاجيات ، ويختلفون في الحقوق والواجبات ، كما يشيع فيه وجود أحزاب مؤجلة استغلالية : « - أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة . . القرابة . . الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى من يغطي عجزهم من الكفاء الحقيقيين » (ص : ١٣٦) . وترقى بيومي ، وهو في فراش الموت ، إلى مدير عام ، حلمه المقدس حيث يتجسد روح الله - في نظره - تبعاً للرؤية المثالية المؤجلة الخاضعة للتراتبية السائدة والمفرقة الناس إلى بشر وغير بشر إلى حد أنه تخيل أنه في نفس مرتبة الفرد / الاله وأنه يمارس السلطة . إنه يتقمص الشخصية الأخرى . إنه حرياء . إنه مظهر كينونة . إنه طيف وجود بل عدم وجود . يعد نفسه من أصحاب القوة ، وأصحاب السعادة الفائزين ، مالكي الحجرة الزرقاء / السماء / الاله / المثل العليا ، وييده الحل والعقد ، وأنه من « أولي الأمر » ، وأنه نبي في مقابل البشر العاديين الذين لا يملكون حجرة في لون التراب ،

(ص : ٤٣) . وإذا أراد بيومي تغيير الوظيفة فإنه يخضع لمعاييرها التقنية بين الوظيفة ذات المرتب الثابت والراتب المتحرك ، والاطار العام والخاص : « ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت في ذلك ؟ » (ص : ٥٠) . وتقسم الراتب تابع لتقسيم العمل وقد يشغل الفرد عدة وظائف براتب واحد وذلك لاستغلال الطاقات والحد من التوظيف . وتخضع الترقية لتقسيم الزمن : « تقرر ترقيةك إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيهاً . ورغم تضحيتك بعشرة جنيهاً إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلاً عن الأهمية التي اختص بها بعمله المزدوج » (ص : ٥١) . والأمل ينقسم إلى منشود وغير مرغوب فيه ، والأول والأخير والناس إلى عاديين وأفذاذ ، والمجد واللامجد ، العظيم والمتبذل : « هي أملهم المنشود والأخير وبخاصة الافذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم » (ص : ٥٢) . إن التراتبية تشمل حتى الوكلاء والمديرين : « في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل إدارة آخر ثانية ومدير إدارة أولى » (ص : ٨٢) . وينظر اليهم بيومي بنظرة مؤجلة ومن منظور ينطلق من معيار الصداقة والعداوة ، والطهر والدنس ، والليونة والقساوة : « جميعهم أصدقاء - أعداء لما تقتضي به إرادة الحياة الظاهرة القاسية » (ص : ٨٢) ، والمحسوبة مبنية على تراتبية أخرى ترجع إلى قاعدة الانتفاء إلى الاسرة وعدم الانتفاء ، والقرابة والغربة : « إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل » (ص : ١١٠) ، « - لا . . لا ، إنه قريب الوزير ! » (ص : ١١٦) . وتحدد التراتبية سلوك بيومي إزاء الآخرين : « وجلس في الادارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه أهل للثقة الأولى ، وبأنه الحجة في الادارة واللوائح والميزانية فضلاً عن دراسة

والمنفذين للأوامر ، المطيعين الأشقياء ، والضعفاء ،
الفاشلين ، الملتصقين بالأرض وفق التراتبية والمميز
والترقة بين الناس : « تذوق في هدوء نجاحه . إنه
صاحب السعادة ، مالك الحجرة الزرقاء ، مرجع
الفتاوي والأوامر الادارية ، ملهم التوجيهات الرشيدة
للادارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد
الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
(.) وقال لنفسه :

- ستم نعمتك علي ياربي يوم تمكيني من القيام
بممارسة السلطان وإعلاء شأنك في الأرض ! (ص :
١٥٧) . لقد توحد بيومي بالاله ، والسلطان ، والنبى
والملك ، وأولى الأمر . لم يفارقه تأدله . إذا كان منذ
بداية الرواية يسعى إلى القوة والحكم ، والسلطة تقليدا
للاله / الفرد فإنه الان هو الاله الفرد أو الفرد / الاله .
ولن نعيد الحديث عن قدراته وإمكاناته المعرفية
والتقنية . ماذا صنعت به الايديولوجيا السائدة ؟ متنبيا
أو نبيا ؟

بيومي وعلاقاته بالشخصيات / النساء :

إن الانسان امرأة أوجلا يصنف ترتباً بالدرجات ،
والاقسام ، والألقاب ، والسلام ، والمؤهلات :

« - أهلا بك من أي قسم ؟

- المستخدمين .

- عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

- ليسانس آداب قسم التاريخ « (ص : ١٣٤) .

وبيومي يميز هو ذاته بين حارة وحارة : وحي وحي ،
وأسرة وأخرى من زاوية الفقر والغنى ، بين العامة
والأعيان ، بين كبار الموظفين وصغارهم بين أصحاب
السلطة ومن لا سلطة لهم :

« - ابعدى فكرك عن حارتنا ، عن حيننا كله .

(.)

- أريد عروسا من أسرة كريمة .

(.)

- عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدي .

فقاطعها بنفاذ صبر :

- لا تفكري في حيننا ، عليك بالاسر الكريمة . .

تقصد . . . ؟

- الأعيان . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة «

(ص : ٦٧ - ٦٨) .

إن بيومي يبحث عن المرأة / الشيء لا المرأة
الانسان ، المرأة « المناسبة » تحت معيار المناسب وغير
المناسب . والسارد يصدر عن أيديولوجيا رافضة
للأيديولوجيا البراجماتية . والدليل على ذلك وضعه كلمة
- مناسبة - بين مزدوجتين دلالة على رفضه الطبقية والميز
والترقة والتصنيفية وفق تراتبية مصطنعة ، وتشبيء
المرأة / الانسان ذلك أن « تفكير » بيومي يخضع لمعيار
الصعود والنزول ، من الطبقة القديمة الى الطبقة
الجديدة ، والثبات والتحول ، والتخلف والتقدم ،
والوضاعة والشرف ، والفشل والنجاح : « وثمة خيبة
أخرى عاناها في ترده على بيت المدير ، فقد حلم بأن
يجد هناك عروسا « مناسبة » ومن يعلم ؟ وحلم أيضا بأن
خدماته قد تشفع له عند حمزة بك السويفي فيغضي عن
وضاعة أصله ، ويقبله في طبقة جديدة تمهد السبيل الى
التقدم « (ص : ٥٣) .

إن اللابطولة وليدة التأدلج وتبدو في هروب بيومي من
السياسة هروبا رومانسيا ويعتبرها ثروة في حين تعتبرها
بطلة شابة ذات إيديولوجيا نقيض حياة :

- « لا تحدثنني عن الصراعات السياسية . .

- ولكنها الحياة الحقيقية .

- ما هي إلا صخب زائف .

- الدنيا من حولنا . . .

فقاطعها بنفاذ صبر :

وأشكالها ، وألوانها ، وأذواقها ، وأصواتها ، وموادها تبرز في هذه اللغة : انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه - وجهه مستدير - لونه قمحي - ملاحظة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق - ساعدها السوية البضة - كأنها هي التي تنفت رائحة النعناع - وتعاني المرأة من هذه الأحكام التقويمية أكثر من الرجل الشيء الذي يدفعها إلى اقتنائها ضروب التجميل . ومصير تلك المرأة هو البيت / الظلام الحسي والمعنوي انطلاقاً من معايير أخلاقية بالية في المجتمع الأبوي المؤدلج القامع والكابت الذي يشيء المرأة ويسلعه فتتصنم في الزمان والمكان ، وتحط ، وتحرم حتى من الحركة والابتسامة التي تحتضر على شفتي بنت سعفان ، وهي أدنى حركة تولد مع الانسان ، وتتاح للرجل دون المرأة كالنظر كما يبدو ذلك في هذه الوحدة السردية : وقفت دقيقة ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتاباً - ثم قول الراوي : وساد صمت كأنه الشعور بالاثم - قال « كأن » هذه لا وظيفة لها هنا لأنه فعلاً يوجد الشعور بالاثم الذي يحسه كل رجل دين مؤدلج في كل العصور . وهنا في المقطع السردى فالشخصيات المؤدلجة كبيومي ، وسعفان بسيوني والبنت ، هي التي أحست بالاثم حينما خرقت المعايير الأخلاقية ، والمواضع الاجتماعية انصياعاً للطبيعة البشرية ، تعاودهم العقلانية ويستبد بهم الشعور بالذنب ، والحسرة ، والندم على « ما اجترحوه » . ان عثمان بيومي كان ينظر ويعيد النظر إلى الفتاة فندم على ما ظفر منه . إنها جريمة جسيمية . وسعفان الذي يسعفه ويساعده في الزواج لم يطرح هذه القضية على بيومي قبل استضافته ، ولم يصارحه برغبته في تزويجه فتاته . ولكن معيار الكرامة والدناءة الأخلاقي الذي يميز بين الفاضل والقواد (القواد في مجتمع بيومي المؤدلج مدان كالعاهرة لجهل أو تجاهل ظروفها

الدنيا الحقيقية في أعماق القلب » (ص : ١٤٧) . وذات يوم استضاف سعفان بسيوني وقدم له ابتته بطريقة غير مباشرة وهو سلوك جعل الصراحة منعدمة لغلبة الأيديولوجيا الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية . وعندما شرع السارد في وصف الفتاة وبيومي والأب من زاوية « الرؤية مع » تجلت الأيديولوجيا المفرقة بين الناس والاجناس في أحكام القيمة التي ينعت بها الناس بعضهم بعضاً . إن المؤدلج ينظر إلى المرأة من معيار الصورة والشكل ، ومعيار الجمال والقبح كما تفعل به المرأة المؤدلجة ، وكما يفعل الانسان بأخيه . يقول الراوي : « وظهر في مدخل الشرفة شبّح . فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع . انعكس الضوء القابع وراءها ، وجهه مستدير ، لونه قمحي ، وثمة ملاحظة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق يساوره قلق . وهو يميل قليلاً ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هي التي تفت رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتاباً . وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سعفان : ابنتي . .

هز رأسه إعراباً عن الاحترام :

- حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة .

- واصل هز رأسه في تقدير وأعجاب ، ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغني التوشيح . ومضى سعفان قائلاً :

- البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها المريرة » (ص : ٢٨) .

فالأوصاف النابعة من معيار الجمال والقبح ،

الاقتصادية والاجتماعية والنفسية) أجمعه عن ذلك « حفاظا على سمعته » ولكن الفتاة في حاجة إلى عريس ففضل « أن يعرض سلعته » في تكتم وصمت ربما كان لها تأثير ما على الزبون في سوق الكساد : البيت هو المدرسة ، فأحس أنه تأمر على بيومي فاعتراه الشعور بالذنب .

يشيء بيومي سيدة : « انها الجوهرة الوحيدة في حياتي » (ص : ٣٧) ، وتشبته هي أيضا . ما كان ينبغي لما أن تتنازل عن حبها لها وتهجره لمجرد إدراكها رغبته عن الزواج رغبة في « الهدف السامي » يقص عنها الراوي قائلا : « ولكنها لاتأق ولن تأتي . قطعته ولعلها نسيته . وإذا خطر بيا لها لعنته بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها في العصري فخيّل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتتبرد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة (. . .) وصنادفها صباح الجمعة في الخيمة بصحبة أمها . تلاقت عيناها لحظة ثم حولتها عنه في غير مبالاة . لم تلتفك وراءها . تجلّ له معنى من معاني الموت إ (ص : ٣١) . هذا السلوك الصادر عن سيدة يدل على أنما أرادت أن تمتلكه كشيء . ولشعورها بالضعف وأرادة القوة رغبته في أن يكون عثمان / الرجل / القوة / السلطة / المال بجانبها و عثمان في إرادة القوة الفردية يهرب أيضا من الضعف / المرأة / الفقر رغبة في صاحب السعادة / مدير عام / قوة / سلطة / مال / اله . كانت سيدة لاتعده من الرجال ولا تعد نفسها من النساء انطلاقا من معيار الزواج التي يكون بها الرجل رجلا والمرأة امرأة ، والطلاق أو عدم الزواج الذي يقلب كل شيء الى ضده . ولكن ماذا قدمت له سيدة من مساعدة ؟ هل جعلته يعي وضعه ؟ إنما لاتستطيع ذلك مادامت مؤدجلة مثله . والا يديولوجيا السيدة تكرر هذه الثنائيات . أيدل اسم « سيدة » على شيء من ذلك ؟ فكل منها

يشكل مرآة تنعكس عليها صورة الآخر . ومن معيار الممنوع والمباح ، والجمال والقبح ، والصغير والكبير في السن يحكم على المرأة : « ووثقت الايام علاقته بفتاة تماثله في السن تسمى نفسها قدريّة ، جذبته بسمرة غامقة - مثل سيدة - ولكنها أعمق في زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة » (ص : ٣٨) وقدريّة هي قدر بيومي الذي يؤمن با لقدر : « سمع المهمة مرة أخرى ، وسمع صوت القدر » (ص : ٦) . ولكن لماذا ينظر الى لون الانسان . أهو الميز العنصري ؟ إنه يقوم قدريّة اعتمادا على معايير عقلانية . إن أفكاره المؤدجلة تقف حاجزا بينه وبين إدراك أن كليهما في حاجة الى الآخر أو يدركه ولكنها تصده بصورة أو باخرى عن ممارسة حاجته الطبيعية : « قال لنفسه أنها مجنونة بلا شك ، ولذلك فهي بغي . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به (ص : ٤٨) . وتستند عقلانيته الى معايير العقل والجنون ، والزواج والبغي ، والعذاب والترفيه ، والقلق والعزاء ، - أنها مجنونة - فهي بغي - كانت الترفيه الوحيد - وهبته عزاء لا بأس به - وبما أن الجنس محرم كباقي الحقوق فإن بيومي يزور قدريّة ليلا خشية الرقابة ولا رقباء أحيانا سوى الا يديولوجيا الاخلاقية : ذو دين وخلق - المحافظة على السمعة الطيبة وهي في صيغة القول السائر 3/4 cliché ولكن قدريّة من هذه الناحية بطلّة . أنها لاتخشى أي شيء . أنها غير مؤدجلة نسييا لعدم نفاذ الخطاب المؤدلع الى فكرها . أنها تجسد الطبيعة في بدائيتها ونقائها . أنها تعيش من جسدها ، وتحقق الاشباع الجنسي للآخرين ولنفسها مع من تحب . تلك مهنتها التي تستحق الاكبار في عالم المصادفة . ولأجل ذلك فهي ثائرة بشكل عفوي على المعايير الاخلاقية في عالم لا أخلاقي في الحقيقة والواقع . إنه عالم منحط ومتدهور في الكينونة والجوهر . وعثمان بيومي الذي

ماذا تقول ؟ إنما لاتفهم شيئا . وقال معتذرا :
 - لا يجوز أن يراني أحد . .
 - هل ترتكب جريمة ؟
 - الناس .
 - أنت الثور الذي يحمل الارض على قرنه . .
 إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عاها .
 وقالت له بإغراء :
 - ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك . .
 فساء لها بحذر :
 - والتمن ؟
 - خمسون قرشا . .
 وفكر باهتمام . سيبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . إنه في حاجة الى الراحة . قال :
 - فكرة طيبة ولتكن مرة في الشهر . . .
 - هل تكفي بمرة واحدة في الشهر . . .
 - ربما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية . .
 (. . .) وهي تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها
 تؤاخي الشيطان في غضبها . وكم غاظه أن تعترف له
 مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فحتف محتمدا . .
 - مظاهرة ؟
 - مالك ! نعم مظاهرة . . حتى هذا الدرب أحب
 الوطن يوما . .
 قال إن الجنون منتشر أكثر مما تصوّر (ص ٤٨ - ٤٩)
 إنه يحكم على قدرية من معيار الفهم وعدم الفهم .
 وتحكم عليه بمعيار الانسان والثور . إنها تعرض ذاتها
 للاحتكار (مصطلح اقتصادي رأسمالي ليبرالي
 تجاري) كسلعة لها ثمن : خمسون قرشا . لن يشبع
 رغبته الجنسية سوى مرة في الشهر نظرا لارتفاع السعر .
 وقيمها وفق معاير الحب والكراهية : والمجد
 والخزي ، والله والشيطان ، المقاومة والاستسلام ،

يغلب عنده زمن العمل على زمن الراحة عاجز عن
 ممارسة الجنس / الزواج أضف الى ذلك أجرته الضئيلة
 والتي لا تسمح بالاتفاق على قدرية راحته الوحيدة في
 أقصر أوقاتها ولذلك يؤجل رغبته / راحته / حياته /
 متعته الى آخر الشهر ، ويكبت نفسه كما يبدو ذلك في
 تعبير السارد الذي يصيبه أحيانا رذاذ الأيديولوجيا
 السيدة فيسكت عن ذكر الجنس ويكفي عنه بكلمات
 أخرى فيؤاويه . قدرية لا تعد الجنس جريمة ، ولكن
 السارد يسيطر على هذه الشخصية فلا يدعها تعبر بحرية
 وجنون عن الجنس كي تكسر قيود التأديج الأخلاقي ،
 وكي تكتمل صورتها وتبلغ حدا من الانسجام بين أفعالها
 وأقوالها التي أوجزها السارد بصرامة منطقة وعقلانيته
 المفرطة ، إنها شخصية قد اطفأ الراوي وهجها فجرد
 النص الروائي من متعته ، ولذته وإقناعه . لا يكفي ما
 ذكره عن تمرداها ، وثورتها ، وماضيها النضالي : لقد
 شاركت في مظاهرة وطنية ضد الانجليز . إنها جديرة
 بعناية السارد وتستحق التكريم منه قبل المجتمع . إذا لم
 ينصفها المجتمع فالسارد أحق بأنصافها . ينبغي أن
 تأخذ بطولتها كل أبعادها النفسية . إنها قمينه بأن تجري
 عليها الدولة راتبا شهريا وأن يضرب لها تمثال في شارع
 كبير . إنها غير مسئولة عن جهلها وتمسكها ببعض
 الخرافات .

يتهم بالجنون ، والسحر ، والشغب ، كل بطل
 استشعر عن وعي أو لا وعي ضرورة ممارسة حريته ،
 ويلقب بالشيطان .

لنقرأ هذا الحوار الدال الذي يمتزج بالمونولوج
 الداخلي التلقائي .

ألا تحب أن نمضي صباح الجمعة معا في نزهة ؟
 فدهش وقال :

- إني أجيئك كاللص متخفيا في الظلام . .

- مم تخاف ؟

والعقل والجنون ، حتى الزواج ينظر اليه بيومي من أخلاقية : الزواج نصف الدين ويفاضل بينه وبين المشهود ، أو من منظار الأقوال السائرة : إنجاب الذرية . إن الرؤية الى العالم ميتافيزيقية .

إنه يشيء المرأة ويتخذ سلماً يرقى به الى ما يصبو اليه من منظار يرا جماتي نفعي طوباوي : « ومتى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الأمل أم بعده ؟ يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فأما العروس التي ترفع الى العلا الذي يحظى بالعروس الباهر « ص : ٥٣) . لن تحظى المرأة بالعلا بالقدر العلا بها . وليس بيومي هو الذي سيحظى بالعروس أو تحظى هي به . وهكذا يعدم بيومي حظين في سبيل المستحيل الذي لا وجود له سوى في الخطاب الايديولوجي السراب .

مفهوم المرأة عند المؤدلج أنها وسيلة إلى غاية .

« ولكن اي فائدة كان يجرؤها من الزواج من كرمته ؟ لاشيء إلا الذرية والمتاعب والفقر ، ولا حب أيضا « ص : ٥٣) . المرأة ليست إنسانا في نظره بل « سقالة » للصعود : « ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين يريد « مصعبدا » « فما العمل ؟ » (ص : ٧٥) . وشياً كذلك السكرتيرة واعتبرها شيئا يقيه من النار التي تلفحه ألسنتها كل يوم منذ أن اشتعل :

« - لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق .

وقال لنفسه أيضا : - إني في حاجة الى مظلة في هذا الجحيم « (ص ١٣٤ / ١٣٥) .

إن وضع بيومي وضع مأساوي إشكالي : فهو يترجح بين الاشباع الجنسي والمجد الزائف المستحيل التحقق في عالم منهار . فالايديولوجيا السائدة تكبت وتعد ولا تفني . فالخس الجسدي مبتور لانه يعمل وحده دون إحساس إنساني . فلقد مات في قدرية بسبب الواقع

المأزوم ومات في بيومي تحت تأثير التادلج الاخلاقي : « قدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوترة ولكنها لا تهيء رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضاعفتها مشاعر الاثم . » (ص ٧٢) . إن بيومي إيديولوجيا تسير على قدمين . لقد أعمته عن إدراك ماتعرفه أنسية كمشروع بطلنة ثالثة من حيوية ، واختزال الطريق بلوغ الغاية من أقصر الطرق مكسرة أغلال التادلج أو بعضها . إنها شابة تستجيب لنداء الجسد والقلب الصارخ . إن أنسية تحب التجديد وكأنها من بيئة متقدمة مخالفة لبيئته المحافظة : « لم يعرف ذلك التقليد . ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هي أنسية تبتشر بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناورها الظاهرة في التوادد وقدرتها البارة في فتح أبواب الرحمة » (ص : ٨٦) . فالسارد يحكم على الحارة والتقاليد من معيار التجديد والتقليد وقد حدث في أسلوبه ما يسمى بالتناقض الظاهر L'oximoron لقوله : المناورة الظاهرة المحطمة للثنائية . ويحكم على قدرتها بالبراعة في فتح أبواب الرحمة وهي استعارة جاءت في صيغة عنوان لشيء لم يكتب بعد . ولغته الوصفية تنم عن إيديولوجيته المستقلة التي تحكم وفق معيار الوعي وعدم الوعي ، والرضى والنفور ، والتشجيع والتثبيط في قوله : « وقد ضغط على يدها فتلفت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا (. . .) وسارت الى جانبه تسيل عيناها بنظرة حاملة وظافرة ، مرفوعة الرأس مسددة النهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفعة في مجرى من المطالب لأفق له ، وأنها تلتهم في نفسها أجمل أسرار الحياة » (ص : ٨٧ - ٨٨) . الاوصاف التي توحى بالبطولة هي : نظرة حاملة ظافرة - مرفوعة الرأس - مسددة النهدين - مندفعة في مجرى من المطالب لا أفق له - تلتهم في نفسها أجمل أسرار الحياة .

إن البطولة هي الاقبال على الحياة :

إننا لا نحمل الايديولوجيا السائدة معنا فحسب ، بل هي تتابنا ، وتعترينا ، وتغلفنا ، وتغمرنا ، وتفكر فينا من خلالنا ، وعبرها ننظر الى المحيط والعالم ، إنها تحاصرنا ، وتسبقنا الى الأماكن التي نهرب إليها ، وتلج أخفى الملاجئ المظلمة وأشدّها حلقة . إنها تنغص علينا وجودنا وحريتنا ، وراحتنا ، وتكبّت رغباتنا ، ومعتنا ، ولذاتنا الطبيعية الانسانية في الوقت الذي يتصل فيه احساس الرغبة العاطفية باحساس ما قبل الرغبة الجسدية . إنها رابعة اثنين اذ هما في الغار اذا اعتبرنا ايديولوجيا الطرف الثاني ثالثة ، إن الموانع الزجرية والنواهي (من النهي الحجي = العقل) الاخلاقية تعاودنا عبر الذاكرة التي تصعد إليها من الأنا المؤدلج فيشرع في التأنيب . وهكذا تكبت الذات المؤدلجة ذاتها وتمارس الرقابة على نفسها وهي في عزلة وتندم .

ما الندم ؟

إنه الشعور الذي يحصل للفرد المؤدلج بعد لحظة التحرر من الأنا المؤدلج لحظة تحقيق رغبة ما حتى الحضور الى موعد ، في غياب الانا المؤدلج لحظة ما قبل الشروع في الاشباع الجنسي أو أثنائه ، أو بعده حيث يفنى الانا المؤدلج في غيبوبة اللذة المشروعة والتي يعدها هوائها ، أو ذنبا ، أو سيئة ، أو موبقة ، أو جريمة ، أو خطأ .

يقول الانا المؤدلج من خلال بيومي الذي يحقه الشعور بالندم : ٢ « سارا صامتين ولكن ثمة إحساس غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم » (ص ٨٨) .

ويجعل بيومي من المرأة مجرد فرج . ولتأدلجها ترفض لا لأنه شيأها وصيرها كالمطاط فحسب ، بل لأنها تستند الى معايير أخلاقية تصنيفية لا تقبل المرأة سوى بكر أو متزوجة .

هذه هي إيديولوجيا السارد الحياتية والواقعية والتي يؤكدنها بقوله الذي ينفي كل وهم أو تهويم ميتا فزيقي : « على فرض أنها ستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقدر على إسعاده من النجم القطبي ؟؟ » (ص ٩١) . والمرأة جديرة بأن تحدث تغييرا في حياة بيومي إذا وعت معنى الحياة التي تتنافى والحلم الطوباوي وبأن تحول اتجاهه من المستحيل الى الممكن باستعدادها الذي استعار له السارد هذه الصورة « سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد » (ص : ٩١) . إنها تستطيع إذا كانت مزودة بفلسفة الحياة أن تحول نظرتة من العقل الى القلب العاقل ، من الموت الى الحياة ، من الوهم الى الحقيقة التجريبية ، من العدمية الى الوجودية . لكن بيومي المؤدلج ، هروبي ، ينكمش ، وينطوي في شرقة التأدلج ، وتقلصت نتيجة لذلك كل خلاياه كالحزون الذي مسته الحرارة . لا يقصد سوى الا ماكن الخالية ، والبعيدة ، المهجورة والمظلمة والدافئة كالرحم : وذلك عندما يصغى كشاعر رومانسي الى همس القلب ، النادرة هينماته وخفقات الحياة فيه لحضور العقلانية المؤدلجة المستمر الى حد تنغيص المتعة ، واللذة على بيومي وحرمانه من نصف وجوده الذي امتصه العدم ، ومن معرفة أشياء وأشياء ، ومن اكتساب تجارب وتجارب ، وخوض مغامرات ومغامرات : « ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة الازبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحديق به الاعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض التزام إليها حقولا وخلاء (. . .) لم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال ، ما يفعل وما لا يفعل » (ص ٨٧ - ٨٨) .

« يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه .

هتفت .

- عثمان أفندي .

فقال بدون مبالاة :

- سيكون مأوى رحيما لاثنين في حاجة الى الحب

والمعاشرة .

- إما أن تذهب أو أذهب أنا (ص ٩٣) .

والناظرة ، تحت وطأة معيار الزواج والطلاق ترغب في الزواج . وهذا دليل على وجود تراتبيه في العلاقات الاجتماعية أوجدتها الايديولوجيا الأخلاقية المهيمنة ، والتي يتولد عنها صنيع الناس فيصنفون تبعاً لذلك المرأة التي تشير إليها هذه الكلمات : متزوجة - طالق - عاهرة - بكر - عانس - ثيب . . الخ في مجتمع مؤدلج ينهي رغبة المرأة بنهاية زواجها بالطلاق فتجرد من إنسانيتها ، وكيونيتها رغم براءتها براءة الطالق ، والمطلق (بالكسر والفتح) ، والشاذ ، والخنثى ، إن للناظرة مؤدجلة أيضا . « والدعارة » مآلها الأخير .

إن الجنس كالحبز والماء والهواء والطعام ، والجسد الذي يتناول الحبز والماء والهواء ، والطعام في أشكالها المتعددة لا بد أن يفرزه وكل هروب من الجنس اهتمام متزايد به . إن الجنس جدير بالتنظيمات التي تلحق بالألبسة والأطعمة والأعمال المختلفة .

ان لقاء بيومي بالناظرة مستحيل الا عن طريق « الزنا ؟ » والكلمة أخلاقية دالة على التحريم . انها في وضع مأساوي : الزواج ممنوع لأنانية بيومي المؤدجلة و « الزنا » محرم . إن بيومي حرياء لا تستقر على لون ولا حال خوفاً من ضياع حلمه الطوباوي غير المؤسس . انه يحكم على الناظرة بنفس الأحكام القيمية الأخلاقية

والجمالية التي تحكم عليها أصيلة : « فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الارعن وجودها بنفسها بلا تحفظ إنها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وآماله المقدسة الموصولة بسر حكمة الله العظيم (. . .) وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى إليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأراميل ، والعوانس » (ص ٩٧) . تتمظهر الايديولوجيا في الالتجاء الى معايير أخلاقية كالاندفاع والاحجام ، الأرعن أو المهذب ، والجود أو البخل بالنفس ، بجرأة أو تحفظ ، والجميل أو اللابأس به ، والنار أو الماء ، الانهزام أو الانتصار ، التمرد أو الاستسلام ، الزواج أو الترميل ، وأصيلة لتأدلجها تهرب أيضا من الرقيب الموضوعي ، وتنسى أنها تهرب من الرقيب الذاتي : « صح عزمي على المجيء ، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقة أم حسني كأي جئت أصلا لزيارتها » . (ص ٩٧) . كلا الجنسين يبحث عن الظلمة . لا رغبة تشيع . كل جسد معلول . الوطن مستشفى كبير لا دواء فيه . كل نفس فيه ضائقة الداء / الموت . المرأة في مجتمع التأدلج الظلامي هي المرأة الممنوعة والمتمنعة حسب الكلام السائر cliché « كل ممنوع مرغوب » . ولكن أصيلة حجازي الناظرة استسلمت بدافع مركب : رغبة جنسية طبيعية واردة الزواج فتقع في « المحذور » كما توقعنا ذلك : « وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أثر الكبرياء ، محض عاشقة مهذرة الدفاع (. . .)

أفاق تماما من الدهشة ، صدت نفسه عن أي موضوع وتركزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة » (ص ٩٧ - ٩٨) . الا أن سارد « حضرة المحترم » يشبه سارد « مدام بوفاري » ، اذ تصيبه أحيانا شرارات الايديولوجيا الرسمية فيلتزم الصمت الى حد

عن تغريده المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة .
وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا الى نوم
أبدي ، مخلقا وراءه صموتا مرييا وراحة فائرة مشبعة
بالأسى (. . .) . رقد على جنبه فوق الفراش على حين
انحطت قوة الكنية معرضة قميصها وحببات العرق فوق
الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العاري . نظر الى
لا شيء لا ينشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة
الدنيا . وحانت التفاتة إليها فأنكرها كلية ، كأنها شيء
غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري
الذي جره الى السعير ، شيء أخرس بلا تاريخ ولا
مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي
الا تمرين على الموت ، والبعث ، وادراك مسبق لقبول
المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات
خاطفة عن ذاته اللانهائية ، ودرجة المدير العام آية
أخرى ولكنها تتجلى للارادة الشاخنة لا للاستسلام
العذب ! وحدها الله فقد تحصن بالبرود العاقل والقاتل
أيضا . وها هي المرأة ترغب بلا شك في العودة الى
موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تتمنى لو
يبدأ هو . ولما يئست نظرت اليه بابتهاال وأسى
وغمغمت :

- نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة .
ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية . إنها
تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر
(ص ٩٨ - ٩٩) . لقد غدت أصيلة في عين بيومي
المؤدلج شيئا أدى دوره فطرح بإهمال ولا مبالاة . ومع
تخليق خياله من المحسوس الى المجرد فقد تحولت الى
جنية ، بعد أن كانت ملاكا ، أو شيطانا ومخلوقة غريبة
« الوعية » أو لعودة درجة المدير العام الى خياله

أن كتب جيرار جنيت مقالا بعنوان : سكوتات فلوير^(٣)
يتجلى صمت سارد نجيب كصمت سارد فلوير في الثغرة
التي أحدثها في سرده ، أو في الحذف الذي قام به في
كتابته ، أو في الغياب الذي يستشعره القارئ من خلال
حضور سردي يشكل مظهرا لتلك الكينونة الغائبة .
فحضور قول يخفي في ثناياه أو يشير بين مقاطعه الى
غياب يحدث تقبا في وحداته . الى اللامعبر عنه ، الى
المسكوت عنه ، واللامثل ، واللامعقول وهو وصف
الفعل الجنسي بكل حرية وصراحة وواقعية طبيعية
وعادية .

الا أن سارد « حاضرة المحترم » سكت خانعا للتأدلج
الذي أصابته شظاياه الشيء الذي أفضى به الى ممارسة
الرقابة ، كبيومي ، على نفسه هو أيضا حتى في مجال
التعبير الروائي . أيعود ذلك الى كثرة مصاحبة بيومي أم
هي رواسب من الماضي تستمر في الحاضر ؟ بهذا الفعل
جرد النص الأدبي من أدبيته ولذته ، ومما كان بإمكانه أن
يعد عنصرا من العناصر المكونة لمتعته فراح يتحدث
انطلاقا مما بعد الفعل الجنسي ، من لحظة الوعي ليعيدنا
عن المعجزة الحقيقية في حياة الانسان ، وليتصدى لتناول
مأساة بيومي والناظرة عندما يعاودهما العقل المثقل
والمكبل بسلاسل الايديولوجيا وأغلاها الغالبة الى حد
انهيار الحياة ليسود العدم . وانه ليغدو ما كان « جنة »
« جحيما » بالندم الى مستوى يتصور فيه بيومي أنه من
« أصحاب السعير » إذ يعيده تأدلجه الى خياله المؤدلج
عندما يستيقظ فيه أنه المؤدلج ، الى خيال يفلسف
الرغبة والنفور من الجنس بلعبة الحياة ، والموت ،
والبعث ، والرضى ، ورفض المأساة في سبيل المجهول
الذي يتمرد على المعلوم والمعيش . يقول السارد في
صمت : « وأعلن لحن من الاالحان اللانهائية للطبيعة

٣ - انظر جيرار جنيت « صور X » ط ٥ سوى/ بوان . باريز 1966 a

الذاكري . والطموح يحدد الارادة تحت تأثير معايير الشموخ والاسفاف ، والاستسلام أو التمرد ، العذب أو المر ، تشييد أو تحطيم البناء الذي شيده التأدلج في فكره المتحجر المحلق في سماء الوهم بعيدا عن أرض الحقيقة والواقع .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي صمت فيها السارد في هذا العمل الروائي . فلقد سكت في استرجاعه للذكريات بيومي وسيدة التي لا تختلف في تأدلجها عن أصيلة التي يدل اسمها على ذلك والذي يحمل معنى الاصاله . وأسلوب السرد في « حضرة المحترم » يذكر بأسلوب السرد في مدام بوفاري الزاخر بالحذف والتزام الصمت في لحظات الحديث عن الجنس ، وضحك . لثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وبكلمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف (ص ١٩) . فالحذف هنا مزدوج .

١ - بعد عبارة « لم يجرؤ على تجاوز ذلك » إذ سكت السارد عما يلي تجاوز ذلك وهو الى ماذا ؟ فإنه ترك لنا فرصة تصويره . ولكن فرصة التصوير تبقى حتى ولو أخبرنا بذلك . واللغة قاصرة فكيف نزيد من قصورها بالصمت .

٢ - كنى عن الجنس بعبارة أخرى عن صمته وأراد أن يملأ الثغرة ولكنه زاد في حفرها بهذه العبارة التي تحول القارئ من موضوع الى موضوع لا علاقة له بالأول « لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف » والصحف المؤدلجة لأهم لها سوى التقاط الأخبار التافهة ، ونشر ما تسميه « فضيحة » وهو حاجة انسانية طبيعية تنتهي عندما تبتدىء حاجة الآخر . وهذا يجعل الانسان يحجم عن الاقدام على الجنس ، أو أن

يوجد بجانب امرأة . إن صحفا من هذا النوع تلتزم الصمت عن فضائح الاختلاس والتبذير ، والاستغلال البشع : « الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟ » (ص ١٠٠) .

وجهة نظر بيومي المؤدلجة ترد اقتحام المرأة الشجاعة للمحرمات ، والكلام عن الجنس أو الرغبة فيه دون رقابة أو سلطة عقائدية أو عقلانية أو أخلاقية ، الى غريزة المرأة التي تدرك بها المجهول الذي لا يستطيع الرجل ادراكه . ليست غريزة المرأة هي التي تدرك المجهول ، وإنما هو عدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى ذهنها ويعبر عنه المؤدلجون بقولهم « المرأة ناقصة عقلا ودينا » . إنها المرأة التي تجهل الخطاب « الثقافي » المؤدلج فبقيت أرض فكرها خصبة لخطاب مضاد ، كما بقيت طبيعتها نقية تعمل عندها ملكة القلب والعقل الذي ينبغي تثقيفه حتى يعمل معا . وهذا ما انتزع من بيومي هذا التعليق المؤدلج غير العلمي : « قال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمية ، وأنه لو كان للانسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الآن » . (ص ١٠٤) . وغريزة المرأة لا تختلف في شيء عن غريزة الرجل . ويتميز عنها بيومي بتأدلجه فقط .

تنكر الايديولوجيا السائدة كل علم فتروج الكلام الميتافيزيقي والاسطوري عبر وكلائها ووسائل الاعلام البصرية والسمعية ، والشائعات ، والدعايات ، والقبل والقال .

« ألم يبلغك ما يقال عن الغاء البغاء ! »

- وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أي عمل ؟ عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق الا نحن ؟

في الوسط الجديد « الراقي » الذي يعد الانتقال اليه من « الدرب » وثبة خيالية . (ص ١٢٤) وتستند التراتبية الى المعيار الذي يفرق بين الدرب والوسط الجديد . وفي حوار مع قدرية يبدو صراع الأيديولوجيات الفوضوية والسائدة :
« بل إنني آمل أن تصومي وتصلني فنحن في حاجة الى رضى الله عنا .

- إنني مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم . .
- إنك سيده محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة !

- إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟
- يجب ألا تسكر على الإطلاق . . (ص ١٣١) .
إن السارد في عرضه لعلاقة بيومي بقدرية يسخر من « السياسيين » الذين يهتمون بظواهر الأمور ومظاهرها يطبقون عليها مصطلحات اجتماعية دون ، التعمق في معرفة الواقع وأوليائه ، وتفاعل البنيات التقليدية بالحديثة سواء على مستوى البنيات الفوقية أو التحتية : « وتذكر الآراء التي يعلل بها الزملاء - المولعون بالسياسة والأفكار - هذه الظاهرة^(٤) ، وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات » (ص ١٣١) . تنتج البدانة عن عدم بذل أي مجهود عضلي وعدم ممارسة قدرية الشغل أو الرياضة بعد العمل في مجتمع بطالي شل نصفه ومات وأخذ الموت يتسرب الى النصف الآخر .

إن طموح بيومي يحدد سلوكه حتى قبل أن يحققه . وهو في القرب من الطموح يمارس التسلط ولو في درجة دنيا . فنظرته الى الناس توميء الى ما يسمها من ميز وتفرقة ، وتصنيفية ، وملكية ، وأنانية موصومة بالاحتقار ، والاستغلال ، والتشيء الشيء الذي يكشف للقاري حقيقة الخضوع البرجوازي . إن البرجوازية تعبت كطفل كبير يعرض عن حرمانه الطويل

- لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد !

(. . .)

- ستتشر الدعارة في كل مكان . .
- والأمراض كذلك .
- وآلاف البنات سيتعرضن للفساد . .
- ماذا تقول لمن لا عمل لهم ؟ (ص ١٢٠ - ١٢١) .

في هذا الحوار تتمزج الأيديولوجيا الشائنة والأيديولوجيا المستقلة الى حد ما ولا سيما في لغة قدرية . ويتتج عن هذا التصديق للشائعات فتستبد لحظة الجنون بيومي فيتزوج قدرية التي تشيئه بسبب الوضع المادي : « وقال لنفسه لعلها تعدده الطرف الرابع في الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه ! » (ص ١٢٣) . ولكن عودة العقلانية تخنق الجنونية : « وجرت المراسيم وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذي جرى ؟ واجتاحه شعور عميق بالقلق بلغ حد الرعب فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيدرد سحبات الكابوس الذي يعاني منه ، ثم لما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . إنهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف أن يعترف - بدءاً من الآن . أنه مجنون » (ص ١٢٣) . التأدلج يقلب الحقائق فما هو عقل يسميه جنوناً وما هو جنون يسميه عقلاً . ثم يحشد بيومي في كلامه سيلاً من الأحكام التقويمية وفق المعيار الأخلاقي والجمالي : « كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش » . (ص ١٢٣) . وتتمظهر الأدلجة في القول المبتذل « ست البيت » ، « الوسط الراقي » ، « وثبة خيالية » وتتجلى إيديولوجيا السارد المستقلة في وضع كلمة الراقي بين مزدوجتين ليقول : إنه لا يزال متخلفاً : « ها هي لا تألو جهداً في لعب دور ست البيت

المكبوت ، في علم النفس الفرويدي البنيوي فالولد أبو الرجل وهي مقولة مشهورة تشخص النظام الأبوي لكن فرويد نظر في النتائج وأغفل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الهم الأساسي في منهج ماركس في علم الاجتماع البنيوي الذي مارسه في نقده لعلائق الانتاج . أما نيتشه فهو قد أدرك بفلسفته العميقة أن الانحلال إذا بلغ أوجه فينغي للأيدولوجيا المستقلة أن تستغله لأنه معطى يمكن الاعتماد عليه من أجل تحول قريب . : « ويمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة . وتعيش مع عمه . عانس » (ص ١٣٥) . إنها ممارسة لا تعتبر الآخر إلا كسرير ومن هنا يعبر الاستبداد عن نفسه من خلال هذا السلوك المتفجر أنانية وتسليطاً . إن بيومي ينسى سنه الذي لا يتلاءم وسن الفتاة ولا مع الوظيفة أمل عمره . إنه لا يعي ذاته وقدرته الجسدية . يتخيل إليه أنه شاب ما يزال ويحاول تقليد الشباب وينكر شيخوخته التي تفرض وجودها عليه وتتطلب منه أن يحيطها بالعناية التي تستحقها ، ولكن عودة المكبوت تبرز من خلال سلوكه العايب المتأخر زمنياً . والفتاة كذلك - تحت دافع الحاجة - لم تول أي اهتمام لشبابها ، وحيوته الأنثوية التي لا تنسجم وبرودة جسم بيومي فنسيت نفسها ونسيت بيومي العجوز فيتبادلان التشبيء ، ونتيجة لتنافس النساء على الرجال / المال تقول العجوز : « طلق امرأتك أولاً » (ص ١٤١) . ولقد مسرح نجيب محفوظ في روايته هذه أعجوبة الأيدولوجيا السائدة بتجسيدها في شخص بيومي الذي قال لراضية (سماها نجيب بهذا الاسم دلالة على رضاها وقبولها لبيومي العجوز) مردداً القول السائر والذي يستحيل على من كان في سن بيومي تحقيقه :

« معك يا حبيبي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة .

وقبلها ثم استطرد :

- سيكون لنا بنين وبنات » (ص ١٤٣) .

والانسانية والعقلانية في نظر المرأة المؤجلة الطموح طموحاً زائفاً وسيلتان الى غاية : الزواج والمال وما فيها من استقرار طفيلي ، وأمان من عواصف الأيدولوجيا الحربائية المقلوبة : « إنك تبدو لي » إنساناً « و » عاقلاً « لأول مرة » (ص ١٤١) . والسارد يضع الكلمتين اللتين جاءتا في كلام العجوز بين مزدوجتين للدلالة على أنه ليس كذلك أو لتأكيد كذب العجوز . وقدره على النقيض منه إنسانه . فهي تقول له : « لك العذر ، أنا فاهمة كل شيء ، إنك تريد ولداً ، ولك الحق وربنا يحقق رغبتك .

- أنت طيبة وإنسانة يا قدرية . » (ص ١٥١) قد تكون كذلك أو يقول لها ذلك ليؤدلجها .

وإذا كان بيومي يخضع للرأي العام في الانجاب ، فالولد مشياً قبل أن يولد ما دام لم يفكر فيه وفي مستقبله ولا سيما إذا كان مشرفاً على الهلاك فالمرأة هنا جسر للعبور الى الولد : « في لحظة بأس رميت بالدرجة وراء ظهري وتركز أمني في حلم واحد هو الانجاب » (ص ١٥٢) . وهو حلم فات أوانه ، وهو في ثنائياته يعبث بالنساء كما يعبث الطفل بالدمى : « إذا تهيأ لي يوماً أن أنجب فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهها الأبيض والأسود (ص ١٥٥) . واليتيمة والعانس العجوز تؤسسان رغبتها على عبادة صنم المال : « أنت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك . .

- ما الفائدة ؟

- ها هي عقيب الطمع وسوء التصرف !

- اصرخي حتى يسمع ! » (ص ١٥٤) .

الشخصية وعلاقتها بالمثلين / الأشياء :

يعبر البؤس والتراثبية بالكلمات / الأشياء عن

Le puits en **devera** de la sorte d'une **gueule** plus ou moins **gloutonne** (..) toujours 2 ffame, de boyaux geants capables de **digerer** un peuple”^(٦)

“Jl songeait violemment (..) a ce **dieu** repuet accroupi

auquel dix mille affames don- (٧) naient leur chair sans le sonnaitre.”

“Car les riches avaient pris la (٨) place de **Dieu**”

لا تنتج الأيديولوجيا السائدة إلا ذاتها .

إن المدير العام هو المنصب الذي بشرت به إشارة الخطاب المؤدلج الذي ترسب في وعي يومي ولا وعيه . إنه الاله مالك السلطة والقوة والنبي الذي يوحى اليه كما يظهر ذلك من خلال الفضاء : « انفتح الباب فترأت الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعاني والمثيرات لامكانا محدوداً منظوياً في شتى التفاصيل ، آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم . لذلك اشتعل وجدانه وعرق في انبهار سحري . فقد أولاً تركيزه . نسي ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الاله القابع وراء المكتب الفخم ، وتلقى صدمة كهربائية موحية بخلافة غرست في صميم قلبه حباً جنوياً ببهجة الحياة في ذروتها المتسلطة عند ذاك دعاه نداء القوة للسجود، وحرضه على الغداء، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتغال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملي إرادته . وتلبية لأغراء لا يقاوم خطف نظرة من الاله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما يملك من

الفروق الطبقيّة وفق الدرجات في الوظيفة حيث يتميز قضاء عن قضاء ، ومكتب عن مكتب ، ومنصب عن منصب ، وراتب عن راتب تبعاً لتدور العمل ، وعن نوعية الاقتصاد الذي تسير عليه البلاد والذي يحدد وضعية الموظف ، وبالملايس / الاشارات الى الحالة المادية والاجتماعية والنفسية .

« - مكتبك تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة . . فقال عثمان :

- بدلي قديمة جداً والحمد لله » (ص ٩ - ١١) .

إن هذا المكتب يختلف عن مكتب المدير العام المتميز والذي هو امتداد لشخص المدير العام الاله المتسلط ، المتجبر بحيث ينحني له كل من مثل بين يديه . وهو الأقوى ككل الآلهة عبر العصور بالمال الذي يتجلى في الأشياء المحيطة به دون سائر الموظفين . لماذا يمتزج هذا الانسان بالآلهة في تصور يومي إلى حد تحطيم الثنائية بين المدير العام والإله ؟ إن يومي ينظر الى منتج الأيديولوجيا السائدة من خلالها . إنه يؤلهه فتأله ، إنه يشبه رأس المال الذي ألهته شخصيات جيرمنال لزولا . إن نجيب محفوظ يؤنس الأيديولوجيا السائدة بالشخصية المؤدجلة التي ذابت في أختها صاحبة رأس المال وقد تأله كأن عبارتي نجيب « الاله القابع وراء » ، و « آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم » الدالتين على الأيديولوجيا التحريرية ترجمة لعبارات زولا :

“Le puits **avalait** des hommes (٥) par bouchees”

“La cage avait reparu (..) pour **engloutir** une autre charge d'hommes (..)

٥ - اميل زولا « جيرمنال » ط ٥ كتاب الجيب ، 1976 ص 29

٦ - نفس المرجع : ص 29 — 30

٧ - نفس المرجع : ص 72

٨ - نفس المرجع : ص 37

خشوع» (ص ٥) . ثم يقول السارد عن الحجرة ذاتها : « وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفتها الكرستال ، وجدرانها المورقة ، مدفأتها الموشاة بالقرميد ، ساطعها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود ساطع في طولها وعرضها ، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر ، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلوري ، وتحفه الفضية من ورقات ومخار وأقلام وساعة وسومان وناقضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلي » (ص ٦٣ - ٦٤) .

وحارة الحسيني التقليدية ، والمحافظة ، والثابتة على القيم البالية والمثالية امتداد لشخصية بيومي . فهي تنحني كما ينحني هو . وهنا لا نملك سوى أن نكرر ما سبقنا إليه نجيب من أحكام نقدية حول علاقة الشخصية بالفضاء الذي يستخدم كنوع من المجد للإشارة إلى الشخصية المؤدجة وإلى السارد غير المؤدج من خلال النعوت التي يطلقها على الحارة : « من نافذته الصغيرة يرى وطنه - حارة الحسيني - كأنها امتداد لروحه وجسده ، حارة طويلة ذات منحني حاد ، مشهورة بموقف الكارو ومسقى للحمير . (. . .) ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس أو النجوى ، أصواتها مرتفعة جداً ، متوترة بين الحكمة والبدائية » (ص ١٢) . وحكم السارد عليها هو حكم إيديولوجيا مندور المستقلة على الشعر القديم الذي يخلو من الهمس الذي يشكل الميزة الأساسية للشعر المهجري . ويشير اللفظ / المنزل أيضاً إلى وضعية بيومي الاقتصادية إلى التراتبية والتفاوت الطبقي في السكن : « في مسكنه - حجرة وحيدة ومرافق - يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته » (م ١٢) .

وعندما يتحول الاقتصاد من المستعمر إلى الاقطاعيين أو بورجوازي هذا الوطن ، تتغير الأشياء

بتغير الملاك . وإذا عرف النظام الاقتصادي الثبات ، فباقي التغيرات قشور ، وأعراض لا تمس الجوهر لعدم شموليتها وتتوقف عند من انتقلت اليهم وسائل الانتاج ، والذين يقومون بتغييرات لصالحهم ويفرضها تضخيم رأس المال واستثماره ، وتبذيره ، فيقع التهجير الاغرائي أو التعسفي فينتقل « الضعفاء » الذين يعجزون عن بناء مساكن لأنهم متروكون للمصادفة ، فتتركهم الأرض التي ناضلوا من أجلها حسب تعبيرات السارد الثوستلجية والموضوعية ويهيمن ظلام الثنائيات ويعم : « ضاعت تماماً عواطفه الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من أهل الحي هاجروا إلى مذبح ، كل شيء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاءة اللف تتوارى ، حتى الخير والشر يتجددان ويتنوعان » (ص ١١٢ - ١١٣) .

وبيومي المؤدج لا يطالع من الكتب سوى ما يتصل بالوظيفة وما يساعده على الترقية . إن حضور أنواع من الكتب وغياب أنواع أخرى لدليل على التأدج المسيطر ، كل ما يتوفر عليه هو كتب القانون وسير العظماء - إرادة العظمة ونموذجها المدير العام - ، وقواميس الانجليزية والفرنسية قصد الترجمة ، وكتب الأدب القديمة . وتغيّب عنده الكتب العلمية والأدبية الحديثة والفنية . . . : « ها هي كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة » (ص ٢٣) .

حتى في بيت قدرية فالأشياء / الكلمات دالة على التراتبية ، وعلى المستوى الاجتماعي والتاريخي الهابط حيث يرقص البؤس رقصة الموت الساخر من حياة كهذه : « وذكرته حجرتها بحجرتها ولكنها أكثر بدائية

أن ضاعت الكينونة في سبيل كينونة أخرى ، والعناية بالمظهر لا تسترد الكينونة الضائعة ، لقد شيئا نفسه هذه المرة .

الكينونة هي جدلية الرغبة والنقص في الانسان .

لم يرضخ بيومي لتأدله لسنة الطبيعة التي تساعد العلوم على اكتشاف قوانينها للتحكم فيها وإعطائها حريتها ، ومعرفتها ، ومعرفة حاجياتها ، والطرق المؤدية الى المحافظة عليها ، وتحقيق رغبتها .

إن الجسد جزء من الطبيعة وهو وحده الكائن الواقعي كجزء منها .

إن الشاب يمارس طقوس الرجال والشيوخ أحياناً في فجر عمره وضحاها . والشيخ في خريف عمره يمارس طقوس الشباب .

إن المؤدلج يستهلك ما لم ينتجه وطنه وإنما ما يستورده ممن استعمره أمس واليوم كي يتحول الاستعمار الى استعمار اقتصادي وهو أخطر من كل استعمار « لأول مرة يخطر في ملابس أنيقة . بدلة رمادية من الصوف الانجليزي ، وحذاء انجليزي كذلك ، أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية نفسها ، ولأول مرة يتعطر بالروائح الزكية ، ويحلق ذقنه كل يوم . ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره ، ولأول مرة يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى . » (ص ١٤٢) . إنه يتجاهل وقع الزمن المؤدلج وأخاذه التي سطرها على جسده كفعل المحراث أو الماء الغزير بالأرض فتتحول قبل الأوان وجعل منه جسداً محبطاً ، محطاً ، منهاراً وساقطاً ويشرف على النهاية لأن الأيديولوجيا الخداعة ألهمته عنه بعدما شغلته بالأرواح والقوى والأجناد الزائفة والبطولات الكاذبة . فحضور الزمن يتكرر في المقطع السردى بصيغة « لأول مرة » ثلاث مرات في وحدة

بأرضها العارية فراشها المرتفع والمرآة وكروسي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته في ليالي الشتاء (. . .) ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري . وكان قدح نبيذ « السلسلة » الجهنمي - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه » (ص ٣١ - ٣٩) .

إن الخمرة بالنسبة الى المؤدلج لجن الذين يعتقدون أنفسهم عقلاء والآخرين مجرد مجانين ، هي الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهم خرق المواضعات والضوابط الاجتماعية ، وأخرجهم عن المقاييس السائدة والقاتلة . إنها تتسلل الى قاعة الذهن والعقل المستبد لتطرده منها بجيلتها الحوارية والتنويمية كي تستريح النفس من بطشه المؤدلج وتأدله المتسلط ، فتحقق الذات متعتها ، وتمارس جنوبها الضروري . فاذا خرجت وقل تأثيرها ، عاد العقل بعقلانيته الضاغطة والاضطهادية بأساطيرها ، ومعاييرها ، وقوانينها يخنفي الجنون ، ويختفي ، ويقع وينبطح وكأن كتلة من الرصاص ثقيلة قد وضعت على مادته اللينة فشلتته عن الحركة وعن حرية الابداع في القول والفعل وفي ضروب الجنون . ما أقصر عمر لحظة اللذة ! نتعجب ولا ندرك أن التأدلج هو السبب .

إن بيت قدرية لم ولن تصل اليه الكهرباء ، والماء . . . كالمستفيدين من الاستقلال : « تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعة واحدة » (ص ٣٩) .

وبيومي بعدما أدرك أن الجوهر قد ضاع : شبابه ، رجولته ، وخاض الشيب في شعره ، والعجز في جسده ، فهو يريد أن يسترجع أيام زمان ولكن الزمن خطي وذو اتجاه واحد ، فأخذ يعني بالشكل والمظهر بعد

سردية صغيرة ثم يؤكد في نهايتها هذا الحضور الذي يشير الى غياب : « أكثر من أي وقت مضى » .

إن المظهر الواقعي والجدلي هو مظهر كينونة ذاتها لا مظهر كينونة أخرى مخالفة في الزمان والمكان .

النقد والأيديولوجيا :

إن تقنية الروائي أو بنية خطابه الروائي تعبر عن فلسفة السارد ورؤيته للعالم . فالبنية السردية تعبر عن فلسفته . وهذه الفلسفة مجموعة من الأفكار والآراء ووجهات النظر المعاشة للشكل ومكوناته . فهي منبثقة منه ومن وضعه على الورقة . وبما أن الأيديولوجيا هي دراسة الأفكار ، والآراء ، ووجهات النظر ، فإن للفلسفة علاقة بالأيديولوجيا . وهذه العلاقة هي من المتانة بمكان كالعلاقة الموجودة بين الشكل والمضمون التي تدل على العلاقة الموجودة بين اللغة والأفكار ، وبين البنية والفلسفة ، والتعبير والأيديولوجيا . إن الحديث عن الشكل وبنياته هو حديث عن الأيديولوجيا ، واستجلاء تألقات الأيديولوجيا وظلالها في الخطاب الروائي هو أبرز للبنية السردية .

إن النقد في عملية تفكيكه للعناصر المكونة للشكل ، هو في ذات الوقت استجلاء لفلسفة أو أيديولوجيا العمل الروائي . لقد وقفنا على الأيديولوجيا وتمظهراتها في الخطاب الروائي ك ممارسة نقدية تبرز هذه التمظهرات عبر لغة الخطاب قصد استكمال التصور عن مفهوم الأيديولوجيا وعلاقتها بالنص الروائي . وهذه الممارسة تسوخى المنهج البنيوي الجيني الذي يتصل مباشرة بالمضمون ، ويزصد ، بعيدا عن التنظيرات التي قيل فيها الكثير وسودت صفحات الكتب والمجلات حول مفهوم الأيديولوجيا ، تجلياتها في البنيات التعبيرية الدلالية للعمل الروائي . فإذا كانت الأيديولوجيا تعني

فيما تعنيه أفكار وآراء ووجهات نظر الانسان في محيط اقتصادي ، وثقافي معين ، فإننا عرضنا ، ممارسة ، أفكار ، وآراء ، ووجهات نظر الشخصية ، وأفكار ، وآراء ، ووجهات نظر السارد كما سردنا مدى انفصال واتصال أيديولوجيتها . وهذا المنهج يعد أكثر تطورا من المنهج البنيوي الجيني الانتقائي الذي عرفته الممارسات النقدية عندنا في النقد العربي وذلك إما لغموض البنيات الدالة ، أو لتعددتها ، أو لاتساع وتشعب علائق الشخصيات فيما بينها وعلائقها مع الممثلين / الأشياء في العمل الروائي .

إن عرض وجهات نظر نقدية جمالية بنيوية أو فكرية للعمل الروائي هو نقد إيديولوجي يتخذ السارد كشخصية وعلاقته بباقي الشخصيات ويرصد تقنيته وبنية عمله الروائي لابرار إيديولوجية الروائي وتأدججه . وهذا النقد نقد إيديولوجي مستقل أو أكثر استقلالا من أيديولوجيا الروائي . وانه ليتنظر نقدا إيديولوجيا آخر أكثر استقلالا وهكذا دواليك الى ما لا نهاية لطبيعة الأفكار الجدلية .

بنية رواية « حضرة المحترم »

من المصطلحات النقدية المضللة ما كانت تعرف به الرواية وتصنف كجنس أدبي يتميز عن باقي الأجناس الروائية التاريخية ، والتعليمية ، والنفسية ، والسيرداتية ما أطلقه النقاد في العصر الحديث ك « رواية الشخصية » و « رواية الحدث » ، ولم نكن وقتها ندرك لها تحوما لان جهلنا لمظاهر ، وخصائص ، ومميزات ، ومكونات الشخصية الروائية التي تستلزم معرفة واسعة بالانسان في طبيعته وحاجياته ، وسلوكاته الثابتة والمتحولة التي تساعدنا العلوم الاخرى على معرفتها ، يجعلنا نزيد العمل الروائي ، في نقدنا له ، غموضا وإبهاما ، كيف كنا نفهم الشخصية الروائية ؟ كنا

هدف نجيب هو رصد سقوط الشخصية وانهارها ، وموتها ، فإن البنية الروائية بقيت خاضعة للمنهج الدارويني في صعود الشخصية في درجات الترقية . ورغم من أن الانحدار والسقوط هو غاية نجيب فهو لم

يكن انحدارا قاسيا وأكثر مأساوية وتأثيرا لانه يشبه الانحدار الطبيعي الذي يدعن له حتى الشخصية غير المؤدجلة والشخصية الثرية . فضلا عن ذلك فمنهج داروين منهج طبيعي يتبع في داروين مراحل تطور الكائنات في نشوئها ، ونموها ، وتطورها ، وانقراضها ، وأن الطبيعة كقوة لها قوانينها التي تتجلى في الانتخاب كي يبقى العنصر الافضل ، والاجمل والاصلح والاقوى . أيلتقي نيتشه بداروين في إرادة القوة ؟

صحيح أن الكاتب ، تحت هاجس الواقعية ، أراد أن يقدم الشخصية العامل / الموظف المؤدج كما هو في الواقع رازحا تحت صخرة الترقية الخاضعة للدرجات الانحدارية ١ .. ٢ .. ٣ .. ٤ .. ٥ .. ٦ .. ٧ .. ٨ .. ٩ .. ١٠ ودرجة المدير العام التي هي ٠ أي صفر أو لا شيء إذ تبدو إيدولوجيا السارد المستقلة في اعتبار درجة المدير العام صفرا أو لا شيء ، وحتى لو قدمت بشكل تصاعدي ١ .. ٢ .. ٣ .. ٤ .. ٥ .. ٦ .. ٧ .. ٨ فإن ذلك لن يغير من الصيرورة الزمنية شيئا .

٣ - عدم تأثير الرواية عندنا بالملمحة بقدر تأثيرها بالتراجيديا اليونانية التي خضعت للتنظير الارسطي الذي كان لكتابه « فن الشعر » ولا يزال تأثير وأي تأثير في المبدعين والنقاد الى اليوم . والمأساة اليونانية ترتبط بالانسان ، وتصوره وهو يعمل ، وعبر جميع مراحل حياته . إنها تخضع بدورها لتطور الشخصيات وتنامي الاحداث (الكل ، هو ماله بداية ووسط ونهاية) أو انقلاب السعادة الى شقاء أو الشقاء الى سعادة حسب

نفهمها على أنها الصورة للشخص كما هو في الحياة أو دون ذلك ، وكنا ، علاوة على ذلك ، لا نفرق بين الشخصية في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، وبين الشخصية كمكون بين مكونات الخطاب الروائي . إن الشخصية هي التي تحدد للعمل الأدبي جنسه . وبناء على هذه الرؤية النقدية ، يمكن أن نطلق على رواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ مصطلحا أكثر دقة يحدد جنسها الأدبي وهو مصطلح « السيرة الذاتية للشخصية المؤدجلة » .

في هذا الجنس الأدبي يوظف الكاتب التقنية الكلاسيكية في الابداع الروائي الذي كان معروفا عند المبدعين الغربيين الكلاسيكيين كسيرفاتيز ، وبلزاك ، وفلوبير وتتمظهر هذه التقنية في التجليات التالية التي تحدد بنية السيرة الذاتية للشخصية المؤدجلة .

١ - الرواية بضمير الغائب التي تتيح « الرؤية مع »

٢ - تأثر الكاتب بالنظرية الداروينية والتاريخية التطورية التي تتجلى في تعاقبه الأحداث وتسلسها وفق سيرورة الزمن الخطية حفاظا على التحامية البنية الروائية وتماصك أجزائها وعناصرها في وحدة تربط حلقات سردها ارتباطا منطقيا صارما . ولقد تناول فيها شخصية وتتبعها في نموها الزمني كما عرض مراحل حياتها جميعها منذ دخولها الى الوظيفة وهي مرحلة الشباب ، مع فلاش - باك يتيم يذكرنا بمرحلة الطفولة وهي يوم دخولها الى المدرسة الابتدائية ، ثم مرحلة الرجولة التي قضاها في الوظيفة ، ثم مرحلة الشيخوخة ، ثم الموت . والشخصية تخضع في حياتها العملية لتنفيذ القرار الابدولوجي إلى درجات الترقية الانحدارية وتبعاً لذلك فإن البنية الروائية تخضع للتطور والتدرج وفق نظرية / إيدولوجيا « النشوء والارتقاء » الداروينية . ورغم أن

مجموعة من الاحداث المتسلسلة وفق الممكن /
المحتمل^(٩).

٤ - العقلانية الصارمة التي مارست عليه منطقتها
فاختار ثمانى درجات وثمانية بنود في ورقة عمل
الشخصية ، وثمانى شخصيات / النساء وثمانى
شخصيات / الرجال بحيث يمكن أن نستنتج المعادلة التي
وضعها نجيب لبناء روايته .

المعادلة التي بنيت عليها الرواية :

المدير العام = ٠

حلم بيومي = المدير العام = ٠

بيومي = ٠

علاقاته بالنساء والرجال والدرجات الذين هم وسيلة
لبلوغ منصب المدير العام وتحقيق الحلم : بما أن عدد
النساء هو ثمانية وعدد الرجال هو ثمانية وعدد الدرجات
هو ثمانية فإن المعادلة الروائية هي :

$$١ - ٠ \times ٨ = ٠$$

$$٢ - ٠ \times ٨ = ٠$$

$$٣ - ٠ \times ٨ = ٠$$

وإذا إختزلنا ذلك كله تصبح المعادلة هي :

$$٠ = ٠ \times (٣ \times ٨)$$

٥ - عدم ممارسته الجنون في الرواية . لو أراد أن يفعل
لبداً مثلاً بسقوط الشخصية ثم يطلعنا بالتبادل عن
الاسباب التي دفعتها الى الموت والتي ستبقى هي هي
رغم اختلاف التقنية التي ستقدم الرواية في شكل أكثر
إثارة وتأثيراً ومتعة وإقناعاً . وستكسر إذاك خطية الزمن
ورتابته للقبض على إنتباه القارئ بشكل أكثر فنية ،
فحتى حضور أو غياب الشخصيات ثم حضورها يخضع
للسببية وخطها التعاقبي الواضح .

يتمسك الكاتب في رسم الشخصيات الى معيار
تراتبى يقسم الشخصيات الى رئيسية وثانوية ويجعل
الشخصية / الرجل دائمة الحضور دون الشخصية /
المرأة وكان ينبغي الاهتمام بجميع الشخصيات وأن
تظهر بالتساوي مع الشخصية الرجل على مسرح التمثيل
الروائي . فحضور شخصية باستمرار وغياب أخرى
باستمرار يضعف الصراع والتوقف من الأحداث .
ويسود في الرواية الوعي ويغيب فيه اللاوعي بالمفهوم
الفرويدي . فغياب أحلام النوم ، والاقتصار على
أحلام اليقظة يضعف مأساوية جميع الشخصيات ،
فهيمنة الأنا المؤدلج لن يبرز بشكل جلي إلا إذا برز ضده
ونقيضه وهو اللاوعي أو الأنا اللامؤدلج في الأحلام
النومية . لقد اكتفى الكاتب برصد الأفكار العقلية التي
تنسجم مع الخيال المؤدلج الذاكري ، ورصد العقلانية
وأغفل الجنون . إن بيومي يبدو كشخصية سوية مع أن
جدى أن يبدو كمجنون يمارس الجنون في أوجه في
عامله مع الشخصيات الأخرى وأن يحقق في الحلم
النومي ما لم يحققه في اليقظة أو ما يكتبه طول النهار . كما
أنه ينبغي أن يبدو كشخصية منهاره الأعصاب ،
مضطربة ، كثيرة الأحلام ، قليلة النوم ، ومتعددة
الكوابيس . وينبغي لهذا الجنون أن ينعكس في البنية
الروائية ، في شكلها التعبيري كتقنية مجنونة تترجح بين
الجنون والعقلانية وانسجاماً مع الشخصية المكبوتة والتي
تقمع ذاتها لتأدلجها ، ومع وجهات نظرها ، وأحلامها
في النوم واليقظة ، وهواجسها ، وكوابيسها الى أن
تتداخل الأزمنة والامكنة والشخصيات ، وتتداخل
البنيات السردية الواعية واللاوعية بلغة تسجل زلات
اللسان ، والأخطاء في الآراء وفي التعابير ، والتقليد
والتجديد ، والعقل والذاكرة ، والعقل والقلب ،

نوع الضربات والاداة التي تمت بها وإذا أردنا التفاصيل سألنا الخطاب .

٦ - ما قام به السارد من حذف وصمت ، والتزام السكوت استجابة لهاجس العقلانية ولا سيما في مجال الحديث عن الجنس كممارسة جنونية .

٧ - غياب الحديث عن الأطعمة سوى بعض الاشارات النادرة .

٨ - استبداد السارد بالكلمة دون الشخصيات . قليلة هي الوحدات السردية التي نجد فيها المونولوج التلقائي بل تكاد تكون نادرة أو منعدمة بخلاف المقاطع السردية التي يغلب فيها صيغ المحكي الذاتي المجلوب والمتنافر ويندر المتناغم .

والوعي والخيال ، والتصور واللاوعي ، والتذبذب ، والتردد ، والاقبال والاحجام ، وتتداخل الشخصيات بالأشياء ، والشعر بالنثر ، فتتعدد الصيغ ، وتنوع الأساليب وتكثر الأصوات في الذات وفي العالم الخارجي ، وفي النص الروائي . لا ينبغي للكاتب المجنون/ العاقل أن يؤجل المأساة كما يؤجل الموت . ينبغي أن تشرف الشخصية في كل مرة على الهلاك ، والقلق ، والحيرة ، والحزن المتداخل مع النجاة ، والفرح ، والاستقرار المؤقت ، والسرور القصير الأمد . فالخطاب الذي يسقط الشجرة لا ينتظر حتى تهب الرياح كي تسقطها . إنه يضربها بفأسه كل مرة ضربة تدع فيها جرحا عميقا لا يلتئم ثم يوالي الضربات حتى تسقط . من خلال الشجرة الساقطة يمكن أن ندرك

المراجع :

- (١) نجيب محفوظ « حضرة المحترم » ص : دار العلم بيروت 1977.
- (٢) Philippe Hamon 'texte et ideologic' P.U.F Paris 1984.
- (٣) Philippe Hamon 'Pour statut semiologique du
Philippe Hamon personnage in "Poetique du recit"
Philippe Hamon R. Barthes, W. Kayser, W.C. Booth,
Philippe Hamon Ph. Hamon. Seuil/points, Paris 1977.
- (٤) Philippe Hamon "le personnel du romqn" Droz. Geneve. 1983.
- (٥) Henri Mitterand "le discours du romqn" P.U.F. Paris 1980.
- (٦) Mikhail Bakhtine "Le Marxisme et la Philosophie du Langage" ed. de Minuit. Paris. 1977.
- (٧) Gerard Genette "Figure s I" ed. Seuil/points. Paris. 1977
- (٨) Jean Decottignies "L'écriture de la Fiction, situation ideologique du roma" P.U.F. Paris. 1979.
- (٩) Aristote "La Poetique" Texte, traduction, notes par Roselyne Du pont-Roc et Jeqn Lallot. Seuil. Paris. 1980.
- (١٠) E. Zola "Germinal" Livre de Poche.

لله الحمد والبركة

شكل رقم ١ : بسملة بالخط الكوفي

الفاطمي كتبها أحمد يوسف

بداية الكتابة العربية

حروف الكتابة العبية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها المنهج العربي التقليدي أنها إنما جاءت بهذا القدر لتكون مثل « منازل القمر » المقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما « ولما كانت منازل القمر يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ويغيب تحت الأرض أربع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظن منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة وهي الألف والباء والحاء المهملة والحاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والباء المثناة تحت ، وما يدغم أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة ، وهي التاء المثناة من فوق والشاء المثناة والذال المهملة والذال المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة والنون . « (١) وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة « يس الآية ٣٩ » . « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

بداية الكتابة العربية

محمود حليمي

وارتباط الحروف الأبجدية العربية بمنازل القمر المتباينة له جذور ضاربة في تاريخ الشرق الاعتقادي منذ فجر الحضارات ، فعبادة القمر وكان يطلق عليه « الاله سين » « وسين هذا هو سيد الشهر ينظم أيام الشهر والسنة » (٢) وكانت عبادة القمر قائمة في كل مكان نجدها عند السومريين وهم جنس غير عربي عاشوا في منطقة الرافدين الجنوبية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد

(١) أبو العباس الفلستيني : صبح الأعشى في صناعة الأنشاء . الجزء الثالث ص ١٦ - ١٧ . الطبعة المصورة بالقاهرة ١٩٦٣ .

(٢) سبتيو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور / السيد يعقوب بكر ص ٢٥٥ القاهرة بدون تاريخ .

وكانت ذات العبادة قسائمة عند « الأكاديين »
 AKKADIANS (٢٧٠٠ ق . م) وهم
 السلالات العربية التي سكنت المنطقة . وكانت مدينة « أور »
 أحد مراكز عبادة القمر وكذلك المنطقة الجنوبية من شبه
 الجزيرة العربية حيث يوجد حتى الآن أطلال معبد في
 مدينة « الحريصة » بحضرموت — CHATTAM
 OTITAI ، وكذلك كانت أرض « سيناء » تعرف
 باسم « أرض القمر » . ويعد إله القمر من أقدم الآلهة
 ويعتبر أبا للالهين الشمس وكوكب الزهرة . (٣)

وإذا كانت هناك أسماء مختلفة قد أطلقت على
 « الجنس العربي » على مدى من التاريخ البعيد السابق
 فهم وأينما كانت مواطنهم في أرض « الهلال الخصيب »
 قد احتفظوا في كل مكان حلوا به بلغتهم التي خرجوا بها
 من موطنهم الأصلي بيد أن هؤلاء الذين بقوا في هذا
 الموطن ولم يرحلوا في أي هجرة من الهجرات السابقة قد
 تميزوا بأنهم حافظوا على لسانهم العربي ولغتهم الأم وقد
 ساعدتهم على ذلك طبيعة البيئة الصحراوية المغلقة
 المنعزلة القاصرة على سكانها وحدهم ومثل هذه الطبيعة
 الصحراوية دائما ما تشكل المحافظة المطلقة على الجنس
 والعادات والمعتقدات وبنيتها المنطوقة .

وحين جرت اللغة العربية سلسلة وطيدة على لسان
 سكان شبه الجزيرة العربية ، ظهرت ملكات فطرية
 كفيض متدفق أراد الله تعالى له أن يكون شيئا مختلفا غير
 هذا الذي نجده في الفرع « الآرامي » أو « النبطي » أو
 حتى في الشكل الذي نلقاه في ما سموه « العربية البائدة »
 التي نجدها في النقوش « الصفوية » أو « الشمودية » و
 « اللحيانية » أو حتى في هذا الفرع المتأخر من اللغة
 « الآرامية المسيحية » (السريانية) ذات الكتابة
 « السطرنجيلية » وذلك لأن رسم الحروف الأبجدية
 العربية كان له تشكيله الطبيعي الذي له دوافعه في
 الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطه بالخط

« المسماري السومري » أو « المصري الهيروغليفي » أو
 « الأكادي المسماري » أو « الفينيقي » وكذلك لم يكن
 للحروف العربية الأولى أدنى علاقة تربطها بهذه الصورة
 التي نجدها في الخط « المسند الجنوبي » الذي ذهب فيه
 رأي ابن « خلدون » في قوله : « وكان الخط بالغيا مبالغه
 من الأحكام والألتقان والجودة في دوله التابعة لما بلغت من
 الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل
 منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر أنسباء التابعة في
 العصبية والمجدين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن
 الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التابعة لقصور ما
 بين الدولتين » (٤)

ولم يكن رأي « ابن خلدون » هو وحده الذي ذهب
 بأصول الكتابة العربية إلى الخط المسند فقد ذهب معه
 الكثير مثل « الفيروز ابادي » صاحب « القاموس
 المحيط » الذي قال عن هذا الخط ، لقد سمي العرب
 خطها بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري ،
 وهذا ما ذهب إليه أيضا الألوسي في بلوغ الأرب ، في
 قوله وسمى خط العرب بالجزم لأن الخط الكوفي كان
 أولا يسمى الجزم قبل وجود الكوفي لأنه جزم أي اقتطع
 وولد من المسند الحميري ومرامره هو الذي
 اقتطعه » (٥)

وإذا كانت مثل هذه الآراء القديمة لا تجد لها من
 يعارضها في الماضي فهي في وقتنا الحاضر قد تغيرت
 بسبب المكتشفات الأثرية الحديثة التي لاحقتها دراسات
 موضوعية أثرت المادة العلمية باضافات وحقائق جديدة
 سعى بها أصحابها من العلماء أن يلزموا مادة « النقوش
 العربية » ARABIC INSCRIPTIONS ،
 وأصول الكتابة العربية وجذورها وتعاقبها في الزمان
 والمكان مسارا منهجيا مرتبطا بالموضوعية الأثرية
 والتاريخية حتى ذهب الرأي العلمي ليقول : « إن الخط
 العربي لم يقتطع من المسند الحميري كما تقول هذه

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٦ كتاب الشعب بدون تاريخ .

(٥) الدكتور / خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الاسلام - مجلة كلية الآداب المجلد الثالث الجزء الأول ص ٣ القاهرة مايو ١٩٢٥ .

والرواية ، وليس هناك أي علاقة بينها سوى أنها قد اشتقا من أصل عربي واحد كما يظهر في مقارنة الحروف العربية القديمة التي تدل على أنها تختلف عن بعضها اختلافا شديدا . إذن فهذه النظرية خاطئة ، ولعل هذا الخطأ نشأ عن أن العرب في عصر التدوين كان تعرف عن طريق الروايات المتواترة أن اليمن فرضت خطها المسند على بعض الأمم العربية الشمالية فاشتقت منه قلما تكتب به ، والمقصود بذلك اللحيانيون والتموديون والصفويون لأنهم اقتطعوا خطين من المسند الحميري فظنت العرب أن المقصود بهذه الروايات هو خطها الذي تكتب به وذلك لأنها كانت تجهل هذه الخطوط السابقة كما أنها كانت لا تعرف علم البحث عن النقوش . « (٦)

وقلم « المسند » هو ذلك القلم الذي عرفه ابن خلدون باسم المسند الحميري وهو ذلك الخط الجنوبي « الذي عرف عند المستشرقين باسم القلم « الحميري » و « المسند » عند الاسلاميين من كلمة (مسند) ومعناها الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية ، وهي أدق معنى من مصطلح المستشرقين فإن « حير » قوم متأخرون بالنسبة إلى المعينيين « والسبئيين » و « الحضرميين » و « القتبانيين » وقد عرفوا قبل الميلاد فيما بعد ، ولا يجوز إلحاق المتقدم بالتأخر ، والصحيح هو العكس ولصعوبة إثبات أول من استعمل هذا القلم من عرب الجنوب لنسبه إليه ، لذلك أفضل تسمية الاسلاميين على تسمية المستشرقين « (٧) وذلك عند قول الدكتور « جواد على » .

عربي : ا د / ح ي ث غ ف ص س
عربي : ا د / ح ي ث غ ف ص س
حيري : ا د / ح ي ث غ ف ص س

شكل رقم ٢ : حروف مختلفة من الابجدية الجاهلية والحميرية
(المسند) وما يقابلها من الحروف العربية .

(٦) المصدر السابق : ص ٣ - ٤ .

(٧) الدكتور / جواد على العرب قبل الاسلام (الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة) جمع وتقديم | محمد خلف الله ص ٣١٤ القاهرة ١٣٣٤ هـ - ١٩٥٥ .

(٨) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الثاني ص ٧٠ القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ .

(٩) سبتيو موسكاني : نفس المصدر ص ١٧٦ .

السومرية وقواعد اللغة « البابلية العربية » وهذا ما دلل عليه عالم اللغات القديمة « وليم رايت » W. WRIGHT في كتابه « محاضرات في قواعد المقارنة للغة السامية » قال فيه : ان هناك فوارق رئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هي الآتية :

- ١ - اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجي في تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير جميع الكلمات وتصريفها في تغيير معاني ألفاظها .
 - ٢ - جذر أو مادة الفعل السومري غير قابل للتغيير أما جذور الفعل البابلي فإنه يتغير بتغيير الحركات .
 - ٣ - ليس في السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث .
 - ٤ - حروف الجر تأتي بعد الاسم المجرور في السومرية على حين أنها تأتي قبل الأسم المجرور في البابلية .
 - ٥ - إذا كان المفعول ضميراً أدمجته السومرية في ثانيا الفعل ، أما البابلية فإنها تلحقه بالفعل في آخره .
- وتتفق البابلية في جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية ولا سيما العربية . أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها . ولعلها شوائب لغوية من العصور التي قبل التاريخ » (١٠)
- ويساند هذا الرأي ويعززه ، « ما ذهب إليه طائفة من العلماء المحدثين على رأسهم العلامة « أولزهاوزن » OLSHAUSEN إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى السامية الأولى » (١١) وكان الأحرى بهذا العلامة إذا أراد أن يكون منصفاً مع مادته العلمية أن يقول أن اللغة العربية المحدثه هي أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الأم وإذا كانت هناك آراء متباينة ازدحم بها حقل أصول اللغة العربية ومكان الموطن الأول للشعب الذي يتكلم بها .

والشعب « الأكادي » هو من هذه السلالة التي يحتم علينا أن نطلق عليه « الجنس العربي » الذي خرج من الجزيرة العربية وانتقل إلى أرض « الرافدين عندما حل بالأرض العربية تغيير جيولوجي شامل أحال الأرض الخضراء إلى صحراء قاحلة وفي هذه الأرض الجديدة وبجانب النهر الكبير استقر هذا الشعب العربي الذي أخذ بزمام أموره زعيم قوى هو الملك « سرجون الأول » SARGON (٢٣٠٠ ق . م) وأسس الدولة « الأكادية مستعيراً مقوماتها السياسية بما كان لدى الشعب « السومري » (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق . م) الذي لا نعرف له جذورا عرقية ، والذي سكن هذه المنطقة قبل أن يحل بها الأكاديون . وإذا كان هذا الملك الأكادي قد أخذ بأسباب الحياة التي وجدها مزدهرة آنذاك في أرض الرافدين ، فهو لم يغير من لغته القومية الذي خرج بها من موطنه الأصلي ، فقد أبقي عليها لأنها كانت لديه حقيقة قومية له ولشعبه ، ولكن ضرورة الحياة حتمت عليه وعلى قومه أن يكتبوا لغتهم العربية بالحروف « المسمارية » CUNEIFOR, SCRIPT التي كانت مستعملة في الكتابة « السومرية » التي كانت تكتب على الرقم « الفخارية » والتي ظلت مستعملة كصحائف مميزة للتدوين حتى إبان عصرى الدولة « الآشورية » (١٠١٥ - ٥٠٠ ق . م) والدولة البابلية (١٠٠٣ - ٣٠٠ ق . م) بل وكتب بها أيضا شعوب ساحل البحر الأبيض حيث استعملتها مملكة أبله EBLA (٢٤٠٠ - ٢١٥٠ ق . م) وكذلك مملكة « أجاريت » UGARIT (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق . م) وكل هؤلاء ينتمى أصلهم إلى العرق العربي .

وإذا كانت الدولة البابلية قد استعملت الحروف المسمارية لتكتب بها لغتها العربية فقد كان ذلك منها اتباعاً أخذته عن السابقين لها رغم ما كان هناك من فروق في الخاصية اللغوية التي تفصل بين قواعد اللغة

(١٠) ج . أ . ديفر : حل رموز الكتابة السومرية والبابلية والعلمية والكلدانية : مجلة الأدب والفن الجزء الأول من ٧٤ السنة الثالثة لندن ١٩٤٥ .
والمرجع : وليم رايت :

W. Wright: Lectures on the comparative grammar of the semitic languages

(١١) الدكتور | على عبد الواحد واني : فقه اللغة الطبعة الأولى ص ١٥ القاهرة ١٩٤٥ .

تبين أثر الساميين « العرب » في جوانب الحضارة السومرية وتأثير فكرهم الديني في الفكر الديني السومري . « (١٣)

وحتى إذا جاء الى آخر البحث استخلص فيما استخلص نتائج ذات أهمية بالغة ذهب فيها قوله : استنادا إلى كل ما تقدم يمكننا القول بأن الساميين العرب قد وجدوا في وادي الرافدين منذ أزمنة قديمة جدا تسبق العصور التاريخية وأنهم قد تركزوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر منذ بدايات عصر فجر السلالات ، لذلك فإن ظهور الأكاديين في بلاد الرافدين لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو بلاد الشام إلى العراق كما أنهم لا يمثلون - كما يرى البعض - فتحا أجنبيا بقدر ما كان تحركا شعبيا اتجه من جزء من موطنه نحو آخر تمثلت فيه وفرة الماء وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخرى سبقتها في الاستقرار بفترة لا يمكن تحديدها بالضبط . « (١٤)

وإذا كان علينا أن نضيف شيئا موضوعيا إلى هذه الحقائق الأثرية واللغوية المتعلقة بالوجود العربي في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية فهناك واقع آخر على جانب كبير من الأهمية الحضارية ، ظهر واضحا في ذلك التباين الذي يفصل ما بين بنية الفن السومري وبنية الفن الأكادى وهذا ما يمكن التأكد منه والتعرف عليه بوضوح حين نلقى نظرة فاحصة على القطع الأثرية المختلفة الشكل والحامة التي بقيت من التراث الفني لكل من الدولة السومرية والدولة الأكادية . والتي نجدها في متحف بغداد ، ومتحف اللوفر والمتحف البريطاني بلندن . إن هذه القطع الأثرية سوف تعطينا الدليل الموضوعي على أن الفن الأكادى لم يتأثر بالفن السومري السابق له رغم ما كان بينهم من صلات تاريخية ومكانية . ومن ثمة فسوف يمكننا أن نقول أنه مما لا سبيل الشك فيه أن المدرسة السومرية الفنية كانت من خلال خصائصها متباعدة كل البعد ومنفصلة كل الانفصال

وهناك العديد من الدراسات الموضوعية التي أكدت علميا وأثرية أن الوجود العربي كان قائما في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية العربية (٢٣٠٠ ق . م) أي أن وجود العرب في هذه المنطقة الخصبة كان قائما إبان هيمنة الدولة السومرية (٢٨٠٠ ق . م) التي لا نعرف شيئا عن شعبها ولا عن موطنهم الأصلي الذي جاءوا منه ، ولا عن تاريخ دخولهم أرض الرافدين وقد تناول العديد من العلماء في أوروبا هذه الدولة بالبحث والاستقصاء الشامل في دراسات معاصرة ألقت الضوء على هذه الحقبة التاريخية . كما تناولها علماءنا في العراق في دراسات علمية وتاريخية وأثرية ، ومن ذلك هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ « عبدالكريم عبدالله » ومهد له بقوله : « ما تزال في الهيكل الحضاري العام لبلاد الرافدين نقاط غامضة إلى جانب معلومات وحقائق أخرى مشتتة تحتاج إلى الجمع والتثبيت خاصة بعد كشف التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية الحديثة لجوانب من ذلك الغموض وبقاء تلك المعلومات خارجة عن محور التاريخ الحضاري العام لبلاد وادي الرافدين في الكتب التي تؤلف أو تبحث في ذلك التاريخ . ولعل في تلك الجوانب التي ما يزال الغموض يحيط بها هو الوجود السامي « العربي » في العراق قبل قيام الدولة الأكادية التي غالبا ما يعدها المؤرخون بمثابة أول هجرة سامية (عربية) في العراق « (١٢)

وبعد ما أتى الأستاذ عبدالكريم عبدالله بالعديد من آراء العلماء مثل « ف . كريستيان » و « جوردن تشيلد » و « أنطون موركات » و « موسكاتي » و « ساجي » و « كرامر » وغيرهم ممن تناولوا هذه الحقبة من تاريخ الشرق القديم ، قال : « نضيف إلى ما تقدم من الاحتمالات والشواهد الجغرافية واللغوية والإدارية التي تعكس ملامح الوجود السامي (العربي) في العراق قبل قيام الدولة الأكادية مع ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة لحضارة عصر فجر السلالات ومن ثم فإنها ربما

(١٢) عبد الكريم عبد الله : ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية : مجلة سومر من ٥٩ - ٦٠ الجزء الأول المجلد الثلاثون بغداد ١٩٧٤ .

(١٣) المصدر السابق من ٧٥ .

(١٤) المصدر السابق من ٧٦ .

عن المدرسة الفنية الأكاديمية ، لا في الأساليب التشكيلية والطابع التعبيري وحده بل وفي طبيعة كل منها التي تأتت من أن جذورهما الفنية مختلفة المصادر .

ومهما كان من أمر ومهما تعددت الآراء واختلفت فيها بينها أو تقاربت ، : « فمن المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها وأنه ما تكاد تعدلها في ذلك أي لغة (سامية أخرى) ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم مواطن (الساميين) ويقائنها في منطقة مستقلة منعزلة . فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم (١٥) وكان لابد أن يأتي ذلك الحين الذي احتضرت فيه الكتابة المسمارية ، وأن تأخذ شعوب الشرق العربي بالحروف « الآرامية العربية » التي من المحتمل أنها قد انبثقت من حروف أبجدية سابقة كانت موجودة من قبل وقائمة عند بطون عربية لم يكشف عنها بعد حتى الآن أو ربما تكون هذه الأبجدية من إبداع (العرب الآراميون أنفسهم) وبلغت ذروتها حين أفسح التاريخ لها مكاناً مرموقاً بين أقرانهم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإذا كان بعض العلماء قد أبانوا عن أصول الحلقة المفقودة للحروف الأبجدية العربية القديمة وعينوا مكاناً وزماناً معيناً وشعباً بذاته هو صاحب هذه الحروف فقد ذهب البعض الآخر من العلماء وأتى رأيهم على نحو مختلف . وبين رأي هؤلاء وأولئك ظل الأمر مجهولاً لتبقى جذور الأبجدية « العربية الآرامية غير معروفة وسيبقى الأمر هكذا حتى يتاح للحقيقة اكتشافات جديدة ومن هنا لا يسعنا إلا أن نتتظر وقد أخذتنا السخرية من نظرية هؤلاء

الذين دفعتهم عصبيتهم الضيقة من ألقوا القول جزافاً وتشدقوا بأن الحلقة المفقودة إنما هي أبجديتهم » التي سموها أبجدية جبيل وصدقوا ما زعموه لأنفسهم وما دفعه اليهم بعض علماء فرنسا حين قالوا لهم أن أبجديتهم هذه هي أقدم أبجدية ظهرت على وجه الأرض التي تقع بين النيل والفرات وهكذا تطاولت أحلام الصغار على حقائق التاريخ وأصبح مركب النقص الماروني شيئاً ملموساً^(١٦) .

والشعب الآرامي يرجع بأصوله إلى العرق العربي وأنه خرج من موطنه الأصلي من شبه الجزيرة العربية ليظهر في التخوم القريبة من أرض الفرات ، وهو ذلك الشعب الذي عرف عنه أنه كان يحسن ممارسة التجارة ونقلها عبر المسالك والدروب الصحراوية ، وقد أتاح لهم هذا الانتقال من مكان إلى مكان حاملين تجارتهم وحاملين أبجديتهم ، ليفرضوا هذه الأبجدية على الأمباطورية الفارسية منذ سنة (٦١٢ ق.م) . لقد أخذت الدولة الفارسية الكيانية -ACHAEME- NIDS بهذه الأبجدية للملاءمتها في تصريف الشؤون التجارية وجعلوها بجانب الكتابة المسمارية التي كانت هي الأخرى معارة لهم . وما برحت هذه الكتابة الآرامية حتى تمكنت من أن تكون هي وحدها لغة (الهلال الخصيب) كله وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون على اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره في فلسطين^(١٧) بل وقضت اللغة الآرامية على اللغة الفينيقية في القرن الأول قبل الميلاد بل ووقفت صامدة أمام أبجدية الأغريق وأبجدية الرومان

(١٥) الدكتور / علي عبد الواحد والي : المصدر السابق ص ١٦ .

(١٦) حاشية :

إذا أردت أن تقف على مصدر هذا السخف فهناك كتاب الأب اميل اده الذي سماه جبيل مهد الأبجدية - بيروت ١٩٧٣ .

(١٧) جيمس هنري يرستد : انتصار الحضارة - تاريخ الشرق القديم - ترجمة الدكتور / أحمد فكري ص ٢٠٧ القاهرة ١٩٦٩ .

تكتب بها المراسلات الدولية لعالم « الهلال الخصيب » ، وقد عثر على كتابات عربية آرامية مكتوبة على ورق البردى في أماكن متفرقة ومن ذلك ما كشف في سفارة عن رسالة باللغة الآرامية من أحد ملوك فينيقيا ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تيماء شمال الحجاز ولما قضى قورش على بابل سنة (٣٩ ق. م) كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لجميع ولايات (أسترايات) الأمبراطورية الفارسية التي بلغت شرقاً إلى نهر الأندوس وغرباً إلى نهر النيل . وفي مصر ترأسل الموظفون الفرس والمصريون بالآرامية وهي لغة أجنبية لكلا الطرفين ، وما يدل على دولية اللغة العنور على بردى آرامي في جزيرة الفنتين بأسوان ، وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية وفي آسيا الصغرى عثر على كتابات آرامية من العهد الفارسي^(١٩) .

وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن اللغة العربية الآرامية قد أصبح لها مميزاتها بين لغات العالم القديم . وذلك بسبب أبجديتها التي كانت من السهولة والوضوح بمكان جعل كل لغات الشرق تنقل عنها حروفها لتستعملها في الشؤون التجارية وذلك لأن « اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردى إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً^(٢٠) .

وموضع الثقل في الأبجدية العربية الآرامية أنها كانت الأبجدية الأم لكثير من الأبجديات التي ظهرت في الشرق فاليهود استبدلوا حروفهم الفنية فيما بين القرنين

رغم أن كلاهما كان يفرض على الأرض وجوده الاستيطاني .

لقد ظهر العرب الآراميون في التاريخ القديم منذ ذلك الحين الذي كان فيه الشرق مسرحاً لتقلبات تاريخية جسيمة . كان موطنهم هذه الأرض كلها المترامية العريضة التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية يحدها من الشرق أرض الرافدين ومن الغرب التخوم السورية ، ومن الشمال الأناضول وكانت في وضعها الجغرافي في هذا المعبر الوحيد لكل غاز خارج من الغرب قاصداً الشرق وكل فاتح خارج من الشرق قاصداً الغرب وبسبب ذلك نزلت بهم كوارث متلاحقة سببت لهم في كثير من الأحيان فقدان حريتهم السياسية ولكن رغم ذلك كله ورغم العتالة الذين كانوا يعيشون من حولهم فقد بقي وجودهم قائماً في الزمان والمكان وذلك بسبب أنهم كانوا أصحاب لغة ذات أبجدية سهلة الكتابة وبهذه الأبجدية المبتكرة مضى « العرب الآراميون يفرضون أنفسهم على الفاتحين الذين احتاجوا اليهم لكي يكتبوا لهم شئون تجارتهم » والآراميون يكونون لغوياً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية أي الكتلة الواقعة غربي العراق ، فيما الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط بموانئه كان الآراميون إلى الخلف في سهول سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوع آخر من الموانئ هي محطات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة وأن أحد عواصمهم الكبرى وهي مدينة حران كان معنى أسمها الطرق^(١٨) .

وما أن جاءت نهاية القرن السابع قبل الميلاد حتى أصبحت الحروف العربية الآرامية حروف لغة عالمية

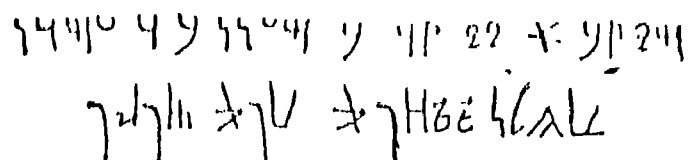
(١٨) الدكتور / حسن ظاظا : الساميون ولغتهم ص ١٠٢ الإسكندرية ١٩٧١ .

(١٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق القديم (٢) مجلة عالم الفكر المجلد الثاني العدد الرابع ص ١٧٦ الكويت ١٩٧٢ .

(٢٠) جيمس هنري برستد : نفس المصدر ص ٢٦٦ .

وجاء ذلك الحين الذي تحول فيه التاريخ عن أن يأخذ بالكتابة « العربية الآرامية » وذلك لأن كتابة أخرى هي العربية النبطية قد ظهرت على مسرح التاريخ العربي بحروفها المختلفة ، أشبتها « الأنباط » من أبجدية أولاد عمومهم « الآراميون » وكتبوها على نحو جديد إذ جعلوا حروفها متصلة ، ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية ببعضها قد جعل لها ميزة موضوعية ولغوية جاءت خطوة الى الارتقاء ، افتقرت اليها الكتابة الآرامية السابقة ، بل أي كتابة أخرى معاصرة أو سابقة لها ، بيد أنه رغم ما حققته المكتشفات الأثرية من جلاء رؤية تاريخية ، « فلا يعرف العلماء شيئاً عن تاريخ النبط قبل العصر الهليني (٣ ق.م) ويقول المستشرق الانجليزي (ج.أ. كوك) G.A.COOKE في كتابه « النفوس السامية الشمالية » أنه من المحتمل أن كلمة « الأنباط NA-BA-T-AI التي كانت تطلق على قبائل عربية كما جاء منقوشا على الحجر الأسطواني لآشورباينبال The RASSAN CYLINDER OF ASSUR-BANIPAL تعني الشعب

وكانت هذه الدولة تربط بين العالم الحضاري المحيط بها وتنقل له تجارته وتقوم بحماية طرق قوافله الحيوية ومن هنا كانت الكتابة من الأمور الملحة لوجودهم . في البداية أخذوا الحروف العربية الآرامية ليكتبوا بها وظلوا يستعملونها إلى حين حتى اتخذوا لأنفسهم أبجدية خاصة بهم عثر على نماذج منها في (العلا) بالحجاز وفي بترا PETRA وفي أرض بصرى بالشام وفي واحة تيماء والحجر ويرجع تاريخ أقدم نقش نبطي لعام (٣٣ ق.م) وأحدثها لعام (١٠٦ ميلادية) نقشت برسم نبطي متصل الحروف ^(٢٤) كما يوجد لدينا من النقوش النبطية المتصلة الحروف ذلك النقش الذي يعرف باسم



شكل رقم ٣ : حروف آرامية عن : زيدان

المصدر المذكور :

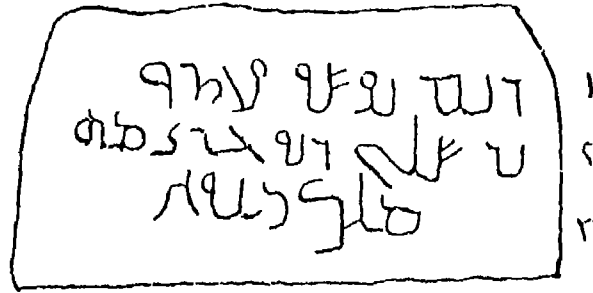
(٢٣) سبتينو موسكاتي نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٢٤) الدكتور / عبد الحميد زايد نفس المصدر ص ٨٥ .

إن كل ما نقب عنه العلماء ورجال الآثار وكل ما عثر عليه من نقوش « نبطية » أخذ سبيله إلى دراسات متباعدة وأبحاث مختلفة أثرت المادة العلمية والتاريخية ، قام بها علماء من مختلف الجنسيات مثل « الكونت دي فوجي DE VOGUE و « ديسو » R. DUSSAUD و « وادنسجتون » WADDINGTON و « فيتزشتين » WIETZSTEIN و « مورترز » MORITZ و « ليمان » LITTMANN الذي

صاحبه « فهروين سلي » عثر عليه في « أم الجمال » وأرخه « أنوليمان » ترجيحاً بعام (٢٧٠ ميلادية) .

ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية بعضها مع البعض في هذا النقش قد جعل لهذا الأثر ميزة موضوعية ولغوية ، وخطوة إلى الارتقاء افتقرت إليها الكتابة « الأرامية » السابقة بل وأي كتابة أخرى عثر عليها حتى ذلك التاريخ .



شكل رقم ٤ . نقش فهر وينق سلي عثر عليه في أم الجمال

عن : المتجد

النص العربي	النص العربي النبطي
هذا قبر فهر	١ - دنه نقشو فهر
ابن سلي مربي حذيفة	٢ - بن سلي ، ربو حد ميت
ملك تنوخ (٢٥)	٣ - ملك تنوخ

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠	١٠١	١٠٢	١٠٣	١٠٤	١٠٥	١٠٦	١٠٧	١٠٨	١٠٩	١١٠	١١١	١١٢	١١٣	١١٤	١١٥	١١٦	١١٧	١١٨	١١٩	١٢٠	١٢١	١٢٢	١٢٣	١٢٤	١٢٥	١٢٦	١٢٧	١٢٨	١٢٩	١٣٠	١٣١	١٣٢	١٣٣	١٣٤	١٣٥	١٣٦	١٣٧	١٣٨	١٣٩	١٤٠	١٤١	١٤٢	١٤٣	١٤٤	١٤٥	١٤٦	١٤٧	١٤٨	١٤٩	١٥٠	١٥١	١٥٢	١٥٣	١٥٤	١٥٥	١٥٦	١٥٧	١٥٨	١٥٩	١٦٠	١٦١	١٦٢	١٦٣	١٦٤	١٦٥	١٦٦	١٦٧	١٦٨	١٦٩	١٧٠	١٧١	١٧٢	١٧٣	١٧٤	١٧٥	١٧٦	١٧٧	١٧٨	١٧٩	١٨٠	١٨١	١٨٢	١٨٣	١٨٤	١٨٥	١٨٦	١٨٧	١٨٨	١٨٩	١٩٠	١٩١	١٩٢	١٩٣	١٩٤	١٩٥	١٩٦	١٩٧	١٩٨	١٩٩	٢٠٠	٢٠١	٢٠٢	٢٠٣	٢٠٤	٢٠٥	٢٠٦	٢٠٧	٢٠٨	٢٠٩	٢١٠	٢١١	٢١٢	٢١٣	٢١٤	٢١٥	٢١٦	٢١٧	٢١٨	٢١٩	٢٢٠	٢٢١	٢٢٢	٢٢٣	٢٢٤	٢٢٥	٢٢٦	٢٢٧	٢٢٨	٢٢٩	٢٣٠	٢٣١	٢٣٢	٢٣٣	٢٣٤	٢٣٥	٢٣٦	٢٣٧	٢٣٨	٢٣٩	٢٤٠	٢٤١	٢٤٢	٢٤٣	٢٤٤	٢٤٥	٢٤٦	٢٤٧	٢٤٨	٢٤٩	٢٥٠	٢٥١	٢٥٢	٢٥٣	٢٥٤	٢٥٥	٢٥٦	٢٥٧	٢٥٨	٢٥٩	٢٦٠	٢٦١	٢٦٢	٢٦٣	٢٦٤	٢٦٥	٢٦٦	٢٦٧	٢٦٨	٢٦٩	٢٧٠	٢٧١	٢٧٢	٢٧٣	٢٧٤	٢٧٥	٢٧٦	٢٧٧	٢٧٨	٢٧٩	٢٨٠	٢٨١	٢٨٢	٢٨٣	٢٨٤	٢٨٥	٢٨٦	٢٨٧	٢٨٨	٢٨٩	٢٩٠	٢٩١	٢٩٢	٢٩٣	٢٩٤	٢٩٥	٢٩٦	٢٩٧	٢٩٨	٢٩٩	٣٠٠	٣٠١	٣٠٢	٣٠٣	٣٠٤	٣٠٥	٣٠٦	٣٠٧	٣٠٨	٣٠٩	٣١٠	٣١١	٣١٢	٣١٣	٣١٤	٣١٥	٣١٦	٣١٧	٣١٨	٣١٩	٣٢٠	٣٢١	٣٢٢	٣٢٣	٣٢٤	٣٢٥	٣٢٦	٣٢٧	٣٢٨	٣٢٩	٣٣٠	٣٣١	٣٣٢	٣٣٣	٣٣٤	٣٣٥	٣٣٦	٣٣٧	٣٣٨	٣٣٩	٣٤٠	٣٤١	٣٤٢	٣٤٣	٣٤٤	٣٤٥	٣٤٦	٣٤٧	٣٤٨	٣٤٩	٣٥٠	٣٥١	٣٥٢	٣٥٣	٣٥٤	٣٥٥	٣٥٦	٣٥٧	٣٥٨	٣٥٩	٣٦٠	٣٦١	٣٦٢	٣٦٣	٣٦٤	٣٦٥	٣٦٦	٣٦٧	٣٦٨	٣٦٩	٣٧٠	٣٧١	٣٧٢	٣٧٣	٣٧٤	٣٧٥	٣٧٦	٣٧٧	٣٧٨	٣٧٩	٣٨٠	٣٨١	٣٨٢	٣٨٣	٣٨٤	٣٨٥	٣٨٦	٣٨٧	٣٨٨	٣٨٩	٣٩٠	٣٩١	٣٩٢	٣٩٣	٣٩٤	٣٩٥	٣٩٦	٣٩٧	٣٩٨	٣٩٩	٤٠٠	٤٠١	٤٠٢	٤٠٣	٤٠٤	٤٠٥	٤٠٦	٤٠٧	٤٠٨	٤٠٩	٤١٠	٤١١	٤١٢	٤١٣	٤١٤	٤١٥	٤١٦	٤١٧	٤١٨	٤١٩	٤٢٠	٤٢١	٤٢٢	٤٢٣	٤٢٤	٤٢٥	٤٢٦	٤٢٧	٤٢٨	٤٢٩	٤٣٠	٤٣١	٤٣٢	٤٣٣	٤٣٤	٤٣٥	٤٣٦	٤٣٧	٤٣٨	٤٣٩	٤٤٠	٤٤١	٤٤٢	٤٤٣	٤٤٤	٤٤٥	٤٤٦	٤٤٧	٤٤٨	٤٤٩	٤٥٠	٤٥١	٤٥٢	٤٥٣	٤٥٤	٤٥٥	٤٥٦	٤٥٧	٤٥٨	٤٥٩	٤٦٠	٤٦١	٤٦٢	٤٦٣	٤٦٤	٤٦٥	٤٦٦	٤٦٧	٤٦٨	٤٦٩	٤٧٠	٤٧١	٤٧٢	٤٧٣	٤٧٤	٤٧٥	٤٧٦	٤٧٧	٤٧٨	٤٧٩	٤٨٠	٤٨١	٤٨٢	٤٨٣	٤٨٤	٤٨٥	٤٨٦	٤٨٧	٤٨٨	٤٨٩	٤٩٠	٤٩١	٤٩٢	٤٩٣	٤٩٤	٤٩٥	٤٩٦	٤٩٧	٤٩٨	٤٩٩	٥٠٠	٥٠١	٥٠٢	٥٠٣	٥٠٤	٥٠٥	٥٠٦	٥٠٧	٥٠٨	٥٠٩	٥١٠	٥١١	٥١٢	٥١٣	٥١٤	٥١٥	٥١٦	٥١٧	٥١٨	٥١٩	٥٢٠	٥٢١	٥٢٢	٥٢٣	٥٢٤	٥٢٥	٥٢٦	٥٢٧	٥٢٨	٥٢٩	٥٣٠	٥٣١	٥٣٢	٥٣٣	٥٣٤	٥٣٥	٥٣٦	٥٣٧	٥٣٨	٥٣٩	٥٤٠	٥٤١	٥٤٢	٥٤٣	٥٤٤	٥٤٥	٥٤٦	٥٤٧	٥٤٨	٥٤٩	٥٥٠	٥٥١	٥٥٢	٥٥٣	٥٥٤	٥٥٥	٥٥٦	٥٥٧	٥٥٨	٥٥٩	٥٦٠	٥٦١	٥٦٢	٥٦٣	٥٦٤	٥٦٥	٥٦٦	٥٦٧	٥٦٨	٥٦٩	٥٧٠	٥٧١	٥٧٢	٥٧٣	٥٧٤	٥٧٥	٥٧٦	٥٧٧	٥٧٨	٥٧٩	٥٨٠	٥٨١	٥٨٢	٥٨٣	٥٨٤	٥٨٥	٥٨٦	٥٨٧	٥٨٨	٥٨٩	٥٩٠	٥٩١	٥٩٢	٥٩٣	٥٩٤	٥٩٥	٥٩٦	٥٩٧	٥٩٨	٥٩٩	٦٠٠	٦٠١	٦٠٢	٦٠٣	٦٠٤	٦٠٥	٦٠٦	٦٠٧	٦٠٨	٦٠٩	٦١٠	٦١١	٦١٢	٦١٣	٦١٤	٦١٥	٦١٦	٦١٧	٦١٨	٦١٩	٦٢٠	٦٢١	٦٢٢	٦٢٣	٦٢٤	٦٢٥	٦٢٦	٦٢٧	٦٢٨	٦٢٩	٦٣٠	٦٣١	٦٣٢	٦٣٣	٦٣٤	٦٣٥	٦٣٦	٦٣٧	٦٣٨	٦٣٩	٦٤٠	٦٤١	٦٤٢	٦٤٣	٦٤٤	٦٤٥	٦٤٦	٦٤٧	٦٤٨	٦٤٩	٦٥٠	٦٥١	٦٥٢	٦٥٣	٦٥٤	٦٥٥	٦٥٦	٦٥٧	٦٥٨	٦٥٩	٦٦٠	٦٦١	٦٦٢	٦٦٣	٦٦٤	٦٦٥	٦٦٦	٦٦٧	٦٦٨	٦٦٩	٦٧٠	٦٧١	٦٧٢	٦٧٣	٦٧٤	٦٧٥	٦٧٦	٦٧٧	٦٧٨	٦٧٩	٦٨٠	٦٨١	٦٨٢	٦٨٣	٦٨٤	٦٨٥	٦٨٦	٦٨٧	٦٨٨	٦٨٩	٦٩٠	٦٩١	٦٩٢	٦٩٣	٦٩٤	٦٩٥	٦٩٦	٦٩٧	٦٩٨	٦٩٩	٧٠٠	٧٠١	٧٠٢	٧٠٣	٧٠٤	٧٠٥	٧٠٦	٧٠٧	٧٠٨	٧٠٩	٧١٠	٧١١	٧١٢	٧١٣	٧١٤	٧١٥	٧١٦	٧١٧	٧١٨	٧١٩	٧٢٠	٧٢١	٧٢٢	٧٢٣	٧٢٤	٧٢٥	٧٢٦	٧٢٧	٧٢٨	٧٢٩	٧٣٠	٧٣١	٧٣٢	٧٣٣	٧٣٤	٧٣٥	٧٣٦	٧٣٧	٧٣٨	٧٣٩	٧٤٠	٧٤١	٧٤٢	٧٤٣	٧٤٤	٧٤٥	٧٤٦	٧٤٧	٧٤٨	٧٤٩	٧٥٠	٧٥١	٧٥٢	٧٥٣	٧٥٤	٧٥٥	٧٥٦	٧٥٧	٧٥٨	٧٥٩	٧٦٠	٧٦١	٧٦٢	٧٦٣	٧٦٤	٧٦٥	٧٦٦	٧٦٧	٧٦٨	٧٦٩	٧٧٠	٧٧١	٧٧٢	٧٧٣	٧٧٤	٧٧٥	٧٧٦	٧٧٧	٧٧٨	٧٧٩	٧٨٠	٧٨١	٧٨٢	٧٨٣	٧٨٤	٧٨٥	٧٨٦	٧٨٧	٧٨٨	٧٨٩	٧٩٠	٧٩١	٧٩٢	٧٩٣	٧٩٤	٧٩٥	٧٩٦	٧٩٧	٧٩٨	٧٩٩	٨٠٠	٨٠١	٨٠٢	٨٠٣	٨٠٤	٨٠٥	٨٠٦	٨٠٧	٨٠٨	٨٠٩	٨١٠	٨١١	٨١٢	٨١٣	٨١٤	٨١٥	٨١٦	٨١٧	٨١٨	٨١٩	٨٢٠	٨٢١	٨٢٢	٨٢٣	٨٢٤	٨٢٥	٨٢٦	٨٢٧	٨٢٨	٨٢٩	٨٣٠	٨٣١	٨٣٢	٨٣٣	٨٣٤	٨٣٥	٨٣٦	٨٣٧	٨٣٨	٨٣٩	٨٤٠	٨٤١	٨٤٢	٨٤٣	٨٤٤	٨٤٥	٨٤٦	٨٤٧	٨٤٨	٨٤٩	٨٥٠	٨٥١	٨٥٢	٨٥٣	٨٥٤	٨٥٥	٨٥٦	٨٥٧	٨٥٨	٨٥٩	٨٦٠	٨٦١	٨٦٢	٨٦٣	٨٦٤	٨٦٥	٨٦٦	٨٦٧	٨٦٨	٨٦٩	٨٧٠	٨٧١	٨٧٢	٨٧٣	٨٧٤	٨٧٥	٨٧٦	٨٧٧	٨٧٨	٨٧٩	٨٨٠	٨٨١	٨٨٢	٨٨٣	٨٨٤	٨٨٥	٨٨٦	٨٨٧	٨٨٨	٨٨٩	٨٩٠	٨٩١	٨٩٢	٨٩٣	٨٩٤	٨٩٥	٨٩٦	٨٩٧	٨٩٨	٨٩٩	٩٠٠	٩٠١	٩٠٢	٩٠٣	٩٠٤	٩٠٥	٩٠٦	٩٠٧	٩٠٨	٩٠٩	٩١٠	٩١١	٩١٢	٩١٣	٩١٤	٩١٥	٩١٦	٩١٧	٩١٨	٩١٩	٩٢٠	٩٢١	٩٢٢	٩٢٣	٩٢٤	٩٢٥	٩٢٦	٩٢٧	٩٢٨	٩٢٩	٩٣٠	٩٣١	٩٣٢	٩٣٣	٩٣٤	٩٣٥	٩٣٦	٩٣٧	٩٣٨	٩٣٩	٩٤٠	٩٤١	٩٤٢	٩٤٣	٩٤٤	٩٤٥	٩٤٦	٩٤٧	٩٤٨	٩٤٩	٩٥٠	٩٥١	٩٥٢	٩٥٣	٩٥٤	٩٥٥	٩٥٦	٩٥٧	٩٥٨	٩٥٩	٩٦٠	٩٦١	٩٦٢	٩٦٣	٩٦٤	٩٦٥	٩٦٦	٩٦٧	٩٦٨	٩٦٩	٩٧٠	٩٧١	٩٧٢	٩٧٣	٩٧٤	٩٧٥	٩٧٦	٩٧٧	٩٧٨	٩٧٩	٩٨٠	٩٨١	٩٨٢	٩٨٣	٩٨٤	٩٨٥	٩٨٦	٩٨٧	٩٨٨	٩٨٩	٩٩٠	٩٩١	٩٩٢	٩٩٣	٩٩٤	٩٩٥	٩٩٦	٩٩٧	٩٩٨	٩٩٩	١٠٠٠	١٠٠١	١٠٠٢	١٠٠٣	١٠٠٤	١٠٠٥	١٠٠٦	١٠٠٧	١٠٠٨	١٠٠٩	١٠١٠	١٠١١	١٠١٢	١٠١٣	١٠١٤	١٠١٥	١٠١٦	١٠١٧	١٠١٨	١٠١٩	١٠٢٠	١٠٢١	١٠٢٢	١٠٢٣	١٠٢٤	١٠٢٥	١٠٢٦	١٠٢٧	١٠٢٨	١٠٢٩	١٠٣٠	١٠٣١	١٠٣٢	١٠٣٣	١٠٣٤	١٠٣٥	١٠٣٦	١٠٣٧	١٠٣٨	١٠٣٩	١٠٤٠	١٠٤١	١٠٤٢	١٠٤٣	١٠٤٤	١٠٤٥	١٠٤٦	١٠٤٧	١٠٤٨	١٠٤٩	١٠٥٠	١٠٥١	١٠٥٢	١٠٥٣	١٠٥٤	١٠٥٥	١٠٥٦	١٠٥٧	١٠٥٨	١٠٥٩	١٠٦٠	١٠٦١	١٠٦٢	١٠٦٣	١٠٦٤
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------	------

نشر دراسة عن مكتشفاته في مجموعة المكتشفات النبطية CORPUS, NABATAEAN INSCRIPTIONS ومنهم أيضاً « جون بوركرات » J. BURCKHARDT و « جورج مارش » G. MARSH و « موسكاتي » S. MOSCATI وغيرهم . فالحقل قد اتسع بالعديد من الدارسين الذين دفعوا بالدراسات المنهجية قدماً وأشتهروا بأبحاثهم ومكتشفاتهم . ولا شك أن هذه المادة سوف تثري بالكثير في الوقت الحاضر حين تنتهي بعثة كلية الآداب « جامعة الملك سعود » من أعمال التنقيب لمنطقة « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح) (٢٦) .

وكان من الطبيعي أن يتحول « العرب الأنباط » عن الكتابة بالحروف « العربية الآرامية » ويأخذوا أنفسهم بصورة أخرى من الحروف جاءت في أول أمرها متواضعة الأداء ولكنها ما برحت حتى استقام شكلها وقد عثر العلماء على العديد من هذه الكتابات « مكتوبة على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال وقد قسمها العلماء قسمين ، الأول : كتابات مكتوبة بخط متقن ومنقوشة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخور ، وأكثرها وجد في مدائن صالح (الحجر) والباقي في سلع وفي بلاد حوران كما أنها في الغالب أنها من القبريات ، يكتب فيها اسم صاحب القبر واسم مشيده وأسما من يدفنون فيه وفي بعض الأحيان يذكر فيها تاريخ النقش بحسب التاريخ النبطي . والقسم الثاني : كتابات وجدت مكتوبة بخط قبيح وأشبه بالخربشة من الكتابة ويطلق عليها الباحثون اسم الكتابات المخربشة وقد وجدت في أودية طور سيناء

وحوران وهي في الغالب كتابات قصيرة جداً كتبت للتذكار أو لتقريب قرابين للآلهة النبطية (٢٧) . ويمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من الكتابات العربية النبطية « الكتابة العربية الجاهلية » التي ما برحت حتى أن استقامت حروفها وأصبحت أكثر تقدماً وأضبط شكلاً وأدق تعبيراً في نقل حركات الأصوات ، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة المتطورة « الصورة العربية الجاهلية الثانية » وأحسن نماذجها نجده في « نقش النمار » المؤرخ سنة (٣٢٨ م) . ومن ثمة ظهرت نماذج أخرى تميزت بأن حروفها العربية جاءت أكثر وضوحاً وهذا ما نجده في « نقش زبد » (٥١٢ م) وفي « نقش حران » (٥٣٦ م) .

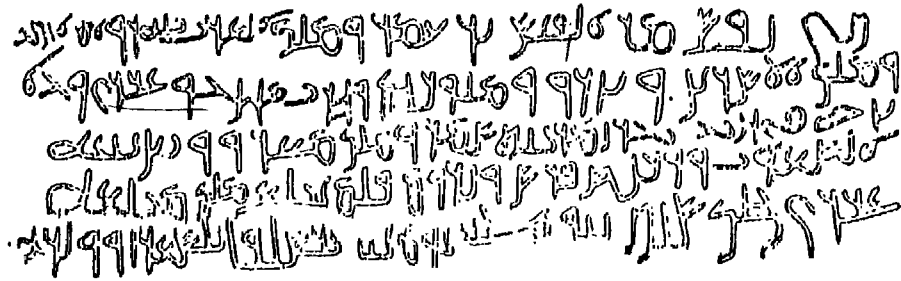
وبعد نقش النمار أهم المكتشفات الأثرية في تاريخ الخط العربي وذلك لأنه يمثل الحلقة التي بين الكتابة « نبطية العربية » وبين الكتابة « العربية النبطية » أو نحي آخر الكتابة العربية في صورتها الأولى ونقش النمار شاهد قبر حجري عثر عليه في بادية الشام وهو من خمسة سطور محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك أمريء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨ ميلادية ، وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول ٤٥,٠ متراً في العرض و ٤٠,٠ متراً في السمك ويوجد الآن في متحف اللوفر بباريس (٢٨) وقد عثر عليه الأستاذ « ريتة ديسو » R. DUSSAUD ، وقام بمساعدة « كلير مون جايو » CLERMONT GANNEAU بدراسته ونشر الأبحاث المتعلقة به وكان رأيه فيه أنه « نص عربي مكتوب بحروف نبطية » (٢٩) .

(٢٦) الدكتور / خليل مجي نامي نفس المصدر ص ١٥ رقم

(٢٧) الدكتور حسن ظاظا / نفس المصدر ص ١٦٥ . (٢٨) ريتة ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٨) ريتة ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام الكتاب طبع عام ١٩٥٩ بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٩) الدكتور / علي عبد الواحد وافي : نفس المصدر ص ١٠٤ .



شكل رقم ٥ . نقش النمار على قبر أمريء القيس (٣٢٨ م)

عن : النجد

النص : « قي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله
ذو أسر التج » .

ترجمها الدكتور / علي عبد الواحد وافي : -

« هذا قبر (نفس) أي قبر في العربية البائدة أمريء
القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي (ذو بمعنى
الذي في لهجتهم) حاز (أسر بمعنى أو أستولى ولبس
التاج (٣٠) » .

ونقل الدكتور علي عبد الواحد وافي « هذا السطر
كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها
الذي تتوج بالتاج (٣١) » .

وترجم الدكتور / عبد الحميد الدواخلي هذا السطر
عن « ديسوا » كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس بن عمرو ملك جميع العرب
الذي كلل بالتاج (٣٢) » .

أما الدكتور « شوقي ضيف » فقد نقل لنا هذا السطر
على هذا النحو : -

وقد قرأ الدكتور « شوقي ضيف » هذا النص على
النحو الآتي : -

١ - قي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو
أسر التج .

٢ - وملك الأسدين ونزو وملوكهم وهرب مذحجو
عكدي وجا .

٣ - يزجي في حبيج نجران مدينة شمر وملك معدو
ونزل بنيه .

٤ - الشعوب ووكلمهم فرسوا لروم فلم يبلغ ملك
مبلغه .

٥ - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بايكسول بالسعد
ذوولده .

وهناك قراءات متباينة « لنقش النمار تفاوت بعضها
عن بعض واختلفت بعض الكلمات من ترجمة إلى
أخرى على سبيل المثال نأخذ السطر الأول وترجمته عند
بعض الأساتذة المحققين لتبين مدى التقارب
والاختلاف الذي بينهم .

(٣٠) الدكتور / خليل يحيى تامي نفس المصدر ٧١

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣١) وينييه ديسو : نفس المصدر ص ٣٣ .

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣٢) الدكتور : شوقي ضيف : العصر الجاهلي الطيمة الثانية ص ٣٥ - ٣٦ القاهرة ١٩٦٥ .

٥ - في القوة . هلك سنة ٢٣٣ يوم ٦ من كسلول ،
ليسعد الذي ولده .

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي
الأشارية التي للمؤنث وأنها داخلة على نفس ولعلها هنا
بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة
معروفة بين القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسر
بمعنى عصيب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم
العربية ، وقد حذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا
يثبتونها حينئذ وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر
التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية ، ونراه في
السطر الثاني يضيف واوا الى نزرو ومذحجوا وفقاً لكتابة
النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدي فلعلها
عكديا ، حذف منها الألف ، وفي المعاجم العكد :
القوة . ويريد بالأسدين قبيلتين أسد ونراه في السطر
الثالث يستخدم كلمة يزجي من فعل زجا بمعنى دفع أي
بالدفع ، ومعنى حيج في المعاجم أشرف وكأنها
استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ،
وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه
الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب وفي السطر الرابع
ووكلمهم بإضافة نون التأكيد إلى الفعل بعد الضمير .
ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم وفي السطر الخامس
بالسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده .

ومضي الدكتور شوقي ضيف مستطرداً - وواضح أن
النص يمثل دوراً من أدوار اللغة العربية الذي نزل بها
القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا بر الآرامية
وقد استخدمت فيه آل أداة للتعريف « (٣٦) » .

« هذا نفس (قبر) امريء القيس عمرو ملك العرب
كلها الذي عقد التاج » (٣٣) .

أما الدكتور « حسن ظاظا فقد نقله على هذا
النحو : -

« هذا جثمان امريء القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج » (٣٤) .

وجاء هذا السطر عند الدكتور / عبد الحميد زايد
هكذا : -

« هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم
الذي حاز التاج » (٣٥) .

وأدق ترجمة لنقش النمارة إنما نجدها عند الدكتور /
حسن ظاظا وكذلك عند الدكتور / شوقي ضيف فاذا
كنا قد نقلنا بالتفصيل تصور كل منها ، فذلك لأن
تناولها لهذا النقش كان موضوعياً وشاملاً لأصول اللغة
العربية مما أعطى لهذا الأثر الحضاري ما يستحقه من
القيمة التاريخية واللغوية والعلمية .

تناول الدكتور / شوقي ضيف هذا الأثر العربي
بقوله : « إذا أردنا أن نكتبه ونقربه الى لغتنا اليوم كتبناه
على هذا النحو : -

١ - هذا نفس (قبر) امريء القيس بن عمرو ملك
العرب كلها الذي عقد التاج .

٢ - وملك قبيلتي أسد ونزارا وملوكهم وشنت مذ
حجا بالقوة وجاء .

٣ - باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة
شمر . وملك معدا وولى بنيه .

٤ - الشعوب ووكله الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك
مبلغه .

(٣٣) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ .

(٣٤) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ١١٤ .

(٣٥) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣٦) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ / ١٧٣ .

وهرب محجو عكدي :

المفهوم من هرب أنه صد بالهجوم وفرق الجمع ،
ومحج مشكلة ، يقول ديسو أن المفهوم أنها قبيلة فإذا كان
هذا الملك قد هزمها وشتها فليس عجيباً أن يبدو اسمها
غريباً علينا بما أنها قد اندثرت . ومع ذلك رأى بعض
الباحثين أن الكلمة هي (محاج) وأنها وردت في بعض
أسماء المواضع في شبه جزيرة العرب ، ذكر ابن هشام في
السيرة النبوية موضعاً قريباً من مكة اسمه مدجلة محاج ،
ويبدو أن المدجلة كانت موضعاً فيه يترستقي منها الناس
وحوض تشرب منه الدواب ، فهذا معناه في لغة
العرب ، وهي في هذا الموضع منسوبة إلى محاج وقد ورد
ذكره مع خلافات ضئيلة أحياناً في كتاب المسالك
والممالك لابن خرداذبة ، وفي معجم البلدان لياقوت
الحموي وفي اللسان لابن منظور أما (عكدي) فقد
اختلفوا في تفسيرها ، فخرجها بعضهم على أنها من
كلمتين من اللغة النبطية « عد . كدي » الأولى بمعنى
حتى . والثانية بمعنى ذاك الوقت . وهو تخريج معقول
مقبول ، خرجها آخرون على أنها من العكدة وهي القوة
فيكون المعنى أنه شتت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك
مقبول لا سيما أن أصله عربي ، وأنه يستقيم أيضاً مع
السطر الخامس . وهناك من رأى أن تصحح القراءة من
« عكدي » إلى « عكري » بالراء . من العكر بالعربية
وهو الأصل والجذر ، فيكون المعنى أنه شتتهم أصلاً أو
كما تقول في التعبير المحدث « بصورة جذرية » والواقع
أن الذين صححوها ليسوا في حاجة إلى تصحيح ففي
اللغة العربية عكد الشيء وسطه ، وعكده اللسان أصله
وكذلك عكدة القلب .

٣ - يزجي :

الباء حرف جر ، في اللغة العربية الزجاء في الأمر
تيسيره واستقامته وسهولته وربما كانت القراءة الصحيحة
هنا بزجاء أي بسهولة وتوفيق ، أو بنجاح كما قلنا .

أما تناول الدكتور حسن ظاظا لنقش النمارية فقد جاء
مختلفاً نصاً وتحليلاً ذهب قوله فيه « وترجمته لغة مفهومة
تكون على النحو الآتي :

هذا جثمان امرئ القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج .

وملك قبيلتي الأسد ونزارا ، وملكهم وصد (بني)
محج ؟ حتى اليوم وجاء ،

٣ - بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك
(قبيلة) معد ، وقسم على أبنائه .

٤ - الشعوب ، وجعلها فرساناً للروم ، فلم يبلغ
ملك مبلغه .

٥ - حتى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ (من شهر)
كسلول السعادة لأولاده .

ومضى يفسر هذا النص ويعلق عليه بقوله :

١ - برعمرو :

نلاحظ الصيغة الآرامية النبطية بر بدلا من ابن .

ملك العرب كله :

بدلا من كلها أو كلهم ، مما يدعو إلى التساؤل هل
نسي الكاتب الميم ، أم هل نطق هذه اللفظة كلها بدون
حاجة إلى أن تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد ؟

ذو أسر التاج :

ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ويمينية شائعة ،
كقوله :

فإذا الماء ماء أبي وجدي
وبشري ذو حفرت وذو طويت

٢ - الأسدين :

هما قبيلتان كل منهما اسمها أسد ولعل إحداها هي
أسد بن ربيعة بن نزار ، والثانية أسد بن شريك وهم
بطن من الأزد . وقد قدر بعض المستشرقين أنه يمكن أن
تقرأ هنا الأسدين على افتراض أن أحد اليائين ناقصة .

حجج :

تقول العرب حجبته بالعصا وحجبته وهبجه أي ضربه ، وحجج نجران أي ضرب نجران ، وإن كان أحد من فسروا هذا النقش قال أنه مثل مادة حبق وحبك ، بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه ويضاف إلى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة وقد قرأ بعضهم بدل حجج نجران حرب نجران .

وملك معدو وبين بنيه :

واضح أنه سيطر على قبائل معد ، وأنه وزع السلطان على الشعوب أي القبائل بين بنيه والواقع أن الكتابة هنا مستغلقة أيضا ، وقد قرأها المستشرق افلماني « ليدز بارسكي » وملك معدو وبنان ابنية الشعوب وهو يفترض أن امرأ القيس له ابن يسمى بمعد ، والثاني بنان وأنه ملكها على الشعوب أما الفرنسي « رينيه ديسو » فإنه جنح في النهاية إلى أن يقرأ « وملك معدو » أي صار ملكا على معد .

ونزل بنيه الشعوب :

بتشديد الزاي ، أي أنه أقرهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها ، وجعلهم نوابا عنه هناك فيكون قد قرأ (ونزل) بدلا من (وبين) في القراءة الشائعة .

٤ - ووكلهن :

الضمير المؤنث الجمع في هذا الفعل يعين أن عائده هو كلمة الشعوب . وكل الذين قرأوا هذا النقش جعلوا هذا الفعل مبنيا للمعلوم ، مما أوجد صعوبات في شرح مضمونه ، وانطبق هذا المضمون على الصيغة اللفظية ولذلك تحيروا في الكلمتين التاليتين « [فرسو لروم] فظن بعضهم أنها تدلان على الفرس والروم ، وهذا خطأ من الناحية التاريخية ، إذ نعرف أن الفرس والروم كانا في حروب دائمة ، ولم يحدث أن اشتراكا معا في مستعمرة من المستعمرات . ورينيه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويرد على هذه القراءة أن السياق محتاج إلى

الجمع حتى يلتئم مع ألفاظ مثل [بنيه] و [الشعوب] و [ووكلهن] ثم أنه في اعتبار هذا المستشرق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء ، ويرد على ذلك أن هذه الواو تأتي في أسماء الأعلام فقط كما رأيناها في (عمرو) و (نزارو) و (محجو) و (معدو) ، وقد استبعدنا أن تكون فارسو علما على الفرس . ويبدولنا أن الحل هو قراءة الفعل (وُكلهن) إما تخفيف الكاف ، وإما بتشديدها والبناء للمجهول مع اعتبار فارس جمعا للمذكر السالم توهم الكاتب وهو نبطي أنه مضاف لكلمة الروم والتي بعده فحذف منه النون وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال ، ويكون المعنى أن هذا الملك وضع أبناءه أمراء على قبائل العرب وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريون من الروم ، فهو يفخر بالوصول بهذه القبائل العربية إلى نوع من الاستقلال الذاتي عندما كف عن حكمها (فارسو الروم) تاركين مكانهم لأبناء هذا الملك ونظن أنه بهذا المفهوم نزيد الفكرة وضوحا في قوله (فلم يبلغ ملك مبلغه) .

٥ - بالسعد ذو ولده :

واضح أن الكلمة الأولى تقرأ (بالسعد) والعبارة فيها كلام كثير ، أقرببه أن يكون دعاء بأنه بسعد الذين أنجبهم هذا الملك بالمجد الذي بناه لهم أو أن يكون دعاء تحول إلى صيغة هتاف لمن ولد هذا الملك وكأنا قليل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم . والذين قالوا بذلك قريبوه من العبارة الفصحى عندما يقال (يا سعد من ولده) وزعم بعض الشراح أن كلمة (سعد) هنا اسم علم لصنم معروف في الجاهلية ، وأن الباء معه للجرومن هؤلاء هاليقي ، وبايز ، ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع الرسم ، وهو اعترض سهل التجاوز عنه ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعناية هذا الإله ولكن صياغة الجملة لا تستقيم تماما مع الذوق

الدكتور عبد الحميد زيدان الذي شرحه وذهب في بعض جملة أنها عربية ذات ألفاظ فصيحة وأنها « أقدم ما وصل إلينا مدونا من أساليب عربية ، وقد دفعت هذه الجمل العربية المستشرق الألماني أنوليتمان » E. LITTMANN إلى أن يقرر أنه نقش عربي كتب بالخط النبطي ويضم ألفاظا آرامية (٣٨) .

كما أن هناك دراسة أخرى لنقش النماره كتبها الدكتور خليل يحيى نامي جاء في عبارات مختصرة لا تتوازن مع ما لهذا الأثر من أهمية لغوية وتاريخية وحضارية . فعلى الرغم من كل العناصر التي تميز هذا الأثر وأنه قد احتوى على حوالي خمسين كلمة عربية تزيد أو تقل كتبت فوق حجر البازلت فقد أجملها الدكتور خليل يحيى نامي في سطور معدودات تناول فيها المتن وسجله بالخط العبري وهو خط لا صلة تربطه بالأثر العربي وبصاحبه العربي وهو امرىء القيس بن عمرو وهو حين فعل ذلك لم يفصح لنا عن الأسباب التي دعت به بأن ينقله هكذا . وبعد ذلك ترجم لنا هذه السطور العبرية الى العربية ثم استخلص من هذا المتن العبري ما جعله يقول أنه وجد « في هذا النقش كلمات عربية كثيرة مثل جاء ، هرب ووكل الشعوب كما وجد أيضا تراكيب عربية فصيحة مثل « فلم يبلغ ملك مبلغه وأداة التعريف « ال » في كلمة العرب والأسدين والشعوب ثم ختم كلامه بهذه العبارة الغامضة وهذا يدل على أن غلبة النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبطية بين العرب وملوكهم (٣٩) .

وإذا كان « نقش النماره يمثل مرحلة تاريخية من الكتابة العربية الأثرية (٣٢٨ م) فالنقوش التي جاءت بعد ذلك حتى وإن كانت غير متوازنة في الأداء التطبيقي

العربي على هذا التأويل ، ثم اننا لا نعرف عن الاله سعد أنه كان معبودا « في هذه المنطقة » .

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت إلينا وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له (٣٧) .

وهذا الاسهاب مني في نقل معظم ما كتبه الدكتور حسن ظاظا حول كشف النماره إنما اقتضاه خشيتي أن يكون اختصاري لسياقه الموضوعي وتحليله المسهب ، قد يخل بالرؤى الشاملة التي أراد أن ينقلها لنا والتي قصد منها أن يفسر كل كلمة من كلمات هذا النقش ليبلور كل ما يتعلق به من أبعاد موضوعية وتاريخية ولغوية . وإذا كان هناك موضع خلاف بين كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسن ظاظا حول كلمات هذا الأثر فهذا الخلاف ومهما كانت أبعاده قد أفاد المادة العلمية وذلك لأن البنية اللغوية والتاريخية التي تضمنته تتسع لتعطي الباحث الحق في أن يختار محور الزاوية اللغوية التي يريد أن ينطلق منها ليوفي معنى كل كلمة من كلمات هذا الأثر . ومن هنا إذا كانت هناك بعض من وجهات نظر مختلفة حول معاني بعض الكلمات فمن حق الباحث أن يأخذ نفسه بوجهة نظره في التفسير الذي يعتقد أنه الأرجح . كما أن له الحق كل الحق أيضا أن يختار القاعدة التي يريد أن ينطلق منها . ومهما كان من أمر في وجهات النظر المختلفة والتباين الموضوعي بين الأساتذة فقد كان له أكبر الفائدة (على نقش النماره) وهو ذلك الأثر الذي تناوله العديد من العلماء الأجانب الذين عارضوا رأي ديسو مكتشف الأثر . كما أن هناك العديد من علمائنا تناولوه بالبحث والتفسير نذكر منهم

(٣٧) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٦ .

(٣٨) الدكتور / يحيى خليل نامي : نفس المصدر ص ١٧ .

(٣٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٤ .

وقد اختلف المستشرقون في قراءة هذا النقش ونشره
كل منهم تفسيراً يخالف تفسير الآخر ولكن أهم
القراءات هي قراءة « م . ليتسبرسكي » M.
LIDZBARSKI وهي :

٢ - وشرح حويز سعدو وسترو (سر) يكو .
وهناك قراءتان للأستاذ « أنوليمان » :

۲۔ وشرحوبر سعد وستر وشریحو۔

والثانية :
١ - (بنصر) الاله سرحو برامت برامت منغو وهنيء
برمر القيسر .

٢ - وسر حویر سعد وتوسترو وسر (٤١) .

ونأتي الى نموذج آخر له أهميته في تطور الحروف العربية المبكرة نجده على نقش ، وجد منقوشا على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ، مؤرخ في سنة ٤٦٣ (التاريخ البصري) أي في سنة ٥٦٨ م . أي قبل التاريخ الهجري بحوالي ٤٥ سنة وقد وفق « ليمان » الى قراءته قراءة صحيحة كاملة بعد أن عجز المستشرقون عن ذلك أكثر من نصف قرن (٤٢) .

۹ ستره در سال ۹۹۸ و ۹۹۷ و ۹۹۶

شکل رقم ۶ : نقش زید سنة ۵۱۲ م

عن : نامی

ياسر حيدر بن طاهر بن داود المرعشي
 من آل الكلب بن جابر
 حيدر
 بن

شكل رقم ٧ : نقش حران سنة ٥٦٨ م

عن : نامی

(٤٠) الدكتور خليل نامي : نفس المصدر ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤١) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٩١ .

ومحتوى النقش هو :

١ - أنا شرحبل بن ظلموبنيت ذا المرطول

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ - خير .

٤ - بعم .

ويقرأ أيضا :

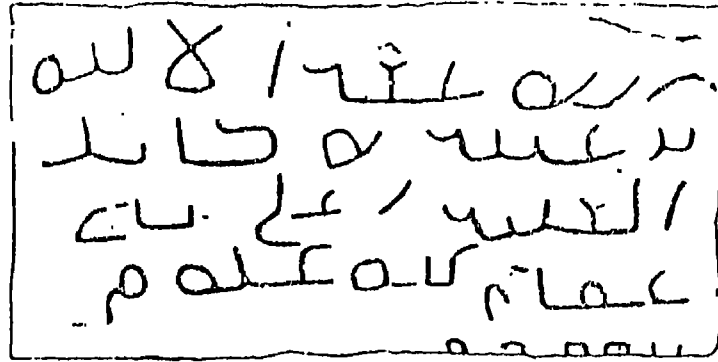
١ - أنا شرحبل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة .

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد (انهيبار)

٣ - خير .

٤ - بعام (٤٣) .

وهناك نقش آخر له من الأهمية التاريخية والأثرية ما يجعل منه الحلقة الأخيرة من الكتابة العربية الجاهلية الثانية نشره أيضا « ليمان » نقش على قبر « ابن عبيدة » وحروفه مربوطة بعضها مع البعض وهذا يعني أن الكتابة قد استقرت على أن تكون مرتبطة الحروف أنظر (شكل رقم ٨) . ولكن متى ظهر هذا التجديد على الكتابة العربية ، هذا ما ليس لنا به علم وبذلك يكون نقش حران (٥٦٨ م) هو أقدم أثر مؤرخ لدينا فيه الحروف العربية متصلة بعضها مع البعض .



شكل رقم (٨) : كتابة عربية متصلة الحروف عثر عليها في أم الجمل الثانية .

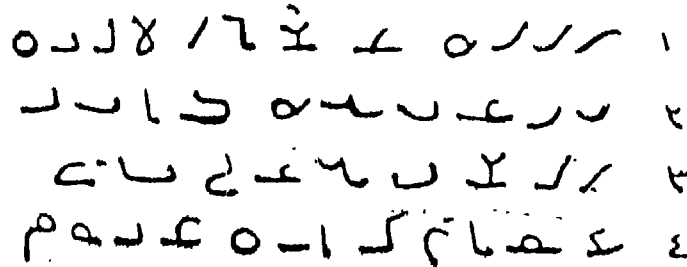
عن : المتجدد

١ - الله غفر لاله .

٢ - ابن عبيد كاتب .

٣ - العبید أعلى بنى .

٤ - عمري كتبه عنه م .



شكل رقم (٩) : مفردات حروف نقش ابن عبيد

(٤٣) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

عندهم ، فهم عرب لهم خصائص لغوية قريبة من الخصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم وان اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية^(٤٦) .

ويذكر لنا الدكتور « جواد علي » « لقد بان لنا من دراسة جميع النصوص الجاهلية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حتى الآن أنها من حيث استعمال أداة التعريف لا تخرج من حدود مجموعات ثلاث : مجموعة تستعمل (ال) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (الهاء) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (النون) ، أما مجموعة (ال) فتشمل النصوص النبطية وبضعة نصوص كتبت بلهجة عربية قريبة من عربية القرآن الكريم ، وهي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص « النمار » ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م الشكل رقم (٥) ويليه نص « زبد » ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م (الشكل رقم ٦) ونص حران ويرجع الى سنة ٥٦٨ م (شكل رقم ٩) وكتابة أم الجمال الثانية (شكل رقم ١٠) وتشمل هذه المجموعة أيضا عربية القرآن الكريم واللهجات القريبة أو المتفرعة منها المذكورة في كتب اللغة .

أما مجموعة حروف النون « فتشمل اللهجات المعينية والسبئية والقنانية والحضرية والحميرية ، وهي على اختلافها المذكور تتفق كلها في استعمال هذه الحروف أداة للتعريف . وأما مجموعة حرف (الهاء) فتشمل الصفوية والشمودية . وهذا التقسيم هو على ما أظن أجمع وأدق في الزمن الحاضر من تقسيم المستشرقين ويمكن أن يكون أساسا الى دراسات أوسع قد تؤدي بنا الى تقسيم جديد للهجات العرب قبل الاسلام ، على أن نوجه العناية في الوقت نفسه الى البحث في كتابات

وإذا كانت هذه النماذج الأثرية من الكتابات العربية قد عثر عليها في مناطق معينة دون غيرها من الأماكن التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية ، فهذا قد يسر لنا أن نعرف عن يقين الموطن الأصلي للحروف العربية ومساكنها حين انتقلت من مكان الى آخر وما أخذته من أسماء وما تشكلت عليه من صور مختلفة . وإذا كان أغلب النماذج من النقوش العربية قد عثر عليها في هذه المنطقة الشمالية من الشرق العربي فهذا يعني أن هذه المادة الحضارية إنما هي نبت هذه المنطقة المتوسطة ، وليس من مكان غيرها ظهرت فيه ، وهذه حقيقة مطلقة علينا أن نأخذ بها ولا نختلف فيها . وحين تكشف نقوش أثرية جديدة موثوقة بصحتها التاريخية والعلمية . فهذا سوف يثري هذه الحقيقة ويثبتها علميا وأثريا .

ان المكتشفات الأثرية التي نقب عنها علماء الآثار على مدى قرن ونصف من الزمان الحاضر قد زودتنا بدراسات متعددة المناحي العلمية ، كما أعطتنا فيما أعطينا الدليل على أن ليس هناك ثمة علاقة بين الحروف العربية الشمالية وبين الحروف « الثمودية » و « اللحيانية » و « الصفوية » وذلك لأن الشعب الثمودي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بعدة قرون وكانت منازلهم « بالحجر » (مدائن صالح) أما « اللحيانيون » الذين كانوا يقطنون أرض العلا فتاريخهم يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد « وقد تلاشوا في قبيلة « هذيل » وعدهم « الهمداني » من بقايا جرهم^(٤٤) أما الصفويون فهم من سكان « الحرة » ، وكلمة الصفويين لا تعني شعبا معيناً أو قبيلة معينة إنما هو اصطلاح حديث للدلالة على أن تلك الكتابات التي عثر عليها في تلك الجهات^(٤٥) ورغم تباعد شكل الحروف العربية

(٤٤) نفس المصدر ص ٣٣ .

(٤٥) نفس المصدر ص ٣٧ .

(٤٦) الدكتور / جواد علي : نفس المصدر ص ٣١٦ .

القح يجعل الزاي سينا فإذا أراد أن يقول زورق قال :
سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشمعل قال
« مشمئل »^(٤٨)

وهذه الأمثلة تدل على أن الصورة النبطية قائمة حتى
بعد أن جاء الاسلام ، نجدها في الكتابة العربية كما
نجدها على لسان المجتمعات العربية وإذا كان بعض
هذه المجتمعات قد تقوَّعت داخل عصبيتها القبلية ،
فهناك العديد الآخر من هذه القبائل قد اعتدل لسانه
واستقام نطقه وعلى رأس هذه القبائل العربية تأتي
« قريش » التي تميزت بدقة ألفاظها وحسن عبارتها
واستواء كلامها ، وأن اللغة العربية كانت لديهم من
الابتكارات الفنية ، ومن هنا وضعوا المعنى المثالي في
الكلمة المنطوقة وربطوها في أفواههم بحركات محكمة
الاعراب وهو ذلك الشيء الذي كان لديهم وليس عند
أحد غيرهم سليقة فطرية منطقية .

وهذه اللغة المنطوقة التي وصل بها القرآن الكريم إلى
هذا المستوى الرفيع من البيان والأحكام وعلى هذه
القاعدة اللغوية من المستحيل لها أن يأتي مصدرها من
هذا التصور الذي طرحه علينا بعض المؤرخين
العرب ، مثل ما خرج علينا به أبو الحسن البلاذري
المتوفي سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م) حين تكلم عن الخط
فقال : « حدثني عباس بن هشام بن محمد السائب
الكلبي عن أبيه عن جده وعن الشرقي القطامي ،
قال : اجتمع ثلاثة من طيء بيقه وهم مرامر بن مره
وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره فوضعوا الخط
وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم
قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل
الأنبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن
عبد الملك بن عبد الجح الكندي ، ثم السكوني صاحب

جديدة تكون سنداً لهذه الدراسات وللتوصل إلى أقدم
لهجة عربية تفرعت منها هذه اللهجات أو ما يسمى
بـ PROTO ARABISCH أو UR ARABISCH عند المستشرقين أو اللهجات القديمة
التي تفرعت منها سائر اللهجات^(٤٧) وهذه العربية
الأولية أو العربية الأكادية (راجع رأي وليم ريت في هذا
البحث ص ٥ - ٦) أو العربية التي نقلها العرب من شبه
الجزيرة العربية إبان هجرتهم الأولى إلى أرض
الرافدين .

ومن هنا يمكننا أن نقول أنه مهما كان رسم حروف
النقوش الأثرية ، ومهما كان هناك خلاف في رسمها فهي
إنما تطرح صورة عربية أخذت لها سمات مختلفة حسب
أسماء من كتبوا بها ، وليس هناك من لم يؤكد أن
أصحاب هذه الحروف المختلفة الأشكال والأسماء
لا ينتمون إلى جنس واحد وهو الجنس العربي الذي أخذ
له أسماء متعددة ، وكان آخرها اسم « الأنباط » الذي
ظل بعض العرب يحملون هذا الاسم حتى بعد قيام دولة
الاسلام ، وعن ذلك حدثنا « أبو القاسم محمود
الزحشري » المتوفي سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٣م) فقال :
« قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بقله « أعرب أنتم
أم نبط » فقال : « عرب استنبطنا ونبط استعربنا » ،
ومنه قول أبي العلاء المعري :

ابن امرئ السقيس والعداري

أو مال من تحت الغبيط .

استنبط العرب في المرامي

بعدك واستعرب النبط .^(٤٧)

ومن ذلك أيضاً يأتي رأي « الجاحظ » وقد تعرف على
الفروق التي تفصل بين العربي والنبطي والعربي الذي
يتكلم لسان قريش قال : « ومهما كان من أمر فالنبطي

(٤٧) الزحشري : أساس البلاغة ص ٩٢٩ طبعة الشعب .

(٤٨) الجاحظ البيان والتبيين تحقيق السندوي الجزء الأول ص ٦٦ القاهرة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦

ودومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبا . ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمى الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمر بن زرارة بن عدس فسمي عمر الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فلقم بها وعلم الخط قوما من أهلها» (٤٩).

وإذا كان هذا هو تصور البلاذري في أصل الخط ، فأصل اللغة كان له عند المؤرخ العربي شأن آخر ، مثال ذلك ما نجده عند ابن النديم الذي يعيد رواية «عباس بن هشام» ثم يضيف عليها ما ظنه صوابا فقال : «فأما الذي يقارب الحق وتكاد النفس تقبله ، فذكر الثقة ان الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وإرم وحويل ، وهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن اسماعيل لما حصل في الجرم ونشأ وكبر وتزوج في جرحم ال معاوية بن مضاض الجرهمي فهم أحوال ولده فتعلم كلامهم ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها» (٥٠).

وقد نقل هذه الرواية أكثر من مؤرخ نجدها عند البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» ، وعند أبو داود السجستان في كتابه «المصاحف» ، وعند ابن قتيبة في كتابه «المعارف» وعند «ابن دريد» في كتابه «الأتقان» وعند «ابن فارس» في كتابه «الصحاح» ، وعند «الجهشياري» في كتابه «الوزراء والكتاب» كما هي أيضا عند غيرهم .

وحين تأتي الرواية العربية على هذا النحو الذي يرويه هؤلاء الكتاب فليس لنا الا أن نأخذ أنفسنا بأن هؤلاء الذين ذكرهم «الداني» قد تعلموا الكتابة بعضهم عن

(٤٩) البلاذري : نفس المصدر ص ٥١ - ٥٧

حاشية :

يُتدعى هذا الرأي الى ما ذكره الدكتور / ابراهيم أنيس في كتابه دلالة الالفاظ ص ١٤ القاهرة ١٩٥٦ : أنه حتى وقت قريب كان بعض الباحثين يذهبون في نشأة اللغة مذاهب تدعو الى السخرية والمعجب ، ومن ذلك أن عالما سويديا في القرن السابع عشر كان يؤكد لسمعته في صورة جدية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدغماركية ، وأن الحية تتكلم اللغة الفرنسية ١١ وفي العصر الحديث وقف عالم تركي في مؤتمر لغوي سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هي الأساس الذي اشتقت منه كل اللغات مستندا على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هي جنوش ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الانسان الأول من بين المخلوقات .

(٥٠) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٥١) أبو عمرو بن سعيد الداني : المحكم في نقاط المصحف تحقيق الدكتور / عزت حسن ص ٣٦ دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٧٠ .

بعض يقرأون العربية ويكتبونها ومثلهم في ذلك مثل غيرهم ممن كتبوا النقوش الأثرية ، وكذلك كتبه « الخريشة » GRAFFITI التي وجدت في أنحاء متفرقة من هذه المنطقة العربية المتوسطة وأن هذه الكتابة ومهما كان شكلها فهي وحدها النقوش الأثرية التي لها أهميتها التاريخية ، كما أنها هي وحدها التي أثبتت فيما أثبتت أن الحروف العربية ، كان لها مسالكها الطبيعية ، وأنها كانت في مراحلها الجاهلية على هذا الشكل الذي نراه مسجلا على النقوش الأثرية مستقيمة الحروف منطوقة الصورة متيسرة الكتابة ، زاد عدد من يقرؤها ويكتبها ، وبعض من هؤلاء يذكرهم البلاذري في قوله : « أنهم كانوا حين دخل الاسلام سبعة عشر رجلا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ويزيد بن أبي سفيان ، والعامري ، وأبو سلمى بن عبد الأسد وأخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وحويط بن عبد العزيز العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت بن عذبة بن المطلب بن عبد مناف ومن خلفاء قريش العلاء بن الحضرمي . . ومن النساء حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم كلثوم بنت عقبة والشفاء بنت عبد الله العدوي ، وعائشة بنت سعيد بن عباد ، وكريمة بنت المقداد ، أما عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمى » (٥٢).

وفي المدينة « كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زارة ، والمنذر بن عمر ، وأبي

ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسد بن خضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عيس بن كثير ، والأوس بن خولي ، ويشير بن سعد » (٥٣).

ومن الطبيعي أن يكون هناك العديد من غير هؤلاء كان لهم معرفة بالقراءة والكتابة مثل هؤلاء الذين كتبوا المعلقات والمذهبات ، التي كانت ترفع على أستار الكعبة مكتوبة على القباطي ، كما كان هناك أيضا هذا النفر من الكتبة الذين كانوا يعملون في القوافل التجارية لرحلة الشتاء التي كانت تذهب إلى اليمن ورحلة الصيف التي كانت تذهب إلى الشام ، وإبان الاسلام كان هناك أسرى موقعة « بدر » الذين فدوا أنفسهم بما فرض عليهم من أن يعلموا كل واحدا منهم عشرة صبيان من صبية المسلمين الكتابة والقراءة .

وكان من بين العرب آنذاك من يحسن بجانب كتابة العربية لغات أخرى غيرها كالسريانية والعبرية ومن هؤلاء كان « ورقة بن نوفل » ، « وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب اليهود من السريانية والعبرانية فتعلمها وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويحجبهم عنه » (٥٤). وكان هناك أيضا كتاب الوحي ومن بينهم ، « الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد وثابت بن قيس » (٥٥). ويمكننا أن نضيف على هؤلاء « عبد الله بن مسعود وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وأبو خزيمة الأنصاري » وينقل لنا الدكتور/ صبحي الصالح « إن « المستشرق بلاشير » BLANCHER استطاع أن

(٥٢) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٥٣) القلقشندي : نفس المصدر ١١٢٣

(٥٤) نفس المصدر ٤ / ٣ .

(٥٥) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٦٩ بيروت ١٧٣ .

انظر أيضا تاريخ العبري ١٣٣ / ٣ .

لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، وطبيعي أن الفارابي كان يرمي الى أن فطاحل العلماء لعهد ازدهار دراسات اللغة العربية رفضوا الأخذ بلهجات تغلب وبكر وإياد وثقيف وغيرها ، كما كانت عليه لزمانهم ولم يرفضوا الأخذ عن شعرائهم الأولين فان طرفة والأخطل وعمرو بن كلثوم مثلا كانوا تغليبين ، والحارث بن حلزة كان بكريا ، ولقيط بن معمر كان إياديا ، وأبو محجن كان ثقفيا ، والأعشى الكبير كان يمانيا ، وهلم جرا ، وكان شعرهم في نظر اللغويين معدودا من الفصيح ، إذ كانت لغة الشعر القديم في الغالب LINGUA FRANCA POETICA واحدة متداولة خاصة بالشعر^(٥٧) وبمعنى آخر كما يقول الدكتور / شوقي ضيف كان الشاعر ، « حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة »^(٥٨) .

وهذا الفيض من الشعر الجاهلي الذي تميز به الشعراء العرب وأنشدوه في أسواق الشعر المتعددة « عكاظ » وكذلك « المجنة » و « المجار » وكان لديهم ولدى من جاء من بعدهم ، سليفة طبيعية تحدث عنها ابن رشيق القيرواني فقال : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة »^(٥٩) .

ولم يكن هناك من أحد غير قريش من بين كل العرب في استواء ألسنتهم ومنهم أخذت العربية التي نجد فيها أن الدلالات اللغوية والادراك العقلي هما القاعدة التي تناولها عنهم علم اللغة لتحديد القيم السوية في النطق

يبلغ بكتابة الوحي أربعين رجلا^(٥٦) دون أن يعين المراجع التي استند عليها في تحديد هذا الرقم .

لقد عثر علماء الآثار على العديد من الكتابات الأثرية في أنحاء متفرقة إلا في مدينة « مكة » التي لم يعثر بها حتى الآن على أي شيء رغم أن هذه المدينة قد تميزت بأنها البلد الذي فيه البيت العتيق مركز الثقل لكافة القبائل العربية وموطن قبيلة « قريش » الذين تعالوا على غيرهم بلغتهم العربية المثالية التي جاء القرآن الكريم ليكون على هذه اللغة وعلى أصحابها معجزة دين ومعجزة لغة ومعجزة بلاغة رغم أن الكلمة كانت لديهم صورة طبيعية لحروف ينطقونها بفطرة سليمة لا نجد لها نظيرا ولا مقابل عند أي قبيلة عربية أخرى وينقل لنا الاستاذ / فيشر A.FISHER رأى « أبو النصر الفارابي » (٢٥٩ - ٣٣٩هـ - ٨٧٠ - ٩٥٠م) في مقدمة كتابه « الألفاظ والحروف » عن ثقل الحاسة اللغوية عند قريش فقال : « لقد كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس ، وعندهم نقلت العربية ، وبهم اقتدى وعندهم أخذ اللسان العربي بين القبائل ، وفي رأي الفارابي بأن اللسان الكامل - لم يأخذ لا من لحم ولا من خزام لمجاورتهم أهل مصر والقط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالسريانية » ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مغالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف

(٥٦) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٥٧) أ . فيشر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول ص ١٢ - ١٣ القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٥٨) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

(٥٩) ابن رشيق القيرواني : العمدة الجزء الثاني الطبعة الثانية ص ٢٠ القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

المثالي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغيير حركة الحرف يشكل تغييرا في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، « وهؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه الساميين ، إلى الغرباء عنهم من الآرين والطورانيين والهاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا لدنيويا وتحديا ربانيا من معجزات الاله التي يتسامى قدرة البلغاء في أمة اللسان والبيان » (٦٠).

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لها أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول محكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي كل العقول المستتيرة على نحو مطلق ارتبط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقيدته جزءا من وجوده الحضاري ، يسعى إليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرنا هجريا ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أنها هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضجها

الزمان المتطاوول في البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد متجلى معانيها في أجراس الألفاظ ، وتتمثل في نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة فالعاني المحسة والمعقولة مبنية في ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة فتصنع للشبيه لفظا خيرا ما وضعته بشيبيه ، إدراكا للفرق الدقيق بينهما . فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه في الجسم . وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة بكل صفة ، دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا . فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أو تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصيلية لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتحة والجر ، وما أرى هذا إلا ضربا من الحياة في الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الاحساس وألطفه .

وإذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة فيها مادة ووزن . فخذ المادة أو أخلقها أو استعرها من لغة أخرى ثم صبها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال ، وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء فبلغتنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع

(٦٠) عباس محمود العقاد : مطلع النور وطوالع البعثة النبوية ص ٩١ القاهرة بدون تاريخ

و « الأديم » هو الجلد .
 وقوله أيضا :
 لم طلل مثل الكتاب المنمق
 كلا عهد الصليب ممطر
 وقول لييد :
 وحلا السيول عن الطلول
 كأنها زبر نجد متونها أقلامها
 والزبر « هو الكتب »
 وقول الأحسن بن شهاب الثعلبي :
 لابنة طحان بن عوف منازل
 كما رقص العنوان على الرق كاتب
 والرق هو « الجلد الرقيق » .
 وقول الحارث بن حلزة الإشكري البكري :
 لمن الديار عقون بالحس
 آياتها المهاريف العرس
 والمهاريف هي : الصحف .
 وكان لابد لأصحاب هذه النقوش الأثرية أن يكونوا
 هم أصحاب هذه الأصالة الشعرية ، وأن تمتد بهم
 الرواية اللغوية والحس العلمي ليسير بهم التاريخ إلى
 ذلك الحقل الذي تناوله أستاذ اللغة العربية « الخليل بن
 أحمد الفراهيدي » المتوفى سنة (١٧٥ هـ - ٧٩١ م)
 ليكتب كتاب « العين » الذي أصبحت مادته العلمية فيما
 بعد قاعدة منهجية للمعجمات الضخمة والقواميس
 الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند أي أمة من
 الأمم الأخرى قديما أو حديثا ، ويعد الخليل بن أحمد
 « تناول نفس المادة تلميذه « سيبويه » المتوفى سنة
 (١٨٠ هـ - ٧٩٦ م) ومن بعده أصبحت المعاجم أساسا
 للفكر اللغوي الاسلامي حيث تدفق السيل وانصهرت
 الشبكة النفيسة في « الجمهرة » لابن دريد ،
 و « التهذيب » للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠ هـ -

فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته
 له معنى يلزمه في المواد كلها وبهذا امتازت اللغة
 واستبان خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة
 أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان
 وللأفعال أوزان ، فما لا تنزه هذه الأوزان فهو أجنبي
 وبهذا بقيت على الدهر المتطاوّل خالصة نقية صحيحة
 قوية » (٦١) .

وبجانب كل ما يوجد على مائدة البحث من الأدلة
 التاريخية والأثرية واللغوية على أن الكتابة العربية كانت
 قائمة عند العرب في قديم الزمان ، نجد فيما نجد من
 تراث الشعر العربي الذي كان يعرف في العربية الأكاديمية
 باسم « شبرو » ما يضيف لنا أدلة أخرى تثبت أن الكتابة
 العربية كانت قائمة على صورة مختلفة قبل أن ينشد
 الشعر الجاهلي الذي عرفناه يلقي على الناس في أسواق
 الشعر الموسمية وأن أوابده كانت تختار لتكتب وتعلق على
 أستاذ البيت العتيق . وفي هذا التراث الشعري نجد
 العديد من الأبيات التي تتضمن كلمات مثل « الرق »
 و « الأدوم » و « العسب » وغير ذلك من الحامات التي
 استعملها الكاتب العربي ليكتب عليها وذكرها
 الشعراء . وعلى سبيل المثال نجد قول امرئ القيس
 الذي يقول فيه :

لمن طلل أبصرته فشجاني

كخط الزابور في العسيب اليماني

و « العسيب » هو جريد النخل .

وقول النابغة الذبياني :

كأن مجر الرامسات ذيولها

عليه حصير غقته الصوانع

و « القضييم » هو الجلد الأبيض .

وقول المركش الأكبر عوف بن سعد :

الدار قفر والرسوم كما

ركش في ظهر الأديم قلم

(٦١) الدكتور / عبد الواحد عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص ١٧ ، ١٨ سلسلة اقرأ القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ .

٩٨٠م) و« المحيط » للصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥هـ - ٩٩٥م) و« المجمل » لابن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ - ١٠٠٤م) و« الصحاح » للجوهري المتوفى سنة (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) و« أساس البلاغة » « الزنجشيري » المتوفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٣م) و« لسان العرب » لابن المنظور المتوفى سنة (٨١٦هـ - ٤١٣م) و« تاج العروس في جواهر القاموس » للزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) ، وما برح الأمر والمعاجم تظهر على هذا النحو عند غير هؤلاء ممن لم أذكر لأن البحر كان محيطا .

كان من طبيعة هذا البحر المحيط أن يفيض على هؤلاء العلماء بهذه المعاجم الموسوعية لأنهم ارتبطوا بالكلمة العربية وسبروا أغوارها كما ارتبطت الكلمة بهم ، وجاء ذلك طبيعيا إذ أننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي تامة في ألفاظها وصياغتها وحروفها ونحوها وصرفها وأوزانها وفي قوة التعبير بها ، وتلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين إلى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجة يتكلمها أهله ، فإن أهالي الأصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة إذا تحدثوا ويفهمونها إذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين^(٦٢) وهكذا اتسعت اللغة العربية في واحة أصحاب المعاجم وكذلك في واحة كل من يتكلم بها . وكان لابد أن يظهر في الفكر الإسلامي نظريات تعالج بنية اللغة العربية وأن يدور حوار بين العلماء عما إذا كانت اللغة « توقيفية » أم هي « اصطلاحية » وكان من بين هؤلاء « ابن فارس الرازي القرويني » الذي توفي سنة (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) وكان في طبيعة المفكرين

من اللغويين العرب الذين ظهروا على المسرح في هذا الميدان ، فقد سجل نظريته في أصل اللغة ونشأتها بكتابه « الصاحبي » وبرهن على أن اللغة توقيف اصطلاح بأدلة كانت موضع التأييد حيناً والمعارضة حيناً آخر^(٦٣) ولم يكن هذا الرأي في مجمله هو رأي « ابن فارس » إنما كان رأي بعض العلماء سبقوه إليه ، وما كان مثل هذا الرأي أن يقبل هكذا دون أن يعارضه بعض علماء اللغة ، فاختلفت الآراء متباينة المناحي ، وكان ضمن ما هناك رأي « أبو الحسن الأشعري » المتوفى سنة (٣٢٤هـ - ٩٣٦م) و« أبو هاشم » المعتزلي (٣٢١هـ - ٩٣٣م) و« ابن الحسن بن فورك الأنصاري » (٤٠٦هـ - ١٠١٥م) و« أبو إسحاق إبراهيم الأسفراييني » (٤١٨هـ - ١٠٢٧م) وغيرهم ومجمل الآراء عند هؤلاء تشعبت إلى مذاهب مختلفة :

الأول : أن اللغة توقيف من الله تعالى .

الثاني : أنها مواضعة واصطلاح بين البشر .

الثالث : أن ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله تعالى والباقي بالاصطلاح .

الرابع : أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف .

الخامس : أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها .

السادس : أنه يجوز كل واحد من هذه الأحوال من غير جزم بأحدهما .

واحتج القائلون بالتوقيف ، بالنقل والعقل .

الأول : قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة آية ٣١) .

فإن هذه الآية تدل على أن الأسماء توقيفية معلمة من عند الله ، وأن الأفعال والحروف كذلك إذ لا قائل بالفرق . والاسم إنما سمي اسماً لأنه علامة على

(٦٢) الدكتور: عمر فروخ : الثقافة العربية مصادرها وأطوارها وخصائصها العامة مجلة الأدب والفن الجزء الرابع من ٢٠ ، ٢١ السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .

(٦٣) الدكتور / محمد مصطفى رضوان : العلامة اللغوي بن فارس الرازي من ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٦

اللغة الى واقع التواضع عليها بين عباده» (٦٥) ومن هنا فقد كان ابن جني يرى « مذهبا معقولا ما ذهب إليهم بعضهم في أصل اللغات كلها إنما هو في الأصوات المسموعة كدوي الريح وطين الرعد وخرير الماء وصهيل اثفرس ونحوها ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » (٦٦).

ولم يكن هذا الرأي هو وحده الذي التزم به ابن جني فيظهر أنه كان حائرا مترددا لا يكاد يستمر على أمر وهو يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ويستدل عليه فيقول ما نصه « أنني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها الحكمة والدقة والارهاف والركة ما يملك على جانب الفكر ، فقوي في نفسه اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي ، ثم يقول وهكذا لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وأن بعد مداه عنا ، من كان ألطف منا أذهانا وأروع خواطر وأجراً جنانا ، فأوقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأكثرها فانكفى مكثورا وكأنه بذلك قد أخذ بالرأيين معا ، رأي التوقيف ورأي الاصطلاح » (٦٧).

ومهما كان من أمر فالأراء حول حقيقة اللغة هل هي توقيفية أو هي اصطلاحية لابد أن تطرح على مائدة البحث من خلال البعد الاسلامي الذي يقوم جوهره على أن الله قد أنعم على الانسان بانسانيته وجعله في أحسن تقويم ، ومن هنا كان عليه أن يسلم تسليما مطلقا ببديع كل الأشياء التي نراها والتي لا نراها وكانت اللغات أفضل ما وهبه الله للانسان وجعلها له وحده ليميزه بها دون غيره ، وجعله الناطق الكاتب الوحيد على هذه الأرض كما وضع فيه العقل المدبر ليكشف

مسماه ، ومثله الأفعال والحروف وتخصيص الاسم ببعض أنواع الكلام اصطلاحيا للنحاة .

الثاني : أن الله تعالى ذم قوما على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله : « إن هي إلا أسماء سميتونها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان] (النجم الآية ٣٣) فلم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم .

الثالث : قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » (الروم الآية ٢٢) . والمراد اختلاف اللغات لا اختلاف الألسنة اللحمانية .

وأما العقل فمن وجهين :

الأول : أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد من الخلق صاحبه مافي ضميره ، وذلك لا يعرف إلا بطريق الألفاظ والكتابة . وكيفما كان ، فإن هذا الطريق إن كان اصطلاحيا لزم عنه الدور أو التسلسل ، وإذ فلا بد من التوقيف ، وهو المطلوب .

الثاني : أن اللغة لو كانت بالمواضعة لجوز العقل اختلافها وأنها على غير ما كانت عليه ، لأن اللغات قد تبدلت وحيث لا يوثق بها » (٦٤) .

وجاء بعد « ابن فارس الرازي » تلميذه « أبو الفتح عثمان بن جني » المتوفى سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠١م) « فمهد للمذهب التوقيفي بحديث عن مذهب المواضعة والاصطلاح حيث قال : « إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف » وأصحاب هذا الرأي لا ينسبون إلى الله تعالى المواضعة على اللغة لأنها تحتاج إلى إيماء وإشارة وهو عز وجل ليس له جراحة توميء وتشير لكنهم جوزوا أن ينقل الله تعالى

(٦٤) نفس المصدر ص ٢٠٨ .

(٦٥) نفس المصدر ص ٢٣٠ .

المصدر المذكور بن جني الخصائص ٤٣ / ١ .

(٦٦) نفس المصدر ص ٢٣١ .

المصدر المذكور الخصائص ٤٤ / ١ .

(٦٧) نفس المصدر ص ٢٣٣ .

بنفسه الحروف لجعل منها إشارات لتتنقل أفكاره إلى غيره من الناس ويلتقي بها أفكار غيره ، وليسجل بها عقائده وتاريخه وإبداعه الذهنية والأدبية .

وإذا كانت الكتابة العربية وأشكال حروفها عند بدايتها كان لها شأن متواضع لا يستوي إلى ما كانت عليه الكلمة المنطوقة التي تميزت بالأصالة اللغوية والصورة البلاغية والنضات الشعرية . فأقدم ما لدينا في هذه الكتابة في غير النقوش الأثرية إنما يأتينا من قصة هذه الصحيفة التي كتبها « منصور بن عكرمة بن عامر » للمشركون من قريش الذين تعاهدوا فيها على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأصحابه وكل من اتبع هديه . وعلقت على أستار الكعبة وإذا رجعنا إلى كل الروايات التي ذكرت أنباء هذه الصحيفة فهي في مجملها لا تبلور لنا رواية حقيقية عن شكل الحروف العربية التي كتبت بها إلا إذا تداعى رسم حروف « نقش أم الجمال الثانية » (انظر الشكل رقم ٨) في نفوسنا . وكتابة صحيفة المقاطعة هذه تنسحب أيضا على رواية ثانية عن صحيفة أخرى لا نعرف لها تاريخا كتبت قبيل الاسلام ذكرها ابن النديم قال : « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد اللطيف بن هاشم في جلد أدوم فيه ذكر حق عند عبد المطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء »^(٦٨).

من هذا المجلد المقتضب يمكننا أن نقول أن فضل العرب على الكتابة في العصور القديمة لأمر واقع لا يرفضه إلا كل مكابر . وأن هذه الكتابة كان لها أثرها على أبجديات الأمم الأخرى ومثال ذلك الأبجدية

اليونانية ، « التي تسمى لديهم بآل « الفاييتا » ونبدأ بالألف والباء ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معاني مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العصرية فضلا عن اللهجات العربية الغابرة »^(٦٩)

ولكن رغم ذلك الفضل الذي كان يجب أن يذكر بكل احترام فقد أنكرت أوروبا ما قام به العرب والمسلمون من فضل على التراث الانساني ومرجع ذلك الانكار هو الجحود . وكنا على أمل أن يرجع الأوربي المعاصر عن هذا الموقف العدائي ولكننا نراه الآن وقد اندفع سادرا في هذا الخطأ وأخذ نفسه بأحقاد أسلافه وأبقى في ذاته طوية أجداده فهو لا يريد أن يغير موقفه منا لأنه جبل بفطرته على ألا يرجع إلى الحق لأن الرجوع إلى الحق من شيم النفوس المستقيمة وأن له أن يكون كذلك .

هذه ملامح عابرة عن قصة الكتابة العربية من بدايتها حتى أخذت الحروف الخاصة بها التي عرفت أول ما عرفت باسم الحروف الأرامية ثم باسم النبطية حتى أن صارت متطورة لتعرف باسم الحروف العربية النبطية التي تحولت إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحروف العربية الجاهلية ، لتنتهي إلى هذا الشكل المتميز الذي عرف باسم الحروف العربية التي استعملها المسلمون في كتابة رسائل الدعوة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء سنة ستة من الهجرة (٦٢٧ م) ليدعوهم فيها إلى هدي الله .

(٦٨) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٦٩) عباس محمد المقاد : الثقافة العربية ، اسبق من ثقافة اليونان والعبرين ص ٢٩ المكتبة الثقافية (١)

تتولد أغلب أعمال ميشال بوتور الغنية والشديدة التنوع من الرحلات أو خلالها أو من الرغبة في القيام بها . ويعرفنا هذا الأديب المعاصر بمناطق جغرافية ، تاريخية ، أسطورية ، فنية أو أدبية ، حقيقة أو خيالية ، ثم يدعونا لاختيار طريقنا فيها أو في « أطراف هذا العالم الذي لا طرف له »^(١) ، العالم الذي نعيش فيه ، متمنياً لنا - ومقترحاً علينا - رحلة سعيدة .

لنتنزه أولاً بين عناوين كتب بوتور منطلقين من العدد ٣٩ لمجلة « القوس » L'ARC. No. 39 المخصص لهذا الكاتب والذي صممه بنفسه من خمسة أقسام يشكل كل منها قارة يغمرها محيط المجلة ، ومتذكرين مشروعه في إيصال كل من سلاسل كتبه إلى خمسة أجزاء . وهكذا نجد أنفسنا على الفور في عوالم مختلفة ولكن متكاملة يستكشف كل منها ميداناً من ميادين الواقع ويتنظر بدوره أن نستكشفه ، نحن القراء ، الرحالة الذين علينا تعلم الغوص في مضائق ومسالك البحار كي نستطيع الوصول إلى الأراضي البعيدة .

مصر والولادة الثانية الرحلة في كتابات ميشال بوتور

مصباح أحمد الصمد

من قصصه الأربع إلى « مواد الأحلام Matieres de rêves من مصنفاته Repertoires إلى زخرفاته Illus-trations علينا أن نكون حساسين « لعبقرية المكان » Le Genie du Lieu لكي نستطيع الارتواء من هذه البيابيع الغزيرة . ولكي نتنقل من منطقة لأخرى أو من عالم لآخر علينا اجتياز طرق معالمها « محاورات Dia-logues وإهداءات^(٢) Envois تسهل « الاستكشاف » Explorations إنما علينا أن نكون حذرين ، فالمسيرة يجب أن تتم على « مراحل » Intervalle ومن خلال التجارب Essais والأحلام Reves لكي نستطيع التنقل بسهولة بين « الشبكات » Reseaux وهذا الامتياز

(١) السهم المرتد 185 Boomerang

(٢) نشير هنا إلى تعددية المعاني التي يتعمدها الكاتب في عناوين كتبه حيث أن كل عنوان يحمل معانٍ متعددة بشكل يجعل القارئ يتردد كثيراً قبل أن يعتمد أحدها .

مخصص فقط لمن يتقن اجتياز « المتحرك » Mobile ولن يستطيع أن يقدم عنه تصورات Representation وأن يلتقط اللحظات واللحظات التي تعبر عن الهجرات البشرية ، عن الانتجاع الحيواني ، عن تنقلات الأشياء ، عن التبادل الثقافي وعن الحركة الدائمة للكرة الأرضية .

بعد اجتيازنا العناوين ، نصل إلى الإهداء .

للوهلة الأولى ، نجد إهداءين فقط مرتبطين بالرحلة ، أو بصورة أوضح بنموذجين مختلفين من الرحالة : « إلى الرحالة في الغرب » (٦٨١٠٠٠٠ لتر ماء في الثانية) و « إلى من يقرءون في المترو » (إهداءات) بينما يحكي اثنان آخران « كل هنود المكسيك الجديدة » (في كل مكان : Ou) و « بدائيي أستراليا خلال انتقلهم » (السهم المرتد Boomerang) تحية يوجهها لهذين الشعبين اللذين يعيش من قبض منهم في حالة من البداوة والهجرة الجماعية .

ولكن إذا تفحصنا بعناية إهداءات كتبه ومقالاته نجدها جميعاً موجهة إلى نماذج مختلفة للرحلة . فكل هؤلاء الكتاب والنقاد والرسامين والموسيقيين الذين تنصدر أسماؤهم كتب بوتور أليسوا « جسورا » نقلنا إلى ميادين جديدة من الإبداع الأدبي والفني ؟ أليسوا هم من يفتحون لنا أبواب عدد لا يحصى من « العوالم الأخرى » الجغرافية والفكرية ؟

إن أسماء (La Rose des vents) جان رودو (Es-sais sur Les Essais) ايفور سترافنسكي ، بوفون

(Quadruple fond) ، جان بيار ريشار (Repertiore IV) وكثيرين آخرين ، هي أمثلة عن « ساكني الحدود » (Illustrations III) الذين يعيشون على التخوم ويستطيعون بالتالي مساعدتنا على اجتياز عوائق الحاضر ونقلنا نحو « الغد » (Illustrations IV) أو نحو « وطن الأبناء » .

بوصولنا إلى داخل أعمال بوتور نجد أنفسنا مسافرين في ألف رحلة ورحلة ، فترافق أشخاصاً وهميين أو حقيقيين يهيمون أو يبدأون أو ينهون تجوالاً أو رحلة بحرية أو استكشافاً أو حجاً أو حتى مجرد سياحة ، أو نعيش معهم حالة من الهجرة أو النفي أو الحنين أو الهرب أو التشرد .

كل ما في هذه الكتب يتحرك أو يتنقل ، حتى المظاهر أو العناصر الأكثر سكونية^(٣) في العالم ، لدرجة أن « البحار تبدأ بالانتقال »^(٤) ، وأن « الجبل يضم مخالبه وينطلق طائراً فوق الطرقات المتصدعة »^(٥) في خضم هذا (المتحرك) الهائل ، يدعو الكاتب قارئه لاختيار طريقة وللمسك جيداً وللبقاء يقظاً كي يستطيع الوصول إلى غاية الرحلة ، إذ أن مناجم الذهب محاطة بالرمال المتحركة ، ووحده من لا يسقط يستطيع الوصول إلى « قدس الأقداس » ، إلى « الدرة الثمينة » ، أي إلى الكلمة ، إلى اللغة ، لأن غاية كل رحلة يجب أن تكون إيجاد وسيلة جديدة للتخاطب .

لنسافر إذن في أعمال ميشال بوتور مفتشين عن هذه اللغة الجديدة .



(٣) وجدنا من الملائم استعمال هذا التعبير المراد به « حالة ما يبدو ساكناً » وذلك لتمييزه عن السكون أي ماهو ساكن بالفعل ، وقريب من هذا الاشتقاق ما أصبح مألوفاً في التمييز بين « الحركة » و « الحركة » .

Matiere de reves, p. 97

Quadruple fond, p. 24

(٤)

(٥)

سواء للتفتيش عن أرض موعودة أو للقيام بجولات مع ما يستوجه ذلك من بحث عن معلومات ولوازم وسلع ومعادن ، الخ . . لحملها إلى المكان الذي انطلقنا منه . ذلك ما يجعلنا نتصور فترة يكون فيها من الصعب جداً التمييز بين كلمتي « رحلة » و « إقامة » ، ويكون مجرد وجودنا في مكان ما رحلة بحد ذاتها « (١٠) » .

من جهة أخرى فإن مفهوم الذهاب والإياب التقليدي لا ينطبق إلا على شكل واحد في أشكال الرحلات ، وعملية تنبيه كنموذج وحيد للرحلة يضيق ويتر تعددية معاني هذه الكلمة :

« إذا أدركنا الارتباط المجازي الأساسي للرحلة بكل ما هو قراءة وكل ما هو بالتالي كتابة ، رأينا من المؤكد أن هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً في إدراكنا للواقع وتأثيرنا فيه ، خاصة وأن كثيراً من التنقلات البشرية هي ذهاب دون عودة » (١١) .

وانطلاقاً من هذه البديهة الأخيرة نجد بوتور يوسع ويشعب معاني كلمة « رحلة » لدرجة أنه يجعلها تشمل أغلب ميادين الحركة والانتقال والتحول والإبداع والاستكشاف ، وأنها تظهر بدورها بصور مختلفة تراوح بين الذهاب والإياب من جهة والتشرد والبداءة من جهة أخرى . ذلك ما يدفعنا لدراسة الشبكات اللغوية لكلمة رحلة في أدب ميشال بوتور وما يجعلنا نشعبها إلى فرعين ندرس في أولهما الشبكات المجازية وفي ثانيهما الشبكات الارتحالية .



الشبكات اللغوية لكلمة « رحلة عند بوتور »

إذا القينا نظرة على المعنى الذي تعطيه القواميس والمعاجم اللغوية لكلمة « رحلة » نجده شديد الحصر وغير كاف . لأن كل القواميس تشير إلى أن هذه الكلمة تشير إلى « انتقال إنسان إلى مكان بعيد » (٦) إلى « عملية اجتياز طريق طويل ، غالباً في مركبة ، للذهاب إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، وهي غالباً ما تتطلب استعدادات وتجهيزات مسبقة ، وتفرض غياباً لمدة معينة عن مسكن معهود » (٧) .

بعض القواميس الأخرى توسع قليلاً معنى هذه الكلمة ولكن مع بعض التحفظات « إذا سمينا رحلات كل التنقلات المعللة عند عائلات وقبائل بضرورة التفتيش عن الغذاء في بلد أغزر موارد من البلد الذي تقيم فيه ، لارتبطت الرحلة بالعصور الأولى للبشرية » (٨) .

تقليدياً ، يفترض معنى « الرحلة » إذن وجود مسكن ثابت يتغيب عنه المسافر ردىاً من الزمن بهدف الذهاب إلى مكان بعيد . وذلك ما يستتبع بالتالي نية وضرورة العودة إلى المنزل بعد القيام بمسيرة مستقيمة يكون فيها الإياب عكس الذهاب تماماً ، أو متعرجة إذا اختار المسافر طريقاً مختلفة للعودة (٩) .

أما ميشال بوتور ، فانه يعتبر من الضروري تجاوز هذا « التناقض بين المكان الذي نحن فيه ، الذي نسكنه ، والرحلات التي نقوم بها من مكان لآخر ،

(٦) Le Robert, Dictionnaire alphabétique de la langue française volume VI, Paris, 1970

(٧) Le Grand Larousse de la langue française, vol. VII, Paris 1978

(٨) Larousse du XXe siècle. volume VI, Paris, 1945

(٩) تعطي قواميس اللغة العربية معنى أشمل من ذلك إذ يرتبط لسان العرب مثلاً بالترحال بالانتقال والرحلة بالمسير (المجلد الثاني . ص ١٦١٠ - ١٦١١) ولكن كل ذلك يبقى غير كاف كما ستبين في الصفحات التالية .

(١٠) هذا ما صرح لنا بما لكاتب في المقابلة التي أجريتها معه في منزله في مدينة نيس في ٢٣ يوليو آب ١٩٨٣ .

(١١)

أولاً - الشبكات المجازية :

إن عملية ارتحال المعنى التي تنطوي عليها كلمة « استعارة » تشكل بالنسبة لبوتور منطلقاً لسلسلة من « التنقلات » . وكما يؤكد ميشال لوني فإن « الاستعارة هي أولاً انتقال ، ارتحال ، حركة »^(١٢) ، وهي « سلسلة من الانقلابات في داخل اللغة ، من تفجر نزوات لغوية يكشف فيها الانتقال الداخلي أو الخارجي مناطق جديدة من المفردات . هي عملية إيجاد معان جديدة »^(١٣) حسب قول بوتور .

اعتماداً على هذه النظرة الأخيرة ، نتوصل لاعتبار أكثر النشاطات الفنية والكتابية وكثير من التحولات اللغوية والتغيرات البيولوجية والعوامل الطبيعية مظاهر لرحلات متنوعة . فمن مجرد قراءة صفحة في كتاب إلى حركة الأرض الدائمة حول الشمس ، مروراً بالكتابة والفنون التشكيلية والأحلام والانفعالات والدورة الدموية ، الخ . . كل ذلك يصبح رحلات في أدب مرتحل يخطه كاتب رحالة .

أ - رحلة القراءة :

وعند مطالعتنا لصفحة ما نجد أنفسنا منطلقين في أربع رحلات متواكبة :

أ - رحلة عمودية على الصفحة ، ونعني بها انجذاب عين القاريء الذي ما إن يفتح الكتاب حتى يجد نفسه متبهِئاً لتتبع ما يراه ومستعداً لمرافقة الكاتب في قصته أو براهينه أو خياله .

ب - رحلة اجتياز الصفحة ، وهي تنقل النظر بين الأسطر والصفحات حيث تمر العين من علامة إلى أخرى حسب مسارات متعددة تختارها .

ج - انتقال فكري « من خلال هذه الكوة التي تشكلها الصفحة » إلى أماكن مختلفة البعد قد لا تكون أحياناً سوى منزل الكاتب أو غرفته .

د - وأخيراً المسيرة الفكرية التي ينتقل فيها القاريء « من النقطة التي كان فيها عند بدئه بالقراءة إلى تلك التي يبلغها بعد انتهائه »^(١٤) .

ولكن واجب الكاتب ألا يكتفي بنقل القاريء إلى غرفته ، بل على العكس ، أن يحمله بعيداً ليضعه بين أمواج محيطات كتابته تاركاً له بعض المضائق والممرات التي يجب عليه اكتشافها للوصول إلى بحار أخرى .

ما إن نفتح كتاباً ونبدأ قراءته ، حتى نغادر المكان الذي نحن فيه ونبدأ بزيارة عالم الكاتب . وحتى لو لم يكن هذا العالم سوى قاموس أو دليل هاتف ، فذلك لا يمنع من كونه « مكاناً » مختلفاً ، أو هو يشكل على الأقل « مطاراً ، مدرجاً للطيران أو منطلقاً » يسمح لنا بالانطلاق في بعثات جديدة نحو مطالعات مجهولة^(١٥) .

وكل قراءة تشكل منفذاً يلغي شيئاً فشيئاً كل ما يحيط بنا من أثاث وأشخاص وضجيج ووسائل نقل ليوصلنا بعيداً إلى المدينة التي تدور فيها أحداث قصة نقرأها إلى منعطفات حجب وبراهين فيلسوف ما ، إلى عالم سحري يتدعه خيال شاعر ، إلى ماضي بلد ما يرويّه أو يحلله

Le C.R.E.U. Cannes, no. 8, trimestre 1978

(١٢)

(١٣) نفس المصدر .

Michel Butor, "Je suis moi-meme plusieurs voyageurs." Le Matin, 17 avril 1979

(١٤)

Repertoire III, p. 219

(١٥)

فترة الكتابة في مكان آخر ، مكان وهمي ، أدبي ، فني ، تاريخي ، نفسي ، الخ . .

والمكان الذي نكتب فيه يتغير بين فترة وأخرى ، وهو ليس بالمكان المقفل ، فليس بالضرورة أن يكتب المؤلف في نفس المكان دائماً . وبوتور يحاول دائماً أن يزيد من تعددية مكان الكتابة ، إذ أنه من النادر جداً أن يكتب عن بلد أو موقع ما وهو فيه . وبهذا الصدد يقول : « إنني في حاجة دائمة لأن أجعل رحلتي ترتحل »^(١٨) . إنه في حاجة لأن ينقل مكان الرحلة الجسدية إلى مكان الرحلة الكتابية كي يعيش الرحلة مرة أخرى وهو يكتب عنها .

الكتابة هي رحلة . ولكن الطريق البسيط ، الذهاب والإياب ، لا يكفي بوتور كما أشرنا ، لأن ما يفتش عنه هي الشبكات والمتحركات ، ولنقل الشبكات المتحركة . لذلك يلجأ دائماً لنقل كثير من نصوصه من كتاب لآخر ، وغالباً ما ينتقل النص بعد أن تدخل عليه تعديلات عديدة ، كما أنه يدخل في كتاباته كثيراً من نصوص كتاب آخرين . وهكذا يصبح كل من نصوصه ملتقى لأصوات متباينة وأمكنة مختلفة تتجاوز فيها وتلتقي مناطق متباعدة ، جغرافياً ، زمنياً وأدبياً . وفي خضم ذلك كله يجد القارئ نفسه متنقلاً ليس فقط بين نصوص بوتور بل وأيضاً بين كتابات رابليه وشاتوبريان وجول فيرن وبوغانفيل وأوديون وبوفون ولافونتين وألف ليلة وليلة وكثير غيرهم .

في عالم كتابات بوتور « بفتح الاستشهاد أبواب عالم آخر ومهمه بالواقع »^(١٩) ، كما يقول جان رودو . ونزيد

مؤرخ أو حتى إلى عصور مستقبلية نتقل إليها في مركبات عجيبة يصممها الخيال العلمي .

ولكونه مؤمناً بقدرة النص المقروء على إبراز وتصوير مناطق ومدن ومناظر وشعوب لقارئ مهمته فك رموزها وتمثل عبقريتها ، فان ميشال بوتور يبني أعماله الأدبية على شكل أرخيل يشمل نصوصاً « جامدة وسائلة وغازية » بطريقة تسمح لكل قارئ أن يبلغ بوسائله الخاصة النص الذي ينشده وأن يتنزّه فيه على هواه^(٢٠) .

نشير هنا إلى أن القراءة لا تكفي بما هو موجود في الكتب أو النشرات ، بل إنها تتجاوز النص المكتوب . فتأمل لوحة أو استطلاع نقوش على جدار أثري أو تتبع خطوط تمثال أو عمل فني آخر ، أو تبين طريق نسله على خارطة بلد أو مدينة هي بدورها رحلات تصاحبها حركة الرأس أو تنقل النظر في عملية تتبع وتعميق الاستكشاف .

ب - رحلة الكتابة :

« إذا كانت القراءة عملية عبور ، حتى ولو لم تكن أحياناً سوى عبور خاطف في غيوم بيضاء ، فالكتابة ، التي هي قراءة دائمة التحول ، تمثل بالضرورة رحلة أوضح وأبعد »^(٢١) .

الكتابة هي أولاً حركة على صفحة . حركة يد وحركة عين شبيهة بتلك التي تصاحب القراءة . هي إذن تحرك جسدي .

وهي تمنح الكاتب انتقالاً آخر ، فكرياً ، يتعد خلاله بالتدريج عن المكان الموجود فيه لكي يعيش في

Poesie d'Ici, no. 5, 1980

Repertoire IV, p. 28

Jeqn Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 135

(١٦)

(١٧)

(١٨) نفس المصدر ، ص ٢٩

(١٩)

على ذلك : ليس الاستشهاد فقط بل الاستشهاد الذاتي . أما العالم الآخر « الذي يتكلم عنه رودو فهو قريب جداً بعض الأحيان ، على بعد صفحات قليلة من نفس الكتاب أو في كتاب آخر ليس بعيداً ، وهو أحياناً بعيد جداً ، في أعمال كاتب قديم أو في نص بلغة نجهلها . وفي مطلق الأحوال ، فإن الاستشهاد دعوة موجهة للقاريء ليعمق استطلاعاً لمناطق أخرى .

وبالإضافة إلى رحلة النص ، هناك رحلة الكلمة ، فهي تتقل من مكان لآخر في الصفحة الواحدة أو في النص الواحد أو الكتاب أو مجمل الأعمال . كلمات كثيرة نراها تتكرر أو تشعب راسمة طرقاً وشبكات وكأنها فراشة تتطاير وتدعونا لتتبعها . « إنني أجبر القاريء على التنقل حول كلمة واحدة »^(٢٠) ذلك ما يقوله بوتور لجورج شاربونييه . نذكر هنا واحداً من مئات الأمثلة لنبين إحدى الدعوات التي توجهها الكلمة للقاريء كي يتبعها :

« ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

عتبة فضة النار أعياد

ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

القناع يدق ، البيت يدق ، العالم يدق »^(٢١) .

هكذا نرى ثلج الكلمة يهطل على بياض الصفحة بطريقة تجعل هطول الثلج النازل من سماء الصفحة إلى

أرضها ينقل معه نظر القاريء وخياله ويجعله يتشبع بالمنظر والإيقاع ويسرح في بياض الكون بأسره ما عدا عتبة منزل وناراً تقام حولها الأعياد ، في هذا الجو الرائع يتبع القاريء عن مكان إقامته ويستطيع المشاركة في احتفال الهنود الحمر ، لابساً قناعهم ومشاركاً في رقصهم .

إن كل نص من نصوص بوتور ، بل كل كلمة ، تبدو كصرح أو كموقع أثري علينا تتبع ممراته ودهاليزه ورموزه وخباياه لكي نتوصل إلى متعة اكتشاف الكلمة - الصرح والنص - الموقع وإلى مرافقة هجرة الكلمات والنصوص ومواكبة تداخلها وتناغمها في عالم أعماله الأدبية .

ح - رحلة الفن :

الرحلة ، كباقي الحاجات الأساسية للجسم ، هي حسب قول بوتور : « أساس كل الفنون » ، ولكن هذه الأخيرة تبدو من جهتها كنيات للرحلة وذلك لأنها تحملنا على تغيير مكاننا ، فكراً على الأقل ، ألسنا نقوم بما يشبه البعثة أو الاستكشاف عندما نحاول فهم لوحة أو وشي أو زخرفة أو نقش أو قطعة موسيقية ؟ ويتعدى الأمر ذلك بالطبع بالنسبة للفنان ذاته ، فنرى مثلاً في قصة « استعمال الوقت » أحد أبطالها « يمسك الهارمونيكا ويبدأ بعزف إبحار بعيد على امتداد شواطئ منبسطة مزروعة بأعشاب عالية تمايل عند مروره »^(٢٢) .

« تجوال وحج وسياحة » مماثلة يقوم بها ليون دليون بطل قصة التعديل « من خلال أعمال فرانثيسكو بوروميني Borromini وجوان لوزوبريني Bernini الفنية في روما أو من خلال جدرانيات العصور الوسطى وفسيحاء العصور المسيحية الأولى »^(٢٣) . أما بوتور نفسه

George Charbonnier, Entretiens avec Michel Butor, p. 24

Ou. p. 388

L'Emploi du temps, p. 99

La modification, p. 215

(٢٠)

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

نعود قليلاً إلى انتقال الجسد وما بداخله لنسمع الحوار التالي :

« ميشال بوتور : إن انتقال الجسد من مكان لآخر يقابله انتقال شيء ما داخل الجسد ، تحرك قد يكون مميّاً أو منقذاً . . . »

ميشال لوني : . . . لا يتعلق الأمر فقط بما نسميه عادة بالجسد ، فهناك مثلاً تقلبات المزاج بالمعنى الأخلاقي وثورة النزوات من وجهة نظر التحليل النفسي « (٢٥) » .

إذا توسعنا قليلاً بهذا المفهوم نتوصل لاعتبار الجسم كعالم صغير ونجد الذراعين والبطن والأحشاء والبطين والأذنين وحدقة العين تصبح جميعها محطات تصل بينها دروب ومسالك ونرى بوتور « يسبح ويطير وينام فيها » « (٢٦) » .

ونتساءل هنا : أليست المدن والبلدان والعالم بأجمعه سوى جسد هائل يتحرك ويتنقل فيه البشر الذين هم « نقط دم يضخها دون توقف قلب المدينة » « (٢٧) » أو قلب الكون ؟

أ - هذا الجسد المحتوي والمحتوى في آن معا والذي يتنقل حاملا ما يتحرك بداخله ، ليس إلا محطة في رحلة طويلة ، رحلة البشرية التي يدعو الكاتب كلا منا لأن يحياها في الاتجاهين متأملا على التوالي بطن رجل وامرأة ومركزا على ذلك حتى « يستطيع أن يأخذ الحجم المناسب ، ثم يدخل في رحم هذه المرأة ، يعيش رعشة أصلها . . . يجتاز مراحل طفولتها وولادتها . . . وهكذا . . . »

فكم من رحلة قام بها وهو يحلل ويفك رموز لوحات كلود مونيه Cloude Monet وجاك هيرولد Jacques Herold وبيكاسو وفيراد اسيلفا Vieira da Silva أو موسيقى هنري بوسور Henri Pousseur وبيتهوفن وكثيرين غيرهم .

والرقص أيضاً يستطيع أن ينقلنا إلى أماكن بعيدة وبلاد عربية ، فنرى الراقصين في قصة « عمر الخطاف » Passage de Milan ينطلقون في شرايين بلاد ما وراء البحار حيث يتنقلون بين غابات وطيور تشغلهم لدرجة أن الأشياء والأشخاص المحيطين بهم يبتعدون في مدى غامض لا يقاس « (٢٤) » .



- تنقلات واكتشافات :

ما نود تبيان هنا هو الرحلة - الذريعة ، أي الغوص داخل كلمة ما أو الالتفاف حولها لإظهار معانيها المختلفة . فكلمة « رحلة » مثلاً بما تتضمنه من عملية انتقال توجد إمكانيات لا تحصى لإدخال كثير من الظواهر والعوامل والانفعالات ضمن ميدانها . وهكذا يبدو كل انفعال - بما يمثله من تحرك شيء ما داخل جسم الإنسان ومن نقل للشخص المنفعل من حالة إلى أخرى - رحلة قائمة بذاتها . انطلاقاً من هذا المفهوم نرى الرحلة - كحركة وتغير وانتقال - تصاحب الإنسان منذ تكوينه كجنين حتى ولادته وبلوغه وانفصال بويضته منه تشعب منها رحلته الأرضية في أولاده وأحفاده ، قبل أن يموت ، مبتدئاً رحلته الأبدية ، ثم يتوسع ميدان هذه الكلمة لكي يصل إلى حركة الأرض الدائمة ودورانها المستمر حول نفسها وحول الشمس .

Passage de Milan, p. 108 et 218

Michel Butor et Michel Launay, Resistances, p. 110

Elseneur, p. 24

Ou, p. 103

(٢٤)

(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

حتى بداية الكون البعيدة (٢٨) . بعد ذلك يأخذ الاتجاه الآخر للرحلة داخلا هذه المرة في إحدى بويضات الرجل ومتنقلا من جيل إلى جيل « حتى نهاية الزمان للامحدودة » . (١)

هذه الرحلة اللامتناهية تتواصل من خلال حياة كل إنسان وهي تبدأ حتى قبل الولادة ، في حركة الجنين داخل بطن أمه .

ان استعمال كلمة « رحلة » للدلالة مجازا على حياة الإنسان أو على الموت قديمة جدا ، ولكن بوتور يجددها ويعمقها بإعطائها أبعادا أخرى .

ب - « إذا توسعنا قليلا بنظرتنا هذه نجد أن انعدام الحركة ليس إلا نسبيا على الأرض وبأن الأرض في تنقل دائم بالنسبة إلى الكواكب الأخرى » (٢٩)

حتى الأمكنة الأكثر صلابة والأكثر رسوخا تتحرك بشكل أو بآخر . وجبل فوجي في اليابان « يرتحل نوعا ما على امتداد الأيام والسنين ، ففي لحظة ما هو أجل ما يكون إذا شوهد من منطقة ما » (٣٠) .

وإذا كانت هذه الرحلة تتم « نوعا ما » تحت نظر الزائر أو بسحر ريشة الرسام الياباني هوكوساي Hokusai ، فهناك رحلات أخرى كثيرة يتم فيها الانتقال بطريقة أوضح وأكثر طبيعية كما رأينا سابقا بالنسبة للجبل الطائر أو للبحار المتنقلة .

في هذا العالم المتحرك يتلقى مفهوم الرحلة تعديلا أساسيا ، فلا تعود عبارة عن « أماكن ثابتة تصل فيما بينها

تنقلات قليلة الأهمية » (٣١) ، بل تصبح بالأحرى « أمكنة متحركة » . لتوضيح ذلك نقول بأن مشاهدتنا لبلد ما تختلف كثيرا بين زيارتنا له بالطائرة أو القطار أو السيارة ، وتختلف كثيرا بالتالي إذا زرنه سيرا على الأقدام . إن مجموعة هذه المشاهدات تعطي صورة متحركة هي الأخرى لأنها تنتج عن تطبيق رؤية شخصية على أماكن متحركة .

ج - إن الأشياء والأدوات التي نستعملها « والتي لا نرى منها عادة سوى وجه واحد هو الاستعمال الثابت » (٣٢) لها بداية ونهاية تقوم بينهما برحلة مزدوجة : نقلها من مكان لآخر ونقل الأجزاء التي تشكل منها . فكل أداة منزلية ، كانت خزانة أو مقعدا أو آلة موسيقية لها تاريخ طويل : « لقد صنعت وبيعت ووزعت ونقلت قبل أن تصل منزلنا . » (٣٣) كل هذه الأشياء هي بالنسبة لبوتور « أشياء بدوية لحسن الحظ في مجتمع يحلم ببداوة جديدة . » (٣٤) أما حياتها فهي مرتبطة بحياتنا وظروفنا : تأثيث ، زواج ، احتفال ، تجديد ، انتقال أو ذكرى .

حياة الأشياء وانتقالها ترتبط أيضا بتوضيها وتغليفها وقيمة كل ذلك في حياتنا الاجتماعية والعاطفية .

كم من بلاد وممالك تترأى لأعيننا عندما نتابع « انتقال المعاني » الذي يجعل من الجسد « باخرة نباتية » ، من القصة « جسدا » ومن أحداثها « خلايا » وتجعل القارئ « يسبح في أقطار الشعر الفسيحة » .

Michel Butor, Le Miroir ventral. Les Cahiers du chemin, no. 15, avril 1972

Repertoire IV, p. 12

Repertoire III, p. 164

L'Arc, no. 39, p. 22.

Resistances, p. 116

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١١٦

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٧

أ- الرحلة كقراءة « ان رواية الرحلة تحقق وتظهر الرحلة المزدوجة التي تنطوي عليها كل قراءة ، فهي تحمل معها مسيرة عمودية تنتهي بانتقال القارئ ، بجعله يغير مكانه الفكري ويغير في النهاية مكانه » . (٣٨)

هذه الرحلة المزدوجة ، أو بالأحرى الرباعية كما يتبين من قراءة معمقة لقول ميشال بوتور يمكن أن يضاف إليها تنقلان جسدانيان : انتقال القارئ عندما يطالع في حافلة أو قطار أو طائرة ، أي في مكان متحرك ، وانتقاله داخل وسيلة النقل عندما يغير مقعده أو ينتقل من مقصورة إلى أخرى . يظهر من ذلك أن مكان القراءة مرتبط بقوة بما يحتويه وما يمثله الكتاب . وهذا المكان قد يصبح منطلقاً لأمكنة متعددة ، فعند تنقلنا مثلاً بين مقصورات قطار يسير ، ندخل من خلال صفحات كتاب أو مجلة أو دليل سياحي عدداً آخر من المدن والمواقع ونجعلها تتفاعل مع ما نرى داخل القطار وما نشاهده من نوافذه .

والكتب تلعب دوراً أساسياً في تعريفنا بالعالم أو تعريفه بنا . « فقراءة كتاب عن اليابان مثلاً تحفزني على زيارتها ، ولكن مطالعة كتاب عن اليابان عندما أكون فيها تجعلني أحدد موقعي وتكشف لي أماكن لم أزرها . بيننا القراءة عنها بعد العودة تسمح بتصورها من جديد . . . إن الكتاب وسيلة للتغلب على الوقت ، وعلى المسافة أيضاً » . (٣٩)

وكما نقرأ الكتب والنقوش واللوحات فإن المدن والمناظر والمواقع الأثرية نقرأ أيضاً ، وميشال بوتور يحب أن « يقرأ ويتذوق » كل مدينة يزورها حتى ولو بدت له

ولكن هل يعني كل ذلك بأن معنى كلمة « رحلة » قد تبدل ؟ أو أنها تنكرت لمعناها التقليدي ؟ على هذين السؤالين يجيب بوتور قائلاً :

« إن معنى هذه قد توسع كثيراً عندي . لقد انطلقت من معنى ضيق أو محدد ولكنه مهم جداً لأننا يجب أن ننتقل منه كي نفهم ما تشعب عنه ، وبعد ذلك ، اعتماداً على هذه التجربة الأساسية وهذا المدلول الأساسي ، نستطيع أن نزيد أشياء عديدة في ميادين دائمة التنوع لكي نلقي عليها أضواء جديدة . ولكن يجب أن نفهم جيداً بأنه معنى تشعب منه مدلولات أخرى (٣٥) .



ثانياً - الشبكات الارتحالية

لنناقش مع بوتور هذا المفهوم الأساسي للرحلة كعملية ذهاب وإياب ونحن نلقي نظرة عابرة على مظاهرها المختلفة .

نجد على الفور بأن « تنقلات بشرية عديدة هي ذهاب دون عودة » (٣٦) فيتبادر لنا بالتالي أنه علينا القيام بدراسة أعمق . وذلك ما يدعو الكاتب لاقتراح علم جديد يضاف إلى سائر العلوم : « الارتحالية أو علم تنقلات البشر » (٣٧)

ولكن قبل أن ننطلق في مختلف الدروس المتفرعة عن المعنى الأساسي للكلمة ، لنعد قليلاً إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الرحلة من جهة والقراءة والكتابة من جهة أخرى . أو كما يعرف بوتور هاتين الأخيرتين : « معرفتنا بالواقع وتأثيرنا فيه » .

Repertoire IV, p. 13

(٣٥) هذا ما صرح به الكاتب في مقابلة أجريتها معه في منزله في مدينة نيس ١٣ آب / أغسطس ١٩٨٣ .

(٣٦)

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٢

Repertoire III, p. 403

(٣٨) نفس المصدر والصفحة

(٣٩)

والسريرة المجنحة لا تقتصر فقط على « مواد الأحلام » ، بل تنطلق طائفة في أغلب كتب بوتور ، فنرى بطل « التعديل » يقوم « بصيد روحي » ونجد أحمد في « مرور الخفاف » يضع يديه السمرائين على الطاولة ويتوه في بحيرات وصحارى وتضاريس رسمها البخار في سقف غرفته » . (٤٢)

ج - الرحلة ككتابة : إذا كان « النص الضخم والغريب » الذي تشكله مدينة أو موقع أثرى يتطلب من الرحالة نفاذ بصيرة وموهبة في الفهم والتألف معه ، فهو ينتظر بالأحرى أن « يترجم » إلى لغة أخرى ، لغة الكاتب ، وأن تعاد صياغته بلغة الأدب .

هذه الترجمة للمدن - النصوص يقوم بها بوتور وأبطاله بوسائل متنوعة فهو يكتب عن مكان « في مكان آخر ولأجل أماكن أخرى » .

والكتابة عنده تنطلق من الملموس والمعاش والمقروء لكي تؤدي مهمة التأثير على العالم واللغة والانسان .

« لقد أيقنت ، نعم ، لقد أيقنت بأن مصير العالم يرتبط ، بنسبة زهيدة طبعاً ، ولكنه يرتبط بما أكتب ، وعندما أكون في أعماق منفى كتابتي ، فإنني ، أعترف بذلك ، ما زلت أوقن بهذا الارتباط » . (٤٤)

إن الكاتب يحكم على نفسه بالنفي ويهاجر في أقطار كتابته المجهولة لكي يسهم في تحسين مستقبل العالم ، ولكن الكتابة تبدو أحياناً أخرى وكأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من وضع مكبل أو من مكان خانق ، وهي

أحياناً « كنص غريب » يجد صعوبة في التعامل والتألف معه . وبالنسبة له فإن الرحلة هي قراءة وتعلم واكتساب أشياء جديدة ينقلها لقرائه ، يعلمها لهم بوساطة الكتابة .

ب - السريرة المجنحة القراءة هي إحدى وسائل معرفة الواقع . ولكن هذا الواقع لا يشمل فقط كائنات وأشياء موجودة أو معروفة في الحاضر أو الماضي ، بل أيضاً ما هو فينا ، في داخل كل منا : مشاعر وأحاسيس ونزوات وانفعالات . . . وخيال وأحلام .

وفي أكثر من مكان نرى بوتور يشدد على أنه « لا يمكن وجود واقعية حقيقية إذا لم نعتبر أن الخيال جزء من الواقع وأننا نرى حيزاً كبيراً من الواقع من خلاله » . (٤١) وهو يؤكد من جهة أخرى بأن « الحلم هو عنصر أساسي من الواقع الشمولي ، من العالم في إطاره الكامل الذي لا تشكل المشاهد التي تراها أعيننا سوى جزء ، سوى برعم منه » . (٤١)

هكذا نرى الكاتب ينقب في سلسلة « مادة الأحلام » وبوساطة تعاقب - أو تشابك - من قراءات استكشافية ومن أحلام متنقلة ، عن مظاهر وعناصر وأماكن تتراوح ما بين نقطة دم بشرية وبين « كوينسي أي مدينة السماء » .

إن الحلم يشكل جزءاً لا يتجزأ من وجودنا ، من معرفتنا للواقع وتأثيرنا فيه ، وهو يتيح لنا زيارة بقاع قريبة أو بعيدة ، ويهيء مع الخيال « رحلة في متناول الجميع : الرحلة الساكنة » (٤٢)

Repertoire II, p. 299

Troisième dessous, p. 247

Raymond Christinger. Le Voyage dans l'imaginaire, p. 276

Passage de Milan, p. 70

Intervalle, p. 157.

(٤١)

(٤١)

(٤٢)

(٤٣)

(٤٤)

« ينشئها معول الباحثين » الذين يأتي بوتور في طليعتهم .

هذا الكاتب يقدم نفسه أكثر من مرة على أنه « مسوق للثقافة الفرنسية »^(٤٦) ولكن أعماله تظهر لنا بوضوح أنه يتجول بين ثقافات أخرى ، عديدة ومتنوعة ، ويأخذ بنشد الاطلاع عليها جميعا وقراءة كل منها داخل ، ومع ، ولأجل الأخريات ، ثم التوصل لدمجها جميعا في ثقافة شاملة يستطيع كل الناس قراءتها والتفاعل معها . و « تقديمها بعد ذلك لكل الاخوة السارقين »^(٤٧) سارقي المعرفة ومروجي هذه الطريقة الجديدة في القراءة والكتابة ، ولكنه لا ينسى أن يذكر هؤلاء بأن « التعديل الذي يحصل في قراءة نص هو تنقل داخل العالم وتفاعل لأجزاء العالم فيما بينها ، وذلك ما يعطي رؤية جديدة عنه ورؤية جديدة عن الكاتب والقارئ وسبب بالتالي لفعل جديد . هذا الفعل قد يكون ضعيفا جدا في البداية ، وكثيرون يودون رؤية النتيجة المباشرة لما يقومون به . إنما ليس ذلك بالأمر الأساسي » .^(٤٨)

هـ - الرحلة ومفهوم الذهاب والاياب : حركة توجهها صفحات كتاب أو ألوان لوحة أو نقوش جدار ، انطلاق في متاحف حلم أو شروع في كتابة نص ، تبقى الرحلة قبل ذلك كله انتقالا جسديا من مكان لآخر ، ولكنه انتقال محدد تقليديا كما سبق وذكرنا بعملية ذهاب وإياب . وهنا يرى بوتور بأن هذا المفهوم قاصر عن تعريف الرحلة ويقترح إيجاد علم جديد - علم الرحلات Iterologie يقوم بدراسة هذا المجال بطريقة أكثر منهجية . وهو يضع في مقاله « الرحلة والكتابة » الأسس المبدئية لهذا العلم .

تشكل في أحيان كثيرة طريق الخلاص التي تنقذ الكاتب - الرحالة من متاحف عديدة .

وامتلاك لغة خاصة للتخاطب هو الوسيلة الضرورية للاستكشاف وللبعد بإعادة تنظيم الواقع . وهذا العمود الفقري ينمو ويصلب خلال عملية الاستكشاف التي تتعمق بدورها كلما اغتنت اللغة وتطورت .

كم من سعادة ومعرفة نبليها إذا ما توصلنا ذات يوم لامتلاك « كامل امبراطورية اللغة » ، للعودة بالأحرى إلى تلك اللجنة المفقودة ، إلى بابل حيث كل الناس يتفاهمون ببسر وسهولة ، عندها « يستطيع كل منا أن يتنزه داخل هذه الامبراطورية المضيئة ، وعندما تصبح امبراطورية الكلمات مضيئة فإن الحقيقة كلها تصبح مضيئة ، والتاريخ كله يصبح مضيئا ، وعندها فقط نعرف ماذا نريد » .^(٤٩)

يجب أن يتولد عن كل كتابة تكشف وجهها أو مظهرها للواقع دون أن تنسخ هذا الواقع . والكتابة ، بما هي من فعل واستكشاف ، عليها أن تهتم ليس فقط بالواقع بل بما ينقصه ، بما يرغب به . والفعل هنا هو إعطاء رؤية أو أكثر لعالم شاسع ومتحرك ، لا حدود للبحث والتنقيب فيه ، يأتي خلاله كل رحالة ، كل كاتب ، بعناصر جديدة يجمعها من مشاعره وآرائه وثقافته وتنقلاته ويعرضها في لغة هي في نفس الوقت خاصة وعامة ، مفردة وجماعية .

د - مروج الثقافات الرحلة هي قراءة وكتابة ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك استكشاف للوضع والمشاكل والقضايا المعاصرة من جهة ، وللكنوز الثقافية والتاريخية التي

Georges Charbonnier, Entretiens, p. 27

Jean-Marie le Sidaner, Michel Butor, voyageur a la roue, p. 59

Le Matin. op. cit.

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٦١

(٤٨)

لوسيان ، تاه بين بساتين الشمال حيث كان الأغنياء يتسلون بتقليم شجيراتهم ، تاه في حدائق المدينة المزدهجة بجمهور صاخب ، ووصل تائها إلى حديقتي الشمال المليئتين بالنيام » . (٥٢)

البعض يحن إلى التشرد ، ولكن الآخر يعيشه قسرا ، تلك حال شعوب عديدة تنتقل مطاردة أو مفتشة عن الماء والكأ والطرائد ، وتلك مثلا حال بدائيي أستراليا في « السهم المرتد » Boomerang والهنود الحمر في « أي مكان » و « المتحرك » Mobile . . . وتلك إلى حد ما حال ميشال بوتور ذاته ، الدائم التشرد ، أو كما يعرف نفسه « اللايهودي التائه » ، أي العابر دائما دون التفتيش عن أرض موعودة ، العابر مفتشا عن عالم أفضل .



١ - تنقلات ذات حد معين واحد

قد يتوقف البدو بسبب عائق طبيعي أو سياسي ، أو « قد يغدو نسيجهم الثقافي متينا وقويا لدرجة تجعل من الضروري الحفاظ على بعض المعالم وصيانة القبور بشكل أفضل . عندها يحصل الاستقرار : بعد التشرد الطويل تتوقف المسيرة في مكان ما » (٥٣) .

هذا المجتمع المستقر والمتمدن يوقف بداوته جغرافيا ويشيد البيوت والأسوار ويرسم حدودا لمنطقته ، ولكن الكثيرين من أفرادهم يتمنون ويحاولون أن يعبروا الحدود . ومع علمنا بان الابتعاد عن الأسوار أو تجاوز الحدود كان خلال أزمان طويلة مغامرة ومخاطرة كبرى ، فذلك لا ينفي أن أو ليس واينياس والسندباد كانوا وما يزالون ناذج نجبها ونحلم بتقليدها .

انطلاقا من هذا المقال (٤٩) ، سنحاول أن نعرض المظاهر المتنوعة للرحلة كانتقال جسدي في مسافة ما ، وأن نتوسع فيها ونزيد عليها بعض الاقتراحات .

نستطيع تمييز أربعة أنواع من الرحلات :

١ - تنقلات غير محددة الانطلاق والوصول : التشرد والبداءة .

« لا يأتون من مكان محدد ، ولا يقصدون مكانا محدد » (٥٠) تلك هي حال الشعوب الدائمة الارتحال بحثا عن حيوانات تصطادها أو عن مراعي لماشيتها . من الصحيح أن بعض الأمكنة التي تمر بها هذه الشعوب تأخذ نوعا من الألفة أو حتى من القدسية ، ولكن ذلك لا يغير من وضعها العام . وقد يضع الموت حدا لمسيرة بعض الأشخاص الذين يدفنون في المكان الذي قضوا فيه ، دون أن يوقف لك بداءة القبيلة .

والبداءة مرحلة بها كل الحضارات وكل الشعوب ، وما زالت تشكل إحدى الأساطير التي نحتفظ بها في تفكيرنا ونحاول إحياءها في كثير من تصرفاتنا ، « هذا ما يجعل كلا منا يشعر في قرارة نفسه بحنين إلى التشرد » (٥١) وما يجعل « مجتمعاتنا تحلم ببداوة جديدة » وأغلب أفرادها يحلمون بحالة عبور متواصلة .

هذا الحنين للتشرد ، هذه الرغبة في الذهاب إلى مكان غير محدد يظهران كما قلنا من خلال بعض تصرفاتنا وخاصة في أوقات القلق والارهاق . يمثل هذه الحالة بطل قصة « استعمال الوقت » L'Emploideu temps الذي « تاه محروما حتى من صحبة صديقة

Repertoire IV, p.p. 9-33

(٤٩)

(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٤

Resistances, p. 117

(٥١)

L'Emploi du temps, p. 128

(٥٢)

Repertoire IV, p. 15

(٥٣)

ترتسم بوضوح من أول قصة كتبها ميشال بوتور « (٥٧) » .

يسترد الوطن السليب ويعود المخرج أو المنفي إلى بيته بعد غياب قسرى عاش خلاله غربة وحنينا . وهذه العودة قد لا تيسر إلا للأولاد أو الأحفاد ، « للجيل الثالث الذي يعيد برجوعه إلى وطنه الأصلي وصل تلك الروابط التي قطعت أو وهنت . عندها يرتحل في تاريخ أجداده » (٥٨)



تنقلات ذات حدين معينين

هنا تكون نقطتنا الانطلاق والوصول محددين « نترك مكانا محددًا قاصدين مكانا هو الآخر محدد » (٥٩) . ونقطة الوصول هذه لها في الغالب جاذبية معينة ، فهي مرغوبة ومختارة بناء لخصائص تمتاز بها .

أ - تغيير السكن الشخص الذي ينتقل من منزل لآخر يكون قد زار المنزل الجديد وتعرف إليه وتفحصه « لقد اختاره وقرر أن ينقل إليه كل أثاثه ، متخليًا بإرادته عن منزله القديم » (٦٠) وهذا الانتقال يتم في الغالب داخل مدينة واحدة أو بلد واحد .

وتغيير المسكن هو انتقال ذو فترة قصيرة . إنما خلال هذه الفترة « مظاهر عديدة للأشياء نائمة ومنسية منذ زمن طويل تستيقظ فجأة : وزنها ، حجمها ، قابليتها للكسر ، تنظيمها الداخلي ، طريقة نقلها » . والمظهر الأكثر إثارة للدهشة في هذه الأشياء هو بداوتها التي تحفيها وجهة الاستعمال الوحيدة التي اعتدنا عليها ، الاستعمال الثابت .

وهي عكس الاستقرار تماما : « فقد يحصل أن يطرد شعب مستقر من أرضه على أثر غزو أو كارثة طبيعية . يحمل أفراد هذا الشعب معهم ما يستطيعون من ممتلكاتهم ويرحلون مع بقية أمل بالعودة إلى ديارهم هنا يبدأ حنين قوى بالنمو . ولكنهم يفتشون عن استقرار آخر » (٥٤)

نجد مثالا على ذلك في كتب بوتور بعض قبائل الهنود الحمر التي كانت قد وصلت إلى مرحلة التمدين والتي اقتلعها المهاجرون الأوروبيون من أماكنها وأجبروها على الارتداد غربا . بعد ذلك تجدد خروج هذه القبائل ولكن من بقي منها مازال يحتفظ حتى اليوم بنحاسه وبأعياده القديمة .

« طالما إن امكانية العودة لم تنعدم ، وطالما أن اللغة المفقودة ما تزال تعول في مكان ما ، فذلك هو المنفي . وهو ، مع كل عذابة وآلامه ، أحد الظروف المثلى للابداع الشعري : صيانة تلك اللغة وتجديدها وترطيبها » (٥٥) .

المنفي الذي يمكن أن يعيشه شعب أو مجموعة أو فرد ، يهيئ إذن ، بالرغم من كل الحنين الذي يولده في النفس - وقد يكون بسبب هذا الحنين الذي يعذب المنفي - وضعًا نكون فيه في مكانين معا وفي زمنين أيضا ، ويجعلنا « ننتقل من عمق تاريخي إلى عمق آخر » (٥٦) مولدا بالتالي لغة جديدة وإنسانا جديدا .

« إن فكرة المنفي الذي يفتش عن الهته الخاصة

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٦

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٧

(٥٦)

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٦

(٦٠)

Repertoire III, p. 64

Jennifer Waltei-Walters, Colloque de Cerisy: Butor, p. 59

Repertoire IV, p. 19

Resistances, p. 116

ب - الهجرة : مكان المغادرة محدد ونعرف تماما إلى أين نذهب ، ولكننا لا نعلم بعد أين سنسكن بالتحديد . « لقد تلاً أفق بعيد أمام عيني المهاجر ببريق الدورادو » (٦١) فحزم أمتعته وسلك طريقه .

« ومعنى أن يهاجر الانسان أنه طرد ، بقسوة أو بلطف ، أي أن البلد الذي افترضه وطنه قد نخل عنده إلى حد ما ، ومهما بلغ الحنين إليه ، فلن يستطيع المهاجر ايجاده كاملا . إنه يرغب باكتشاف وطن آخر ، يرغب أن يكون وطنه الأصلي هذا الوطن الآخر » (٦٢)

وطن لا يسترد كلية ، ولا يفقد تماما ، والمنزل القديم يسكن الفكر والقلب ، يشحن الشعور بالنفي ويغذي الحنين .



تنقلات ذات حد مزدوج

نسافر ونكون قد قررنا مسبقا العودة إلى الديار بعد مسيرة محددة تقريبا . « نقطة الوصول تتطابق هنا مع نقطة الانطلاق . » (٦٣)

أ - رحلة العمل وهي النموذج التام للرحلة المستقيمة ، أي « تلك التي يتطابق فيها الاياب مع الذهاب » خلال هذه الرحلة لا يهتم المسافر بالطريق الذي يسلكه وبما يقع على جانبيه ، لأن المهم هو العمل الذي يسافر من أجله والقضايا التي ينبغي إنجازها . تلك مثلا كانت حال ليون دلمون ، بطل قصة التعديل ، قبل لقاءه مع سيسيل التي أعطت لطريقه معنى وجعلته يربط بين حبه لها ، بين صورتها وذكراياتها ، وبين كثير من المناظر والمعالم . قبل ذلك كان يمضي ساعات

رحلاته الدائمة بين باريس وروما متصفحاً كتاباً أو مخططاً لما يجب أن يقوم به من عمل أو نائماً ، دون أن يعير أدنى اهتمام للمناطق أو المناظر التي يجتازها القطار . وحتى وجوده في روما كان مقتصر على تنقلات رتيبة بين محطة القطار والفندق والشركة التي هو وكيلها في باريس . (٦٤)

ب - السياحة من الممكن أحيانا أن تتحول رحلة العمل إلى نوع من العطلة فقد يستغل المسافر المناسبة لكي « يهرب » من عمله الأصلي ويعيش لحظات هجرة أو تشرّد أو قراءة للطبيعة والآثار .

ولكننا كثيرا ما نترك دارنا بهدف محدد ، هو السياحة ، نكثر من المحطات في طريقنا لكي نستمتع بسحر أكثر من منطقة . وقد نغير الطريق خلال العودة ليتسنى لنا رؤية عدد أكبر من الأماكن . خلال رحلة كهذه الأخيرة - التي نستطيع تسميتها « دائرية » - نزيد عدد نقاط الانطلاق ونقاط الوصول ونتجول بينها مستعينين ببعض المعالم » . (٦٥)

بعد العودة من سياحة ما ، يبدأ كل مكان قام السائح بزيارته يشغل مكان معين من قلبه ، ويبدأ السائح بالتعلق بكثير من الأماكن لدرجة أن يتولد لديه حنين متعدد لمناطق أقام فيها ولو لمدة قصيرة .

إنما ليس كل مكان قادرا على إعطاء المعلومات وتقديم الغذاء النفسي اللذين يحلم بهما السائح . عندها تجد نفسك في غربة مزعجة لا تحب منها سوى بعض المشاهدات والمعلومات عن عادات وتقاليد مختلفة عما في بلدك .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٤

(٦٢)

(٦٣)

(٦٤)

(٦٥) نفس المصدر ، ص ١٨

و « كلام اللحظة التاريخية » يقودنا الى ما يمكن تسميته باللحظة المكانية ونعني بها التقلبات أو التموجات التي نلاحظها في منظر ما خلال مشاهدة واحدة . وهذه اللحظة المكانية « ليست غائبة عن أعمالابوتور الذي يرى في لوحات هوكوساي لجبل فوجي « دعوة لرحلة يعرض الجبل المقدس في كل محطة منها شيئا جديدا ومختلفا »^(٧٠)

أما الأماكن التي تتكلم ، فقد تكون مدنا أو مواقع أثرية ولكنها قد تكون أيضا مناطق موسيقية أو فنية أو أدبية . ومن هذا المفهوم الأخير أطلق بوترور على نفسه اسم « الحاج الأدبي المشغوف » Lepelerin litteraire passionné وينظر الحاج فإن المكان الذي يزوره يخبره عن تاريخه وعن العلاقات التي يقيمها مع باقي العالم ويجعله يعيش حالة من التواصل التاريخي والجغرافي .

« عندما أقول عن منظر بأنه شاعري ، فذلك يعني أنني أجد نفسي محمولا به ، وهذه البيوت التي أراها ، أو هذه الأمواج التي أتجاوزها ، تجبرني هي على تركها ، تعرض أمامي كل أنواع الشواطئ الأخرى . يحتوي هذا المكان على عدد لا يحصى من الأماكن الأخرى ، ولا يبقى كما هو ، لا يقفل على ذاته ، بل يصبح مركز انطلاق في رحلة . كما أن وصفه يضحي هو الآخر أساسا لرحلة طويلة في التاريخ والفكر »^(٧١)

هـ - الاستكشاف : غضي لاكتشاف مكان مجهول أو غير معروف جيدا ، متعرضين لمجازفات ومخاطر نذهب الى الجهة الأخرى من الأفق ، الطبيعي أو العقلي . نوسعه^(٧٢)

ج - الفسحة : تغادر منزلك دون أن تنوي الابتعاد عنه كثيرا . ما تشده هو التنزه أو التجوال ، أي أن تروح عن نفسك في محيط منزلك أو في شوارع مدينتك . ولكن هذا التطواف قد يتحول أحيانا الى نوع من التشرذ أو الضياع ، كما حصل لجاك ريفل - بطل قصة « استعمال الوقت » - عندما وجد نفسه تائها في شوارع مدينته التي تحولت الى متاهة لم يستطع إيجاد وجهته فيها ثم التخلص منها الا بعد جهود مضنية .

د - الحج : « المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو الرحلة الى مكان مقدس أو زيارة قبر مقدس أو مكان ظهور عجائبي . يجلب الحاج معه تسلاولا ويأمل بجواب عليه ، بشفاء للروح وللجسد . . . ثم أصبحت تعني زيارة الأماكن التي تتكلم ، التي نتحدثنا عن تاريخنا وعن أنفسنا »^(٦٦) .

الحج يقتضي اذن ذهابا وعودة . وسواء زرنا « وصلة بين السماء والأرض كما هي حال مكة والقدس وروما »^(٦٧) أو بين ماضينا وحاضرنا أو بين حضارات مختلفة ، فإننا ننوي منذ الانطلاق العودة بعد أن نكون قد تشبعنا بتأثير المكان المنشود .

ان المعنى الشائع لهذه الكلمة « رحلة افرادية أو جماعية الى مكان مقدس لأسباب دينية وبنية التقوى »^(٦٨) - توسع كثيرا عند بوترور كما رأينا ، وأصبحت تشمل زيارة كل مكان يتكلم ، « كل مكان يأتيينا بأقوال لحظة تاريخية أساسية تتميز من بين عصور أكثر غموضا وأشد ظلاما »^(٦٩) .

Repertoire III, p. 29

Selon le Robert, dictionnaire de la langue française, volume V

Repertoire IV, p. 19

Repertoire III, p. 164

Repertoire II, p. 9

Repertoire IV, p. 20

(٦٦) نفس المصدر ، ص ١٩

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

(٧١)

(٧٢)

وسواء كانت تهدف لاكتشاف مناطق مجهولة من عالمنا أو تاريخنا أو جسدنا أو بعض كواكب الكون الأخرى ، فإن كل أشكال الاستكشاف تسحر بوتور الذي لا يكف عن الكلام عنها في مجمل أعماله آملا أن تتوصل مدن أخرى مثل روما لاكتشاف بلاد جديدة مثل أميركا وأن يكون هو أحد رواد العصور القادمة .

فالرواد ليسوا بالضرورة من يسعون لاكتشاف مناطق طبيعية فقط ، بل هناك من ينقب في مجالات قريبة ، « من يرى بلدانا مجهولة تظهر من بين غبار العصور الغابرة »^(٧٣) ومن يقوم « ببعثات نحو مطالعات لم تعرف بعد »^(٧٤) و « من يخرون محيطات الأعمار »^(٧٥) ومن يبتدعون « نبلا من ألحان لا تنضب »^(٧٦) .

ولكن هذه الجولات والبعثات التي تتكلم أحيانا عن جيمس كوك أو عن كريستوفر كولومبوس وماجلان ورواد آخرين في مناطق جغرافية أو فكرية ، تصبح أحيانا متواضعة لدرجة أنها لا تهدف الا التفتيش عن غرفة للسكن (استعمال الوقت) ، زيارة حي من مدينة معروفة (التعديل) ، الغوص في عيني حبيب (وصف الفنان كقردي في : l'artiste en jeune singe por- trait de أو تأمل ملامح وجهه لاستطلاع تعابيريه استعمال الوقت) .

في كل مكان وداخل كل انسان هناك مناطق مجهولة لا تحصى . والاستكشاف لا ينتهي .



الرحلات العمودية : الانتقال في المكان ملازم دائما لانتقال في الزمان ، وكل زيارة لمكان ما تصب في تعرف على ماضيه وتفهم لحاضره واستشفاف لمستقبله . يضاف الى هذه الأبعاد الثلاثة نسج شبكات عديدة من الاتصال بين هذا المكان وأماكن أخرى قريبة أو بعيدة من الناحيتين ، الجغرافية والتاريخية .

وعملية استكشاف مكان ما تضيف بعدا آخر هو « بعد العمق » ، اذ أن الرحالة يسعى للتنقيب عن أكبر عدد من طبقات هذا المكان ، فيهبط فيه أو يصعد راسها أو متابعا طرقا مروجية أو سلمية أو لولبية .

أ - الرحلات الارتقائية : « يتميز هذا النمط بتوسع تدريجي للأفق أو لأسلوب البحث . من نقطة الوصول نعيد تحديد نقطة الانطلاق »^(٧٧)

وتوسيع الأفق يتأتى عن دراسة كل مكونات المكان المقصود ، أو حسب قول بوتور عن « استنطاق هذه الهضاب المختلفة والمسكونة ، استنطاق التضاريس والحيوانات والطيور ، تفصيل المكان ومحيطه »^(٧٨) ثم اعطاء عدة « نظرات » عنه والتوصل أخيرا « لتفتيحه ثقافيا على كل ما هو غريب عنه ، خارجه أو حتى داخل حدوده »^(٧٩) .

ولكن هذا الاتجاه الارتقائي يجب أن يرافقه باتجاه معاكس : الغوص الى الأسفل .

ب - الرحلات الهبوطية : وفيها يضيق الأفق تدريجيا وبصورة مؤقتة لكون الرحالة يمر في مهاو وكهوف قبل أن

Repretoire III, p. 22

Ibidem, p. 219

Matiere de reves, p. 131

Second sous-sol, p. 25

Repertoire IV, p. 24

Ou, p. 30

Andre Helbo, Michel Butor, vers une litterature du signe, p. 14

(٧٣)

(٧٤)

(٧٥)

(٧٦)

(٧٧)

(٧٨)

(٧٩)

تتكلم عنها ، الافلام التي تعرضها ، الذكريات التي أحتفظ بها ، والقصص التي تجعلني أتعرف عليها . (٨٢)

نعيش اذن في مدتنا نوعا من تعددية المكان ، ولكن ذلك ما يحدث أيضا ، ولو على نطاق أضيق ، في منازلنا وفي غرفتنا الخاصة من خلال التلفزيون والمذياع والمطالعات .

ولكن هذه التعددية ما زالت جزئية وغير كافية . ويبقى علينا اجتياز مسافة طويلة للوصول الى تلاق أعمق وأشمل . وما نشاهده أماننا عن الغير يحفزنا على الانطلاق والتعرف عن قرب . ما نراه هو أصوات تنادينا وتدعونا الى الزيارة والاكتشاف والتلاقي .



لقد حاول بوتور ، كما رأينا ، أن يبين « كثرة مظاهر هذه الحركة الأساسية للجنس البشري ، التي يقع بداخلها الاستقرار الذي نعرفه » (٨٣) حاول ولم يزل لكونه مقتنعا بأن الحركة معادلة للفعل ، للتطور ، للحياة ، فالتوقف عنها يعني الموت ، و « الانسان رحالة بجوهره ، بطبعه . وقبوله بالرحلة هو قبول لقدره . أما امتناعه عن سلوك الطريق فانه يعني الاستسلام لأن الجمود لا يحمل أي مظهر إيجابي » . (٨٤)

ولقد وضع هذا الكاتب أسسا « للرحلاتية » كعلم جديد دون أن يخفي رغبته في رؤية كثيرين غيره يمتنون هذه الأسس ويرفعون فوقها البناء .

إنها بذور تنتظر جهد العاملين ومعاول المنقبين وبعثات المستكشفين .



يصعد مرة أخرى ويبلغ الجهة المقابلة من الأفق . « هي اذن عملية ارتقاء معكوسة وعاكسة تحدد فيها نقطة الوصول نقطة الانطلاق بعد أن تحدث فيها انقلابا ، بعد أن تجبرها على الاعتراف » . (٨٥)

أما المهاوي والكهوف فهي الشقوق والسراديب التي تفتح أمام أبطال « استعمال الوقت » و « التعديل » و « وصف الفنان كقرود شاب » ، وهي عمليات البحث والتنقيب و « الصيد الروحي » التي يقومون بها ، وهي النباتات والحيوانات والمعادن التي نجدها بكثرة وتنوع في أغلب كتب بوتور .



تعددية المكان : يعبر ميشال بوتور في إحدى مقابلاته عن رغبته الشديدة في « تكاثر المكان ، في تخلص المكان من نواقصه » . ثم يضيف : « لقد تمنيت دائما أن أكون في مكان آخر ، في مكانين في آن واحد ، أتمنى أن أكون في كل الأماكن في نفس الوقت » . (٨٦)

هذه الرغبة التي تبدو طوباوية للوهلة الأولى تحققت الى حد ما . فالتقدم العلمي والتقني ووسائل الاعلام والاتصال فتحت نوعا ما المسافة التي نعيش فيها وأدخلت اليها عددا كبيرا من أماكن أخرى بعيدة وقريبة . فلقد غدا اليوم كل مكان مركزا لأماكن عديدة ونقطة تقاطع لكثير من الدروب التي تمر في مناطق أخرى .

« يوجد في مدينتي كثير من المدن الأخرى تدخلها بوسائل متنوعة : لوحات الاعلانات ، كتب الجغرافيا ، الأشياء التي تستورد منها ، الجرائد التي

Repertoire IV, p. 24

J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 68

Repertoire II, p. 49

Le Matin, 17 avril 1979

Raymond Christinger, op. cit. p. 93

(٨٠)

(٨١)

(٨٢)

(٨٣)

(٨٤)

من ملتقى الحضارات الى الولادة الثانية

« لقد هربت .

كان عليّ أن أهرب .

في كل لحظة أمضيها هنا .

يقول لي المنظر : كان عليك أن تهرب »

« في أي مكان » ص ٣٨٥ .

١ - الهروب : تعرفنا كتب ميشال بوتور على مناطق جغرافية متباعدة ومتنوعة . وبين هذه المناطق الطبيعية يتحرك الكاتب أو أبطاله مدفوعين بعوامل عديدة وآملين الوصول إلى أهداف مختلفة ، ولكنهم . في كل رحلة يقومون بها ، يخضعون المكان الذي يزورونه لسلسلة من الأبحاث والدراسات تنتهي بكشف كثير من خواصه ومن علاقاته بالأماكن الأخرى .

هذه الرحلة المتواصلة التي شكلت باريس نقطة انطلاقها الأولى وما زالت تشكل محطتها الأساسية ، تعاضمت وتشعبت لكي تبلغ كولومبيا البريطانية والبرازيل واليابان وسنغافورة والبيرو وأستراليا ، وما فتئت تتوسع واعدة ببلدان ومناطق جديدة .

وإذا ما تتبعنا هذه الرحلة من بدايتها نجد بأن أبطال بوتورهم الذين بدأوها ، بمعنى أن القصص الثلاث الأولى^(٨٥) تعرض شخصيات مختلفة أدركت أنها تعيش في عيط خائق فانطلقت تدرس محيطها وتحاول تبين مشاكله وخلفياته ومعرفة القوانين التي تتحكم بحياتها ، ثم تخرج من هذا الإطار الضيق لكي تتابع البحث في البلدان القريبة منها جغرافيا وتاريخيا وثقافيا .

بدأ بوتور كتابة قصته الأولى في مصر حيث كان يدرس اللغة الفرنسية في مدرسة المنيا خلال العام

الدراسي ١٩٥١-١٩٥٢ . ولقد تحدث عن ذلك أكثر من مرة فيما بعد فقال :

« عشت بعيدا عن باريس للمرة الأولى في حياتي ، وهناك شعرت بضرورة تشكيل نوع من نموذج مصغر لباريس . كنت بحاجة لاعادة تشكيل ما كانت عليه حياتي في باريس » . (٨٦)

واعادة التشكيل هذه تتم من خلال بناية سكنية تؤخذ « كعينة عن مجمل المدينة » هذه العينة تبدو كمجموعة طبقات يعيش ساكنوها دوغا اتصال فيما بينهم ودون أن يعرف بعضهم البعض الآخر الا لماما ، لدرجة أنه عندما يتكلم أفراد عائلة ما عن باقي الجيران يشيرون اليهم برقم الطبقة فيقولون مثلا « سكان الثالث » أو الخامس ، الخ . وحتى أفراد العائلة الواحدة يعيشون متباعدين يغرق كل منهم في عالمه الخاص ، فسكان الطبقة الأولى « الهادئون والبسطاء ، كما يبدو ، والذين يعيشون في تفاهم تام ، كما يبدو ، ليسوا في الحقيقة سوى أربعة مستوحدين يزورون بعضهم أحيانا ويلتقون حول مائدة الطعام فقط » (٨٧)

في هذا المحيط الراكد يفقد التخاطب دوره ومضمونه ويصبح الحوار الذي يدور من حين لآخر عبارة عن كلمات جوفاء لا تواصل بينها ولا قيمة لها ، مما يجعل سكان هذا المكان الضيق « يتلاقون ، يتبادلون التحية ، يتجنب بعضهم البعض الآخر ، لا يدرون ماذا يقولون ، يدخل كل منهم منزله ، يتناول طعامه وينام بينما كل شيء يتحرك من حوله » . (٨٨)

هذه العزلة والانطوائية تجعل الحياة رتيبة ومملة ، لا بل انها تحول كل غرفة الى « جحر » وتحيل أغلب

Passage de Milan (1954), L'Emploi du temps (1956), La Modification (1957)

(٨٥)

Magazine litteraire, no. 110, mars 1976 (consacre a Butor)

(٨٦)

Georges Charbonnier. Entretiens. p. 50

(٨٧)

Passage de Milan, p. 44

(٨٨)

عندها نسمع في القصة صوت قطار يمر وكأنه يعلن من جهته بأنه البديل للمترو . على السكان الخروج من تحت الأرض ، عليهم التعرف على العالم .

ونسجل في نفس الوقت مرور طائر الخطاف من فوق المبنى ليعطي الوجه الآخر للانداز : من لا يستجيب للنداء مصيره الشلل والموت .^(٩١)

لقد سبق لبعض السكان أن غادروا المبنى وزاروا بلادا بعيدة حلوا منها لدى عودتهم بعض التحف أو الأشياء التي تجعلهم مختلفين عن جيرانهم ، فعند ساكن الطبقة الوسطى « غرفة واسعة فيها خزائن كتب وخزانتان أخريان مليتان بأقمشة قبطية وبورق البردي ، وفوقهما لوحتان لرسم من القرن السابع عشر تظهر إحداهما قطعة رائعة من الصوان تبين كيف استطاع فلاح الأقصر رغم تقنيته البدائية أن ينقش التماثيل الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة »^(٩٢) هكذا استطاع أحد السكان أن يفتح في منزله نوافذ على العالم من خلال الكتب واللوحات والمصنوعات المحلية لما وراء حدود المبنى . بيننا نجد شخصيات أخرى تعيش حالة اغترابية داخل هذا البناء ، يشدهم حنين قوي إلى وطن يحلمون بالعودة إليه ، وطن جميل ، مشمس ودافئ .

أهم هذه الشخصيات أحد ، المصري الذي يعمل خادما في أحد المنازل والذي يسميه بعض السكان « علاء الدين » . انه اذن من يحمل الفانوس السحري الذي يفتح أبواب الشرق الساحر أمام سجناء المبنى الباريسي . ولكنه يعيش في عزلة خائفة واغترابا اليسا تزيد من حدتها المقارنة الماثلة دائما أمام عينيه بين عالمين : عالم ضيق ، مطر ، عاصف ورطب وعالم كان

السكان الى « حشرات تتململ » ، ويطل تأثيرها السيء الاشياء أيضا .

« هذا الازيز الخفيف والذي يشبه صوت الخفافيش هو صوت سيارة كسولة تمر . . أيها القديسون ، أيها الملائكة ، من منكم قريب مني ليضع يده على أجفاني ، ليهديء هجوم النظرات التي يعود طنينها ليحوم فوق جراحي . . اسهروا علينا أتم يا من تعيشون في النور ، أنتم يا من تسافرون »^(٩٣)

هنا تنطلق الكلمة السحرية من قلب الضياع ، ان ما ينقذ من العزلة والملل والرتابة والعذاب ، ان ما يحمل النور المخلص ويفتح الطريق أمام هؤلاء السجناء ، ما هو سوى الرحلة ، السفر بعيدا .

ولكن من الطبيعي ألا تبدأ الرحلة على الفور ، فما زال الوقت مبكرا .

« في هذه القصة ، يقول بوتور ، ادانة لأسلوب الحياة في مبنى باريسي في الخمسينات ينبغي أولا أن نشخص المرض . . ينبغي أن ندرس هذا المحيط قبل أن ننطلق للقيام بأعمال أخرى . »^(٩٤)

إذا كان معظم الأشخاص والأشياء يتحركون متناقلين في هذا المبنى ، فذلك لا يعني أبدا أنه ثابت ومتماسك ، اذ أن مرور المترو من آن لآخر يجعل كل مافيه يهتز : المصابيح والصور المعلقة على الجدران والطاولات والثريات والمصعد . وكأن الكاتب يريد بذلك أن يقول : انهضوا يا سكان هذا المبنى من سباتكم . غادروه لتطلعوا على غيره والا فانه سينهار عليكم .

Georges Chabonnier. Entretiens. p. 80 et 81

(٨٩) نفس المصدر ، ص ١٢

(٩٠)

Passage de Milan, p. 67

(٩١) طائر الخطاف هو نذير شؤوم ورمز للموت عند المصريين القدماء وعند عدد من الشعوب الأخرى

(٩٢)

وطنه وما زال يسكن قلبه ، عالم الدفء والنور والشمس والقمر والنجوم .

ولكن قصة « ممر الخطاف » تنتهي بسفر مزدوج ، أو بالأحرى بهروب شابين من سكان المبنى ، هروب يجدان نفسيهما مرغمين عليه بعد أن يشتبه بقية السكان بأن أحدهما ارتكب جريمة قتل انجيل ، أجل فتيات هذه البناية ، وهذه الفتاة كانت تتميز بجمال خاص ، مختلف ، فهي « الوحيدة الحقيقية بين تلك الهياكل العظمية المتشحة باصفرار حي مرعب »^(٩٣) ، و « من المؤكد بأن هذه العذراء لها مظهر طائر عظيم يستطيع الانطلاق كالسليق عندما يريد . كما نشعر بأن جسدا آخر يختبئ خلف بياضها ، جسدا داكنا ، مندفعاً يهوي الرقص البدائي »^(٩٤).

جمال غريب كهذا لا يمكنه العيش في المبنى الباريسي لأنه يجسد الشباب والاشعاع والحيوية والمرح في عالم لا يملك الا مكانيات ولا الحق للاستمتاع بهذه الصفات . وهذا العالم المحشو بالبياض يحتاج لكثير من الأبحاث والاكتشافات قبل أن يصبح جسدا حقيقيا ، جسدا أسمر ، خلاصيا ، تنصهر فيه حضارات وشعوب مختلفة . أما « البلد الابيض » فهو حسب قول ميشال بوتور « كل بلد يرفض تعايش الحضارات والشعوب »^(٩٥).

هنا يظهر الهدف الأساسي للرحلة في أعمال ميشال بوتور : التفتيش عن هوية حضارية منفتحة تتيح لحاملها أن يتعرف أكثر على تاريخه من خلال أضواء جديدة تكشف نقاط ووسائل التلاقي بين الشعوب ، وأن

يساهم ببناء مستقبل تزول فيه حدود التفرقة ويكون صورة لبابل ما بعد الطوفان حيث الكل يتعاونون ويتفاهمون .

في قصته الثانية « استعمال الوقت » يصور الكاتب شابا فرنسيا يمضي دورة تدريبية في مدينة بلستون الانكليزية ، التي هي في الواقع مدينة مانشستر . وسرعان ما نكتشف بأن هذه السنة تصبح فترة نفي وضياح وحنين ، والأهم من ذلك كله ، فترة استكشاف للمدينة وللذات في نفس الوقت .

خلال اقامته في هذه المدينة يكتشف جاك ريفل Jac-ques Revel أنه يتحرك عشوائيا داخل متاهة ثلاثية : متاهة في المكان والزمان والذاكرة . فهي متاهة مكانية من حيث تشابه شوارعها وساحاتها وحدائقها يشعر فيها وكأنه « سحيق في فخ أقفلت فتحته ، بين أنياب المنازل التي يرى صريرها ويسمع »^(٩٦) وهي متاهة زمانية لا يميز فيها ساعة من ساعة ولا لحظة من أخرى :

« أحسست وكأني ثابت في مكاني . وكأني لم أصل إلى هذه الساحة ، كأني لم أقطع مسافة طويلة ، كأني اجد نفسي ليس فقط في نفس المكان ، بل وفي نفس اللحظة التي تدوم للأبد والتي لم يكن أي شيء يعلن نهايتها »^(٩٧).

كل ذلك يجعل الزائر المقيم يضيع في متاهة ذاكرته ، فعندما يحاول أن يستعيد فترة إقامته في هذه المدينة ، يقاسي الأمرين قبل التوصل إلى تبين بعض منها :

« من الصعب جدا على أن أحدد في أية لحظة حصلت

(٩٣) نفس المصدر ، ص ١٩٣

(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٧٠

(٩٥)

(٩٦)

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٣٥

إذا نظرنا ببساطة إلى هذه القصة تقول : إنها رحلة في القطار بين باريس وروما يقوم بها رجل في الخامسة والأربعين قرر أن يهجر زوجته وأولاده الثلاثة وأن يخضر عشيقته الإيطالية لتعيش معه في باريس كما اتفقا على ذلك مسبقا .

ولكن دراسة متفحصة للقصة تبين بأنها أشد تعقيدا وأكثر عمقا ، فهي ليست رحلة بين امرأتين أو محاولة لاستعادة الشباب بقدر ما هي رحلة بين مدينتين وتقللا بين عهود وحضارات عديدة .

في المسافة بين باريس وروما يكشف ليون دلون - بطل القصة - شيئا فشيئا بأن تعلقه بعشيقته لم يكن إلا مظهرا من مظاهر شغفه بمدينة روما . وهذا الاكتشاف يتم بعد عملية « صيد فكري » تقوم بها « آله العقلية » من خلال رفاق الطريق والأشياء الموجودة في المقصورة والمناظر التي يشاهدها من النوافذ . هذه العملية تتعمق فنجعله يتذكر أو يتخيل أو يحلم ، في اللحظات التي يغلب فيها النوم ، برحلات أخرى تتشابك وتتداخل لتوصله في النهاية إلى اكتشاف خبايا نفسه ودوافعه الحقيقية .

لقد كان منذ شبابه مشغوبا بروما ، « هذه المدينة التي كنت (١٠٠) تحلم بها منذ سني دراستك الثانوية ومن أولى زيارتك للمتاحف (١٠١) وبعد تلك الفترة ازداد تعلقه بهذه المدينة وأصبح يحيطها بهالة من القدسية حتى أضحت « المدينة الأزلية » و « مركز الأصالة والجمال والحب » و « مدينة الإشعاع والشباب » .

تلك الحادثة الصغيرة التي كانت مدار أحداث عديدة بيننا . . . لدرجة أنه ، في ذاكرتي ، كل تلك الأسابيع التي يرعيني عددها . . . تندغم في واحد فقط ، طويل ، سميك ، كثيف وغامض (٩٨) .

تلك المتاهة المثلثة لم تكن وليدة جهل الزائر للمدينة ، بل هي موجودة في تكوينها وفي جوهرها . فهي « مدينة الدخان والضباب والملل ، مدينة المطر والوحول والرتابة ، مدينة الصدا واللعنة » (٩٩) وهي بذلك صورة عن مدن شمال أوروبا التي يفترض الكاتب بأن معرفتها ودراستها بتعمق شرطان أساسيان قبل انطلاقه إلى بلاد أخرى تكون نقيضا لهذا المحيط الخائئ .

أما الوسيلة التي يستعملها بطل القصة لقهر هذه المدينة ، قهرها بالمعرفة والاستطلاع فهي الكتابة ، وسيلة الانقاذ ورحلة الفهم والفعل . وهكذا نراه يمضي النصف الثاني من سنته التدريبية في استعادة ورواية حياته هناك . بهذه الطريقة يجد نفسه يغوص في أعماق المدينة الغامضة ، يكشف أسرارها ويتبين طريقة للخلاص والاتجاه التالي الذي عليه أن يسلكه لمتابعة البحث وتعميق الاستكشاف . هذا الاتجاه تشير إليه بعض الأفلام الوثائقية التي كان يداوم على مشاهدتها في إحدى دور السينما والتي كانت تعرض مدنا ومواقع أثرية في بقاع مختلفة من العالم . المحطة التالية يجب أن تكون روما .

مدينة روما هي البطل الأساسي للقصة الثالثة - وهي القصة الأكثر شهرة في أعمال ميشال بوتور - « التعديل La Modification » .

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ - ٣٨

(٩٩) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٠٠) نسجل هنا بأن أحد مظاهر التجديد في هذه القصة - التي تنتمي هي وقصص بوتور الأخرى إلى تيار « القصة الحديثة » « Le Nouveau roman » هو استعمال الراوية فيها لضمير المخاطب للتكلم عن نفسه وكأنه بذلك يقوم بمحاكمة ذاتية يبني أن يتوصل من خلالها إلى الإحاطة بحقيقة مشاعره وأفكاره وتصرفاته .

La Modification, p. 228

(١٠١)

كل هذه الصفات التي ألصقها بها ، جعلت من روما نوعاً من الأسطورة التي سيطرت على تفكيره وتحكمت بمشاعره وتصرفاته وعلاقاته لدرجة أنه ، بوعي أو دون وعي ، أخذ يعتبرها تلك الجنة المفقودة التي لا تتحقق السعادة إلا بالعودة إليها .

بعد تفكير وتركيز طويلين تقوده « آلة التفكير » إلى الخلفية الأساسية لتعلقه هذا . إنها رغبة مكبوتة « بالعودة إلى الشرعة الرومانية القديمة ، إلى تنظيم إمبراطوري للعالم حول مدينة مركزية واحدة » (١٠٢) .

عند اكتشافه لهذه الخلفية السلطوية ، يدهش ليون دلون إذ يجد أن مشروعين كأنما قائمين في رأسه قد سقطا معا . فعشيقته فقدت جاذبيتها وروما القديمة فقدت بريقها لأنه لم يعد ممكناً المدينة أن تتحكم بمصير « العالم الذي أصبح أوسع من ذلك بكثير بالنسبة لكل منا والذي يختلف توزيعه عن الماضي » (١٠٣) .

أهمية روما ليست إذن في انغلاقها بل في انفتاحها ، وليست في تعصبها بل في تلاقحها وتفاعلها مع بقية المدن والحضارات . وهذا ما تبينه آثارها ومعالمها التاريخية حيث يدل كثير منها على الحضارة اليونانية أو المصرية أو الآسيوية . فهي ليست إذن « رومانية » صرفة ليست بالتالي المدينة الوحيدة التي تتلاقى فيها عهد وثقافات مختلفة ، فباريس ، على سبيل المثال ، واحدة من تلك المدن الأخرى التي يظهر فيها هذا التلاقي .

هكذا تأخذ مدينة باريس مكاناً مشابهاً لروما التعددية ، وتبدأ معالمها بالظهور تباعاً من متحف اللوفر إلى المسلة المصرية إلى قوسي النصر الروماني والبونابرتي

وكثير غيرها . وهكذا استطاع بوتور الرحالة أن يعود إلى مسقط رأسه بعد دورة مر خلالها في انكلترا وإيطاليا . وهو يتكلم عن هذه العملية فيقول :

في قصة التعديل مدينتان ، ولكن المرور في بلستون هو الذي أتاح لي أن أتكلم عن باريس مجدداً ، يضاف إلى ذلك المرور في هذه المدينة الأخرى - روما - الذي سمح لي ، بعملية معقدة جداً ، أن أضاع باريس في جيبي ، وهكذا استطعت تجاوز التناقض بين أن أكون في مكان أو أن لا أكون فيه » (١٠٤) .

إذا كانت القصتان الأوليان قد شددتا على ضرورة السفر بعيداً ، فإن قصة التعديل تحدد الطريقة الواجب اعتمادها في المكان المقصود .

هذه الطريقة تقضي بدراسة المكان جيداً ، باستكشافه أفقياً وعمودياً ، بإظهار خواصه وخلفياته من خلال كل شارع وأثر وموقع ، وبإيجاد « الممرات الفورية » التي توصل إلى أماكن أخرى ، ثم كتابة كل ذلك ، إدخاله في كتب تجمع حضارات وثقافات مختلفة وتساهم في الحد من تناقضاتنا وبتهيئ التقارب بين الشعوب .

٢ - نقاط الالتقاء ، اللامراكز بعد دراسته للحجم الذي تمثله أسطورة روما في خلفيات تفكيره ، وبعد دراسته لجغرافية هذه المدينة وتاريخها وارتباطها بما حولها ، يتوصل مسافر ميشال بوتور (١٠٥) إلى اكتشاف مذهل حيث يقول :

« وهكذا لتتزع من وجدانكم إحدى أكبر موجات التاريخ ، تلك التي كان للعالم فيها مركز ، ولم يكن ذلك

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٧

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(١٠٤)

Magazine littéraire no. 110, p. 17

(١٠٥) تعني بكلمة « مسافر » هنا كل من يقوم برحلة في أعمال بوتور سواء كان ذلك الشخص الكاتب ذاته أو أية شخصية في كتبه ، إذ أننا نلاحظ استمراراً الرحلة من خلال شخصيات متعددة ومتنوعة .

تجاوز مفهوم المركز ، نجلده يتوجه إلى « لا مراكز » ، أي إلى أماكن كانت تدور في فلك معين ولكنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالية معينة وأن تشكل نقاط إشعاع فكري وحضاري :

« مانطوفا Mantova هي إحدى الأماكن ، خارج روما ، حيث يظهر بكل وضوح مدى الهاجس الروماني ، أي هذا النوع من اليأس الذي غلك أوروبا في لحظة بدأت تشعر بسبب سقوط القسطنطينية واكتشاف أميركا ، بأن صورة الامبراطورية كوحدة للعالم أخذت تهتز نهائياً » (١٠٨).

عناصر جديدة ، فرضت نفسها إذن ، ومنذ مدة طويلة ، على الفكر الأوروبي ، فتركت تأثيرها عليه وشقيقته قبل أن توقظه من سبات طويل كانت تهدده فيه أحلام الوحدة واللحمة . وهذه العناصر تدعوه للتفتيش عن غيرها بين أطلال هذه اللامراكز :

يوجد في حضارة وفكر فيراري Ferrare شيء ما لم يكتشف بعد واتجاه مختلف ذو تناغم تام مع بعض حاجتنا ، كما لو أن هذا النور الساطع الذي خفت مدة طويلة قبل أن يظهر لنا من جديد ، يدعونا للاستعانة به كي نتقدم » (١٠٩).

هذا النور الكامن في آثار فيراري كما في مدن أخرى كثيرة ، يمثل القوة الدافعة والمشجعة للمسافر كي يتقدم بخطى ثابتة ليس فقط نحو اكتشاف خبايا الماضي ، بل نحو المستقبل أيضا ، إذن أن معرفة الماضي لا معنى لها إذا لم يكن مصبها في بناء مستقبلي أفضل .

هذه النار التي ينشدها المسافر دفئا وصحة ومعرفة إذ يقول : « كنت بحاجة لتغيير الهواء وللاستمتاع

المركز الأرض في وسط دوائر بطليموس فقط ، بل روما في وسط العالم . فأنتم تلاحظون بأن هذا المركز انتقل بعد انهيار روما إلى القسطنطينية ثم إلى أماكن أخرى . . . »

ومع كل التأثير الذي مارسه على كل الأحلام الأوروبية ، فإن ذكرى الامبراطورية لكل منا أوسع بكثير وموزعا بشكل مختلف عما عهدناه » (١٠٦).

انطلاقا من هذه اليقظة الفكرية يحزم المسافر حقائبه ويسيرا موءودا بعقلية منفتحة تخلصت إلى حد كبير من وهم الامبراطورية الرومانية المقدسة . ينطلق إلى الجوار الجغرافي والثقافي ليتفحص مناطق تقع في حوض البحر المتوسط ، ويكتب نتاج استكشافاته في الجزء الأول من « عبقرية المكان » :

لقد أيقن خلال رحلته إلى روما أن هذه المدينة المتعددة الوجوه وثيقة الصلة بحضارات مجاورة عليه دراسة آثارها وأطلالها عله يجلب منها بعض الأضواء التي تحدد ملامح شخصيته الحقيقية والتي تمكنه من الاجابة على أسئلة تلح على تفكيره : « من أنت ؟ أين أنت ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ عم تبحث ؟ » .

يسافر الكاتب بنفسه في هذا الكتاب محاولا إيجاد بعض الأجوبة . يسافر وهو موقن بأن « المجتمعات لا تبقى معزولة عن بعضها البعض ، فهي تلتقي ، تتحارب أو تتاجر . وليست عناصرها « الواقعية » فقط هي التي تتجابه ، أسلحة أو منتجات ، جنودا أو بضائع ، بل الخيالية منها أيضا ، آلهتها » (١٠٧).

يزور في البداية سلسلة من المدن كانت تشكل ذات يوم جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . فلكونه

La Modification, p. 277

Repertoire II, p. 17

Le Genie du lieu, p. 97

(١٠٦)

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٠٤

الظاهري بين أجزاء المدينة ، فإن هناك « ممرات فورية » تجعل المسافر يشعر وكأنه موجود في أكثر من زمان ومكان . فجسرها أو نفقها ليسا فقط وسيلة اتصال بين آسيا وأوروبا ، بين العصر العثماني والبيزنطي ، بين الاسلام والمسيحية وبين الحاضر والماضي .

وسالونيك أيضا هي نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، فمنذ تأسيسها « لم تتوقف عن كونها مدينة حدودية » ومحطة عبور تتجاوز فيها آثار بيزنطية وروما وأثينا ، بالإضافة إلى « شواهد عديدة على يونان منقولة من انكلترا أو فرنسا أو ألمانيا »^(١١٥) . ثم إن لها علاقات وثيقة مع الاسكندرية المعاصرة أو التي لمع فيها البطالسة ، كما أنها « تشبه كثيرامدينة ماري التركمانية » كل ذلك يدفع المسافر لأن يعتبرها « نقطة انطلاق أو ميناء ربط » .

ما نلاحظه إذن أن مدن مانتوفا وفيراري ودلف واسطنبول وقرطبة وسالونيك وبالرمو (التي يفرد لها الكاتب مقالا منفصلا)^(١١٦) كونت بشكل أو بآخر أجزاء من الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية . ولكن زيارتها تظهر بأنها محطات على طريق تقود بالضرورة إلى مصر ، طريق متعرجة تصل الغرب بالشرق تجعل المسافر الأوروبي يتخلص شيئا فشيئا من أساطيره القديمة حول مركزية روما أو غيرها ، ويتزود تدريجيا بما يقيه « هذه الهالة من الأوهام التي تحيط بكلمة الشرق »^(١١٧) .

بالشمس » ، يجدها أحيانا بمزج للعناصر في شراب حقيقي أو خيالي . فصورة بابل التي يتأملها في مدينة سالونيك تشكل « ينبوعا أو على الأقل منبثقا يتفجر منه جزئيا بعد ترسب وتقطير ، هذا السائل الذي يروي الظمان »^(١١٠) ظلما للاكتشاف والمعرفة ، للاطلاع على مكونات نقاط العبور أو الالتقاء وأماكن تعايش الثقافات المختلفة .

في قرطبة يلاحظ المسافر أن « كل شيء يعيدنا إلى الخلافة ، إلى تلك الفترة التي كانت فيها المدينة بيزنطية الغرب »^(١١١) ، وهكذا فإن زيارة الغربي إلى هذه المدينة تجعله « على اتصال مع كل ما تقدمه افريقيا المتوسطة والاسلام من غنى حضاري »^(١١٢) .

أما في اسطنبول ، فإنه يتبين وجود مدن ثلاث ذات مبان مختلفة تعود كل منها إلى عصر معين . وأقبح هذه المدن هي « ليفربول الشرق » أي المدينة الصناعية والمصرفية ، المدينة السوداء التي نمت على الضفة اليسرى للقرن الذهبي ثم « تمددت في الجهة المقابلة في اسطنبول القديمة ، في المدينة العثمانية الكبرى التي نخرها السوس منذ قرون ، ممددة جذورها إلى جوفها ، مدخلة ممصاتها في أحشاء نسيجها المهترئ والتالف ، سالبة قوتها »^(١١٣) .

والمدينة الثالثة التي وجدت قبل الاثنتين معا ، هي القسطنطينية « التي لم تولد من توسع بيزنطة ، بل من الانتقال الإداري إلى هذا المكان لعاصمة الامبراطورية الرومانية المستشرقة »^(١١٤) . ولكن بالرغم من التنافر

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٥٧

(١١١) نفس المصدر ، ص ١٩

(١١٢) نفس المصدر ، ص ١٦

(١١٣) نفس المصدر ، ص ٣٤

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٧

(١١٥) نفس المصدر ، ص ٤٩

(١١٦)

(١١٧)

وهكذا تدخل تفرعات أفقية وعمودية ، جغرافية وتاريخية لكي يستطيع المسافر الاستمرار في سفره الاستكشافي نحو مصر . هذه التفرعات تمر في مدن تمت إلى حضارات ثلاث : الرومانية واليونانية والشرقية : من هنا تتوضح المحطات التالية : دلف عاليًا ، مانتوفا ، فيراري ، بتعمقه في دراسة الحضارات القديمة يتخلص من كثير من أوهامه ويصل إلى مصر بعقلية مفتوحة تجعلك يراها على حقيقتها بعيدا عن تأثير أفكاره المسبقة .

٣ - الولادة الثانية قبل أن نتكلم عن وصوله إلى مصر ، نجد من الضروري زيادة محطتين على جولة ميشال بوتور في نقاط الاتصال : الأولى في بالرمو والثانية في ألمانيا .

في معرض حديثه عن بالرمو ، لا يكف عن إظهار إعجابه بموقع جزيرة صقلية :

« لقد شكلت هذه الجزيرة على امتداد الأزمنة القريبة مكانا لالتقاء وليس للعبور ، فالإيوناني القديم والبيزنطي والعربي والنورماندي والقوطي يتلاقون فيها ويتفاعلون في لطف مناخها »^(١٢٠).

ومع كل ذلك ، يشكو الكاتب - الرحالة في نفس المقال من ضيق المجال الذي يتحرك فيه :

« لم أستطع بعد تجاوز حدود الامبراطورية الرومانية القديمة ، كم أتمنى الافلات من أسر هذا النطاق »^(١٢١).

تشكل رحلته إلى مصر العبور الأول خارج الحدود . ولكن التحضير لها يتم من خلال رحلة « وصف الفنان كقردي في : Portrait de l'artiste en jeune singe

وإذا ما قارنا بين التسلسل الزمني لزيارات بوتور لهذه المدن (المنيا - مصر : ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، سالونيك وقرطبة : ١٩٥٤ ، بالرمو ودلف واسطنبول : ١٩٥٥ ، مانتوفا وفيراري ١٩٥٧) وبين تدرجها في الكتاب (قرطبة ، اسطنبول ، ماليا ، سالونيك ، مانتوفا ، فيراري ، مصر) فإننا نجد اختلالا كبيرا ولكنه معبر . فالباب الذي نلج منه إلى هذا الكتاب هو قرطبة والذي نخرج منه مصر ، وكل باب هو كما تقول إحدى الناقداً^(١١٨) « عائق وعمر ، إغلاق وفتح » ، وهو يختار عن قصد لكي « يؤمن عبورا إلى مستوى آخر » ، إلى حالة فكرية أخرى . وبناء على ذلك فإن الوصول إلى مصر ، أو التوصل لفهم أسطنبول مثلا ، يفترض المرور بمدينة خلاسية تقوم بينها وبين هذين المكانين علاقة قرابة ، والقرابة هنا هي الحضارة الاسلامية التي أثرت وما تزال في هذا البقاع .

بعد اجتياز « البيزنطيين » ، الغربية والشرقية - قرطبة واسطنبول - نصل الى سالونيك ، هذه المدينة المحتفظة بآثار بيزنطة الشرق والتي تكمن أهميتها الأخرى في موقعها كنقطة عبور بين عدة عصور وبلاد .

« مع كونها لا تمثل جزءا من اليونان بكل معنى الكلمة ، فإن سالونيك ، الواقعة في منتصف الطريق بين أثينا والقسطنطينية ، هي المكان المثالي للشعور بهذه البديهة المجهولة تماما ، إنه بين الحضارة الهلينية وعصرنا الحاضر لا يوجد فقط هذا الطريق الذي يمر بروما ويعصر النهضة الروماني ، بل أيضا ، وبشكل أكثر وضوحا ، طريق آخر يمر عبر الامبراطورية الشرقية والكنيسة الشرقية وحضارات الشرق »^(١١٩).

Francoise Van Rossum — Guyon, Critique du roman, p. 269

Le Genie du lieu, p. 51-52

L'Arc, no. 6, 1959

(١١٨)

(١١٩)

(١٢٠)

(١٢١) نفس المصدر .

التي يزور فيها ألمانيا والتي لا تنشر إلا بعد تسع سنوات (في ١٩٦٧) من «عبقرية المكان» (١٩٥٨) .

الرحلة إلى ألمانيا ، بلاد «الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة» كانت بمثابة «تمهيد» - حسب تعبير الكاتب - للانطلاق نحو مصر . فلقد أعطته ، عدا «تعليم قليل من الألمانية والاطلاع على قسم من ألمانيا» ، فرصة للقراءة والاطلاع والتعمق في النحت والموسيقى والرسم والفلسفة وعلم المعادن والكيمياء ، بالإضافة إلى طريقة جديدة في البحث والدراسة .

كانت مهمته في ألمانيا أن يساعد أحد الأثرياء على تذكر ما تعلمه سابقا من اللغة الفرنسية وأن يوسع دائرة إلمامه بها . وهكذا أقام في قصر البارون الواقع في مقاطعة بافريا «على طريق سياحي شهير جدا ، الطريق الرومانطيقي» ، أي الذي سلكه أغلب الرومانطيين الألمان ، من أمثال ويلهلم هانيس وكارل فيليب موريتز وهوغر فون هوفمانشتال ، في مسيرتهم نحو جنوب أوروبا ، وبصورة خاصة إيطاليا ، والذي يوصل في النهاية إلى الشرق مع هرمان هسه Hermann Hesse وكثير غيره (١٢٢) .

ولكن الشرق كان موجودا في القصر من خلال بذور يجب حفظها والعناية بها لكي تنمو فيها بعد في موطنها الأصلي الذي ينبغي الوصول إليه من طريق مختلف عن الاتجاه الرومانطيقي لئلا يبلغ المسافر الشرق الذي تتخيله أوهام الرومانطيين «وطنا وشبابا للروح» كما سماه هوفمانشتال (١٢٣) . الطريق الجديد يجب أن يوصله

إلى الشرق الحقيقي الذي يعلم ويخبر عن ماضيه وماضي أوروبا ، والذي تتلاقى فيه حضارات شتى : من الفرعونية إلى الهيلينية والرومانية والمسيحية فالاسلامية ، الشرق الذي مازالت كثير من هيروغليفيات تنتظر من يكتشفها ويفك رموزها . وهذا ما يجعل الكاتب يحلم بالقدوم وكأنه شامبليون آخر ، مهمته ليس فقط أن يفتح أبوابا على مستقبل مصر أو أوروبا ، بل على مستقبل أفضل للعالم بأسره .

هذا الحلم الطموح يحفز على التفتيش عن أشياء تمهد لرحلته القادمة . ويبدأ البحث في مكتبة القصر الغنية حيث يجد الترجمة الفرنسية لكتاب توماس مان «يوسف في مصر» (١٢٤) ، وترجمة «ألف ليلة وليلة» التي قام بها إلى الفرنسية انطوان غالان (١٢٥) . تسيطر قصص الكتاب العربي على تفكير الشاب الفرنسي المقيم في ألمانيا لدرجة أنه يتخيل نفسه مكان الصعلوك الثاني الذي يحوله أحد السحرة إلى قرد يستعيد فيها بعد هيئته البشرية بفضل معرفته بالكتابة التي يفهم بها وضعه للآخرين (١٢٦) . وتلقي هذه القصة الضوء على عنوان الكتاب : «وصف الفنان كفرد فتي» ، أي كانسان ينشد الخلاص والتغيير من خلال عملية الكتابة ، مشيرين هنا إلى أن الإله الفرعوني «توت» كان كثيرا ما يرمز إليه بشكل قرد .

أما الطريق المختلف الذي سلكه ، فيمر في المجر ، «هذه البقعة الآسيوية الباقية بعد أمواج الغزو وراء حاجز جبال الكوبات المليئة بالنسبة لي ، بين غاباتها

Portrait de l'artiste en jeune singe. p. 95

(١٢٢)

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن نظرة الرومانطيين الألمان إلى الشرق ، انظر الجزء الأول والثاني من :

Marcel Brion: L'Allemagne romantique, tomes I et II, Albin, Michel, Paris, 1976 et 1978

Thomas Mann, Joseph En Egypte

(١٢٤)

Antoine Galland, Les Mille et une nuits.

(١٢٥)

(١٢٦) ألف ليلة وليلة . الجزء الأول . وقصة الصعلوك الثاني تروي بين الميكتين ١٣ و ١٥

شارع سافر ، تسمى سبيل الفلاح ، ذلك ما جعلني
البي الدعوة بسعادة» (١٢٩).

وبالرغم من شعوره بالغربة في السنة الدراسية التي
أمضاها في ألمانيا ، فإن إقامته هناك كانت ذات فائدة
ودروس عظيمة .

لقد وجد في البداية صعوبة كبيرة بالتلاؤم مع هذا
المحيط السديمي والصحراوي . ولذلك كان ينتظر نهاية
الأسبوع بفارغ الصبر كي يستقل القطار إلى القاهرة
حيث يمضي بعد ظهر الخميس والجمعة بكامله « محاولاً
تنشق قليل من هواء الغرب » .

ولم يطل به الأمر على اعتياد الحياة هناك ، فأخذ يجد
لذة كبرى في التعرف على عادات وتقاليده بيئته الجديدة
« في المنيا ، هذه المدينة الصغيرة ذات الثمانين ألف
نسمة يومها ، الواقعة في وسط مصر ، على بعد مائتين
وخمسين كيلو متراً جنوبي القاهرة ، على ضفة النيل
الغربية ، وأحد أكبر أسواق الفطن ، التي لا تحتوي على
أي أثر مهم وعلى أي بناء لأكثر من قرن مع أنها تعود
لأكثر من خمسة آلاف عام » (١٣٠) .

أخذ يتأمل المدينة والجوار بسعادة وواقعية ويصف
موقعها ومنازلها ذات الأثاث البسيط والمتواضع ،
باسثناء بيوت بعض الأغنياء الذين كانوا يأتون بأناثهم
الفخم والتمين من القاهرة أو مباشرة من بعض محلات
لندن وباريس « لأنه لم يكن في المدينة في ذلك الوقت
طاولة واحدة للبيع » (١٣١) .

وقصة الطاولة هذه التي كلفه الحصول عليها جهداً
ووقتاً كبيرين في بداية العام الدراسي ، طرحت لديه

وشعابها ، بقصور مسكونة بالأشباح والسحرة ، كالذي
تحكي عنه قصة جول فيرن ، مع أساطير مصاصي
الدماء» (١٢٧) ، طريق مدينة بودابست المزدوجة ،
وطريق أحد فلاسفتها ، « الدكتور هـ . » الذي رتب في
البداية رحلة الفرنسي الشاب إلى ألمانيا ، وشخصية
« الدكتور هـ . » مزدوجة من جميع الوجوه ، فهو غربي
وشرقي ، طبيب وكيميائي ، واقعي وخيالي في آن
واحد ، وهو بذلك يذكرنا بشخصية « جانوس » الإله
الروماني ذي الوجهين الواقف على مدخل روما في أحد
كوابيس قصة « التعديل » ولكنه هنا جانوس مختلف ،
بشري ، واقعي ، يمنح المسافر الفرصة لزيارة ألمانيا ،
« أرض الفلاسفة » ، ويعطيه في الوقت ذاته « كلمة
السر » ويدله على « الباب الخفي » الذي يدخل منه إلى
« كهف الكنوز الفكرية » . . . إلى مصر .

يشرح جورج غودان ، أحد الذين كتبوا عن ميشال
بوتور ، هروبه إلى مصر بالعبارات التالية :

« بما أن كل كتاب يمكن أن يصبح إنجيلاً ، فإن كل
دليل تتملكه الرغبة أن يصبح مع الوقت سيدي . وكل
ثقافة تحمل في داخلها بذرة استبداد يجب إتلافها
بالانفتاح على ثقافات أخرى . ولذلك كان على بوتور أن
يهرب ، أن يبتعد ليس فقط عن القصر وعن ألمانيا ، بل
عن كل تلك الثقافة ليجد أخرى ، ثقافة مصر ، وكثير
غيرها فيما بعد » (١٢٨) .

أما بوتور فإنه يعيد رغبته في الذهاب إلى مصر إلى
أقدم من رحلته إلى ألمانيا :

« راغباً آنذاك ببعض البعد والعزلة وبقليل من
المغامرة ، متحسناً بمصر من سبيل ماء مقابل منزلي في

Portrait de l'artiste en jeune singe, p. 21

Georges Godin. "Portraite de Butor en Jeune etudiant" Metaphores, no. 1. Nice, avril 1980. p. 83-84

Le Genie du lieu, p. 114

(١٢٧)

(١٢٨)

(١٢٩)

(١٣٠) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٣١) نفس المصدر ، ص ١٣٨

وحضارية تجعله يتخلص من عقد وأساطير تربيته الأوروبية .

« لقد كانت مصر وطنا ثانيا لي ، وحدث لي ما يشبه الولادة الثانية في هذا البطن الممدود الذي يمتص بفمه دلتا البحر المتوسط ومعايير حضاراته ، مختزنا هذه الاخيرة ومازجا لها في عملية تخمير بطيئة » . (١٣٣)

هذا المولود الخلاسي ، الأوروبي - المصري ، يصبح قادرا بحكم هويته الجديدة وانتمائه المزدوج على أن يرى الأمور بشكل يختلف عن بقية الأوروبيين . وأن ينظر إلى العالم بطريقة أكثر موضوعية وتجرد . وللدلالة على هذا التطور في شخصيته نورد نصا مطولا بعض الشيء ولكنه ضروري ومعبر :

« إن كل فرنسي جاوز مرحلة دراسته الثانوية قادر على تقديم ملخص غير دقيق لتاريخ البشرية يظهر فيه اليونانيون والرومان (والعبريون الذين تنسب لهم التوراة والمذهب الكاثوليكي الى حد ما ، مع أن هذا الميدان كثيرا ما لا تبدو رغبة لذكره) ثم العصر الوسيط المسيحي ، فعصر النهضة ، وأخيرا أوروبا المعاصرة مع علومها التي تكتسح باقي العالم .

« صورة تدعي أنها كافية وأنها تنطوي على كل التفسيرات دونما حاجة لإدخال هذه الشعوب الأخرى وتلك الحضارات الأخرى الغربية الأطوار والتافهة والمضحكة ، التي لا تستحق أي اهتمام » .

« لدرجة أن حضارات عظيمة ومجيدة كالفرعونية والإسلام لا تظهر إلا بشكل ملحقات بشكل حواشي في أسفل الصفحات أو بشكل رسوم هزلية .

مقارنة بين طريقتين مختلفتين في الحياة : الأوروبية والمصرية الريفية . فبينما يعتاد الأوروبي على سلوك وتصرفات ترتبط بمقاعد وكراسي وطاولات وما الى ذلك ، تتمحور طريقة الريفي في مصر من جلوس ووقوف واستلقاء حول البساط او الوسائد المقروشة على الأرض ، ذلك ما يجعله يقول :

« ألا ترى معي بأن الحديث عن شيء بسيط جدا كالطاولات يطرح على الفور قضية حضارة كاملة ذات أسلوب آخر ويطرح فترة تاريخية بأكملها ؟ إن إدخال أدوات كهذه في محيط غريب عنها ، أو بالأحرى تبني نمط أوروبي في الحياة ، أي ضمن تربية تقتضي بين أشياء أخرى وجود مثل هذه الأدوات ، ينتج اختلالا واضطرابا عميقين حتى في التصرفات العادية » (١٣٢)

ولكن ما يبعثه بوتور من إقامته في مصر ليس إيجاد الاختلال ، بل على العكس التركيز على التلاقي وإظهار ما لمصر من أثر في صهر الحضارات ومن تأثير حتى على العقلية الغربية . ذلك ما يفسر اهتمامه الشديد بالقاهرة وما تمثله ، وما يبين الهدف من زيارته المتكررة لها وتمضيته كل أيام العطل المدرسية فيها .

كان يبحث بين آثار مصر عن معلومات عن « أصله وأصل الديانة التي نشأ عليها » ، عن تجديد أو تحسين لطرح المشاكل التي شغلته خلال مدة طويلة ، عن شعاع يضيء بعض خفايا أوروبا ، « بنت الامبراطورية الرومانية » ، عن طريقة جديدة لقراءة وتحليل التاريخ ، تاريخ الشرق وأوروبا معا ، وعن كل ما من شأنه « الدعوة لتوسيع وتحديث المعارف التي ورثها من طفولته » . الهدف من كل ذلك إعادة تكوين ثقافية

(١٣٢) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(١٣٣) نفس المصدر ، ص ١١٠

ولكن المنطقة التي يحاول بوتور اكتشافها ليست فقط الإمبراطورية الرومانية أو مصر أو الشرق أو أية منطقة أخرى في العالم ، فطموحه أوسع من ذلك بكثير :

« إن الأرض بكاملها هي التي أحاول أن أثبتها ، أحاول أن أراها » (١٣٨) . وبناء على ذلك يكون اكتشافه لأحد أجداده في مصر خطوة على طريق طويل سيحاول خلاله اكتشاف أجداد آخرين في بقاع مجهولة . ولكن اكتشاف الماضي ليس هدفا بحد ذاته ، بل هو ، على العكس ، طريق يوصل للمستقبل ، « لوطن الأبناء » . اكتشاف مزدوج إذن ، وهدف عظيم لا يمكن تحقيقه إلا بالانطلاق من أرض صلبة وبتحديد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وهذا ما يجعل من الطبيعي جدا العودة إلى باريس ، إلى المدينة الأم التي غادرها المسافر وكل شيء فيها يهتز ، ويجعل من الضروري تقوية أساساتها بما حمل عقله ويده من دورته حول المتوسط .

تتم العودة إلى باريس هذه المرة من خلال قصة « درجات » Degues حيث يحاول المسافر تعميق معرفته بمسقط رأسه ، ومن خلال مناهج التعليم الثانوي ، بالأحداث والتواريخ التي تؤثر على عقلية سكانه .

بعد أن غادر المدينة كتلميذ ، « كقرود فتي » ، يعود إليها أستاذا غني التجربة ، قادرا على إدخال « بصيص من نور في قلب هذا الظلام الدامس الذي تخيط فيه » (١٣٩) .

الجديد في هذه القصة من ناحية الشكل - وكل قصة لميشال بوتور تحمل تجديدا شكليا - هو التناوب في كتابتها

« من الطبيعي أن هذه الصورة قاصرة عن اقتناع أبسط فلاح مصري لأن أول ما يتبادر إليه هو عصر الفراعنة كلغز ، وأول ما يهيمه هو الإسلام كماض وحاضر وتقاليد لدرجة أنه يجد نفسه مضطرا لوضع التاريخ الأوروبي ضمن إطار أوسع منه بكثير » (١٣٤)

هكذا نرى هذا الأوروبي ، ابن المطر والضباب والدخان ، ابن الإمبراطورية الرومانية الهرمة ، ينطلق ليفتش عن أجداده في زواياها وأقطارها ، فيجد أول هؤلاء الأجداد في مصر ولكنه جد خلاسي وليس أبيض ، لذلك يستطيع أن يطلعه على بعض أسرار الرمال والصحراء ، أن يدفي جسده وروحه (١٣٥) ، أن يقدم له المعدات اللازمة للحفر والتنقيب في العالم وتاريخه ، بعد أن برهن له بأن العالم لا يبني على مركز واحد وأعلمه بأن عليه ، كي يفهمه جيدا ، أن ينظر إليه من زوايا مختلفة ، وأن يبحث بدل المراكز عن شرايين وأوردة ، تستقبل وتضخ دم ثقافات وحضارات متنوعة ليصب في قلب بابل جديدة .



قصة « درجات » أو تجديد (١٣٦) وسائل الاستكشاف : يصل مستكشف منطقة جغرافية أو أدبية إلى نقطة يجد فيها أن المعدات التي يحملها لم تعد كافية ويدرك بأن التقدم ومواصلة البحث أصبحا مستحيلين ، « عندها يبدو من الضروري العودة إلى نقطة الانطلاق للإتيان بمعدات أحدث وأكثر ملاءمة لهذه المنطقة التي أصبح الآن يعرفها بشكل أفضل » (١٣٧)

(١٣٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ - ١٩٢

(١٣٥) يصرح بوتور في إحدى مقالاته : « عندما ذهبت إلى مصر للمرة الأولى ، كان أهم اكتشافاتي (بين أخرى كثيرة) أنه من الممكن الآن لشعر بالبرد ، أننا لسنا بعبيرين على ذلك ، وأن ذلك لا يشكل جزءا من العقاب الإلهي بطردنا من الجنة ، إنه توجد أماكن على الأرض لا نشعر فيها بالبرد أبدا ، حتى ولو كنا عراة .

(١٣٦) J.M. Le Sidaner. op. cit. p. 53

m. Butor. Degres Ed. Gallimard, Paris, 1960

Degres, p. 117

(١٣٧) كما صرح لنا في المقابلة المذكورة آنفا .

(١٣٩)

من شخصيات ثلاثة يستعمل أولهم ضمير المتكلم « أنا »
وثانيهم ضمير المخاطب المفرد وثالثهم ضمير الغائب
« هو » .

يبدأ الراوية الأول ، وهو أستاذ في إحدى مدارس
باريس الثانوية ، كتابة القصة بهدف « تبيان روابط
القربى » داخل أحد الصفوف ، ولكنه لا يتأخر في
اكتشاف أن هذه الروابط لكونها تتعلق بخارج المدرسة ،
تسمح لنا بتجاوز حدود مدرسة أو مدينة وبالتوصل إلى
« فهم تاريخ وواقع البشر لأن علاقات القربى ليست
فقط وسيلة لتعريفنا بأشخاص منسيين ، بل هي تتيح لنا
أيضا أن نعود للوراء فنبحث الجذور ونعيد تأليف
التاريخ » . (١٤٠)

أما لائحة الدروس التي تعطي في مختلف الصفوف
الثانوية فتشمل تواريخ وعصورا وأحداثا ومناطق يركز
عليها منهاج المرحلة الدراسية وتشكل بالتالي حيزا مهما
من تفكير الطلاب والأساتذة .

تبدأ اللائحة بكروية الأرض ودورانها حول نفسها
وحول الشمس ، ثم تذكر « الاكتشافات الجغرافية
العظيمة في عصر النهضة ، من رحلة فاسكودي غاما إلى
كوكود ، إلى اكتشاف كريستوفر كولومبس لجزر الهند
الغربية ودوران ماجلان مع طاقمه حول العالم ووصول
ماركو بولو إلى الصين » (١٤١) بعد ذلك يعيدنا التاريخ
إلى بلاد اليونان القديمة وأساطيرها ، وإلى مصر
الفرعونية وسلالات ملوكها ، مروراً « بعصر بيزنطة
الذهبي » ، « بالفتح العربي » . بالإمبراطوريتين
الرومانية والإسبانية اللتين تصدعتا الواحدة تلو الأخرى
وبالهلل الخصب و« إمبراطوريات آسيا القديمة » ،
الخ . . .

بعض دروس الجغرافيا تعرف « بمناطق العالم :
الاستوائية والمدارية والمعتدلة والقطبية » أو « بكل
المعادن المختبئة في جوف الأرض » ، بينما تدعو دروس
اللغة الطلاب إلى اكتساب « معرفة تامة بالعالم الآخر
الذي هو الانسان وبالقيام برحلات قراءة في أعمال
كتاب من بلاد ولغات مختلفة ؛ هوميروس ، رابليه ،
مونتاني ، ماركو بولو ، شكسبير ، فولتير وكثيرين
غيرهم . هذه الدروس ترسم دروبا لبعثات
واستكشافات مستقبلية ، لرحلات جماعية إذن ، لأن
قصة « درجات » تلعب دورا لانتقال من المفرد إلى
الجمع ، الأمر الذي يبين الرحلات السابقة ضروريته
وحتميته .

لقد اكتفى المسافر في البداية بـ « أنا » صريحة
(استعمال الوقت » ، « وصف الفنان كقرود فتي » ،
« عبقرية المكان ») أو مضمرة كما في قصة « التعديل »
حيث يتكلم بطل القصة عن نفسه مستعملا ضمير
المخاطب « أنت » ، الذي يتحول في النهاية إلى
« أنتم » . (يظهر جمع المخاطب هذا مرة واحدة حين
يقول ليون دلون : « وهكذا تنزع من ضماثركم إحدى
أكبر موجات التاريخ ») . وفي الصفحات الأخيرة من
« عبقرية المكان » ، حين يتذكر المسافر زيارة قام بها إلى
الأقصر مع زملائه الفرنسيين في المنيا ، تظهر
« نحن » للمرة الأولى شاملة هذه المرة فلاحا مصرية
دعاهم لشرب الشاي في منزله بعد أن تعرف على ميشال
بوتور الذي كان قد التقاه على الباخرة بين مرسيليا
والإسكندرية .

« كنت أدرك جيدا بأن هذا التفاهم السليم والنقي
يبينا برغم بقائه أخرس ، (١٤٢) لكي يستطيع الارتقاء

Jean Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 85

Degres, p. 26

(١٤٠)

(١٤١)

(١٤٢) بذل هذا الفلاح المصري جهدا كبيرا كي يفهم بوتور أين حصل لقاؤهما الأول ، واستطاع أن يتوصل لذلك من خلال اسم الباخرة التي ألتها إلى مصر « اندريه .
ليون » .

الأخرى عن « الأمريكيتين المقسمتين الى ثلاث مناطق » (ص ٢١٦) وعن « حضارات ما قبل كريستوفر كولومبس وحالة أميركا عند اكتشافها » (ص ١٧٦) ، و « الخصائص المكانية للولايات المتحدة » (ص ٣٦٧) ، و « الغرب الأوسط والغرب الأقصى الأمريكيتين » (ص ١٠٩) ، و « تجارة الرقيق من افريقيا الى أميركا » (ص ١١١) الخ . . بالإضافة الى نصوص عديدة أشهرها كلمة مونتاني Montaigne الشهيرة في القرن السادس عشر : « لقد وجد عالمنا أخا جديدا ، ومن يدري إذا كان هذا آخر إخوته » (ص ٣١٩) ، كل ذلك لم ينجح في تشييد برج ترى منه أميركا بشكل جيد .

هل فشلت المحاولة اذن ؟

على العكس تماما ، فلقد حقق المسافر فتحا جديدا أو بالأحرى أوجد منعطفا جديدا . ولقد رأينا بأن هروب بطل « استعمال الوقت » من انكلترا كان بمثابة انتصار على المدينة ، كما أن تعديل مشروع ليون دلمون كان نتيجة غوصه في أعماق أسطورة روما ، بينما كانت إقامة الشاب الفرنسي في ألمانيا خطوة على طريق مر في المجر وأوصله الى مصر حيث علم بعض الفرنسية لعدد من التلاميذ ولكنه تعلم ما جعل منه انسانا آخر يعود الى وطنه بعقلية منفتحة أدركت أنه ما من حضارة يحق لها الادعاء بمركزيتها أو الاكتفاء بذاتها ، وأن الفهم الحقيقي والتطور الحقيقي هو نتاج تفاعل بين الحضارات والشعوب .

والفشل الظاهري في « درجات » ما هو الا إعلان رفض من طرف الكاتب . للربط التقليدي بين كلمتي « اكتشاف » و « فتح » ، رفض بالتالي للوصول الى

إلى مستوى الكلام ، لكي ينمو الى حوار حقيقي ، فيجب أولا أن تنشأ هيكلية نستطيع العودة اليها والاعتماد عليها » . (١٤٣)

في نهاية كل قصة أو كتاب نجد إذن ضمير جمع يطفو ليكون لحظة إدراك ومعرفة توصل إليها الرحلة المزدوجة ، الجسدية والفكرية ، لمنفى ، لمهاجر أو مستكشف .

أما في « درجات » ، فإن هذا الجمع يبدأ بالعمل . فالقصة تبدأ كما ذكرنا ، بـ « أنا » ، تتابع بـ « أنت » ثم تنتقل الى « هو » لكي تنتهي بسؤال : « من يتكلم » هذا السؤال الذي ينطوي على أجوبة لا حصر لها يفترض إذن وجود حشد كبير من المشاركين في رحلة الكتابة - والرحلة الأخرى - ويعطي الكلمة لكل من يجد في نفسه الاستعداد للمشاركة .

توصلنا إذن قصة « درجات » الى نوعية من الكلام الذي يشترك فيه أكثر من شخص ، وهذه النوعية الجديدة تجدد تكريسها الصارخ والمتنوع في المحطات التالية للرحلة وتبدأ بالظهور من خلال كتاب « المتحرك » (١٤٤) Mobile الذي يحاول إعطاء صورة شاملة عن الولايات المتحدة الأميركية . والرحلة الى أميركا تظهر هنا منطقية جدا ، لأن الراوية الثالث في « درجات » يتمنى أن تكون هذه القصة « برجا نستطيع أن نطل منه على أميركا » ، بينما نرى أن الدرس الرئيسي الذي يركز عليه الرواة الثلاثة ، مع أنه خارج منهاج الصف الثانوي الأول ، هو « اكتشاف وغزو أميركا » . ولكن كل ما جاء في هذا الكتاب عن العالم الجديد ، من هذا الدرس « الذي كان عليه أن يلعب دور نقطة الانطلاق والارتكاز » (ص ١٧٥) الى الدروس

« هذا المضارع الوسيط الذي يسبح ويتنقل بين وجود ذلك الماضي الذي يعنيه وهذا الحاضر الذي نوجد فيه ، يتفحصه كل منا ويكتبه إذا كان كاتباً ، ويعيد تشكيله وهو يقرؤه إذا كان قارئاً » (١٤٨) .

والقصة التي نتكلم عنها تلعب نفس دور المضارع المذكور : فهي « تسبح » بين بلدين : مصر التي تحدث عنها في صفحاتها الأولى ، وأميركا الغائبة الحاضرة ، في الأخيرة ، و « تنتقل » بين طريقتين في التعليم : واحدة « تصك المجموعات البشرية كقطع النقد » (١٤٩) ، وأخرى « تنمي خصائص ومواهب كل فرد » (١٥٠) تسبح بين « عديدين » للرواة : المفرد والجمع ، بين نوعين أدبيين : القصة والكتابة التصويرية ، بين عقليتين : عقلية اعتاد عليها الغرب ، متكبرة ومتسلطة ، وثانية ينادي بها الكاتب - الرحالة ، تتفاعل مع شعوب وحضارات أخرى ، تتعرف على نتاجهم وتعرف بأماكنهم الجغرافية والثقافية ، وهي تنتقل أخيراً بين أماكن متناثرة في شتى بقاع الأرض وبين صنفين من البشر : راكد سجين ضمن حدود ضيقة ومرتحل باحث متطور متجدد .



رفاق وأدلاء : في كل مراحل هذه الرحلة يرافق المسافر شخصيات وهمية ، أدبية ، تاريخية أو اسطورية ، ويستعين بأعمال أدبية وفنية تشكل في مجملها شبكة واسعة ومتكاملة من المعالم التي تساهم في تسهيل وأغناء وتعميق الاستكشاف .

أميركا « كمستعمر يجهد للقضاء على معالم البلد الذي يغزوه » (١٤٥) ورفض لممارسات أسلافه الأوروبين الذين هاجروا الى أميركا حيث طردوا الهنود الحمر من أرضهم الأم واستعبدوا السود الذين كانوا يأتون بهم من أوروبا . أما الوجه الآخر للفشل الظاهري فهو الدلالة على رغبة بالوصول كمكتشف يريد أن يتعلم ويعلم ، كإنسان متخلص من كل الأفكار المسبقة ومن كل ثقل ورغب ذكريات « الفاتحين » الأوائل تجار الرقيق ومبيدي القسم الأكبر من السكان الأصليين لقارة أميركا . من هنا تركيزه على شخصيتي كرسوفر كولومبس وماركو بولو ، وذلك لكون الأول من فتح طريق الاكتشافات البعيدة والثاني أول أوروبي قدم في كتابه « وصف العالم » وثائق جغرافية وعرقية عن بلاد وشعوب الشرق الأقصى . ونستطيع القول بأن هذا الرحالة يهدف من جهة الى « ردم هذه الهوة الرهيبة بيننا وبين غرائزنا ، بيننا وبين باقي العالم » (١٤٦) والى تخليصنا من مصير الغزاة الذين يقللون باب الخلاص أمامهم وأمام الآخرين ، ويعمل من جهة أخرى على « انبثاق نور جديد من ينباع مازالت مجهولة ، ينباع تعيد الشباب للحضارة الأوروبية الهرمة وتتيح لنا إيجاد شباب ما لا نعرفه في حضارتنا الا هрма » (١٤٧) يفتش إذن عن طريق مختلف يوصله الى العالم الجديد .

باقترابنا من نهاية هذه المرحلة من رحلة بوتور الطويلة والمستمرة ، نورد ما ذكره أحد الرواة الثلاثة لقصة « درجات » عن المضارع الذي يستعمله لسرد الأحداث :

J.M. Le Sidaner, op. cit. 57

Repertoire II, p. 181

Degres, p. 253

Resistances, p. 28

(١٤٥)

(١٤٦)

(١٤٧) نفس المصدر ، ص ١٨٠

(١٤٨)

(١٤٩)

(١٥٠) نفس المصدر والصفحة

بماورونهم أو يرافقونهم . كل ذلك يبين التأثير الكبير الذي مارسه اليهودية وما تزال على التفكير الأوروبي .

هذا التيار المزدوج ، اليهودي المسيحي ، يظهر من خلال كتب بوتور على علاقة وثيقة بتيار آخر اقدم منه ، نعني به الأساطير اليونانية الرومانية القديمة المرتبطة بدورها بأساطير مصر القديمة . ولقد رأينا كيف أن مدينة روما تجسد التقاء كل هذه التيارات . أما بالنسبة لرفاق الرحلة ، فمن المهم أن نلاحظ أن ظهور زكريا مصحوبا بعرفة وثنية في حلم ليون دلون يفتح الطريق امام موكب طويل من الباباوات والأباطرة وآلهة الأساطير الذين يلعب ظهورهم دورا اساسا في تعديل خطة ليون دلون ويجعله يتوقف عن رؤية عشيقته ويقرر العودة الى زوجته وأولاده . أما جاك ريفل بطل « استعمال الوقت » ، فإنه يتأمل طويلا زجاجيات الكاتدرائية القديمة التي تمثل قاييل وبابل وسدوم وعمورة وروما الأباطرة المسيحيين ، ثم يقول : « كأن الرسامين القدماء ارادوا ان يبينوا ، من خلال تصويرهم للقراءة الرسمية للتوراة ، بأنهم يكتشفون فيها شيئا آخر » (١٥٣) . هذا « الشيء الآخر » ليس سوى الانعكاسات الأسطورية والثقافية لحضارات أخرى متفاوتة البعد جغرافيا وتاريخيا والتي تساهم بوسائل مختلفة في تشكيل العقلية الأوروبية .

« إن المقارنة مع أساطير الآخرين (هؤلاء الآخرون قد لا يكونون سوى أجداد أو إخوة) هي وحدها التي تتيح لنا فهم أساطيرنا والتعايش معها . ذلك ما يجعل جغرافيتنا ترتسم أمامنا بديانها ومنحدراتها وسدودها . وكلما تعمقنا في معرفتها كلما استطعنا تحسينها » . (١٥٤)

وتظهر في القصة الأولى لائحة للمرافقين الرئيسيين الذين يحددون اتجاهات المراحل التالية : تضم اللائحة راهبين شقيقين ويهوديا وشابا مصريا وكاتبا ورساما .

الراهبان اولاهما حسب القصة ابنا اوغسطين - وهو اسم ذو دلالة مزدوجة ، اذ انه يذكر اولاً بالامبراطور الروماني الشهير اوكتافيوس اغسطس ويذكر ثانياً بالقدّيس اوريلّيسوس اوغسطينوس احد اشهر دعاة المسيحية في الغرب - وهما نموذج لرجل الدين الموجود ايضا في القصتين التاليتين . ففي « استعمال الوقت » يعطي أحد الرهبان معلومات مهمة عن بلستون وكنائسها لجاك ريفل الذي يصرح بدوره : « لقد نشأت على تربية كاثوليكية رومانية ولكنني محوت من نفسي منذ مدة طويلة اغلب مبادئ « التاريخ المقدس » التي غرست في ذهني » (١٥١) أما في « التعديل » ، فهناك أيضا راهب بين ركاب الدرجة الثالثة التي يسافر فيها ليون دلون ، ويلاحظ هذا الأخير ارتباطه وعصبيته فيقول : « من المحتمل أن قرارا ما ينتظره هو الآخر . . . ولربما قرر التخلي عن طقوسه وعن ثوبه الكهنوتي » (١٥٢) وفي « عبقرية المكان » نرى مظاهر مختلفة للمسيحية في كل المدن التي يزورها المسافر .

والشخصية الرمزية الثانية التي تمثل اليهودية ، اي العهد القديم ، نجدها ايضا في الكتب الثلاثة المذكورة حيث تظهر باستمرار بعض الأسماء التوراتية مثل قابيل وزكريا ويوسف وموسى (عليهم السلام) . وهذه الأسماء وغيرها تلازم تفكير المسافرين لدرجة أن بعض هؤلاء يتخيلون وجودهم أو يرون في أحلامهم أنهم

L'Emploi du temps, p. 74

(١٥١)

La Modification, p. 90

(١٥٢)

L'Emploi du temps, p. 79

(١٥٣)

J. M. Le Sidaner, op. cit. p. 34

(١٥٤)

الرفيق الثالث للمسافر يتمحور حول شخصية الشاب المصري أحمد ، هذا الشاب الأسمر الذي يظهر في « استعمال الوقت » ، داكنا أكثر ، من خلال ملامح شاب إفريقي يطلع بطل القصة على كثير من أسرار المدينة البريطانية ، ثم يعود للظهور في « وصف الفنان كقردي فتي » من خلال الشاب الفرنسي ذاته هذه المرة ولكن كبطل من أبطال « ألف ليلة وليلة » ، هو صورة للغريب ، للمختلف عن الآخرين ، ولكن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تتغير كلياً وتتطور النظرة إليها تطوراً إيجابياً ، فبينما يبدو في القصة الأولى غريب الأطوار وشبه معزول عن الآخرين ، يصبح شيئاً فشيئاً المعلم والدليل ، فهو في ألمانيا يطلق كلمة السر التي تفتح طريق الشرق ودروبا أخرى ، وهو في مصر يذكر الفرنسي بمسقط رأسه باريس ، « بالشانزليزيه وخاصة ساحة الكونكورد التي تتوسطها مسلة مصرية » ، (١٥٥) وهو في باريس من جديد ، يلفت نظر المسافر إلى أن عليه زيارة أماكن أخرى والتعلم من شعوب كثيرة مازال يجهلها .

أما الشخصيتان الأخيرتان في لائحة القصة الأولى فهما الكاتب والرسام ، وهما موجودتان بغزارة في جميع كتب بوتور . فالمسافر يستعين بهما دائماً في تحضير وبدء الرحلة ، ويصطحبهما خلالها ثم يعود لمناقشتها معها .

يقوم بوتور ، كما ذكرنا ، برحلات لا حصر لها في أعمال الأدباء والرسامين والنحاتين والموسيقيين ، ولكن هذه الأعمال تلعب من جهة أخرى دوراً مزدوجاً كأدلاء و « أدوات تفكير » ففي « استعمال الوقت » مثلاً نجد

قصة بوليسية تروي ضمن القصة الرئيسية ويؤلفها كاتب وهمي يقول عنه جاك ريفل : « لقد كان نصيراً لي ضد المدينة ، كان ساحراً معتاداً على المخاطر استطاع أن يزودني بسحر قوي لكي أخرج منتصراً من تلك السنة ، من تلك الإقامة التي لم أكن أدرك قوة سمومها ومكائدها ولم أكن أدرك صعوبة دحرها » (١٥٦) .

أما الانتصار على المدينة ، بمعنى خروج المسافر منها محتفظاً بقدرته على التفكير والتحليل ومحددات اتجاهه التالي ، فلم يتحقق إلا بعد دراسة مستفيضة للأعمال الفنية المميزة فيها ، من رسم ونقش وزخرفة وموسيقى ومسرح وحتى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية .

واختيار العمل الفني يتم دائماً على أساس أن يكون « متعدد التفسيرات ، متحركاً ومتموجاً » ، (١٥٧) وأن يشكل « نقطة تألق » و « مركز توليد لا يكف عن الإشعاع » (١٥٨) في اتجاهات وابعاد متفاوتة يتوجه نحوها المستكشف في المراحل التالية .

في المراحل التالية من الرحلة يبدو المسافرون وكأنهم يتنقلون داخل مكتبة غنية ومتحف شاسع . ففي « التعديل » تشكل « أنياد » فرجيل و « رسائل الامبراطور يوليانيوس المرتد » و « الدليل الأزرق » لمدينة روما وكتاب « تعليم اللغة الإيطالية » و « دليل السكك الحديدية » بين فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى قصة تشتري من محطة القطار في باريس ، يشكل كل ذلك العدة اللازمة لليون دلون في محاولته للتعرف على « أساس وحجم أسطورة روما » ، بينما يراه يستنتج من جهة أخرى بأن كثيراً منا يستطيعون بواسطة كتاب « التوصل

Le Genie du lieu, p. 108

L'Emploi du temps, p. 57

Lucien Dallenbach, Le Livre et ses miroirs chez Butor, p. 13

(١٥٥)

(١٥٦)

(١٥٧)

(١٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦

هي منه ، حتى تفقد جاذبيتها ويخفت بريقها ويموت الحب .

أما العلاقة بين المسافر ورفاق دربه فهي متبادلة في كل القصص باستثناء « التعديل » حيث « يجد نفسه أمام نماذج بشرية متنوعة يعطي لكل منها وهو يفكر أو يحلم أسما وسيرة ، مما يشكل رابطا بينه وبينهم ولكن دون مبادلة » (١٦٢) انما ذلك لا يمنع من مساهمة هؤلاء الأشخاص في تعديل مشروع المسافر وانعطاف الطريق التي يسلكها .

« تقول لنفسك : » لو لم يكن هنا كل هؤلاء الناس ، لو لم تكن موجودة هذه الأشياء وهذه الصورة التي تعلقت بها أفكاري مما سبب تكوين نوع من الآلة الفكرية يجعل مراحل وجودي تنساب الواحدة فوق الأخرى خلال هذه الرحلة المختلفة عن الأخريات .

« لو لم توجد هذه المجموعة من الظروف ومن توزيع اللعب ، فمن الممكن أن هذا الشرخ الواسع في شخصيتي لم يكن ليحدث هذه الليلة وإن أوهامي كانت ستستمر لبعض الوقت » (١٦٣) .

كما أن كل مكان يملك القدرة على أن يكون ملتقى طرق ، فان كل شخص يشكل « رابطا » بين عدة مجموعات بشرية وعدة تيارات ثقافية تساهم بتكوين عقلية هذه المجموعات .

وإذا كان سكان المبنى الباريسي قد فقدوا الاتصال فيما بينهم وغرق كل منهم في عزلة شبه تامة ، فذلك لم يمنع بعضهم على الأقل ان يتوصلوا في نهاية القصة لتطوير طريقة تفكيرهم ولفتح أبواب بنائهم ، في محاولة لجعله متينا ، على الخارج الذي زوده فيها بعد بأساسات

الى « السماح لهذه الحرية البعيدة عن تناولنا ، السماح لها ، ولو بمقياس صغير جدا ، أن تتكون وأن ترسخ » (١٥٩) .

ولكن معالم الطريق من الكتاب الدليل الى الكتاب المحرر كانت ، بين عوامل أخرى ، مجموعة أعمال فنية منها ماهو معلق على جدران مقصورة الفطار أو في منزل ليون ومنها روائع متحف اللوفر وقوسا النصر في باريس أو آثار روما أو بعض مقطوعات مونتيفردي الموسيقية . كل ذلك ، بالإضافة الى مكتبة قصر البارون و« المتحف الألماني » وكتب وآثار « عبقرية المكان » ، يشكل شبكة متكاملة هدفها التوضيح والتعريف والتوجيه .

إلى جانب الشخصيات الرمزية التي ذكرناها هناك مجموعة كبيرة من رفاق الدرب تساعد بتوجيه وتعميق الاستكشاف . فافريقي « استعمال الوقت » يلعب - عدا عما ذكرناه سابقا - دور « المرشد الى حقيقة متنوعة عن المسافر . وسليته تصبح مثلا ، فهو لا يعلمنا الحرية فقط ، بل يحذرنا أيضا من كل أشكال العبودية التي قد نمارسها » (١٦٠) ولكونه يشترك مع الفرنسي في « حقه الأسود » على مدينة بلستون ، يصبح الاثنان معا « منفيين فقدا الا من الجسدي والروحي الذي يؤمنه الاستقرار في الوطن الام » (١٦١) .

والحبيبة أيضا تلعب دور الدليل ، ليس ذلك فقط ، بل إن الحب مرتبط في قصص بوتور بهذا الدور ، فما ان تتوقف عن تزويد المسافر بمعلومات عن المكان الذي يقصده ، وما ان يفك ارتباطها التعريفي بالمكان الذي

La Modification, p. 274

Georges Raillard. L'emploi, postface de l'Emploi du temps, p. 493

Michel Leiris, Le Realisme mythologique de Michel Butor, postface de La Modification, p. 298

La Modification, p. 274

(١٥٩)

(١٦٠)

(١٦١) نفس المصدر ، ص ٤٨٨

(١٦٢)

(١٦٣)

أصلب بكثير ، ولم يمنع أيضا ركاب قطار باريس - روما ، بالرغم من صمتهم المطبق أغلب الوقت ، أن يكشفوا للمسافر الرئيسي الزوايا المظلمة في شخصيته وذلك بظهورهم الواحد تلو الآخر كأنعكاسات أو كاجزاء من هذه الشخصية المتصدعة التي ترى أحلامها ورغباتها وقلقها وهمومها ومشاعلها ومختلف نماذج ثقافتها وعواطفها تتوالى أمامها .

ما من أحد يسافر وحيدا عند بوتور ، حتى ولو بدا

كذلك ، فكل من يلتقيه المسافر يقدم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إيضاحات عن نفسه وعن المسافر والمكان ، وكل رفيق يظهر كموجه أو دليل أو شبيه ، مما يجعل مجتمعا مصغرا يتشكل في الطريق ويتحرك مزودا بمكتبة ومتحف نحو شعوب أخرى وأماكن أخرى وأزمنة أخرى تحاول رحلات ميشال بوتور أن تجمعها في كتب يكون كل منها مصغرا عن تلاقي الحضارات على طريق مستقبل أفضل .

المصادر والمراجع :١ - كتب :

- Butor, Michel:
 - Passage de Milan, Editions de Minuit, Paris, 1954.
 - L'Emploi du temps, Minuit, Paris, 1956.
 - La Modification, Minuit, Paris, 1957.
 - Le Benie du lieu. Editions Bernard Crasset, Paris, 1958.
 - Degres. Editions Callimard, Paris, 1960.
 - Repertoire II, Minuit, Paris, 1964.
 - Portrait de l'artiste en jeune singe, Callimard, 1967.
 - Repertoire III, Minuit, Paris, 1968.
 - Ou (Le Genie du lieu 2), Callimard, Paris, 1971.
 - Repertoire IV, Minut, Paris, 1974.
 - Matiere de reves, Callimard, Paris, 1975.
 - Second sous — sol, Callimard, Paris, 1976.
 - Troisieme dessous, Callimard, Paris, 1977.
 - Boomerang (Le Ceinier du lieu 3), Callimard, 1978.
 - Qaudruple fond. Gallimard, 1981.
- Butor, Michel et Launay, Michel: Resistances. Presses universitaires de France, Paris, 1983.
- Charbonnier, Georges. Entretiens avec Michel Butor. Gallimard 1967.
- Colloque de Cerisy — la — Salle tenu en ete 1973 sous la direction de George Raillard: "Michel Butor". Union generale d'editeurs. Paris. 1974.
- Dallenbach, Lucien. Le livre et ses miroirs dans l'oeuvre de Michel Butor. Archives des lettres modernes, Paris, 1972.
- Rossum — Guyon, Francoise van, Critique du roman. Gallimard, 1970.
- Roudaut, Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, 1964.
- Sidaner, Jeqn — Mqrie le, Michel Butor, voyageur a la roue, Editions Breches, Paris 1979.

٢ - مقالات ، دوريات ، مقابلات :

- L'Arc, No. 39. Numero special consacre a Butor. 1969.
- Butor, Michel, "Palerm". L'Arc No. 6. printemps 1959 theme du voyage. 23 a out 1983.
- Magazine litteraire, no. 110, mars 1976, consacre a Butor.
- Obliques, no. 4-5 1976, numero special: Michel Butor.
- Romantisme, no. 4, 1972, consacre au voyage."

٣ - معاجم :

- La Grande Encyclopedie Larousse. 10 volumes, Paris, 1972.
- Larousse du XX siecle, 6 volumes, Paris, 1964.
- Le Grand Larousse de la langue francaise, 7 volumes, Paris, 1978.
- Le Robert, dictionnaire analogique et alphabetique de la langue francaise. 6 volumes. Paris, 1970.

صَدْرُ حَدِيثًا

كتاب (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم)
 لمؤلفه الأستاذ عبد المنعم السيد عشري ، ظهرت طبعته
 الأولى في مصر ، وقامت بنشره الهيئة المصرية العامة
 للكتاب خلال ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) ، وهو يقع في
 (٣٢١) صفحة من القطع الكبير ، ويضم مقدمة
 قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير
 صاحبها) . ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع
 فقط ، وانتهى الكتاب بفهرست للموضوعات . كذلك
 فقد إحتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية وأيضاً
 ١٢ شكلاً توضيحياً . كان أقصر فصل في الكتاب هو
 الأول (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) ، بينما
 نجد أن الفصل السادس (الانسان) هو أطول الفصول
 وأضخمها . فقد شغل أكثر من ثلث الكتاب كله . أما
 بقية الفصول فمتمقاربة الأحجام . كانت الفصول على
 التوالي : عن الآيات الكونية في القرآن الكريم ،
 الأرض ، السحاب والمطر ، النبات ، الحيوان ،
 الانسان ، ثم السماء . والمؤلف من الذين مارسوا
 تدريس علم الفيزياء في الكليات والمعاهد العلمية قرابة
 أربعين عاماً ، وله كتاب صدر قبل الذي نحن بصدده
 الآن ، هو (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت
 بنشره نفس الدار . ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على
 التقاعد لاختراع الكتاب الحالي ، والذي جاء ثمره
 لتخصصه العلمي ، وحميته الاسلامية ، فذلك واضح
 من مقدمة الكتاب .

مقدمة الكتاب لا تتعدى الصفحتين ، بين فيها
 المؤلف الدوافع التي دفعتة الى تأليف هذا الكتاب
 والهدف الذي ينشده من ورائه . أما الدوافع فإيمانية تمت
 يوماً بعد يوم خلال عمله التخصصي ، وأما هدفه فهو
 السعي إلى (إظهار أن كل ما في الوجود من أصغره إلى
 أكبره . . من الالكترن إلى المجرة . . من الفيروس إلى
 الانسان . . كل هذه المخلوقات من أدفها إلى أعظمها

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم

تأليف: عبد المنعم السيد عشري
 عرض وتحليل: كارم السيد غنيم

دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ، ومعارف العارفين . بهذا يلتقي العلم والقرآن . . .) . ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة في تناول مسائل الكتاب ، حيث تعهد بتبسيط المعلومات والمعارف الكونية ، كي يستطيع القاريء استيعابها ، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التي تشير الى تلك المسائل ، ويسوق شروح المفسرين لها . الأساس الثالث في هذه الخطة المتبعة هو الالتزام في التفسير العلمي بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذي وردت فيه ، وهذا دفعه الى ربط الآيات محل الدراسة بالآيات التي قبلها مباشرة .

كانت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) في هذا الكتاب أقل المقالات حجماً - كما أشرنا آنفاً - فهي لم تتعد عشر ورقات ، وتعد مدخلاً لموضوع الكتاب ، فهي (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) . تضمن العرض عناوين جانبية هي : استخلاف الله الانسان على الأرض - الجزاء على قدر العمل - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن - القرآن - منزلة العلم في القرآن الكريم - العلم ووسائل تحصيله - الانسان مستصلح للدارين . قبل أن أبين عن مضمون هذا الفصل ، أود الإشارة الى أمر أراه من الأهمية بمكان كبير ، ذلك هو اضطراب الفقرات وعدم تسلسلها على النمط المنطقي ، وعليه فاني أرى أنه كان من اللائق إيراد الفقرات في تسلسل هو : القرآن - منزلة العلم في القرآن - وسائل تحصيله - استخلاف الله الانسان على الأرض - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن . وكل من « الجزاء على قدر العمل » ، « الانسان مستصلح للدارين » ، لا داعي لوجودهما ، فسياق الكلام في الفقرات المختلفة يدل عليهما . ثم إن كثرة العناوين الجانبية تفتت الكلام وتضيع رونقه ، وتضعف من الترابط الفكري للموضوع ، فالعبرة

ليست بكثرة عناوين ، بل بوضوح المحتوى وعدم غموض أسلوبه في الوقت الذي يجب ألا يفقد الكلام فيه العمق مع الإيجاز غير المخل .

في قول الله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (البقرة / ٣٠ ، ٣١) . تكلم المؤلف في شرح هاتين الآيتين مستمداً ذلك من تفاسير مشهورة ، ثم استخلص أن الله تعالى علم آدم الأجناس التي خلقها ، وألمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة ، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوها في موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق ليخلف الله في الأرض ، ويكون سبباً في عمارتها . وتدل الآيتان أيضاً على فضل العلم ، إذ لو هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به لا بالعلم ، فالعلم هو القوة التي تحقق للانسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض ، ولا يخفى على أحد ضرورته في كل مناحي الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها .

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف على الأرض ، فإن الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية ، فإن الانسان لا تكتمل لشخصيته الانسانية ذاتيتها المستقلة الا بقدر ما يتصارع في نفسه من نوازع الخير والشر ، ويقدر ما يعانيه من التجارب والمقاساة ، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة . وجاء الناموس الآلهي ، وهو استخلاف الانسان في الدنيا ، ومعه ناموس إعطاء الجزاء على قدر العمل ، وهو أساساً في الآخرة ، إلا أن الله يظهر أجزاء منه في الدنيا .

أما كون الدين الاسلامي دين الفطرة ، فالفطرة أولاً

المذكورة في الآية القرآنية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل / ٧٨) . إذا فالسمع والبصر والعقل هي أجهزة العلم والتعلم وتدبر أمور الدنيا وتكشف خباياها . وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح في لغة العلم الحديث . ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استعانت به من أجهزة علمية حديثة .

الفصل الثاني (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض ، واستغرق اثنتين وثلاثين صفحة ، بدأه المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض ، فلما انتهى منها اتجه الى إيراد بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع ، وساق شيئاً من تفسيرها مقتبساً إياه من بعض كتب التفسير التي ذكرها في نهاية الكتاب . ما أهمية الأرض بالنسبة للإنسان ؟ أو بمعنى آخر : ما هي أوجه انتفاع الإنسان بالأرض ومكوناتها في حياته الدنيا ؟ كانت الاجابة عن هذا السؤال هي صدر الفصل ، حيث أكد المؤلف ما هو معلوم بالبديهة في أن الأرض مقرنا الذي نعيش فيه ، والذي ارتبطت به حياتنا . كيف ذلك ؟ لأن من هوائها نتنفس نحن وسائر الأحياء ، ومن مائها الذي يجري في أنهارها وبحيراتها وينابيعها نشرب ونسقي الحيوان والنبات ، ومن زرعها . . . ومن بحارها . . . ومن باطنها . . . وفي دروبها . . . يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هي : شرح ضرورة هواء جو الأرض وبعض العمليات المختلفة التي عمادها غاز الأكسجين . أول هذه العمليات الحيوية التنفس ، ما هو المقصود بالتنفس وما أهميته بالنسبة لأي كائن حي ؟ وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات ؟ ؟ ؟ بعد هذه الاجابات انتقل إلى عملية الاحتراق : ما هو المقصود بالاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض ؟ ما هي الأركان الثلاثة

ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، بل هي مزيج منها ، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر ، وهنا تكون الفطرة سليمة ، تنشد الله وتعرف سبيلها إليه « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم / ٣٠) .

عن الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على باريه ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته ، وتبياناً لرحمته بخلائقه . . . وحثاً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الانسان بالخير . ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المفاهيم أورد المؤلف الآيات : الأنبياء / ٣٠ - ٣٣ ، السجدة / ٤ - ٩ ، القمر / ٤٩ ، الحجر / ١٩ - ٢٢ ، فصلت / ٩ - ١٢ ، البقرة / ١٦٤ ، الرعد / ٢ - ٤ ، فاطر / ٢٧ - ٢٨ ، يس / ٣٧ - ٤٠ ، القصص / ٧٢ ، ٧٣ ، الروم / ١٧ - ٢٧ ، الفرقان / ٥٣ ، ٥٤ ، الأنعام / ٩٩ ، يس / ٧٨ - ٨٠ ، الواقعة / ٥٨ - ٦٠ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، الطارق / ٥ - ٨ .

بعد ذلك يعود المؤلف ليتكلم عن القرآن ، تعريفه ومحتواه وعظمته ، وهو الأمر الذي كان يجب عليه إيراده قبل تعرضه للكلام عن الآيات الكونية والعلمية في القرآن . وفي معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط في أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها ، ودلل عليها ونبه الأذهان إليها ، واستدل على ذلك بالآيات : النحل / ٨٩ ، الأنعام / ٣٨ ، الروم / ٥٨ ، ٥٩ ، الأعراف / ٥٢ ، العنكبوت / ٤٩ . بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان منزلة العلم في القرآن الكريم ، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله ، وهي

من الكلام للتعريف بالموضوع ، لا نجدُ بدأً من الإشارة إلى أمرين للتعريفات المؤلف الانتباه إليهما ، والعناية بهما .

الأمر الأول : أنه لم يتناول عرض النصوص القرآنية في هذا الفصل - وكذلك الفصل السابق وبقية الفصول اللاحقة - مرتبة حسب ورودها في المصحف ، فلا السور متوالية ، ولا الآيات المذكورة من سورة واحدة متتالية ، بل نرى نصاً من سورة تقع بعدها في ترتيب المصحف الشريف ، ونرى أيضاً آية تكلم عنها المؤلف ذات رقم معين ، وانتقل إلى الكلام في نفس الفصل عن آية أسبق منها في الموقع داخل السورة ذاتها ، أي لم تأت الآيات مرتبة حسبما توجد في السورة . وقد يلجأ الكاتب أحياناً إلى شيء من هذا الذي أخذته على المؤلف ، ولكن عند الضرورة التي يستدعيها تناول موضوع ما ، وهو ما لا نراه ملحاً في هذا الكتاب الذي نعرض له . وليبيان ذلك نشير إلى النصوص القرآنية التي عرضت في هذا الفصل ليتضح ما رأيناه ، وهي : الأعراف / ٥٤ ، فصلت / ٩ ، ١٠ ، الحديد / ٤ ، ٥ ، ٦ ، السجدة / ٤ ، ٥ ، ٦ ، النمل / ٦١ ، الرعد / ٣ ، الحجر / ١٩ ، ٢٠ ، الزمر / ٥ ، الإسراء / ١٢ ، فاطر / ٤١ ، النحل / ١٥ ، النازعات / ٣٠ - ٣٣ .

الأمر الثاني : شيوع نقل النصوص التفسيرية من هنا وهناك ، وعرضها دون الإشارة إلى مصادرها ، كل في حينه وأيضاً عدم الرجوع إلى مصادر تفسيرية معتمدة ومشهورة خلاف التي ذكرها في نهاية الكتاب ، وهذا أمر خطير أبان المؤلف في مقدمة الكتاب عن عزمه في تفاديه ، ولكنه وقع فيه على امتداد الفصول السبعة التي احتواها الكتاب .

كما هو واضح من إشارتي السابقة إلى النصوص القرآنية التي وردت في الفصل الحالي ، فهي اثنا عشر نصاً ، بدأه صاحب الكتاب بقول الله عز وجل : إن

التي يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاحتراق وكيف نستخرجها من باطن الأرض ؟ . ثاني الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء : ما أوجه ضرورة الماء ؟ ليس فقط الكائنات الحية بل كذلك للعمليات غير الحيوية المتعددة والتي تتم في كوكبنا الأرضي ؟ . ثالث هذه الأمور هو التربة : ما هو وجه الضرورة في وجود تربة تغطي سطح الأرض ؟ وما أهم مكوناتها ؟ وما دخل ذلك في نمو النباتات ؟ ثم توسع قليلاً في مسألة النبات فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية في عملية نمو النباتات ، ثم اتجه الإنسان إلى التفكير في استخدام « أسمدة » مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتنتج له إنتاجاً زراعياً أكثر وفرة . الأمر أو المسألة الرابعة التي حاول المؤلف عرضها مؤثراً تبسيط الكلام فيها هي : اتخاذ الأرض مصدراً لبناء دور السكنى ، وفي معرض حديثه تناول الإشارة إلى الطريقة الجيولوجية لتكوين الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الدور . ثم بين أهمية ملح الطعام للإنسان وفي عدد من الصناعات . وبعده ففرز إلى حديثه عن بعض الفلزات التي يستخرجها الإنسان من الأرض ، وهي هامة وضرورية في حياته المعيشية والحضارية أيضاً ، ومنها الحديد والنحاس والالومنيوم والذهب والفضة . وفاته أن يتكلم عن أهمية هواء جو الأرض في نقل الإنسان وخلافه من الكائنات الحية بين الأماكن وبعضها ، (بوساطة الطيران أو ركوب الهواء) ، وكذلك انتقال الموجات الصوتية عبر هذا الوسط ، فتدرك الأمر وأعطى فكرة عنه في نهاية الجزء العملي من هذا الفصل .

نأتي إلى الآيات القرآنية التي أوردها المؤلف ، وهي التي بين فيها المولى عز وجل الحكمة من خلق الأرض ، وما أراده بخلقها على الصورة التي عليها من نعم للعباد ، وإظهار قدرته في هذا الخلق . وقبل التقاط نتف

العجيب والفعل البديع يعد ذلك فقال : «^(١) وجعل فيها رواسي من فوقها ،^(٢) وبارك فيها ،^(٣) وقدر فيها أقواتها » وحاول المؤلف أن يشرح شيئاً عن كل منها . أما النص الثالث ، فيوضح أن المقصود بقول الله فيه « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » هو « ما يلج في الأرض » من معادن وعناصر وخامات وخلافه وكذلك البذور ، وما يخرج منها كالزروع والمعادن المختلفة وكمختلف المواد الجامدة والسائلة التي يستخرجها الانسان من باطن الأرض يتنفع بها . « وما ينزل من السماء » من مطر ، « وما يعرج فيها » من أبخرة . أما المعية في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فالمقصود بها معية القدرة . والايجاد والتكوين والتصريف والتدبير . وفي معالجته للجزء من النص الكريم وهو قوله تعالى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » يوضح أن المقصود بالايلاج هنا هو جعل قصر الليل في طول النهار وطول الليل في قصر النهار ، وهذا حادث في الفصول المختلفة من الشتاء والصيف ، ويختلف حسب خطوط العرض في الفصل الواحد .

في غضون شرح النص الرابع وهو الآيات الكريمة ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة السجدة ، وقع اضطراب في الكلام فورد الجزء « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » ، قبل ورود الآيات الثلاث الأولى من سورة السجدة ، وليس له مكان في سياق الكلام ، وفي السطور السابقة لوقوع هذا الاضطراب مباشرة يقول (. . .) إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك أنه من عند الله ، فما هو بشعر شاعر ولا سجع كاهن ولا هو مما اختلقه محمد ﷺ (. . .) ، وكلمة (مما اختلقه محمد) هذه توهم بأن محمداً قد اختلق أشياء أخرى ، إلا أن القرآن ليس من بينها ، فكان الأحوط أن يكون

ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) . أوضح المؤلف - نقلاً عن بعض المفسرين - الحكمة في ذكر « ربكم في صدر الآية » ، ثم قال في معنى خلق السموات والأرض في ستة أيام : أي في ستة أطوار مرت على الخليفة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف - أي نمسك - عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ، فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو . فقد أبان الله عن يوم القيامة في الآية (٤) من سورة المعارج بخمسين ألف سنة ، وأبان عنه في الآية (٤٧) من سورة الحج بألف سنة من أيامنا نحن . ثم أبان المؤلف عن الحكمة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقها في لحظة واحدة بالأمر « كُنْ » . بعده فصل معنى الاستواء في قول الله تعالى « ثم استوى على العرش » وإنه عموماً يقصد به استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف في شئونهما . ثم تكلم في تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الإلهي : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً » ، وعالج الأمر من الناحية الفلكية . ورجع ليكرر ما ذهب إليه المفسرون الذين نقل عنهم مقصود الاستواء على العرش ، وذلك في ص ٢٩ . النص الثاني . يقول الله فيه : « قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، وخلال استرساله في شرح هاتين الآيتين يقول : ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع

التعبير باستخدام كلمة (ولم يخلقها محمد) أو (ولا اختلقه محمد) . في النص الخامس عدد المؤلف خمسة عشر مظهراً من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة في الخلق والتدبير والتصريف في الكون . مسألة بسط الأرض التي وردت في النص السادس (الرعد / ٣) يقول المؤلف فيها : « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام ، وتمهد الطرق ، وتمد عليها خطوط السكك الحديدية ، وتقام المباني وتسير المركبات وبعده أورد كلاماً مكرراً عن الجبال الرواسي ، وفي نهايته يلخص القول : . . . فالجبال إذاً بروز للقشرة الأرضية ، فكان الجبال حافظة لما تحته مانعة له من الاضطراب والزلازل والثوران) . ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار في الأرض ، وأشار إشارة لطيفة فقال : « وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسي لأنها تنشأ منها ، فالسحاب عند قمم الجبال يبرد وتتجمع القطيرات الرفيعة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطراً مدراراً كما يحدث في أماكن كثيرة مثل جبال الحبشة التي ينبع عندها النيل الأزرق مكوناً أحد رافدي نهر النيل . وحاول أن يعالج عملية الإخصاب في النبات

عند تناوله للجزء من الآية « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ، ولكنه لم يف بالموضوع . في صدر كلامه عن النص السابع (الحجر / ١٩ ، ٢٠) يقول : سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيها المولى عز وجل دلائل سماوية في تقرير التوحيد ، حيث قال : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » (الحجر / ١٦ ، ١٧) ثم أتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية فقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (الحجر / ١٩ ، ٢٠) . وفي النص العاشر (فاطر / ٤١) يتكلم عن إمساك السموات والأرض في قول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ويشرح ناموس الجاذبية وبيان معناها وبعضاً من أطراف المسألة . في النص قبل الأخير (النحل / ١٥) يبين أن النعم المذكورة هنا ، والتي يمتن الله بها على خلقه هي : وألقى في الأرض رواسي أن تُمسك بكم » ، « وأنهاراً » ، « وسبلاً » . أما في النص الأخير (النازعات / ٣٠ - ٣٣) فيكرما سبق أن أشار إليه في عرض النصوص السابقة .

في نهاية هذا الفصل يجب أن نشير إلى أمور هي : تعدد مواقع التكرار والاعادة في جنبات الفصل ، وكذلك وقوع عدد من الأغلاط المطبعية والأخطاء العلمية ، وهذه وتلك سوف نفصل قولنا فيها آخر هذا التحليل . كما أن من أضرار النقل والاقتباس دون عناية بسياق القول هناك في التفاسير ، تكرر لفظ « وقد سبق » للإشارة إلى أمور يظن المؤلف أنه أوردها سابقاً ، ولكن لم يحدث أن أوردها . وكان من الأخرى به أن يحذف هذه الكلمة من موقعها ، ويضع ملخصاً لما تشير إليه (أنظر في هذا الأمر الصفحات ٢٨ ، ٣١ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩) .

قطرات الماء حول دقائق صغيرة من الغبار والهباء ، تكون معلقة في الهواء ، وتعتبر هذه الدقائق نويات (أو كنويات - حسب ما ذكره المؤلف) لقطرات الماء . ودقائق الغبار هذه توجد في كل مكان ، فهي توجد فوق البحار النائية ، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية . وبعده تحدث عن المصادر الطبيعية لبخار الماء ، وتعرض لأهميته ، ووصل الى طريقة تكون السحاب ، والفرق بينه وبين الضباب ، فالأول في طبقات عالية من الجو ، بينما الأخير يتكون قريباً من سطح الأرض . وفي معرض حديثه عنها أشار الى أنواع السحب وهي : السحب الطبقيّة ، السحب الركامية ، السحب البيضاء ، والسحب الممطرة ، معطياً فكرة سريعة عن كل نوع . ثم انتقل الى تعريف المطر وأشار بإيجاز الى طريقة سقوطه ، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله ، وتكلم في تقدير كميته ، وتوزيع مناطق غزارته وندرته في العالم^(*) . وفي نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث في فقرتين اثنتين عن الشحن الكهربائي للسحاب ودوره في حدوث البرق والرعد . وقد تخللت الفصل صور فوتوغرافية أغلبها غير محدد التفاصيل ، ومنها ما يمكن تسميته « صور تذكارية » وليس « صوراً علمية » .

ساق صاحب الكتاب في هذا الفصل نصوصاً قرآنية تتعلق بالسحب والأمطار ، هي على الترتيب : النور / ٤٣ ، الحجر / ٢٢ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، البقرة / ١٩ ، ٢٠ ، البقرة / ١٦٤ ، الأعراف / ٥٧ ، الروم / ٤٨ ، الرعد / ١٢ ، ١٣ ، فاطر / ٩ .

في النص الأول « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »

وفصلاً كهذا يحتاج الى صور أو أشكال توضح بعض مسأله وتزيد الموضوع بياناً ، فهو زاخر بالجبال ، مليء بالأنهار ، غني بالأزواج ، . . . وهو ما لم نجده ، عدا صورة يتيمة واحدة ، أوضحت أهمية أملاح البوتاسيوم الموجودة في التربة في نمو النبات ، ولو أن موضعها اللائق هناك في الفصل الخاص بالنبات .

ومن الانصاف أن يحمّد للمؤلف صنيعة الجليل في الاتيان - أحياناً - بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثني عشر التي حاول معالجتها في الفصل ، وذلك ليربط بينها وبين الآيات محل المعالجة ، وهذا أمر نوه إليه في خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية ، ويأتي أحياناً أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه ، عساها أن تتم ما يريد أو تحلّي الروية شيئاً ما . ومن حسناته أيضاً إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة في شرح النص الواحد . وهذه أمور نبه اليها علماء الدين ومفكره عند التصدي للحدث عن الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، أو إن صح تعبيرنا : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن^(*) .

شغل الفصل الثالث : مساحة أقل قليلاً من تلك التي شغلها المقالة السابقة . وفي فصله هذا يتناول مؤلفنا موضوع (السحاب والمطر) ، مقدماً له - كما فعل سابقاً - نبذة علمية ، تتلوها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع .

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء في الهواء ، محدداً طبيعته ، حيث أنه يوجد مختلطاً بالهواء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . هذا البخار شفاف لا يرى . فإذا رأينا ضباباً في صباح يوم رطب ، فهذا الذي نراه ليس ببخار ماء ، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء . وعندما يتكثف البخار الى ماء تتكون

(*) انظر على سبيل المثال : غنيم (كرام السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن . السلم المعاصر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٣ - ٢٢ .
(**) الموضوع مفصل تفصيلاً فلكياً وقرآنياً أكثر وضوحاً في كتب منها : حسب النبي (د / منصور) : الكون والاعجاز العلمي للقرآن دار الفكر العربي عصر ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٣٩٧ .

يوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق الى حيث يريد الله سبحانه ، ثم يؤلف بين قطع السحاب ، حيث تتقارب وتتجاذب نظراً لاختلاف شحناتها الكهربائية ، ثم يتراكم فوق بعضه ، وهذه الظروف تؤدي الى حدوث البرق والرعد ونزول المطر . أما عن الجزئية الخاصة بـ « البرد » في الآية ، فقد تكلم فيها عن طريقة تكونه وسقوطه وأنواعه . في النص الثاني : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » . يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف هو : سبقت هذه الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى عز وجل أن ما من شيء ينتفع به العباد إلا وعنده خزائنه . فخزائن ملكه مليئة بما يحبه الناس من النفائس والنعم والمخلوقات التي لا حصر لها . وهو لا يجبس ما في خزائنه عن عباده ، ولكنه يعطيهم إياها إذا بحثوا عنها ، وسعوا إلى كسبها من وجوهها بحسب السنن التي وضعها ، والنظم التي قدرها . . . ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال : « وأرسلنا الرياح لواقح . . الآية » . ورد في غضون الشرح أقوال بعض المفسرين في معنى اللواقح ، إلا أنه كرر كلاماً عن أسباب حدوث البرق ، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربائي في السحب والتلقيح النباتي . أما الجزئية الخاصة بعدم قدرة الانسان على اختزان هذا الكم الهائل من الأمطار ومياه السحب فلم يوفقها المؤلف ما تستحقه من بيان(*) . في النص الثالث يقول ربنا سبحانه : أنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاجاً ، ولأيضاح ذلك استعاد المؤلف كلاماً عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل الى غاز النيتروجين ، وأنه يمثل أربعة أخماس حجم الهواء ، وأن الأكسجين يمثل خمسة . ومن خواص هذين الغازين أنها يتحدان عند

حدوث الشرارة الكهربائية في مخطوطها ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين ، اللذين عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين ، وبذا يفسد طعم الماء . فلو أن التفريغ الكهربائي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكراراً كافياً لنتج عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسجينين سابقين الذكر ، ولذاب الحمضان الناتجان عنهما في ماء السحب وحولاه ماء حمضياً لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المن الذي يمن به الله على الناس من أنه يكيف التفريغ الكهربائي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يؤج به الماء . في النص الخامس « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . . . » وعند معالجة الجزئية الخاصة بـ « الفلك » نجده يتوسع شيئاً ليبين عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأعلى سبحانه وتعالى وهي : خلق الخيامات الأولية ووسائل صناعة السفن - خلق ظاهرة الطفو - خلق خاصية اطمئنان الانسان لركوب البحر - خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم . ثم اتجه لبيان كيف أن إنبات الزرع بالمطر الهاطل من السماء يعتبر إحياء للأرض . وعند « تصريف الرياح » في نفس الآية ، فقد تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو ، ثم عرج على تسخير السحاب ، وانتهى الى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكريمة لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وعلى كونه قادراً مريداً واحداً . في النص قبل الأخير « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد

(*) يستطيع القارئ أن يستزيد في هذه المسائل من كتب مثل : الفتوى (د / محمد جمال الدين) : الله والكون . الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر . ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧٢ .

تعرض للأمور التالية : كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب في إنبات النبات ، كيفية تراكم الحب في سنبله ، الفروق بين الزروع والثمار وحكمة تقديم الأولى على الأخرى ، وكيف تكون الثمار متشابهة وفي الوقت ذاته غير متشابهة ، وهذه كلها أمور وردت في شرح النص الثالث . أما قول الحق تبارك وتعالى « انظروا الى ثمره إذا أثمر وينع » فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له في كلامه عن النص الرابع ، إلا أن النصين من سورة واحدة أحدهما رقم (٩٩) والآخر رقم (١٤١) ، وعند عرض النصين معاً نجد أن الله أمر في الآية الأولى بالنظر في بديع صنع الثمار والاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، وفي الآية الأخرى أمر الله تعالى بأكل الثمار « كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » والانتفاع بها . وفي هذا تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الأذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصلة من الانتفاع بها سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم .

عند شرح النص الخامس (يس / ٣٥ ، ٣٦) أوضح المؤلف أن « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » المقصود بها ليأكلوا من ثمر الجنات (الحدائق والبساتين) وما عملته أيديهم مما غرسوا وزرعوا ، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكر ومرى وما إليها . هذا وإن كان الكلام هنا لم يف بالتفصيل المناسب لهذه المسألة ، فإنك تجد التقصير أكثر عند شرح « الأزواج » ، فلم يذكر عنها إلا أنها الأصناف والأنواع ! وفي شرحه للنص الثامن « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن

المحال » ، يبين المؤلف أن الله سبحانه ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ، فلما خوف الله تعالى العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هاتين الآيتين ، وذكر فيها أموراً أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته هي : البرق ، السحاب الثقيل (وهو ما لم يذكره سابقاً عند تعدد أنواع السحب ! ! أوريا يقصد به « السحب الممطرة » التي ذكرها هناك) ، الرعد ، والصواعق .

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو « النبات » ، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة الانسان ثم الحيوان إلى النبات . وأشار الى دور النبات في دورة النيتروجين ، ووعد بتفصيل هذه المسألة في الفصول اللاحقة ، ثم شرح دور النبات في دورة الكربون في الطبيعة . وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية . وعند كلامه عن الفحم الحجري وتقطيره نجد صورة لمجموعة من الأشجار ، نفضل إرجاء التعليق عليها الى نهاية هذا التحليل ، هذا مع العلم بأن كلامه عن الفحم (ص ٨٢ ، ٨٣) وأصله وكيفية تكونه لم يأخذ حظه من التوضيح اللازم (*) .

بعد تلك العجالة العلمية (أو « العملية » كما يحلو للمؤلف مراراً أن يسميها) ، اتجه صوب الآيات القرآنية فأورد سبعة عشر نصاً هي : المؤمنون / ١٨ - ٢٠ ، الحج / ٦٣ ، الأنعام / ١٤١ ، يس / ٣٥ - ٣٦ ، الواقعة / ٦٣ - ٦٧ ، ق / ٧ - ١١ ، النحل / ١٠ ، ١١ ، طه / ٥٣ ، ٥٤ ، الرعد / ٤ ، السجدة / ٢٧ ، الشعراء / ٧ - ٩ ، الزمر / ٢١ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، يس / ٨٠ ، البقرة / ٦١ ، عبس / ٢٤ - ٣٢ . ونرى أنه من الملفت لنظر القاريء في معالجة هذه النصوص معالجة تفسيرية أن المؤلف

(*) انظر في ذلك : إمام (د/ محمد السعيد) : حديث الاسلام من الأشجار . المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣١ .

كل الثمرات . . » نجد إشارة لطيفة جدية بالتسجيل هنا ، تلك هي أن الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، واتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان . وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الإنسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات ، فقال في سورة طه (الآية ٥٤) « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ، والترتيب المذكور في الآية المتقدمة ينبه على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الإنسان بما تحت يده من أنعام أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى فالمقصود منه ما هو مذكور في قول الرسول ﷺ : إبدأ بنفسك ثم بمن تعول . كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الإنسان الطاقة من الشجر الأخضر ، وهو المنصوص عليه في قول الله « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون » (يس / ٨٠) (النص الخامس عشر في هذا الفصل) ، فتعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التي يحصل عليها الإنسان من الأشجار هي في الأصل طاقة شمسية ، وأشار إلى الفحم المستخرج من باطن الأرض ، وهو أشجار طمرت وممرت عليها عصور . أما الصورة التي أراد بها المؤلف إيضاح عملية البناء الضوئي في النبات فسوف نرجيء التعليق عليها إلى نهاية التحليل . وفي النص الأخير (البقرة / ٦١) الذي يحكي قصة بني اسرائيل مع سيدنا موسى في التيه ، أعطى المؤلف أفكاراً علمية عن نباتات الثوم والبصل والعدس وفوائدها الطبية ، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير في هذا الفصل .

جاء الفصل الخامس عن « الحيوان » ، وشغل مساحة أكبر مما شغله أي من الفصول السابقة . عُدَّ المؤلف في قسمه الأول من الفصل فوائد الحيوان : الانتفاع بالماشية (اللحم الأحمر - الألبان - الأسباخ) ،

الانتفاع من الأغنام والماعز (اللحوم - الألبان - الصوف - الأشعار - الأنواع المختلفة) ، الانتفاع من الدواجن (اللحم الأبيض - البيض) ، الانتفاع من الأسماك (البروتين - الدهن) ، الانتفاع بالاسفنج ، الانتفاع بالمرجان والشعاب المرجانية ، الانتفاع بأصداف الرخويات وقواقع البحر - الانتفاع باللائى الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤ وأهمية اللائى وقيمتها) ، انتفاع الإنسان من الحشرات خصوصاً دودة الحرير ونحل العسل (أسهب المؤلف في شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للإنسان ، لكنه أمسك عن شرح طرائق النحل في تعرفها على طريق العودة إلى خلاياها ، وهو ما كان من اللائق إيراد أثناء الحديث عن خلايا النحل وجمع العسل من رحيق الأزهار) .

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك إلى النصوص القرآنية التي تتعلق بالموضوع فيتناول منها تسعة هي - حسب ورودها في الفصل : النور / ٤٥ ، النحل / ٥ - ٨ ، النحل / ٦٦ ، النحل / ٦٨ ، ٦٩ ، الأنعام / ٣٨ ، النحل / ١٤ ، العنكبوت / ٤١ - ٤٤ ، النحل / ٧٩ ، ٨٠ ، الرحمن / ١٩ - ٢٣ .

النص الأول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » يوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان ، وهي دليل من الدلائل على الوحدانية ، وقد تقدمها دليلاً آخران على وحدانية الله تعالى ، أحدهما في الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها ، والآخر في الآية (٤٣) الخاصة بالسحاب والبرد والبرق ، وهما في نفس السورة القرآنية ، وأشار إلى أهمية الماء للكائنات الحية ، ثم بينت طرائق مشي الحيوانات ، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة في الزواحف . ولاحظ في هذا النص الكريم

الرجوع إليها ، فالتصدي للكتابة في مثل هذه الأمور القرآنية ليس بالأمر السهل ، ولا هو قاصر على عدد محدود من المصادر . في الفقرة الأولى من شرح النص الثامن في صفحة ١٥٣ ، يقول المؤلف : (وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور مُحَوَّرٌ للطيران) ، وهذا ما لم يرد في الكتاب من قبل ، بل هو قد ذكر إشارة سريعة الى هذه التحورات ، بعد العبارة المذكورة ، بينما نجده يشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر ، ثم يقع فيها وقع فيه مرات كثيرة من تكرار واعادة لبعض المسائل كما حدث في صفحة ١٥٦ عن أصواف وأشعار الأنعام . كما أنه ذكر أحد الآراء في البحرين والبرزخ الواردين في : « مَرَجَ البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » في النص الأخير من هذا الفصل ، فأين الآراء الأخرى في هذه المسألة ، والتي أجلاها بعض العلماء المحدثين (٥٥) .

نأتي الى أكبر فصول الكتاب حجما ، وهو السادس في الترتيب ، وموضوعه « الانسان » ، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الانسان ، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشري ، فتناول الجوانب التالية : تنازع البقاء الحاصل على الارض ، وانقراض الحيوانات التي لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان ، آدم وحواء : السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان ، العوامل التي أدت الى وصول الانسان الى المستوى الحاضر ، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله ، بيان بعض قدرات ومواهب الانسان ، ما هو العقل ؟ ما هي المدنية ؟ ، هل القوة العاقلة المدركة في الانسان يمكن تحسينها ؟ ، أوجه الشبه بين الانسان والحيوانات المحيطة به ، خصائص الجنس

قول الله فيه « يخلق الله ما يشاء » ثم لاحظ قوله تعالى في النص الثاني « ويخلق ما لا تعلمون » (النحل ٥ - ٨) . وهو النص الذي وضع فيه منافع ضرورية للانسان من الحيوان وأخرى أقل ضرورة . وهنا أشار الى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة في قول الله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » ، فإنها وردت بعد الخيل والبغال والحمير ، ومن قبلها ذكرت الأنعام من ابل وبقر وغنم ، فهو سبحانه الخالق لخاماتها الأولية من معادن وخلافة ، وهو سبحانه الخالق للعقول المفكرة والمخترعة ، وهو سبحانه الذي شاء بانبلاج هذه الأسرار بعد أن كانت حبيسة الغيب . في النص الثالث شرحت كيفية تكوين اللبن من بين الفرث والدم ، وفي الرابع شرح النظام العام في خلايا النحل وذكرت الأشكال الخلقية لأفرادها . ولكن المؤلف غفل عن بيان السبل الدليل !! فلم يوضح فيها شيئا (٥٦) . وانتقل بعده الى شرح كيفية بناء النحل لخليته ، وزود ذلك بصور فوتوغرافية سماها أشكالا ، الا أن هناك فرقا هاما بين ما يسمى « صورة » وما يسمى « شكل » ، وهو ما لم يفتن له المؤلف الجليل أثناء عرضه للصورة في الكتاب . ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق ، وعملية ارتشافه وتحويله الى عسل ، ثم تعرض الى تركيب العسل وهو كلام تكرر من قبل في هذا الفصل .

أما النص السادس : وهو الخاص باللحم الطري ، والحلية المستخرجة من البحار ، فلقد تكلم المؤلف فيه عن المرجان ، وأعاد كلامه عن اللؤلؤ ، حيث أنه تعرض له بالتفصيل في صفحات سابقة من نفس الفصل . كما أنه لم يفصل القول في سورة العنكبوت ، وهو موجود في مراجع متفرقة ، نرى أنه كان يجب عليه

(٥٥) انظر في بيان ذلك بحثاً قديماً هو : حلمي (د / محمد عبد الحافظ) : العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم ، مجلة عالم الفكر بالكويت ، ١٢ (٤) ١٩٨٢ ، ص ٩٩٣ .

(٥٦) لإجلاء هذا الأمر انظر كتاباً منها : الطوبى (د / محمد رشاد) : وجعلنا من الماء كل شيء حي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ خضر (د / عبد المليم عبد الرحمن) : الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٢ .

كلام يرضاه العقل والدين ، وهل في الاسلام ما يشير الى هذه الفكرة !! ، نعوذ بالله من هذا ، وأدعو للمؤلف بالمغفرة . كما أننا في نفس الصفحة نجد المؤلف - وهو ذو الخبرة الطويلة في العلم وصاحب المهمة الدينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب - لا يتورع عن ايراد قصة خرافية تحكي كيف حصل الفيل على خرطومه ، ولم يضع فيها رأيه الشخصي ، ولم ينفها ، بل أثبتها وكأنه من أنصارها ، وأرى من جانبي أن ذلك الصنيع مناف لأصول الكتابة العلمية ، لا سيما الذي يتعرض منها لمسائل عقيدية . ولا يجب أن يكون مكانه كتاب علمي يتعرض لمسائل قرآنية كالذي بين أيدينا الآن ، بل موضعه هناك في القصص الأساطيري .

عرض المؤلف في هذا الفصل ستة وثلاثين نصاً قرآنياً لتحدث عن أحد عشر جانباً من الجوانب المتفرقة في الانسان ، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الانسان ، والنصوص الثلاثة التي تليها متعلقة بتعليم الانسان وتعلمه ، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسؤولية الانسان عن أعماله ومحاسبته عليها ، والنصين السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الانسان خلق ضعيفاً ، والنصان التاليان هما بينا غفلة الانسان عن المنعم سبحانه ، وكذا ظلم الانسان لنفسه . أما النصوص الأربعة (من العشرين الى الثالث والعشرين) فتتعلق بتناسل الانسان ، وبيان أنه سنة لتعمير الكون ، والنصوص الثلاثة التي تليها تحدد علاقة الانسان بالدي . النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية . ثم تقررت حقيقة الموت في النصوص القرآنية الثلاثة التالية ، وأتبعها المؤلف بنصين يؤكدان حقيقة البعث ، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة .

فيما يتعلق بخلق الانسان ، فإن الله سبحانه قد أبان

البشري (الخصائص البيولوجية والخصائص المدنية) ، تحديد موقع الانسان في عالم الأحياء من حوله وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة . جاء خلق الانسان بعد اجراء أحداث وتغيرات جسام في كائنات الطبيعة ، انقرض على اثرها ما انقرض وبقي ما استطاع الحياة ، ثم خلق الله الانسان ، مذهب الانتشار وأصل مدنية العالم ، الكيفية التي بدأ بها الانسان تعلمه . ومن الجوانب أيضاً : خصائص الباحثين والمكتشفين ، معيار نجاح الاكتشاف ، علاقة الانسان بالبيئة والمجتمع في صياغة شخصية وتحديد الشكل الحضاري له ، الحجم العددي لأصحاب المواهب والعباقرة في أي مجتمع ، موقع اللغة في موكب المدنية والحضارة ، أثر اللغة في المجتمع ، أهمية الكتاب والكلمات في حياة المجتمعات والناس عموماً ، الجوانب الروحية في حضارة الانسان ومدنيته ، أنواع الخلق : الخلق الطبيعي - الخلق الحيوي - خلق النفس البشرية .

يقول المؤلف في صفحة ١٦٠ - الفقرة الثانية ، ما نصه : ولا يحسن أحد أن أول من عمر الارض من البشر هما آدم وحواء ، بل عمرها قبلهما بالعديد من السنين نوع من البشر متوحشون يعيشون في كهوف كالحوانات ، ويتقاتلون مع الحيوانات ، وربما يصرخون كالحوانات ، وقد انقرض كل هؤلاء ، ومن الانصاف أن نطلق على كل فرد منهم (الانسان البدائي) ، ولعل سائلاً يقول : وماذا نطلق على الانسان المعاصر لنا اليوم ، هذا يطلق عليه (الانسان العصري) أو (الانسان الحديث) .

يفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض نوع مختلف من البشر ، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بني الانسان) ، وهو شائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم ، إذا فهناك انسانان ، انسان قبل آدم وحواء ، وانسان ظهر بمهبط هذين الأبوين . فهل هذا

للذهن وحكاية لما كان متداولاً في الفلسفات المختلفة عند قدماء المصريين والبابليين واليونانيين من تصوير للخلق على نسق ما يفعل الإنسان الصانع من مادة سابقة يشكلها ويصوغها في هيئة معينة ؟

في إجابته عن هذا السؤال ، يقول المؤلف في ص ١٨١ : . . . وليس من الواجب - بعد ما أوضحناه - أن نأخذ بحرفية الآيات ، وأن نفهمها على ظاهرها وأن نتصور أن الله تعالى قد خلق الإنسان من طين ، أو حرق الطين فجعله صلصالاً وشكل منه الإنسان ، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان ، ومثال لما يفهمه الناس بطريق الحس والخيال . كيف يحول المؤلف نفسه أن ينتهي إلى هذه النتيجة ، وهو الذي أخذ يشرح عناصر الإنسان وعناصر التربة بغية الوصول إلى أن أصل كليهما واحد ، يعني أن الإنسان خلق من طين ؟ ! إن ذلك لبس نبرأ إلى الله منه ، ونود لو اطلع عليه صاحبه ليستعيده أوليحيه عن غيره من المفكرين ثم يبرأ هو منه أيضاً .

تكلم المؤلف في هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي أن التسوية أولاً ، ثم النفخ في آدم . ثم الأمر بسجود الملائكة ، وهذا السجود ليس عبادة وإنما احترام وتقدير . ثم عند تعرضه للآيات ٥ - ٨ من سورة الطارق « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » ، أخذ يوضح المؤلف الصلب والترائب ، ويشرح عملية الإخصاب في الإنسان ، ورسومها في شكل إيضاحي ، ثم في النص التالي له ، أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورا وإناثاً . ولم يحذف تكرارات كثيرة وجدناها في صفحات هذه الجزئية التي انتظمت تسعة نصوص قرآنية . وفي النص السابع يشرح كيف أن الرحم في الأنثى قرار مكين ، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث ، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة في رحم الأنثى حول

عن أمور عديدة في هذا الموضوع ، نجدها في نصوص قرآنية منها ما أورده المؤلف : ص ٧١ - ٧٤ ، الحجر ٢٦ - ٣١ ، البقرة ٣٠ - ٣٤ ، الطارق ٥ - ٨ ، الشورى ٤٩ - ٥٠ ، الحج ٥ ، المؤمنون ١٢ - ١٦ ، الزمر ٦ ، التين ١ - ٤ . في معالجة هذه النصوص ، تعرض المؤلف لعدد من الأمور الخطيرة ، وهل أخطر من خلق الإنسان ومن قبله خلق السموات والأرضين ؟ ! . بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الإنسان) ، فكانت جوانب حديثة كما يلي : المادة الحية الأولية (البروتوبلازم) ، البناء المستولجي للجسم الانساني ، الخلية : الوحدة البنائية لجسم الإنسان ، الأعمال الفسيولوجية للخلية الحية ، أهمية الغذاء لحياة الخلية ، التركيب الكيميائي لمحتوى الخلية ، عناصر الجسم الأولية ، عناصر تركيب التربة . ومن هنا خلاص المؤلف إلى النتيجة الأثرية وهي : أن الإنسان الأول - أي آدم عليه السلام (هناك في الجزء العملي من هذا الفصل وضع في كلامه أن الإنسان الأول لم يكن آدم ، بل هو إنسان قبل مجيء آدم وحواء إلى الكوكب !!) وكذا سائر البشر . مخلوقون مما يتكون منه الطين . إذ أن العناصر التي يتكون منها الإنسان هي ذات العناصر التي يتكون منها الطين . ولكن لما كان هناك بؤن شاسع بين الإنسان والطين ، أظهرها أن الطين جماد لا حياة فيه ، أما الإنسان الحي فهو كائن له كل مظاهر الحياة . وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الإلهية دون التفكير في كيفية الخلق ، إذ أنه حدث بطريقة لا نفهمها ، وهي فوق عقولنا ، وهي من الأمور الغيبية التي استأثر بعلمها الله وحده ، حيث يقول عز من قائل : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . . . » . ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو : هل خلق الإنسان حقاً من صلصال أو صلصال كالفضار أو حمأ مسنون أو طين ؟ أم أن هذا الوصف تقريب

الجنين . أما النص الأخير ، والذي ذكر التين والزيتون وطور سنين . . فإنه شرح خواص هذه النباتات ، على الرغم من أن الموضوع هنا ليس موضعها !! .

في الجزئية الخاصة بمسؤولية الانسان أعماله ومجازاته عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ، ويوضح أن حياة الانسان على الأرض لا تحتل الا جزءا يسيرا جدا إذا قيس بعمر الأرض ، وحتى يبين ذلك تكلم في المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضي . وعندما وصل الى بيان غفلة الانسان عن النعم الأعلى ، وأن من صفاته الظلم وأول من يقع عليه الظلم هو نفسه التي بين جنبيه ، يشرح في معنى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مثالين : المثال الأول : تركيب الانسان نفسه ، فهو مكون من أجهزة ولكل جهاز وظيفته ، ثم المثال الثاني : اللقمة التي يتناولها الانسان في فمه ، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض ثم تناولها ثم هضمها والانتفع بها في جسده .

وفي صفحة ٢٥٢ تحدث عن نوع من أنواع النفس البشرية (النفس المطمئنة ، وصفاتها الأربع ، ثم في الصفحة التي تليها تحدث عن النفس الانسانية كما عرفها علماء النفس . وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة ، ثم أوضح ان الموت نوعان : الموت المعادي والموت العلمي والحقيقي ، وهو لا يكون بتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط ولكن يكون بموتها .

وعموما ، فالفصل تغلب عليه كثرة النقول من كتب التفسير دون وزن الأقوال أو انتخاب أفكار منها ومناقشتها ، وهذا مما يؤخذ على صاحب الكتاب .

اختتم الكتاب بفصل عن « السماء » . وقبل الدخول في الفصول نود الإشارة الى أمرين : أحدهما يعتبر بديهية

عامة يستطيع القارئ الواعي أن يصل اليها ، تلك هي موقع الفصل بين دفتي الكتاب ، فإن موضعه الملائم هناك عند الحديث عن السحب والأمطار والظواهر الجوية والنجوم والأرض وما شابه ذلك ، وأن يكون ختام الكتاب هو فصل « الانسان » . الأمر الثاني هو أن الفصل الحالي يعد خلاصة لكتاب سابق للمؤلف عنوانه (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت نفس دار النشر بطبعه سنة ١٩٨٣ ، أي قبل نشر الكتاب الذي يراجع الآن بنحو عامين .

يستهل المؤلف الفصل بنبذة عن السماء فيقول : نفتتح هذه النبذة بالقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معاني السماء التي جاءتنا في نصوص الكتاب الكريم ، لعل في عرضها ما يزيدها بصيرة بالقرآن ، ويوجب على ما يتردد في أذهان كثير من الناس : ما هي السماء ؟ . وعند الإجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معان للسماء : ١ - جاءت السماء بمعنى ما يعلو الانسان « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة ١٤٤) . وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود في طبقات الجو . ٢ - جاءت بمعنى السحاب « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة ٢٢) . وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار . ٣ - وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التي تعلو الأرض وتلامسها عند الأفق . وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية ، وبين سبب زرقة السماء ، فقال : والجو هو السبب في زرقة السماء ، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الأرض تقابله جزيئات الغازات المكونة للجو ، وكذا دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه ، وهذه تحدث « تشتتا » في الضوء لا يكون واحدا للأطوال الموجية المختلفة . فالجزيئات والدقائق تشتت الضوء الأزرق ، (أي الأطوال الموجية القصيرة) بدرجة أكبر مما تشتت بها الأضواء الأخرى الأطول

السنة الضوئية ، وأعطى تعريفا لهذه الوحدة وأمثلة لبيانها . وذكر أن « هالي » (والذي يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين في سنة ١٧١٨ م أن النجوم ليست ثابتة في مواضعها ، فقد لاحظ أن (الشعري اليمانية) وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهري للقمر - وهو بدر - عن المواضع التي عينت لها في كتالوج بطليموس القديم . وترسل المؤلف في شرح الحركات ، ثم انتقل الى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها ، وساق أرقاما يترنح الانسان عند رؤيتها وتصورها . وذكر خاصتين هامتين أخريين هي الحرارة والاضاءة فقال : درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المساحات من سطح النجم ، فإذا وجد نجمان متساويا الحجم فأكثرهما سخونة يشع كمية طاقة أكثر ، وإذا وجد نجمان متساويان في درجة الحرارة فأكبرهما يشع طاقة أكثر . ولذا « فاضاءة » النجم (سطوعه الذاتي) تتوقف على عاملين : درجة حرارته وحجمه . وفي تفصيل الجزئية تعرض المؤلف لمقاييس الاضاءة ، ومنحنى $H - R$. يعادله بالعربية منحنى الحرارة - الاضاءة لبيان الارتباط بين درجة الحرارة النجم وإضاءته .

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية (المجرات) ، وهي تظهر في كل جزء من السماء فيما عدا امتداد (الطريق اللبني) ، حيث يخفى الغبار والغاز في مجرتنا المجرات الأخرى خلفه . وترى في الكون مئات الملايين من المجرات ومنها ما نستطيع رؤيته بأضخم تلسكوباتنا ، ومنها ما لا تجدي التلسكوبات الضخمة في الكشف عنه . . . وقد قام ايدوين هويل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات ، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هي : البيضوية والحلزونية وغير المنتظمة . ويعد أن جال وصال في هذا الميدان انتهى الى مما قد تقدم نستطيع أن

موجية كالأحمر وغيره . وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر فسمأؤنا ترى زرقاء ، اذ أن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت . ٤ - كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع » وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » (الأنبياء ٣٢) ، « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » (الطور ١ - ٥) .

بعده أخذ مؤلفنا في تفصيل القول عن الأجرام السماوية ، وقسمها الى ثلاث فئات : الأولى : الكواكب ، الثانية : النجوم ، الثالثة : المجرات . في الفئة الأولى (الكواكب) ذكر أن الأقدمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجوالات) ، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس ، وأسمائها مرتبة حسب ترتيب بعدها عن الشمس كالآتي : عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - اورانوس - نبتون - بلوتو . هذه الكواكب السيارة هي أقرب الجيران لنا في هذا الفضاء الكوني . ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس ، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها ، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط . ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أمها الشمس الى « كواكب داخلية » و « كواكب خارجية » ، وبين النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس . الفئة الثانية من الأجرام السماوية هي (النجوم) : يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزاته الأكثر صعوبة في تعيينها ، ليس هذا فحسب ، ولكنه أيضا من أكثرها أهمية فكل التغيرات التي تتناول النجم أثناء حياته يمكن تعيينها من معرفة كمية ونوع الطاقة التي يشعها ، ولكن كمية الطاقة التي يشعها نجم في الفضاء لا يمكن معرفتها الا اذا عرف بعده . ثم تكلم في الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها ، وأن الوحدة لقياسها هي

نقسم المادة في الفضاء النجمي الى ثلاث مجموعات رئيسية : السدائم المضيئة ، السدائم المظلمة ، الغاز والغبار في الفضاء النجمي (وهو الموجود بين السدائم) . وكانت آخر جزئية في هذا القسم من الفصل هي شرح فكرة أكدها اينشتين بأن « الفضاء محدود ولكن لا حدود له » (المجموعة المحلية هي مجموعة من حوالي سبع عشرة مجرة ، مجرتنا إحداها وتكون المجموعة جمعا صغيرا نسبيا) .

انتقل المؤلف الى الآيات القرآنية عن السماء والتي تبين بديع صنع الله سبحانه في خلقها وعظيم قدرته وأحكامه في تدبير أمرها ، وأورد ثلاثة عشر نصا هي على التوالي : فصلت ١١- ١٢ ، النازعات ٢٧- ٣٤ ، ق ٦- ١١ ، الرعد ٣ ، الواقعة ٧٥- ٧٦ ، نوح ١٣- ١٦ ، الذاريات ٤٧ ، يس ٣٨- ٣٩- ٤٠ ، الفرقان ٦١- ٦٢ ، الجن ٨ ، الأنبياء ٣٠ ، الملك ٣- ٥ . في شرح قول الله تعالى في الآيتين ١١- ١٢ من سورة الدخان « ثم استوى الى السماء وهي دخان » ، يوضح المؤلف السدائم المضيئة والأخرى المظلمة ، وهو ما سبق أن أوضحه في القسم الأول من هذا الفصل ، إلا أنه عند تصويره لميلاد نجم من النجوم كان رائعا ، فلنلتقط منه لقطات : الغاز والغبار في الفضاء النجمي هو المادة الأولية التي تتكون منها النجوم ، وهو الذي سماه المولى عز وجل « دخان » ، وما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت أن تكونت منه النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن . . . ولكن المولى - جل شأنه - وضع من السنن الكونية ما يتم معها تخليق النجوم من الدخان ، كأن تتزع كتلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذي يكون السديم - مثلا بأن تقوم بحركة دوامية - ثم تبدأ في عملية تقلص ، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها نجما بدءا ، لأنه ليس ساخنا بدرجة كافية حتى يشع ضوءا مرئيا ، ولكن باستمرار تقلص

الغاز تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب الى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة ، وعندما تبلغ هذه الدرجة في مركز النجم خمسمئة ألف درجة مطلقة يتحول (النجم البدء) الى (نجم يافع) ، يمكن تعيين موضعه على المنحنى $H - R$ (الحرارة - الاضاءة) وفق اضاءته ودرجة حرارته .

وفي قول الله تعالى « أنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاه . . » (النازعات ٢٧- ٣٤) ، يوضح المؤلف أن الله سبحانه بعد أن قرر أنه بنى السماء ، شرح لنا كيفية البناء فقال (رفع سمكها) ، وفي شرح ذلك كرر المؤلف أقوالا وتفصيلا أوردته في الصفحات السابقة عن القبة الزرقاء حولنا ، وسماء الكواكب ، ثم سماء النجوم ثم سماء المجرات . إذا كانت الصفة الأولى رفع السماء ، فإن الصفة الثانية هي « فسواها » أي جعلها خالية العيوب ، والصفة الثالثة هي « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » . . . وإنما أضاف الليل والنهار الى السماء لأنها إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها ، إنما يحصلان نتيجة لدوران الأرض حول محورها . وأخذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض في الآيات الكريمة ، وهذا ليس محله المناسب وإنما موقعه هناك في الفصل الخاص بـ (الأرض) .

في سورة ق (الآيات ٦- ١١) يقول الحق تبارك وتعالى « أفلم ينظروا الى السماء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . » ، ومن روائع ما جاء به المؤلف قوله : ومن الملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور في الأرض : المد والقاء الرواسي والانبثاق فيها . وفي السماء : البناء والتزيين

بالشمس وحركاتها ؟ ثم كان اجلاؤه لمعنى قول الله عن الجن « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » ، فأخذ يشرح الشهب والنيازك ، ويعطي أمثلة على ما ذهب إليه . أما بيانه المقتضب في معنى قول الله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، جاء خلاصته ما أوضحه في أول الكتاب ، وهو ما فصله علماء الفسيولوجي في الكائنات الحية .

في نهاية هذا التحليل لهذا الكتاب الجليل يجب علينا أن نين أمورا هامة هي :

١ - الكتاب تنقصه خاتمة .

٢ - نسيان شرح اشارات مذكورة في بعض الصفحات ، فمثلا في صفحة ٢٩٣ عند الكلام عن النجوم العملاقة الزرقاء والنجوم العملاقة الحمراء ، وضع المؤلف إشارات رقمية ، ومن المفهوم أنها سوف تشرح ، أو يعطى لها معنى في ذيل الصفحة ، وهذا ما لم يحدث !! ونجد أيضا في صفحة ٣١٢ « شكل » ، فلا رقم الشكل ذكر ، ولا الشكل نفسه عرض في الصفحة نفسها أو حتى ما حولها .

٣ - نظرا لعدم مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وكذلك نظرا لكثرة النقول من كتب التفسير ، فاني أجد تكرارات كثيرة جدا في غير أهمية ، فبينما أجد كلاما في موضع أجده في موقع آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ص ١٦ ، ص ٣٥ ، الفقرة الثانية ، ص ٣٨ - الفقرة الأخيرة ، ص ٣٩ - الفقرة الثانية ، ص ٤٠ - الفقرة الأولى ، ص ٤١ - الفقرة الأولى ، ص ٤٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٧٠ - الفقرة الثانية ، ص ٧٤ - الفقرة الأولى ، ص ٧٦ ، ص ١٤٥ - الفقرة الأولى ، ص ١٤٩ - الفقرة الثانية ، ص ١٥٦ - الفقرة الأولى ، ص ١٨٧ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٠ - الفقرة الثالثة ، ص ١٩٨ - الفقرة الثانية ، ص ٢١٠ الفقرة الثانية ، ص ٢٧١ الفقرة الثالثة ، ص ٢٩٢ - الفقرة

وسد الفروج . وكل واحد في مقابلة واحد ، فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة في أفلاكها ومزينة للسماء ، والانبات في الأرض شققها وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها .

أما في (العمد) التي تحفظ السماء كما هي في مواقعها وبنائها ، وذلك حسبا يقول الله تعالى في سورة الرعد « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، في ذلك يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمدة هو قوى الجاذبية التي تتجاذب بها النجوم والكواكب ، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هي قوة الطرد المركزية ، وتتعادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوي الاحتفاظ بموقعه وعدم الانفلات في الفضاء الكوني اللانهائي . وعند وصوله الى النص السابع في هذا الفصل ، نجده يوضح كيف أن الله سبحانه بنى السماء « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ، فلقد دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تتهاذى معا في جموع ، كل منها يطلق عليه « جمع مجرى » . وكل جمع من المجرات هو مجموعة مقيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها . . وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التي تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ، ويحل بدلا منه تنافر ، اذ أن جموع المجرات يبدو أن كلا منها يتجنب الآخر . وقد دلت التجربة على أن الجموع المجرية تبعد عنا ، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا . والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون أخذ في الاتساع . وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح : « والشمس تجري لمستقر لها » ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار » ، « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » ما هي البروج ؟ وما أحواها ؟ وما أنواعها ؟ وما أسماؤها ؟ وما علاقتها

الأولى ، ص ٢٩٣ - الفقرة الثانية ، ص ٢٩٥ - الفقرة الثانية ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ص ٣١٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٣١٥ . ففي هذه المواضع يقول المؤلف كلاما في مكان تجده قد قاله في مكان آخر وهكذا . .

٤ - مراجع الكتاب : ذكر المؤلف سبعة مراجع في نهاية الكتاب (ص ٣١٩) ، بطريقة بدائية لا تتناسب وجلال ثقافته وطول خبرته ، ولنضرب على ذلك مثالا بذكر مرجع منها : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وفي مرجع آخر يذكر : المصحف المفسر تأليف محمد فريد وجدي . فالأول أستاذ وحكيم وشيخ ، والآخر لم يجد له لقبا يضيفه عليه !! . كذلك فالطريقة العلمية لذكر المراجع لم تتوفر ، وقد اتفق أهل العلم والثقافة على نظم في ذكر المراجع أشهرها : اسم المؤلف مبدؤا باسم عائلته ، ثم بقية الاسم بين حاصرتين : عنوان الكتاب أو البحث أو المقال . دار النشر ، رقم الطبعة ، السنة ، الصفحات إجمالا إذا كان كتابا ، ورقم الصفحة المقصودة إذا كانت مجلة (دورية أو غير دورية) . وذلك على غرار ما ذكرناه في ذيول بعض صفحات هذا التحليل .

٥ - لما كان المؤلف قد عزف عن الرجوع الى المراجع والمصادر العلمية الضرورية فلم يفتش فيها عند التعرض لمثل المسائل التي تعرض لها في هذا الكتاب ، لكنه اكتفى بالنقل من قلة من كتب التفسير ، فاني لم أجدها من الاشارة الى مراجع يستطيع القارئ أن يرجع اليها عند طلب الزيادة أو التحقق العلمي أو الوقوف على أمور معينة . سواء ذلك في المجالات الفلكية أو البيولوجية أو الجغرافية أو غيرها .

٦ - الصور والأشكال : هناك فرق بين « الصورة » وبين « الشكل » ، فالأولى تكون مأخوذة بآلة تصوير

(كاميرا) أي أنها فوتوغرافية ، ثم الوسيلة الثانية من وسائل الايضاح هي « الأشكال » ، أي تخطيط لجسم أو عملية ما ، والمثقف العادي - ناهيك عن أصحاب التخصصات العلمية المختلفة - يعلم ذلك ، فلا نطلق على صورة فوتوغرافية لفظ (شكل) ، كما لا نطلق على شكل تخطيطي لفظ (صورة) ، فالدقة في التعبير إحدى عناصر الكتابة الجيدة ، سواء كان القالب الذي يحتويها مقالا أو كتابا . نقطة أخرى ، لكنها خطيرة بشأن الصور ، يجب التنبيه اليها ، تلك هي عدم جدية الصور ، فتجد مثلا في فصل (الحيوان) عند الحديث عن الدواجن وصناعات الدواجن صورا للمؤلف ، وهويوزر بعض المذابح الآلية أو مصانع الدواجن (أنظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) . فهذه صور « ألبوم » ذكريات وليس محلها كتاب علمي - وان كان موجها للمثقفين لا المتخصصين - لا سيما وهو يتعرض لمسائل في غاية الأهمية ، فليس بعد القرآن الكريم أهمية تعدله .

ولما كان الكتاب اسلاميا فلا داعي إذا لظهور نساء غير محتشمت على صفحاته (أنظر صفحة ٥٢) ، فلا الصورة تعطينا تفصيلا فلكيا ، ولا هي تجنبت ظهور امرأة ترتدي سروالا قصيرا (شورتا) . وعدم وضوح تفصيلات الصور أمر شائع في كفة ماجاء منها ، أنظر على سبيل المثال : صفحات ٥٥ ، ٨٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وغيرها . في صفحة ٨٣ صورة لبعض الأشجار كتب تحتها (الغابات التي طمرت وكونت الفحم) ، فكيف أنها طمرت ونحن نراها عيانا على صفحات هذا الكتاب ؟ ! في صفحة ١٠٥ صورة ملتقطة من كتاب أجنبي عن التركيب النسيجي لورقة نبات (قطاع طولي منها - لم يذكر المؤلف ذلك) ، وحولها كلام باللغة الانجليزية ، فلم يترجم المؤلف هذا الكلام ، ولم يعطنا فكرة في تعليق قصير أسفل الصورة . في صفحة ١٢٤

في بحث سابق^(٥) ، هذا مع اقتناعنا بأن يكون المنهج كما يلي :

أ - عرض مفاهيم من القرآن تشير الى الظاهرة الكونية أو البيولوجية .

ب - تتبع آراء المفسرين مع وضوح مواضع الاقتباس .

ج - صياغة المفاهيم القرآنية المفسرة في شكل قواعد وقوانين جزئية .

د - التطبيق العلمي (أو العملي) لما ورد في القوانين المصاغة من المفاهيم القرآنية المفسرة .

هـ - استنباط التوافقية بين المنهج العلمي الحديث ، ومنهج القرآن وأسلوبه في معالجة الظواهر الكونية ، مع إيضاح سبق القرآن وشمولية اشارته وصدقها المطلق ، وصلاحيه الانتفاع بها للانسان البدائي ولانسان عصر الفضاء ومن بعده على السواء .

فهل سلك المؤلف في معالجة الظواهر الكونية - التي ساقها من القرآن في هذا الكتاب - هذا المنهج ؟ ! الاجابة بالنفي طبعاً .

٨ - شيوع كثير من الأخطاء المطبعية والأغلاط العلمية ، وها هي بعض هذه وتلك :

٩ - بناء على ما تقدم ، فإننا نوصي في نهاية هذا التحليل أن يراجع الكتاب مراجعة علمية وطباعة دقيقة من المؤلف ذاته ، أو من غيره من المختصين ذوي الكفايات العلمية الرفيعة ، ولا نطن أن دار النشر المسؤولة عن الكتاب تفتقد هؤلاء ، فهي كبرى الدور في مصر ، حتى يكون الكتاب على المستوى اللائق بجلال موضوعه ، وذلك عند إعادة طباعته .

ولا يفوتنا أن نذكر للمؤلف مجهوده المشكور الذي بذله في مجال الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وندعو الله له بالجزاء الحسن ، وأن يغفر له ما لم يتنبه اليه . وعلى الله قصد السبيل .

صورة لرجل زنجي ينفخ في قوقعة أظنه ينادي بذلك على أناس آخرين ، أو ربما يستنفر بعض الحيوانات . في صفحتي ١٤٠ ، ١٤١ صور لأقراص الشمع في خلايا النحل ، وكلها متقاربة ، ولا تعليق مفصل يصاحب كل صورة من الصور الأربعة ولاحقها في الصفحة التالية وكان يكفي صورة واحدة من هذه الخمسة ، مذيلة بتعليق مركزف ومعمق . في صفحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ يأتينا المؤلف بصور لحيوانات عملاقة يقول أنها من العصور البائدة ، فمن أين أتى بها ؟ في صفحة ١٩٣ شكلاً تخطيطياً لخطوات الاخصاب في أنثى الانسان ، ونسي المؤلف أن يكتب تعليقا على الجزئين السفليين من الشكل ، كما فعل مع الأجزاء الأربعة العلوية في نفس الشكل !!

معنى هذا أن صفحات عديدة قد أهدرت في صور لا أهمية لها ولا طائل من ورائها ، وإذا كانت المجالات والمطابع تعطي أهمية قصوى لكل مساحة ورقية ، فالورق باهظ الأسعار ، والطباعة مرتفعة التكاليف ، فكيف بهذه الدار وهي كبرى دور النشر في مصر - تسمح بنشر مثل هذه الصور ، مع علمنا بأن القليل منها يجدي .

٧ - منهج التوفيق العلمي : كونك تنقل فقرات من كتب علمية وتنسقها في نسق منتظم ، فهذا ليس بتأليف ولا ابداع ، وكونك تقتبس أو تقتطف سطورا طوالاً من كتب التفسير ، فهذا أيضاً ليس بتأليف ولا ابداع ، وإنما التأليف والابداع هو التغلغل في أعماق المسائل التي تتعرض لها ، موضحاً رأيك فيها ، أو آراء المختصين على أعلى مستوياتهم ، وهذا يستدعي الرجوع مراجع حديثة متعددة ، وإذا كان لمعالجة المسائل الكونية في القرآن مناهج أو برامج محددة القسمات فقد فصلناها

(*) غنيم (كارم السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن ، المسلم المعاصر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٣ - ٦٢ .

الكلمة	موقعها	التصحيح المقترح
فطرت	الآية ٣٠ من سورة الروم ، ص ٩	فطرة
مؤكسد	السطر الرابع من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	مؤكسج ، أي أنه مرتبط ارتباطاً مؤقتاً بالأكسجين وليس متفاعلاً تفاعلاً يؤدي إلى تغييره
يتأكسد	السطر ١٢ من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	يتأكسج
السدات	السطر الثالث من الفقرة الثالثة ، ص ٣٩	أسدية جمع سداة
تلاب أنواع	السطر الثاني من الفقرة الثالثة ، ص ٣١	ثلاثة أنواع
الفصائل	السطر الأخير من الفقرة الأولى ، ص ٤٩	الشعب
العائلات	السطر الأخير من الفقرة الأولى ص ٤٩	الفصائل
المتشعة	السطر الأخير ، ص ٥٤	المشعة
مخاليه	السطر ١٤ من الفقرة الثانية ، ص ١٥٢	كلايه
مجموعات من		
العدد تسمى		
الحويصلات	السطر ١١ ، ص ١٣٧	مجموعات من العدد تحتوي على حويصلات
يمضي	الآية ٤٥ من سورة النور ، ص ١٣٢	يمشي
الطوائف	السطر السادس ، ص ١٤٣	الاعداد . لأن الطوائف هي الترجمة الصحيحة لكلمة Classes
توتش	في عنوان الصورة الواقعة في ص ١٢٨	ترشف أو ترتشف
لينحصر	السطر الخامس من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	ليتمحض أو ليتهمحض
جماعات -		
جماعة	السطر ١٩ من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	مراتب ، مرتبة
الالكترونيات	السطر ١٠ من الفقرة الأولى ، ص ١٥٩	الالكترونيات
ولكن الانسان		
العصري هو		
سلفاً	السطر الثاني ، ص ١٦٣	ولكن الانسان العصري هو خلفها
وشاهد القدرة	السطر السادس من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٣	وشاءات القدرة
قانون التربة		
العكسي	السطر الخامس من الفقرة الثالثة ، ص ٢٧٨	قانون التربيع العكسي
حين	السطر الثاني من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٩	في حين
وما لها		
من فروع	السطر قبل الأخير في سورة ق ، ص ٢٩٧	وما لها من فروع

« لقد حصلت القطيعة يوم أظهر لنا ليفي شراوس ، بالنسبة للمجتمعات ، ولاكان بالنسبة للاوعى ، أن « المعنى » لم يكن ، على وجه الاحتمال ، سوى نتيجة سطحية أو لمعان ، أوزيد ، وأن ما يخرقنا في العمق ، ما يوحد قبلنا ، و ما يسنحنا في الزمان والمكان ، كان هو النسق .

ان الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون (وحتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية) بل وحتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء والكيفية التي تثارها حساسيتهم ، وكل سلوكهم ، تحكمها - في جميع العصور بنية نظرية ، نسق ، يتغير مع العصور والمجتمعات ، إلا أنه يظل حاضرا في كل العصور وكل المجتمعات » (١) .

ميشيل فوكو

الكتاب الذي ثحن بصدده يتضمن نصين للفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو . الأول تحت عنوان (نظام الخطاب) قام بترجمته احمد السطاتي ، والثاني تحت عنوان (ارادة المعرفة) ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي ، بالاضافة الى عرض ثالث حول (نيتشة ، فرويد ، ماركس) مذيّل بنقاش ساهمت فيه نخبة من المفكرين . في النص الأول ينطلق فوكو من تصور معين : البحث عن علاقة الخطاب بالسلطة ، انه يشعر بمدى خطورة الخطاب ، لذلك يرغب (وهي رغبة جماعية) في أن يكون « في الخطاب كفجوة رهيبة أو كمجرى عرضي ، لا أن يكون ذلك الذي يصدر عنه الخطاب »

ان هذا الاحتراس مرتبط بالرغبة ، رغبة أن لا توجد بداية ، لكنه ايضا نذير خوف وتوجس يصدر عن تفرد قد يحصل في الخطاب .. لكن السلطة ترد على هذه الرغبة - الاحتراس ، اذ تعمل على سن مجموعة من

نظام الخطاب وارادة المعرفة ميشيل فوكو

ترجمة : أحمد السطاتي وعبد السلام
بنعبد العالي
عرض وتحليل : علوط محمد

فالمجنون لا يعتد بخطابه ، لأن خطاب العقل لا يوليه العناية والاصغاء ، انه نوع من الصخب ، أعزل ومسال ، حتى ولو كان يمثل دور الحقيقة ذات القناع لخطاب العقل . فعلاقة الطبيب بالمريض / المجنون تكشف عن هذا البعد ، فدور الطبيب ليس سوى ارهاق السمع للكلام الحر ، فكيف يكون هذا الاصغاء قبولاً بخطاب المجنون ، مع علمنا أن الصمت لا يتأتى الا مع التوقف الصامت العارض بين أجزاء الكلام ، لا سيما اذا كان الاصغاء يتعلق بخطاب يقع تحت استغلال الرغبة .

المبدأ الثالث هو منظومة الصدق والكذب ، انه ايضا طريقة خارجية لممارسة الرقابة . ان مجال تشكيل ارادة الحقيقة (الكيفية التي نوظفها للبحث عن الحقيقة ، ومجموع النوايا التي تهدف منظومة معرفية) ينظر إليها فوكو على أساس أنها منظومة من النبذ ، منظومة تاريخية قابلة للتعديل ، وذات طابع اكرهي قانوني ، خطاب الصدق هو الخطاب الذي نجله ونباهه . الخطاب الذي يجب أن ننصاع له باعتباره يمتلك السيادة . ان طرد السفساطيين من طرف افلاطون تأسيساً لمنظومة الصدق ، حيث انتقلت الحقيقة من طور فعل خاضع ، فَعْلٍ فَعَالٍ وصائب ، انتقلت من طور التعبير الى طور العبارة ، والعبارة بالذات . اتجهت الحقيقة صوب معنى العبارة وصورتها وموضوعها وعلاقتها بمصادرها .

يحدد فوكو في اطار هذه المبادئ الثلاثة (الكلمة المحظورة ، تركة الجنون ، ارادة الحقيقة) مايلي : ان المنظومة الثالثة أعم وأشمل ، اذ تستميل إليها المنظومتين الأولى والثانية لتصبأ فيها . خطاب الصدق تنصل من الرغبة والسلطة ، أصبح حديثه عن الحقيقة مقنعا ، لايعترف بها . لم يعد خطاب الصدق عند قدماء اليونان ذلك الخطاب الذي يستجيب لرغبة ويمارس سلطة على ارادة الحقيقة ذاتها . هكذا ظلت الحقيقة أماناً خادعة ،

القوانين ، تجرد الخطاب من سلاحه ، وقد تسمح له بنوع من الحرية ، ولكنها تظل تستمد أصولها من السلطة . يطرح فوكو هذا الرد بتهكم ، وهو نوع من التهكم التصعيدي ، ليكشف لنا أن تعارض الرغبة والسلطة مؤثر على قلق واحد ، يتمحور حول ماهية الخطاب في بعده المادى والوجودي ، هذا القلق المحفوف بمجموعة من المعارك والانتصارات . الاستيهامية التي قلم الاستعمال الطويل أظافرها . تبقى الإشارة الى أن هذا الطرح الاستهلال لا ينفذ بعيداً عن مجال السلطة وعلاقتها بالخطاب ، خاصة إذا توقعنا عند النبذة الملحمية التي تطبع هذا الاستهلال ، وفي مناطق أخرى من النص بكامله لصالح سلطته الذاتية .

يضعنا فوكو بعد هذا ، أمام مجموعة من الطرق الاجرائية التي بوساطتها السيطرة على الكلام ، مراقبته وانتقائه ، تنظيمه وإعادة توزيعه ، واسقاط ما فيه من رعب وخوف بأن كل مجتمع له طريقه الخاصة (النموذج الذي يتناوله فوكو هو المجتمع الغربي) ، وذلك حين يوزع مجموع هذه الطرق إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى تمارس اجراءاتها من خارج الخطاب ، في حين تمارس المجموعتين الأخرتين سلطتها من داخل الخطاب . كل مجموعة تتوزع عبر مبادئ فصلها فوكو بتأن عبر هذا النص .

في المجموعة الأولى ، هناك ثلاثة مبادئ للحظر وممارسة الرقابة : منطقتان يحظر فيهما الكلام (الحياة الجنسية والحياة السياسية) في هذا المجال تظهر آصرة الخطاب بالرغبة والسلطة . ذلك أن التحليل النفسي يبين لنا أن الخطاب هو موضوع الرغبة ، كما يبين لنا التاريخ أن الخطاب هو السلطة ذاتها « ان الخطاب موضوع الرغبة ومكان السلطة ، وليس الشكل الذي يعلن أو يشير إليها » .

المبدأ الثاني في الحظر هو ثنائية العقل / الجنون :

وقع عليه التعليق) . يقول فوكو في هذه النقطة بأسلوب شيق « ضرب من لعب النقد الذي يحدث اللانهاية عن آثار ليس لها أي حظ من الوجود ، وحلم غنائي لخطاب يولد مرة بعد أخرى في كل نقطة من نقاطه جديدا بريئا ، ليعاود الظهور ، مرارا وتكرارا ، بكل نضارة ، انطلاقا من أشياء وعواطف وأفكار » ، مثال ذلك الأوديسية التي تتكرر في ترجمة Berand ، ونصوص متعددة ، وفي رواية أو ليس . باختصار . ان وظيفة التعليق هي أن يقول في النهاية ما كان قد قيل هناك بصمت . . وأن يقول للمرة الأولى ما سبق أن قيل (في هذه النقطة بالذات يلاحظ التدفق اللغوي والمجازي في كتابة فوكو حين يسعى إلى تأكيد هذه العودة والتكرار . راجع ص ١٧ ، ١٨) .

ثانيا هناك مبدأ آخر لتطفيف الخطاب : (مصطلح يوظفه فوكو قصد الحديث عن طبيعة الخطاب المراقب ، بعد أن تم اخضاعه للمراقبة والحظر = ممارسة السلطة على الخطاب) . هذا المبدأ هو مفهوم المؤلف . ان المؤلف ليس ذلك الذي ينطق أو يكتب نصا . بل هو مبدأ لتجميع الخطابات وتأسيس وحدة دلالاتها وبؤرة تماسكها . كان ضروريا أن تستند الخطابات لمؤلف بالنسبة لعصور معينة ، خاصة الخطاب العلمي (اسم المؤلف مقابل نظرية ما) لكن الأمر اختفى منذ القرن السابع عشر . لكن بالنسبة لخطابات أخرى تعزز موقف المؤلف ، وأصبح البحث عنه ضروريا (الخطاب الأدبي مثلا . .) يفرق فوكو بين مفهوم المؤلف كما أنتجه النقد ، وبين المؤلف الحقيقي الذي يقطن في الخطاب كضمير مهمته أن يكون شاهدا وحجة على الحقيقة (نموذج الخطاب العلمي) ، وبالمقابل فان هناك نصوصا تروج بحاجة الى مؤلف (الحديث اليومي) ، لكنها ليست خطيرة ، لأنها معرضة للنسيان . ان المؤلف يقوم بوظيفة معينة يجدها له عصره ، قد

والذين حاولوا مواجهة ارادة الحقيقة هذه بالحقيقة قلة يجب النظر اليهم باعتبار (نيتشه ، آرتو ، باتاي . . مثلا) .

كما يلاحظ فوكو أيضا أن ثمة اجراءات أخرى تتمثل في سعى ارادة الحقيقة لكي تفرض على الذات العارفة (قبل إجراء أية تجربة) وضعها معينا ، ونظرة معينة ، ووظيفة معينة ، إنه الاستعمال التقني الذي يجعل لانتشار المعرفة هدفا نفعيا حقيقيا (لتتذكر المبدأ اليوناني القديم : ليكن الحساب قضية تخص المسدن الديمقراطية ، حيث نتعلم منه علائق المساواة . . .)

اننا هنا بصدد سلطة اكراه ترمي الى ممارسة نوع من الضغط على باقي الخطابات (يطبق فوكو هذا الأمر على مجموعة من الممارسات الاقتصادية والسياسية ليظهر كيف تتحول الى قواعد وقوانين تعليمية في خطاب محدد) ثم يسعى بعد ذلك الى تبيان اجراءات المجموعة الثانية .

في هذه المجموعة هناك أولا مبدأ التعليقات والشروح : في هذا الصدد يقارن فوكو بين مجموعتين من أنواع الخطاب . هناك الخطابات التي تقال يوميا وتتداول وينتهي أمرها بانتهاء الفعل ذاته الذي نطق بها . وهناك الخطابات التي هي أصل لعدد من ضروب الفعل الجديدة للكلام ، حيث يعاد تناولها وتحويلها والحديث عنها . هناك أيضا خطابات قيلت ، وأخرى تقال ، وستظل جاهزة للقول أبدا بقطع النظر عن صياغتها (النصوص الدينية أو القانونية أو الأدبية والعلمية . . .) النصوص الثانية على العكس من الأولى نصوص أمهات ، تأتي لتسجل السواد على البياض ، ولتلتحق بعد ذلك بالتعليق والشروح التي قد تحتل مكان الصدارة (مثلا بورخيس : يعتبره فوكو يلعب في اطار محاولة المحو الجذري لهذا التفاوت بين الأصل والتعليق ، لكنه يسقط في الحرفية والتكرار لما

تخصيص الخطاب بفئة معينة ، وأقصاء فئات أخرى .
تقليص عدد الذوات المتكلمة (مما يسمح بالقول بوجود
خطابات مباحة للجميع لا تفرض فيها هذه السلطة) .
إذا كان فوكو يطرح نموذجاً لهذا الاحتكار بـ (شوكون)
امبراطور اليابان وامتلاكه للرياضيات ، والملاح
الانجليزي (ويليام آدمز) فالأمثلة لا تنقص في مختلف
المجتمعات ان عملية انتقاء المتكلمين تفرض نوعاً من
الطقوس المصاحبة للخطاب لتحديد مفعوله في المتلقى
وإعطاء القيمة الإكراهية للخطاب .

يستشهد فوكو في هذا الصدد (جماعات الخطاب)
التي كانت تشكل نوعاً من مصادرة الخطاب عن المتلقى
(وهو أمر يتعلق بصيغة وتقنية إنتاج الخطاب) . إذ لم
تعد لدينا مثل هذه الجماعات ، فان لدينا ما يؤكد
خطورها بشكل آخر ، ويصوغها انطلاقاً من مفهوم
التملك للخطاب عن طريق سبع قواعد معينة (نظام
النشر ، شخصية الكاتب ، الصبغة الرسمية
للكتابة . . .) وهكذا نكون بصدد جماعة خطاب
مكشوفة ، ثم يستدل بتلك المفارقة اللا تماثلية بين ما
نطلق عليه عملية (الخلق) ، واستعمال نظام السفي
وصولا الى صيغة معينة . وحتى في الخطابات الحرة غير
الخاضعة للطقوس ، فانه لا يمكن استبعاد هذا
الأقصاء . أبرز مثال يقدمه فوكو في هذه النقطة - حسب
رأبي - هو صور بث الخطاب الطبي بين الطبيب
ومريضه .

ثانياً : مبدأ انتقاء المتكلمين / المذهب : فخطاب
العقيدة والدين والفلسفة مثلاً يؤكد على طريقة النبذ
والبث السالفة الذكر ، ذلك أنه يكفي الالتجاء الى
استعمال مشترك لمجمل الخطاب الواحد ، وبفضل هذا
الاستعمال تتحدد الانتقاءات (حتى ولو كان المنتمون
كثرة : ذلك أن خطاب العقيدة والمذهب يسعى الى
الذبيوع والانتشار) بفضل توفر الشرط الوحيد ، وهو

يتعدد هذا المؤلف ، لصالح ظهور مؤلف مغاير ، لكن
الوظيفة لا تتغير ، والتي هي حصر مباغته الخطاب (هذا
المصطلح ينسجه فوكو في صياغة تلحم بين مبدأ التعليق
ولعبة الهوية التي تتلبس التكرار وصورة الذات ، مثلاً
أن لعبة الهوية تتلبس صورة الفردية ، وصورة الأنا ص
٢٠) . المبدأ الثالث : يتضح في مجال الفنون
(Discipeines) هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ
التعليق ومبدأ المؤلف . كل فن يشكل منظومة خاضعة
لمجموعة من القواعد والتعريفات والتقنيات (يستشهد
فوكو في هذا المجال بعلم النبات وعلم الطب) .
يستعين المؤلف في هذا الصدد بمفهوم النمط ، اذ يجب
على أية قضية لكي تنتمي إلى فن من الفنون أن تنخرط
في نمط أفق نظري معين . يقول فوكو : « ان علم النبات
والطب وعلى غرار سائر الفنون كلاهما صنعة أخطاء ،
وصنعة حقائق ، وليست الأخطاء روااسب أو اجساماً
غريبة . بل هي وظائف ايجابية وفعالية تاريخية » ،
وهكذا يعود ليربط بذكاء مبدأ الحصر هذا في مجال الفن
بمنظومة الصدق . فلنكون القضية تنتمي الى جملة
من الفنون ، عليها اضافة الى ما ذكر ، أن يقال عنها انها
صادقة . . أي أن تكون في دائرة الصدق (نموذج
مانديل ، وهو عالم بيولوجي : لقد كان يقول الصدق ،
لكنه لم يكن في (دائرة الصدق) . وهكذا يخلص الى ان
الفن مبدأ لمراقبة الخطاب ولانتاحه . . انه صورة لترهين
جديد مستمر للقواعد عن طريق لعبة الهوية .

في المجموعة الثالثة التي تسمح بمراقبة الخطاب
نلاحظ أن عملية المراقبة لا تتعلق بحصر مباغته
الخطاب ، أو السيطرة على ما في حوزته من سلطة ،
ولكن بتحديد شروط استعماله :

أولاً : مبدأ انتقاء المتكلمين / الطقوس . هذا المبدأ
يقوم بتحديد شروط استعمال الخطاب ، وفرض جملة
من القوانين على الذين يتناولونه . الهدف بالطبع هو

قراءة في مرحلة ثانية ، ولعبة تبادل في مرحلة ثالثة ، وهذا التبادل ، وهذه القراءة لا تعتمد سوى الرموز ، وهكذا يلغي الخطاب ذاته حالما يضع نفسه ضمن نظام الدال .

ضمن هذا التصور العام الذي طرحه فوكو لحد الآن ، يقرر على أن كل حضارة تقف من الخطاب موقفين : موقف التقديس الظاهر ، الذي يخفى موقفاً تالياً وهو الخوف من هذا الخطاب ذاته ، وكنتيجة ، فإنها تعمل على ممارسة الحظر والرقابة عليه قصد السيطرة عليه .

وصولاً إلى هذه النقطة يضعنا المؤلف أمام مشروع الذي يطرح في هذا العرض والذي قرر الاشتغال به :

١ - إعادة النظر في إرادة الحقيقة

٢ - إرجاع صيغة الحادث للخطاب .

٣ - تجريد الدال من كل سيادة .

هذا الطرح يقتضي مجموعة من الالتزامات :

١ - مبدأ القلب : ويفسره بالبحث عن الدور السلبي لتطيف الخطاب وتقطيعه للوصول إلى مبادئ التطيف التي تحدد مصدر الخطابات ومبدأ وفرتها أو استمرارها ، وعند الوصول إلى هذه النقطة يستلزم البحث عن مبادئ منهجية أخرى .

٢ - مبدأ الانفصال : الخطاب يتضمن منظومات من التطيف تشكل سيادة . هذه المنظومات ذات طبيعة قمعية . لذلك يجب أن نرفع من شأن الخطاب ، بأن ند إليه الكلمة والاعتبار . إذ يجب التعامل مع الخطابات باعتبارها ممارسات قائمة على الانفصال .

٣ - مبدأ النوعية : لكي يتحقق هذا المبدأ يستلزم إدراك أن الخطاب عنف نُوقِعَ بالأشياء ، وممارسة نفرضها على الأشياء ، إذ ليس العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا ، وليس وجهاً مقروءاً علينا إلا أن نطالع ونفك رموزه ، هذا التصور الجديد يحقق الاضطراد لحوادث الخطاب .

٤ - قاعدة المحيط البراني : وذلك بأن تكون مسيرتنا في

الاعتراف بنفس الحقائق ، وتوافق خطاباتهم مع الخطابات الثابتة الصلاحية . ستكون المراقبة هذا على مضمون العبارة وشكلها وليس على الذات التي تتحدث ، البدعة أو السنة نوع من الخروج عن الخطاب سواء بالمبالغة المفرطة والتعصب أو بالخروج التام ، ذلك أن الانتهاكات تتراوح داخل مساحة الخطاب والحدود المسموح بها للذوات المتحدثة . هكذا يربط المذهب الأفراد بأنماط من التعبير في حين يمنعها عن غيرهم ، ويحدد الخطاب أنواع الارتباطات بين الأفراد . وهذا تكون مهمة المذهب مزدوجة : إخضاع الذوات المتحدثة إلى خطابات وإخضاع الخطابات إلى جماعات .

ثالثاً : التملك الاجتماعي للخطاب : يرى فوكو أن كلا من التربية والفلسفة تعملان على الحفاظ على تملك الخطاب ، يقول عن التربية : « أن كل نظام تربوي ما هو إلا وسيلة للحفاظ على تملك الخطاب ، أو أحداث تغيير يضمن ملاءمته مع ضروب المعرفة والسلطة التي تفوز جميعها بكل خطاب » ، وهكذا يكون نظام التعليم أيضاً نوعاً من إضفاء صبغة الطقوس على الكلام ، وتكون الكتابة في نهاية المطاف نظاماً وإخضاعاً مضارعاً لما يسبق . ورغم أن فوكو يبدو تجريبياً في هذا التوزيع ، فإنه لا تفوته الملاحظة إلى أن أنواع المراقبة المذكورة لاتعمل منفصلة ، بل تعمل بشكل كلي . الفلسفة بدورها (وهذا ينحو كلام فوكو نحو التعقيد قليلاً . .) تقيم نوعاً من التواطؤ مع العالم . تؤسس به إمكانية الحديث عنه ، وإمكانية الحديث فيه . ينتقد فوكو الفلسفة في هذا المجال انطلاقاً من مفهوم اللوغوس الذي ينهض عليه الفكر الغربي ، ليصل إلى أحكام تستند إلى التحاليل اللسانية في خلفيتها الابتسولوجية ، وليقرر أن الخطاب ، سواء تعلق بمجال فلسفة الذات ، أو فلسفة التجربة الأصلية . أو فلسفة الوساطة الشمولية ، ليس سوى لعبة : لعبة كتابية في مرحلة أولى ، ولعبة

الخطاب تنطلق من الخطاب ذاته نحو الشروط الخارجية
للامكان ، لا أن نرتد الى الخطاب بحثا عن نواة أو
صلب مخبوء .

هذه المفاهيم السابقة تحدد مبدأ ضابط لها تؤطره
مفاهيم أربعة أخرى :

مفهوم الحادث - مفهوم السلسلة - مفهوم الاطراد -
مفهوم شرط الامكان . ويلاحظ ان هذه المفاهيم
تتعارض في حدودها (الحادث / الخلق والابداع) و
(السلسلة / الوحدة) و (الاطراد / الطرافة) و
(شرط الامكان / الدلالة) . لقد ظلت هذه المفاهيم
(الدلالة ، الطرافة ، الوحدة ، الابداع) تهيمن على
تاريخ الفكر التقليدي لمدة طويلة .

يضيف فوكو في النهاية ملاحظتين :

١ - الأولى تتعلق بالتاريخ : ذلك أن مهمة المؤرخين
التقليديين كانت تسعى إلى بناء وحدة من خلال فحص
لمختلف العناصر والظواهر ، لكن الدراسات المعاصرة
اليوم أصبحت تروم الى تأسيس وحدات نوعية تشكل
سلاسل منعزلة ومنفصلة تتمتع باستقلال ذاتي .

٢ - المشاكل النظرية والابستمولوجية التي تنتج عن
مفهوم السلسلة والحادث ، حيث الحادث ينشأ في
أحضان التشتت المادي مفعولا له ، ومفعولا فيه ،
وذلك حين ينحو باتجاه نزعة مادية للجسمي . ثم
مشكل التصور الذي يرى أن العلائق التي تقوم بين
السلاسل منفصلة ، بحيث ينبغي اعداد نظرية في
المنظومات القائمة على الانفصال خارج فلسفات الذات
والزمن .

ان التنظير الذي يقدمه فوكو لا يخلو من شوائك
تتمثل في الثالث (الصدفة ، الانفصال ، الواقعة
المادية) بحيث أن كل نظرية تسعى لاقامة زحزحة في
الفكر يجب أن تحترس من مغبة السقوط في آلية هذه
المفاهيم .

يظل سعى فوكو دؤوبا من أجل اقامة نظرية معرفية
منبئية على التصورات السابقة . وهذا بالطبع ماطبقه
على تركة الجنون والجنس والمراقبة والعقاب . في هذه
المحاضرة نجد صدق لكتبه التي سبقت والتي ستأتي فيما
بعد . لقد أكد فوكو أنه لا يقول فقط . . بل يمارس
القول من خلال اعماله المتنوعة التي تناولت دراسة
وظائف النبذوالخطر ومنظوميتها . مفسرا كيف تحدث ،
وكيف يتم الحفاظ عليها ، وكيف تختار الحقيقة ، ثم
كيف تأسس خطاب الصدق والكذب ، والاشتغال على
قياس مفعول الخطابات في مجال الممارسة (مثلا دور
الخطاب الطبي والنفسي في مجال ممارسة العقوبة . .) .
أيضا يركز هذا المشروع على دراسة اجراءات الحصر
(مبدأ المؤلف ، والتعليق والفن) وهو ما قام به في
تاريخ الجنون والطب العقلي في القرن السادس عشر
والتاسع عشر وأيضا في مجال النقد الأدبي ، والتاريخ
الأدبي ، كل هذا سعيا وراء الكشف عن عملية تطفيف
الخطابات ، لكن هذا العمل لا يكتمل الا بتظافر كل
من الوصف العينيولوجي ، والوصف النقدي . فوكو في
نهاية المطاف ، يقدم اعترافا بالامتنان والفضل لمن
استفاد منهم ، من أساتذته (ديموزيل ، كانكلسهم ،
جان هيبوليت) . هذا الأخير الذي ينظر اليه على أنه
هجيلي ، محاولا أن يثبت كيف تمت هذه الاستفادة في
الوقت المعاصر الذي تسعى فيه الفلسفة الى انفلات من
كل ما هو هيجيلي .



في النص الثاني المعنون (حفریات المعرفة) يقدم لنا
فوكو تصورا غير معتاد لمجهود علماء التاريخ (المؤرخون
= استعمال مطلق) ، مؤكدا على نوعية الأدوات
المستعملة للبحث في تاريخ المعرفة ، وموضحا مراتب
ومستويات التحليل المختلفة .

انطلاقا من الدراسة التي تستند الى حركة التراكم

ان التحليل في شكله القديم كان يسعى الى اقامة (ذاكرة) تقوم على أثريات الماضي محولا اياها الى وثائق . أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق الى أثريات . أن تصوروا على هذا المستوى يترتب عنه نتائج أربعة :

١ - المفعول السطحي الناتج عن ابراز تعدد المستويات الانفصالية ، دون وعي يخلق تاريخ وزمن خاصين بهما .

٢ - المكانة العظمى التي أصبح مفهوم الانفصال يحتلها في الدراسات التاريخية ، حيث انتقل من كونه حاجزا في الدراسة الى مفهوم اجرائي .

٣ - الغاء فكرة التاريخ الشامل ، وبداية تكون التاريخ العام ، ذلك أن الأول يضم جميع الظواهر حول مركز واحد ، بينما الثاني يرسم فضاء تشتت وتبعثر .

٤ - مجموعة المسائل المنهجية التي أخذت تطرح في اطار التاريخ الجديد (تكون الوثائق المنسقة والمنسجمة ، وضع مبدأ الاختيار بينها ، تحديد مستوى التحليل والعناصر الهامة فيه ، تعيين منهج التحليل ..) .

ان قراءة لهذه المستويات في التحليل الذي يطرحه فوكو تتطلب رؤية يتداخل فيها مجموع من العلوم (المناهج ، التاريخ ، الانثربولوجيا ، البنيوية ..) وان بلورة لمثل هذا التوجه تستدعي ليس عملا فرديا ، بقدر ما تستدعي عملا تاريخيا جماعيا . ذلك أننا بصدد تأسيس تحول ابستمولوجي لازال لم يكتمل بعد .

ان فوكو من خلال هذه المحاضرة يقدم عرضا مكثفا لمجموع هذه التصورات ملء بالاحالات الى مجموعة من الحقول المعرفية ، ويعتمد الى التنظير والملاحظة والتقصي ودراسة الوثائق وأرشيف الماضي .. ان عملا مثل هذا لا يمكن أن نتقدم بالحكم عليه الا بعد « قراءات » بالغة الوعي والدقة والتصور .

والاشباع والكم ، أسس علماء التاريخ تحليلا منتظما ومتواصلا ، يقوم على التعاقب الخطي ، وسبر الأغوار ، مما دفع الى نشوء مستويات أخرى من التحليل . هذه المستويات أصبحت تشكل مراتب تصاغ في شكل (سلاسل = ص ٥٠) وظواهر تنحو نحو الانفصال (ص ٥٠) . ونلاحظ هنا انها نفس المفاهيم التي تمت الاشارة اليها سابقا فيما يتعلق بنظام الخطاب .

حول مفهوم السلسلة يوضح فوكو أن الاسئلة التقليدية للتاريخ ، تقوم على الوصل بين الأشياء واقامة علاقات تربط بين الوقائع غير المنتظمة ، وفرض تعاقب ضروري عليها . في حين أننا نجد أن الاسئلة المعاصرة تدعو الى الفصل بين الأجزاء واقامة مراتب للتحليل منعزلة .

وحول مفهوم الانفصال . انتقل البحث من رصد الوحدات المنسقة التي كانت تنظم عبر عصور وحقب الى دراسة تقوم على تبيين عواقب الانفصالات داخل هذه الوحدات ويعطى فوكو أمثلة لأنواع من هذه الانفصالات .

١ - الأفعال والعتبات ابستمولوجية التي وصفها باشلار (البحث في تشكيل المعرفة وغوها)

٢ - تحول المفاهيم وانتقالها من ميدان الى آخر (مع تطبيق حول المصطلح)

٣ - المستوى الصغير والمستوى الكبير .

٤ - اعادة التوزيع التراجعي للوقائع

٥ - وحدات الصرح البنيوي للأنساق الفلسفي

المهدف بالطبع من هذا العمل هو الوصف التاريخي لتنين الوقائع قصد بناء تحليل ينطلق من الاتصال الى تأسيس انفصال في رؤيتنا للمعرفة (يستلم فوكو في هذا الصدد مجموعة مفاهيم مساعدة : العتبة ، الفصل ، القطيعة ، التحول) .



في العرض الثالث (نيتشه ، فرويد ، ماركس) ، والذي هو عبارة عن مائدة مستديرة موضوعها : تقنية التأويل عند ماركس ونيتشه وفرويد يقدم لنا فوكو تطورا للتأويل على هذا الشكل :

لدراسة تقنية التأويل ينبغي إقامة نوع من الموسوعات التي تضم تاريخا لتقنيات التأويل منذ الاغريق الى الآن . ان صبيعة اللغة تستدعي التأويل ، لا يمكن أن نطمئن الى المعنى المقول . كما لا يمكننا أن نتوقف عند الصياغة اللفظية للكلام . اذ أن ثمة خطابات أخرى ذات طبيعة لا لغوية .

ان كل حضارة ، وكل غمط ثقافي له تقنية خاصة في التأويل ، لهذا نقف على منظومات متعددة للتأويل . في القرن السادس عشر كانت تقنية التأويل تقوم على مبدأ التشابه الذي شكل منظومة مضبوطة تتحكم فيها خمسة مفاهيم : (التلاؤم Convenientia ، التعاطف Sympatheia التسوازي Emulatio ، الأثر Signature ، والتجانس)

منطق التشابه يقتضي داخل نظرية الدليل (Signe) اللاتجاه الى إجراءات : هناك الانتقال الجانبي من تشابه الى آخر (Cognitio) ، والمعرفة المعمقة التي تنتقل من تشابه سطحي الى تشابه أكثر عمقا (Divinatio) .

تغيرت تقنيات التأويل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انطلاقا من النقد الذي وجهه بيبكون وديكارت لمبدأ التشابه ، لكن في القرن التاسع عشر نجد ماركس ونيتشه وفرويد امكانية قيام تأويل جديد ، يمكن رصد في كتب هؤلاء المفكرين وما أحدثته في الفكر الغربي من صدمات . لقد كشف فرويد على ثلاثة جروح نرجسية في الثقافة الغربية (كوبرنيك ،

داروين ، فرويد ذاته) نيتشه أقام جدلا طويلا ينتقد عبره الاعماق الفكرية ، وأغوار اللاشعورية لكشف الخنوع والنفاق ولباس الأقنعة ، ثم أخيرا تعدية ماركس للسطح كشفا عن الحقائق التاريخية المستمرة .

لقد طرح التأويل مع هؤلاء مبدأ التشابه ، وأصبح تأويلا لا نهائيا على عكس القرن السادس عشر على أن كل تأويل سابق أو لاحق يظل محلقا ، قابلا للفحص ، مما ينتج عنه (وهذا ما يرغب فوكو في الوصول اليه) تشكيل وظهور انفصال في المعرفة .

إن التفكير حول الموضوع الذي ينصب عليه التأويل ، يقودنا الى الحديث عن العلامة . . . اذا حدث أن توقف التأويل ، فلأنه لم يبق هناك ما يؤول من جهة ، ذلك أن عناصر الحقيقة في التأويل هي بدورها تأويلا . وهكذا فان التأويل لاي هؤلاء ينصب على تأويل سابق ، وهنا يجد التأويل ذاته مرغما على أن يؤول ذاته الى مالا نهاية .

لقد سعينا هنا الى توضيح مجموعة من التصورات التي يقدمها فوكو في هذا الكتاب - رغم الكشافة المعرفية العميقة لهذا المؤلف - ونحن نأمل أن يكون هذا العرض معرض استفادة . . . ذلك أن المؤلف في هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للمشروع المعرفي الذي ظل يشغل عليه طوال حياته ، والذي سيفصح عن نفسه في كتاباته ومصنفاته التي خلفها بعد رحيله . ونذكر أن للنص الأول من الكتاب ترجمتان لكل من صالح هاشم في مجلة الكرمل عدد ١٠ ، ومحمد بسيلا من المغرب في كتاب مستقل بالاضافة الى الترجمة التي نحن بصدددها مما يبين أهمية هذا النص وقيمته في الحقل المعرفي الفلسفي والعلمي المعاصر .

العدد التالي من المجلة
العدد الثالث - المجلد السابع عشر
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن
«علوم الصحاري»

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) علوم الصحارى

(ب) الهجرة والهجرة المعاكسة

(ج) الدراسات المستقبلية

(د) المسرح

(هـ) الحاسب الآلى

(و) الأمن الغذائى

(ز) الثقافات فى العالم الثالث

(ح) الجنون فى الادب

(ط) التجديد فى الشعر

الخليج العربي	٥	ريالات	٣	ليرات
السمودية	٥	ريالات	٢٥٠	مليماً
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٥٠	مليماً
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	٢٥	قرشاً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	٤٠٠	باية
المراق	٣٠٠	فلس	٥	دينير
لبنان	٢,٥	ليرة	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلما	٥	راقم
سوريا				
المتاهرة				
السودان				
ليبيا				
مستط				
الجزائر				
تونس				
المغرب				

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٣,٠٠٠ " "

تحويل قيمة الاشتراك بالريال الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب. ١٩٢ الكويت

مطبوعة بحكومة الكويت

الشمس

٢٥٠ فلس